جارميات

بحوث ومقالات الشاعر
والأديب اللغوى

علي الجارم

تقــديم

بسم الله الرحمن الرحيم

آن يـــا شِعْـــرُ أن تُغَنِّى فـأرْسِلْ — مِن قَـــوافِيكَ مـا يَهُزُّ الـــوُجُــودَا
أسْكِتِ الصَّـادِحـاتِ يَهْتِفْنَ فى الـدَّ — وحِ وكُنْ فى عِشَـاشِهَـا تَغْـرِيـدَا
حَفِظَـتْ رَنَّـــــةً وقَـــــدْ رَدَّدَتْها — فـابْعَثِ اللَّحْنَ جـارِمِيًّا جَـدِيـدَا

(على الجارم)

أيها القارئ الكريم

عندمـا كنت أجمع شعر الـوالد المرحوم الشـاعر الكبير على الجارم، لكى أعيـد طبع ديوانـه الذى قامت بطبعـه «دار الشروق» فى طبعته الأولى عـام ١٩٨٦ ، والثانية عـام ١٩٩٠ ، وعندمـا كنت أعيد طبع قصصه النثرى الأدبى التاريخى وطبعته «دار الشروق» أيضًـا فى كتاب «سلاسل الـذهب» الذى صدر عـام ١٩٨٩ ، وعندما قرأت كتـاب «على الجارم باحثًا وأديبًـا» للأستاذ المرحوم الشـاعر الأديب اللغوى محمـد الغزالى حـرب ، والذى قامت بطبعـه ونشره دار الفكر العـربى عام ١٩٨٨ ، أحسست بواجبى الملح فى أن أجمع تراثه البحثى اللغوى والأدبى والذى نشره فى المجلات الأدبية المختلفة فى ذلك العهد أو فى مجلة مجمـع اللغة العربية ، والذى كـان عضوًا به منذ إنشـائه عام ١٩٣٣ ، وحتى يكتمل نشر تراثـه الأدبى كامـلا من شعر ونثر وبحـوث لغوية وأدبيـة فى المكتبة العـربية ، وحتى يطَّلِع الجيل الحالى على مـا كتبه هـذا العمـلاق الذى لا يتكـرر، ونبين عظمـة العهد الأدبى الـذى عـاشه ومـدى ازدهـاره ، ولكى يسهل على دارسى الأدب إعـداد دراسـاتهم وبحـوثهم الأدبية أو التـاريخيـة . وطـالما تردَّدَتْ فى خـاطرى وأنا أجمع هذه البحـوث ـ أو هذه الكنـوز ـ الأبيات التى رثى بها ثلاثـة من أعضاء المجمع عـام ١٩٣٩م ، وهـم المرحومـون : أحمد الإسكنـدرى وحسين والى والمستشرق نِلِّينو الإيطـالى ، وأدركت مدى صدق ما قاله حينئذ على ما كنت أجمعه من تراثه :

أَتُدْفَنُ فى الأرضِ الكُنوزُ وفوقَها — خَلاءٌ إلى لألائِها جِدُّ مُمْلِقِ؟

ويَمضِى الحِجَا ما بينَ يومٍ وليلةٍ — كَلَمْحَةِ طَرْفٍ أو كَومْضَةِ مُبْرِقِ

يَضيقُ فضاءُ الأرضِ عن هِمَّةِ الفَتَى — ويُجْمَعُ فى لَحْدٍ من الأرضِ ضَيِّقِ

وعندما أسترجع ما سَجّله بعض معاصريه فى كتاباتهم عن أدبه وعلمه ونبوغه، أشعر باللوم الذاتى الشديد لتقصيرى فى نشر هذا التراث حتى اليوم.

ففى كتاب «تيسير الكتابة العربية»(١) الذى نشره مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٦م والذى يضم مُقترحىْ المرحومين عبد العزيز فهمى باشا وعلى الجارم بك عُضوىْ المجمع فى تيسير الكتابة العربية، جاء فى صفحة ٩٢ على لسان عبد العزيز باشا فهمى قوله: إنه (أى على الجارم بك) أستاذى وأستاذ غيرى فى النحو والصرف ورسم الكتابة غير منازع، والطاعة والتسليم واجبان له.

كما أشاد المرحوم الدكتور حافظ عفيفى باشا فى كتابه «على هامش السياسة»(٢) بكتاب النحو الواضح والبلاغة الواضحة، وحيّا المؤلفين الرائدين العظيمين لهذه الكتب (وهما المرحومان على الجارم بك ومصطفى أمين بك)، وهنأهما فى غبطة وارتياح بطريقتهما الفَذّة المبتكرة فى التأليف والبحث لأنها طريقة تربوية مُشوّقة عمادها الأول: «إيراد الأمثلة الحديثة التى يجدر بالتلميذ أن يستعملها فى أحاديثه وشرح هذه الأمثلة ثم استخلاص القاعدة أو القواعد منها وهى طريقة بيداجوجية حديثة».

ويقول الأستاذ إبراهيم مصطفى مؤلف كتاب «إحياء النحو»(٣): أراحت كتب النحو الواضح مئات من المعلمين ويَسّرت على ألوف من المتعلمين، وأزاحت عن هذا العلم ـ علم النحو ـ سُحبًا من النفور والكراهية كانت تحيط به وتصد المتعلمين. ثم شاعت فى البلاد العربية وصارت كالمنهاج لتعليم النحو، وأحدث أسلوبها فى الشرح والتأليف مدرسة أخذ المتعلمون يتبعونها يؤلفون على مثالها محاكين أو مقلدين.

وجاء فى تقديم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد لديوان على الجارم(٤) قوله: فهو أديب وافر المحصول من زاد الأدب أو زاد الرواية الأدبية من قديمها إلى حديثها ومن مبتكرها إلى منقولها، وهو عالمٌ باللغة وعالمٌ مع اللغة بفنون التربية وفروعها، وهو الشاعر الذى زَوّده الأدب والعلم بأسباب الإجادة والصحة فكان شعره زادًا لطالب البيان فى عصره ومثالا صالحًا للثقافة التى أسهم فيها بأدبه وعلمه.

---

(١) يوجد هذا الكتاب فى مكتبة مجمع اللغة العربية.

(٢) كتاب على الجارم باحثًا وأديبًا للأستاذ محمد الغزالى حرب. نشر دار الفكر العربى عام ١٩٨٨ ص ١٩.

(٣) كتاب على الجارم باحثًا وأديبًا للأستاذ محمد الغزالى حرب. نشر دار الفكر العربى عام ١٩٨٨ ص ١٨.

(٤) ديوان على الجارم. الطبعة الثالثة. الدار المصرية اللبنانية.

وجاء فى كلمة الأستاذ المرحوم أحمد العوامرى بك عضو مجمع اللغة العربية فى رثائه للمرحوم الجارم قوله[1]: «كان عضوًا ناشطًا فى مؤتمر المجمع ومجلسه ولجانه، قويّ الحجة ساطع البرهان، تسعفه ذلاقة لسان، وقوة بديهه، وشِدّة عارضة، وتزينه تؤدة فى القول، ورزانة عند الجدل، وهدوء فى النقاش، وكان ـ رحمه الله ـ من دعائم «لجنة الأصول» وهى اللجنة التى زوّدت المجمع ـ ولاسيما فى عهده الأول ـ بالقواعد التى يقوم عليها التعريب والاشتقاق، والتضمين والنحت والقياس، إلى غير ذلك. وأعضاء هذه اللجنة يتوفرون على دراسة كتب الأئمة وأقوال المجتهدين فى اللغة، ويستخلصون منها ما ييسّر عمل اللجان الأخرى، كلجنة الطب ولجنة الطبيعة، ولجنة الكيمياء، إلخ . . . وكان ذلك يقتضى عناءً، ويقتضى سهرًا ومراجعة دقيقة. وكم كان للجارم فى هذه اللجنة، وحول تلك المباحث والأصول، فى جلسات المجمع من أخذ ورد. وكم كان له فيها من محاورات ممتعة ومناقشات شائقة. فلم يكن من أصل إلا له فيه دراسة، ولا قاعدة إلا له فيها كلام. والمتتبع لمحاضر المجمع منذ إنشائه يعجب لما للجارم فيه من نشاط متصل وما له من جهد دائب فى كل ما تناوله من بحوث وما انتهى إليه من قرارات.

وجاء فى كلمة الأستاذ أحمد أمين بك عضو مجمع اللغة العربية فى رثاء الشاعر على الجارم بك قوله[2]: «وكان ـ رحمه الله ـ ذوّاقًا طروبًا، يتذوق المعنى الجميل والفكرة البديعة والنكتة الرائعة، فيطرب لها أشد الطرب ويشيع طربه فى كل من يجالسه. وله حكم صائب على ما يقرأ وما يسمع، يُقوِّمه تقويمًا دقيقًا وينقده نقدًا صحيحًا. ثم هو لا يتعصّب لرأيه، فإذا سمع ما يخالفه أصغى إليه فى أناة، وفكر فيه فى سماحة، وإذا اقتنع بصوابه أعلن عدوله عنه فى صراحة. له أثر كبير فى كل هيئة ينتسب إليها، وفى كل عمل يتجه إليه. اتجه إلى تبسيط النحو والبلاغة فبسطها فيما ألّف من كتب. وكان حركة دائمة فى المجمع اللُّغوى؛ يشترك فى وضع المعجم الوسيط، ويشرف على إخراج مجلّته، ويساهم مساهمة فعّالة فى أكثر لجانه. وآخر ما فعل فيه إلقاؤه محاضرة قيّمة عن الموازنة بين الجملة فى اللغة العربية وفى اللغة الأوروبية، والسبب فى أنها أكثر ما تكون فِعليّة فى الأولى واسميّة فى الثانية، ثم مناداته القوية فى إصلاح الإملاء. واشترك فى لجنة مناهج اللغة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية، فكان من أكثر الأعضاء عملاً ونقدًا واقتراحًا وإصلاحًا.

وقد جمعت مادة هذا الكتاب الذى يشتمل على المقالات والبحوث التى نشرها الشاعر والأديب والعالم اللغوى المرحوم على الجارم مُرتَّبة ترتيبًا تاريخيًا. ولا يفوتنى أن أشكر العالم الأديب الأستاذ محمد مهدى علام نائب رئيس مجمع اللغة العربية لتشريفه هذا الكتاب بكتابة مقدمته.

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية المجلد السابع عام ١٩٥٣م.
(٢) مجلة الثقافة عدد فبراير ١٩٤٩م.

ولا يسعنى وأنا أختم هـذا التقديم سوى أن أستعير قـوله[1] فى دار العلـوم عـام ١٩٢٧م، وهى الكليـة التى ارتبط بها دارسًـا ثم أستـاذًا فعميدًا حتـى أن وصل إلى المعاش لبلـوغـه سن الستين عـام ١٩٤٢م:

فكأنِّـى أرى الـــزمـــان وقـــد دا — ر وعـــاد الصِّبـــا نضيرَ الإهـــابِ
وأرى الجارمَ الفَتِيَّ يقـــودُ الـــ — حشْـــدَ فى جَحْفَلٍ من الطُّـــلابِ
واثِبًــا لاهِيًــا لعـوبًــا ضَحـوكًــا — غيرَمـــــا واجِلٍ ولا هَيَّـــــابِ
واثِقًـا بـالإلـهِ، ليس يَـرَى الصَّعْـ — ـبَ سوَى أن تهابَ خَوضَ الصِّعابِ
فهْـــو كـــالطـــائرِ الطَّليقِ فحينًـــا — فى وِهـــادٍ ومـــرةً فى هِضـــابِ
عـــابِثٌ بـالغصُـــون فى ظِلِّ رَوْضٍ — حَـــاكَ أفْـــوافَـــه مُلِـثُّ الـــرَّبـــابِ
يحمِلُ الكُتْـبَ فى الصَّبـــاح ولـــلاَّ — مـــالِ فى صَـــدرِه نَتيجُ العُبـــابِ
رَأسُـــهُ رأس مـالِـــه، وامْتِـلاءُ الـــرَّ — أسِ خَيرٌ من امتـلاءِ الـــوِطـــابِ

أستاذ دكتور أحمد على الجارم

القاهرة مارس ١٩٩٠

---

(١) ديوان على الجارم الطبعة الثانية. دار الشروق عام ١٩٩٠ ص ١١٨ .

مقدمة

للأستاذ الدكتور محمد مهدى علام
نائب رئيس مجمع اللغة العربية

على الجارم
صاحب هذا التراث

كنت فتى فى السادسة عشرة، يملؤنى الأمل، ويشجعنى على الإقدام، توفيق من الله تعالى فى سنوات دراستى الابتدائية والثانوية، حتى ذلك اليوم الذى تقدمت فيه لامتحان المسابقة فى القبول بدار العلوم (نوفمبر ١٩١٦). وكان نظام القبول فيها امتحانًا تحريريًا، فى فروع اللغة العربية، والمواد الاجتماعية، ثم شفويًا فى القرآن الكريم، وألفية ابن مالك حفظًا وشرحًا، والقراءة فى كتاب من كتب التراث، واختبار فى المعلومات العامة.

وعند ظهور نتيجة الامتحان التحريرى، وفق الله تعالى فكنت أول الناجحين، وتوجهت إلى لجان الامتحان الشفوى على الترتيب السابق. وسعد الفتى العاشق لدار العلوم بحصوله على أعلى الدرجات فى المادتين الأوليين، وانتقل متهللاً إلى اللجنة الثالثة، وكان عضواها الأستاذان عثمان بك لبيب، وعلى الجارم. وجلست أمامهما أرد على أسئلتهما (أو بالأحرى أسئلة الأستاذ الجارم). ثم ناولنى نسخة من كتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردى، فقرأت منه قدرًا يزيد على صفحة لم أخطئ فى كلمة منها. فقال لى الأستاذ الجارم: هذا كاف، ثم اتجه إلى عثمان بك لبيب، قائلا له بالإنجليزية: (Thirty seven)، فقلت له، فى جرأة الشباب، والثقة بالنفس: ولماذا تنقصنى ثلاث درجات وأنا لم أخطئ فى أى شىء؟ (النهاية العظمى ٤٠) فقال: أنت تعرف الإنجليزية، يا ولد! قلت: نعم. فضحك قائلا: اذهب فهذه درجة لم يحصل عليها أحد منى قط.

كان هذا أول لقاء لى مع الأستاذ الذى كان يملأ المجتمع المصرى يومئذٍ بشهرته الأدبية والشعرية .

وبعد أن عرفت أنه الجارم العظيم عدت إلى بيتى، وأعدت قراءة قصيدته التى كانت منشورة فى عدد قديم من أعداد مجلة (الهلال) وهو طالب بعد، وكانت ضمن مجموعة من المجلات التى كانت فى بيتنا إبّان صباى. وكانت عن (الكوليرا) التى انتشرت فى أوائل هذا القرن. كنت أحفظها قبل أن ألتقى بقائلها. ولو كنت أعلم من هو يوم أن جلست أمامه ليمتحننى، لأبلغته إعجابى (إعجاب فتى شاعر) بقوله فى تلك القصيدة، مشيرا إلى تشبيه الأطباء لمكروب (الكوليرا) بحرف الواو:

لستَ كالواو، أنت كالمنجل الحصاد، إن أحسنوا لك التمثيلا

كم فتاة طرقتها ليلة العُرسِ، وقبلَ الحليل كنت الحليلا!

يا أخا الاحتلال، آذيت بالنفس وبالمال، فالرحيلَ الرحيلا!

وبقيت الفترة المتبقية على بدء الدراسة (كان نظام «دَنْلُوب» المستشار الإنجليزى يقضى أن يبدأ العام، فى دار العلوم، فى أول يناير، وأن يكون الامتحان النهائى فى ديسمبر)، وأنا أتطلع إلى أن أنعم بأستاذية الرجل الذى علمت عنه بعد يوم الامتحان أنه لا يمنح الدرجة العظمى إلا نفسه؛ ولكن كان قد نُقل مفتشًا بوزارة المعارف قبل يناير ١٩١٧ .

وفى الفترات التى كانت بين المحاضرات كنت أسمع الطلاب القدامى يتناشدون قصيدته التى كانت بعنوان «الحب والحرب»، والتى مطلعها:

مالى فتنتُ بلحظك الفتاك!   وسَلوتُ كل مَليحةٍ إلَّاكِ!

وكنا نتبادل النصوص والمذكرات التى ندرسها، بطبعها على ما كان معروفًا، فى ذلك الوقت، باسم مطبعة الغِراء (البالوظة). ونسختى التى كانت من نصيبى من «الحب والحرب» لا تزال عندى بين أوراقى التى تسجل هذه المرحلة من حياتى.

وقبل أن أترك «مالى فُتنتُ بلحظكِ الفتاك» أذكر أننى بعد تخرجى وعودتى من إنجلترا، كنت أمتحن طلبة (البكالوريا) ـ شهادة إتمام الدراسة الثانوية ـ شفويًّا، فى القراءة والنصوص الأدبية (كان النظام يقتضى أن الذين ينجحون فى الامتحان التحريرى يمتحنون شفويًّا قبل إعلان النتيجة النهائية). وسألت أحد الطلاب عما يحفظ من الشعر، فانطلق مبتهجًا: . . . وقالت الآنسة أم كلثوم:

مالى فتنتُ بلحظك الفتاك!   وسَلوتُ كل مَليحةٍ إلَّاكِ!

فقد كانت أم كلثوم قد غنت جزءًا كبيرًا من هذه القصيدة، وكان صوتها يسمع من الأسطوانات التى سُجلت عليها، من نوافذ البيوت فى ليالى الصيف.

وقد لقيت الأستــاذ الجارم، بعد امتحانـه لى بنحـو العام، فى حـفل تأبين المرحــوم الشيخ حمـزة فتح الله، أول من عُيّن كبيرًا (عميدًا) للغة العربية فى وزارة المعـارف. كنت يوم هذا اللقاء طالبا فى دار العلوم، وفى يـوم التأبين اختاروا أوائل الفرق الدراسيـة، فذهبت لحضور الحفل الذى أقيم فى القـاعة الكبرى (بدرب الجماميز)، وهى القـاعة التى نشأت فيها (دار العلوم)، يوم أسسها على مبـارك باشا، باختيار عدد من نوابغ طلاب الأزهر، ليتلقوا العلوم العربية والشرعية والفنون الحديثة فى تلك القاعة. (ويحل محل المكان الآن المدرسة الخديوية بمبانيها التى فيها يسمى الآن شارع بورسعيد).

وفى ذلك الحفل برياسـة عدلى يكن باشا، وزيـر المعارف يومئذ، وعِليـة القوم من علماء وأدباء، سمعت الجارم حين صعد إلى منصة الخطابة، وبدأ يقول:

رُبَّ وَرْقــاء هَتــوفٍ فى الضُّحَى ذاتِ شجــوٍ صَــــدَحتْ فى فَنَنِ

وبعد هـذه القطعة القصيرة من الشعـر المأثور، أفـاض بخطبته الفـريدة، البارعـة النسج. وظل السـؤال الطبيعى معلقًا فى ذهنى نحـو عشر سنـوات: لماذا لم يقل الجارم يـومئذ شعـرًا؟ حتى أتيح لى شرف الجلوس معه ومحادثتـه، فسألته عن سر اتجاهه إلى النثر، بدل الشعـر، فى تلك الحفلة الخالدة، فقال لى: إنه كـان يومئذ مفتشًا ناشئـًا، لم يمض عليه فى وظيفته إلا بضعة أشهـر. ويبدو أن القائمين على إعداد بـرنامج الحفل الـذى كان فيه كبـار الشعراء، وفى مقـدمتهم حفنى بك ناصف ولم يـذكروا (الأستاذ الجارم) إلا فى الليلة السـابقة ليوم الحفل؛ ولذلك ـــ كما قال لى: خشيت أن أتعجل بقصيدة لا تضارع قصائد الحفل، فلجأت إلى لغة الخطابة. وهى منشـورة فى صفحات هذه المجموعة: رائعة من روائع الأدب العربى، تجمع بين جهارة اللفظ العباسى ورقة العصر الحديث.

وكان من حظى أن أدرس فى جـامعة إنجليزية، كـان قد سبقنى إليها بأربعة عشر عـاما. وكنت مـولعًا بـالشعر الإنجليـزى، ألقيه فى حفـلات الاتحاد الجامعية، ونـدوات الأدب؛ ولا أنسى وسامًـا شفويًا أهدته لى الأستاذة «وُوكَرْ» التى كانت فى الجامعة منذ أيام دراسة الجارم، لقد فاجأتنى، على إثر إلقائى لإحدى قصائد الشاعر «ووِرْدزوِرْث» بقولها: أنت تذكرنى بإلقاء الجارم.

ويشرف هذه المقدمـة أن أذكـر فيها علاقتى بدراسته لعـــلم النفس، وهى مادة تخصصه الأولى، كما كـانت لى كـذلك مـادة تخصصى الأولى (قبل أن تحتـوينى اللغـة والأدب، دون عقـوق «للحبيب الأول»):

لقد درست علم النفس، طالبًـا فى دار العلوم، فى أحد كتبه التى اشترك فيهـا مع زميله، أستاذى العلامة مصطفى أمين. وهو أول تأليف بالعربية فى علم النفس ـ وما سبق ذلك كان فى علم التربية ـ وكانت فصـول هذا الكتـاب «علم النفس» بينهما، كل فصل بقلم أحدهما، بعـد اشتراكهما فى تحديد

المعلومـات التى يعالجهـا الفصل. وكنت أنا وزميلى، الـذى كان يشاركنى فى معظـم نشاطى العلمى (المرحوم عبد الجواد معوض زيـدان)، نقارن أسلوبين فى فصول هذا الكتاب، فكـانت بعض فصوله تتدفق أدبًا رفيعًـا يعبر عن حقائق علم النفس كأنهاخطرات شاعر؛ على حين كـانت الفصول الأخرى تلتـزم بدقـة الأسلوب العلمى الـذى يكاد يـزن الحرف قبل الكلمات، ويعطى الحقائق العلميـة كأنها معادلات رياضية، وكان صـاحب الأسلوب الأول هو الشاعر الأديب، الضليع فى علم النفس، على الجارم؛ وكان صـاحب الأسلـوب الثانى هـو العالم الأستاذ فى مـادته، يعبر عنهـا فى أدق الصيغ، لا يستهويـه بيت شعر مثلاً يكـون معبرًا عن المعنى الذى يكتب عنـه، كما فعل زميله الجارم عندمـا كان يتكلم عن أثر الوحدة فى الشخصية فإذا ذاكرته تملى عليه قول الشاعر:

يا لَيتَنـى وأنتِ، يـا لَـمِيسُ،

فى بلـدٍ ليـس بـه أنيـسُ،

إلا اليَعافيـــرُ وإلا العِيـــسُ

كان المرحوم مصطفى أمين يـرى أن لليعافير والعيس مادة أخرى، يتكلم عنها فى مـوضعها. وقد عاش نموذجًا للدقة البالغة.

وظهـرت إحـدى طبعـات كتـاب علم النفس، وقـد كتب على رأس كل فصل من فصـولـه، فى الفهرس، اسم كاتبه. وعند اطّلاعنا على ذلك وجدنا أن ما قدرناه كان صوابًا.

ولهما كتابان آخران، هما: النحو الواضح، والبلاغة الـواضحة. وعندما أنظر فى هذين الكتابين، أشعر بهذه الظـاهرة متمثلة فى الشواهـد والأمثلة التى توضح كل قاعـدة نحوية أو بلاغيـة: فإذا هذه الأمثلة مزيج من حقائق الكون العلمية، وروائع الأدب الباهرة. فيها تعانق العلم والأدب.

وكما أن أثر الأدب والشاعـرية قد جمّل العبارات العلميـة فى أسلوب الجارم، لاحظتُ أن تخصصه الأول، وهو علم النفس، لم ينعزل عن طبيعته الأدبية حين يكتب فى موضوع علمى أدبى، كما نرى فى أحد بحـوثه المنشورة فى هـذه المجموعة تحت عنـوان «المعارضـات الشعرية»؛ فإنـه يمهد لهذا البحث بدراسة سيكولوجية عن المنافسة التى هى منشأ الشعور بالرغبة فى المعارضات. يقول صاحب الفصل الذى كتب فى كتاب علم النفس عن «الغرائز»:

«غريزة المنافسة من أقوى الغرائز الحيـوانية، وهى فى الإنسان أبين منها فى الحيوان وأظهر أثرًا، لأن الإدراك يزيدها قوة، ويستحثها إلى البروز والظهور. وإذا كـانت فى الحيوان غريزة عمياء، تصدر عن دافع آلى ولا تتجه إلى غـاية، ولا تعمل إلا عملاً تسوقهـا إليه الفطرة من غير قصـد، فإنها فى الإنسان غريزة مبصرة متعمدة، تعرف ما تأتى وما تذر، وترمى إلى هدف منصوب، وتركض لتناول القصب فى ميدان سباق الحياة».

«وتظهر المنافسة فى أنواع الحيون المنحط الإدراك فى التسابق إلى طلب الغذاء والاستئثار به . . . هذا شىء مشاهد فى الحيـوان لا مرية فيه ولا شك . . . أما غـريزة المنافسة فى الإنسان فإنها تلازمـه ملازمة الظل . . . » .

ويستمـر عالم النفس الأديب إلى أن يصل إلى ربـط غريـزة المنافسـة بغـريزة المحـاكـاة ، وبغريـزة الإحساس بالنقص . . . حتى ينتقل إلى موضوعه الأدبى العلمى .

وليس هذا إلا مثالاً واحدًا مما نجده فى بحوثه التى يحتضنها علم النفس .

لقـد سألنى أحـد النقاد ، منـذ سنـوات عـدة ، عن السبب فى أن خريجى دار العلـوم الـذين أتموا دراستهم فى إنجلترا لم يظهر لهم نقـد فى أحضان الدراسات النفسيـة ، وذكر أن أول ما صادفـه فى هذا الميدان بحوث وكتب لى . فأجبته بما هو فى الحقيقة نتيجة مـلاحظة لى : وهو أن الذين يتجه نقدهم إلى التحليل السيكولوجى ـ من هـذا الرعيل الذى أشار إليه ـ هم الذين كانـوا شعراء إلى جانب أنهم كانوا من علماء النفس ، وذكـرت له أننى أعـرف منهم ثـلاثة تحقق ذلك فيهم : أولهم على الجارم ، وثـانيهم محمد خلف الله أحمد ، «ولا تزكوا أنفسكم» .

وبعد ، فذكرياتى عن الأستاذ الرائد كثيرة ، وهذه ليست إلا مقدمة قصيرة لهذه المجموعة من تراثه الذى جمعه ابنه البار ، الدكتور أحمد على الجارم ، الأستاذ بكلية الطب بجامعة القاهرة .

وأخيرًا ، فهنـاك عبارة كـانت على لسانى دائمًا ، كلما اجتمع رعيل الـدرعميين ، وهى تُلِّح علىّ فى الظهور الآن . وأنـا أذكرها ــ على استحياء ـ لأننى كنت شديـد الملاحظة لعشرات الأساتـذة الأفاضل الذين أتموا دراسـاتهم العليا فى إنجلترا ، حين ينطقون أو يتكلمـون الإنجليزية ؛ وكنت أقـول (ومعذرة لهم جميعًا) : لم أجـد أحدًا مـا زالت لغته الإنجليـزية أسلـوبًا ، ونبرًا ، وتـدفقًا ، كأنـه عاد من إنجلترا أمس ، سوى اثنين : على الجارم ، وعبد الحميد حسن . رحمهما الله ، وأعز بذكراهما عشرات ، بل مئات من تلاميذهم(*) .

المعادى ١٦ من شعبان ١٤٠٨ هـ

٢ من مارس ١٩٨٨ م

مهـدى عـلام

(*) من أراد سيرة وافية عن الأستاذ الجارم ، فله سيرة فى كتاب «المجتمعيون فى خمسين عامًا» لكاتب هذه المقدمة .

تقديم الطبعة الثانية
بقلم الدكتور أحمد على الجارم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وخاتم المرسلين. وبعد.

فقد خصنى الله بفضل عميم لا أستطيع له ردًّا، وبخير كثير أعجز عن استيفائه حقه من الشكر والعرفان؛ إذ مكننى سبحانه وتعالى من إعادة طبع تراث الشاعر والأديب والعالم اللغوى المرحوم على الجارم من شعر فى «ديوان الجارم» ومن قصص أدبى فى كتاب «سلاسل الذهب» ومن مقالات وبحوث أدبية ولغوية فى كتاب «جارميات» مُفَوَّتًا على جبهة الحقد التى سيطرت على مقدرات الأدب فى مصر خلال الثلاثين عامًا التى تلت وفاة الجارم عام ١٩٤٩ تدبيرها و«مؤامرة الصمت» على شعره وأدبه، تلك المؤامرة التى يشرحها الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى فى كتابه «الجارم شاعر العروبة» ص ٩٦ قائلاً: أخشى أن تكون عروبة الجارم وإسلاميته وتصديه لأعداء العربية أهم أسباب هذا الهجوم الظلوم.

ولما آن لهذه الظلمة أن تنقشع، ولهذا الظلم أن يتولى ويرتحل وتتخلص مصر من هذه الوصمة السوداء بنهاية عصر البطش والطغيان، أخذت على عاتقى أن يأخذ تراث الجارم مكانه اللائق بأصالته ومكانته فى المكتبة العربية، وقد ساعدنى على ذلك أناس فضلاء أخشى أن أذكر أسماءهم فتخوننى الذاكرة وأنسى اسم أحد منهم، فلقد كانوا جميعًا شرفاء غاية الشرف وأمناء كل الأمانة

وصادقين كل الصدق، فقمت بإصدار الطبعة الثانية من بحوثه ومقالاته الأدبية بعد أن وصل عددها إلى ستين بحثًا فى الطبعة الثانية، بعد أن كانت خمسة وثلاثين فقط فى الطبعة الأولى ـ كلها منشورة ومدونة حسب تاريخ نشرها .

وعند قراءتك لهذا الكتاب فى طبعته الجديدة ـ أيها القارئ الكريم ـ سوف تجد بحوث الجارم اللغوية التى قدمها إلى مجمع اللغة العربية شاهدة له بمقدرته وتفرده وتمكنه من علوم العربية جمعاء، ثم تقرأ دراساته ومقالاته الأدبية التى تصور المناخ الأدبى المزدهر لمصر فى المرحلة التاريخية التى عاشها هو وأقرانه من الأدباء والشعراء والعلماء الذين وصفهم قائلا عام ١٩٤٥ :

فَشَدونَا عَنادِلاً هَزَّتِ الدَّهرَ   وكَادتْ تُلهِيهِ عَنْ حَدَثانِهْ
وصَحَا الشَّرقُ ناشِطًا يَجْبَهُ الدُّنيَا   وينْفِى النُّعاسَ عَنْ أجْفانِهْ
وكَتَبْنَا فى رَوعَةٍ وبيانٍ   يُقْسِمُ السِّحرُ: إنَّهُ من بَيانِهْ
مِنْ إمامٍ وشَاعِرٍ وأديبٍ   مُعْجِزاتُ الفُنونِ طَوعُ بَنانِهْ

دكتور أحمد على الجارم
المعادى ـ فبراير ٢٠٠٠

مرسوم (*)
بتعيين الأعضاء العاملين لمجمع اللغة العربية الملكي

نحن فؤاد الأول ملك مصر

بعد الاطلاع على المرسوم الصادر بتاريخ ١٤ شعبان سنة ١٣٥١ (١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٢) بإنشاء مجمع اللغة العربية الملكي؛

وبناء على ما عرضه علينا وزير المعارف العمومية، وموافقة رأى مجلس الوزراء؛

رسمنا بما هو آت:

مادة ١ ـ يُعيَّن أعضاءً عاملين بمجمع اللغة العربية الملكي كل من :

محمد توفيق رفعت باشا.

حايم نحوم أفندى.

الشيخ حسين والى.

الدكتور فارس نمر.

الدكتور منصور فهمى . . . عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية.

الشيخ إبراهيم حمروش . . . شيخ كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر.

الشيخ محمد الخضر حسين . . . الأستاذ بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر.

(*) نقل بنصه.

أحمد العوامرى بك . . . المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف العمومية .

على الجارم أفندى . . . مفتش اللغة العربية بوزارة المعارف العمومية .

الشيخ أحمد على الإسكندرى . . . أستاذ اللغة العربية بمدرسة دار العلوم .

الأستاذ هـ . أ . ر . جِبّ . . . بمدرسة لندن للدراسات الشرقية .

الأستاذ الدكتور ا . فيشر . . . بجامعة ليبزج .

الأستاذ ا . نلّينو . . . بجامعة روما .

الأستاذ م . ماسينيون . . . بجامعة فرنسا .

الأستاذ ا . ج . فنسنك . . . بجامعة ليدن .

محمد كرد على بك .

الشيخ عبد القادر المغربى .

الأب أنستاس مارى الكِرمِلّى .

عيسى إسكندر المعلوف أفندى .

السيد حسن عبد الوهاب أفندى .

مادة ٢ ـ على وزير المعارف العمومية تنفيذ هذا المرسوم .

صدر بسراى المنتزه فى ١٦ جمادى الثانية سنة ١٣٥٢ (٦ أكتوبر سنة ١٩٣٣) .

فــؤاد

بأمر حضرة صاحب الجلالة

رئيس مجلس الوزراء

عبد الفتاح يحيى

وزير المعارف العمومية

محمد حلمى عيسى

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد حسني مبارك

من محمد حسني مبارك رئيس جمهورية مصر العربية

إلى أسرة المرحوم الأستاذ علي الجارم ، رائد الشعر

والقصة في الأدب العربي الحديث

تقديراً لما اتصف به المرحوم فقيدكم من حميد الصفات وما قدمه للدولة

من جليل الخدمات قد منحنا اسمه وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى

وأمرنا بإصدار هذه البراءة إيذاناً بذلك .

تحريراً بقصر الجمهورية بالقاهرة في اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر

لسنة ألف وأربعمائة واثنى عشر من هجرة خاتم المرسلين

٣ نوفمبر ١٩٩١

رئيس ديوان رئيس الجمهورية

زكريا عزمي

التشطير العصرى (*)

قامت بيننا ناشئة الشعر الحديث لتشييد دعائم الشعر وتقويمه بعد الاعوجاج، وتطهيره مما لطخه به دعاة الزور وأئمة الباطل الذين ألهتهم الإبل الشـذقمية عن الحديث فى البخار والكهربائية. أغلقوا باب الشعر عليه وصفّدوه بأصفـاد الحجر واقتصروا على المعانى والمواضيع التى قالها الأول فيه، وليتهم أخلوهـا من وصمة تكلف البـديع الذى أضـاع جوهر البـلاغة وكـان حجابًا كثيفًـا بينها وبين الـرقة والانسجام.

الشعر جـديد بتجدد العصـور، متقلّب بتقلبها، وهو تـاريخ الأمة ومظهر آدابها وعـوائدها، فلما أضاعه هؤلاء بين الأعراب فى البوادى يمتطى القلاص ويقـاسى حر الحجاز، قامت هذه النشأة يقول قائلها:

آن يـا شعـر أن نفـك قيـودًا ... قيـدتنـا بهـا دعـاة المحـال

والحق يشهـد أنهم فكوا قيـوده وأطلقـوا سراحه يمـرح بين المتنزهات والأنـديـة كيف شاء، وقـد أسمعنى أحد رجال هذه النشأة قصيدة عصرية لـرب البلاغة سعادة إسماعيل باشا صبرى، ورأى أن تشطيرها إذا جرى مجراهـا واتبع طريقها كان له الـواقع الحسن بين شعراء العصر، ثم حملنى على ذلك ليكـون أول تشطير عصرى لشعر عصرى جـديد، ففعلت ورجـائى أن تتفضلوا بنشره، وهـو: (راجع القصيدة فى ديوان على الجارم، الطبعة الثانية بدار الشروق، الجزء الأول، ص ٢٢٩).

على الجارم

من طلبة الأزهر

(*) نشرت بالمجلة المصرية عدد ١٤ فى ١٥ فبراير ١٩٠٥ من ص ٥٨٩ إلى ص ٥٩٢.

العـادة (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه.

﴿رب اشرح لى صدرى. ويسر لى أمرى. واحلل عقدة من لسانى. يفقهوا قولى﴾. ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾.

أيها السادة، إن المتصفح لكتب الأخلاق التى دونها العرب لا يجد فيها بابًا خاصًا بالبحث فى العادة وتأثيرها، ولكنه ربما عثر على شذرات تجىء هنا وهناك، قد لا تبل غليل الطالب الحريص على اجتناء كل طارفة ترتبط بموضوع العادة وتتصل بسببه. يعجب المرء منا ويتساءل: كيف ساغ لهذه العصور الخالية التى كانت تموج بالفلسفة والعلم أن تمر من غير أن تترك وراءها حديثًا عن العادة التى هى أس الأخلاق وعماد العمران؟ كيف صح أن يترك العرب موضوعًا مكانته فى الحياة هذه من غير أن تخط أقلامهم فيه شيئًا يكون نبراسًا للمهتدين وسبيلاً واضحة للسالكين؟

هكذا يتساءل السائلون، ولكنهم لو درسوا المسألة درس من يرجع بالشىء إلى مصدره الأول لظهر لهم سبب إغفال هذا الموضوع والسكوت عنه. لم يخصص العرب بابًا للعادة لأنهم لم يربطوا علم الأخلاق بعلم النفس، وإنما كان همهم أن يكتبوا أبوابًا حافلة فى تحبيذ الفضائل والدعوة إليها والتنفير من الرذائل والنهى عنها، من غير أن يبينوا الصلة المتينة بين هذه الصفات وبين الخواطر العقلية والغرائز النفسية وقوة الإرادة والعادة أو يمحصوا الوسائل والطرائق التى تنمو بها الفضيلة فى النفس والتى بها تخبو نار الرذيلة الموقدة، فكانوا فيما يكتبون أشبه شىء برحالة يصف لسامعيه مدنًا عدة رآها من غير أن يشرح لهم الطرق إليها، والزاد والذخيرة التى تقوم بحاجة من يبتغى الضرب فى سبيلها.

فعل العرب كل ذلك لأن علم النفس لم يكن بالغًا أشده حينئذ، ولم تكن نظرياته ميدانًا لأقلام

(*) محاضرة ألقيت فى نادى موظفى الحكومة عام ١٩١٥ ونشرتها مطبعة البيان وتوجد بمكتبة جامعة القاهرة.

الباحثين، اللهم إلا بعض مباحث علم النفس ومظاهرها ترجمها العرب من فلسفة اليونان، وصدر بها بعضهم بعض كتب الأخلاق. لهذا أغفل العرب الكلام فى العادة لأنها أشد التصاقًا بعلم النفس منها بعلم الأخلاق، ولذلك ترى أن الفرنج قد بوّبوا لها مرتين: مرة فى كتب علم النفس، ومرة فى كتب علم الأخلاق. أقول كل ذلك وإنى أتوجس خيفة من أن يجيش فى نفس واحد منكم أنى أنقصت من فضل العرب أو نلت منهم، معاذ الله. إنى عربى وأحب العرب، غير أن الحقيقة يجب أن تقال، والمواربة فى العلم عقوق للعلم. على أنه لا تثريب على العربى إذا جهل حقيقة عرفناها نحن فى القرن العشرين بعد جهاد طويل. ونحن لا نزال عيالاً على العرب فى كثير من العلوم التى يهتز لها عطف ابن البادية عجبًا حينما يذكر أن آباءه أول من ولجوا سبيلها وطرقوا أبوابها.

غير خاف عليكم، أيها السادة، أن الإنسان ينشطر إلى شطرين: جسم وروح، ولكل من هذين علم يبحث فى تقويمه ورفاهه. فالعلم الذى يشفى الجسم من أدوائه وينقذه من آلامه هو علم الطب. والعلم الذى يغسل عن النفس أدرانها ويطهرها من الجراثيم القاتلة هو علم الأخلاق. ولكل من هذين العلمين علم يعتمد عليه ولا تقوم قائمته إلا به. فعلم الطب لا بد أن يُبنى على علم وظائف الأعضاء، وعلم الأخلاق يجب أن يؤسس على علم النفس ويجرى معه كتفًا لكتف، فدراسة أحدهما بدون الآخر ضرب من الهذيان ومحاولة للمحال.

إن الخلقى الذى يهمل علم النفس لا يصيب فى الحكم على كثير من الأمراض النفسية، وكثيرًا ما تخدعه الظواهر الباطلة. يرى ذلك الخلقى طفلاً رزينًا قليل الحركة والصياح، إذا جلس فى موضع لم يغادره إلا بعد زمان طويل، فيحكم بأن ذلك الطفل مهذب الطبع دمث الأخلاق طاهر النفس، ولكنه لو علم شيئًا من علم النفس لجزم بأن ذلك الطفل مريض من الوجهة النفسية، لأن غريزة الحركة التى هى عماد هذه الحياة وغريزة الاستقلال بالرأى التى هى أساس كثير من الفضائل، خامدتان فيه يجب العناية بهما، ولصاح: أنجدوا الطفل فإنه مريض، وإنكم إن تركتموه رميتم البلاد برجل إمَّعة تِكِلة، قليل العمل، ضعيف النكاية والرأى. هذا وإنى أخشى أن أكون قد أطلت عليكم فى هذه المقدمة، وهاأنذا مبتدئ الموضوع الذى وُعدتم بسماعه.

إن كل فرد منا عبارة عن مجموعة عادات عملية ووجدانية وعقلية، وهذه العادات منظمة بإحكام لسعادة الإنسان وشقائه، ودافعات لنا قسرًا إلى ما كتب علينا أن نناله فى الأزل.

والذى جعلنا خاضعين لقانون العادة هو مجرد أن لنا أجسامًا. فإن رخاوة المخ هى السبب فى أننا نفعل الشىء بجهاد وصعوبة أولاً، ثم يسهل فعله بالتدريج بعمله مرارًا، حتى تنتهى بنا الحال إلى أن نفعله بدون أن نوجه إليه شيئًا من العناية والتفكير. ومثل ذلك مثل الأمطار تسقط أولاً فوق الجبل فيتخذ له الماء مسيلاً، ثم تسقط ثانية فينحت الماء فى الأرض بعض الشىء، ويزيد عمق ذلك المسيل قليلاً، حتى إذا توالى تهطال الأمطار اتسع ذلك المجرى وصار نهرًا عظيمًا.

يقول الأستاذ كاربنتر (Carpenter) : إن مخ الطفل ينمو على الطريقة التى مرن عليها، كما الثوب إذا طوى على شكل خاص مرارًا بقيت أطواؤه على مر السنين.

من هذا تبين لكم صدق ما تلوكه الألسنة «العادة طبيعة ثانية» أو هى كما قال ولينجتون (Wellington) فوق الطبع قوة وأثرًا. ولست تاركًا هذه المقالة لولينجتون من غير أن أناقشه الحساب فيها، فإن أراد أن العادة فى الأطفال تقهر الطبيعة، فذلك ما لا سبيل لنا إلى تصديقه؛ لأن ذلك الحيوان الصغير لا يزال على نضارته الأولى، فلم تغير صبغة الله فيه عوامل العادة ولم يجد التكلف إلى نفسه سبيلاً، فهو صورة طاهرة من صورة الطبيعة الجميلة.

وإن أراد العادة فى الرجال، فذلك حق لا مراء فيه، يشاهد عيانًا فى كل يوم. إن الرجل وعاء لكثير من الطبائع والغرائز التى لو أطلق لها العنان لشابه فى كثير من أطواره الحيوان الأعجم، ولكنه بالعادات الاجتماعية والآداب العامة يقهر هذه الطبائع ويكبح جماح هذه الغرائز، وما يفعله المجانين الذين تتغلب فيهم العادة على الطبيعة يدل على ما استطاعة إخوانهم العقلاء أن يفعلوه لو أنهم أطاعوا الطبيعة ولم يقفوا فى سبيلها.

ولا نكون راكبين متن الشطط والإغراق إذا قلنا إن أعمالنا العادية لا تنقص عن تسعمائة وتسعة وتسعين جزءًا من كل ما نقول ونفعل. إن معظم ما يصدر عن الرجل منكم من حين أن يهب من مرقده صبحًا إلى حين يدلف إليه ليلاً، ليس إلا عادات محضة لا مجال للتفكير فيها. اللبس والخلع، الأكل والشرب، السلام والوداع، تعرُّف الوجوه، القيام والجلوس. كل هذه صارت بالعادة آلية محضة، ولقد أعدت لنا العادة لكل سؤال جوابًا حاضرًا لا نحتاج فيه إلى إعمال الرأى.

فنحن كما ترون إبالات عادات، وجعاب تقليد. وليس كل فرد منا إلا مقالة يكتبها الماضى وينشرها تباعًا. فوجب إذًا على المعلمين والمربين منكم أن يطبعوا فى نفوس من عهد إليهم أمر تربيتهم ضروبًا من العادات التى تكون لهم حقًّا عضدًا ومعينًا فى مستقبل الأيام.

إن العادة فى الصغر درع حصينة ترد غوائل المستقبل وتذلل صعابه. قرأت حديثًا فى إحدى الجرائد الإنجليزية أن حلاقًا كف بصره واستمر يزاول عمله، إلا أنه بعد البحث وجد أنه يجيد حلق رءوس حرفائه الذين اعتاد شكل رءوسهم حين كان مبصرًا ويخطئ فى قص شعر كل حريف جديد.

روى منتن - أحد العلماء الفرنسيين - أن فتاة فرنسية كانت ولوعة بعجل صغير، وكانت تحمله كل يوم شغفًا به. وهكذا كان العجل ينمو كل يوم فلا تشعر بزيادة فى ثقله، إلى أن انتهت بها الحال إلى أنها كانت تحمله وهو ثور كبير. فانظروا فى معجزات العادة واتقوا الله فيمن تعولون.

ونحن الآن متكلمون فى العادة العملية وفوائدها أعظم من أن يشرحها لسان، فهى التى تمكننا من عمل الشىء بلا عناء مع السرعة والإتقان. نبتدئ الشىء فنعمله بعناية ونوجه فكرنا إلى كل جزء من أجزائه أثناء العمل، حتى إذا صار عادة لم نُضع فيه وقتًا طويلا ولم نعطه فكرًا وأخرجناه للناس متقنًا.

ولا تقتصر هذه السرعة وذلك الإتقان على عمل شيء خاص فى حرفة مثلاً بل إن العادة تجعل نوع العمل سهلاً فالنقاش يمكنه بالعادة أن ينقش شكلاً لم ينقشه من قبل لأن يديه وعينيه تعودت ومرنت على النقش وإن لم تمر على خاصة هذا الشكل .

وهذا صحيح أيضًا فى العادة العقلية فإنا إذا أعيتنا مسألة فى الرياضة ذهبنا بها إلى الخصيص بهذا الفن فحلها فى طرفة عين .

وتأثير العادة العملية فى الإنسان ظاهر لكم ترونه كل يوم فى أنفسكم وفى غيركم وقد يؤدى ذلك التأثير إلى نتائج مضحكة . فى أول إقامتى فى إنجلترا كانت الكلمة الوحيدة التى نالت حظوة عند نحى واتخذت منه مكانًا خاصًا كلمة (Thank you) (شكرًا) كنت أقولها إذا أعطانى أحد شيئًا أو سأل عن صحتى أو أدلى إلى بنصيحة فرسخت عادة الجواب بهذه الكلمة فى نفسى، فبينما أنا فى غرفة نومى ذات ليلة وقد أردت إطفاء المصباح الكهربائى، فأدرت الزر فانطفأ، فسمعت صوتًا صدر منى بدون فكر يقول للمصباح (Thank you) .

كان أحد عساكر البوليس يخاطب رجلاً فى دار المديرية بواسطة التليفون فقال الرجل للعسكرى: هل العمدة هنا ؟ فقال العسكرى: من أنت ؟ فجاء الجواب أنا المدير فما كاد يصل الصوت حتى طرح العسكرى السماعة وأخذ السلام العسكرى لسعادة المدير .

وللعادة تأثير فى الحيوان الأعجم لا يخفى على حضراتكم . كان من عادة الحرس الملكى لبعض ملوك إنجلترا أن يخرج كل ليلة على ظهور الخيل حينما تدق الساعة الثانية عشرة للطواف حول القصر فأخذت الحرس غفوة ذات ليلة فلما دقت الساعة إثنى عشرة ، سارت الخيل بأنفسها وطافت حول القصر، ثم رجعت إلى أعطانها .

وقد تدهشون لهذه العادة إذا علمتم أنها تؤثر فى النبات والجماد أيضًا . إن النبات إذا عود السقى كل يوم ثم نقضت العادة وأهمل أيامًا ذوى وذبل . وإن ريشة الضراب (ضارب المزهر) قد يكمن فيها شيء من العادة الراسخة فتصدر أصواتًا خاصة لا يمكن لريشة أخرى أن تصدرها .

هذه هى آثار العادة فى العمل . ولو لم يكن لنا من حظ الحياة إلا هذه العادة العملية لما كنا بالمخلوق ذى الشأن فى هذه الحياة . يقول بعض فلاسفة الإنجليز إذا لم تكن العادة إلا وسيلة لغرس قدرة على الأعمال الجسمية فإن حياتنا تصبح عبارة عن أعمال خالية من التفكير والرأى ويكون آخر ما نصل إليه فى ذلك لا يزيد عن أول ما يعمله النحل والنمل أو بعبارة أخرى فإن حياتنا تكون خلوًا من الروح العقلية والخلقية .

فيجب إذًا أن يضاف إلى الحياة العملية ضروب من العادات العقلية والخلقية التى تحلق بالرجل فى جو كله طهارة وسلام وتبعث فى نفسه الحكمة وسداد الرأى وطهارة الأعراق وهذا ما يختص به الإنسان دون الحيوان الأعجم وهو الفارق بين الغريزة العمياء؛ غريزة النحل والنمل وبين العادة المبصرة التى ترمى إلى تكوين خلق عظيم .

يولد المولود ـ أيها السادة ـ وليس لديه من عوامل الطبيعة معين ولا نصير . يولد وليس له من الغرائز ما يساعده على حفظ كيانه ثم يقضى بعد ذلك زمنًا طويلاً كله كد وعناء قبل أن يقف على رجليه أو يعتمد على حائط . لماذا لم يثب الطفل بعد ولادته ويجرى هنا وهناك فى أنحاء المنزل باحثًا عن القوت الذى هو قوام حياته ؟ إن فرخ الدجاج لا تكاد تنفلق عنه قشرة البيضة حتى تراه يجرى وينبش الأرض بمنقاره باحثًا عما يقتات به . أليس الفرخ أسعد حالاً وأرخى بالاً من ذلك الطفل المسكين ؟ نعم قد تكون الحال كذلك لولا وجود عادات تنمو فى نفس الطفل بالتدريج فتقوم أخلاقه وتهذب من آرائه . فمثل الفرخ مثل الرجل يقرأ قصيدة بسرعة مدهشة ولكنه لا يحيط قلامة ظفر بمعناها ، ومثل الطفل كمثل الرجل يقرأ نفس القصيدة ببطء وترو كلمة كلمة فلا يتركها إلا وقد فهم غوامضها واستخرج كنوزها .

إن الغرض من التربية ـ أيها السادة ـ هو غرس العادات الفاضلة فى النفس ولا يكون ذلك إلا بعد أن تطبع فى المخ آثارًا لكثير من خير الأعمال التى يصيرها المران عادات ثابتة وملكات راسخة . أرأيتم أتعس وأشقى من ذلك الرجل الذى يحتاج إلى إعمال الفكرة فى كل شىء ؛ فى إيقاد سيجارته ، فى الشرب من كوبه . فى هبته من مرقده ، فى ذهابه إليه . وفى المشى وفى الكلام ؟ فإذا كان فى حضراتكم من ينقصه عادة من العادات الضرورية فى الحياة فليسرع إلى تكوينها من الآن .

ولقد ذكر الأستاذ بين (Bain) عند الكلام فى العادة الخلقية قاعدتين يجدر بى أن أطرف بهما سامعى الكرام .

﴿ القاعدة الأولى ﴾

يجب عند تكوين عادة صالحة والنزوع من عادة فاسدة أن ندرع أنفسنا بعزيمة ثابتة وإرادة لا تندك أمام وساوس الشهوات ، فاجمعوا فى نفوسكم كل عمل ممكن أن يمد جيش أغراضكم العالية . ضعوا أنفسكم فى مواطن تكون واقعة إلى تشجيعكم وتعزيز ما عزمتم عليه . اجتنبوا مواطن الشبهات التى قد تنقض عقدة إرادتكم فإنكم إن ثبتّم مرة أمام داعى الشيطان فقد نجوتم من صولته مرة ثانية . أعلنوا بين إخوانكم وعشيرتكم كل ما عقدتم العزيمة عليه فإن ذلك أقوى للإرادة وأدعى للثبات .

ذكر الأستاذ جمس (James) أنه قرأ مرة إعلانًا فى جريدة تصدر فى أستراليا يقول فيه صاحبه : إنى أعطى كل من وجدنى فى حانة جائزة مقدارها كيت وكيت ، وإنى أفعل ذلك لأنى عاهدت زوجتى على الا أشرب الخمر فمثل ذلك الرجل حقيق بأن يتخلص من عادة الإدمان وينجو من براثنها ، ولقد عرف زياد بن أبيه من قبل ضرورة إعلان العزم ووضع الغرم على نقضه ، حين يقول فى خطبته البتراء «إن كذبة الأمير بلقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى » .

فقد أباح لهم معصيته إن هو أخلف ما أوعدهم به وهى مخاطرة من زياد لا يجد له منها محيصًا إلا التمسك بعزمه .

﴿ القـاعدة الثانيـة ﴾

لتكن عـزيمتكم مطردة ، وإيـاكم وأن تـدعـوا استثناء يتسرب إليهـا ؛ فإن استثنـاء واحدًا يشبـه الديناميت الذى ينقض فى لحظة واحدة الجبل الذى بنته الطبيعة فى قرون وأجيال .

إن العادة الخلقية فى مبدأ التكوين تستلزم وجود قوتين ؛ قوة الفضيلة وقوة الشهوات ، وكل قوة من هاتين تناوش الأخرى وتجالد ، لتكون ربة السلطان والقوة ، فكل انتصار لجيش الشهوات يوقع الرعب والفزع فى جيش الفضيلـة ويفت فى ساعـده . فيجب علينا أن نحفظ قـوة الموازنة بين هـاتين القوتين حتى يقوى جـانب الفضيلة بالتكـرار، وتكون كفـؤا لأن تنقضّ على جيش الغرائز الشهويـة وتنكل به تنكيلاً ، ويمكن أن نضيف قواعد أخرى منها :

﴿ القـاعدةالثالثة ﴾

يجب أن تغتنمـوا الفرصـة التى تمكنكم من عمل الشيء الذى عـزمتم عليه مـا استطعتم إلى ذلك سبيلا ؛ لأن العادة لا تأخـذ مكانها فى المخ بمجرد النية وعقد العزيمـة ، وإنما تثبت هناك بعد العمل والمران . إن الحكم والنصائح ووصـايا المحنكين من الـرجال لا تجديكم نفعًـا ولا تغنيكم فتيلاً ، إذا لم تقبضوا على ناصية كل فرصة تدعو إلى العمل ، والإنجليز يقولون فى أمثالهم « جهنم مرصوفة بكثير من الأمانى الحسان . تلك الأمانى التى لا يعززها عمل ولا تأخذ بيدها إرادة » .

يقـول الأستـاذ مل (Mill) : الأخـلاق ليست إلا إرادة مهـذبـة : ويـريـد بـالإرادة هنـا مجمـوع استعدادات نفسية تهب من مرقـدها للعمل عند سنوح الفرصة . أقـول هذا وإنى لم أر أقل مروءة ولا أضعف نكايـة من ذلك الصنف من الرجال الـذى ترونه وكله إحسـاس ؛ ينطق بالحكمة ويـدعو إلى الخير ويقضى يومه وليله فى أحلام ويعيش فى جـو من الخيال ، ثم يقضى حياته بين الشك والترديد ؛ لا يعمل عملاً ولا ينال أملاً فهو فى كل حين يقلب كفيه وينشد :

إلى الله أشكو أن فى النفس حـاجة　　　تمـر بهـا الأيـام وهـى كمـا هيـا

﴿ القـاعدة الرابعة ﴾

وذلك يقودنـا إلى قاعدة رابعـة وهى إذا وكل إليكم أمر التربيـة فلا تخطبوا كثيرًا بين تـلاميذكم بل اربضوا منتظرين الفرصة العملية ، فإذا سنحت فانقضـوا عليها كما ينقض الأسد من عرينه ، وانسابوا نحـوها كما ينســاب السهم ودعـوا تلاميـذكم يفقهون الشيء ويشعـرون بـه ثم يعملونـه . إن الخطب والنصائح كثيرًا ما تكون مدعاة للسآمة ومدرجة للمخالفة والعصيان .

ولنبين لكم ضرورة العمل فى تكوين العادة بما كتبه دارون (Darwin) عن نفسه قال :

« كنت إلى الثلاثين من عمرى أحب الشعر بضروبه المختلفة وأعده منبعًا لسعادتى ، وكنت أطرب ويهتز عطفى لشعر شكسبير؛ خصـوصًا ما يختص منه بالتاريخ . ولقـد كان للموسيقى تأثير كبير فى

نفسي، أما الآن فإنى لا أطيق الشعـر، حتى لقد حاولت من أيام قـراءة شكسبير فرأيته مملاً ضـاق به احتمالى، أما الموسيقى والصور فقد ذهب مـا كان لها من الروعة والتأثير فى روحى، وإنى أتهم فى ذلك طول مـزاولتى للعقليات التى صيرت عقلى آلـة تطحن قواعد منطقيـة ونظريـات طبيعية، غير أنى لا أفهم لماذا كان ذلك العمل العقلى سببًا فى إماتة ذلك الجزء من المخ الـذى هو موطن الذوق والشعور؟ ولئن عشت حيـاتى مرة ثـانية لأفـرضن على نفسى قراءة الشعـر وسماع الموسيقى مرة فى الأسبـوع على الأقل، لأنه من المحتمل القريب أن ذلك الجزء من مخى إنما فقد وظيفته لعدم الاستعمال ».

لنا جميعًا أيها السادة فى مقتبل العمر وأيام الشباب آمـال كبار، كلنا يسعى فى تحصيلها ليبلغ منزلة الرجولية الكاملة . كلنا يريد حينذاك أن يغذى شعوره بالشعر والفنون الجميلة، ويخصب قوته العقلية بالفلسفـة والرياضيـات . ذلك ما نقصد إليـه فى أيام الشباب، ولكـن كم شيخ منا حصل على تلك الأمانى وهاتيك الآمال ؟ إنهم ـ ويم الحق ـ قليلون، وإن قواعد العادة كفيلة ببيان السبب فى ذلك .

ينبثق فى المرء ولوع بشيء من الأشياء فى زمن خاص غير أن ذلك الشيء إذا لم يلّ العمل غلته ذوى وذبل بدل أن يترعرع وينمو إلى عادة راسخة؛ ولذلك ترانا نتحول إلى « دارون » فى زمن غير بعيد بسبب الإهمال وعدم اغتنام الفرص فى أوقاتها . نشترى دواوين الشعراء وننوى قراءة كل بيت فيها، ثم يقف بيننا وبينها ضعف العـزيمة فتحول الأحوال ولا نقـرأ منها سطرًا . ترانا ننسئ وننسوف فلا ننهض من غمرة التسويف إلا وقد ماتت منا المواهب الشعـرية، ووئدت قوة الخيال بعد أن كانت عشر دقائق أو دون ذلك مع شاعر فى كل يوم كافية لحفظ تلك القوة غضة يانعة .

إذا أردتم فعل أى شيء ـ أيها السادة ـ فافعلوا من الآن، وإياكم وأن تـدعوه إلى الأيام، فإنها تبلى الجديد وتقصى الغـريب، وتذهب من كل شيء بشـاشته، وإنكم بالإهمال والتقـاعد عن العمل إنما تخطون بأيديكم قبورًا لمواهبكم العالية، وقواكم الغالية .

﴿ القـاعدة الخـامسـة ﴾

يجب التعجيل بغرس العادة؛ لأن المخ فى سن الطفـولية يكون أكثر رخـاوة وأقبل لصور الأفعال، ولأننا يجب أن نسرع قبل أن تتمكن العادات السيئة فتقطع علينـا الطريق وتحول دون تكوين العادات الصالحة .

أتـانى هـواهـا قبل أن أعـرف الهوى فصـادف قلبًا خاليــًا فتمكنــا

ولكنا يجب ألا نبالغ فى التبكير لأن العـادات تبنى دائمًا على الغرائز . وإن لكل غريزة وقتًـا خاصًا تقوى فيه ميعتها ويكمل عنفوانها . فإذا حاولنا غرس أية عادة فى نفس الطفل قبل ظهور الغريزة التى هى أس تلك العادة فقد حاولنا شططًا وآلمنا الطفل وأتعبناه من غير جدوى . ولنضرب لكم مثلاً يبين لكم مجمل هذا القول ويزيده وضوحًا .

إن غريزة الميل والانعطاف تظهر فى الطفل فى أكمل مظاهرها فى السنة الثالثة من عمره تقريبًا، وهى قصيرة العمر قد تزول فى السنة السادسة، وتخلفها غريزة القسوة والتفانى فى حب النفس .

الطفل فى تلك السن يعتقد أن كل ما حوله من الجمادات والنباتات له شعور وإحساس، وأنه حلقة من سلسلة هذه الطبيعة الجميلة التى تبكى إذا بكى وتضحك إذا ضحك . للطفلة عروس تحملها طول يومها وتقبلها وتطعمها وتلزم من فى الغرفة بالسكون والهدوء إذا أنامتها فى سريرها الصغير . وللولد عصا هى جواده الذى هو أرفق به من عنترة الذى يقول فى مهره .

مازلت أرميهم بثغرة نحره	ولبانه حتى تسربل بالدم
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكي	ولكان لو علم الكلام مكلمي

كان بإحدى المنازل التى نزلتها بإنجلترا وليدة لا تتجاوز الرابعة من عمرها، وكانت شغوفًا بقضاء شطر عظيم من النهار فى حديقة المنزل، تخاطب الأشجار وتناغى الأطيار، فبصرت بها ذات يوم فى الحديقة فسعيت نحوها، وبينما نحن واقفان إذ سقطت نحلة على زهرة الياسمين، فقالت لى الفتاة: أتدرى ما تسره هذه النحلة إلى الياسمين؟ قلت لا. قالت : إنها تقول لها إن الوردة أنضر منك وجهًا وأطيب ريحًا ولكنى رغم كل ذلك أفضل هذه الزهرة الجميلة؛ لأنها لا تنهشنى بأظفارها إذا حاولت اقتطافها كما تفعل الأخرى .

وكنت مرة فى مدينة فى وسط إنجلترا أثناء مسامحة عيد الميلاد، وكانت الأرض مغطاة بالثلج، فظهرت كصحيفة الأبرار، فرأيت أثناء تطوافى غلامًا أمام تمثال من الثلج على صورة إنسان ، وهو يحاول أن يطعمه شيئًا من الخبز وخلفه كلبه يجاهد فى التقام ما فى يده فصاح بى الغلام مستنجدًا قائلاً هل لك يا سيدى أن تمنع هذا الكلب؛ فإنه أخذ غذاءه اليوم، أما هذا الرجل المسكين ـ مشيرًا إلى التمثال ـ فلم يأكل منذ يومين!

فإذا رأيت طفلك يخاطب كرسيًا سقط بعبارات الرحمة والحنان؛ فاعلم أن غريزة الانعطاف فى ميعتها وثب للفرصة فوجه هذه العزيزة إلى الانعطاف مع الإنسان والرفق بالحيوان، وكون منها عادة راسخة؛ فإنك إن قصرت ركدت ريح هذه الغريزة ، وصعب عليك جدًا غرس العادة بعد ذلك . هذا ومن حاول غرس عادة الرحمة قبل ظهور غريزة الانعطاف فقد حاول محالاً وهذا معنى قولنا: يجب التعجيل فى تكوين العادة ولكنه يجب ألا يبالغ فى التبكير .

﴿ القاعدة السادسة ﴾

التكرار وفترة الراحة ضروريان فى تكوين العادات . التكرار واضح وقد سبق أن بينا ماله من التأثير أما فترة الراحة فتحتاج إلى شيء من البيان .

ثبت فى علم وظائف الأعضاء أن فى المخ استعدادًا لتسجيل الأعمال، وأن ذلك التسجيل يستلزم

وقتًا يفصل بين مرات التكرار يستريح فيه العقل، ويسجل فى أثنائه عمل العادة .

وكأن الفطرة أوحت إلى أطفال الكتاتيب بهذه النظرية فهم يقرؤون ألواحهم (ويكسرونها) قبل النوم حتى إذا استيقظوا وقرؤوها مرة أو مرتين استظهروها بسرعة غريبة .

حاولت فى سنة من السنين أن أتعلم ركوب الدراجة فلم أفلح بعد أن قضيت أسبوعًا كله جهاد مع معلم خاص . انتهت بى الحال إلى أن نفضت يدى من كل أمل فى نيل تلك البغية ، وبعد سنة كاملة عالجت دراجة صديق لى فركبتها وسرت بسهولة تامة كأننى اعتدت ركوبها من أعوام ولا يمكن تفسير ذلك إلا بأن مخى أثناء تلك السنة التى توسطت بين الحادثتين كان يشتغل بتسجيل العادة وتنقيحها .

ولننتقل الآن إلى الكلام فى قوة العادة وخطرها :

العادة سلطان قهار يعطل قوتنا الفكرية ويملك علينا إرادتنا . ولقد أدرك ذلك الأعراب فى باديتهم إذ يقول شاعرهم :

تعود بسط الكف حتى لو انه	أراد انقباضًا لم تطعه أنامِله
ولو لم يكن في كفه غير روحه	لجاد بها فليتق الله سائله

ولقد حمل « روسو » ما للعادة من جبروت على أن يقول « العادة الفذة التى يباح للطفل التمسك بها هى ألا يتعود عادة ما » ولا يمكننا أن نأخذ هذه القولة على ظاهرها لأنه من المحال أن يحول مخلوق بين الطفل وبين التمسك بكثير من العادات كالمضغ والمشى والكلام فماذا يقصد « روسو » بهذا الرأى الغريب؟ إنه يقصد أن ينصح إلى أولى الأمر ألا يجعلوا حياة الطفل عبارة عن مجموعة عادات وألا ينكسوا به فى الخلق فيحولوه إلى آلة صماء تنقل كل ما طبع فيها بلا روية بعد أن خلق مفكرًا ومتعقلاً بالفطرة . وإن روسو فى ذلك يتبع خطوات أفلاطون الذى كثيرًا ما صاح فى كتابه « الجمهورية » The Republic بوجوب حفظ شخصية الطفل خالصة من شوائب التقليد .

علمتم وتعلمون أيها السادة أن الفعل إذا تكرر أصبح عادة راسخة ، فإن كانت هذه العادة مولية وجهها شطر الفضيلة وكان لها قائد من العقل والحزم فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

إن اعتياد الفضيلة يجعل صدورها سهلا ، لا تكلف فيه فالذى يعتاد اللين تراه يجتنب قوارس الكلام بلا تعمل كما يجتنب أخطار الطريق بلباقة غريبة راكب الدراجة المدرب ، ومن اعتاد الكرم جاد بكل ما لديه وآثر غيره على نفسه وإن ضاقت ذات يده وكان جيبه أنقى من راحته .

ولكم فى أخبار كرام العرب ما يغنينى عن التمثيل والبيان ، ولقد أخبرنا الحُطيئة بما تفعله عادة الكرم ، فى النفوس إذا أخذت منها مكانها وقوى فيها سلطانها حين يقول :

وطــاوى ثــلاث عــاصب البطن مــرمل
ببيــــــداء لم يعـــرف بها ســـاكن رسما
أخي جفـــوة فيـــه من الأنس وحشـــة
يـرى البـــؤس فيهـا من شراستـــه نعمي
وأفـــرد فى جحـــر عجـــوزاً إزاءهـــا
ثـــلاثـــة أشبـــاح تخالهمـــو بهما
حفـــاة عـراة مـــا اغتـــذوا خبـز ملـــة
ولا عـــرفـــوا للبر مـــذ خلقـــوا طعما
رأى شبحـًـــا وسط الظـــلام فـــراعـــه
فلما رأى ضيفًـــــا تقـــــدم واهتما
فقـــال هيـــا ربـــاه ضيف ولا قـــري
بحقك لا تحرمـــه فى الليلـــة اللحمـــا
فقـــــــال ابنـــــــه لما رآه بحيرة
أيـــــــا أبتـى اذبحنـى ويسر لهم طعما
ولا تعتـــذر بـالعـــدم عـل الـــذى طـــرا
يظن لنـــا مـــالا فيـــوسعنـــا ذمـــا
فـــروى قليـــلاً ثم أحجم بـــرهـــة
وإن هـــو لم يـــذبح فتـــاه فقـــدهما
وبينـــا هما عنت على البعـــد عـــانـــة
قـــد انتظمـت من خلـف مسحلهـــا نظما
عطـاشـــا تـريـد الماء فـانســاب نحوهـــا
على أنـــــه منهـــــا إلى دمهـــــا أظمـى
وأمهلهـــا حتى تـــروت عطـــاشهـــا
فـأرسل فيهـــا مـن كنـــانتـــه سهمًا
فخـــرت نحـــوص ذات جحش سمينـــة
قـــد امتـــلأت لحمًا وقـــد طبقت شحماً
فيـــا بشره إذ جـــرهـــا نحـــو قـــومـــه
ويـــابشرهم لما رأوا كلمهـــا يـــدمى
وبـــاتـــوا كـرامـــا قـــد قضـــوا حق ضيفهم
ومـــا غـرمـــوا غـرمـــا وقـــد غنمـــوا غنما

وبـات أبـوهم من بشـاشتـه أبـا
لضيفهـم والأم مـن بشرهـا أمـا

أما من يتكلف الفضيلة فإن كل بادرة منه تنم عليه وتؤذن فى أذنه بقول التهامي :

ثوب الرياء يشف عما تحته فإذا التحفت به فإنك عاري

وهؤلاء الحلاقون كلكم يتفـرز غيظًا من آدابهم العالية وأخلاقهم السـامية .... وإذا لم يقد العقل زمام العادة سلكت مسـالك الشطط وأصبحت خطرًا شديدًا على الأخـلاق وإليكم مثلاً . قد تبتدئ العادة سيرهـا فى طريق الفضيلة ولا تزال ضاربـة فيه مادامت ضعيفة حتى إذا اشتد سـاعدها بالتكـرار والمران حارت يمنة ويسرة وضلت سواء الصراط . يأخـذ الرجل فى اقتصاد شيء من مـاله فى كل شهـر وهذا فضيلـة من غير شك حتى إذا تكرر هـذا العمل من غير حياطـة العقل قوى سلطـان العادة وتحول هذا الـرجل من مقتصد إلى شحيح لحز ولقد قال الأستـاذ ماكون (Maccwun) فى بيان خطر العـادة : العادة سـلاح ذو حدين لأنها وإن كانت أسـاس الفضيلة قـد تميل إلى جانب الـرذيلة فتصبح داء عضالاً ومرضًـا قتالاً . العادات المذمومة أقوى أنواع العـادات لأن لها ناصرًا من الشهوات الطبيعية التى تصبح دائمًا طالبة ما يطفئ غلّها فالرجل الـذى يسقط فريسة أى عادة سيئة تراه مغلوبًا على أمره لا يعرف خطر أى فعل من أفعاله إلا بعد قطع مرحلة طويلة فيه .

ومن أخطار العادة إنها تورث المتمسكين بها جمودًا وتفقدهم ملكة العمل بما يناسب الزمان والمكان . الحياة أيها السادة حُوَّل قُـلَّب ترتدى فى كل يـوم ثوبًا وتتغير من حين إلى حين وقد يكون هذا التغير فجائيًا فإذا لم يكن الرجل لبقًا « يكون الصبا ويكون الدبورا » هزمته حوادث الأيام فليس بالشجاع من لا يقدر إلا على مكافحة نـوع واحد من الأخطار حتى إذا عرض خطر جديد لم تصـافح كفه سيفًا وفر يقول : «فرَّ لعنه الله خيرٌ مِنْ مات رحمه الله» .

وكثيرًا ما تفعل العـادة من غرب قـوة الشعور الـذى هو منبع كثير من مكـارم الأخلاق . ولكم فى هؤلاء الذيـن يجهزون الأموات وينظرون فى شئونهم (المغسلين والحانـوتية) ما يقنعكم بصـدق ما نقول فإن العـادة مسحت من نفـوس هـؤلاء كل ما يمكن أن يقـال لـه شعـور وإحساس . تنـوح حـولهم النائحات وتنفطر أمامهم قلوب الأطفال ، وهم جامدون لا تتحرك فيهم عاطفة ولا تدمع لهم عين .

ولقد يكون موت الشعور بواسطة العادة مفيدًا ، كما هى الحال فى الأطباء الجراحين ، فإنهم ليس فى استطاعتهم أن يعملوا عملاً إلا إذا تغلب فيهم عمل الواجب على الشعور بالرحمة والحنان .

هذا ما أردنا بيانه فى هذا الموضوع والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

مرثيـة

في رثاء الشيخ حمزة فتح الله (*)

رب ورقـاء هتـوف فـي الضحى | ذاتِ شـجـو صـدحـت في فنـن
ذكـرت إلفًـا ودهـرًا سـالفًا | فبكت حـزنًا فهـاجت حَـزَنى
ولقـد تشكـو فمـا أفهمهـا | ولقـد أشكـو فمـا تفهمنـي
فبكائـي ربمـا أرّقهـا | وبكـاهـا ربمـا أرّقنـي
غيـر أنـي بالجـوى أعـرفهـا | وهـي أيضًـا بالجـوى تعرفنـي

أيها السادة إن فى مـواقف التأبين سلـوةً للمحزونين، وعلالـة للمفئودين وذكرى للذاكـرين وإن النفوس الإنسانية إذا اخترمت مـن بينها نفس كبيرة أخذ الهلع بناصيتها وملك الوجد زمامها وطارت شعاعًا حتى إذا سكنت إلى قضاء الله وعلمت أن كل حى صائر للزوال وأنه :

أحـسن بالواجـد مِن وجـده | صـبر يعـيد النـار في زنـدِهِ
ومـن أبى في الـرزء إلا الأسـى | كـان بكـاه منتهـى جهـده

إذا علمت كلّ ذلك أيها السـادة رجعت إلى الحسنى وهمت بتـوديع الـراحل الكريـم بما هو أهلـه وأرادت أن تعيش مرة ثانية بين تلكم الآثار والمفاخر وأن تجتلى من جديد هذه المعالى والمآثر وحلا لها أن ترجع إلى الماضـى فتقف هنيهة أمام ذلـك المجد الراسخ والفضـل الواسع وأن تتنور بصيصًـا من تلك الروح العالية التى اختارت لها من الرفيق الأعلى منزلاً، ومن ظلال الجنة مقيلاً :

قفـا ودِّعـا نجدًا ومن حلّ بـالحمى | وقلّ لنجـد عنـدنـا أن تـودّعـا
فللـه هذى الأرض مـا أطيبَ الربـا | ومـا أحسن المصطـاف والمتربَّعـا
وليست عشيـات الحمـى بـرواجع | عليك ولكن خلِّ عينيك تـدمعـا
بكت عينىَ اليسرى فلما زجـرتها | على الجهل بعـد الحلم أسبلتـا معـا

(*) ألقيت فى حفل تأبين الشيخ حمزة فتح الله كبير مفتشى اللغة العربية عام ١٩١٧ .

مات الشيخ حمزة فتح الله، فترك العيون عبرى، وغادر فى مصر مكانًا لا تصل العين إلى أمده ولا تسافر الآمال إلى حدّه.

مات الأستاذ الكريم فلبست عليه العربية ثوبًا من الحداد لا ينصلُ ، وشعارًا من الحزن لا يبلى ، تبكى حامى ذمارها وجامع آثارها وراوية أشعارها وحقيبة أخبارها .

تندب سليلة إسماعيل (اللغة العربية) فتاها السَّميدع الذى تغنّى بآياتها فملك الأسماع ونشر مفاخرها فبهر العيون وأعاد إليها عصر فتائها وميعة شبابها أيام كانت تعيش بين الظل والماء وتخطر فى ثوبى الحسن والرواء .

أعادها الشيخ عليه الرضوان فتية مليحة بعد أن صارعتها العُجمة فصرعتها وغالبتها الرطانة فغلبتها وبعد أن عفَت ديارها وطمست آثارها وخبَت نارها وشالت نعامتها وغطِشت ليلتها وضل الحادى والهادى واستعجم الحاضر والبادى :

أيـن امـرؤ القيس والـعـذارَى	إذ مـال مـن تحتـه الغبيـطُ
استعجـم العُـرب في المـوامي	بعـدك واستعرب النبيـط

وجد الشيخ ـ لا أعطش الله تربته ـ مجالاً فسيحًا للنهوض بالعربية الشريفة فى وزارة المعارف فشنّ فيها على العامية حربًا استعر لظاها، واشتبكت ظباها فما فتَّ يأس فى عضده ولا زحزح قنوط بطلنا المغوار عن قصده، حتى إذا ركد الغبار وسكت الإعصار، ظهر الشيخ وهو يحمل راية النصر باليمين وقد قطع من عَدْوته الوتين .

نفذ من روحه الكبيرة إلى المدارس نور تطلّع إليه الشباب، فملأ عيونهم شعاعه وبهر نفوسهم لمعانه واستبانت لهم الطريق ووضحت السبيل فأعملوا قِلاص عزائمهم إلى ذات الضاد ليجتلوا محاسنها ولينهلوا من آدابها والشيخ حمزة أمامهم فى هذا السفر الطويل يهدى الضالّ ويصل المنبتّ ويرعاهم بعنايته ويكلؤهم بحياطته فما فترت عزيمة إلا نفخ فيها من روحه فاشمعلّت ولا وبرَت قدم إلا هزّ من نفس صاحبها فأرقلت ولا طَمست الصُّوَى إلا جعل من نوره لهم نارًا ومن هدايته منارًا يقودهم الشيخ والأمد بعيد والشقة نازحة والظلام دامس يضل فيه راعى الكواكب ويرتجف منه النابح والناعب :

في ليلـة من جمادي ذات أنـديـة	لا يبصر الكلب في ظلمائها الطنُبا
في ليـلة حـالكة الجلبـاب	أغطـشَ مـن خـافيـة الغـراب
كأنهـا صحيفـة المغتـاب	أو حـظ مجـدود مـن الكتـاب

أو غـمـرات الـزّاخـر الخِضَـمّ

فلما لمع سيف الفجر حتى هللـل السَّفْر وكبروا، وقد أوصلهم الشيخ إلى إربتهم، وأبلغهـم غايتهم فحمـدوا السُّرى واستقرت بهم النـوى وتجلت لهم لغة القـرآن الكريـم ناصعـة خلابـة فقطفوا أثمارهـا وتـذوقوا أسرارهـا والشيخ الجليل ينظـر إلى تلك النفـوس الفتيَّة المغتبطـة فيتهلل وجهـه بشرًا ويفيض سرورًا.

أيتهـا العربيـة، هلمَّ بشيء من سَيْبك الفياض وانشـرى فوقى مطـرًا من لألئك العصماء وابعثى فيّ روحًا من أرواح رجالك السابقين فإنى أرثى اليوم جُذَيلك المحكك وعُذَيقَك المرجَّب.

أفى الحق أن يخوننى اللسان ويعقِّنى البيـان وأنا أرثى مقوّم الألسنـة ومبدع الأساليب وحـامل لواء العربيـة. حاشا لله، فـإن اللغة التى بعثها من مـرقدها سترثيـه بناتها وتسبّح بحمـده آياتها. لم يكن الشيخ لغويًا فحسب ولكنه كان كاتبًا قديرًا وشاعرًا مجيدًا، ولقد ألبس شعره ديباجة بدوية أعادت إليه عـريق مجده وأيام سعـده. ديباجـة لـو طرقت آذان النّيب فى البيـداء لمالت هواديها واهتـزّت لحاديها وسابقت ظلالها ونسيت كلالها.

تسرب الخطأ إلى الأساليب العربية وانبثّ سم العامية فى أوصالها فما كادت تسلم عبارة لكاتب منا لخروج عن حدود اللغة وقوانينها حتى نهض الشيخ نهضته المباركة فعلم الكتاب كيف يتهمون أنفسهم وكيف يأخذون حـذرهم من التراكيب التى أخذت صبغـة العربيـة وليست منها فى قـديم ولا حديث فانتقلت الكتابة إلى عهـد جديد وأخذت النابتة المتعلمة تتسابق إلى استخـراج مكنونات اللغة بعد أن كانت دفينة فى خبايا الكتب سجينة بين طيات الأسفار.

نهض الشيخ ـ رضى الله عنه ـ هذه النهضة المباركـة واختار وزارة المعارف ميدانًا لعمله الجليل فلم يترك كتابًـا فى المدارس يصل إلى يد تلميـذ أو تقع عليه عين طـالب إلا بعـد أن نقّاه من أدران العـامية وبعد أن نقده نقـد الصيرفىّ الحذر وبعد أن قرأه لنفسه وقرأه لغيره وقـرأه وقرأه. فعل كل ذلك ليجعل بين الطلاب والدخيل سداً ويحول بينهم وبين أفاعى العامية وسمومها.

لم يكتفِ الفقيد بهذا ـ وما كان شيء ليكفيَه فى الإصلاح ـ فوجه آماله إلى أشياخ العربية بالمدارس، لما علم أنهم مبلغو رسالته وحـاملو أمانته وخلفاؤه على النشء المصرى الذى جعل تقـويمه أول أمانيه وغايـة مراميه. وجـه الأستاذ الكـريم آماله إلى هـؤلاء الأشياخ وبعث فيهم حب العـربية ودفعهم إلى الغوص على أسرارهـا وكان يـذهب إليهم فى تفتيشه مـن شمال مصر إلى جنوبها ومن شرقهـا إلى غربها ناصحًـا معلمًا ومشجعًا مصلحًـا، فعل كل ذلك للنهوض بـالعربية والـوصول بها إلى مـا قدر لها من الكمال.

كانت للشيخ همة عزيمة لا تعرف الخوَر ومثابرة على العمل لا يتسرب إليها الملل فقد كان كثيرًا ما يقضى ليلـه فى القراءة والـدرس حتى يعقـد ضـوء الصباح بنـور المصبـاح بين بحث وتنقيب وتأليف

وتهذيب وهذه آثاره فى وزارة المعـارف بين ظهرانيكم تشهد بحسن بلائه وبُعـد سمائه وعلوّ كعبه وجميم أدبه وما له من أولية وسابقية وتبريز .

وما كـانت الشيخوخـة وقد هزت اليـدين وأناخت على المنكبين وأمـالت الرأس وجنت على العين لتثنيَ الشيخ عن مـواصلة عمله أو تقفَ بينـه وبين غايتـه فما زايله حتى آخر أيـامه جِـدّ الشباب ولا عزيمة الفتيان وأصـدقاؤه ينصحون له أن يُبقيَ على نفسه وأن يحتفظ بالبقية البـاقية من صحته وهو لا يلقى إليهم سمعًا ولا يطيع لهم أمرًا . أحيـا العلمُ روحَه فوقف على خدمتـه جسمه . كان العلم أغلى شيء لديـه فوهب له نور عينيـه ، وهب له نور عينيـه ـ أيها السادة ـ وبقى الشيخ الجليل فى أخـريات حيـاتـه يتمتع بنـور الحق ويـرى بعين القلب، وإنها لا تعمى الأبصـار ولكن تعمى القلـوب التى فى الصدور .

كان الشيخ أجزل الله له عطاءه غيورًا على الدين شديد التمسك بآدابه يعيش عيشة الزاهدين بعيدًا عن زخارف الدنيا وأبـاطيلها فما بدرت من أحد أمامه بادرة تنم عن شيء من التهـاون بالدين إلا صال صيـال الليث وزأر زئير الأسـد الهصـور وأخـذته فى الـدين عـزة المجـاهـدين وغضب للحق غضبـة المخلصين .

ولقد كان لـورعه هذا أثر صـالح فى وزارة المعارف فما كان يختار إذ يختـار من شيوخ التعليم إلا من أشرِبوا حب الفضيلة ونمت فيهـم نازعة الخير وكان أفاض الله عليه ثوابه حربًا على من ضل منهم سواء الصراط أو ندّ عن سواء السبيل .

أيها السادة مـات شيخ المعـارف وكبير مفتشيها مات رجـل اللغة العـربية وعمـدة الشعر والأدب ومستودع أسرار القرآن الكريم والسنة المحمدية الطاهرة .

ففى ذمة الرحمن ذلك الراحل الكـريم الذى كان فى سواد عيوننا وسويـداوات قلوبنا . وفى وديعة الله تلك الروح الكبيرة التى خلقت من النور ورجعت إلى النور .

وفى جـوار الخلد تلـك الروح الفيـاضـة التى نفخت فى النفـوس حياة وانبعثـت فى القلوب آمـالاً وصعدت إلى ربها راضية مرضية بعد أن رأت قطوفها دانية وآثار إصلاحها بادية .

فيـــا قبر آه من تـــرابك ليّنـــا ... عليـــه وواهٍ من جنـادلـك الخشن
لأطبقت إطبـاق المحـارة فـاحتفظ ... على درة المجـد الحقيقـة بـالحزن

* * *

مقدمة كتاب البلاغة الواضحة (*)

الفصاحة ـ البلاغة ـ الأسلوب

الفصاحة هي الظهور والبيان، تقول: أفصحَ الصُّبحُ، إذا ظَهر. والكلامُ الفصيحُ ما كان واضح المعنى، سهل اللفظِ، جيِّدَ السَّبكِ. ولهذا وجَبَ أن تكونَ كلُّ كلمة فيه جارية على القياس الصَّرفي(1). بيِّنة في معناها، مفهومةً عَذْبةً سلِسة.

وإنما تكونُ الكلمة كذلك إذا كانت مألوفةَ الاستعمال بين النابهين من الكتاب والشعراء، لأنه لم تتداولها ألسنتُهم، ولم تُجرِبها أقلامُهم، إلا لمكانها من الحُسْن باستكمالها جميع ما تقدم من نُعوت الجودة وصِفات الجمال.

والذوقُ السليمُ هو العُمدةُ في معرفةِ حُسن الكلمات بسَلاستِها، وتميز ما فيها من وجوه البشاعة ومظاهر الاستكراه؛ لأن الألفاظَ أصواتٌ، فالذى يطْربُ لصوت البُلبُل، وينفر من أصوات البُوم والغِربان ينبُو سمعه عن الكلمة إذا كانت غريبةً مُتَنافِرةَ الحروف(2). ألا ترى أن كلمتيْ «المُزْنة» و«الدِّيمة» للسحابة الممطرة، كلتيهما سهلةٌ عذبةٌ يسكن إليها السمع، بخلاف كلمة «البُعَاق» التى فى معناهما؛ فإنها قبيحة تَصُكُ الآذان. وأمثال ذلك كثير في مفردات اللغة تستطيع أن تدركه بذَوْقك.

(*) نشرت في مقدمة كتاب البلاغة الواضحة عام ١٩٣٢م.

(1) ففى قول المتنبى:

فلا يُبرم الأمر الذى هو حالل ولا يُحلل الأمر الذى هو يبرم

غير فصيح؛ لأنه اشتمل على كلمتين غير جاريتين على القياس الصرفى، وهما حالل، ويحلل، فإن القياس حالّ ويحل، بالإدغام.

(2) تنافر الحروف: وصف فى الكلمة يوجب ثقلها على السمع وصعوبة أدائها باللسان ولا ضابط لمعرفة الثقل والصعوبة سوى الذوق السليم المكتسب بالنظر فى كلام البلغاء وممارسة أساليبهم.

ويُشترط فى فصاحة التركيب فوق جريان كلماته على القياس الصحيح وسهولتها، أن يسلم من ضَعفِ التأليف، وهو خروج الكلام عن قواعد اللغة المطردة، كرجوع الضمير على متأخر لفظًا ورتبةً فى قول سيدنا حَسان رضى الله عنه(١):

ولو أنَّ مجدا اخْلَد الدهْر واحِدًا   مِنَ النَّاسِ أَبْقى مَجْدُهُ الدَّهر مُطْعِما(٢)

فإن الضمير فى « مجده» راجع إلى « مطعما» وهو متأخر فى اللفظ كما ترى ، وفى الرتبة لأنه مفعول به ، فالبيت غير فصيح .

ويشترط أن يسلم التركيب من تنافر الكلمات، فلا يكون اتصال بعضها ببعض مما يسبب ثقلها على السمع، وصعوبة أدائها باللسان، كقول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر(٣)

قيل إن هذا البيت لا يتهيأ لأحد أن ينشده ثلاث مرات متواليات دون أن يتتعتع(٤)، لأن اجتماع كلماته وقرب مخارج حروفها، يحدثان ثقلاً ظاهرًا، مع أن كل كلمة منه لو أخذت وحدها كانت غير مستكرهة ولا ثقيلة.

ويجب أن يسلم التركيب من التعقيد اللفظى، وهو أن يكون الكلام خفى الدلالة على المعنى المراد بسبب تأخير الكلمات أو تقديمها عن مواطنها الأصلية أو بالفصل بين الكلمات التى يجب أن تتجاور ويتصل بعضها ببعض، فإذا قلت : « ما قرأ إلا واحدا محمد مع كتابا أخيه» كان هذا الكلام غير فصيح لضعف تأليفه، إذ أصله « ما قرأ محمد مع أخيه إلا كتابا واحدا»، فقدمت الصفة على الموصوف، وفصل بين المتلازمين، وهما أداة الاستثناء والمستثنى، والمضاف والمضاف إليه. ويشبه ذلك قول أبى الطيب المتنبى(٥) :

أنى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد؟(٦).

---

(١) هو شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أجمعت العرب على أنه أشعر أهل المدر. قيل إنه عاش ١٢٠ سنة، ٦٠ فى الجاهلية و٦٠ فى الإسلام، وتوفى سنة ٥٤ هـ.

(٢) هو مطعم بن عدى، أحد رؤساء المشركين، وكان يذب على النبى ﷺ . ومعنى البيت أنه لو كان مجد الإنسان أو شرفه سببًا لطول حياته وخلوده فى هذه الدنيا، لكان مطعم بن عدى أولى الناس بالخلود، لأنه حاز من المجد والسؤدد ما لم يحزه غيره .

(٣) البيت من الرجز، ولا يعرف قائله ، ولعله مصنوع .

(٤) تعتع فى الكلام : تردد فيه من حصر أو عىّ .

(٥) أبو الطيب المتنبى هو أحمد بن الحسين الشاعر الطائر الصيت، كان من المطلعين على غريب اللغة، وشعره غاية فى الجودة، يمتاز بالحكمة وضرب الأمثال وشرح أسرار النفوس، ولد بالكوفه فى محلة تسمى كندة سنة ٣٠٣هـ، وتوفى سنة ٣٥٤هـ.

(٦) الثقلان : الإنس والجن، والبيت من قصيدة طويلة فى مدح شجاع بن محمد الطائى .

والوضع الصحيح أن يقول : كيف يكون آدم أبا البرية ، وأبوك محمد ، وأنت الثقلان؟ يعنى أنه قد جمع ما فى الخليقة من الفضل والكمال ، فقد فصل بين المبتدأ والخبر وهما « أبوك محمد » ، وقدَّم الخبر على المبتدأ تقديمًا قد يدعو إلى اللبس فى قوله «والثقلان أنت» على أنه بعد التعسف لم يسلم كلامه من سخف وهذر.

ويجب أن يسلم التركيب من التعقيد المعنوى ، وهو أن يعمد المتكلم إلى التعبير عن معنى فيستعمل فيها كلمات فى غير معانيها الحقيقية ، فيسيء اختيار الكلمات للمعنى الذى يريده ، فيضطرب التعبير ويلتبس الأمر على السامع مثال ذلك أن كلمة « اللسان » تُطلق أحيانًا ويُراد بها «اللغة» ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ أى ناطقًا بلغة قومه ، وهذا استعمال صحيح فصيح ، فإذا استعمل إنسانٌ هذه الكلمة فى الجاسوس ، وقال : «بثَّ الحاكم ألسنته فى المدينة» كان مخطئًا ، وكان فى كلامه تعقيدٌ معنوى ، ومن ذلك قول امرئ القيس[1] فى وصفِ فرَس :

وأركبُ فى الـرَّوعِ خَيفَـانَـةً ... كسا وجهَهَا سَعفٌ منتشر[2]

الخيفانة فى الأصل الجرادة ، ويريد بها هنا الفرس الخفيفة ، وهذا لا بأس به وإن كان تشبيه الفرس بالجرادة لا يخلو من ضعف ، أما وصف هذه الفرس بأن شعر ناصيتها طويل كسعف النخل يُغطِّى وجهها ، فغير مقبول ؛ لأن المعروف عند العرب أن شعر الناصية إذا غطَّى العينين لم تكن الفرس كريمة ولم تكن خفيفة . ومن التعقيد المعنوى قول أبى تمَّام[3] .

جَذَبتُ نَداه غدوة السَّبتِ جذبةً ... فخرَّ صريعًا بين أيدى القصائد[4]

فإنه ما سكت حتى جعل كرم ممدوحه يخرُّ صريعًا . وهذا من أقبح الكلام .

* * *

أما البلاغة فهى تأدية المعنى الجليل واضحًا بعبارة صحيحة فصيحة ، لها فى النفس أثر خلاب ، مع ملائمة كلِّ كلام للموطن الذى يقال فيه ، والأشخاص الذين يُخاطَبون .

فليست البلاغة قبل كل شيء إلا فنًّا من الفنون يعتمد على صفاء الاستعداد الفِطرى ودقة إدراك الجمال . وتبين الفروق الخفية بين صنوف الأساليب . وللمرانة يدٌ لا تُجحد فى تكوين الذوق الفنىِّ ، وتنشيط المواهب الفاترة ، ولابد للطالب إلى جانب ذلك من قراءة طرائف الأدب ، والتَّملُّؤ من نَميره

---

(١) هو رأس شعراء الجاهلية وقائدهم إلى الافتنان فى أبواب الشعر وضروبه ، ولد سنة ١٣٠ ق . هـ ، وآباؤه من أشراف كندة وملوكها ، وتوفى سنة ٨٠ ق . هـ ، وله المعلقة المشهورة .

(٢) الروع : الفزع ، والسعفة : جمع سعفة وهى غصن النخل .

(٣) أبو تمام : هو حبيب بن أوس الطائى الشاعر المشهور . كان واحدَ عصره فى الغوص وراء المعانى وفصاحة الشعر وكثرة المحفوظ ، وتوفى بالموصل سنة ٢٣١ هـ .

(٤) الندى : الجود . ويخرُّ صريعًا : سقط على الأرض .

الفياض، ونقد الآثار الأدبية والموازنة بينها، وأن يكون له من الثقة بنفسه ما يدفعه إلى الحكم بحسن ما يراه حسنًا وبقُبْح ما يَعُدُّه قبيحًا.

وليس هناك من فرق بين البليغ والرّسام إلا أن هـذا يتناول المسموع من الكلام، وذلك يُشاكل بين المرئى من الألوان والأشكال، أما فى غير ذلك فهما سواء، فالرسام إذا هَمَّ برسم صورة فكّر فى الألوان الملائمة لها، ثم فى تأليف هذه الألوان بحيث تَخْتَلِب الأبصار وتثير الوجدان، والبليغ إذا أراد أن ينشئ قصيدة أو مقالـة أو خطبة فكر فى أجزائهـا، ثم دعا إليه من الألفاظ والأسـاليب أخفها على السمع، وأكثرها اتصالاً بموضوعه. ثم أقواها أثرًا فى نفوس سامعيه وأروعَها جمالاً.

فعناصر البـلاغة إذًا لفظٌ ومعنًى وتأليف لـلألفاظ يَمنَحُها قـوة وتأثيرًا وحُسنًا. ثم دقـةٌ فى اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومـواقعه وموضوعاته وحال السـامعين والنّزعةِ النفسية التى تَتَملَّكهم وتُسيطِرُ على نفوسهم، فَرُبَّ كلمة حسُنتْ فى مـوطن ثم كانت نابية مُسْتَكرَهةً فى غيره. وقديمًا كرِه الأدباء كلمة «أيضًا» وعَدُّوها من ألفاظ العلماء، فلم تَجرِ بها أقلامهم فى شعر أو نثر، حتى ظَهَرَ بينهم من قال:

رب ورقـاء هتـوف فـي الضحى ... ذاتِ شـجـو صـدحـت في فنـن(١)
ذكـرت إلفًـا ودهـرًا سـالفًا ... فبكـت حزنًـا فهـاجت حَـزَنـى(٢)
فبكـائى ربَّما أرّقهـا ... وبكـاهـا ربمـا أرّقنـي(٣)
ولقـد تشكـو فما أفهمهـا ... ولقـد أشكـو فمـا تفهمنـي
غيـر أنـى بالجـوى أعـرفهـا ... وهـي «أيضًا» بالجـوى تعرفني(٤)

فوضع «أيضًا» فى مكـان لا يتطلب سواها ولا يتَقبَّل غيرها، وكـان لها من الرَّوعة والحُسن فى نفس الأديب ما يعجز عنها البيان.

ورُبَّ كلام كان فى نفسـه حسنًا خلابًا حتى إذا جاء فى غير مكانـه، وسقَطَ فى غير مسقَطِه، خرج عن حدِّ البلاغة، وكان غرضًا لسهام الناقدين.

ومن أمثلة ذلك قول المتنبى لكافور الإخشيدى(٥) فى أول قصيدة مدحه بها:

كفى بِكَ داءً أن تـرى الموتَ شافيـا ... وحَسْبُ المنـايـا أن يكُنَّ أمانيـا(٦)

---

(١) الورقاء: الحمامـة فى لونها بياض إلى سواد. والهتوف: كثير الصياح. والشجـو: الهم والحزن. والصدح: رفع الصوت بالغناء، والفنن: الغصن.

(٢) الإلف: الأليف. (٣) الأرق: السهر، وأرقها: أسهرها.

(٤) الجوى: الحرقة وشدة الوجد.

(٥) كافور الإخشيـدى: هو الأمير المشهور صاحب المتنبى، وكان عبدًا اشتراه الإخشيـد ملك مصر سنة ٣١٢ هـ فنسب إليه وأعتقـه، فترقى عنده، ومـا زالت همته تسمـو به حتى ملك مصر سنة ٣٥٥ هـ، وكان مع شجـاعته فطنًـا ذكيًا حسن السياسة، وتوفى بمصر سنة ٣٥٧ هـ.

(٦) كفى بك: أى كفاك، فالباء زائدة، والمنايا جمع منية، وهى الموت. والأمانى: جمع أمنية، وهى الشىء الذى تتمناه؛ يخاطب بها أبو الطيب نفسه ويقول: كفاك داءً رؤيتك الموت شافيًا لك، وكفى المنية أن تكون شيئًا تتمناه.

وقوله فى مدحه :

وما طربى لمّا رأيتُك بدْعةً لقد كنتُ أرجو أن أراك فأطربُ

قال الواحدى(1) : هذا البيت يشبه الاستهزاء ، فإنه يقول : طربتُ عند رؤيتك كما يطرَبُ الإنسان لرؤية المضحكات . قال ابن جنّى(2): لما قرأت على أبى الطيب هذا البيت قلت له : ما زِدتَ على أن جعلت الرجل قردًا . فضحك . ونرى أن المتنبى كان يغلى صدرُه حِقدًا على كافور وعلى الأيام التى ألجأته إلى مدحه ؛ فكانت تفِر من لسانه كلماتٌ لا يستطيع احتباسها ، وقديمًا زَلَّ الشعراء لمعنى أو كلمة نفَّرت سامعيهم ، فأخرجت كلامهم عن حد البلاغة ، فقد حكوا أن أبا النجم(3) دخل على هشام ابن عبد الملك وأنشده :

صفراء قد كادت ولمّا تفعل كأنّها فى الأفْقِ عين الأحول(4)

وكان هشام أحْول ، فأمر بحبسه .

ومدح جرير(5) عبد الملك بن مروان بقصيدة مطلعها :

«أتَصْحو أمْ فؤادُك غيرُ صاحٍ» فاستنكر عبد الملك هذا الابتداء وقال له : بل فؤادك أنت .

ونعى علماء الأدب على البُحْتُرى(6) أن يبدأ قَصيدةً يُنشدها أمام ممدوحه بقوله :

«لكَ الوَيلُ مِنْ لَيلٍ تقاصَرَ آخِرُه» .

وعابوا على المتنبى قولَهُ فى رثاء أمّ سيف الدولة(7):

---

(1) الواحدى : مفسر عالم بالأدب ، مولده ووفاته بنيسابور ، وكتبه البسيط والوسيط والوجيز فى التفسير مخطوطة . وشرحه لديوان المتنبى مطبوع . توفى سنة ٤٦٨ هـ .

(2) ابن جنى : هو من أئمة النحو بالعربية ، ولد فى الموصل وتوفى ببغداد سنة ٣٩٢ هـ . ومن مؤلفاته الخصائص فى اللغة ، وكان المتنبى يقول : ابن جنى أعرف بشعرى منى .

(3) أبو النجم : هو الفضل بن قدامة ، وهو من رجال الإسلام ، والفحول المتقدمين فى الطبقة الأولى منهم ، وله مع هشام ابن عبد الملك أخبار طويلة ، وكانت وفاته آخر دولة بنى أمية .

(4) قيل هذا البيت فى وصف الشمس . والأحول : من بعينه حول ، وهو ظهور البياض فى مؤخر العين ، ويكون السواد من قبل المآق .

(5) جرير : هو ابن عطية التميمى ، أحد الشعراء الثلاثة المتقدمين فى دولة بنى أمية ، وهم الأخطل وجرير والفرزدق ، وقد فاق صاحبيه فى بعض فنون الشعر ، وتوفى سنة ١١٠ هـ .

(6) البحترى : شاعر مطبوع من شعراء الدولة العباسية ، سئل أبو العلاء المعرى : من أشعر الثلاثة ، أبو تمام أم البحترى أم المتنبى؟ فقال أبو تمام والمتنبى حكيمان ، وإنما الشاعر البحترى . وكانت ولادته بمنبج (وهى بلد قديمة بين حلب والفرات) ، وتوفى بها سنة ٢٨٤ هـ .

(7) سيف الدولة : هو أبو الحسن على بن عبد الله بن حمدان ، كان ملكًا على حلب ، وكان أديبًا شاعرًا مجيدًا لجيد الشعر شديد الاهتزاز له ؛ قيل لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من الشعراء ، وقد انقطع المتنبى إليه وخصه بمدائحه . وكانت ولادته سنة ٣٠٣ هـ وهى سنة ولادة المتنبى ، ووفاته سنة ٣٥٦ هـ بعد مقتل المتنبى بسنتين .

صلاة الله خالِقِنا حَنوطٌ　　　على الوجْهِ المُكفّنِ بالجمال(١)

قال ابن وَكِيع(٢): إن وصفَه أمَّ الملك بجمال الوجه غير مختار.

وفى الحق أن المتنبى كان جريئًا فى مخاطبة الملوك، ولعلَّ لعظم نفسه وعبقريَّته شأنًا فى هذا الشذوذ.

إذًا لا بد للبليغ أولا من التفكير فى المعانى التى تجيش فى نفسه، وهذه يجب أن تكون صادقة ذات قيمة وقوة يظهر فيها أثر الابتكار وسلامة النظر ودقة الذوق فى تنسيق المعانى وحسن ترتيبها، فإذا تم له ذلك عَمدَ إلى الألفاظ الواضحة المؤثرة الملائمة، فألَّف بينها تأليفًا يكسبها جمالاً وقوة، فالبلاغة ليست فى اللفظ وحده، وليست فى المعنى وحده، ولكنها أثرٌ لازمٌ لسلامة تأليف هذين وحُسن انسجامهما.

* * *

بعد هذا يحسن بك أن تعرف شيئًا عن الأسلوب الذى هو المعنى المَصُوغُ فى ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنَيْل الغرض المقصود من الكلام وأفعل فى نفوس سامعيه. وأنواع الأساليب ثلاثة:

(١) الأسلوب العلمى: وهو أهدأ الأساليب، وأكثرها احتياجًا إلى المنطق السليم والفكر المستقيم، وأبعدُها عن الخيال الشعرىّ؛ لأنه يخاطب العقل، ويناجى الفكر، ويشرح الحقائق العلمية التى لا تخلو من غموض وخفاء. وأظهرُ ميزات هذا الأسلوب الوضوحُ، ولا بد أن يبدو فيه أثر القوة والجمال، وقوته فى سطوع بيانه ورصانة حججه، وجماله فى سهولة عباراته وسلامة الذوق فى اختيار كلماته، وحُسن تقريره المعنى فى الأفهام من أقرب وجوه الكلام.

فيجبُ أن يُعنى فيه باختيار الألفاظ الواضحة الصريحة فى معناها الخالية من الاشتراك، وأن تؤلَّف هذه الألفاظ فى سهولة وجلاء، حتى تكون ثوبًا شَفًّا للمعنى المقصود، وحتى لا تصبح مثارًا للظنون، ومجالاً للتوجيه والتأويل.

ويحسن التنحّى عن المجاز ومُحسِّنات البديع فى هذا الأسلوب؛ إلا ما يجىء من ذلك عفوًا من غير أن يمس أصلاً من أصوله أو ميزة من ميزاته. أما التشبيه الذى يُقصد به تقريب الحقائق إلى الأفهام وتوضيحُها بذكر مماثلها، فهو فى هذا الأسلوب حسن مقبول.

ولسنا فى حاجة إلى أن نلقى عليك أمثلة لهذا النوع، فكتبُ الدراسة التى بين يديك تجرى جميعُها على هذا النحو من الأساليب.

---

(٨) الصلاة: الرحمة. والحنوط: طيب يخلط للميت. يدعو لها بأن تكون رحمة الله لها بمنزلة الحنوط للميت.

(٩) ابن وكيع: شاعر مجيد، أصله من بغداد، ولد فى تنيس بمصر وتوفى بها سنة ٣٩٣ هـ وله ديوان شعر.

(٢) الأسلوب الأدبى: والجمال أبرز صفاته، وأظهر مميزاته، ومَنشأُ جماله ما فيه من خيال رائع، وتصوير دقيق، وتلمُّس لوجوه الشبه البعيدة بين الأشياء، وإلباس المعنوىّ ثوب المحسوس، وإظهار المحسوس فى صورة المعنوىّ.

فالمتنبى لا يرى الحُمَّى الراجعة كما يراها الأطباء أثرًا لجراثيم تَدخل الجسم فترفع حرارته وتسبب له رِعْدة وقُشَعْريرَةً. حتى إذا فرغت نوبتُها تَصبَّب الجسم عرقًا، ولكنه يُصوِّرها كما تراها فى الأبيات الآتية:

وَزائِرتى كأَنَّ بها حَيـــاءً ... فلَيْس تَــزُورُ إلا فى الظــلاَّم(١)
بَــذَلتُ لَهَا المَطَــارف والحَشَــايَا ... فَعَـافتهـا وبـاتتْ فى عظـامى(٢)
يضيقُ الجلــدُ عَنْ نَفسِى وعنهــا ... فَتُــوسِعُــهُ بِأنــواعِ السَّقــام(٣)
كأنَّ الصبحَ يطْــرُدُها فتجــرى ... مَـدامِعُهـا بـأربعـة سجـام
أراقِبُ وقْتَهـــا مِنْ غَيْرِ شَـــوق ... مُـرَاقَبَــةَ المَشُــوقِ المُسْتَهَــام(٤)
ويصْـدُقُ وعْـدُهَـا والصِّـدْقُ شرٌّ ... إذَا ألْقـاكَ فى الكُـرَبِ العِظـام(٥)
أبِنتَ الـدَّهْـرِ عِنْـدى كلُّ بنْتٍ ... فكيف وصَلتِ أنتِ مِن الزِّحام؟(٦)

والغُيُوم لا يراها ابن الخياط(٧) كما يراها العالمُ بخارًا مُتراكِمًا يحُولُ إلى ماء إذا صادف فى الجو طبقة باردة، ولكنه يراها:

كأنَّ الغيــومَ جُيُــوشٌ تَســومُ ... من العدْل فى كلِّ أرض صـلاحا(٨)
إذا قـــاتَلَ المحْلَ فيهــا الغمامُ ... بصَـوبِ الرِّهـام أجَادَ الكِفاحَـا(٩)

---

(١) الـواو: واو رب، أى رب زائرة لى، يريـد بهذه الزائرة الحمى وكـانت تأتيـه ليلا، يقـول: كأنها فتاة ذات حيـاء؛ فهى تزورنى تحت سواد الليل.

(٢) المطارف: جمع مطرف كمكرم وهو رداء من خز، الحشايا: جمع حشيـة وهى الفراش المحشو، وعافتها: أبتها. يقول: هذه الزائرة، أى الحمى، لا تبيت فى الفراش، وإنما تبيت فى العظام.

(٣) يقـول: جلدى يضيـق عن أن يسع أنفاسى ويسعهـا، فهى تـذيب جسمى وتـوسع جلـدى بما تصيبه بـه من أنـواع السقام.

(٤) يقول: إنه يراقب وقت زيارتها خوفًا لا شوقًا.

(٥) يريد بوعدها: وقت زيارتها، ويقول إنها صادقة الوعد لأنها لا تتخلف عن ميقاتها، وذلك الصدق شر، لأنها تصدق فيما يضر.

(٦) يـريد ببنت الـدهر الحمى، وبنـات الدهـر شدائده، يقـول للحمى: عندى كل نـوع من أنواع الشـدائد، فكيف لم يمنعك ازدحامهن من الوصول إلىّ؟

(٧) ابن الخياط: شاعر من أهل دمشق، طـاف بالبلاد يمتدح الناس، وعظمت شهرته. وله ديـوان شعر مشهور، توفى بدمشق سنة ٥١٧هـ.

(٨) تسوم من العدل فى كل أرض صلاحًا، أى: تولى كل أرض صلاحًا بالخصب والنماء.

(٩) المحل: الجدب وهو انقطـاع المطر ويبس الأرض من الكلأ، والصـواب: نزول المطر، والرهـام: جمع رهمة وهى المطر الضعيف الدائم، والكفاح: القتال والمدافعة.

يُقَرطِسُ بالطَّلِّ فيه السِّهامَ ... ويُشرِعُ بالوَبْلِ فيهِ الرِّماحا(١)
وسلَّ عليهِ سُيُوفَ البرُوقِ ... فأثخَن بالضرْب فيه الجراحا(٢)
تُرى ألسنُ النَّوْر تُثنى عَليهِ ... فتَعْجَبُ منهن خُرْسًا فصاحا(٣)

وقد يتظاهر الأديب بإنكار أسباب حقائق العلم، ويَتلمَّس لها من خياله أسبابًا تُثبت دعواه الأدبية وتُقوِّى الغرض الذى ينشدُهُ، فكَلَفُ البدر الذى يظهر فى وجهه ليس ناشئًا عما فيه من جبال وقيعان جافة كما يقول العلماء، لأن المعرِّى(٤) يرى لذلك سببًا آخر، فيقول فى الرثاء:

وما كلفةُ البدْرِ المُنير قَديمة ... ولكنها فى وجْههِ أثرُ اللَّطمِ(٥)

ولا بد فى هذا الأسلوب من الوضوح والقوة؛ فقول المتنبى:

قِفى تغرم الأولى من اللَّحْظِ مُهجتى ... بِثانيةٍ والمُتْلِفُ الشىءَ غارِمُهْ(٦)

غير بليغ؛ لأنه يريد أنه نظر إليها نظرة أتلفت مهجته، فيقول لها قفى لأنظر نظرة أخرى ترد إلىَّ مهجتى وتُحييها، فإن فعلتِ كانت النظرة غرمًا لما أتلفته النظرة الأولى.

فانظر كيف عانينا طويلاً فى شرح هذا الكلام الموجز الذى سبَّب ما فيه من حذف وسوء تأليف شِدَّة خفائه وبُعده عن الأذهان، مع أن معناه جميل بديع، وفكرته مُؤيَّدة بالدليل.

وإذا أردت أن تَعرف كيف تَظهر القوةُ فى هذا الأسلوب، فاقرأ قول المتنبى فى الرثاء:

ما كنتُ آمُلُ قبلَ نعْشكَ أن أرى ... رضوَى على أيدِى الرجَالِ يَسيرُ(٧)

ثم اقرأ قول ابن المعتز(٨):

---

(١) القرطاس: الغرض أو الهدف، ويقال: قرطس الرامى إذا أصاب القرطاس أى: الغرض، فهو يقول: إن الغمام يسدد السهام إلى المحل فيقضى عليه، ومعنى يشرع الرماح: يسددها، والوبل: المطر الشديد الضخم القطر.

(٢) أثخن بالضرب فيه الجراح: بالغ الجراحة فيه.

(٣) النَّور: الزهر.

(٤) المعرى: هو أبو العلاء المعرى اللغوى الفيلسوف الشاعر المشهور، ولد بالمعرة وهى بلد صغير بالشام، وعمى من الجدرى وهو فى الرابعة من عمره، وتوفى بالمعرة سنة ٤٤٩ هـ.

(٥) الكلفة: حمرة كدرة تعلو الوجه.

(٦) غرم ما أتلفه: لزمه أداؤه. وتغرم: جواب قفى، وفاعله: الأولى، ومن اللحظ: بيان للأولى، ومهجتى: مفعول تغرم.

(٧) رضوى: اسم جبل بالمدينة، شبه المرثى به لعظمته وفخامة قدره.

(٨) ابن المعتز: هو عبد الله بن المعتز العباسى، أحد الأدباء العباسيين، منزلته فى الشعر والنثر رفيعة. ويشتهر بتشبيهاته الرائعة، وهو أول من كتب فى البديع، توفى سنة ٢٩٦ هـ.

قـدْ ذَهَب النـاسُ ومـات الكمالْ ... وصَاحَ صَرفُ الـدَّهر أينَ الـرِّجالْ؟

هــذَا أبـو العبَّـاس فى نَعْشِـه ... قُـومُـوا انظُـروا كيف تسيرُ الجِبـالْ

تجد أن الأسلوب الأول هادئ مطمئن، وأن الثانى شديدُ المِرَّة عظيـم القوة، وربما كانت نهايةُ قوته فى قوله: «وصاح صرفُ الدهر أين الرجالْ» ثم فى قوله: «قوموا انظروا كيف تسير الجبال».

وجملة القول أن هـذا الأسلوب يجب أن يكون جميلاً رائعًـا بديع الخيال، ثم واضحًا قـويًّا. ويظن الناشئون فى صناعة الأدب أنه كلما كثر المجاز وكثرت التشبيهات والأخيلة فى هذا الأسلوب زاد حسنه، وهـذا خطأ بيِّن، فإنه لا يـذهب بجمال هذا الأسـلوب أكثـر من التكلف، ولا يفسده شرٌّ من تَعمُّـد الصناعة، ونعتقد أنه لا يعجبك قول الشاعر:

فأمْطَرتْ لـؤلؤًا من نَـرجِس وسقَتْ ... وَرْدًا وعَضَّتْ على العُنَّـاب بـالبَرَدِ[1]

هذا ومن السهل عليك أن تعرف أن الشعر والنثر الفنى هما مَوطِنا هذا الأسلوب، ففيهما يبلغ قُنَّة الفنِّ والجمال.

(٣) الأسلوب الخطابى: وهنـا تبرُزُ قوة المعـانى والألفاظ، وقـوة الحجـة والبرهان، وقـوة العقل الخصيب، وهنا يتحدث الخطيـب إلى إرادة سامعيه لإثارة عزائمهم واستنهـاض هممهم. ولجمال هذا الأسلوب ووضوحه شأن كبير فى تأثيره ووصوله إلى قرارة النفوس، ومما يزيد فى تأثير هذا الأسلوب منزلة الخطيب فى نفوس سـامعيه وقـوةُ عارضتـه، وسطوع حجتـه، ونَبَرات صوته، وحُسـنُ إلقائه، ومُحكم إشارته.

ومن أظهر مميزات هذا الأسلوب التكرارُ، واستعمال المترادفات، وضربُ الأمثال، واختيار الكلمات الجزلـة ذات الـرنين، ويحسن فيـه أن تتعـاقـب ضروب التعبير من إخبـار إلى استفهـام إلى تعجب إلى استنكار، وأن تكون مواطن الوقف فيه قوية شافية للنفس. ومن خير الأمثلة لهذا الأسلوب خطبة على ابن أبى طالب[2] ـ رضى الله عنـه ـ لمَّا أغار سُفيانُ بن عـوفٍ الأسدِى[3] على الأنبارِ[4] وقتل عامله عليها:

«هذا أخُو غامدٍ قد بَلغَتْ خيلُه الأنْبار وقَتَلَ حسَّانَ البَكرىَّ[5] وأزالَ خيلكُم عن مَسَالِحِها[6] وقتلَ منكم رجالاً صالِحِين.

---

(١) العناب: ثمر أحمر تشبه به الأنامل، والبرد: حبّ الغمام، وتشبه به الأسنان.

(٢) على ابن أبى طالب: هـو رابع الخلفاء الراشدين، وأحـد السابقين فى الإسلام، وابن عم رسول الله ﷺ وصهـره. وقد اشتهر ببلاغته وشجاعته، توفى سنة ٤٠ هـ.

(٣) سفيان بن عوف الأسدى: هو أحد بنى غامد، وهى قبيلة باليمن، وقد بعثه معاوية لشن الغارة على أطراف العراق.

(٤) الأنبار: بلدة على الشاطئ الشرقى للفرات.

(٥) حسان البكرى: هو عامل على ـ رضى الله عنه ـ على الأنبار.

(٦) المسالح: جمع مسلحة، بالفتح، وهى الثغر حيث يخشى طروق العدو.

وقد بلَغَنى أن الرَّجُلَ منهُم كان يَدْخُل على المرأةِ المُسلِمة والأخرى المعاهِدة[١]، فيَنزعُ حِجْلَهَا[٢]، وقُلْبَهَا[٣]، ورِعَاثَهَا[٤]، ثم انصَرفوا وَافِرِين[٥] ما نالَ رجلا منهم كَلْم[٦]، ولا أُريقَ لهم دَمٌ، فلو أن رجُلا مُسْلمًا مات مِنْ هذا أَسَفًا، ما كان به ملومًا، بل كان عِنْدِى جديرًا.

فَواعجَبًا مِنْ جِدِّ هؤلاء فى بَاطِلِهم، وفَشَلِكُمْ عنْ حقِّكُم. فَقُبْحًا لَكُم حِين صِرْتُم غَرَضًا يُرْمَى[٧]، يُغار عليكم ولا تُغِيرُون، وتُغْزَوْن وَلا تغزونَ، ويُعْصى الله وترْضَوْن»[٨].

فانظر كيف تـدرج ابن أبى طالب فى إثارة شعور سامعيه حتى وصل إلى القمَّـةِ فإنه أخبرهم بغَزْو الأنبـار أولاً، ثم بقتل عامله، وأنَّ ذلك لم يكُف سُفْيـان بن عوْف فأغْمـد سيـوفه فى نحـور كثير من رجالهم وأهليهم.

ثم تـوجه فى الفقرة الثـانية إلى مكـان الحمية فيهم، ومثـار العزيمـة والنخوة من نفس كل عـربى كريم، ألا وهو المرأة، فإن العرب تبذل أرواحها رخيصة فى الذود عنها، والدفاع عن خِدرها. فقال: إنهم استباحوا حماها، وانصرفوا آمنين.

وفى الفقرة الثالثة أظهر الدَّهَش والحَيْرة من تمسك أعدائه بالباطل ومناصرته، وفشل قومه عن الحق وخذلانه. ثم بلغ الغيظ منه مبلغه فعَيَّرهم بالجُبن والخَوَر.

هذا مثال من أمثلة الأسلوب الخطابى نكتفى به فى هذه العجالة، ونرجو أن نكون قد وُفقنا إلى بيان أسرار البلاغة فى الكـلام وأنواع أساليبه، حتى يكون الطالب خبيرًا بأفـانين القول، ومواطن استعمالها وشرائط تأديتها، والله الموفق.

---

(١) المعاهدة: الذمية.
(٢) الحجل: الخلخال.
(٣) القلب، بالضم: السوار.
(٤) الرعاث: جمع رعثة، القرط.
(٥) وافرين: تامين على كثرتهم لم ينقص عددهم.
(٦) الكلم، بالفتح: الجرح.
(٧) الغرض: ما ينصب ليرمى بالسهام ونحوها.
(٨) يشير بالعصيـان إلى ما كـان يفعله جيش معـاوية من السلب والنهب والقتل فى المسلمين والمعـاهدين، أمـا رضا أهل العراق بهذا العصيان، فكناية عن قعودهم عن المدافعة، إذ لو غضبوا لهموا إلى القتال.

رأى الأستاذ على الجارم

فى الشعر والشعراء (*)

بمناسبة وفاة الشاعرين شوقى وحافظ

لو أردت أن أصـور لك تلك الجوانب الضافية، التى تتميز بها شخصيـة العالم الأديب، والأديب العالم، والشـاعر الفحل الأستاذ «الجارم» لطال بى القـول؛ وحسبى أن أقول لك إنه عالم فـذ فى فنون اللغة والبلاغة والأدب، وبَحَّاثة بعيد الغور فى تاريخ اللغة وما يتصل بها من: نحو وصرف، وبيان. وهو حين يزجى إليك رأيًا من آرائه، إنما يحرص على أن يدفع إليك الـرأى الرصين، والفكرة السديدة، والعقل الراجح، والمنطق المتـزن، والقول الفاره، والكلام السهل الممتنع. ثم يحرص ـ إلى ذلك ـ على أن يكون رأيه مشفـوعًا بالحجة والبرهـان، مقترنًا بالمنطق والدليل. وقـد يكون كل ما يؤخـذ عليه أنه ـ وهو الشاعر الفحل، الرائع اللفظ، السَّرِى المعنى، البعيد الخيـال ـ مُقِل فى قول الشعر، فلا يقوله إلا فى أدق ساعاته، لا عن عجز، وإنما سموًّا به عن الابتذال، وترفعًا عن المهاترة.

فاجأتـه فى منزله بهذه الأسئلة، فأدهشنى منـه أن يرتجل الإجابة عنها ارتجالاً، كأنما يقـرأ من كتاب أمامه، أو يتلو قصيدة لما يتمها بعد، أو كأننا كنا على موعد سابق. وهأنذا أقدم إليك ما علق بذهنى من هذا الحديث، الذى بدأه بقوله:

هل أحدث موت الشاعرين فراغًا؟

إنه لمن العسف كل العسف أن ننكـر أن ثمة فـراغًا هائلاً قـد حدث إثر مـوت هذين الشـاعرين العظيمين، الذين أعـادا من جديـد سلطان الشعر إلى سـابق عهده، وبسطـا ظل زعامتـه فى الوادى بسطًا، على أن هـذا الفراغ لا ينبغى أن يصرفنا بحال من الأحـوال عن تلمس الشاعر المجهـول الذى

(*) مجلة المعرفة الجزء التـاسع ـ السنة الثانية ـ المجلـد الرابع ـ العدد ٢١ أول ينايـر سنة ١٩٣٣ (رمضان ١٣٥١ هـ) ص ١٠٣٨ ـ ١٠٤٣. رئيس التحرير: عبد العزيز الإسلامبولى.

سيصبح أمير الشعر؛ وإذا كان هذا الشاعر المنتظر نسميه الآن بالمجهول ونعبر عنه بالحرف (س) كما يعبر الرياضيون، فإن المستقبل كفيل بالكشف عنه والإيماء إليه.

وهذا الذى رأيناه من تمجيد الأمة للشعر: حكومة وشعبًا، سيكون باعثًا قويًا على خلق الروح الشعرية الحساسة، وبعث الشاعر الفنان الذى يؤدى رسالته فى عزم وقوة، وفى تجديد وتجويد، وفى روعة وافتنان؛ بل أستطيع أن أقول لك إن هذه الظاهرة ـ ظاهرة التقدير الأدبى للشعر والشعراء ـ ستحفز الشعراء إلى الإبداع فى القول، والافتنان فى الوصف، والتجويد فى البناء، والغوص وراء المعانى الرائعة، وتلمس المثل العالية، وكشف العواطف الإنسانية الدفينة، وتصوير الخوالج النفسية المصرية تصويرًا دقيقًا.

وقد يكون من حقى أن أعتقد اعتقادًا تام اليقين، أن الثغرة ـ التى منينا بها الآن بعد موت الشاعرين ـ أقل اتساعًا وأصغر مدى من تلك التى أحدثها موت «البارودى» فى عصره، وأنت تعلم ذلك الأثر الهائل الذى أحدثه موت «البارودى» فى دولة الأدب وبنيان الشعر، وقد تعلم أن الناس وقتذاك قد ذهبوا يتلمسون السبل فى تعرف الشاعر المنتظر، بل راحوا يظنون الظنون ويتنبئون ويقدرون، فتأبى الأقدار إلا أن تفاجئهم بـ «شوقى»، ليكون إعجازًا لإرهاص «البارودى» كما كان «البارودى» إعجازًا لإرهاص «الساعاتى».

أما كيف تسنم «شوقى» ذروة هذا المجد، فيعود إلى ما آتاه الله من المواهب الفطرية، والأخلاق الرضية، وبسطة العيش، والجاه، واتصال بالأمراء والعظماء، وسعة الثروة، والفراغ، وهدوء البال؛ فإن كل ذلك كان سببًا، وأى سبب، فى قبضه على صولجان الشعر حتى وفاته.

وقد كان «شوقى» مثقفًا بالغ الثقافة، متذوقًا كل التذوق لما يقرأ ويدرس من أدب العرب، ودواوين العرب، ولغة العرب، وأدب الفرنجة، ولغة الفرنجة، . أضف إلى ذلك ما كان يحفظه من تواريخ الأمم، وحوادث العالم فى مختلف مراحله. مما يجعل شعره مملوءًا بالأسانيد التاريخية، والحكم، وضرب المثل، والتفنن فى الوصف، والبراعة فى التخلص، وحسن المدخل، وجميل الوقع.

وقد فاتنى أن أقول لك: إن أبرز ميزة كانت فى أخلاق «شوقى»، إنما هى الاستسلام إلى الخالق تعالى، والرضا بحكمه، والاطمئنان إلى قضائه وقدره، اطمئنانًا وفَّر له هدوء النفس وطمأنينة القلب، وراحة الضمير.

وقد لمست هذا كله فى محادثاتى معه، ومن صداقتى له؛ فعرفت منه السر فى هذا الينبوع الفائض، الذى أفاضه الله عليه؛ فإذا قدر لشاعر من شعرائنا المعاصرين هذا الذى ذكرت، فليس من شك فى أنه سيصبح أمير الشعر المنتظر.

مستقبل الشعر والشعراء

وتسألنى رأيى فى مستقبل الشعر، إذًا فاسمع :

لا شك فى أن الشعر سينهض نهوضًا بارزًا، وقد تأثر الآن بعوامل المدنية، وأصبح فى كثير من نواحيه صورة صادقة للعصر الذى نعيش فيه، وقد عاد أسلوبه إلى ما كان عليه من روعة فى العصر العباسى الزاهر، وأصبح ـ مرة أخرى ـ فنًّا له أصوله ومبادئه، وهو يقال الآن فى مختلف الموضوعات، ومتعدد الأفانين. والشعراء يتوجهون إليه فى غالب أحيانهم كما يتوجه رجل الفن إلى قطعة من الفن، يبرزها رغبة فى إظهار مواهبه، وتنفيسًا عما يجيش فى نفسه من صور، ويختلج فى ذهنه من خيال؛ فهو يقول الشعر لأنه يحبه، ولأنه جزء من نفسه، ولأن الفطرة تدفعه إلى أن يقوله. ولا شك فى أن ذلك كفيل بالإبداع والإحسان.

هل تأثر الشعر العربى بالثقافة الأجنبية؟

وتقول لى : إن الشعر العربى قد تأثر ـ إلى حد بعيد ـ بالثقافة الأجنبية، ولست أخالفك فيما تذهب إليه كل المخالفة، ولكنى أقول :

إن الشعر العربى كان قليل التأثر بالثقافة الأجنبية؛ لأن شعراء العربية أرادوا أن يحافظوا على أسلوب شعرهم القديم ومناهجه، ولم يريدوا أن يدخلوا عليه عاصفة من التجديد تذهب بآثاره؛ لأنهم رأوا ـ وما رأوه حق ـ أن كل فن يجب أن يكون مطبوعًا بطابع الأمة، ملائمًا ذوقها العام، ومثل الشعر فى ذلك الموسيقى. أرأيت لو أدخل على النغمات الشرقية عنصر من النغمات الغربية، أكانت تطرب لها أذنك، أم تهش لها نفسك؟ . . . فلكل أمة فنها، ولكل أمة ذوقها؛ لذلك حافظ الشعراء ـ ما استطاعوا ـ على أوزان الشعر وأساليبه وأخيلته، ولم يغفلوا التجديد فى المعانى والموضوعات، وقد اتسع صدر الشعر العربى لهذا التجديد، ولم تضق به أوزانه ولا قوافيه؛ لأن اتساع اللغة وكثرة مفرداتها ومترادفاتها، أفسح الطريق لكل قائل، كيفما طال نفسه، وأبعد فى مراميه.

أين الوحدة الموضوعية الفنية؟

وهنا قلت له : إن أغلب قصائد شعراء العرب والعصر الحاضر خال من الوحدة الموضوعية الفنية، فما رأيكم فى هذا؟

فقال : نشأ الشعر فى الجاهلية الأولى مظهرًا لخطرات النفس وأحاسيس الفؤاد، وبخاصة حينما كانوا يرتجلون الشعر، فكان الشاعر ينتقل من فكرة إلى أخرى، ومن مظهر من مظاهر الوجدان إلى آخر؛ لأن أصول الفن الشعرى لم تكن وضعت، فكان الشعر يقال عفو الخاطر ورسالة البديهة، وتستطيع أن تمثل لذلك بمعلقة «طرَفة»، فقد تنقل فيها من وصف الأطلال إلى وصف الناقة إلى وصف محبوبته إلى الشكوى، إلى وصف ملاهيه ومجونه . . . إلى غير ذلك.

واستمر الشعر فى صدر الإسلام، وفى عهد بنى أمية على هذا السنن، إلا ما يبرز أحيانًا فى قصائد الشاعر من وصف الحياة الجديدة التى ابتعثتها الفتوح الإسلامية، وإلا ما كان من رشاقة الألفاظ ورقتها، مما تأثر فيه المسلمون بأسلوب القرآن الكريم، أى أن الأسلوب الشعرى الفنى تهذب كثيرًا واتسع مجال القول قليلاً بفنون جديدة؛ أما هيكل الشعر ومنهجه ومثله، فقد بقيت حافظة كيانها العربى الصميم، وربما كان من أسباب هذا قرب ذلك الجيل من عهود العرب الأولى، وشدة تعصب الأمويين للعرب والعربية؛ على أننا نرى فى ذلك العصر طائفة احتفظت بوحدة الموضوع فى قصائدها، وهم طائفة الشعراء الغزليين: كعمر بن أبى ربيعة، وجميل بثينة، وغيرهما ممن كان يبنى قصيدته على الغزل من أولها إلى آخرها، بحيث تكون مظهرًا لفكرة واحدة.

ولما جاءت الدولة العباسية ـ وقد قامت بمناصرة الفرس وجهادهم ـ كان للفرس والفارسية شأن يذكر، فانتقلت الحياة العربية الصميمة من البداوة إلى الحضارة، وامتزج العقل السامى بالعقل الآرى، ونهض الخلفاء فى صدر الدولة العباسية بمناصرة العلم والأدب، فترجموا كثيرًا من آثار اليونان والرومان؛ وكان لهذه الآثار مدى بعيد الأفق فى تثقيف العقول العربية، وإمدادها بألوان جديدة من الأفكار والأخيلة؛ وظهر هذا الأثر فى الشعر العباسى من غير شك، وكثرت معانيه، وجددت أخيلته، ورقت عبارته، وكان مظهرًا صحيحًا للحياة العباسية، يمثلها من حيث قوتها واتساع سلطانها، وعظم ثروتها، ومجالات الأنس والسرور فيها.

وقد اتسع نطاق متن اللغة بدخول كثير من الألفاظ الأعجمية بعد أن صقلها العرب بصقالهم، فامتزجت بلغتهم غير مستوحشة ولا نابية، وأصبحت ثروة جديدة للغة العربية؛ وقد كان يكون التجديد أعظم مما شهدناه، لولا ميل فطرى فى نفوس الشعراء للتمسك بآثار آبائهم، والمحافظة على مبانى الشعر وقواعده، ولولا أن كان هناك طائفة من النقاد على رأسهم الأصمعى، وحماد الراوية، وغيرهما ـ الذين كانوا يتعصبون للشعر العربى القديم، ويعدون كل خروج عليه خروجًا عن ذوق الشعر، وتقصيرًا عن بلوغ مداه ـ فكانوا لا يفضلون على الشعر الجاهلى شعرًا، وكان لهؤلاء من النفوذ بين كبار رجالات الأدب وزعماء الدولة الشىء الكثير، فكان الشعراء يتعمدون ترسم آثار السابقين لينالوا الزلفى عند هؤلاء النقاد.

وأول من أطلق فكره من هذه الأغلال ـــ على ما أعرف ـــ ابن قتيبة الذى وضع كتابه «الشعر والشعراء» لنقد زيف الشعر وصحيحه، دون التأثر بالقديم أو الجديد.

وقد حاول «أبو نُواس» الخروج على الشكل العربى فى بعض قصائده، فأخذ يهزأ بمن يبكون على الأطلال، ويندبون الرسوم فى طلائع قصائدهم، وهو الذى يقول:

صفة الطلول بلاغة الفدم   فاجعل حديثك فى ابنة الكرم

وله ما يشبه هذا المطلع فى النعى على التمسك بالقديم، ولكننا نراه فى بقية شعره يحافظ على هذا السنن، ويأخذ نفسه به أخذًا. على أن الشعر قد ظهر فيه تجديد فى الأوزان فى هذا العصر؛ ولمسلم بن الوليد ـ وهو من وزن جديد ـ قوله:

يأيها المعمود	قد شفك الصدود
فأنت مستهام	حالفك السهود
تبيت ساهرًا قد	ودعك الهجود
وفى الفؤاد نار	ليس لها خمود

ولغيره من شعراء العباسيين أمثال لهذا، منثورة فى كتب الأدب.

وقد وجد شىء من التجديد فى القافية أيضًا، تراه واضحًا فى ديوان ابن المعتز.

فالتجديد فى هذا العصر حصل فى الوزن والقافية كل على حدة، ثم جاء ابتكار الموشح الأندلسى فجمع بينهما، فهو تجديد فى الوزن، وتجديد فى القافيه معًا، والموسيقى هى التى دفعت إلى ابتكار الموشح.

الشعر والموسيقى

ومن ثم سألنا الأستاذ أن يشرح لنا العلاقة بين الشعر والموسيقى، وعما إذا كان فى أشعار العرب ما يشبه ملاحم اليونان، فقال:

كان الشعر لا يسلس قياده لنغمات الموسيقى، فرأى الأندلسيون أن يضعوا النغمات أولاً، ثم يقولوا الشعر على هواها ثانيًا، وبذلك خضع الشعر للموسيقى، بعد أن خضعت الموسيقى للشعر طويلاً.

أجل، إن الشعراء فى هذا العصر لم يتجاوزوا الموضوعات المعروفة إلا قليلاً، فلم ينحوا نحو الشعر التمثيلى أو القصصى، الطويل القصائد، الكثير الملاحم، البعيد النفس؛ لأن الاهتمام ـ على ما يظهر لى ـ بترجمة العلوم كان فوق الاهتمام بترجمة الآداب، ولأن اتجاه الشعراء ـ فى أغلب مناحيه ـ كان للتكسب بالشعر؛ على أن الشعراء فى هذا العصر لم يتركوا حادثة ذات شأن من غير أن يسجلوها فى أشعارهم، وشعر المتنبى فياض بوصف وقائع سيف الدولة وملاحمه، ويكفى أن تقرأ قصيدته التى استهلها بقوله:

على قدر أهل العزم تأتى العزائم	وتأتى على قدر الكرام المكارم

لتعرف أن العرب لم يقصروا فى وصف الملاحم وتصوير الوقائع، ثم اقرأ بعد ذلك قصيدة أبى تمام فى وصف فتح «عمورية» التى استهلها بقوله:

السيف أصـــدق أنبـــاءً من الكتب	فى حـــده الحد بين الجد واللعب

تجد وصفًا ممتعًـا وتصويرًا دقيقًا للملحمـة. نعم، إن هذه القصائد ليست بالطـوال، ولكنها على قصرها وافية بالغرض الذى سيقت له وقيلت فيه.

فنحن نستطيع الآن أن نقـول: إن التجـديد فى الشعـر العبـاسى كـان جليًّا، ولكنـه حـافظ على أسلوب الشعر العربى القديم وسننه ومناهجه.

تطور الشعر

ثم انتقل الشعر بعد الـدولة العباسية انتقالاً آخـر، وكان لذلك تمهيد؛ ابتـدأ من «المعرى» أو بعد وفاته بقليل، وكان زعيم هذا الانتقال القاضى الفاضـل، فهو مؤسس الطريقة الفاضلية فى النثر، وقد سلك الشعراء طريقها فى الشعر، فأصبحت العناية بالألفاظ وزخرفتها وتزيينها متجه الشاعر وغايته، ولم يكن البحث عن المعانى ونضارة الأساليب العربية فى هذا العصر بالذى يستثير اهتمامهم. وهو نوع من التجديد أرادوا أن يسلكوا به طريقة جديدة فى صياغة الشعر، وقد بلغت هذه الصياغة حد كمالها فى الصدر الأول من عهد المماليك، وكان زعيم الشعراء فيها ابن نباتة فى مصر، والصفدى فى الشام.

وتسألنى رأيى فى هذا الشعر فأقـول لك: إننا لم نوفه حقه من الدرس والعنـاية، وإننا بهرنا بجمال الشعر العباسى فانصرفنا إليه جملة، ولم نأبه إلا قليلاً لقراءة الشعر فيما يليه من العصور.

إن شعر عصر المماليك شعـر مصرى فى روحه ونزعتـه وموضوعاتـه، فمن العناية القـومية أن نعنى بدرسه وتحليله والنفوذ منه إلى تاريخ هذا العصر، قبل أن نعنى بشعر بغداد وما وراء النهر.

ونستطيع أن نسمى هذا العصر عصر الزينة والجمال، فقد كـان الجمال متملكًا فيه كل نفس، وقد ظهر أثـر ذلك فى مساجـد المماليك ومواكبهم، وما كـانوا يتحلون بـه ويحلون بـه محافلهم من صنوف الجمال. وقـد كان الشعـر صـورة لهذا الجمال أيضًـا، فكله زخـرف، وكلـه حليـة لفظية، وكلـه جمال مبرقش، تتجلى فيه خفة الروح المصرية، وتظهر فيه النكتة البلـدية بديعة رائعة أخاذة، تدفعك ـ على الرغم منك ـ إلى المرح والابتهاج والإيناس.

مثال ذلك قول «ابن دانيال» الذى كان طبيب عيون بالقرب من «باب الفتوح»:

يـا سـائلى عن حـرفتـى فى الـورى	وا ضيعتـى فيهـم وإفـــلاسـى
مـا حــال من درهـم إنفـاقــه	يأخـــذه من أعين النـــاس؟

وقول الجزار، وقد كان قصابًا بالقاهرة:

كيف لا أمـدح الجزارة مـا عشـ	ـت طـويـلاً وأهجـر الآدابـا
وبها صـارت الكـلاب تـرجينى	وبـالشعـر كنت أرجـو الكـلابـا؟

ثم تقهقر الشعر بعد طائفة ابن نباتة، فأصبح خـاليًا من جمال الزينة، خاليًا من المعانى، واستمر به الضعف حتى نهض نهضته الحديثـة، وكانت أول صحوة له فى شعر «الساعاتـى» الذى ظهرت فيه لمحات من الشعر القـديم والأسلوب القديم، وظهرت فيه مجانفة عن زخـرف اللفظ الذى لم يشفع له شفيع من حسن الذوق أو خفـة الروح، ثم جـاء «البارودى» وغبَّر، فلم يشق له غبـار، وكان فى الحق نادرة الفلك. والسبب فى نهوضه أنه عنى بدراسة شعر السابقين من الجاهليين والأمويين والعباسيين، ولم يـرض أن يقتصر على دراسة عصره ومن سبقهم من الشعـراء بأمـد قريب، كما كـان شأن غيره من الشعراء.

ظل ذلك شأن الشعـر حتى أتاح الله للعـربية «شـوقى» شـاعرهـا الفرد، وبلبلهـا الغرد، الـذى أضحى علم زمانه، فأبدع فى فنون الشعر ومذاهبه ما شاء له الإبداع، وجدد كثيرًا فى معانيه ومبانيه.

* * *

ومجمل القول أن الشعـر العربى كان فيـه باحة للتجـديد قليلاً أو كثيرًا فى عصـوره المختلفة، وأن الشعراء حافظوا ـ جهد طاقتهم ـ على بقاء هذا كله مصونًا من أن يعبث بأركانه عابث، أو يمس بسوء بنيانه، فظل طودًا شامخًا، وبقى أثرًا خالدًا تتنسـم منه أريج آبائنا السابقين وأجدادنا الأولين، ونراهم مفخرة لمجدنا العربى، وبنائنا الإسلامى، وروحنا الشرقى، ومزاجنا القومى.

وسيبقى الشعر ـــ كما كان ـ تـزخر بحوره بما كان للعـرب من: أدب رائع، وخيال ساحـر، وبيان آسر، وتصوير ماهر.

البوصيري (*)

هل لنا شعر مصرى نعتز به؟ وهل كان لنا شعراء مصريون جديرون بالتقدير؟ هذان سؤالان يدور حولهما فى هذه الأيام نقاش وحوار محتدمان، فما هو وجه الصواب فى الأمر؟

ذلك ما ندع الجواب عنه للأستاذ الجارم، الذى سيتولى نشر خلاصة دراساته الخاصة فى هذا الموضوع الجليل، مبتدئًا بدراسة «البوصيرى» الشاعر المصرى المعروف.

المحرر: عبد العزيز الإسلامبولى

مولـــده:

ولد سنة سنة ٦٠٨ هـ فى دلاص، وهى قريبة من بنى سويف، وكان أحد أبويه من بوصير، والآخر من دلاص، فركبت له نسبة من البلدتين، فقيل الدلاصيرى، ثم اشتهر بالبوصيرى. ونحن نجهل كثيرًا جدًّا من حياة البوصيرى، وكلما لجأنا إلى كتاب نراه يشكو من غموض سيرته، وقلة ما يمكن أن يقال حول حياته؛ فلسنا نعرف عن أبيه شيئًا، ولسنا نعرف عن نشأته الأولى شيئًا، ولكننا نستطيع أن ندعى أنه انتقل إلى القاهرة فى أول شبابه لتلقى العلم، لأنها أقرب مراكز العلم إلى بلدته، فتلقى علوم العربية والأدب، ووصل فيهما إلى غاية محمودة، حتى ليخبرنا ابن حجر الهيتمى الذى شرح الهمزية، أن من تلاميذه الإمام أبا حيان الذى ولد سنة ٦٥٤، ومات سنة ٧٤٥، وكان إمامًا فى النحو والتصريف والحديث. ومنهم الإمام اليعمرى فتح الدين بن سيد الناس، وكان من كبار المحدثين، ولد سنة ٦٦١ ومات سنة ٧٣٤.

وكان مولد البوصيرى فى أيام الملك العادل سيف الدين أبى بكر، وهو الرابع من ملوك بنى أيوب.

(*) مجلة المعرفة: الجزء الأول، السنة الثالثة ـ المجلد الخامس مايو سنة ١٩٣٣. محرم سنة ١٣٥٢. ص ١١ - ١٥.

وكانت القاهرة ـ فى الوقت الذى يظن أن البوصيرى وفد عليها فيه ـ كثيرة المعاهد والمدارس، تموج بعلماء العربية والفقه والحديث والتفسير ورجال الشعر والأدب.

ولسنا نعرف متى بدأ البوصيرى قول الشعر، فإننا لا نجد فى الديوان الذى بأيدينا شيئًا قاله فى أيام الدولة الأيوبية، وقد زالت وهو فى سن الأربعين، وعاصر من شعرائها عددًا غير قليل، منهم ابن النبيه المتوفى سنة ٦٢١، وراجح بن اسماعيل الحلى المتوفى سنة ٦٢٧، وعمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢، وابن مطروح المتوفى سنة ٦٥٤، والبهاء زهير المتوفى سنة ٦٥٦. ولعله قال شعرًا قليلاً أو كثيرًا فى الدولة الأيوبية لم يحفل الناس بجمعه.

شعره:

ونستطيع أن نقسم شعر البوصيرى أقسامًا ثلاثة:

القسم الأول: ما قاله فى مدح الوزراء والكبراء، **والثانى**: ما قاله فى شئونه الخاصة، وفيه كثير من الشكاية المرة أحيانًا، والفكاهة العذبة أحيانًا أخرى. **والثالث**: ما قاله فى المدائح النبوية. وهذا القسم خير شعره وأجوده حقًا، فإن البون شاسع والمدى بعيد والفارق كما بين القطبين، بين شعره فى مدح الرسول ﷺ وشعره فى شئونه الأخرى، فهناك اللفظ الجزل والمعنى الشريف والأسلوب البديع والرنين الأخاذ والافتنان والسمو والإجادة. ولا نظفر بشىء من ذلك فى شعره الدنيوى إلا كما يظفر الضارب فى الصحراء القفر بموارد الماء ومنابت العشب بين حين وحين. والذى يقرأ مدائح البوصيرى فى الذات النبوية يشعر بقوة الإمام البوصيرى وروحانيته وتأثره الشديد بجلال ممدوحه ومقامه المحمود، ويحس أن الكلام ينبع من قلب الرجل، ويخرج من نفس فنيت فى ممدوحها العظيم، وحلَّقت فى جو كله صفاء ونور. وسنفرد للكلام فى مدائحه هذه فصلاً مسهبًا.

القسم الأول:

يبدأ الإمام البوصيرى القصيدة بأبيات سهلة، يقدمها بين يدى غرضه، قد يكون بها شىء من الغزل الصوفى أحيانًا، كقوله:

عرج برامة إنها لمرامى ... وبجيرة فيها على كرام
نزلوا العقيق فأدمعى شوقًا إلى ... تلك الربى مثل العقيق دوام
ما للديار وللمحب كأنما ... هزجت حمائمه له بحمام
عهدى بها وكأن مُنهلّ الحيا ... دمعى ومصفر البهار سقامى

ثم يسير على هذا الطراز حتى يتخلص إلى المديح تخلصًا سهلاً خاليًا من المهارة الفنية. ويقول فى مطلع قصيدة يمدح بها القاضى فخر الدين لقمان، وكان من المتصلين به:

أريح الصبا هبت على زهر الربى فأصبح منها كلّ قطر مطيّبا؟
أم الراح أهدت للرياح خمورها فأسكر مسراها الوجوه وطيّبا
ألم ترنى هز التصابى معاطفى وراجعنى ما راق من رونق الصبا
فمن مخبرى ماذا السرور الذى سرى فلا بد حتما أن يكون له نبا
فقالوا أعاد الله للناس فخرهم وليًّا إلى كل القلوب محببا
فقلت أفخر الدين لقمان؟ قال لى: بلى قل له أهلاً وسهلاً ومرحبا

والمحاورة هنا جميلة فى قوله: «فمن مخبرى ماذا السرور الذى سرى. . . إلخ». وهى إن دلت على شىء، فإنما تدل على سهولة فى التخيل. وقوة فى تصوير عاطفة طبيعية بعيدة عن التكلف. وكثيرًا ما يستطرد البوصيرى وينتقل من المديح إلى ذم كتاب الدواوين فى أيامه وتنقصهم ورميهم بالظلم والعسف، ثم يعطف إلى إغراء الممدوح بهم، ودعوته إلى القضاء عليهم وكف شرهم عن الرعية البائسة. وهذه ظاهرة بارزة فى شعره، فلا تخلو له قصيدة من النيل من هؤلاء الكتاب فى لغة جارحة، وطعن مؤلم، تمتزج فيها مرارة الغيظ بشىء من الفكاهة القارصة.

استمع إلى قوله فى قصيدة يمدح بها أحد كبار المماليك:

برئت من المستخدمين فخيرهم لصاحبه أعدى وأنكى وأنكر
فلا تدن منهم واحدًا منك ساعة ولو فاح من برديه مسك وعنبر
وبرّد فؤادى بانتقامك منهمو فقد كاد قلبى منهمو يتفطر
منعت بهم حظى شهورًا ولم أصل إلى حظهم حتى مضت لى أشهر

ثم يقول:

أما فيهمو لا بارك الله فيهمو أخو قلم إلا يخون ويغدر؟

ويظهر أن هؤلاء المستخدمين كانوا يماطلون ويسوفون فى إعطائه راتبه، ولعل ذلك من أسباب ضغنه عليهم، ألسنا نراه يقول فى قصيدة أخرى:

من لم يقم لى منهمو بوظيفتى جرسته بملامتى تجريسا

وله قصيدة نونية طويلة فى هذا الموضوع كلها هجاء مؤلم ونقد لاذع.

وقد يستطرد فى قصائده إلى ذم الشعراء فى عصره ذمًّا قبيحًا فى جرأة وتحدٍ، كقوله:

ومهما رآنى شاعر متأسد تذاءب منى خيفة وتثعلبا
أراقب من عاشرت منهم كأننى أراقب كلبًا أو أقارب عقربا
كأنى إذا أهديهمو من ضلالهم أُبَصِّر أعمى أو أقوِّم أحدبا

وكثيرًا ما يكون البوصيرى ظريفًا جدًّا حينما يخرج من المدح إلى قص قصة أو سرد حكاية فى صورة تدل على التبسط مع ممدوحه، وذلك كقوله فى غضون قصيدة:

عجيب لأمر آل بالشيخ مخلص … إلى أن يعرى كاللصوص ويضربا
بكيت له لما كشفت ثيابه … وأبصرت جسمًا بالدماء مخضبا
وحلفته بالله ما كان ذنبه؟ … فأقسم لى بالله ما كان مذنبا
ولكن حبيب راح فى مصدقًا … كلام عدو ما يزال مكذبا
فقلت: ومن كان الأمير حبيبه … فلا بد أن يرضى عليه ويغضبا
فصبرًا جميلاً فالمقدر كائن … فقد كان أمرًا لم تجد منه مهربا
فإبليس لما كان ضدًّا لآدم … تحيل فى عصيانه وتسببا
وقد كانت العقبى لآدم دونه … فتاب عليه الله من بعد واجتبى
ومن قبل ذا قد كنت إن كنت ذاكرًا … نهيتك أن تلقى الأمير مقطبا
دعاك إلى أمر مهم فجئته … كأنك فى عرس أتيت مشببا
فلا تنس فينا للأمير قضية … فتفتح بابا للعتاب مجربا
وإياك أن تبطى علىّ براتبى … فيبقى عليك اللوم منه مرتبا

فانظر إلى سهولة البوصيرى فى قص القصة وكيف حكى لنا ما أصاب خادم الممدوح الخاص من الضرب الشديد، وأن الذى ضربه هو الممدوح نفسه بوشاية واشٍ كذوب، ثم انظر إليه وهو يؤنب الخادم لأنه استغل حظوته عند الأمير، فهو مرة يدخل عليه عابسًا مقطبًا، ومرة فى حالٍ تدل على زوال الكلفة وقلة الاهتمام، كأنه يقابل عروسًا هو بها مغرم هائم، ثم انظر إليه كيف يجعل هذه الحادثة سلما لمطالبه عند الأمير، حتى إنه ليدخل فى روع الخادم أنه إذا أهمل تذكيره براتبه جَرَّ عليه ذلك سخط الأمير نفسه. والبوصيرى كثيرًا ما يخوض فى الشئون العامة، وكثيرًا ما يدعو إلى الإصلاح، وكثيرًا ما ينصب نفسه لنصرة المستضعفين. وقد سقنا إليك طرفًا من ذلك فى مهاجمته المستخدمين وغيرهم، فاستمع إليه الآن وهو يهجو الأعراب و يهزأ بهم، وقد كانوا يغيرون على البلاد و يعيثون فيها فسادًا:

عصت إليه أناس لا خلاق لهم … الشؤم شيمتهم واللؤم والدبر
تلثموا ثم قالوا إننا عرب … فقلت لا عرب أنتم ولا حضر
ولا عهود لكم ترعى ولا ذمم … ولا بيوتكمو شعر ولا وبر
وأى برية فيها بيوتكمو … وهل هى الشعر قولوا لى أو المدر
وليس ينجى امرءًا راموا أذيته … منهم فرار فقل كلا ولا وزر

ثم يقول للممدوح:

لما علمت بأن الرفق أبطرهم … والمفسدون إذا أكرمتهم بطروا

زجرتهم بعقوبات منوعة ... وفى العقوبات للطاغين مزدجر
كأنهم أقسموا بالله أنهمو ... لا يتركون الأذى إلا إذا قهروا

ثم يعدد لنا أنواع العقوبات فى زمنه فيقول:

فمعشر ركبوا الأوتار فانقطعت ... أمعاؤهم فتمنوا أنهم نحروا
ومعشر قطعت أوصالهم قطعًا ... فما يلفقها خيط ولا إبر
ومعشر بالظبى طالت رءوسهمو ... عن الجسوم فقلنا إنها أكر
ومعشر وسط مثل الدلاء ولم ... تربط حبال بها يومًا ولا بكر
ومعشر سمروا خلف الجياد وقد ... شدت جسومهم الألواح والدسر
وآخرون فدوا بالمال أنفسهم ... وقالت الناس: خير من عمى عور
موتات سوء تلقوها بما صنعوا ... ومن وراء تلقيهم لها ستر

وترى البوصيرى بعد ذلك لا يترك الكلام فى السياسة الخارجية للمملكة، ولا يهمل التنويه بما يرفع شأن مصر، ولا يغفل الإشادة بانتصارها فى ميادين القتال. فهو يذكر - فى إعجاب وزهو - انتصار الجيوش المصرية بالشام وأخذهم المرقب، فى قصيدة يمدح بها أحد كبراء الدولة فى عهد الملك المنصور سيف الدين بن قلاوون الذى تولى حكم مصر سنة ٦٧٨ هـ.

يظنون خيل المسلمين يصدها ... عن العدو فى أرض العدو جسور
أما زلزلت بالعاديات وجاءها ... من الترك جم لا يعد غفير
أتوا عطرات من الجرد إن سرت ... ورجل لهم مثل الجرار تمور
فلم يرقبوا من صرح هامان مرقبًا ... بهامته برد السحاب يكور
وصبوا عليه عارضًا من حجارة ... ونبلا وكل بالعذاب مطير
وساموه خسفًا من ثقوب كأنها ... أثاف لها تلك البروج قدور
فباتوا به مرّ الحصار فأصبحوا ... لهم ذلك الحصن الحصين حصير
وماذا يرد السور عنهم وخلفه ... من الخيل سور والصوارم سور
وليس لهم إلا إلى الأسر ملجأ ... وإلا إلى ضرب الرقاب مصير
فلما أحسوا بأس أغلب همه ... غدو إليهم بالردى وبكور
دعوه وشمل النصر منهم ممزق ... أمانًا وجلباب الحياة قصير
فلا تذكروا ما كان بالأمس منهمو ... فذاك لأحقاد السيوف مثير
ولو شاء مد النيل سيل دمائهم ... وزادت نحور ماءه وصدور
ولكنه من حلمه واقتداره ... عفو عن الذنب العظيم غفور
ولم يبقهم إلا خميرًا لمثلها ... مليك يحب الرأى وهو خمير
يرى الرأى مثل الراح يروى عتيقه ... ويكرم منه الحلو وهو عصير

فـولوا وسـوء الظن يلوى وجـوههم فتحسبهـا سـورًا ومـا هى سـور
فللـــه سلطـــان البسيطـــة إنـــه مليـــك يصير النصر حيـــث يسير

وهذه القطعة رائعة حقًا، وهى وصف واف يصور لك الموقعـة تصويرًا صادقًا، ولا بد من استيفاء الحديث فى هذه القصيدة فى عدد آخر، فإنها من قصائده الجامعة .

الترادف (*)

عُنى علماء اللغة بالبحث فى الترادف، وجالوا فيه جّولات، تدل على كثير من التقصى والاستيعاب، وأدلّوا فيه بآراء، هداهم إليها النظر والاستقراء، وتناولوه بالتأليف، فألف فيه مجد الدين الفَيروزآبادى صاحبُ القاموس كتابًا، سماه «الروض المسلوف، فيما له اسمان إلى ألوف» وأفرد له جماعة من الأئمة كتبًا، فى أشياء مخصوصة، فألف ابن خالويه كتابًا فى أسماء الأسد، وكتابًا فى أسماء الحية.

وكان اهتمام علماء الأصول والمناطقة به عظيمًا، فأفاضوا فيه وأسهبوا، وأكثروا من التحقيق، الذى أثر عن علماء الأعاجم، ووسمت به مباحثهم؛ لأن الأصوليين، وغايتهم استنباط الأحكام واستخلاصها من النصوص، يرون من الحتم أن يبحثوا فى الألفاظ ومدلولاتها، ومنها المترادف، ويعنيهم أن يبتوا رأيًا فى المترادفين: أيدلان على معنى واحد، أم يدلان على معنيين متحدين فى الجملة، مع فرق يحول دون استعمال أحدهما فى مكان الآخر.

والمناطقة، وصناعتهم تحديد المعانى، وكشف الحقائق، يرون البحث فى الترادف من المسائل الحقيقة بالعناية والنظر، حتى تظهر معانى الحدود والقضايا، محدودة خالية من الشوائب، التى تحول دون دقة الفكر، وسلامته من الزلل.

جاء فى الصفحة ٢٣٨ من الجزء الأول من المزهر للسيوطى فى تعريف المترادف: «قال الإمام فخر الدين: هو الألفاظ المفردة، الدالة على شىء واحد، باعتبار واحد. قال: واحترزنا بالإفراد عن الاسم والحد، فليسا مترادفين، وبوحدة الاعتبار عن المتباينين، كالسيف والصارم؛ فإنهما دلا على شىء واحد لكن باعتبارين: أحدهما على الذات، والآخر على الصفة. والفرق بينه وبين التوكيد أن أحد المترادفين يفيد ما أفاده الآخر، كالإنسان والبشر، وفى التوكيد يفيد الثانى تقوية الأول؛ والفرق بينه وبين التابع أن التابع وحده لا يفيد شيئًا، كقولنا عطشان نَطْشان».

(*) ألقى هذا البحث فى جلسة المجمع بتاريخ ٣٠ يناير ١٩٣٤ ونشر بمجلة المجمع فى الجزء الأول ص ٣٠٣.

وقــال ابن فــارس: «ويسمى الشيء الـواحــد بـالأسماء المختلفـة، نحــو: السيف، والمهنـد، والحسام». ثم عقب على ذلك بكلام سنسوقه بعد.

وجاء فى كشاف مُصطلحات العلوم للتهانوى:

«الترادف لغة: ركـوب أحد خَلْف آخـر، وعند أهل العـربية والأصـول والميزان هـو: توارد لفظين مفردين، أو ألفاظ كذلك فى الدلالة على الانفراد، بحسب أصل الوضع، على معنى واحد، من جهة واحدة. وتلك الألفاظ تسمى مترادفـة. فبقيد اللفظين خرج التأكيد اللفظى، لعدم كـون المؤكَّد فيه والمؤكِّـد لفظين مختلفين، وبقيـد الانفراد التـابع والمتبـوع، نحـو عطشان نطشـان، وإن قـال البعض بترادفهما، وبقيد أصل الـوضع خرج الألفـاظ الدالـة على معنى واحد مجازًا، والتى يـدل بعضها مجازًا وبعضها حقيقة، وبوحـدة المعنى خرج التأكيد المعنوى والمؤكد، وبوحـدة الجهة الحدّ والمحدود. قيل فلا حاجة إلى تقييد الألفاظ بـالمفردة، احترازًا عن الحدّ والمحدود: (إذ الحد يدل على المفردات مفصلة بأوضاع متعدّدة، بخلاف المحدود، فإنه يدل عليها بجملة بوضع واحد).

وقد يقال إن مثل قولنـا: (الإنسان قاعد، والبشر جالس) قد تـواردا فى الدلالة على معنى واحد، من جهة واحدة، فإن سميا مترادفين فذلك، وإلا احتيج إلى قيد الإفراد، وهو ظاهر.

والذى يؤخذ على التهـانوى أنه أخرج التوكيد المعنوى والمؤكـد بقيد وحدة المعنى، وكان الأولى أن يخرج بهذا القيد الألفاظ المتبـاينة، نحو رجل وكتاب، والأسماء وصفاتها، نحـو السيف والحُسام، أما التوكيد المعنوى والمؤكـد فخارج بقيد الانفراد، لأن التوكيد المعنوى لا يقع منفردًا، ويـؤخذ عليه أيضًا عـدّه: (الإنسان قـاعد، والبشر جـالس) تـركيبين مترادفين، مع أن هناك فـرقًـا مشهورًا بين القعـود والجلوس، كما سيأتى بيانه.

وقد فهمنا من هذا التعريف أن الترادف بمعناه الدقيق، يوجب أن تكون الألفاظ الدالة على معنى واحـد، قد وضع كـل منها وضعًا مستقـلاً لهذا المعنى، فـالشىء ووصفـه ليسا مترادفين، والحقيقـة والمجاز أو الكناية ليسا مترادفين. ولكن المطلع على كتـب اللغة، وعلى ما عدّه علماؤها من المترادف، يرى كثيرًا من التساهل فى هـذه الناحية، فالتشابه فى المعنى كـاف عندهم للحكم بالترادف، من غير نظر إلى حقيقة أو مجاز أو وصف.

وقد افترق علماء اللغة فى الترادف، فأجـاز فريق وقوعه فى اللغة، وأنكره فـريق، قال السُّيوطى فى المُزهِـر فى الصفحـة ٢٣٨ من الجزء الأول: «ومن النـاس من أنكـره، وزعم أن كل مــا يظن من المترادفات، فهو من المتباينات: إما لأن أحدهما اسم الذات والآخر اسم الصفة، أو صفة الصفة».

وقال ابن فـارس بعد التمثيل بالسيف والمهند والحسـام: «والذى نقوله فى هـذا إن الاسم واحد، وهو السيـف، وما بعده من الألقاب صفات، ومذهبنـا أن كل صفة منها معناها غير معنى الأخرى، وقد خالف فى ذلك قوم، فزعموا أنها وإن اختلفت ألفاظها، فإنها ترجع إلى معنى واحد».

وقال آخرون: ليس منها اسم ولا صفة إلا ومعناه غير معنى الآخر، قالوا: وكذلك الأفعال، نحو مضى وذهب وانطلق؛ وقعد وجلس؛ ورقد ونام وهجع؛ قالوا: ففى قعد معنى ليس فى جلس، وكذلك القول فيما سواه.

وبهذا نقول، وهو مذهب شيخنا أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب.

واحتج أصحاب المقالة الأولى بأنه لو كان بكل لفظة معنى غير معنى الأخرى، لما أمكن أن يُعبَّر عن الشىء بغير عبارته، وذلك أنا نقول فى (لا ريب فيه: لا شك فيه)، فلو كان الريب غير الشك، لكانت العبارة عن معنى الريب بالشك خطأ، فلما عُبِّر عن هذا بهذا، عُلِم أن المعنى واحد.

قالوا: وإنما يأتى الشعر بالاسمين المختلفين للمعنى الواحد فى مكان واحد توكيدًا ومبالغة كقوله: «وهند أتى من دونها النأى والبعد».

قالوا: فالنأى: هو البعد.

ونحن نقول: إن فى« قعد» معنى ليس فى« جلس»، ألا ترى أنا نقول: قام ثم قعد، وأخذ المقيم المقعد، ونقول لناس من الخوارج قَعَد، ثم نقول كان مضطجعًا، فجلس، فيكون القعود عن قيام، والجلوس عن حالة هى دون الجلوس؛ لأن الجَلس: المرتفع، فالجلوس ارتفاع عما هو دونه، وعلى هذا يجرى الباب كله.

وأما قولهم إن المعنيين لو اختلفا لما جاز أن يُعَبَّر عن الشىء بالشىء، فإنا نقول: إنما عبر عنه من طريق المشاكلة، ولسنا نقول إن اللفظين مختلفان، فيلزمنا ما قالوه، وإنما نقول: إن فى كل واحدة معنى ليس فى الأخرى.

وجاء فى الصفحة ٢٣٦ من الجزء الأول من المزْهر « قال أبو العباس عن ابن الأعرابىّ: «كل حرفين أوقعتها العرب على معنى واحد، فى كل واحد منهما معنى ليس فى صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربما غمض علينا فلم يلزم العرب جهله، وقال: الأسماء كلها لعلة؛ من العلل ما نعلمه، ومنها ما نجهله».

وجاء فى الصفحة ٢٤٠ من الجزء الأول من المزهر:

«وقال العلامة عِز الدين بن جماعة فى شرح جمع الجوامع: حكى الشيخ القاضى أبو بكر العربى، بسنده عن أبى على الفارسىّ، قال: كنت بمجلس سيف الدولة بحلب، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة، وفيهم ابن خالويه، فقال ابن خالويه: احفظ للسيف خمسين اسمًا، فتبسم أبو على وقال: ما أحفظ له إلا اسمًا واحدًا، وهو السيف؛ قال ابن خالويه: فأين المهند، والصارم، وكذا، وكذا؟ قال أبو على: هذه صفات، وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة».

وجاء فى كشّاف مُصطلحات العلوم للتّهانوى :

« زعم البعض أن المرادف ليس بواقع فى اللغة ، وما يظنّ منه فهو من باب اختلاف الذات والصفة ، كالإنسان والناطق ، أو اختلاف الصفات ، كالماشى والكاتب ، أو الصفة وصفة الصفة ، كالمتكلم والفصيح ، أو الذات وصفة الصفة كالإنسان والفصيح ، وقال : لو وقع الترادف لَعرى الوضع عن الفائدة ، لأن الغرض من وضع الألفاظ ليس إفادة التفهيم فى حق المتكلم ، واَستفادة التفهم فى حق السامع ، فأحد اللفظين يكون غير مفيد ؛ لأن الواحد كاف للإفهام ، والمقصود حاصل من أحدهما ، فلا فائدة فى الآخر ، فصار وضعه عبثًا ، فلا يقع عن الواضع الحكيم » . هكذا فى حواشى السلم .

ولم يُغْفِلِ البحثَ فى الترادف علماء اللغات الأخرى ، ومما هو جدير بالنظر أن آراء بعضهم فى هذا الموضوع توافق كثيرًا من آراء علمائنا ، وأن الدافع لهم إلى البحث هو الدافع نفسه ، الذى حفز رجال لغتنا إلى الكلام فى الترادف ، والإضافة فيه .

قال الأستاذ ترِنْش فى كتابه « دراسة الكلمات » :

(Study of Words - Lectures, by Richard Chenevix Trench. D.D.Archbishop of Dublin.) ما محصله :

« قد يسأل سائل عن معنى الترادف حينما نوازن بين بعض الكلمات ، ونجزم بأن بينها ترادفًا . إننا نقصد أنها مع شدة تشابه معانيها تتضمن فروقًا صغيرة جزئية ، وهذه الفروق إما مصاحبة لها فى أصل الوضع ، وإما طارئة عليها بالاستعمال ، وإما أنها جاءت إليها من تصرف البلغاء ، وأساطين البيان . فالمترادفات كلمات متشابهة فى المعنى الأساسىّ ، مع قليل من التباين فى نواح أخرى ، أو أنها تشترك فى المعنى العام ، ولكن كل واحدة منها تختص بنصيب ، تنفرد به دون الأخرى . وفى هذا التعريف شىء من التساهل فى شرح معنى الترادف ، فمن الهين أن يرى كل من له إلمام بعلم اللغة أن إطلاق الترادف على الكلمات المتشابهة فى معانيها الأساسية ليس غير ، تسمية غير صحيحة ، وإطلاق خال من الدقة والصواب ، لأن المعنى الدقيق للترادف ، يقتضى أن تتضمن الكلمات المترادفة معنى واحدًا على التحديد ، لا على التقريب ، وأن يكون تشابه المعنى فيها كاملاً ، وأنها ، إن صح التشبيه ، دوائر متحدة فى المركز والمحيط .

ولكن المترادفات لا تستعمل فى العادة مع النظر إلى ما بينها من فروق دقيقة ، لأننا دون أن نجرؤ على إنكار أنه قد يجوز أن يكون هناك كلمات حقيقية الترادف ، نرى أن مثل هذه الكلمات لا يستطاع البحث عما بينها من فروق ، لعدم وجود هذه الفروق » .

فهو لا يستطيع إنكار الترادف بأدق معانيه ، وإن أُخِذ من كلامه ما يدل على نُدْرته ، وهو لا يدعو إلى التمحُّل فى تلمس الفروق بين كل مترادفين ، ثم هو يؤثر استعمال الترادف بمعناه الشائع عندهم ،

الذى يسوّغ وجود فروق دقيقة بين الكلمات، خلافًا لمن أنكره من علماء العربية فإنهم لايعبرون عن ذلك بالترادف بتاتًا . ثم نراه ينتقل إلى بحث جديد فى الترادف بين لغتين، فيقول :

« وهناك طائفة تجزم بأن كلمات اللغة الواحدة، لا يمكن أن تكون مرادفة تمام الترادف لكلمات أخرى، وأنه عند مقابلة إحداها بقرينتها، لابد أن يكون فى أحد المعنيين زيادة أو نقص، يحول دون الاتفاق التام، وإنى أرى أن وجود كلمات من لغتين تتفق معانيها تمام الاتفاق نادر جدًا، فإن الكلمة ليست إلا سُورًا حول رقعة صغيرة أو كبيرة من فضاء الفكر أو الحقيقة، وبهذا استطاع الإنسان أن يستعين بها فى حياته، ويختارها لمعونته، فمن غير المحتمل أن كل أمة ترسم مستقلة منفصلة عن الأخرى خطوط هذه الأسوار، فى كل الأحوال أو أغلبها، مطابقة تمام التطابق لخطوط الأخرى . إن المعقول ألا تتطابق الخطوط . وهذه الحقيقة تهيئ لنا موازنة جليلة الشأن بين اللغات، وتكفى فى أن تسوق المترجم البارع الدقيق، إلى ما يقرب من اليأس والقنوط » .

ولاشك أن فى هذا الرأى شيئًا من الغُلُوّ، وربما كان قريبًا من الحق فى المعنويات والوِجدانيات، أما فى المحسوسات المشتركة بين الناس، فالترادف فيها جلىّ بيّن، فكلمات، الشمس، والقمر، والكتاب، والماء، ذوات معان متطابقة، فى جميع اللغات . ثم يعود إلى موضوع الترادف فى اللغة الواحدة، ويحدّد معناه فى شىء من الوضوح والتكرار، فيقول :

« فالمترادفات إذًا، كما يفهم من الاستعمال العام، وعلى النحو الذى اختاره لاستعمالها هنا، كلمات من لغة واحدة، مع فروق ضئيلة صاحبتها منذ وضعها، أو طرأت عليها، فهى ليست متشابهة المعنى تمامًا، وليست بعيدة التشابه، لأن الفروق فى الكلمات البعيدة التشابه فى المعنى جلية ظاهرة، تبدو على السطح، ويراها المرء أول وَهلة، وإذا حاول أن يوضح الفرق بينها، كان فى عبثه كمن يحاول أن يُوقد شمعة، ليجعل الشمس أكثر إضاءة وظهورًا ؛ فقد يتطلعُ المرء إلى تحديد الفرق بين الأُرجوانى والقُرمزى : لأن هاتين الكلمتين قد تختلطان، ولكن مَنْ ذلك الذى يفكر فى البحث عن الفرق بين الأُرجوانى والأخضر ؟ فالمترادفات إذًا : كلمات معرضة للاشتباه قليلاً أو كثيرًا ؛ والواجب يدعو إلى إزالة هذا الاشتباه والاختلاط . وهى كلمات ورِثت فى أصل وضعها فروقًا، أو أنها مع تطابقها فى أصل الوضع تمام التطابق، نمت بينها فروق، واستقرت باستعمال فطاحل الكتّاب، ومصاقع الخطباء» .

ويجمل حُجة القائلين بمنع الترادف أنه إذا كان واضع اللغة واحدًا، كان وضع كلمتين أو أكثر لمعنى واحد لغوًا وإضاعة وإسرافًا، وأن الغرض الأول من اللغة التفاهم، وأن يكون الوضع تابعًا للحاجة الملحة، وأنه إذا وضع لفظ لمعنى كان عَلَمًا عليه، وسِمَة له، فإذا تكرر وضع اسم آخر، ثم آخر لهذا المعنى، من غير نقص فيه أو زيادة، كان ذلك عملاً خاليًا من الموجب، عَرِيًّا من الدافع . وقد دفعهم هذا الرأى إلى البحث عن الفروق بين كل كلمتين يظهر ترادفهما، فأوغلوا فى ذلك إيغالاً، ثم تعسفوا تعسفًا شديدًا .

جاء فى الصفحة ٢٣٩ من الجزء الأول من المزهر :

« وقال التاج السبكى فى شرح المنهاج : ذَهب بعض الناس إلى إنكار المترادف فى اللغة العربية ، وزعم أن كل ما يُظن من المترادفات ، فهو من المتباينات ، التى تتباين بالصفات ، كما فى الإنسان والبشر، فإن الأول موضوع له باعتبار النسيان ، أو باعتبار أنه يؤنس ، والثانى باعتبار أنه بادى البشرة ، وكذا الخَنْدَريس والعُقار، فإن الأول باعتبار العِتق ، والثانى باعتبار عَقْر الدن لشدتها ، وتكلف لأكثر المترادفات بمثل هذا المقال العجيب » . ويرى من أجازوا الترادف أنه واقع فى اللغة الواحدة ؛ ما من الاعتراف بذلك بُدّ ، فإن الحنطة والبر والقمح لا فرق بينها فى المعنى ، وفى تصيد الفروق بينها تجشم الصعاب ، وركوب الطريق الوعرة ، فى غير حاجة إلى تلمس أوهام ، لا توشك أن تتراءى حتى تزول .

جاء فى كشاف مصطلحات العلوم للتَّهانَوِىّ : « والحق وقوعه ، بدليل الاستقراء ، نحو : قعود وجلوس ، وأسد وليث ، ولا نسلم التعرى عن الفائدة ، بل فوائده كثيرة ، كالتوسع فى التعبير ، وتيسير النظم والنثر ، إذ يصلح أحدهما للقافية والروى دون الآخر ، ومنها تيسر أنواع البديع ، كالتجنيس والتقابل وغيرها . مثال السجع قولك : ما أبعد ما فات ؛ وما أقرب ما هو آت ؛ فإنه لو قيل بمرادف ما فات ، وهو « ماضى » أو بمرادف «ما هو آت» وهو « ما هو جاءٍ » أو غيرهما ، لفات السجع . ومثال المجانسة قولك : اشترِ البُرّ ، وأنفقه فى البر ، فإنه لو أتى بمرادف الأول ، وهو «الحنطة» ، أو بمرادف الثانى ، وهو « الخَيْر » ، لفاتت المجانسة » .

وجاء فى ص ٢٤١ من الجزء الأول من المزهر : « وله فوائد ، منها أن تكثر الوسائل أى الطرق إلى الإخبار عما فى النفس ، فإنه ربما نَسِى أحد اللفظين ، أو عَسُر عليه النطق به ، وقد كان بعض الأذكياء فى الزمن السالف ألثغ ، فلم يحفظ عنه أنه نطق بحرف الراء ، ولولا المترادفات تعينه على قصده لما قدر على ذلك ، ومنها التوسع فى سلوك طرق الفصاحة ، وأساليب البلاغة ، فى النظم والنثر ، وذلك لأن اللفظ الواحد قد يتأتى باستعماله مع لفظ آخر السجع ، والقافية ، والتجنيس ، والترصيع ، وغير ذلك من أصناف البديع ، ولا يتأتى ذلك باستعمال مرادفه مع ذلك اللفظ » .

ثم جاء فيه بالصفحة ٢٣٨ :

« وقال قُطرب : إنما أوقعت العرب اللفظين على المعنى الواحد ، ليدلوا على اتساعهم فى كلامهم ، كما زاحفوا فى أجزاء الشعر ، ليدلوا على أن الكلام واسع عندهم » . وأبعد من هذا مدى فى فائدة الترادف ، أن فحول الشعراء والكتاب يُلْبسون كل معنى من المعانى ، ثوبًا من الألفاظ يناسبه ويلائمه ، ويبرز جماله الفنى ، ولكل غرض من أغراض الكلام ألفاظ خاصة ، يختارونها دون غيرها ، لتظهر هذا الغرض فى أجمل صُوره ، وأروع ألوانه : ففى الحماسة والفخر يعمدون إلى اللفظ الجزل ، والكلم الفحل ، فهنا يقال : الكَلْكل والحيزوم ، ولا يقال : الصدر ، ويقال : الغضنفر ولا يقال : الأسد ، ويقال : الشَّذْقَميات ، ولا يقال : النوق ، ويقال : الصَّمصام ، ولا يقال : السيف ، أما فى الغزل والعتاب مثلاً . فيعمدون إلى الرقة والسهولة ، فترى الألفاظ الدَّمِثة الشائقة الهَيِّنة اللطيفة ، التى

تكاد تمتزج بالهواء، وتسيل مع الماء ؛ ومن أبين ما يشرح ذلك ويوضحه أشعار بشار وأبى نُوَاس، كلاهما ينسج على حسب فخامة غرضه عنده، أو هَوانه عليه، وعلى حسب منزلة سامعيه، فنراه مرة فى مراتب الجاهليين : ضخامة وجزالة، وتراه أخرى وقد بلغ الغاية فى السهولة والرقة .

وقد يُبْنَى البيت الواحد أو الأبيات على اللفظ الفحل، والكَلِم الشديد الأَسْر، حتى لو أنك وضعت مرادفًا رقيقًا لكلمة، لأفسدت الشعر، وأبطلْت السِّحر، كما أن البيت قد يتألف كله من الألفاظ الناعمة اللينة، فإذا بدل بإحدى كلماته كلمة مرادفة ضخمة، فقد انسجامه، وحسن جَرْسه، وروعة تأثيره .

استمع لقول الشريف الرَّضِىّ فى وصف الشجاع :

ليس الشجاع الذى من دون رؤيته ... باب يُلاحيك مِصراعًا بمصراع
ولا الذى إن مضى أبقى لوارثه ... سوائم بين أصْواح وأجزاع
لكنّه من إذا أودَى فليس له ... إلا عقائل أرماح وأدراع
يَعتسُّ الذئب فى الظلماء مرتفعًا ... على رحائلَ ملقاةٍ وأقطاع
يذوّق العينَ طعم النوم مُغمَضة ... إذا الجبانُ ملا عينا بتَهجاع
أشْعثُ الرأس، لا يجرى الدِّهان به ... وإن فلاً فبماضى الغرب قطّاع

هل تحس أنك إذا أبدلت بكلمة من كلمات الشريف كلمة أخرى نلت من جمال الشعر وجلاله؟

ثم أنظر إلى قول البهاء زهير :

إن شكا القلب هجركم ... مَهّد الحُبُّ عُذركم
لو رأيتم تحَلّكم ... من فؤادى لسركم
قصّروا مدة الجفا ... طوّل الله عمركم

فهل ترى إنك لو وضعت كلمة خشنة مكان إحدى كلمات هذا الشعر لأفسدته وقضيت عليه؟

من كل ما قدمناه تظهر فائدة الترادف فى صناعة الكلام، فهو الذى فَسَح المجال أمام البلغاء ليختاروا من كل طائفة من المترادفات كلمة تلائم غرضهم، وتتفق مع النسج الذى أرادوه، فالكلمة المنبوذة اليوم محبوبة غدًا، والتى لا تصلح لهذا الضرب من الكلام تصلح لغيره .

بعد أن بسطنا آراء العلماء فى الترادف، واختلافهم فى وقوعه وعدم وقوعه، نرى أن نبين هنا أن كلا الفريقين تجاوز الحد، وركب مَتْن الشَّطَط : هؤلاء فى البحث عن الفروق جاهدين مثابرين، وهؤلاء فى تسمية كل متشابهين فى المعنى مترادفين، غير ناظرين إلى ما بينهما من فروق فى المعنى، أو اختلاف فى الوضع، حتى كأنهم كانوا يريدون أن يُزوِّدوا مخالفيهم الحجةَ عليهم، فقد ذكر السيُّوطى فى الصفحة ٢٤٢ من الجزء الأول من المزهر، سبعة وثمانين اسمًا للعسل، نقل خمسة وثمانين منها عن صاحب القاموس، من كتابه الذى سماه : «ترقيق الأسل ؛ لتصفيق العسل»، وعَقّب عليه بزيادة اسمين، هما الصَّرْخَدِىّ والسَّعابيب . ونقل عن ابن خالويه فى شرح الدريدية واحدًا وأربعين اسمًا للسيف .

ثم نقل أسماء كثيرة للصدر، والعمامة، والثوب الخلق، والأصل، وغير ذلك مما يمكن الرجوع إليه فى المزهر . وفى فقه اللغة للثعالبى : « قد جمع حمزة بن الحسن الأصبهانى من أسماء الدواهى ما يزيد على أربعمائة، وذكر أن تكاثر أسماء الدواهى من الدواهى». ونقل السيوطى عن ابن فارس قال : أخبرنى على بن أحمد بن الصباح - قال حدثنا أبو بكر ابن دريد قال حدثنا ابن أخى الأصمعى، عن عمه : أن الرشيد سأله عن شعر غريب لابن حزام العُكْلى، ففسره، فقال : يا أصمعى، إن الغريب عندك لغير غريب ! قال : يا أمير المؤمنين، ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسمًا . وجاء فى الصفحة ٢٤٤ من كتاب المزهر : «وفى الجمهرة قال أبو زيد : قلت لأعرابى : ما المحبنطئ ؟ قال : المتكأكئ . قلت : ما المتكأكئ؟ قال: المتآزِف. قلت : ما المتآزِف؟ قال: أنت أحمق !

من هذا يُرَى إغراق بعض اللغويين فى تصيدُّ الترادف، وسعيهم الحثيث فى تكثير الأسماء لمسمى واحد، والتحلُّل من أكثر القيود للوصول إليه ؛ وربما كان الدافع لهم ميلهم الشديد إلى التباهى بالعربية، والزهو بسعة مداها، والإشادة بثروتها وغناها، حتى لقد ساقهم ذلك إلى حشر كثير من الكلمات لمسمى واحد، مع وجود الفروق المميزة، أو مع اتحادها فى المادة اللغوية، أو مع اختلافها فى الحقيقة والمجاز والكناية، والمثل الذى نختاره لذلك هو ما أورده السيوطى فى المزهر للعسل من الأسماء، وسنعمد إلى شرح كل كلمة، ونعقِّب عليه بما نراه. وهاك الكلمات :

الضَّرَب : العسل الأبيض، واستضرب العسل : أبيض وغلُظ، فالضَّرَب : العسل مقيدًا بصفة خاصة .

الضَّربة : واحدة الضرب وهى الشديد البياض منه .

الضَّريب : من معانيه : المِثل، والرأس، والمُوَكَّل بالقِداح، أو الذى يضرب بها، والقدح الثالث، واللبن يُحلب من عدة لِقاح فى إناء . فليس من معانيه العسل، وأشبه الأشياء أن يكون بمعنى اللبن يحلب من عدة لِقاح، وقد أطلق على العسل مجازًا، لعلاقة المشابهة، لأن العسل يجمع من عدة خلايا .

الشَّوْب : ما شُبته من ماء، والعسل، واشتاب وانشاب : اختلط . والظاهر أن الشوب يطلق على العسل ممزوجًا .

الذوب : العسل أو ما فى أبيات النحل، أو ما خلص من شمعه . والظاهر أن صفة الذَّوَبان والسيل ملحوظة فى التسمية .

الحَميت : الحميت من كل شىء، المتين : حتى إنهم ليقولون : تمر حميت، وعسل حميت .

التحموت : كالحميت، عن السيرافى . فصفة المتانة أو الغلظ مفهومة منه .

الجَلْس(١) : الغليظ من الأرض، ومن العسل ؛ وبقية العسل فى الإناء، فهو مقيد غير مطلق .

(١) والجليس أيضًا، كما فى المخصص.

الوَرْس : نبات كالسِّمْسِم ليس إلا باليمن، فإطلاقه على العسل مجاز، علاقته المشابهة فى اللون .

الأَرْى : فى المخصص الأَرْى العسل . أبـو حنيفـة : أصـل الأرى العمل أرَت النحلـة أريـًا وتأرت وائترت : عَمِلت العسل، فهى تسمية بالمصدر .

الذواب : العسل ؛ وصفة الذوبان ملحوظة .

الَّلوْمة : الشّهدة . تلوم فى الأمر تَمَكّث وانتظر .

اِللثم : الصلح والاتفاق، والعسل، من لأم فلانا : أصلحه . والصفة هنا ظاهرة .

النسيل : ما يسقط من الصوف والريش عند النسل، والعسل إذا ذاب وفارق الشمع .

النسيلة : واحـدة النسيل، والولـد، والفتيلة، والعسـل إذا ذاب وفـارق الشمع، فصفة الـذَّوَبان والسيل ملحوظة فى هاتين الكلمتين .

الطِّرْم، الطُّرْم : الشّهد، والزُّبد، والعسل إذا امتلأت منه البيوت، وقد طَرِمَت بيوت النحل تطرَم طرمـا : امتلأت من الطرم ؛ والعسلُ طَرَمـا : سال من الخليـة ، فصفات التراكم والغـزارة والطراوة ملحوظة .

الطُّرام، الطِّريم (1) : العسل والسحـاب الكثيف، ويقال تَطَـرْيَم فى الطين تَطَرْيُما : تلـوَّث، فالتلويث منظور إليه هنا .

الدَّسْتَفْشار - المُسْتَفْشار - العسل الذى لم تمسـه النار، وليست واحدة منهما عربية، لأن هذا البناء ليس فى كلامهم .

الشهدُ، الشُّهد : العسل ومُومه، والشُّهدة أخص . فهو العسل فى شمعه .

المِحران : العسل، من حرنت الـدابة كنصر، وهى التى إذا اشتد جريها وقفت، ولعله يـراد به هنا العسل الذى صعب اشتياره (2) .

العُفافة : من العسل مثل السلافة، وهو أول ما يتسلل من الشهد إذا وضع فى المِعْصرة ليجرى .

العُنفوان : رُبُّ العنب، كالعفافة، وصفة النقاء فيهما ظاهرة .

الماذِىّ : العسل أو الأبيض منه، أو الصافى، فهو مقيد بوصف .

الماذية : الخمرة السهلة فى الحلق، وإطلاقها على العسل من قبيل المجاز .

---

(1) زاد فى المخصص الطارم وهو العسل الطرى، وعن ابن دريد أنه الطريم .

(2) فى المخصص المحران : الشهدة تبعد فلا يسهل إخراجها، كأنها لزمت مكانها .

الظان، الظن [1] .

البَلة، البِلة : السَّمُر، أو عسله .

السَّنَوْت، السَّنُّوت : العسل .

السنوة [2] :

الشراب : اسم لكل ما يُشرب، فاستعماله فى العسل من استعمال العام فى الخاص .

الغربة [3] :

الأس : العسل أو بقيته فى الخلية .

الصَّبيب : من معانيه العسل الجيد، فهو مقيد بصفة .

المَزج، المزج : اللوز المرّ، والعسل، تسمية بالمصدر أو باسمه، قال أبو ذؤيب :

فجاء بِمزجٍ لم ير الناس مثله هو الضَّحْك إلا أنه عمل النحل

والظاهر أن المراد بالمصدر والاسم هنا اسم المفعول أى الممزوج، فالصفة فيه ظاهرة .

لُعاب النحل : تعبير يقرب من الكناية .

الرُّضاب : الريق فى الفم، ومن معانيه لُعاب العسل وُرِغوته، وهو من إطلاق العام على الخاص فيما يظهر .

رُضاب النحل : جَنَى النحل، رِيق النحل، قىء الزنابير - هذه أشبه شىء بالكنايات .

الشَّوْر : شار العسل يشوره شَوْرًا آستخرجه من الوَقْبة، والشور : العسل المشور، فهو مصدر أريد به اسم المفعول .

السَّلْوَى : العسل [4] .

مُجاج النحل : أشبه بالكناية .

الثَّواب : العسل، والنحل لأنها تثوب، فهو مصدر استعمل فى اسم الفاعل أولاً، وهو النحل، ثم استعمل فى العسل مجازًا .

الحافظ، الأمين : لا يدلان على العسل .

---

(١) أظنهما محرفين عن الظيان والظى، جاء فى المخصص : الظيان شىء من العسل، وجاء فى الأشعار .

(٢) الظاهر أن هذه الكلمة محرفة فى الأصل .

(٣) يظهر أنها محرفة عن العرابة، ففى المخصص - العرابة : عسل الخَزَم، لأنه يقال لثمره العرابة .

(٤) لأنه يسلى عن كل حلو : إذ هو فوقه .

الضَّحْل : الماء القليل، والظاهر أنه محرف عن الضحك، والضحك : الثغر، ويطلق على العسل لبياضه، على التشبيه .

الشِفاء : ليس من معناه العسل، ولعله أخذ من قوله تعالى : ﴿ فيه شفاء للناس﴾ .

ويقال : أشفاه الله عسلاً أى جعله شفاء له .

اليمانية : نسبة إلى اليمن .

اللَّواص : الفالوذ، والعسل الصافى، فهو مقيد .

السَّليق : ما تبنيه النحل من العسل فى طول الخلية .

الكُرسُفىّ : الكُرسُف : القطن . الكرسفى : نوع من العسل، كأنه سمى به لبياضه كالقطن.

العقيد : عسل يعقد بالنار، وطعام يعقد بالعسل (١) .

السَّلوانه : خرزة للتأخيذ، وليس من معانيها العسل .

السُّلوانه : السَّلوانة، والعسل .

الزُّخيف : لعلها تصغير الزُّخْف وهو الزبد الرقيق أو المسترخى، والعجين الكثير الماء، فإطلاقه على العسل إطلاق مجازى .

الجَنَى : كل ما يجنى، والذهب، والودع، والرطب، والعسل . فهو من إطلاق العام على الخاص .

السُّلاف، السَّلافة : أول ما يعصر من الخمر، وقيل هما من كل شىء خالصه ؛ فإطلاقهما على العسل مجاز، أو خاص بالخالص الصافى منه .

الشَّرْو، الشُّرو : العسل، وهما مقلوبًا الشور .

الصميم : من معانيها خالص الشىء، وهو وصف .

الجَثُّ : الشمع، وقيل خِرْشاء العسل، وهى الجلدة الرقيقة، تركب اللبن ونحوه، أو كل قَذى خالط العسل .

الصَّهباء : الخمر، وقيل ما عصرت من عنب أبيض، فاستعمالها فى العسل مجازى .

الخَتْم : العسل، وأفواه خلايا النحل، وختم النحل : جمع شيئًا من الشمع رقيقًا أرق من شمع القرص، فطلاه به، فهى تسمية بالمجاورة .

---

(١) وقد يكون إطلاقها على العسل؛ لأنه يسلّى عن غيره.

الخَوّ : الجوع، والوادى الواسع، والعسل .

الضَّيْح : العسل، واللبن، الرقيق الممزوج ؛ وضوحته : سقيته إياه، واللبن مزجته بالماء ؛ فصفة المزج فى الضيح ملموحة .

السَّدَى : الندى، أو ندى الليل، والبلح الأخضر، والشهد .

الرحيق، الرُّحاق : الخمر أو أطيبها أو أفضلهـا أو الصافى منها ؛ فإطـلاقها على العسل إطلاق مجازى .

الصَّمُوت : الشُّهدة الممتلئة، حتى ليس فيها ثقبة فـارغة، ففى إطلاقه على العسل مجاز مرسل، علاقته المحلية .

المُجاج : الريق ترميه من فيك، والعسل ؛ ففيه صفة ملحوظة .

المجلب : الذى فى كتب اللغة الجُلاَب، والجُلاَّب العسل، أو السكر عقـد بوزنه أو أكثر من ماء الورد، فارسى . فهو عسل مصنوع .

الكُعير : تصغير الكُعر : شوك له ورق كثير الشوك، تخرج له شعب تظهر فى رءوسها هناة، وفيها وردة حمراء مشرقة، تجرسها (تلحسها) النحل، فهو مجاز باعتبار ما كان .

النحل : ليست بمعنى العسل لغة، واستعمالها فيه مجاز .

الأصبهانية : نسبة إلى أصبهَان .

الصَّرخدِىّ : نسبة إلى صرخد : بلدة بالشام .

السعابيب : ما يمتد شبه الخيوط من العسل والخِطمِى، فتسمية العسل بها تسمية باللازم .

وجلىٌّ مما قدمنـاه من الشرح أن قليلاً جدًا من الأسماء السابقة للعسل، أطلقت عليـه إطلاقًا غير مقيد، أو منظور فيه إلى ناحية خاصة، أما جمهرة الأسماء فهى إما مقيدة بوصف أو نسبة، وإما مجاز أو كناية .

ونستطيع مما سقنـاه من مرادفـات العسل أن نقيس عليه غيره، وأن نحكم بأن أكثـر ما نسمع من المترادفات الكثيرة إنما جمعت على ضرب من التسامح . على أننا لا ننكر الترادف، ونرى أنه واقع فعلاً، وأن وجـوده فى اللغات من الخير لها ؛ ولكننـا ندعـو إلى التأمل والتدقيق، وعـدم الإغراق فى التـوسيع والتضييق .

وللترادف فى اللغة أسباب، ذكر منهـا السُّيوطى فى المزهر فى الصفحة ٢٤١ من الجزء الأول سببين : « أحدهما أن يكـون من واضعين وهو الأكثـر، بأن تضع إحدى القبيلتين أحـد الاسمين، والأخرى الاسم الآخر، للمسمى الـواحد، من غير أن تشعر إحـداهما بالأخرى، ثم يشتهر الـوضعان، ويخفى

الـواضعان، أو يلتبس وضع أحـدهما بـوضع الأخـرى، وهذا مبنى على كـون اللغـات اصطلاحيـة. الثانى: أن يكون من واضع واحد، وهو الأقل».

وفى الحقيقة أن ما ذكره ثانيًا ليس سببًا، لأن الواضع إذا كان واحدًا، وجب أن يبين الداعى الذى حفـزه إلى وضع كلمتين أو أكثر لمعنى واحـد، أما السبب الأول فجلى واضح، وهـو من أسباب كثـرة الترادف فى العربيـة، لأن لغة قريش جمعت كثيرًا من مفـردات القبائل الأخرى، ولأن من جمعـوا اللغة ودونوها كانوا يتلقفونها من الأعراب والـرواة، ومن الآثار الشعرية، والمأثور من كلام العرب، من غير أن يضعوا كلمات كل قبيلة على حـدة، والمعجمات التى بأيدينا امتزجت فيهـا كلمات القبائل ولهجاتها من غير تمييـز، فالإصبع مثـلاً فيها تسع لغـات، وفيهـا الأصبوع أيضًـا، ولا يصح فى الرأى أن قبيلـة واحدة تنطق بكلمة الإصبع إلا على صورة واحدة، غير أن الناس شغلوا عن تحقيـق هذه اللهجات، أو اللغات، وعن نسبة كل لغة إلى قبيلتها، وهذا مبحث شريف حقيق بعناية اللغويين.

ومن أمثلة اختلاف لغات القبائل، وأنه مـن أسباب الترادف أن الوثب فى الحميرية معناه القعود، وقد دخلت هذه الكلمة فى العـربية المدونة. فأصبحت مرادفة له. جـاء فى القاموس: وثب: طفر وقفز. وفلان: قعد؛ وهنا حكاية طريفة، جاء فى الصفحة ٢٣٤ من الجزء الأول من المزهر: «وقال الأزدى فى كتاب الترقيص: أخبرنا أبو بكر بن دريد، حدثنا عبد الرحمن عن عمه، قال: خرج رجل من بنى كلاب، أو من سائر بنى عامر بـن صعصعة؛ إلى ذى جَدَن، فاطَّلع إلى سطح والملك عليه، فلما رآه الملك اختبره، فقال له: ثب: أى اقعد، فقال: ليعلم الملك أنى سامع مطيع، ثم وثب من السطح. فقال الملك: ما شأنه؟ فقالوا له: أبيت اللعن! إن الوثب فى كلام نزار الطَّمْر (١). فقال الملك: ليست عربيتنـا كعربيتهم. من ظَفَّر حَمَّر: أى من أراد أن يقيم بظفارٍ فليتكلم بـالحميرية. ومن ذلك القَـزُّ، وهو الإبـاء، لغة يمانيـة، تقول: قـزت نفسى عن الشيء قزا: أبت، فـالإباء والقـز أصبحا مترادفين، والبِل بالكسر فى لغة حِمير: المباح، فهما مترادفان.

ويحسن بنا هنا أن ننقل ماذكـره ابن جنى فى الصفحة ٣٧٦ من الخصائص، متصلاً بهذا البحث. قـال فى باب [فى الفصيح يجتمع فى كـلامه لغتـان فصاعـدا]: «وأما مـا اجتمعت فيه لغتـان أو ثلاث، فأكثر من أنْ يحاط به، فإذا ورد شيء من ذلك كأن يجتمع فى لغة رجل واحد لغتان فصاعدا، فينبغى أن تتأمل حـال كـلامـه: فإن كـانت اللفظتـان فى كلامـه متسـاويتين فى الاستعمال، كثـرتهما واحدة، فإن أخلق الأمر به أن تكـون قبيلته تواضعت فى ذلك المعنى على تينك اللفظتين، لأن العرب قـد تفعل ذلك للحاجـة إليه فى أوزان أشعـارها، وسعـة تصرف أقوالها، وقـد يجوز أن تكون لغتـه فى الأصل إحداهما، ثم استعار الأخرى من قبيلة أخـرى، وطال بها عهده، وكثر لها استعماله، فلحقت لطول المدة واتصال استعمالها بلغته الأولى. وإن كانت إحدى اللفظتين أكثر فى كلامه من صاحبتها،

(١) الطمر: الوثوب إلى أسفل. أو فى السماء، والطفرة: الوثب فى ارتفاع.

فأخلق الحالين بـه فى ذلك أن تكون القليلـة فى الاستعمال هى المفادَة، والكثيرة هى الأولى الأصليـة . نعم، وقد يمكن فى هذا أيضًا أن تكون القُلّى منهما إنما قلّت فى استعماله، لضعفها فى نفسه، وشذوذها عن قياسه، وإن كـانتا جميعًا لغتين له ولقبيلته، وذلك أن من مذهبهم أن يستعملـوا من اللغة ما غيره أقوى منه فى القيـاس . . . وإذا كثر على المعنى الواحد ألفاظ مختلفة، فسمعت فى لغـة إنسان واحد، فإن أحرى ذلك أن يكون قد استفاد أكثرها أو طرفًا منها، من حيث كانت القبيلة الواحدة لا تتواطأ فى المعنى الواحد على ذلك كلـه ـ هذا غالب الأمر ـ وإن كان الآخر فى وجـه من القياس جائزًا، وذلك كما جاء عنهم فى أسماء الأسد والسيف والخمر وغير ذلك » .

فابن جنى لا ينكر الترادف فى لغة قبيلة واحدة، ولكنه يضع ميزانًا للحكم على المترادفات، والنظر فى كونها من وضع قبيلة واحدة أو عدة قبائل، هذا الميزان هو مقدار شيوعها واستعمالها، ولكنه لم يترك لنا مدخـلاً للانتفاع بهذا الميزان، فقـد حَفَّه بالشك والتردد، ولم يجهر بـرأى حاسم : فالمرادف القليل الاستعمال يكون مـرة من وضع قبيلـة أخرى، ومرة يجوز أن يكـون من وضع القبيلـة نفسها، والمرادف الكثير الاستعمال خليق أن يكون من وضع القبيلة، ولكن هذا غير لازم، وغير حتم، فقد يكون، على شهرته وكثرة دورانه على ألسنة القبيلة، من وضـع قبيلة أخرى، مما يدل على الحَيْرة، وعدم القدرة على الجزم . والحقيقة أن أحـوال اللغة، وطـرائق العرب فى الاستعمال، لا تضبط بـالقوانين المنطقيـة، فإن العربىّ، وهو أعلم بأسرار لغته، قـد يؤثر أحيانًا كلمة لغير قبيلتـه، لأغراض مبهمة تجيش فى نفسه، ولذوق دقيق اقتضته صناعة الكلام .

ويكاد يتفق الأستاذ ترنش (Trench) مع علماء العربية فى هذه الناحية، إذ يقول ما جملته :

« إن مما لا شك فيه أن اللغات لـو كان وضعها باتفاق منظم بين الواضعين، مـا وجد فيها ترادف البتة، لأنـه عند وضع كلمة كفيلة بتأديـة المعنى المراد منها : من فكر أو وجدان أو غيرهما، لا يـدعو داع لوضع سـواها، ولكن اللغات لا توضع بمثل هـذه الطريقة المنظمة، فهناك قبـائل مختلفة، لكل قبيلة لهجتها، وهذه اللهجات على تقارب ما بينها متميزة مختلفة، فإذا اندمجت هذه القبائل فى شعب من الشعوب، نفحت لغتـه بنصيب من لهجاتها، ومن أمثلة ذلك اللغة الفـرنسية، فإنها تشتمل على مترادفـات كثيرة، أتت إليها من لهجـة الجنوب Langue d'oc، ولهجة الشمال Langue d'oi فإن كلا اللسانين منح الفـرنسية كلمات كثيرة، لمعنى واحد، وقد تشترك القبـائل المختلفة لشعب واحد فى كلمة، مع اختلاف فى صيغتها، يسوّغ بقاء كل صيغة متميزة عن الأخرى .

وقـد ينشأ الترادف من الغـزو والفتح، فيتغلغل الغـالبـون فى غمار المغلوبين، ويفـرضـون عليهم حكمهم، والسيطرة عليهم، ولكنهم قد يعجزون أن يفرضوا عليهم لغتهم، لقلة عددهم، فيضطرون إلى اتخاذ لغة المغلوبين، وقد يحصل بعد حين مـا يسمى بالاندماج بين اللغتين، فتتغلب إحداهما على الأخرى، وتكثر فيها الكلمات الدخيلة، الملتجئة إليها من اللغة المغلوبة .

هذه أسباب وجود الترادف، التى تذهب بعيدًا فى ماضى تاريخ الأمم ولغاتها . وهناك أسباب أخرى، أقرب عهدًا وأكثر حداثة، وذلك حينما تظهر فنون أو علوم جديدة، ويكون المؤلفون متأثرين بألسنة أجنبية شتى، فتراهم يرسلون أحيانًا فى عباراتهم كلمات أجنبية، من غير حاجة إليها، وهذا ضرب من الرفاهية العلمية، أكثر من أن يكون ضرورة حافزة، تدخل هذه الكلمات فى اللغة فلا يستطيع بعضها أن ينال حق البقاء فيها، فتذهب به عوادى النسيان، بعد زمن قصير أو طويل، وبعضها يأخذ طابع اللغة، ويندمج فى كلماتها » .

ومن أسباب الترادف تداخل اللغات، كأن يكون للكلمة الواحدة صيغة خاصة فى كل قبيلة من القبائل، مع بقاء مادتها، وتناولها بالنقص أو الزيادة، أو تغيير الحركات أوالحروف، بحيث تصبح على صور مختلفة، وإن كان أصلها واحدًا . ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن جنى فى الصفحة ٣٧٨ من الخصائص قال : « وكقولهم الذُّروح والذُّروح والذُّرِّيح والذُّرّاح والذُّرَّح والذُّرْنُوح والذُّرَحْرَح والذُّرَّحْرَح، رَوَينا ذلك كله » . وزاد عليه أصحاب المعجمات الذُّرَّحْرُح والذَّريحة : الذرحرح، وهى دويبة حمراء منقطة بسواد تطير، والجمع ذراريح (١)، والأمثلة من هذا النوع كثيرة جدًا، تفيض بها صفحات كتب اللغة، ولو أرسلنا القول فيها لطال حبل الكلام .

ومن طرائف هذا الباب ما جاء فى الصفحة ٣٧٨ من الخصائص : « ورويت عن الأصمعى قال : اختلف رجلان فى الصقر، فقال أحدهما : الصقر بالصاد، وقال الآخر : السقر بالسين، فتراضيا بأول وارد عليهما، فحكيا له ما هما فيه، فقال : لا أقول كما قلتما، إنما هوالزقر . أفلا ترى إلى كل واحد من الثلاثة كيف أفاد فى هذه الحال إلى لغته لغتين أخريين معها، وهكذا تتداخل اللغات» .

ومن أسباب الترادف الإبدال والقلب، جاء فى الصفحة ٢٧٣ من المزهر : « قال أبو الطيب (اللغوى) فى كتابه : ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف، وإنما هى لغات مختلفة لمعان متفقة، تتقارب اللفظتان فى اللغتين لمعنى واحد، حتى لا تختلفا إلا فى حرف واحد، ومن أمثلة الإبدال الأيم والأين : للحية، وطانه الله على الخير وطامه : يعنى جبله، وفناء الدار وثناء الدار، وجدث وجدف : للقبر، ومرث فلان الخبز فى الماء ومرده، ونبض العرق ونبذ .

ومن أمثلة القلب : ربَض ورضب، وصاعقة وصاقعة، وعميق ومعيق، ولبكت الشىء وبلكته : إذا خلطته، وسحاب مكفهر ومكرهف . (٢)

وربما كان من أسباب كثرة الترادف ميل العرب إلى الكُنى، وهى كثيرة فى كلامهم، خصها عدد من اللغويين بالتأليف، والشىء الواحد عندهم قد يناله كثير من الكُنَى يكثر إطلاقها عليه، ويشيع

---

(١) هذه الصفات تنطبق على الحشرة المعروفة عند العامة بأم العيد .

(٢)قد يقال : إن هذا وماقبله ليس من باب الترادف، وإنما هو ضرب من اختلاف اللهجات، على أنا نرى أن هذا الاختلاف قد يكون فى بعض الأحيان عظيما كما رأيت .

استعمالها فيه، وتزاحم اسمه فى الشهرة، حتى تصبح مرادفة له . والأمثلة كثيرة جدًا، نقتصر على القليل منها :

من ذلك كنى النمر، وهى : أبـو الأبْرَد، وأبو الأسـود، وأبو جهل، وأبو خَطَّاب، وأبـو رقاش. ومن كنى الأسد : أبو الأبطـال، وأبو . زو، وأبو الأخياس، وأبو التامـور، وأبو حفص، وأبو الحذر، وأبو الزعفران، وأبو شبل، وأبو ليث، وأبو لبد، وأبو محراب، وأبو مِخْطَم، وأبو النحس، وأبو الوليد، وأبو الهيصم، وأبو العباس، وأبو الحارث .

وقد يكـون النسب من أسباب الترادف، لأن الشىء قد ينسب إلى شخص أو مكـان أو نحوهما فى أول الأمر، ثم ينسى كل ذلك، ويستعمل المنسوب استعمالاً عامًا، فيدخل بين مترادفاته، فالمشرفى : السيف، نسبة إلى مشارف الشام، وهى قرى من أرض العرب تـدنو من الريف، والسمهرى والردينى : الرمح، ينسبـان إلى سمهرورُدينـة : زوجان كانـا مثقفين للرمـاح، ولكن الأدباء والشعـراء يطلقون المشرفىّ على السيفين من غير نظـر إلى قيد، والسمهـرىّ والـردينىّ على الـرمح كذلـك . والسابـرى : الثوب الـرقيق الجيد : نسبـة إلى سابـور، وهى كورة فى بـلاد فارس، على غير القيـاس، والعبقرىّ فى الأصل نسبة إلى عبقـر، وهو موضع كثير الجن، ثم أطلق على الكامل من كل شىء . وقـد عدّ علماء اللغة، كما سبق لك، الأصبَهانية والصَّلاخدىّ من مرادفات العسل .

وقد ينشأ الترادف بعد عصر الاحتجـاج بالعربية، بما يـدخل على اللغة من الكلمات المولدة، ومن أمثلة ذلك : البُرجاس : للغرض والهدف، والطنْز : للسخـرية وقيل هو معرب، والطُفَيلى : للواغِل والوَغْل، والزَّبون : للغبىّ والحريف، والمخرقة : للكذب .

وهناك أسباب دعت إلى تـوهم الترادف، منها دخول كلمات فى العربيـة من لغات أخرى، بسبب امتزاج العرب بالفرس والروم وغيرهما من الأمم . نعم إن المتشدد لا يعدّ هذه الكلمات من المترادفات، لاختلاف اللغة، ولكن ما الحيلة وقد شاع استعمالها، وأصبحت ذات حق بمضى مدة طويلة عليها، تجرى على أسلات الأقلام، وتجىء فى أفصح الكـلام، وقد عربها العرب، فجرت مع الألفـاظ العربية فى عِنان ؟ وقد عاش بعض هذه الكلمات، ورسخت قدمه، حتى تغلب على مرادفاته العربية، وفَلَج عليها . من ذلك الألفاظ الآتية :

الأعجمى	العربى	الأعجمى	العربى
النَّرجس	العَبْهرُ	الأُترج	المتك
الرَّصَاص	الصَّرفان	التُّوث	الفِرصاد
الخيار	القَثَد	الياسَمِين	السمسق
الهَاوُن	المنحاز	اللوبياء	الدَّجْر
المِيزاب	المَثْعَب	السكر	المبْرَت
المِسك	المشموم	الفالوذج	السِّرطراط
		...	

ومن الألفاظ الأعجمية ما ضَعُف عن منافسة العربى، فقل استعماله، وذلك كالألفاظ الآتية:

العربى	الأعجمى	العربى	الأعجمى
الإبريق	التامورة	المرآة	السَّجَنْجَل
السفينة	البُوصىّ	الخُفُّ	المَوْزَج
الرغيف	الجَرْدَقة	الأمير	القَوْمس
الجماعة من الخيل	القَيْرَوَان		

ويعد الوصف من أسباب توهم الترادف؛ لأن العرب جرت فى كثير من أحوال الكلام على حذف الموصوف، والاكتفاء بالوصف، سيرًا على نهجها فى الإيجاز، واعتمادًا على وضوح المراد، فإذا تكرر استعمال الوصف مستقلاً، تناسى الناس الموصوف تدريجيًا، وأخذ الوصف يقرب من الاسمية قليلاً قليلاً، حتى يندمج فى الأسماء المترادفة. وقد عرفنا من أقوال ابن فارس، وهو ممن ينكر الترادف، أن الشىء الذى يسمى بالأسماء المختلفة إنما له اسم واحد، وما بعده من الألقاب صفات، ويرى من عدُّوا الصفات المشهورة من المترادفات أن الصفة تُنوسيت، حتى لو قلت: السيف الصَّمصام، أو السيف الحُسام، أو الأسد الأغلب، لكان ذلك غريبًا عند قوم، بعيدًا عن السَّنَن العام، الذى استنته العرب لأساليبها، فلما تَنَصَّلت الصفة أو كادت، لم يروا فى أنفسهم حرجًا أن يلحقوا الصفات بأسمائها، ويجعلوها مرادفة لها، فقد عدوا من مرادفات السيف كثيرًا من صفاته، كما يُعلم بالاطلاع على كتب اللغة.

ومن أسباب توهم الترادف المجاز يشتهر بين الأدباء، فيصبح حقيقة عرفية، أو ما يقرب منها، ويندس بين المترادفات كأنه واحد منها بالوضع، من ذلك ما سبق من تسمية العسل بالماذية والثواب والصهباء والسلاف والنحل، إلى غير ذلك، فإن هذه كلها مجازات، أطلقها البلغاء على العسل، ودارت على ألسنتهم فزاحمت كلماته الموضوعة له، ومن ذلك تسميتهم اللغة لسانًا، والزواج بناء، والجاسوس عينا.

والمجاز المشهور كثير جدًا فى اللغة، وقد امتلأت به المعجمات، حتى إن كثيرًا من اللغويين لا

يفرقون بين الحقيقة والمجاز، ومن هنا جلّت منزلة كتاب أساس البلاغة لجار الله الزمخشريّ، لأنه عُنى بالتمييز بينهما .

وقد يُتوهم الترادف، بسبب عدم التمييز بين المطلق والمقيد، فيوضع أحد اللفظين مكان الآخر، من غير تدقيق، على توهم الترادف . وقد عقد ابن فارس لذلك بابًا جاء فيه : « ومن ذلك المائدة، لا يقال لها مائدة حتى يكون عليها طعام، لأن المائدة من مادنى يميدنى : إذا أعطانى، وإلا فاسمها خِوان، وكذلك الكأس : لا تكون كأسًا حتى يكون فيها شراب، وإلا فهى قَدَح أو كوب، وكذلك الحُلة، لا تكون إلا ثوبين : إزارًا ورداء من جنس واحد، فإن اختلفا لم تدع حُلّة، ومن ذلك السَّجْل، لا يكون سَجْلاً إلا أن يكون دلوا فيه ماء . . .

ومن ذلك القلم لا يكون قلمًا إلا وقد بُرِى وأصلح، وإلا فهو أنبوبة، وسمعت أبى يقول : قيل لأعرابى : ما القلم؟ « فقال : لا أدرى، فقيل له : توهمه، فقال : هو عود قُلِم من جانبيه، كتقليم الأظفور، فسمى قلما » .

وقد رأينا الفصحاء أحيانًا لا يفرقون فى المعنى بين الكأس والقدح، وهذا بديع الزمان الهمذانى يقول فى مطلع قصيدته المشهورة :

أذهبِ الكأس فعُرف الفَجْـــــــر قد كاد يلـوح

وإذهاب الكأس : معناه لغة تمويهها بالذهب، ولكنه هنا يريد ملأها بالخمر، التى تصير لون زجاجها كلون الذهب، حتى كأنها قد موهت به، ولو أن البديع نظر إلى أن الكأس لا تسمى كأسًا حتى يكون فيها شراب، ما قال هذا، ولكنه أطلق المقيد، وأراد المطلق، وهذا ما نبهنا عليه آنفًا : من أن الترادف ينشأ من عدم التمييز بين المطلق والمقيد . ومثال آخر : قال السيُّوطى فى الصفحة ٢٦٧ من المزهر : « ولا يقال ثرى إلا إذا كان نديًا، وإلا فهو تراب »، فماذا نرى فى قول أبى تمام :

دِيمــة سمحــة القِياد سَكـوب مستغيث بها الثَّرى المكروب

وهل يستغيث الثرى بالديمة، ويتلهف إلى مائها وقد اشتدّ به الكرب، ونال منه الهمّ، إلا إذا كان جافا يابسًا، قد حرّقه الصَّدَى، وألهبه القيظ ؟، فأبو تمام يستعمل الثرى استعمالا مطلقًا، لم ينظر فيه إلى قيد، وهو على هذا النحو مرادف للتراب، ولا نريد أن نطيل هنا ؛ فإن هذا الموضوع حقيق بأن يفرد بمبحث خاص به .

ومن أسباب توهم الترادف الكناية الدالة على ذات، فإنها إذا اشتهرت، وجرت بها أقلام الكتاب، توهمها الناس حقيقة، وأدخلوها فى عداد المترادفات، فزاحمتها بالمناكب، فسليل النار الذى ورد فى شعر المعرى :

سليل النـــار دق ورق حتـى كأن أبـــاه أورثـــه السُّـــلالا

مرادف للسيف فى الاستعمال، وبنت عدنان، وهى كناية عن لغة العرب، أصبحت كأنها مرادفة لها، وموطن الأسرار فى شعر أبى نُوَاس :

ولما شربناها ودب دبيبها إلى موطن الأسرار قلت لها قفى

كالمرادف للعقل، وكثير الرماد يرادف فى استعمال الأدباء الكريم . وقد عدّ بعض علماء اللغة، كما سبق لك، قىء الزنابير، ورُضاب النحل، من مرادفات العسل، وهما كنايتان عنه . والذى يرجع إلى أساس البلاغة يرى من هذا جملة صالحة .

ومجمل القول أن الترادف واقع فى العربية، وأن كثيرًا من علماء اللغة والأدباء توسعوا فيه، وتناسوا ما بين الكلمات من فروق، أو اختلاف فى الوضع، أو اختلاف بين حقيقة ومجاز، وأن الواجب يدعو إلى تمحيص هذه المفردات وتحديد ما بينها من فروق، ويُهيب بعلماء اللغة أن يتجردوا إلى البحث حتى لا تكون اللغة خِصبة نامية فى ناحية، قفرًا فى ناحية أخرى، وحتى تكون أدق تعبيرًا وأوضح بيانًا .

وإذا استمعنا للأستاذ ترِنْش (Trench) فى هذه المسألة وجدناه يقول ما محصله :

إن الأمم كلما اتجهت إلى لغتها بالعناية والدرس، وتدرجت من طور السذاجة إلى طور المدنية - وهى أكثر اشتباكًا وتعقيدًا - وجدت أمامها كثيرًا من الأشياء يتطلب التسمية، وكثيرًا من الأفكار يعوزه التعبير، وكثيرًا من الأسباب التى تدعو إلى تحديد الفروق بين الكلمات . حينئذ تدرك أن من التبذير فى ثروتها أن تستعمل كلمتين أو أكثر فى معنى واحد، على حين قد تطلعت إليها الدنيا، وهى واسعة المدى، كثيرة المطالب، وقد أخذ كل شىء فيها يُلِحّ فى طلب لفظ يحدد معناه، وقد جاشت الأفكار وضروب الوِجدان على اختلاف أنواعها، متلهفة إلى تعبير يبرزها إلى الوجود . لاشك أن قصاص الإسراف فى ناحية من نواحى اللغة ضيق وتقتير فى نواح أخرى، فكثيرًا ما نرى فكرًا أو وجدانًا تعوزه التسمية لأن فكرًا آخر أو وجدانًا سواه ظفر بتسميتين . . . . . . » .

إن تحديد المعانى من أعظم أسباب الإجادة فى صناعة الكلام، فما أجل خطره حينما نستطيع أن نعرف فى لمحةٍ الكلمَة التى يتطلبها التعبير دون غيرها، والتى تصور ما فى النفس تصويرًا صحيحًا، لا أن نختار من طائفة الكلمات أية كلمة كيفما جاءت، ظانين أن كل واحدة منها كفيلة بأداء المراد . إن أول مِيزات الرجل الأنيق أن تكون ملابسه مناسبة لجسمه، لا بالقصيرة الضيقة فى ناحية، ولا بالطويلة المُرَهَّلة فى أخرى، كذلك من أول مِيزات الأسلوب الصحيح أن تطابق أثواب كلماته معناه على خير الوجوه، فلا تطول هنا، وترسل على الأرض، كأنها أثواب طِرِمّاح على جسم قزم ؛ ولا تقصر هناك حتى كأنها أثواب طفل اندس فيها رجل بصعوبة وجَهْد . والأسلوب الصحيح هو الذى لاتشعر حينما تقرؤه أن الكاتب يعْنِى فيه أكثر مما كتب، ولا أنه كتب أكثر مما يَعْنِى . وضعف الأسلوب عن الوصول إلى هذه المرتبة آت من الحاجة إلى المهارة فى استعمال وسائل التعبير، ومن عدم التدقيق فى اختيار الكلمات المحددة للفكر تمام التحديد، فكم من ثروة عظيمة من الكلمات فى كل

لغة تراكمت مهملة لا تستعمل، وكم من كنوز دفنت فى بطون الكتب اللغوية النافعة، فلا يكاد الطرف يلمح منها إلا أثرًا فى صفحات المعجمات، ونحن فى وسط كل هذه الثروة الواسعة ملتصقون بفاقة عن إرادة واختيار، مع ما يُطلب منا من الأعمال اللغوية الدقيقة الكثيرة المصاعب . وتشبه حالنا فى إهمال التدقيق فى الكلمات، وعدم إلباس الأفكار ما يلائمها تمام الملاءمة من الكلمات، حالَ عامل كلف عملاً يتطلب مهارة فنية، وأعطى لذلك عددًا من الآلات المتنوعة، على أن يستعمل كل واحدة فى العمل الخاص بها، فصمم فى إهمالٍ أنْ يكتفى بآلة واحدة، فخرج عمله غير متقن، وقد أهملت فيه أعمال كانت وسائلها فى متناول يديه . ألسنا نجد فى كثير من الأحاديث الشائعة بين الناس، وفى كثير من الكتب، عددًا محدودًا من الكلمات استعمل فى أوانه، وفى غير أوانه، حتى نال منه الجَهْد، على حين أن عددًا عظيمًا من الكلمات يندر أن يستعان به فى أغراض، وهو فى أدائها أحسن تأتيا، وأدق إحكامًا . وقد استمر إهمال هذه الكلمات، وطال عليه العهد، حتى ذهبت بها عوادى النسيان.

ومن المحتمل بعد أن تحس الأمة حاجتها إلى كلمات جديدة تسد مطالب الحياة، أن تبعث برجالها للبحث عن كلمات جديدة، فى حين أن لغتها المهجورة تَعِجّ بكثير من الكلمات التى يبحثون عنها .

هذه مسألة جديرة بنظر العلماء . وإنى أرى فى خاتمة مقالى هذا أن خدمة العربية إنما تكون باستخراج كنوزها، وتحديد معانى مفرداتها، وإلباس كل جديد صورة من صورها الصحيحة .

والله سبحانه الموفق، وبه نستعين.

تاريخ الأدب العربى

العصر التركى إلى بدء النهضة الحديثة (*)

عصر المماليك

سقوط بغداد: كان سقوط بغداد فى سنة ٦٥٦ هـ كارثة أصابت اللغة والأدب والمدنية العربية الزاهية، وقضت على عهد مجيد كان فخر المسلمين ومرجع زهوهم.

وقصة سقوط بغداد مؤلمة جدًا، وهى مفصلة فى الجزء الأول من كتاب المنتخب فارجع إليه.

سقطت حاضرة الإسلام فى سنة ٦٥٦، حتى إذا كانت سنة ٦٥٩ هـ قدم مصر أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر بأمر الله العباسىّ، وخرج السلطان بيبرس للقائه، ومعه القاضى والوزير والعلماء والأعيان والشهود، ودخل من باب النصر، وبعد أيام جلس السلطان والخليفة فى حفل من القضاة والأمراء، وأثبت القاضى نسب الخليفة فبايعه شيخ الإسلام ثم الخليفة ثم غيرهما من كبار الدولة، ولقب بالمستنصر، وكتبت بيعته إلى الآفاق.

وبعد أشهر طلب الخليفة من السلطان أن يجهزه إلى بغداد، وبينما هو فى الطريق خرج عليه عسكر التتار فلا يدْرَى أقتل أم هرب، وكان ممن حضر هذه الموقعة أبو العباس ابن الخليفة المسترشد بالله، فقدم القاهرة فتلقاه السلطان وأظهر السرور به، ثم أثبت نسبه وبايعه وبايعه الناس، ولقب بالحاكم بأمر الله، ثم أسكنه السلطان عنده فى القلعة، وما زال بنو العباس يتوارثون الخلافة بمصر حتى فتحها العثمانيون سنة ٩٢٣ هـ.

التجاء الآداب العربية إلى مصر: تطلع العلماء فى جميع أقطار العالم الإسلامى إلى مهرب

(*) الفصل الذى كتبه على الجارم من كتاب المفصّل فى تاريخ الأدب العربى المنشور عام ١٩٣٤.

يلتجئون إليه، بعد أن تحكّم التتار فى حاضرة الإسلام ودار السلام، وهدموا مدنيتها، وعفّوا على آثار مجدها، وقضوا على مظاهر حضارتها، وأعملوا السيف فى أهلها أيامًا، وقذفوا فى نهر دجلة بالكتب وهى خير ما أنتجته قرائح المسلمين. رأى العلماء ورجال الدين كل ذلك، ورأوا أن الديار نبت بهم، فالتمسوا مكانًا يطيب لهم فيه المقام، وتزدهى فيه العربية وتخفق راية الإسلام. فإلى أين يذهبون بعد أن ملك التتار ما بين صحراء المغول إلى ما وراء البحر الأسود وسواحل بحر الروم؟ أيذهبون إلى بلاد العرب وهى وإن كانت مهد العربية تقلص ظلها عنها منذ حين ودالت فيها دولة العلم والأدب؟ أيذهبون إلى إفريقية على بعد شقتها وقرب مصر إليهم؟ أيذهبون إلى الأندلس وقد تغلب عليها الإسبانيون ولم يبق فيها إلا رُقعة صغيرة حول غَرناطة توشك أن تسقط فى أيدى المسيحيين؟ إلى أين يذهبون؟

تطلّع العلماء شرقا وغربا فلم يجدوا غير مصر خصوصًا بعد أن أصبحت موطن الخلافة ومقرَّ الإسلام، فرحلوا إليها من جميع الأقطار. فكنت ترى القاهرة ومراكز العلم الأخرى بالديار المصرية تموج بهم موجا، وكنت ترى بينهم العراقىّ والشامىّ والفارسىّ والأندلسىّ والإفريقىّ والحجازىّ، وقد وطّأ لهم السلاطين أكنافهم، وأنزلوهم مُنْزَلا مباركا، وأغدقوا عليهم الصلات والإحسان، وحاطوهم برعايتهم وعطفهم، فوجدوا حرماً آمنًا، ومكانًا يُنبت العز، فأخذوا يؤلفون وينظمون وينثرون.

القاهرة مركز الثقافة العربية: أصبحت القاهرة مركز العلم والثقافة لبلاد الإسلام جميعاً، وكانت فى ذلك الحين كما وصفها القلقشندى فى شىء من الزهو فقال: «ولم تزل القاهرة فى كل وقت تتزايد عمارتها، وتتجدد معالمها، خصوصاً بعد خراب الفسطاط وانتقال أهله إليها، حتى صارت على ما هى عليه فى زمـاننا من القصور العلية، والدور الضخمة، والأسواق الممتدة، والمناظر النزهة، والجوامع البهجة، والمدارس الرائقة، والخوانق الفاخرة، مما لم يسمع بمثله فى قطر من الأقطار، ولا عهد نظيره فى مصر من الأمصار».

ولو سلمت مصر فى هذا العصر من نوبات الظلم وفداحة المكوس، والمجاعات والطواعين والاضطرابات، التى كانت تقع بين طوائف المماليك وبينهم وبين العرب لكتب القلم للأدب تاريخًا غير هذا، ولبلغت العلوم والآداب منزلة أعلى وأرفع.

على الرغم من هذا فإن مصر نهضت نهضة علمية مباركة فى هذه الأيام، وأهم أسباب هذه النهضة غَيْرة العلماء وحرصهم على إعادة مجد الإسلام، الذى بعثرته أيدى التتار، ثم معاضدة الملوك والأمراء ورجال الدولة العلمَ وأهله.

عطف السلاطين على رجال العلم والدين: والحق أن سلاطين مصر كان لهم ميل إلى العلم والعلماء، وكان فى أغلبهم تمسك بالدين وتعظيم لأهله، ألم يروا أنهم أصبحوا حُماة الخلافة الإسلامية وأنّ دولتهم صارت ملجأ الإسلام ومَباءة أهله؟ ألم يروا ما أصاب الدول قبلهم بسبب

الانغماس فى اللهو والصدوف عن أوامر الدين ؟ ثم إنهم من ناحية أخرى رأوا أن الدين والعملَ به وتعظيمَ أهله مما يقربهم إلى قلوب الرعية ، ويغفر لهم ما تصادفه منهم أحيانًا من أمواج الطغيان . فقد ذكر المؤرخون لكثير منهم أخبارًا تدل على إجلالهم علماء الدين وخضوعهم لأحكامهم . قال فى حسن المحاضرة : « وكان الظاهر بيبرس منقمعًا تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، لا يستطيع أن يخرج عن أمره حتى إنه قال لما مات الشيخ : «ما استقر ملكى إلا الآن» .

وحضر الظاهر فى محاكمة في بئر بين يدى القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز فقام الناس سوى القاضى ، فإنه أشار إليه ألا يقوم ، وقام هو وغريمه بين يدى القاضى وتداعيا .

وترجم الحافظ ابن حجر فى معجمه للملك المؤيد شيخ وأثنى عليه وقال : «أين مثله؟ بل أين أين مثله ؟ وكان معهُ إجازة بصحيح البخارى من شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى ، فكانت لا تفارقه سفرًا ولا حضرًا» .

وكان السلاطين يشجعون العلماء على التأليف بما كانوا يبذلون من المال والمناصب ، فامتلأت خزائن الكتب في عهدهم بثمرات العقول ونتائج الأفهام ، كما سنقصه عليك بعد حين . وكان من بِرّ السلاطين بالعربية أن رفعوا من شأن ديوان الإنشاء ، وحافظوا على العربية بجعلها اللغة الرسمية فعاشت فى كنفهم آمنة هانئة .

وأيادى السلاطين على العلم والفقراء لا تزال ماثلة فيما بنوا من مدارس ومساجد وخوانق وبيمارستانات . وقد حبسوا على ذلك وغيره من وجوه البر الشىء الكثير.

وقد أنشأ الأيوبيون بالقاهرة قبل هذا العصر نحو خمس وعشرين مدرسة ، وبنى المماليك نحو خمس وأربعين ، ومن هذه المدارس ما كان مختصًا بالصوفية ، وكانت المدارس في هذا العهد تموج بالطلاب يفدون إليها من جميع أقطار الإسلام للارتشاف من مناهل العلم ، وكانت تفاض عليهم الهبات وضروب الإحسان من الأوقاف المحبوسة على العلم وأهله ، ومما كان يجريه عليهم أمراء المصريين وأميراتهم من أنواع البر، فكان يصرف لهم الطعام والكُسَا وتهيَّأ لهم المساكن ليعيشوا هانئين لا يشغَلهم شاغل عن طلب العلم والتجرد له .

موازنة بين هجرتين: لذلك هاجر العلماء والطلاب إلى القاهرة من كل حدب وصوب ، كما تفر الطيور أزعجها الصيادون إلى حيث الأمن والسلامة ، وإلى حيث لا تسمع إلا خرير الأنهار وحفيف الأشجار. وكانت هجرة العلماء والطلاب من أقطار الإسلام المغلوبة إلى القاهرة تشبه من بعض الوجوه هجرة علماء اليونان من القسطنطينية إلى إيطاليا . فإن السلطان محمدًا الفاتح حينما فتح القسطنطينية فى سنة ٨٥٧ هـ فرّ منها فلول من علماء اليونان إلى إيطاليا ، وهناك أحيوا دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية ، ونشروا ثقافة جديدة . ويعد المؤرخون هذه الهجرة مبدأ لنهضة إحياء العلوم بأوربا ، ويجعلونها الحد الفاصل بين القرون الوسطى والعصر الحديث ، وقد كانت هذه الهجرة عظيمة

الأثر بلا ريب، فإنها دفعت العقول إلى التفكير بعد جمودها، والنفوس إلى الشعور بالعزة والكرامة بعد خمولها، وفتحت الأعين المغلقة إلى ما فى الكون من عجائب مكنونة، كان يغطيها ظلام الجهل الدامس، وجعلت كل إنسان يحسّ أن له إرادة وفيه قدرة، وأن له الحق فى الاستقلال بفكره، والاعتزاز برأيه، فنشأ انقلاب عظيم فى العادات والأخلاق والأديان ونظام الدول والجماعات، وقد كان هذا الانقلاب أساسًا للمدنية الحديثة التى تعيش أوربا اليوم فى ظلها.

أما هجرة العلماء والطلاب إلى مصر فلم تحدث أثرًا فى النظم الاجتماعية والسياسية، لأنها أخذت اتجاها علميًا محضًا، ولأن فكرة الإصلاح والتجديد لم تكن نبتت فى الأذهان بعد، وربما كان حكم المماليك فى ذلك الوقت يفضل حكم كثير من الممالك حولهم، وربما كانت مصر من الرخاء والعزة بحيث تدفع النفوس إلى الرضا بالواقع والقناعة بالموجود، ولو كانت هناك نزعة إلى الإصلاح الاجتماعى لوجدت فى آراء ابن خلدون فى مقدمته مجالاً للعمل وحافزًا إلى النهوض، فإن فيها من وصف أدواء الأمم ووسائل علاجها وبيان أحوال الاجتماع وطرق النهوض بها ما فيه بلاغ وغَناء، ولكنا لا نجد فى هذا العصر أثرًا لتعاليم ابن خلدون، التى بقيت دفينة فى صفحاتها حتى أُنْشِرت فى أوائل عصر نهضتنا، فكانت ركنا شديدا من أركان الثقافة العصرية.

ولما هجر العلماء والطلاب أوطانهم وجدوا أبواب المعاهد والمدارس مفتّحة للقائهم.

المدارس: وأشهر المدارس التى أسست فى هذا العهد:

١ ـ المدرسة الظاهرية: شرع فى بنائها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ هـ وتمت سنة ٦٦٢ هـ وكان بها دروس للفقه الشافعى والحنفى وللقراءات.

٢ ـ المدرسة المنصورية: أنشأها هى والبيمارستان الملك المنصور قلاوون فلما تمّ دخل عليه الشرف البوصيرى ومدحه بقصيدة أولها:

أنشأت مدرسة ومارستانا لتصحح الأديان والأبدانا

ورتبت فى هذه المدرسة دروس فقه على المذاهب الأربعة، ودروس تفسير، ودرس حديث، ودرس طب.

٣ ـ المدرسة الناصرية: ابتدأها العادل كتْبُغا، وأتمها الناصر سنة ٧٠٣ هـ ورتب بها دروسا للمذاهب الأربعة.

٤ ـ مدرسة السلطان حسن: شرع فى بنائها سنة ٧٥٨ هـ قال المقريزى: «لا يعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذه المدرسة فى كبر قالبها، وحسن هندامها، وضخامة شكلها: أقامت العمارة فيها مدة ثلاث سنين لا تبطل يومًا واحدًا. وبها أربع مدارس للمذاهب الأربعة».

٥ ـ المدرسة الظاهرية: تم بناؤها سنة ٧٨٨ هـ، وكانت تحمل أعمدتها الضخمة على عجلات. فقال أحد الشعراء:

الظـاهـر الملك السلطـان همتـه	كـادت لـرفعتهـا تسمـو على زحل
وبعض خـدّامـه طـوعـا لخدمتـه	يـدعـو الجبال فتأتيـه على عجل

عيّن السلطان بها علاء الدين السيرامى مدرسا لفقه الحنفية وشيخا للصوفية، وقد بالغ فى تعظيمه حتى فرش سجادته بيده، وكان بها أيضا دروس فى الفقه الشافعى والحنبلى والحديث والتفسير والقراءات.

٦ ـ المدرسة المؤيدية: تمت عمارتها سنة ٨١٩ هـ وبلغت النفقة عليها أربعين ألف دينار. وكان الناظر على عمارتها بهاء الدين بن البرجى. واتفق بعد بنائها بسنة أن مالت المئذنة التى كانت على البرج الشمالىّ لباب زويلة، فقال تقى الدين بن حجة:

على البرج من بـابى زويلـة أنشئت	منـــارة بيـت الله للعمل المنجى
فـأخنى بها البرج اللعين أمـــالها	ألا صرِّحوا يـاقـوم بـاللعن للبرج

وقال الحافظ ابن حجر ـ وفيه تورية بهجاء قاضى القضاة بدر الدين العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ:

لجامـــع مـولانـا المؤيـد رونــق	منـــارته بالحسـن تـزهو وبالـــزين
تقول وقـد مالت عن القصـد أمهلوا	فليس على جسمى أضر مـن العين

فقال العيني:

منارة كعـــروس الحســن إذ جـليت	وهـدمهـــا بقضــاء الله والـقـــدر
قالوا: أصيبت بعين. قلت: ذا غلط	مـا أوجب الهدم إلا خســةُ الحجـر

وقد أنشأ المماليك بجانب هذه المدارس الكثيرة بيمارستانات عدة، لعلاج المرضى ودراسة الطب.

خزائن الكتب: وكان بكثير من المدارس خزائن كتب حافلة بـالكتب الثمينة النادرة النافعة فى شتى العلوم والفنون. فكان بالمدرسة الفاضلية فى صدر هذه الـدولة خزانة بها نحـو مائة ألف مجلد، وكان بالمدرسة الصاحبية البهـائية خزانة كتب جليلة، وحوت المدرسـة الظاهريـة التى أسسها بيبرس خزانـة كتب كانت تشتمـل على كثير من أمهات الكتب فى سـائر العلوم، وعمل بالمدرسة المحمودية التى أنشئت سنة ٧٩٧ هـ خزانة كتب، قال المقريزى فى شأنها: «ولا يعرف اليـوم بديـار مصر ولا الشام مثلها، وهى باقية إلى اليوم، لا يخرج لأحد منهـا كتاب إلا أن يكـون فى المدرسة، وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل فن».

وكان بمـدرسة الأمير جمال الدين التى أنشئت سنـة ٨١٠ هـ، خزانة حافلة بالمصاحف الثمينة، والكتب النفيسة.

لمحة في تاريخ الأزهر منذ نشأته
وأثره في اللغة والأدب

إنشـاؤه: لمّا تمّ للفاطميين فتح مصر أسسوا القاهرة المعزّية سنة ٣٥٨ هـ لتكون حاضرة ملكهم، وأنشئوا بها الجامع الأزهر ليكون مدرسة يدرس فيها مذهبهم الشيعي. وقد ابتدأ قائدهم جوهر فى بناء هذا الجامع فى يوم السبت الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣٥٠ هـ، وأتم بناءه فى سنتين تقريبًا، وكان أول جمعة أقيمت به فى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ.

تسميته: والسبب فى تسميته بالأزهر على أرجح الأقوال أن الفاطمين سَمَّوْه بهذا الاسم إشارة إلى لقب السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم التى بنيت دعوتهم على الانتساب إليها.

عمارته وإصلاحه: ثم إن الحاكم بأمر الله جدّده ووقف عليه وعلى سواه من معاهد الدين رباعا فى سنة ٤٠٠ هـ، وتناوله بالتعمير والتجديد فى أيام الدولة الفاطمية أيضًا المستنصر والحافظ لدين الله.

وفى أيام الظاهر بيبرس جدده عز الدين أيدمر الحِلِّى فتمت عمارته فى سنة ٦٦٥ هـ.

وفى سنة ٧٠٢ هـ انهدم هذا الجامع بزلزال شديد حصل بمصر فى تلك السنة، فتولى عمارته الأمير سلار أحد أمراء دولة المماليك، وفى سنة ٧٦١ هـ كان للأمير سعد الدين الجامدار أثر صالح فى تجديد بنائه وإصلاحه والإغداق على طلاب العلم فيه.

وفى سنة ١١٦٧ هـ زاد فى سعة هذا الجامع بمقدار النصف تقريباً الأمير عبد الرحمن كتخدا، ومازال الملوك يتولونه بالعمارة والإصلاح والتجديد إلى يومنا هذا .

وصفه: ويشتمل هذا الجامع على محل مسقوف للصلاة يسمى مقصورة، وآخر غير مسقوف يسمى صحنا، ومقصورته تنقسم قسمين: المقصورة الأصلية الكبيرة التى هى من إنشاء القائد جوهر

وبها القبلة القديمة، والمقصورة الجديدة التى أنشأها الأمير عبد الرحمن كتخدا وأرضها مرتفعة عن أرض المقصورة القديمة بنحو نصف ذراع بحيث يصعد من القديمة إلى الحديثة بدرجتين.

وهذا الجامع لا يشتمل على شيء من الزخرف، وإنما عظمته فى كبره واتساعه وما اتصل به من تاريخ مجيد.

عهود الدراسة بـه وأثره فى اللغة والأدب: وأول ما درس بالأزهر الفقه على مذهب الشيعة، ويظهر من عناية الخلفاء الفاطميين بالعلوم الرياضية والفلكية والطبية والجغرافية أن تلك العلوم كانت تدرس فى الأزهر فى زمانهم، وبقى مذهب الشيعة يدرس فى الأزهر ويقضى به فى مصر إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ وقامت بعدها الدولة الأيوبية فأبطلت مذهب الشيعة من ديار مصر ومنعت الدراسة وخطبة الجمعة من الجامع الأزهر، وقصرت الخطبة على الجامع الحاكمى لأنه كان أوسع من الأزهر وقتئذ، وعُطلّت الدراسة فى الأزهر نحو مائة سنة ولم تعد إليه إلا فى أيام السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ.

وازدهر الأزهر فى عصر المماليك ازدهارًا وحج إليه الطلاب من مشارق الأرض ومغاربها للانقطاع لطلب العلم والتمكن من اللغة والأدب والدين، ولما كان يفاض عليهم من الخير الوفير والرعاية وصنوف الإحسان. فقد كان لكل طائفة رواق خاص ينزل به الطلبة طاعمين كاسين. فأمه التركىّ والمغربى واليمانى والزنجى والهندى والأفغانى وتجردوا إلى الدرس وطاب لهم المقام، حتى إذا أقاموا ما أقاموا، انقلبوا إلى أهلهم متمكنين فى دينهم، راسخين فى علوم العربية وآدابها، فنشروا العلم بين أبناء بلادهم، ورفعوا راية الدين فى أوطانهم، ومجّدُوا مصر واسم مصر التى كانت تعدّ بحق مصدر النور والعرفان فى هذه العصور.

ولما فتح العثمانيون مصر سنة ٩٢٣ هـ خبت نار العلم وطوى بساطه وذوَى نبته لما أصاب مصر حينئذ من ضروب الإرهاق والخسف، ولم يبق فى هذا العصر المظلم إلا بصيص يشع من الأزهر، ولولاه لانقطعت صلتنا بالعلم وأهله، واللغة وآدابها، ولذهبت البقية الباقية من هذا المجد المؤثل والتراث الكريم.

وقد كان الأزهر فى هذه العصور القاتمة فوق رسالته التى يؤديها للدين واللغة والأدب، ملجأ المظلومين ومثابة المنكوبين، فطالما التجأ البائسون إلى علمائه يستجيرون بهم من ظلم الحكام، وفداحة الأحكام، فأخذوا بناصرهم، وكشفوا الضر عنهم.

ذكر المؤرخون أن أتباع محمد بك الألفى من أمراء المماليك ظلموا أهل قرية بالشرقية فجاء أهلها صارخين مستغيثين بعلماء الأزهر، فقام هؤلاء وعلى رأسهم شيخ الأزهر وذهبوا إلى إبراهيم بك حاكم مصر وقتئذ، وطلبوا منه رفع الظلم عن أهل هذه القرية، فأسرع إلى إجابة طلبهم، وكف أيدى الأمراء وأتباعهم عن أموال الناس، وكتب القاضى حجة بذلك.

وحينما اعتزم المصلح الكبير محمد على باشــا إنهاض مصر ورفع منزلتها بين الممالك ، لم ير خيرًا من أن يتخير من بين طلاب الأزهر من يدرسون العلوم الحديثة فى مصر ثم فى أوربا ، فعادوا وكانوا طلائع النهضة الحديثة فى العلوم والآداب .

ومن هنا ترى أن الأزهر كان حلقة الاتصال بين القديم والحديث ، وأن له الأثر الواضح فى نهضتنا المباركة .

ولما أنشأ الخديو إسماعيـل باشا مـدرسة دار العلـوم التى نهضت باللغـة العربيـة نهضتها الحاضرة أمدّها الأزهر بطلابه .

والحق أن عناية الأسرة العلوية بالأزهر بلغت الغاية فقد تنافس أمراء هذا البيت الكريم وأميراته فى إسداء البر للعلم وأهله ، فحبسوا عليه الأوقاف الـواسعة ، وكان موضع عنايتهم وإحسانهم . ولحضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول الفضل العميم فى إنهاض الأزهـر فى العهد الحديث ، بما أفاض عليه من جميل رعايتـه ، وواسع بره ، حتى أعاد إليـه مجده القديم ، وحتى أصبح قبلة لجميع طـلاب الدين واللغة والآداب والعلوم فى جميع بلاد الإسلام .

الشـــــــعر

سلك الشعر السبيل التى اختطها الشعراء لأنفسهم فى أخـريات العصر العباسى الثانى من الميل إلى الصناعة اللفظية ، وربما أفـرط شعراء هذا العصر إفراطًا فى تحلية الشعـر بأنواع البديع ، والتلاعب بالألفاظ فى مهارة ولبـاقة ، حتى لقد نستطيع أن نسمى الشعر فى هذا العصر شعـر الألفاظ والزينة . ويظهر أن لنضوب القرائح فى هذا العصر من الأفكار والمعـانى والقدرة على التوليد وانصراف الأذهان عن تعلم الفلسفة وعلوم الكون شأنا كبيرًا فى ضيق مدى الشعر وجدبه وخلوه من الابتكار.

وإن بقاء الشعر فى هذا العصر حـافظا روعته وجماله بعد أن ذهبت أسبـاب نهوضه أو كادت ، مما يستوقف نظـر طالب الأدب ، فقد زال عنه تشجيع الملـوك ولم يكن من السلاطين إلا القليل ممن يفهم الشعر، وهم آل قلاوون والسلطان حسن والمؤيد شيخ ، الذى كان ينظم الشعر ويلحنه ، ثم السلطان الغورى ، وقليل منهم جدًا من اختص بشاعر أو شعراء كما كانت الحال فى العصر العباسىّ . ولم يكن هذا العهد عهد الصـلات ولا عهد الإغداق ولا عهد ملء الأفواه بالـدّر والجوهر. فلم يجد الشعراء فى الشعر مرتزقـا ، فانصرفوا إلى وسائل الكسب الأخرى كالكتابة فى الـدواوين والصناعات ، فكان منهم الجزار والحمّـامى والكحّـال والدّهـان . ألم يَهِمْ ابن نبـاته وهـو إمام الشعـراء فى عصره بين بلاد مصر والشام طالبا القوت ملتمسًا الكفاف ، فلم يجده إلا مجهدًا مكدوداً .

ثم إن أسباب اللهـو وفراغ البـال التى تدفع أحيـانا بـلابل الشعر إلى التغـريد قـد سكتت فى هذا العصر، الذى كان فى جملته عصر جدّ وصرامة واضطراب.

فإذا أجاد الشعراء فإنهم يجيدون لأنهم أحبوا الشعر ورأوا فيه فنًا رفيعًا حنّت إليه نفوسهم، ومالت قلوبهم، فقال كثير منهم لا للمال ولا للكسب، ولكن لأن الفنّ تملكهم وأخذ بزمام نفوسهم، فلا بدّ لهم من القول، ولا بدّ لهم من الإجادة. وإنما تزدهى الفنون إذا صـدرت عن نازعة صادقـة مصدرها حب الفن، لا حب الشهرة ولا حب المال.

التنافس فى الشعر بين مصر والشام: وقد يكون من الأسباب الدافعة إلى الإجادة فى هذا العصر ما كان من التنافس الشـديد بين شعراء مصر والشام. فما كان يبتدع شـاعر هنا شاردة أو يجيـد قصيدة حتى يتناولها الشعـراء هناك بالنقد أو المعـارضة أو السرقة، حكوا أن ابـن نباتة كـان كلما اخترع معنى أخذه الصلاح الصفدى بلفظه أو بتغيير فيه قليل، وأن ابن نباته لـذلك ألّف رسالة جمع فيها مـا قاله فأخذه منه الصلاح، وسماها خبز الشعير لأنه مـأكول مذموم، واستهل خطبة الرسـالة بقوله ﴿ رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا ﴾.

وكانت هناك مداعبات ومراسلات لا تكاد تنقطع بين شعراء مصر والشام.

تغلب الصناعة اللفظية: أشرنا آنفًا إلى ولوع الشعراء فى هـذا العصر بأنواع البديع وافتتانهم فى الصناعة اللفظية، فإنهم لم يتركوا نـوعًا إلا أبـرزوه فى أشعارهم، غير أن هذه النزعـة لم تفسد الشعر إفسادها النثر، لأن تقييد الشعر بالوزن والقافية حال دون تجاوز الحد فى البديع وتفاقم خطره.

البديعيـات: وقد نبتـت البديعيـات فى هذا العصر، وهى قصـائد من بحر البسيط فى مـدح النبى صلى الله عليه وسلم، يشتمل كل بيت منها على نوع بديعى، وقد يشير الشاعر فى البيت إلى اسم النوع. وأول بديعية كـانت لصفى الدين الحلّى، وجاءت بعدها بـديعيات لعز الدين الموصلى، وابن حجة الحموى، وعائشة الباعونية.

ومنشأ هذه البديعيات بردة البوصيرى، فإن الشعراء بعده أرادوا معارضته وفَوْقَه بإظهار قدرتهم فى البديع، ولكنهم فى الحق لم يـوفقوا إلى الإجـادة فجاءت هـذه البـديعيات صـورًا مشوهـة من التكلف الممقوت والنسج السخيف.

التوريـة: وقد شغف شعراء هذا العصر بالتورية وأبدعـوا فيها إبداعا حتى لقد كانت وحدها دليل نبوغ الشاعر وعبقريته، فتفاخروا بالإجادة فيها، وباهَوْا باختصاص عصرهم بإحكامها، قال ابن حجة الحموى:

«لأن هذا النوع وهو التـورية ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حـذاق الشعراء وأعيان الكتاب» ثم

قال فى موطن آخر: «ولهذا وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا إلى أفق التورية وأطلعوا شموسها، ومزجوا بها الذوق السليم لما أداروا كئوسها».

ومن أشهر شعراء التورية بمصر فى هذا العهد سراج الدين الورّاق المتوفى سنة ٦٩٥ هـ وله فيمن اسمه عرفات:

أطنبوا فى عرفات وغدوا ... يتعاطون له حسن الصفات
ثم قالوا لى: هل وافقتنا ؟ ... قلت: عندى وقفة فى عرفات

ونصير الدين الحمامى المتوفى سنة ٧١٢ هـ قال:

جودوا لنسجع بالمديـ ... ـح على علاكم سرمدا
فالطير أحسن ما تُغَـ ... ـرِّد عند ما يقع الندى

وناصر الدين بن النقيب ومن قوله:

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة ... دعونى فإنى آكل العيش بالجبن

وجمال الدين بن نباتة وقد كتب إليه المؤيد صاحب حماه فردّ عليه ابن نباتة:

فديتك من مَلْك يكاتب عبده ... بأحرفه اللاتى حكتها الكواكب
ملكت بها رِقى وأنحلنى الأسى ... فهأنذا عبد رقيق مكاتَب

والقيراطى، وكتب إلى صلاح الدين خليل الصفدى:

يا صلاح العلا صفاء ودادى ... لا يرى عن أبى الصلاح بديلا
فدع العتب إننى لست ممن ... لا يراعون فى الأنام خليلا

ومن أشهر شعراء التورية فى الشام مجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨١ هـ. قال:

ونهر بحب الروض أصبح مغرمًا ... يروح ويغدو هائمًا بوصالها
إذا بعدت عنه شكا بخريره ... جفاها وأمسى قانعًا بخيالها

وبدر الدين الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠ هـ قال:

وتنبهت ذات الجناح بسُحرة ... بالواديين فنبهت أشواقى
ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن ... يعقوب والألحان عن إسحاق
قامت تطارحنى الغرام جهالة ... من دون صحبى بالحمى ورفاقى
أنَّى تباربنى جوًى وصبابةً ... وكآبة وأسًى وفيض مآقِ
وأنا الذى أملى الجوى من خاطرى ... وهى التى تملى من الأوراق

وصلاح الدين الصفدى قال:

لمّا زها زهر الربيع بروضه ... وغدا له فضل ينير لديه
قام الحمام له خطيبًا بالهنا ... وجرى الغدير فخرّ بين يديه

وابن الوردى قال:

ناعـــورة مـــذعـــورة ولهـــانة وحـــائرهْ

المـــاء فـــوق كِتفهـــا وهـــى عليـــه دائرهْ

التضمين: ومما أغرم بـه شعراء هذا العصر التضمين، وهو أن يمزج الشاعـر بشعره شيئًا من شعـر غيره، وكانـت لهم براعـة فـائقة فى تغيير المراد مـن الشعر المأخـوذ، مع حسن السبك، ودقـة الصناعة، وقد صارحنا مجير الدين بن تميـم، وهو من كبار الشعراء الممثلين لهذا العصر، بشدة نزوعه إلى التضمين فقال:

أطـــالـع كل ديـــوان أراه ولم أزجـر عـن التضمـين طـيرى

أضمـــن كل بيـت فيــه معـنى فشعرى نصفــه من شعـر غـيرى

وقـد تجاوزوا الحد فى ذلك حتى وصلـوا إلى شىء من السخـف؛ فضمّن جمال الـدين ابن نباتـة أعجاز ملحة الإعراب، وهى متن فى النحو، ومن ذلك قوله فيها فى المديح:

إن قـــال قـــولا بيّـن الـغرائبـــا «وقـام قـس فى عكاظ خـاطبـــا»

وإن ســخـا أتـى علـى ذى العـدد «والكيـل والـوزن ومـذروع اليـد»

وتبارى صـلاح الدين الصفـدى وجمال الدين بـن نباتـة فى تضمين أعجاز معلقة امرئ القيس، فكتب الصلاح إلى جمال الدين معاتبًا:

أفى كل يـوم منـك عتب يسـوءنى «كجلمود صخر حطه السيل من عل»

وهكذا جرى فيها إلى شوط بعيد، فأجابه جمال الدين متهكما بطويلة أولها:

فطمـت ولائى ثـم أقبـلـت عاتبـًا «أفاطـم مهـلا بعض هـذا التـدلل»

كثرة المقطوعات: وقد كثر الميل إلى المقطوعات القصيرة فى هذا العصر، لأن أكثر ما كان يدعو الشعراء إلى القول إنما هو إبـراز لطيفة بديعية، أو نكتة مخترعة، أو توريـة رائعة، ومثل هذا يكتفى فيه بقليل من الأبيات. وكان فى الشعـراء عادة التراسل بالشعر فكانوا يكتفـون بإرسال قطع قصيرة تتناول أغراضهـم، والمطلع على ديوان ابن نبـاته المصرى، وهو خير مـن يمثل هذا العصر يرى فيـه كثيراً من الثنائيات والثلاثيات والرباعيات وهلم جرا.

الفكاهة فى الشعر المصرىّ: وأكبر مظهر فى الشعر المصرى ظهور الروح المصرية الخفيفة، وجمال النكتة، وحسن التأتى لها، كقول أبى الحسين الجزار يصف داره المهدمة:

ودار خـــرابٍ بها قـــد نـــزلتُ ولكن نـــزلتُ إلى الســـابعـــة

فـــلا فـــرق مـــا بين أنى أكـــون بها أو أكـــون على القـــارعـــة

تســـاورهـــا هفـــوات النسيم فتصغى بـــلا أذن ســـامعـــة

وأخشى بها أن أقيم الصـــلاة فتسجـــد حيطـانها الـــراكعـــة

إذا مـــا قـــرأت إذا زلـــزلت خشيت بـأن تقـرأ الـــواقعـــة

ولهم كثير من هذا النوع الذى تظهر فيه حلاوة الفكاهة وخفة الروح .

الوصف فى الشعر الشامى : أما الشعر الشامى فقد استمر فى هذا العصر محافظا على ما اختص به من جمال الوصف، وبخاصة وصف الطبيعة، لما لبلاد الشام من جمال المنظر، وكثرة الجبال، والحدائق والمنازه، والثلوج والأمطار، وقد سقنا إليك طرفًا منه .

ومن أجلى صفات الشعر فى هذا العصر الرقة تراها ماثلة فى شعر الشاب الظريف، ثم فى شعر ابن نباتة، ثم فى كثير من قصائد صفى الدين الحلى وغير هؤلاء، وفى كتاب المنتخب أمثلة كثيرة لذلك .

أغراض الشعر: وقد قيل الشعر فى هذا العصر كثيرًا فى الغزل والوصف والمجون، ثم فى المديح والرثاء والشكوى، وقال الشعراء فى الطرَد محاكاةً للعصر العباسى، وكثر نظم الألغاز والأسئلة الفقهية واللغوية، كما كثر الشعر فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم، ونظم العلوم والفنون .

كثرة المتعرضين لقرضه: ومن كوارث الشعر فى هذا العصر أن تصدَّى له كثير من غير أهله فقال الشعر وتبجَّح به كل من يستطيع إقامة وزنه من غير أن يرزق الفطرة الشعرية، ومما يؤسف له أن التاريخ حفظ لنا كثيراً من هذا الشعر الغث فيما أُلِّف من الكتب فى هذا العصر كتاريخ ابن إياس وغيره .

وربما كان هذا الشعر السقيم من الأسباب التى دفعت بعض الأدباء إلى الحكم بسقوط الشعر فى هذا العصر وتقهقره وإسفافه .

الأوزان المولدة: وقد شاعت الأوزان المولَّدة فى هذا العصر، كالموشّح والدوبيت والزجل، الذى مالت إليه آذان آل قلاوون وآل برقوق، وأجازوا عليه الزجالين وأحسنوا صلتهم . وأشهر الزجالين الشيخ خلف الغبارى، وكان قيّم الزجل بمصر، وأحمد بن عثمان الأمشاطى المتوفى سنة ٧٢٥ هـ . وكان قيم الزجل بالشام . وتجد أمثلة كثيرة للأوزان المولدة بكتاب فوات الوفيات للكتبى وتاريخ ابن إياس.

ترجمة ابن نباتة المصرى

طلب صلاحُ الدين الصفـدىُّ فى مستهَل شعبانَ سنة ٧٢٩ هـ من جمال الدين ابن نبـاتة أن يُجيزه برواية مصنَّفاته وآثاره الأدبية، وهى عادة جرَى عليها العلماء قـديماً واشتدّ بها تمسكهم فى هذا العصر، وقد نشأت فى أول أمـرها من العناية بـرواية الحديث الشريف، والاهتمام باتصال سنده، ثم جاوزت ذلك إلى ما سواه من صنوف العلوم والفنون.

وقد كتب ابنُ نباتـة إلى الصـلاح كتابا مسجـوعا مطوّلا علـى نمط مـا كان يُكْتَب فى ذلك العهد جاء فيه:

مولده ونسبه: «فأمـا مـولِـدى فبمصر المحـروسـة فى ربيع الأول سنـة ستٍ وثمانين وستمائة بمنزلنا بزُقاق القناديل».

ثم جاء فيما يختص بنسبه فى نهاية الكتاب:

« قال ذلك وكتبه محمد بن محمد بن محمـد بن محمد بن أبى الحسن بن صالح بن على بن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب بن يحيى بن عبد الرحيم بن نباتة».

وقد كان زقاق القناديل الذى ولد فى أحد بيـوته ابن نباتة مُقام أشراف الناس وأعيانهم، كما يؤخذ من المقريزى، فهو إذًا نشأ فى بيت نعمة وشبّ فى أسرة هانئة تتمتع بشىء من نعيم الحياة، ولقد عاش ابن نباتة ما عاش وهو لا ينسى الأيـام الأولى من حيـاته التى قضاها فى شباب ولهـو وفراغ، استمع لما يقول:

واهًـــا لأيـــامىَ التى سلفـتْ ... مـــا بين ذاك النعيم والمَـــرَحِ
لا يُنْـزِل الـدهـرُ من يـدى قَـدَحًـا ... كـأننى صـــورة على قـــدح

وكان أبوه من أشياخ الحديث بدمشق، ترجم حياته صلاح الدين الصَّفَدِيّ فى كتابه الوافى بالوَفَيَات قال ما ملخصه :

«شمس الدين بن نباتة والد الشاعر ابن نباتة، ساكنٌ خَيِّرٌ قليل الكلام، يُنفق كل ما يحصل له على أحفاده أولاد ولده جمال الدين، ولد بمصر سنة ٦٦٦ هـ، وله سكن بالظاهرية بدِمَشْق، أجازنى بخطه فى سنة ٧٣٠ هـ، وتولّى دارَ الحديث النبوية، وتُوُفى سنة ٧٥٠ هـ».

ويتصل نسب شاعرنا بابن نباتة عبد الرحيم الخطيب المتوفى سنة ٣٧٤ هـ، وقد كان مُقَدَّمًا فى علوم الأدب، يقال إن خطبه لم يُعمل مثلها فى موضوعها، وكان خطيب حَلب، واجتمع بالمتنبى فى خدمة سيف الدولة بن حَمْدان، وكان سيف الدولة كثير الغزوات فأكثر ابن نباتة من خطب الجهاد والحث عليه.

البيئة التى نشأ فيها: فأنت ترى أنه نشأ فى بيت علم وأدب، وأنّ أسرته تتحلّى بالطارف والتليد منها، وأنه كان صادقا حين قال :

ورِثتُ اللفظَ عن سَلَفى وأكْرِم ... بآل نُباتَةَ الغُرِّ السَّراة
فلا عجب للفظى حين يحلو ... فهذا القَطْرُ من ذاك النباتِ

وحين قال :

لى حينَ أنْسَبُ أسرةٌ عربيةٌ ... كادتْ تَعُدُّ الشُّهْبَ من أحلافى

وحين قال فى ختام قصيدة يمدح بها عَلاء الدين بنَ فضل الله :

خذها مُنظَّمَةَ الأسلاكِ مُعْجِزَةً ... بالجوهر الفردِ فيها كل نَظّامِ
مصريةً من بيوتِ الفضلِ ما عُرِفَتْ ... فيها بنسبةِ جزارٍ وحَمَّامِى

يريد أنه من بيت عريق، وأنه لم يكن مُحْدَثًا فى الأدب كأبى الحسين الجزار، ونصير الدين الحَمَّامى.

وللبيئة العلمية أثرها فى النشأة الأولى، ولاسيما إذا صَحِبتها الفطرةُ السليمة، وصادفتْ نفسًا قوية الاستعداد.

شبّ ابن نباتة ونما فى هذا الجو العلميّ الأدبيّ، ونشأ بين أترابه ولِداته غلامًا مُنَعَّمًا، حتى إذا أتمّ دراستَه الأولى، سما إلى الدراسة العالية، فدرس الحديث وعلومَ الدين واللغة والأدب، وقد ذكر لنا فى الإجازة التى كتبها للصلاح الصَّفَدِى أسماء شيوخه فى مصر وغيرها.

حال مصر فى أيامه الأولى: ولد ابن نباتة فى عهد الملك المنصور قلاوون، وكان فى السابعة من عمره عند تولية السلطان الناصر محمد أولَ مرة، لأنه تولّى الحكم ثلاثَ مرات، ومات فى عهد

السلطان الأشرف شعبان. والذى يَعْنينا الآنَ أن نبين أن طفولة ابن نباتة وشبابَه كانا فى عصر كثيرِ الفتن والزَّعازع، انقسم فيه الأمراء بعضُهم على بعض، وكان لكل أمير فريقٌ يناصره وينافح دونه، وتَفشَّت الدسائس بين كبار المماليك، وكثُرتْ مصادرةُ أموال رجال الحكم بعد اعتقالهم وقتلهم، وقد كانت أخبار هذه الحوادث تنتشر بين الناس مُحَرَّفةً مبالغًا فيها، وكانت العامة تثب على الفريق المغلوب للنهب والسلب، وربما اغتنمت الفرصةَ وجرّتها الفوضى إلى الاندفاع فى سبيلها فدهمت الآمنين فى بيوتهم.

ولعل الفتى محمد بنَ نباتة فى ذلك الحين كان يسمع أخبارَ هذه الأهوال فيرتعدُ فَرَقًا، ولعله كان يُنْصِتُ إلى خادمه العجوز، وهى تصف له أحوال المسجونين بخزانة شمايل، وما يصيبهم من ألوان العذاب.

كان العصر كثيرَ الحوادث حقًا، فاضطراب فى داخل البلاد، وخوف من هجوم التتار، فمجاعة فى مصر اضْطُرّ فيها الناس إلى أكل ما يؤنّف من أكله من صنوف الحيوان، ونحن نعلم أن ابن نباتة كان عصبىّ المزاج قوىّ الخيال.

أثر البيئة فى نفسه: فليس بعجيب أن تُؤثّر هذه الأحوالُ فى نفسه تأثيرًا شديدًا، وأن تقوّىَ فيه غريزةَ الخوف وحب السلامة، ويظهرُ أن هذه الأخلاق لازمت شاعرنا طولَ حياته، فإننا لا نرى فى شعره ما يدلُّ على قُوَّة نفس، أو اعتزازٍ برأى، أو نقدًا لعمل من الأعمال، أو هجاءً لعظيم أو حقير. لا يظهر فى شعر ابن نباتة شىء من هذا، لأن فى هذا مخاطرةً، وفيه ما تصوّره له نفسهُ العصبيةُ من أوخم العواقب، حتى إنه إذا عاتب كان عتابه هينًا يسيرًا ليِّنَ الملمس، إلى المديح الصرف أقرب منه إلى العتاب كقوله:

لئن ضاع مثلى عند مثلك إننى ... لعَمْرُ المعالى عند غيرك أضيعُ
متى تنجَعُ الشكوى إذا أنا لم أجد ... لديك اعتناء غير أنك تسمع
وما كان صعبًا لو مَنَنْتَ بلفظةٍ ... تردُّ بها عنى الخطوبَ وتردَع
وقلتَ امرؤ للشكر والأجر قابلٌ ... وللبرِّ فيه والصنيعةِ موضع
ومغتربٌ عن قومه وديارهِ ... أساعده واللهُ يعطى ويمنع

وإذا جرؤ قوّى عزيمته وقال:

ولى خصومٌ ولستُ الآنَ شاكيهم ... لكنّهم فى غدٍ يدْرُون أين شُكوا

يريد أنه سيشكوهم إلى الله تعالى يوم الحساب.

وقد وصف نفسه فى هذه الناحية فقال:

ما كـان فى العشرينَ يهفو مَـنْـطِقى ... أيكـونُ فى الخمسينْ فعلٌ هــافِ
شِيَمٌ من السّـــلَفِ الـزكىّ ورثتُهـا ... لا فى الصِّبـا عيــبٌ علـىَّ ولا فِ

أى ولا فى الشيخوخة .

شعره لا يمثـل الحياة فى عصره: فالاستكـانة والاستسلام ظـاهران فى شعر ابن نبـاتة ، وربما غلب هـذان الخلقـان على شعـراء عصره قليـلا أو كثيرًا ، وربما رأينـا لابن الـوردى والصفــدى وإبراهيم المعمار أبياتًا غير قليلة تصوِّر الحياةَ وتدوِّن الحوادثَ ، ولكنّا لا نجد شيئًا من ذلك لابن نباتة ، فهو لا يعطينا صورة للحيـاة فى أيامه ، لأنه شاعر مقلِّـد جرى على سَنَن الأقدمين فى الغَـزَل والمديح ، وتركَ الدنيـا حوله تصيح وتصخَب ، وعواصفَ الحوادث تثور وتـزْأر ، من غير أن يجود عليها بكلمة ، وكلُّ ما كان يهتم بـه إنما هو نفسُه وأسرته ، فهو فى هذه الحالـة يمثِّل العطفَ والحنان فى أرفع منازلها ، والدنيا فى نظره هى تلك الأسرةُ الصغيرة التى يعولها ، فإذا مسَّها الضرّ بكى واشتكى . وسنطيل البحث فى هذا الموضوع عند الكلام على أخلاقه .

معاصروه : نشأ ابن نبـاتة فى أزهَى أيـام الأدب فى عهد المماليك ، فقـد عاصر كثيرًا من رجـال اللغة والأدب ، مثـل جمال الدين بن هشـام المصرى المتوفى سنـة ٧٦١ هـ ، وابن منظـور (٧١١ هـ) ، وابن سيِّد الناس (٧٣٤ هـ) . وغيرهم ؛ وعاصر من الشعراء كثيرًا ، منهم نصيرُ الدين الحمامىّ (٧١٢ هـ) ، وشمسُ الدين محمـد بن العفيف (٧١٥ هـ) ، وعـلاء الدين الـوَداعى (٧١٦ هـ) ، وشهـابُ الدين ابن أبـى حَجَلَة المغـربىّ (٧٧٦ هـ) . وزينُ الديـن بن الـوردىّ (٧٥٣ هـ) . وصــلاحُ الدين الصفــدىّ (٧٦٤ هـ) . وابن اللُّـبَانة (٧٥٢ هـ) . والقيراطِـىُّ (٧٨١ هـ) . وابنُ دَانِيَـال المَـوْصِـلىّ (٧١٠ هـ) . وصفىُّ الدين الحِلّىّ (٧٥٠ هـ) .

وخالط كثيرًا من كبـار الكتاب مثل محيى الدين بن فضل الله العمرى (٧٤١ هــ) ، وولده شهاب الدين (٧٥٥ هـ) ، وأخيه عَلاء الدين ، وشهابِ الدين محمود الحلبىّ (٧٥٥ هـ) .

بيئته العلمية والأدبية : أما الفقهـاء والمحدِّثـون فى أول عهد ابن نبـاتة بـالعلم والتعلم فكـانوا كثيرين .

من كل ذلك نرى أن استعـداده السليم فى أول نشأته وجد غـذاءً علميا يسد حاجتـه ، وأن الحياة الأدبية التى كـانت تحيط به تـركت فى نفسه آثارًا ظهـرت ثمارها فيما بعـد ، وأنه استطاع فى حـداثته أن ينتهب قسطا وافرًا من الأدب والعلم ، وأن يَـتَـمَـلأ من كل ما تقع عليه عينه أو تسمعه أذنه ، وكأنى به وهو لا يزال طفلاً يتنقل بين حَـلَقات الأدب ، ويُـنْصِت إلى مُطارحة الشعراء ، فقد أخبرنا فيما كتب به إلى الصلاح الصفدىّ أنه سمع سراجَ الدين الوراق وهو ينشد لنفسه :

واخَــجْـلَتِى وصحــائفى مُسْوَدَّةٌ ... وصحـــائفُ الأبــــرارِ فى إشراقِ
وتَوَقُّــفِى لمــــوبِّخٍ لــىَ قــــائلٍ ... أكـذا تكـونُ صحـائفُ الـوَرَّاقِ ؟

وهذا غريب جدًا ؛ لأننا نعلم أن الوراق مات سنة ٦٩٥ هـ وأن ابن نباتة ولد سنة ٦٨٦ هـ، وإذًا مات الوراق وابنُ نباتة فى التاسعة، فمتى سمعه ياتُرى ينشد هـذين البيتين ؟ إذا انتهينا إلى آخر فرض ممكن، نقول إنـه سمعِه وهو ابنُ تسع سنين وإنـه فهِم البيتين ووعاهما وحفِظهما، وأدرك ما فيهما من تورية. وهذا يـدل على شغفه بالأدب فى عهد طفـولته، وعلى ميله الفطـرىّ المطبوع على حـب الشعر والتَـلَـذُّذ به، وعلى مقدار مـا أودعه الله من ذكـاء ومواهب فنيّة قـوية منذ نعـومةِ أظفـاره، ومن هذا نستطيع أن نقول إن ابن نباتة أخذ يخالط الأدباء ويساجلهم، وهو فى نشأة العمر وغضارة الصبا، وإنه أفاد من ذلك كثيرًا، ولعل شغفَه باللغة والأدب والشعر لفته عن التوسع فى العلوم الدينية وغيرها.

فأسرة ابن نباتة وشيوع العلم والتعليم فى طور شبابه سـاعدا على أن يُنَـمِّيا ما كان فيه من نبوغ وأن يُظْهرا ما منحه الله من عبقرية.

صفـــاتـــه وحيـــاتـــه

تطامن نفسه: عرفنا أن من أظهر صفاته الاستكانَةَ والاستسلام، وأنه لم يخلَق جريئا، وهذه النفس الضعيفة هى التى حرمته أن ينال نصيبَه الذى يستحق فى الدنيا، فلم نعرف أنه زاحم سواه بالمناكب، مع ما فيه من مواهب كانت تُسَـوِّغ له البروز والرياسة، فقد كان ابنُ نباتة كما وصف نفسه:

قَلّ عَـوْنى على الزمـان فـأصبحـ ـــتُ صبـورًا على مُـراد الـزمـان
حـــابسَ اللفظ واليَراع عن النـــا سِ فــلا مِن يـدى ولا من لســانى

بؤسه وهجرته إلى الشام: ويظهر أنـه فى أول حياته كـان فى شىء من اليسر فأسرف وبذّر، وأسام سرحَ اللهو، ومشى مع المُـجَّـان فضيَّع ما فى يديه، وأصبح فى حاجة إلى الاستجداء بشعره.

ومن الغريب أن ابن نبـاتة النـابغة العبقرى تنبـو به مصر، ويضيق به العيـش فيها، وهى تُنبت الذهب، وتفيض بالخير، فنراه يهجرها فى طلب الرزق سنة ٧١٥ هـ كثيرَ العيال مضطربَ الأحوال كما يقول:

مُـقَـلْـقَـلاً بيـد الأيام مضطـربًـا كـأنما استقسمـتُ منـى بـأزلام

التحاقه بديوان الرسائل: فيلتحق مرة بـالملك المؤيد صـاحب حماة إسماعيل بن على (المتوفى سنة ٧٣٢ هـ) فينال عنده شيئًـا من الحُظْوَة، ويُصبح شاعره الأثير عنده، وقد رتـب لابن نباته كـلَّ سنة ستمائة درهم، يرسلها إليه بدمشق. ثم يتصل بـابنه الأفضل، ثم بالمنصـور بن الأفضل، ثم يُعَيِّنُه شهاب الدين بن فضل الله بـديوان الإنشاء بدمشق، كما يخبرنا بـذلك ابن نباتة فى قصيـدة يمدح بها عَلاء الدين أخاه:

بلَّغتنى يـــابن فضـل الله مُطَّلَبـــا | لم أرْجُـهُ من بنى الـدنيـا ولم أخَلِ
نلتُ العـلا وكَبَـتُّ الحاسـدين على | يَـــدِ اعتنـــائك لا حيْلى ولا حِيَلى
وقـد سَمَـوْتُ لديـوان الـرسـائل فى | طىّ ادّكـارك لا كُتْبـى ولا رُسُلِى
مـدّى أخـوك إلى مَـرْقـاهُ أوصَلنى | ولـو تَـرقَّى إليــه النَّسر لم يصلِ

زهـوه بشعـره: وكان ابن نباتة على تواضعه واستلامه مُحسًّا جمال شعره به تيّاها، فلا تكاد تخلو له قصيدة من الإعجاب بمواهبه الشعرية والإدلال بها، خذ ما يقوله فى آخر قصيدة:

مَن مُبْلغُ العُربِ عن شعـرى ودولتِه | أنّ ابنَ عَبَّـاد بـاقٍ وابـنَ زيـدونـا
حَبَّرْتها فيـهِ زَهْـراءَ المعـــاطف مِن | أعلى وأنفس مـا يُهدى المُجيـدونـا
إذا رأيتَ قوافيهـــــا وطلعتَـــــهُ | فقـد رأتْ مُقْلتَـاكَ البحـرَ والنـونـا
كأن ألفاظهـــا فى سمع حُسَّـدهـا | كـواكبُ الـرجم يَحْرِقْنَ الشيـاطينـا

وفى قوله « فقد رأتْ مقلتاك البحر والنون » توريةٌ تمتزج بمراعاة النظير امتزاجًا رائعًا بديعًا.

فزعه من الشيب والهرم: ومن صفاتـه أنه كان كثير الشكوى من الكِبَر، شـديد التألّم من الشيب، فهو فى أكثر شعره يندُب شبابَه، ويبكى مـاضىَ قوّته، ويَفْزعُ مَهُولاً من الشيب والهَرَم. وهذا من آثار المزاج العصبىّ، الـذى تحكّم فيه، وملك عليـه نفسَه. وهـو مـرةً يعلل لاشتعال شيبـه بكثرة الهمـوم فيقول:

مَن يحاربْ حـوادثَ الـدهـر يَخْفَى | لَـوْنُ فَـوْدَيْـــهِ فى غُبـارِ الحُروبِ
مَن يَعُـمْ فى بحـــارِ هَمِّىَ يظهـــرْ | زَبَـدٌ فـوقَ فَـرْعِـهِ الغِـــرْبِيبِ
أىُّ فـرعِ جَـوْنٍ على عَنَتِ الأيـــ | ـــام يَبْقَـى وأىُّ غصنٍ رطيـب!
لَـوْ هَمِّىَ مـاء مِعْطِفَـىَّ من الّليـــ | ـــنِ لأفْنَتْـــهُ مُهْجَتى بلهيبِ

وهو مرةً يذكر أنّ الشيب كان سببا فى ارعوائه وتجافيه عن اللهو فيقول:

فقـــدتُ الهوَى لما فقـــدتُ شبيبتى | وأوجعُ مفقـــودٍ هَـوَى وشبـــابُ
وكـان يَصيدُ الظبىَ فـاحِمُ لِـمَّـتى | وأغـربُ مـا صـاد الظبـاءَ غـرابُ
ولو كنتُ من أهل المداجاة فى الهوَى | لكـان بـدَمْعِـى للمشيب خِضـابُ

ثم هو مرةً ثالثة يؤاخى بين الشيب وفقره فيقول:

مَشيبٌ وإقتـارٌ هـو الشيبُ ثـانيًـا | ألاَ هكـذا يأتـى الشقـاء المُكَـرَّرُ

ونراه فى هَرَمه وبـؤسه وتكاثر الهموم عليه يفزع إلى الزهـد يَتَلَمَّس فيه راحةً لنفسه يُطفِىء بها غليلَ صدره ويَرْجع إلى الله فِرارًا من ويلات الدنيا وأوْجالها. وقد يكون صريحًا أحيانا فيقول:

مَنَعَتْنِى الـــدنيـا جَنًى فتَـــزهَّـدْ | تُ ولكنْ تَـــزَهُّـــدَ المغلـــوبِ
وَوَهَتْ قـوّتى فأعــرضتُ كُـرْهًـا | عن لقـــاءِ المكـــروهِ والمحبـــوبِ

وهو يتذكر في شيخوخته أيامَ لهوه السابقة فيشعر بالندم والتفريط فيصيح :

وإنـى لممن زاد فى الغَـىِّ سعيُــــه ... وطَـــوَّلَ حتى آن منـــه متـــابُ
إلهىَ فى حسن الـرجـا لى مـذهبٌ ... وقـد آن للـراجى إليك ذهـــابُ

شعره فى الزهد: وله قصيدة يصفُ فيها ألمه من الحياة ومـا لاقاه من بؤس وهموم وتجاهل لقَدْره نحا فيها مَنْحَى المَعَرِّى منها :

عِفْتُ الإقامةَ فى الـدنيا لو انشرحتْ ... حالى فكيف وما حظى سوى النكَدِ

ومنها :

لا عـــارَ فى أدبى إن لم ينلْ رُتَبـــا ... وإنمـا العــارُ فى دَهْرِى وفى بلـدى
هـذا كـلامى وذا حظـى فيـا عَجَبـا ... منى لثـروة لفـظ وافتقـــارِ يـــدِ

ومنها :

أمّـا الهمـومُ فبحـرٌ خُضْتُ زاخـرهُ ... أمـا تَرَى فـوقَ رأسى فـائضَ الزَّبَـدِ
وعشتُ بين بنـى الأيـــامِ منفـــردا ... وربَّ منفعـــةٍ فى عيشٍ منفـــردِ

ومنها :

أصبحتُ لا أجْتوِى عيش الخمول ولا ... إلى المراتب أرمـى طَـرْفَ مجتهـدِ
جسمى إلى جـدثى مهـواه من كثب ... فكيف يُعجبنى مهـوايَ من صَعَـدِ

والقصيدة مؤثرة جدًّا، فهى شكاية رجل خـابت آماله، ورأى نبوغَـه لا ينال قسطـه من الإكبار، ومواهبَه لا تُـدِرُّ عليه غيرَ الاستجداء وإراقة مـاء المُحَيَّا. وهو فى هـذا الباب كثير الشكوى مـوصول الأنين.

بؤسه وكثرة عياله : ويظهـر أن ابن نباتـة كان شـديـدَ البؤس كثيرَ العِيـال ويظهر أن مـرتبه كـان ضئيلا، وأنه كثيرًا ما كان يتأخر صرفه أشهرًا. فهو يقول :

لقـــد أصبحتُ ذا عمـــرٍ عجيبٍ ... أقَضِّى فيـــه بـــالأنكــــادِ وقتى
مـن الأولاد خمسٌ حـــــــول أمٍ ... فَـوَاحـــربــاه مـن خمس وستٍ !

ويقول لعلاء الدين بن فضل الله :

على أنّ عندى كأس شَكْـوَى أُدِيرُها ... على السمع ممزوجا بِمَـدْمَعِىَ الغَمْر
يُكَـدِّرُ حـــالى بالجفــاءِ وطالمـا ... تعَـوَّدتُ من نعماك عـاطفــةَ الجَبْرِ
ويدفعنى عن قـوتِ يـومىَ معشـرٌ ... وأنتَ عليهم نـافـذُ النهيِ والأمـــر

ثم نراه يستجدى من علاء الدين دارًا يسكنها :

لى قصـــــةٌ والســـــؤال سُكْنَى ... بيـــتٍ ويحتـــاجُ للعِبَـــــارة
سكنتُ دارًا لصـــــــاحب لى ... وقصــــــدُه يســـــتعيدُ دارَه

ونراه يقول أحيانا :

تـــركتُ المـــالَ والجـــاهَ ... لأهل القَـــدرِ والقُـــدْره
فَحسبـــى مـــن جِمَى كِسْرٌ ... وحَسْبيِ مـــن غِنًى كِسْرَه

ويقول :

لقــد أصبحــتُ فى حــالٍ ... يــرقُّ لمثلــهـــا الحجر
مشـــيبٌ وافتقـــارُ يــدٍ ... فـلا عيـــنٌ ولا أثـــرُ

وقد انتهت به الحال إلى أن يطلب خبزًا من أحد الأمراء :

لجـــأتُ إلى بـــابِ الأميـــرِ وظلِّـــه ... وفـــارقتُ ذُلِّى إذ وصلـــتُ إلى العِـــز
وأصبحتُ من جُنْدِ المحـامدِ والغِنَى ... ولابُـدّ للجنـديّ من طَلَب الخبـزِ

ويقول وقد صرف له ممدوحُه معلومًا بعد أن تأخر:

وعَجّلَ معلـومى ومـا كنتُ واصـلاً ... إلى رُبْعِـــهِ والشهـــرُ للشهـــر رابعُ
وأصـــلح منـــى ظـاهرًا ثم باطنـًا ... فـلا أنـا عُـــرْيانٌ ولا أنـا جـائع

ومن أظرف ما نختاره له هنا ما كتب به إلى أحد الأمراء :

يـــاســـائلى بِـــدِمَشْقَ عن أحـــوالى ... قف واستمـع عن سيرة البَطّـــالِ
ودع استماعَ تَغـــــزُّلى وتعشقـى ... مـــاذا زمـــانُ العشـق والأغـــزالِ
طـولَ النهـار لبـاب ذا من بـاب ذا ... أسعى لعمـــر أبيك سعىَ ظِـــلالِ
وإذا تغيّر مــــورد وقصــــدتُ لى ... صحبًا وجدتُ الصحبَ مثل الآلِ(١)
أتـــرَى الـــزمـــانَ يُعيننَـى بـــولايـــةٍ ... أحمى بهـــا وجهـــى من التســـآل
زحـــلٌ يقارن حـــاجتى وقـــد انحنى ... ظـــهرى من الهـــم انحنـــاء الـــدّال

ندبه حظ الأديب : وكثيرًا مـا ندب ابن نبـاتة حظَّ الأديب فى أيـامه، وأنـه لا يُؤبـه له، ولا يُقـدَّر نبوغُـه، ولا يُثاب على فنـه، وقد كـان الأمر كذلـك فى عهد المماليك، فإنهم وجّهوا جـلّ عنايتهم إلى تشجيع العلم والتأليف، ولم يتجهـوا إلى الشعـر إلا قليلاً، لـذلك كان الشعـر وحـده لا يقوم بحيـاة صاحبه. استمع لما يقوله ابن نباتة فى وصف تلك الحال:

فكفَى من وضـــوح حـــالىَ أنى ... فى زمـــانـى هـــذا من الأدبـــاء
ضـــاع فيـــه لفظى الجهيرُ وفضلى ... ضَيْعَـــةَ السيفِ فى يـــدِ شـــلاّء

---

(١) الآل: السراب. وهنا تورية.

ولما يقوله فى مكان آخر :

أسـفى على الشعراءِ إنهـم علـى ... حـالٍ تُثيـر شمـاتةَ الأعـداء
خـاضـوا بحورَ الشعـر إلاّ أنهـا ... ممـا تُرِيـق وجوهُهـم من مـاء

ولما يقوله من قصيدة يمدح بها الملك الناصرَ محمدا :

وقـالـوا فـلانٌ رَمَّ بـالشعـر عيشَـه ... فيـا ليتَ أنى ميتٌ لستُ أشعـر
تَصَـرَّمَ أقصَى العمـر أدعوكَ للمُنَى ... وأرقبُ آفـاقَ الـرجـاء وأنظُـر
وأصبِر والأيـامُ تقتلنى أسًـى ... فهـا أنـا فى الـدنيـا قتيلٌ مُصَبـَّر
أرىَ دون حظِّى مَسْلَكـاً متوعِّـرًا ... إذا مـا جـرتْ فيـه المُنَى تتعثَـر
ويحمـرُّ دمعى حين تصفـرُّ وَجنتى ... فألبَسُ ثـوبَ الهمِّ وهـو مُشَـهَّر
ولا ذنب لى عنـد الـزمان كما تـرَى ... سوى كَلِمٍ كالروضِ تَبْهَى وتبهَـر

حنينه إلى مصر : وقد قاسَى ابن نباتـة فى غربته شدائد وآلامًا . فكان لـذلك دائمَ الحنين إلى مصر كثيرَ الشوق إلى معاهدها ، وقد كان يترك أحيانًا أسرته بالشام أو بمصر ويعيش وحدَه ، فيشتدُّ هُيامُه ، ويزيد عَتْبُه على الأيام . وما أرقَّه وأوفاه حين يحنُّ إلى مصر فيقول :

بأبى الخدودُ العـاريـاتُ من البكـا ... (اللابسـاتُ من الحرير جلابيـا)
النـابتـاتُ بأرضِ مصرَ أزاهـرًا ... والـزاهـراتُ بـأرضِ مصرَ كـواكبـا
آهًـا لمصرَ وأرضِ مصرَ وكيف لى ... بـديـار مصرَ مـراتعًـا ومـلاعبـا
حيثُ الشبيبـةُ والحبيبـةُ والـوفـا ... فى الأقـر بِينَ مشـاربًا وأصـاحبـا
والـدهـر سَلْمٌ كيفما حـاولتـه ... لا مثلَ دهـرى فى دِمَشق محاربـا

وحين يقول :

يـاساريَ البرقِ فى آفـاق مصرَ لقـد ... أذكـرتنى من زمـانِ النيل مـا عَـذُبـا
حَدِّثْ عن البحـر أو عينى ولا حَرَجٌ ... وانقُل عن النـارِ أو قلبى ولا كـذبـا
واندُب على الهَرَمِ الغربىِّ لى عُـمُـرًا ... فحبـذا هَـرَمٌ فارقتـه وصِبـا

وحين يقول :

أمصرُ سقتـكِ غـوادى السرورِ ... وجـادك مـن أفْقهـا صَيِّبُ
ذكـرتُ زمـانَكِ حيـثُ الـوصـالُ ... وحيـثُ الصِّبـا طيـبٌ طيـبُ
وبيضُ الـوجـوهِ بـه تُـجْـتَـلَى ... وسـود الشعـور بـه تُسْحَبُ

وحينما سئم العيشَ بالشام ، ولاقىَ ما لاقاه ، رحل إلى مصر وأقدم بها وقال :

ورب سـائمـة عـزمى ومـرتحلى ... إلى حمى مصر أشكـو جفـوة الشام
قـالت وراءك أطفـال فقلت لها ... نعم ونعمى ابن فضل الله قـدّامى

العطف على أسرته: ومن أظهر صفات ابن نباتة العَطْفُ على أسرته وأهله ومن يتصل به، فهو أبٌ رحيم شفيق، وزوج مخلص كريم ماتت زوجُه فرثاها بما يُثير الأشجانَ وخلَط الرثاءَ بالغزل فقال:

ثوَتْ فى مهاوى التُّرب كالتِّبْر خالصًا ... فَحَقَّقْتُ أنّ التُّرب بعضُ المعادن
فواللهِ ما أدرى لحسن خلائقٍ ... تَسِحُّ دموعى أم لِخَلْقٍ محاسن

ومنها:

وكنت أخافُ البين قبلَك والنوَى ... فأصبحت لا آسَى على إثْرِ بائنِ
كأنكِ بادرتِ الرحيلَ تخوُّفًا ... علىّ من الحسن الذى هو فاتنى
فديتُك مَن لى من سناك بلمحة ... وينزِلُ بى من بعدها كلُّ كائنِ
أأنسى قَوامًا أثقفَ الحُسنُ رمحَه ... فما فيه من عيبٍ يُعَدُّ لطاعنِ
ووجهًا حَكَى عن حسنه كلُّ مُقْمِرٍ ... ولحظًا رَوَى عن طَرْفِهِ كلُّ شادِنِ

وماتتْ له جاريةٌ فرثاها وخَلط الحزنَ بالغزل أيضًا فقال:

أقيما فروضَ الحزن فالوقت وقتُها ... لشمس ضحًا عند الزوال فقدتُها
ولا تبخلا عنى بإنفاقِ أدمعٍ ... ملوَّنَةٍ أكْوَى بها إن كنزتها
لغائبةٍ عنى وفى القلب شخصُها ... كأنىَ من عينى لقلبى نقلتُها

ومات له ولد فرثاه بقصيدة طويلة تفتت القلوبَ وتُدْمِى الأكبادَ، عارض فيها التِّهاميَّ أولُها:

اللهُ جارُكَ إنّ دمعى جارى ... يا مُوحِشَ الأوطانِ والأوطار

ولقد بلغ من شدة محبته لبنيه أن مات له ولد عَقِيب ولادته فلم يبخل عليه برثاء يقول فيه:

وما قلبى إذًا حجرٌ فيسلو ... هلالا قبلَ ما اكتملَ الطلوعا

وكان ابنُ نباتة مروَّعَ القلب دائمًا بموت أولاده. قال الصفدىّ: «إنه لم يعش له ولد، فدفن فيما أظن ستة عشر ولدًا، كلهم إذا ترعرع وبلغ خمسا أو ستًا أو سبعًا يتوفاه الله».

عودته إلى مصر: ترك ابن نباتة الشامَ وأقام بمصر بعد أن شاخ وهرِم وتجاوز السبعين، وذلك حينما دعاه السلطان حسن إلى العمل بديوان الإنشاء بمصر حوالى سنة ٧٥٧ هـ، ومن سوء حظِّ ابن نباتة أنْ مات السلطان حسن بعد سنة فأصبح مرتبه يُعْطَى بغير نظام.

واستمر بمصر حتى مات سنة ٧٦٨ هـ.

* * *

شـــــعــــره

مواهبه الشعرية فطرية وكسبية: يرى كثير أن ابن نباتة أشعرُ شعراء عصره، وحاملُ لواء الفن الجديد بمصر والشام. والحق أنه بلغ الغايةَ فى إجادة التورية حتى أصبح العَلَم المفرد فيها، وساعده على إتقان فنه الشعرى استعدادٌ فطرى سليم، وذوقٌ مصرى دقيق، وقدرة على صياغة النكتة والترشيح لها، وانصبابٌ على قراءة أدب القاضى الفاضل حتى امتزج بنفسه، وتمثّل فى معناه ولفظه، وقد عرفنا كيف نشأ فى أكناف الأدب من طليعة صباه، وكيف أفاد من شعراء عصره حتى إذا حذق أدبَهم ووعاه بذّهم جميعًا فيه، وجرَى مغيرًا إلى الغاية. ثم إنه لم يكتف بالفطرة الشعريّة كما هو الشأن فى كثير من شعراء عصره من أصحاب الصناعات كأبى الحسين الجزار، ونصير الدين الحمّامِىّ، وابن دانيال الكحّال وغيرهم. فإن القارئَ لشعره يرى فيه شاعرًا مثقّفًا اطلع على دواوين الشعراء، وأحاط كثيرًا بكتب الأدب وأخبار العرب، وألمَّ بجملة صالحة من العلوم. وربما كان لكثرة انتقال ابن نباتة فى بلاد الشام أثرٌ فى اتساع مَدَى فكره الشعرىّ وربما كان لبؤسه وفقره شأنٌ فى تزويد فنه معانىَ وأخيلة ميّزته عن سواه، وربما كان للوراثة يدٌ فى نبوغه وعبقريته، فقد عرفتَ أن نسبه ينتهى إلى عبد الرحيم بن نباتة، وهو من أعظم أدباء عصره.

تبريزه فى الصناعة اللفظية: وقد أجمع أهل الأدب فى عصر المماليك على تقديم ابن نباتة وعدِّه أميرَ الأدباء فى الصناعة اللفظية والطريقة الفاضلية. قال ابن حجّة الحَمَوى المتوفى سنة ٧٣٧ هـ فى خزانة الأدب عند الكلام فى التورية:

«فإنه (ابن نباتة) وإن تأخر فى السبق عن فحول المتقدمين عصرًا، فقد تقدم عليهم ببديعه وغريبه بيانًا وسحرًا، وتفقّه فى الطريقة الفاضلية لمذاهبَ سلكها المتقدمون وهانحن نستجدى من حواصلها نظمًا ونثرًا، وكم سأله عالمٌ فى سلوك هذه الطريقة فقال: لن تستطيع معىَ صبرًا، وكيف تصبر على مالم تُحطْ به خُبْرًا، وإن قيل إن الفاضل تمذهب بهذا المذهب، فمذهبى - وأنا أستغفر الله - أنه (ابن نباتة) وصل فيه إلى درجة الاجتهاد وهذا القولُ يقول به من رفع الخلافَ وتأدّب، فإن هذه الطريقة ما أمّها ناظم ولا ناثر فى الأيام الأموية، ولا ابتسمتْ ثغورها فى الخلافة العباسية، ولما انتهتْ الغاية إلى الفاضل أتى بهذه الفضيلة الغريبة وأظهر منها الزيادة المستفادة، واعتادها بلغاء المتأخرين بعد ما شهدوا بسبقه فأكْرِم بها عادةً وشهادة: ولما اتّصلت بالشيخ جمال الدين بن نباتة أهّلَ غُرْبتها، وشرّفَ بأصل شجرته النباتية نسبتها، وأسكن فى أبياته من بديع النظم كلَّ قرينة صالحة، وأمست سواجعُ إنشائها على فروعه النباتية صادحة».

ومن لطائفه فى التورية قوله، وفيه تضمين:

وضعتُ سلاحَ الصبرِ عنه فما لـه ... يقاتلُ بالألحاظ من لا يقاتِلُه!
وسال عِذارٌ فوق خديه جائرٌ ... على مهجتى فليتقِ الله سائلُه

والأمثلة من مبتدعاته في هذا الباب كثيرة جدًا.

الاستخدام: ومما برع فيه ابن نباتة الاستخدام كقوله:

إذا لم تُفض عيني العقيقَ فلا رأتْ منازله بالقرب تَبْهَى وتَبْهَرُ
وإن لم تواصل عادةَ السَّفْحِ مهجتي فلا عادها عيشٌ بمغناه أخضر

فقد استعمل العقيق استعمالا مجازيا قَصَدَ به الدمعَ، ثم أعاد عليه الضمير بمعنى المكان المعروف، واستعمل السفحَ بمعنى الصَّبِّ والإسالة وأعاد عليه الضمير بمعنى المكان.

ولوعه بالتضمين: وكان ابن نباتة مولعًا بالتضمين، لا تكاد تخلو قصيدة له منه، وربما أخذ البيت أو البيتين فضمّنها قصيدتَهُ، وأبدعُ ما يظهر من براعته أنه يحول المعنى الأصليَّ إلى معنى آخر، وينقله من القصد الذي قيل فيه إلى غيره في دقة وسبك، وربما نقل متنًا في علم النحو إلى الغزل أو المديح. وقد استشهدنا لشيء من ذلك في مقالة الشعر.

وهذا النوع يدل على سَعَة اطلاع في الأدب، واتساعٍ في مَدَى الإلمام بالشعر، وحسنِ الحيلة والتأني، ولذلك برع فيه ابن نباتة وأكثر منه، فمن تضميناته:

أتاني عليٌّ البَانِيَاسِيُّ منشدًا فيالَكَ من شعرٍ ثقيلٍ مطوَّلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معًا كجلمودِ صخرٍ حطه السيل من عَلِ

ومنها:

يا تاليَ القولِ كُتْبًا في لواحظه «السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتب»

ومنها:

وطابتْ بك الأرضُ التي أنت حِلّها (وكلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طيبُ)

ويظهر أنه كان شديد الشغف بقراءة ديوان المتنبي حتى إنه ليقتبس منه في كثير من شعره.

حسن التعليل: ومما حلا فيه ذوقُ ابن نباتة حسنُ التعليل؛ وأغلبه في بيان علل خيالية لتسمية الأشياء كقوله في المدح:

وما سُمِّيَ الغيثُ الهَتُونُ سحابةً سوى أنه من خَجْلَةٍ يَتَسَحَّبُ

وقوله:

وإذا الفتى قطع السنينَ عديدةً شابَ الحياةَ فَظَلَّ يُدْعَى شائبًا

وقوله:

شكرًا لأقلامك اللاتي جرتْ لمدًى في الفضلِ أبقَى لباغي شأوِه التعبا
حلَتْ وأطربتِ المُصْغِي وحُزْتَ بها فضلَ السَّباق فسمّاها الورَى قصَبا

وفى البيت الأخير مهـارة حقًا، فهو يعلل تسميـةَ الأقلام بـالقصب لثلاثـة أسباب، لأنها حُلوة وقصب السكر حلو، ولأنها مطربة والقصبُ المُثقَّب مطـرب، ولأنـه يسبق بها أقـرانـه فهى قصب السبق.

ومن لطائفه فى هذا الباب:

تجاسر عـودُ اللهـو يشبـه صـوتَها ... فمن أجل هذا أصبح العود يُضْـرَبُ

مراعاة النظير: ومما شُغِف به ابن نباتة مراعاة النظير. ومن إحسانه فيه قوله:

وكنتُ أخا سُعْدَى فأصبحتُ عَمهًا ... فهيهـات لى جَـــدٌّ بتقبيل خالهــا

وأكثر من استعمال هذا النـوع فى مصطلحـات العلوم كـالنحـو والعروض والحديث ونحـو ذلك كقوله:

بلـواحِظٍ يـرفعـن جَفنًـا كـاسرًا ... فَيُثِـرْن فى الأحشـاء همًا نـاصبًـا

وقوله:

وافـرُ المكـرمـاتِ مُنْسَرِحُ اللفـــ ... ـظِ طـويلُ الثنـا مـديـدُ الثـواب

وقوله:

ويَـرْوِى أحاديث الثناء صحيحـةً ... عطـاءٌ لنــا من راحَتَيْكَ وجـابـر

ومن لطائفه فى هذا النوع قوله:

يـــامُنعشِى حيث شخصى فى دمَشْقَ وفى ... تفليسٍ مـــالى ودمع العين فى حَلَب

تأكيد المدح بما يشبه الذم: وأكثَرَ جـدًّا من تأكيد المدح بما يشبه الـذم حتى لتكاد تجد ذلك فى كل قصيدة كقوله:

ليس فيـه عيب سـوى أنَّ إحسـا ... نَ يـــديـــه يستعبـــد الأحـــرارا

لعبه بالحروف ـ ومما فُتِن به التعبير عن المعنى بحذف حرف من كلمة أو بتغييره كقوله:

آهِ لشَرْخِ شبـــابٍ كـــان لى ومضَى ... واعتضتُ شرخـا ولكن مـالـه خـاء

وقوله:

وزيرَ التقى هل أنتَ فى العشْرِ عاطفٌ ... على فـاقتى بين الـورى وخضـوعى

ومـا العَشْرُ إلا العُسْرُ فى كل حـالـةٍ ... ولكننـــى نقّطتُـــهُ بـــدمـــوعى

يريد بالعَشْرِ عاشرَ المحرم وهو يوم يوسع الناس فيه على عيالهم.

تصرفه فى اسمه: وقد افْتَنَّ كثيرًا فى التصرف فى اسمه، وأنه مأخوذ من النبات أو من السكر النباتى وذلك كقوله يخاطب ممدوحه:

وحَسْبِيَ أن أدْعَى نبــاتِيَّ غَــرْسِــه		فلا طِـرسَ إلا وهو بـالحمد مُعْشِبُ

وقوله وقد أهدَى إلى صديق سكرًا :

جــــــدتَ وأفحمتنى بما قــــــد		سمعـــتُ مــــن لفظــك المواتِــى
فـــاقبلــــه ذا سكــرٌ بيـــاضٌ		إن عجَـــز السُّكـــرُ النبـــاتِى

ميله إلى الاكتفاء : ونراه فى شعره يميل أحيـانًا إلى الاكتفاء، مرةً بحذف جملة ومرة بحذف حرف كقوله:

فأقطِفُ مـن أوراقِـهِ الأدبَ الـذى		وأسمع من ألفــاظــه اللغـــةَ التى

وقوله :

غَـدَتْ كلَّ عــام لى إليـه وِفـادةٌ		فياحبذا من أجـل لقْياهُ كلُّ عَا (م)

تخلصاته : ولابن نباتة تخلصات حسنة أكثرها مؤسس على التشبيه كقوله :

لا يقــربُ الصبرُ قلبى أو يفــارقَــه		كأنــــه المالُ فى كفِّ ابـن أيــوبِ

وقوله :

جادتْ جفـونى بمحمرٍّ الدموع له		جـودَ المؤيـد للعـافين بـالـذهب

أســـلوبــه ومعــــانيــه

اهتمامه بالألفاظ : اتجه ابن نباتة كما أسلفنـا إلى الصناعة والزخـرف، وهى النزعة التى تحكّمتْ فى شعراء عصره، فانصرف بجملته إلى الألفـاظ يقلِّبها على وجوهها علّه يظفَر منهـا بجناس أو بتورية أو بمقابلة أو بلغـز أو بأية طريقة من الطرائف يسبـق بها معاصريه، أو يبزُّ بها سابقيـه. وقد أسلفنا من الأمثلة والشـواهد على ذلك ما فيه غَنـاء، والمطلع على ديوانه يدهَش لتحكم هـذا الشغف فى نفسه، حتى لقد أخذ من الألفاظ والحروف مادة للتشبيه كقوله :

لامُ العـذار أطـالتْ فيك تسهيـدى		كأنهـــا لغـــرامـــى لامُ توكيـــد

وقوله فى خِلْعةٍ :

ورحتُ أخْطــرِ فى ألفــافهـا ألفًــا		وكنت مـن دَخَلٍ فى هيئــة الـدال

وأشبه أن يكون من هذا الباب قوله :

يُغْنَى بــذا دون هــذا مَعْ تماثُلِــهِ		وقس على مــا تــراه السين والشينــا

قلة ابتكار المعانى وتكرارها : لهذا لم يتجه ابن نبـاتة لابتكار المعـانى، أو ابتداع الأخيلة الـرائعة، واكتفى بمعانى من قبلـه وأخيلتهم، فكان الابتكار أو ما يشبهـه قليلا فى ديوانه، وكثيرًا مـا تراه يكرر

معانيه، وهذا إفلاس أدبيّ دفع إليه تعجُّله فى صوغ القصائد، وكثرةُ ما كلّف نفسه من القول للاستجداء وطلب العطاء كقوله:

عــذَلُــوه على النَّـوَال فأغْــرَوْا ... فنـــداه نصبٌ على الإغـــراء

فإنه كرّر هذا المعنى مرات عدّة.

وهناك أمثلة أخرى كثيرة لا يتسع المقام لاستقصائها.

التعبيرات السوقية: وقد يقع أحيانا فى المعانى البلدية، والتعبيرات السُّوقية كقوله:

وكابدتُ فى المثْنَى من العُزْبِ مُشْتكَى ... كـمـا قيـل لم تُلْبَـس عليـه ثيـاب

وقوله:

وكم ذى كتـابٍ فى الـوَرَى وكتيبـة ... غدا داخـلا من موتـه تحتَ مكتوبِ

وقوله لمن طلّق زوجَه واسمُها دنيا:

ظلمتَ دنيـــاك وطلّقتهـــا ... فــرحــتَ لا دنيـــا ولا آخـــره.

معانيه الجيدة: على أنك مع هذا تجد فى تضاعيف ديوانه كثيرًا من المعانى والأخيلة السَّرِيّة كقوله فى وصف طيف الخيال:

زَوْرٌ عفيفٌ على عين الشَّجِىِّ مَشَى ... فيالَهُ صالحًـا يمشـى علـى المـاء
ثم انتبهتُ وذاتُ الخالِ سَـاكنـةٌ ... لم تـدر سُهْدِى ولم تشعرْ بإغفائى

وقوله:

حلفتُ إنك أذكَى مَنْ حَـوَى قلمًا ... يُنْشِى البديعَ وأنْحَى من نَحَا أدبا
أَلِيّةً لـو أتـاهـا الفجرُ مـا نَسبت ... لـه البريّـةُ فى ذيل الـدُّجَى كـذبا

ومن الجيّد قوله:

فَهَبَّتْ فى الظـــلام إلى مُـــدام ... كأنَّ شُعـــاعهـــا قَبَسٌ يلـــوحُ
وحَيَّتْنَـــا بصـــافيـــةٍ شَمُـــولٍ ... كما يترقـــرق الــدَّمعُ السَّفـــوحُ
كأنّــا قـــد سلبنـــا الـــديكَ عينًـــا ... فقـام من الكَـرَى فـزِعًـا يصيحُ

وكقوله:

وَحَمَى العـــواصـمَ رأيُـــه ولطـــالما ... قَعَـــدَ الحُسـامُ وقـــامتْ الآراءُ

تشبيهاته: ومن جيد تشبيهاته قوله:

أجـــاورُ مَن أهْـوَى ولا وصل بيننـــا ... كأنّى ومَن أهـواه ثَـــغْرٌ مُفَلّجُ

ومما يُسْتَحسَنُ منه ما نظر فيه إلى أكذوبة أبى حَيَّةَ النمَيْرِىّ، الذى ادَّعى أنه رَمى ظبيًا بِسَهْم فما زال الظبىُ يَحِيدُ والسهمُ يتبعه حتى أصابه، وذلك فى قوله:

وبــديعُ الجمـــال لم يــرَ طَــرفى مثلَ أعطـافـه ولا طَـرْفُ غـيـرى
كلّمــا حــذْت عن هــواه أتــانى سهمُ ألحاظـه كسهم النُّمَيْرِى

ولابن نباتة جملة صالحة من المعانى الجيدة لا يتسع المجال لاستقصائها.

عيوب شعره: ولعناية ابن نباتة بالنكتة والتورية والبديع عامة لم يبلغ أسلوبُه فى جمهرة شعره منزلة الجودة، لأن أنواع البديع تحتاج عادة إلى ترشيح وتمهيد، وهذا التمهيد كان يُفْرِغه الشاعر فى أىّ قالَب من الألفاظ قَبُحَ أو حَسُن، لأنه يريد الوصول إلى البديع بأىّ ثمن. انظر إلى قوله:

قسمًا بسُــورَةِ عــارضَيْك فإنهــا كالنمــلِ عنــد بصــائر الشعــراء

فإنـه لأجل التلميح بـاسْمَـى السورتين جـاء بتعبير ضعيف جـدًا هـو (سورة عارضيك). وهل للعارضين سورة؟ وما هى؟ ثم زَلّ زلةً أخرى فقال: عند بصائر الشعراء، وهو يريد أبصار الشعراء إذ لا معنى للبصائر هنا.

هـذا مثال واحـد أردنا أن نبين بـه ما يجرُّه الـوَلـوع بالبـديع من الجنايـة على الأسلوب والإسعـاف المُخْزى، مع أن ابن نبـاتة كان أكثرَ من غيره توفيقًـا فى صناعـة البديع، ولكنـه لم يسلم فى كثير من محاولاته من الزَّلل.

الإكثار من الانتفاع بالضرورات الشعرية: كقصر الممدود وتسهيل المهمـوز وصرف ما لا ينصرف فمن أمثلة قصر الممدود قوله:

ونــدًى يُخْجِلُ السحــائبَ يمشِى من ورا جـــوده على استحيـــاء

الحشو - ومن عيوبه الحشو وهو كثير فى شعره ويكون بالقسم كقوله:

أوحشــه الغيــثُ الــذى قــد نأى وجـــــاءه واللهِ فى وقتــــــه

أو بزيادة كلمة أو تركيب كقوله:

نبيسٌ على التحقيق قــالت صِفـاتـه لنُقّـاده ذا مـا يخـالــط ذا مـــا

ففى الشطر الأول حشوٌ (على التحقيق)، والجناس فى الشطر الثانى سقيم.

الهفوات اللغوية - ومن عيوب شعره التهاون فى تعدية الأفعال كقوله:

طـرقتْ على تلك النفـوس طـوارقٌ وطـرتْ على تلك الجســوم طوارى

فإن «طرق» يتعـدَّى بنفسه، وطـرتْ أصلها طـرأت سُهِّلت الهمزة وعـومل الفعل معاملـة المعتل بالألف، وهذا ضعف أيضًا.

وكقوله :

لــقـد أحيــا نَــدَى كفيـكَ حـالى ... كــذاك الغيــثُ يُحْيى للنبــــات

فَعَـدَّى الفعـــل « يحيى » بـالـلام .

وقوله :

إليك مـديرَ الكـأس عنـى إننى ... رأيـتُ دمـوع الخوف تنقعُ للصَّدَى

والفعل نَقَع متعدٍّ بنفسه .

ومن أخطائه اللغوية قوله :

النـــاصرُ اسمـًا وألقـابًا وأفعِـلَةً ... فـانظـر لنصرٍ على عطفيـه مشتملِ

يريد وأفعالاً والشطر الثانى ركيك .

وقوله :

وشـائدُ المـُلكِ مشـغولٌ بأربعـةٍ ... من العَطَا والسُّطا والعلـم والعمــل

وقد أكثر هو والحِلِّ من استعمال كلمة « السُّطا » هذه ولا نعرف لها وجهًا .

وقوله :

يـامَن لـه تُغْــرِبُ الآفـاق عن سيرٍ ... عظمى وتنطق أرضٌ وهى خَـرْسـاءُ

فإن اسم التفضيل لا يطابق موصوفه فى التأنيث إلا إذا عُرِّف بأل أو أضيف إلى معرفة .

وقوله :

قــــاضى القُضـــــاة المُلَبَّى ... تــــاجُ السَّــــرَاةِ الألبِــــةْ

وهو يقصد الألباءَ جمع لبيب .

وقوله :

لَهفى لجوهـــرةٍ خَفَتْ فكأنمــــا ... حَجَّبْتُهـــا من أدْمُعى ببحـــار

واللغةُ العاليةُ أن يقول خَفِيَتْ . وقد أكثر من استعمال كلمة العائلة بمعنى الأسرة فمن ذلك قوله :

ومــا أُبـالى إذا استكثـرتُ عـائلـةً ... فقـد كَفَى هَمَّ إصبـاحى وإمسـائى

ونرى أن هذه الكلمة استعملت فى هذا المعنى قبل ذلك بنحو قرنين .

فنـــون شـــــعره

أكثرُ شعره فى المديح والرثاء، لأنه شاعر مُسْتَجْدٍ، يعيش من سنّ قلمه. وأكثرُ مدائحه فى النبى صلى الله عليه وسلم، ثم فى الملك المؤيد صـاحب حَماة وأبنائه، وآل فضل الله والشهاب محمـود وابن الأثير صاحب ديوان الإنشاء، ومدح الملك النـاصر والسلطان حسنا، ثم طـائفة كبيرة من القضـاة والولاة والمحتسبين، وليس له فى الهجاء إلا أبيـاتٌ قليلة هى إلى الدُّعابة أقـربُ منها إلى الهجاء، ولكنّ لسانه لم يَعِفّ عن هُجْر الكـلام حتى فى القصائد التى يمدح بها الكبراء، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على تدهور الآداب العامة فى ذلك العصر.

غزلـــه: وابن نباتة كثير الغزل وغزله معظمه صناعى بَحْت يجعله طليعة لقصائده، ويستعمل فى أكثره ضمير المذكر كما هى عادة شعراء عصره ومن قبلهم.

وأحسنُ ما قاله فى الغزل قوله من قصيدة فى مدح الرسول:

صَحَـا القلبُ لـولا نَسْمَـةٌ تَتَخَطَّـرُ ... ولَمْعَـةُ بـرقٍ بـالغَضَـا تَتَسَعَّـر

وذكــرُ جبينِ البـابِلِيّــة إذ بــدَا ... هلالُ الدُّجى والشىء بالشىء يذكر

سقَا اللهُ أكنـاف الغَضَا سـائل الحَيَا ... وإن كنتُ أسْقَى أدْمُعًـا تتحـدَّرُ

خمرياتـه: وله كلامٌ كثير فى الخمـريات وقد كان فى هذا البـاب مقلِّدًا قليل الابتكار، ومما أحسن فيه من ذلك قوله:

عَـوِّض بكأسك مـا أتلفـت من نَشَبِ ... فـالكـأس من فضـةٍ والـراح من ذهبِ

واخطُبْ إلى الشُّـرْبِ أمَّ الدهر إن نُسِبَتْ ... أختَ المسرة واللهـــوِ ابنـــةَ العنب

غَـرَّاءُ حــالِيَـــةُ الأعطــاف تَخْطِـرُ فى ... ثــوبٍ من النـور أو عِقْـدٍ من الحَبَبِ

بقية فنون شعره: وله شعر كثير فى الحنين إلى الصِّبا ووصف ويلات الهَرَم والشيب، كما كان يكثر من وصف القلم عندما يمدح الكتّاب والأدباء، وفى ديوانه كثير من التهانى، وأشهرها تهنئة الأفضل بالملك التى جمع فيها بين التهنئة والتعزية، وقد سارت بها الركبان، وترددت أصداؤها فى كل مكان. وأولها:

هنـاءٌ محـا ذاك العَزاء المُقَــدَّمـا ... فمـا عَبَسَ المحـزونُ حتـى تَبَسَّـمـا

وله قصيدة فى الطَّرَد سماها «مصايـد الشوارد» وهى من بحر الرَّجَز، فى مائة وسبعة وستين بيتًا، حاكى فيها شعراء العصر العبـاسى ممن طرقوا هذا الفن، كأبى نواس وابن المعتز. وقد وُفِّق ابن نباتة فى هذه القصيدة وأظهر فيها براعة فى التشبيه محمودة، ومما يُختار من هذه القصيدة قوله:

حتى نزلنــــا بمــــكان مُـونِقِ ... إخـوانَ صــدقٍ أحْـدَقـوا بـالمملقِ

فيـالــه فى الحســن مـن محـلِّ ... مــــرَادُ جِــدٍّ ومَـرَاد هَــــزْلِ

للطــير فــى مياهـــه مــواقعٌ كأنّهـــــا مـــن فـوقه فـواقـعُ
حتى طــوَى الأفق رداءَ الــوَرْسِ والتقم المغــربُ قُــرْصَ الشمس

وله بجانب ذلك ألغاز، ومقطّعات كثيرة، منها الثُّنائياتُ والثلاثيات والرباعيات والخماسيات، وأغلب هذه المقطعات كان يقولها لإبراز نوعٍ بديعى أو يرسل بها إلى ممدوحيه فى طلب حاجة.

ولابن نباتة قليل من المُوَشّحات ومطلعُ أحدها:

لهفى على غـــادةٍ إذا سَفَـــرت غـارتْ وجـوهُ الشمـوسِ واستترتْ
لها من السُّمْـر قــامـةٌ خَطَـرتْ كم قتلتْ عــاشقًــا وكم أسَرتْ
إذا دعتْ للنهــوضِ مِيْلَهـا عِطفَـا كأن سحـرَ الجفــون حَمَّلها ضعْفـا

الموازنــة بينـــه وبيــن شـعـراء عصــره

سبق أن قلنا إن ابن نباتـة يعد بحق زعيم شعراء مصر فى عصره، وإن معاصريه سلكوا مسلكه، واتبعوا مذهبه، واتخذوه قائدًا وإمامًا، فكانوا يتخطفون ما يقوله ابن نباتة فيقولون على مثاله.

وأقرب من يشبه ابـنَ نباتة من شعراء مصر برهـانُ الدين القيراطى، ويتشبه به مـن شعراء الشام صلاح الدين الصفدى، وكان كثير الاغارة على شعره كما سبقت الإشارة إليه.

أما صَفيّ الـدين الحلى فكانت له نـزعة فى الشعـر تخالف نزعة ابن نبـاتة، وكان أقلَّ منـه احتفالا بالبديع، وكانت ديباجتـه أقربَ إلى الديباجة العـربية السليمة، وكانت بينـه وبين ابن نباتـة صلة وُدٍّ وثيقة تبادلا فيها القريضَ؛ وتقارضا المديحَ والثناء. وجملة القول أن شعر الحليّ أميل إلى الجزالة، وشعرَ ابن نباتة أميلُ إلى الرقة والإبداع.

سرقاتــه: وقد أخبرنـا ابن حجـة الحمويُّ أن ابن نباتـة كان يُغِيرُ على بدائع عَلاَء الـدين الوَداعِيّ المتوفى سنة ٧١٦ هـ، وقد أورد فى خزانة الأدب جملةً من ذلك وذلك كقول الوَدَاعى:

والنهــرُ كالمِبْــرد يجلــو الصَّــدَا بِبَرْده عــن قــلب ظمــآنه

الذى أخذه ابن نباتة فقال:

والنهــــرُ فيـــــه كمِـــبْرَدٍ فلأجـــل ذا يجـــلو الصـــدا

ويقول الوَدَاعى:

مـا كنتُ أولَ مغـــرمٍ محـــرومٍ من بــاخلٍ بــادى النِفّــار كــريم

فيقول ابن نباتة:

مُبَخّـــلٌ يشـــبه رِيـم الفَـــلاَ يـاطـولَ شَجْـوِى من بخيل كـريم

وممن استعار ابن نباتة بدائعهم أبو الحسين الجزار، ومحيى الدين بن عبد الظاهر، وعبد العزيز الأنصارى الحموى، ومجير الدين بن تميم.

كتـــــابتـــــه

كان كاتبًا شاعرًا، كما يصف نفسه مخاطبًا ممدوحه:

يعظُمُ مَن كـان لكـم شـاعرًا   فكيف وهـو الشاعـرُ الكـاتبُ ؟

وقد جرَى فى الكتابة على أسلوب عصره، ولكنه امتاز بالسهولة والتجانف عن التعقيد، وسلك سبيلَ البديع فى رفق وهوادة، فجاء نثره حسَنَ النسج لا يخلو من جمال فنىّ. وإنا نقتبس هنا طرَفًا من رسالته فى المفاخرة بين السيف والقلم. قال على لسان القلم يردُّ على السيف:

« أتفاخرنى وأنا للوصل وأنت للقطع، وأنا للعَطاء وأنت للمنع، وأنا للصلح وأنت للضّراب، وأنا للعِمارة وأنت للخراب، أعلَى مثلى يَشُقُّ القولُ، ويرفع الصوت والصَّوْل، وأنا ذو اللفظ المكين، وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى: ﴿ أوَ مَنْ يُنَشَّأُ فى الحِلْيَة وهو فى الخصام غير مبين﴾ فقد تعديت حدك، وطلبتَ ما لم تبلُغ به جهدَك، هيهات أنا القائم بمصالح الدول وأنت فى الغمِد طريح، والمُتْعَب فى تمهيدها وأنتَ غافل مستريح، والساعى فى تدبير حال القوم، والمُغْنِي لنفعهم العمرَ إذا كان نفعُك يومًا أو بعضَ يوم، فاقطَع عنك أسبابَ المفاخرة، واستر أنيابك عند المكاشرة، فما يَحْسُنُ بالصامت محاورةُ المُفْصِح، والله يعلم المفسد من المصلح.

أشــــهر آثــــاره

(١) ديوان شعر كبير مرتّب على حروف الهجاء، طبع بالقاهرة.

(٢) مَطْلع الفوائد ومجمع الفرائد، وهو كتاب حافل فى الأدب.

(٣) سَرْحُ العيون فى شرح رسالة ابن زيدون، وهو من أحسن مؤلفاته، يدل على سَعَة الاطلاع فى اللغة والأدب وتاريخ العرب.

الشاب الظريف

هو محمد بن سليمان، ولد بمصر سنة ٦٦١ هـ ومات فى عنفوان شبابه سنة ٦٨٨ هـ، فهو طَرَفَة هذا العصر، وشعره يدل على نبوغ موروث، فقد كان أبوه عفيف الدين التِلِمسانى شاعرًا محسنًا، والشاب الظريف شاعر مجيد رقيق خفيف الروح ناصع الديباجة، فى شعره نفحات من العبقرية المصرية، وكان مولعًا بالبديع كبقية شعراء عصره، ولكن البديع لم يفسد عليه شعره، وأكثر شعره فى الغزل شأن أكثر شعراء هذا العصر، وصفه شهاب الدين بن فضل الله فقال:

«نسيم سَرَى، ونعيم جَرَى، وطيف لا بل أخف موقعًا منه فى الكرَى. لم يأت إلا بما خفَّ على القلوب، وبرئ من العيوب، رقّ شعره فكاد يشرب، ودقّ فلا غرو للقُضُب أن ترقص والحمام أن يطرب، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان، وَوَلج القلوب، ولم يقرع باب الآذان، وكان لأهل عصره ومن جاء على آثارهم افتتان بشعره وجمعه أهل دمشق فإنه بين غمائم حياضهم رَبَا، وفى كمائم رياضهم حَبَا، حتى تدفّق نهره، وأينع زهره، وقد أدركت جماعة من خلطائه لا يرون عليه تفضيل شاعر. ولا يرون له شعرًا إلا وهم يعظمونه كالمشاعر، لا ينظرون له بيتًا إلا كالبيت، ولا يقدّمون عليه سابقًا حتى ولو قلتُ ولا امرأ القيس ما باليت، ومرّت له ولهم بالحمى أوقاتٌ لم يبق من زمانها إلا تَذَكُّرُه، ولا من إحسانها إلا تَشَكُّرُه، وأكثر شعره لا بل كلُّه رشيق الألفاظ، سهل على الحُفّاظ، لا يخلو من الألفاظ العلمية، وما تحلو به المذاهب الكلامية، فلهذا علق بكل خاطر، وَوَلِعَ به كل ذاكر، وعاجله أجله فاختُرِم، وحَرَمَ أحباءه لذة الحياة وحرِم».

ومن شعره وفيه بديعٌ منسجم:

مثلُ الغــــزالِ نظــرةً ولَفْتَــة ... مَـن ذا رآه مقبـــــلاً ولا افتتـن ؟
أعــذبُ خــلقَ الله ثغرًا وفمـًا ... إن لم يكن أحـق بــالحسن فمن ؟
فى ثغره وخـــده وشـــكلهِ ... الماء والخضرةُ والـــوجـــهُ الحسن

ومنه قولُه :

عفَـا الله عن قـوم عفـا الصبرُ منهمُ ... فلو رُمْتُ ذِكـرَى غيرهم خانني الفمُ
تَجَنَّـوْا كأن لا ودّ بينى وبينهـــم ... قديمـًا وحتى مـا كأنهـــمُ هـــمُ
وبـالجزع أحبـابٌ إذا مـا ذكـرتُهم ... شَـــرِقْتُ بدمـــع فى أواخـره دمُ
أَلَمَّ ومـــا فـــى الـرَّكْبِ منـا مُتَيَّمٌ ... وعـــاد ومـــا فـــى الركب إلا مُتَيم
وليس الهَوَى إلا التفـاتَـةَ طـامحٍ ... يـــروقُ لعينيــه الجمـــالُ المُنَعَّمُ
خليلىّ مـا للقلب هاجتْ شجونـهُ ... وعـــاوَدَه داءٌ من الشـــوق مؤلـمُ
أظنُّ ديـار الحـــىّ منا قريبـــةً ... وإلا فمنهـــــا نَفْحـــةٌ تَتَنَسَّمُ

ابن الوردى

هو زين الدين عمر، ولد بالمعرة سنة ٦٨٩ هـ، ومات بحلب سنة ٧٤٩ هـ، كان شاعرًا أديبًا نحويًا فقيهًا مؤرخًا، وكان عفيفًا لا يستجدى بشعره، وله ديوان شعر مطبوع، وشعره متوسط فى الجودة غاصٌّ بالبديع وبخاصة التورية، تظهر فيه النزعة الفقهية والعلمية أحيانًا، ومن شعره :

دهرنا أمسى ضنينا … باللقا حتى ضنينا
ياليالى الوصل عودى … واجمعينا واجمعينا

ومن شعره :

أنتم أحبائى وقد … فَعَلتمُ فعل العِدا
حتى تركتم خبرى … فى العالمين مبتدا

ومن قوله فى رثاء ابن تيمية وقد مات مسجونًا بقلعة دمشق :

عثا فى عِرضه قومٌ سِلاطٌ … لهم من نثرِ جوهرِهِ التقاطُ
تَقِيُّ الدين أحمدُ خيرُ حِبْرٍ … خيوطُ المعضِلات به تُخاطُ
توفى وهو محبوسٌ فريدٌ … وليس له إلى الدنيا انبساط
قضَى نحبًا وليس له قرينٌ … ولا كنظيرِهِ لُفَّ القِماطُ

وله القصيدة المشهورة فى الحِكم منها :

اعتزلْ ذِكْرَ الأغانِى والغَزَلْ … وقل الفصلَ وجانبْ من هَزَلْ
ودع الذِّكْرَ لأيام الصِّبا … فلأيام الصِّبا نجمٌ أفَلْ
إن أهنا عيشةٍ قضيتها … ذهبتْ لذاتُها والإثمُ حَلّ
واهجر الخمرةَ إن كنتَ فتًى … كيف يَسْعَى فى جنون من عَقَلْ
صدِّقِ الشرعَ ولا تركَنْ إلى … رَجُلٍ يرصُدُ بالليل زُحَلْ
حارتْ الأفكارُ فى قدرة مَن … قد هدانا سبْلَنا عز وجل
كُتب الموت على الخلق فكم … فلَّ من جمعٍ وأفنى من دول

صفي الدين الحلي

هو عبد العزيز بن سرايا بن على، ولد بالحِلة من مدن الفرات سنة ٦٧٧ هـ، ونشأ به وتأدب وأجاد الشعر، وخدم ملوك الدولة الأرتقية، وقد رحل إلى مصر فى سنة ٧٢٦ هـ، ومدح السلطان الناصر بن قلاوون بقصيدة عارض فيها المتنبى فى قصيدته التى مطلعها :

بأبى الشموس الجانحات غواربا ... اللابسات من الحرير جلابيا

فابتدأها بقوله :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا ... فتركن حباتِ القلوب ذوائبا
وجلون من صبح الوجوه أشعةً ... غادرن فود الليل منها شائبا
بيض دعاهن الغبىُّ كواعبًا ... ولو استبان الرشد قال كواكبا

وقد طرق معظم فنونَ الشعر، وقال من الأوزان المولدة، وفى التشطير والتخميس، وهو أول من نظم القصائد النبوية الجامعة لأنواع البديع المسماة بالبديعيات، وكان شعره سهل اللفظ جيد الأسلوب، وقد يعُدّه بعض الأدباء أشعر شعراء عصره، ومن شعره وهو فى غاية الرقة :

إن غبت عن عِيانى ... يا غاية الأمانى
فالفكر فى ضميرى ... والذكر فى لسانى
ما حال عنك عهدى ... ولا انثنى عِنانى
شوقى إليك باقٍ ... والصبر عنك فانى

ومن شعره :

قد نشر الزَّنبقُ أعلامه ... وقال كلُّ الزهر فى خدمتى
لو لم أكن فى الحسن سلطانه ... ما رُفِعَتْ من دونه رايتى
فقهقه الورد به ساخرًا ... وقال ما تحذر من سطوتى ؟
وقال للسَّوْسَنِ ماذا الذى ... يقوله الأشيبُ فى حضرتى ؟
فامتعض الزنبق من قوله ... وقال للأزهار يا رفقتى
يكون هذا الجيش بى محدقًا ... ويضحك الورد على شيبتى

هذا شعر فى منتهى الرقة، ولكنَّ صفى الدين قد يكون فى منتهى الجزالة والضخامة إذا قال فى الأغراض الشعرية التى تتطلب قوة وحماسة كقوله :

لمن الشوارب كالنعام الجُفّلِ ... كسبت جلالاً من غبار القسطلِ
يبرزن فى حلل العجاج عوابسًا ... يحملن كل مدرع ومُسربل

شبـــة العـــرائسِ تُجْتَلَى فكأنها في الخِدر من ذيل العجــاج المسْبَل
فعلت قــوائمهن عنــد طــرادهــا فعلَ الصــوالج في كــرات الجنــدل
فتظل تــرقم في الصخــور أهلــةً بِسنَــا حــوافــرهـــا وإن لم تُنْعَلِ

ومن جيد شعره ورصينه القصيدة النونية المشهورة التي قالها في صِباه، وكأنه كان يعارض بها نونية ابن زيدون ومن هذه القصيدة :

سل الـرمـاح العــوالي عن معـالينـا واستشهدالبيض هل خاب الرجا فينا
وسـائل العـرب والأتـراك مـا فعلت في أرض قبر عبيـــد الله أيــدينـــا
لما سعينـــا فما رقت عـــزائمنـــا عمـــا نـــروم ولا خـابت مسـاعينـا
يـــايــومَ وقعــةِ زوراءِ العــراقِ وقــد دِنَّـا الأعــادي كما كــانــوا يـدينـونـا
بضُمَّــرٍ مــاربطنـاهــا مسـوَّمـةً إلا لنغــزو بها من بــات يغــزونـــا
وفتيـــةٍ إن نقل أصغَــوا مســامعهم لقـولنــا أو دعـونــاهم أجـابــونـا
قـومٌ إذا استُخصمـوا كانـوا فـراعنـةً يـومًـا وإن حكمـوا كانـوا مـوازينـا

ومن جيد معانيه قوله :

يامَن حكت شمس النهـار بحسنها وبِعــادِ منــزلها وبهجــة نــورهـــا
هـــلا عـــدلتِ كعــدلها إذ صيرت للنــاسِ غيبتهـــا بقــدر حضـورها

توفي ببغداد سنة ٧٥٠ هـ.

بدر الدين الذهبي

كان من أرق شعراء الشام أسلوبًا وألطفهم طريقة ، ويمتاز شعره بكثرة الـوصف وجمال الديباجة وروعة البديع .

وقد جاء فى المنتخب أمثلة صالحة من شعره ، وسقنا إليك فى مقالة الشعر شيئًا منه .

ومن قوله :

وريــاض وقـفت أشجــارُهــا ... وتمشـــت نسمـــة الصبح إليهـا
طـالعت أوراقهـا شمس الضحـا ... بعـد أن وقّعـت الـوُرْق عليهـا

وقوله :

عــرّج على الــروض يانديمــى ... ومــِلْ إلى ظــــله الظليـــل
فالزهـــر يلقـــاك بابتســام ... والريـــح تلقـــاك بالقبـول

توفى سنة ٦٨٠ هـ .

صلاح الدين الصفدى

كاتب شاعر مؤرخ، ولد فى صَفَد سنة ٦٩٦ هـ، وتلقى العلم بدمشق عن ابن نباتة المصرى الشاعر، وتولى ديوان الإنشاء بصفد والقاهرة وحلب، وأشهر كتبه الوافى بالوفيات، وهو أكبر معجم للتراجم يقع فى نحو خمسين مجلدًا، ولا يوجد هذا الكتاب كاملا فى مكان واحد، فمنه أجزاء بمصر وحلب وتونس وغوطة وفيينا ولندن وأكسفورد وباريس. ومن شعره:

بسهم أجفانه رمانى ... فذبت من هجره وبينه
إن مت مالى سواه خَصمٌ ... لأنه قاتلى بعينه

وله قصيدة طويلة فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم يعارض بها لامية كعب بن زهير منها:

سلوا الدموع فإن الصب مشغولُ ... ولا تَملوا ففى إملائها طولُ
واستخبروا صادحات الأيك عن شجنى ... هل فى الغرام الذى تبديه تبديلُ
وهل لما ضمت الأحشاء بعدكمُ ... من الجَوَى عندما تحويه تحويل
أحبتى لا وعيشٍ مرَّ لى بكمُ ... وربعُ لهوى بالللذات مأهولُ
ما كان لى مذ عرفتُ الوجد قط ولا ... يكون فى غيركم قصدٌ ولا سولُ

ومن قوله:

يا غائبين تعللنا لغيبتكم ... بطيب لهوٍ ولا والله لم يطبِ
ذكرت والكأسُ فى كَفِّى لياليكم ... فالكأس فى راحة والقلب فى تعب

وكتب إليه ابن نباتة وكان الصلاح مريضًا:

نُثَقِّلُ إذ نبغى بلفظك طبنا ... من الهم والجسمُ الشريف نحيلُ
فها أنت فينا كالنسيم بلطفه ... طبيب يداوى الناس وهو عليلُ
وحاشاك من شكوى اعتلالٍ سينقضى ... قريبًا كما نختاره ويزولُ

فكتب إليه الصلاح الصفدى:

لِحَمَاى نارٌ جاءها منك جَنةٌ ... غصونُ رُباها بالبديع تميلُ
تهدَّلت الأدنان منها فخاطرى ... له بين هاتيك الظلال مَقِيل
وأنتَ حبيبُ الشعر أصبحت سيدًا ... كما أننى مولى والاسم خليل

مات بدمشق فى ليلة عاشر شوال سنة ٧٦٤ هـ.

ديوان الإنشاء

منذ نشأته إلى نهاية هذا العصر

الكتابة فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين: كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم نحو نيِّف وثلاثين كاتبًا، منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وزيد بن ثابت الأنصارى وغيرهم من جِلة الصحابة، وكان المداوم له صلى الله عليه وسلم على الكتابة زيدًا ومعاوية .

وكان عثمان بن عفان كاتبا لأبى بكر، وزيد بن ثابت كاتبًا لعمر، ومروان بن الحكم كاتبًا لعثمان، وكتب عبد الله بن أبى رافع لعلى بن أبى طالب .

الديوان فى عهد بنى أمية: ثم كانت دولة بنى أمية فكان أمر الكتابة فى زمن كل خليفة مفوَّضًا إلى كاتب يقيمه، وكان الخليفة يوقِّعُ فى القصص بنفسه، والكاتب يكتب بما يُشير به هذا التوقيع، وكان كاتب معاوية عُبَيْدَ الله بنَ أوس الغَسّانى، ثم اتخذ كل خليفة من خلفاء بنى أمية بعده كاتبًا أو أكثر إلى آخر عهد خلفائهم، وهو مَرْوان بن محمد فكان كاتبه عبدَ الحميد بن يحيى مولى بنى عامر، وهو أول من وضع أصول فن الكتابة، وهو الذى قيل فيه بدأت الكتابة بعبد الحميد، وخُتِمت بابن العميد.

ديوان الإنشاء فى العهد العباسى: أما الكتابة فى عهد بنى العباس فكانت فى ضمن الوزارة، والوزير هو المتصرف فى الديوان، وتحت يده جماعة من الكتاب، وفيهم رجل كبير يسمى صاحب ديوان الإنشاء، وصاحب ديوان الرسائل، ومن أشهر الكتاب فى الدولة العباسية عبد الله بن المقَفَّع، وكان كاتبًا لأعمام المنصور ومترجمًا له، والربيعُ بنُ يُونس وكتب للمهدى، وأحمد بن يوسف وعمرو بن مَسْعَدَة وكانا كاتبين للمأمون. وكتب للمتوكل أحمد بن المدبِّر وإبراهيم بن الصُّولى. وكتب للقادر إبراهيم بن هلال الصابئ. وكتب للناصر يحيى بن سعيد الواسطى المشهور بابن زيادة صاحبُ

ديوان الإنشاء ببغداد، وإليه انتهت رياسة الترسُّل. وكتب للمستعصم عزُّ الدين عبد الحميد بن هبة الله بن أبى الحديد مات سنة ٦٥٥ هـ، وقُتِلَ الخليفة عَقِبَ موته، فهو آخر كتاب الإنشاء لخلفاء بغداد. قال السُّيوطى : ومن الاتفاق الغريب أن آخر خلفاء بنى أمية كتب له عبد الحميد الكاتب؛ وآخرَ خلفاء بنى العباس ببغداد كتب له من اسمه عبد الحميد.

الديوان فى العصر الفاطمى: أما مصر فلم يكن بها ديوان للإنشاء من حين فتحت إلى أيام أحمد بن طولون، وحينما قَوِىَ أمرها فى تلك الأيام أنشئ بها ديوان للإنشاء، واستمر إلى أن ملكتها الدولة الفاطمية، فعظم شأن ديوان الإنشاء بها. وأشهر كتّاب الإنشاء بهذه الدولة أبو المنصور بن سُورِدِين النصرانى، وكان كاتبًا للعزيز بن المعز والحاكم. وأبو القاسم المعروف بابن الصَّيْرَفى، وقد كتب للآمر والحافظ، ويوسف بن الخَلاّل، وهو أستاذ القاضى الفاضل، وكتب للحافظ والعاضد، وكان يلقب صاحبُ الديوان فى الدولة الفاطمية بكاتب الدَّسْت الشريف.

ومن أشهر كتّاب الإنشاء بالدولة الأيوبية القاضى الفاضل، ثم أضيفت إليه الوزارة، وكتب لصلاح الدين وابنه العزيز. ثم بهاء الدين زهير الشاعرُ المشهور وكان كاتبًا فى عهد الملك الصالح.

الديوان فى عصر المماليك: وأنبهُ أصحاب الدواوين ذكرًا فى عهد المماليك محيى الدين بن عبد الظاهر. وأول من سُمِّىَ كاتبَ السر بالديار المصرية ابنُه فتح الدين بن عبد الظاهر، ولِىَ ديوان الإنشاء فى عهد المنصور قلاوون. ومن كتّاب السر المشهورين فى هذا العهد تاجُ الدين بن الأثير وكتب للأشرف خليل. ومحيى الدين بن فضل الله العُمَرى، وشهابُ الدين بن فضل الله، وشرف الدين بن فضل الله، والشهاب محمود الحلبى، وكتبوا للناصر. وشمس الدين محمد بن مزهر وكتب للمؤيد.

صفات صاحب الديوان وأعماله: وكان كاتبُ السر فى عهد المماليك فى أرفع محل وأشرف قدر. إليه تلقى أسرار المملكة، وبرأيه يستضاء فى حل مشكلاتها، وإليه ترد المكاتبات وعنه تصدر، ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة، ويقوم توقيعه فى القصص أحيانًا مقام توقيع السلطان.

وقد أطال صاحب صبح الأعشى فيما يجب أن يتحلى به صاحب الديوان من العلم والأخلاق وصفات الساسة، ثم شرح أعماله فى إسهاب : وهى أن يتصفّح هو أو نائبه جميعَ ما يكتبه كتاب ديوانه من الولايات والمنشورات والمكاتبات، وأن يتلقى المكاتباتِ الواردةَ ويقرأها على السلطان ويُجيب عنها، وهو الذى ينظر فى البريد، واختيارِ مَن يُرْسَل إلى الخارج فى الشئون السلطانية، وهو الذى يختار الجواسيس لإرسالهم حيث يريد إلى أى جهة من جهات العدو، وتشمل دائرة عمله المناور، فقد كان بين الفرات إلى قريب من بُلْبَيْس أمكنةٌ عالية يقيم بها مستخدَمون من قبل السلطان، فإذا حدث حادث ببلاد التتار أوقدوا النار بالقِمَم المجاورة للفرات فينظرها من بعدهم فيوقدون النار، وهكذا

حتى ينتهى الوقود إلى المكان الذى بقرب بلبيس فى يوم أو بعض يوم، ومن هناك تُرْسَل رسالة على أجنحة الحَمام فيعلم السلطان بالحادث فيأخذ فى التأهب.

ومن عمل صاحب الديوان فوق ذلك أنه ينظر فى الأمور العامة بما يعود نفعه على السلطان والمملكة، وهو المشير الأول على السلطان وموضع ثقته.

وبديوان كاتب السر كتّاب الدَّست، وهم الذين يجلسون معه فى دار العدل ويقرءون القصص على السلطان، ويوقعون عليها بأمر السلطان. وكتّاب الدَّرج وهم الذين يكتبون الولاياتِ والمكاتباتِ ونحوها، وربما شاركهم كتاب الدَّست فى ذلك.

خصائص الديوان وفضله: وربما حسُن بنا هنا أن ننبه إلى ما ابتدعه الكُتاب فى دولة المماليك من وضع ألقاب للسلطان والملوك والوزراء وأمراء الدولة وكبار رجالها، بحيث تختص كلُّ مرتبة بلقب لا تتجاوزه، كالمَقَام والمَقَرّ والجناب والمجلس ونحوها، مع إتباع كلٍ منها بألفاظ خاصة للتبجيل والتفخيم. وقد ابتدعوا أيضًا إلحاق ياء النسب بالأوصاف، كالأميرىّ لأرباب السيوف، والصاحبىّ للوزراء، والقضائىّ لأرباب الأقلام، وقد أسرف الكتاب كثيرًا فى هذا العصر فى ألقاب التمجيد والتعظيم.

ولن يجحَد جاحد ما كان لديوان الإنشاء من الأثر البيِّن فى إنهاض العربية وإنعاش الآداب بمصر والشام. ولقد تنافس كبار الكتاب والشعراء فى الوصول إلى هذا الشرف الرفيع والتسلُّق إلى ذلك المنصِب السامى، الذى كان يُشْتَرط لنيله أن يكون صاحبه عَلَمًا فى الأدب، بعيد الغاية فى جمال الإنشاء وروعة الكتابة، ملمًا بكثير من العلوم العقلية والنقلية، وقد أبرز ديوان الإنشاء فى عهد المماليك بمصر والشام نوابغَ من الكرام الكاتبين، والشعراء المجيدين، والعلماء النابهين وقد مرت بك أسماء طائفة منهم.

وقد كان للغة العربية أيامَ قيام ديوان الإنشاء دولةٌ قائمة دالت بعد دخول العثمانيين مصر وإبطالهم ديوان الإنشاء، فطُوِى بذلك للعربية والأدب العربى عهدٌ زاهر مجيد.

الكتـــــــابـة

تأثر طريقة الفاضل: تأثّر الكُتّابُ فى هذا العصر طريقة القاضى الفاضل التى جرتْ على غِرار طريقة ابن العميد، وأربتْ عليها بالإغراق فى التورية والطباق ومراعاة النظير وغير ذلك من أنواع البديع، لذلك كانت طويلة الأسجاع، لأن التعمّل لإبراز هذه الأنواع كان يَضْطَر الكاتب إلى التمهيد لها والاحتيال على إيرادها، وهذا يدعو إلى تطويل الكلام. وكانت مواهب القاضى الفاضل وسلامةُ فطرته وتمكنُهُ من اللغة تُنقِذ كتابته من السقوط فى دَرْك السخف. وكثير مما كتبه بين أيدينا يشهد له

بحسن الذوق ودقّة الصناعة والقدرة على اجتذاب القارئ كيفما كان رأيه فيما يجب أن تكون عليه الكتابة الفنية .

أولع كتاب المماليك بهذه الطريقة ، فأخذوا يحاكونها ويجهَدُون جُهْدَهم فى بلوغ أوْجها ، وربما جال فى نفوسهم كثير منهم أن يَـبُـزُّوها بـالإغراق فى البـديع والإكثار من الزخـرف اللفظى ، فجَنى عليهم اجتهادهم ، وكان عليهم أن يعرفوا أنّ

أبلغ ما يُـدرَكُ النجـاح بـه الطبـ ـــعُ وعنـد التعمـق الزلـلُ

فجاءت كتابةُ كثير منهم مملوءة بالبديع ، محمَّلَة بأنـواع الصناعة ، فاختفت المعـانى تحت أرْدية الديباج الموشَّى ، والاستبرق المرقَّش ، وناءت عقود الجواهر واللآلىء ببنات الأفكار فأخمدت أنفاسها ، وأصبحتَ تقرأ عباراتٍ هى أشبه بالألغاز منها بصريح الكلام ، وتعجب كيف أن عقلاً إنسانيًا يصور له الجَدُّ العـاثر أن من أمارات النبـوغ وإحكام الصنـاعة التدهـورَ إلى هذا الحضيض . وطالبُ الأدب تتملكـه الحيرة إن أراد أن يعلل لهذه النـازلـة التى أصـابـت الأدب فقضت على فن هـو أكثـر فنونـه استعمالاً ، وهو أقلُّ فنونه قيودًا ، وأحوجُها إلى السهولة والانسجام . وربما كان من أسباب ذلك تمكن غريزة التقليد من هـؤلاء الكتاب وتحكّمها فى نفوسهم ، حتى لكأنهم لا يعرفـون من النثر إلا مـا كان مسجوعا متكلّفًا ، وحتى لكأنهم لم يقـرءوا تلك الكتابـة الرائعة السهلـة التى تأسِر بلاغتُهـا النفسَ فى جمال وإبداع ورصانة ، تلك كتابةُ الصدر الأول العباسى لأمثال ابن المُقَفّع والجاحظ وعمرو بن مَسْعَدَة وسهل بن هارون والصُّولى وغيرهم .

قوة النقاد وتأثيرهم ـ وقد يكون من سوء الطـالع أن نشأت طائفة من النُّقّاد فى هذا العصر لا يروق لها إلا هذه الرطانة ، ولا يهزُّ أعطافها إلاّ هذا الإسفاف . والنقاد فى كل عصر أصحابُ القـوة والصَّوْلة فى دولة الأدب ، وهم المسيطرون على فنونه وأساليبه وطُرُقه ، وهم المتحكمون فى رجاله . والأدبُ يسمو ويسقُط بسموّ هـؤلاء فى إدراك معنى الجمال أو سقوطهم ، والأدباء محكومـون حتما بهذه القوة الأدبية ، يتملقونها ويجارونها وينزلون على أحكامها . وقليلٌ من الأدبـاء من يكون لـه من قوّةِ نفسـه والاعتدادِ بمواهبه ما يدفعه إلى الثورة على حكم هذه القوّةِ الغشوم . ولا نعرِف من هـؤلاء فى هذا العصر إلا ابنَ خلدون، الذى نَعَى على كُـتّاب عصره شغفَهم بالبديع ، وأخذ عليهم إبعادَهم فى التكلف .

الألفاظ قبل المعانى : وقد يكـون من أسبـاب هذا الطغيان الصنـاعى قلّةٌ مـا لديهم مـن الأفكار والمعانى ، لأن مـدى اطّلاعهم كـان محدودًا ، ولأن دراسة العلـوم الكونية كـانـت مقصورة على طـائفة قليلـة ، فأرادوا أن يغطوا هـذا القصـور بستار من الـزخـرف الممقوت ، وبهذا أصبحت الألفـاظ عِمَاد الكتابة ومظهر جمالها الفنّى ، أمـا المعانى فتأتى تاليةً فى المرتبة ، فإذا أراد الكاتـب أن يكتب رسالة كان اتجاهُه إلى اختيار الألفاظ المزوّقة والأسجاع الرنّانة ، وكان على المعانى أن تخضعَ أولا لسيطرة الألفاظ ، ثم تكون بعد ذلك كما تكون . وفى هذا بلا شك مناهضةٌ لأصل الفِطرة ومعاندةٌ لطبائع الأشياء .

إنّ الكـلامَ لفى الفـؤاد وإنمـــا   جُعل اللســانُ عـلى الفـؤادِ دليـلا

شاهد من كتابة ابن عبد الظاهر - ولا نتركك من غير أن نسوق إليك شاهدًا تستطيع أن تدرك به ما قدمنا لك من سالف البيان.

من ذلك ما كتبه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، وهو من أعـلام الكتاب فى هذا العصر فى رسالة قال:

«حَرَس اللهُ نعمةَ مولاى ولا زال كَلِمُ السعد من اسمه وفعله وحرف قلمه يأتَلِف، ومنادى جوده لا يُرَخَّم وأحمدُ عيشه لا ينصرف، ولا عدم مستوصِلُ الرزق من يراعته التى لا تقف الوصلَ، ولا عدِمت نُحاة الجود من نـواله كلَّ موزون ومعـدود، ومن فضله وظلّه كلَّ مقصـور وممدود، وما خاطبت الأيامُ ملتَمسه إلا بلام التوكيد، ولا عدوَّه إلا بلام الجحود».

دخول الصناعة فى لغة التأليف: على أن بعض الكتاب وقـد ملكت عليه الصناعةُ زمـامَ نفسه لم يقصِرْ هذا النوع من الكتابـة على الرسائل الفنية، بل تعدّاه إلى التأليف، فهذا ابن حجّة الحموىّ فى كتابه خـزانة الأدب يُرينا فى مـواطن كثيرة كيف أفسدت عليه الصناعـةُ تأليفه، حتى إنك حين تقـرأ عباراته لتؤثـر أن تتركها إلى ماهو خير لك وأجدى عليك من التردِّى فى توريـة أو التدهور فى جناس. وهذا ابن عـرب شاه ألّف كتـابا كـاملا سَماه «عجائب المقدور فى أخبـار تيمور» كله سجع مـن النوع المرتبك المحشو بالبديع، حتى لقد أصبح فهمه أمرًا عسيرًا. وقصارى القول أن هذا الضرب من النثر كان حبيبـا إلى النفوس جميعًـا، فإنك تـراه فى رسائل الأدبـاء، وفتاوى الفقهاء، وإجازات الطلاّب وأحكام القضاة، وكلما أراد إنسان أن يتمسح بالأدب أو ينتسب إلى أهله. وإذا كان العصرُ كلُّه عصرَ صناعـة وتزويق فلِمَ لا يكـون النثر كذلـك؟ ولِمَ ينفرد الشعر بهذه الـزخارف دونـه؟ ولم لا يتسع فيه المجالُ للنفس المصريـة التى فُطِرت على اللعب بالكـلام؟ ولكنّ لكل شىء حدًا إذا تجاوزه فقد قـوتَه وسُلِبَ جمالَه.

على أن بعض النثّار مع التزامهم البديعَ كـانت لهم روحٌ خفيفة وفِطْرة سليمة تستر آثار التكلف، وتُصْلِح ما أفسدته الصناعة.

مقدرة الكتاب اللغوية: ولم يكن ينقُص الكتّاب فى هذا الأوان قوةٌ فى اللغة وتمكن من مفرداتها إلاّ أن لهم هفوات فى الاستعمال وصـور بعض الأساليب، وربما كـان شىء من ذلك قليلا فى رسـائلهم، ولكنه كثير فى مؤلفاتهم.

أشهر كتّاب هذا العصر

محيى الدين بن عبد الظاهر

هو الكاتب الشاعر عبدُ الله بن عبد الظاهر المصريُّ ولد سنة ٦٢٠ هـ وتوفى سنة ٦٩٢ هـ وكان من المتعصبين لطريقة القاضى الفاضل فى التزام السجع واتباع المحسنات البديعية، وبخاصة التوريةُ، وكان رئيسَ ديوان الإنشاء فى زمن الملك الظاهر بيبرس، فوضع كثيرًا من اصطلاحات الإنشاء ونُظُم الديوان، وبقِيَتْ نُظُمه واصطلاحاته معمولا بها فى مصر والشام إلى أن فتح العثمانيون مصر، وأصبحت مصرُ ولاية عثمانية. وله مؤلَّفات ورسائل سلطانية كثيرة، فمن مؤلفاته فى التاريخ «الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة» وقد استعان بها المقريزى فى تأليف خِططه، ومن رسائله ما كتبه على لسان الملك المنصور قلاوون يرد على صاحب اليمن عندما عَزّاه على موت ابنه ويظهر تجلده على فقده، وهى طويلة منها :

«ولنا - والشكرُ لله - صبرٌ جميل لا نأسَفُ معه على فائت ولا نأسَى على مفقود، وإذا علِم الله سبحانَه حسن الاستنابة إلى قضائه والاستكانة إلى عطائه عوّض كل يوم ما يقول المبشِّرُ به هذا مولى مولود، وليست الإبل بأغلظَ أكبادًا ممن له قلب لا يبالى بالصدمات كثرت أو قلّتْ، ولا بالتباريح حَقُرَتْ أو جلّتْ، ولا بالأزمات إن هى توالتْ أو تولّتْ».

وله جملة كافية من النثر فى كتاب المنتخب فارجع إليها.

شهاب الدين الحلبى

هو محمود بن سليمان ولد بدمَشق سنة ٦٤٤ هـ. وتوفى بها سنة ٧١٩ هـ. وتلقى العلم على علماء الشام وتخرّج فى علوم العربية على ابن مالك النحوىّ. وكان من نوابغ هذا العصر أدبا وكتابة وشعرًا،

ورحل إلى مصر واتصل بسلاطين المماليك، وولِيَ رياسة ديوان الإنشاء فى حكم الملك الناصر بن قلاوون. وله شعر كثير منثورٌ فى كتب الأدب.

ومن نثره فى وصف البلاغة : « البلاغة تسحَر الألبابَ حتى تُخَيِّل العَرَضَ جوهرًا، وتُحِيل الهواء المدْرَك بالسمع لانسجامه وعُذوبته فى الذوق نَهَرا، لكنّه سحر لم يَجْنِ قتلَ المسلم المُتَحَرِّز فيَتَأَوَّلَ فى حِلِّه، وإذا كان فى الحديث ما هو عُقْلَة للمُسْتَوفِز فهذا أنشوطة نشاطِ البليغِ وحَلُّ عِقال عقله ».

وقوله فى وصف الكتابة : « خَطُّهُ شَرَكُ العقول، وفتنةٌ تَشْغَلُ المطمئنَ بملاحَةَ المرئيِّ المكتوبِ عن فصاحة المَقُول، ولو لم يكن البيانُ سحرًا لما تجسَّدَتْ منه فى طِرسه هذه الدُّرَر، ولو لم يكن بعضُ السحر حلالاً لما انجلىَ ظلام النَّقْس عما يُهْتَدَى به من الأوضاح والغُرَر ».

ابن فضل الله العمرى

هو شهاب الدين أبو العباس أحمدُ بنُ يحيى بن فضل الله العمرى، من سُلالة عمر بن الخطاب، ولد بدمَشق سنة ٧٠٠ هـ وتُوُفى ٧٤٨ هـ، وارتحل إلى بلاد كثيرة فى طلب العلم فتلقّاه بدمَشق والإسكندرية والقاهرة والحجاز. وكان مشهورًا بالذكاء النادر، والحافظة القوية، وصار بعلمه فريدَ عصره، لا يساويه أحدٌ فى أدبه وترسُّله وتأليفه، وكان أعلمَ أهل القطرين بتاريخ الملوك والعلماء والأدباء وعلم وصف الأرض وأحوال الممالك النائية. وقد أودع ذلك كلَّه كتابَه «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار». وهو كتاب ضخم فى بضعة وعشرين مجلدًا، يبحث فى الأدب والتاريخ وتقويم البلدان والتاريخ الطبيعى وغيرها. ومن تأليفه «التعريف بالمصطلح الشريف» وهو مجموع رسائلَ فى فن إنشاء الدواوين وعلى نور مِشْكاته وضع القلقشندى كتابَه صبحَ الأعشى. ومن تآليفه كتاب فواضل السَّمَر فى فضائل آل عمر» وله مؤلفات كثيرة فى فنون مختلفة.

ومن رسائله ما كتبه على لسان سلطانه من آل قلاوون إلى نائب الشام مع طيور صَيْد جوارحَ أرسلها إليه :

«صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بسلام جميل الافتتاح، وثناء يطير إليه وكيف لا تطير قادِمة بجَنَاح؟ ونُعْلِمُه أن مكاتبته المتقدمة الورودِ تضمّنت التذكارَ من الجوارح بما بقى من رسمه، وجرت عادةُ صداقتنا الشريفة أن تُحْسَبَ فى قَسْمِه، وقد جهّزنا له الآنَ منها ثلاثةَ طيور لا يبعد عليها مَطَار، ولا يُوقد للقِرَى فى غير حماليقها جذوةُ نار، ولا تؤم طيرًا إلا وترشُّ الأرضَ بدمه فلا يَلْحَقُ لها بغبار، وهى طيور كم لها من فتك أخذ الطير من مأمنه، وسلب ما تحلّى به من رياش الريش ثم تزيًّا بأحسنِه».

القلقشـــندى

هو أبـو العباس شهـاب الدين أحمدُ بن على بـن أحمد القلقشندىّ المصرىّ. ولد بقلقشندة (قرية بجوار قليوب) فنسب إليها. وتلّقى العلمَ بالأزهر، واشتهر بين أقرانه بحدّة الذهن وسرعة الفهـم، وقد أحاط بكثير من علوم الأدب فى عصره، وبرَع فى الفقه والإنشاء وأيام العرب وأنسابها.

تـولى ديـوانَ الإنشاء بمصر فى عهـد المماليك سنـة ٧٩١ هــ. وله مـؤلفات كثيرة أشهـرها «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» وهو كتـاب ضخم جَمُّ الفائدة، يستفيد منـه كثيراً كلُّ من يُعْنَىَ بـدراسة تاريخ الأدب فى هذا العصر. ومن مؤلفاته «نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب» وكتاب «قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان» وقد ألَّفَ هـذا الكتابَ لأبى المعـالى محمد الجُهَنى البـارزىّ صاحبَ دواوين الإنشاء لفضله عليه، وذكر فيه قبائلَ العرب التى كانت فى عصره.

ومن إنشائه ما كتبه عن الملك الناصر فرج بن برقوق إلى صاحب فاس فى وصف موقعة وهو :

«وتحرّكْنا من الديار المصرية فى جيوش لا يأخذها حصر، ولا يلحَقُها هَصْر، ولا يُظَنُّ بها على كثرة الأعداد كسر. ولم نـزل نحُثُّ السير، ونُسْرِعِ الحركـةَ للقاء العـدو إسراعَ الطير، حتى وافينـا دِمَشْقَ المحروسةَ فنزلنا بظاهرها، مستمطرين النصرَ فى أوائل حركتنا وآخرها، وانضمّ إلينا من عساكر الشام وعُرْبانها وتُرْكُمانها الزائدةِ على العدّ ما لا ينقطع له مَدَد، ولا يدخل تحت حصر ولا عدد».

ومن قوله فى خطبة كتابه صبح الأعشى :

«وكانت الديار المصرية، والمملكة اليوسفية، أَعَزَّ الله تعالى حِماها، وضـاعَفَ عُلاَها، قد تَعَلَّقتْ من الثريا بأقْراطها، ورجَحَتْ سائرَ الأقـاليم بقيراطها، بَشَّرَ بفتحهـا الصادقُ الأمين فكـانتْ أعظمَ بُشرى، وأخبر سيدُ المرسلين أن لأهلها نسبًا وصِهرًا».

التأليف

كثرة المؤلفات

إذا كان لهذا العصر أن يزدهىَ بشىء من مظاهر الحياة الأدبية فإن التأليف أول ما يحق له أن يفخَر به، فقد كثُرت المؤلفات فيه كثرةً مدهشة، وانصبَّت العلماء فيه على التدوين انصبابًا صرفهم عن مشاغل الحياة وشئونها، وتوجهت نفوسهم إلى سدِّ كل حاجة دينية أو فنية أو كونية بمؤلف أو مؤلفات، وتنافسوا فى الإجادة، وتسابقوا فى كثرة الإنتاج، ووصل كثير منهم إلى مدَى الاجتهاد أو كاد، وتناولوا كلَّ شىء بأقلامهم حتى التافهَ الحقير من الشئون، وابتكر بعضهم مباحثَ وعلوما لم يكن للناس عهد بها، ولا غَرْوَ فقد كانت مصر والشام فى هذا العصر حافلتين بالمدارس ودور العلم، وكانت القاهرة والإسكندرية وقوص وغيرُها من البلاد المصرية، ثم دِمَشْق وحلب وغيرهما من البلاد الشامية، تموج بالعلماء والطلّاب مَوْجًا.

أسباب نهضة التأليف

وأكبر الظن أن كثرة التأليف والإنتاج فى هذا العصر ترجع إلى الأسباب الآتية :

١ ـ عندما سقطت بغداد وأحرق التتارُ كثيرًا من الكتب، ودمّروا كلَّ شىء تدميرًا، تملّك العلماء شعورٌ دينى دفعهم إلى العمل على إعادة ذلك التراث الذى عبثت به كوارثُ الغزو، وتجديد ذلك المجد الإسلامى الذى بُنى فى دهور، فأخذوا يبذُلون الجهدَ فى التأليف والتصنيف لإصلاح ما أفسدته الأيام، وإنشاء كتب جديدة فى اللغة والدين والأدب وغيرها.

٢ ـ كان لسلاطين المماليك ميلٌ إلى العلم والعلماء، وإغداقٌ دَفعهم إلى التأليف وحَفَزَهم إلى الإحسان فيه، وكان للسلاطين والأمراء والوزراء وَلوعٌ باقتناء الكتب النادرة، وإنشاء الخزانات الجامعة

لأنواع شتى من المؤلَّفات، حتى إن بعض الكتب كان يُؤلَّف خاصةً لهم ؛ وقد كانوا يختارون لخزائنهم خيرَ ما أنتجه المؤلفون، فدفع ذلك المؤلفين إلى الإجادة والتنافس. ولقد أظهر لنا ابنُ نباتة هذا الشعورَ جليّا حينما أمر السلطانُ حسن بوضع ديوان شعره فى خزانته إذ يقول :

أمَّرْت شعــرىَ يــاخيرَ الملــوك على أشعــارِ قــومٍ فلى أمــرٌ وديــوان

٣ ـ كان التنافسُ بين علماء مصر والشام بالغا حدَّه، وكان الاتصال بينهما على بعد الشقة مستمرا، وكان من العقائد الراسخة أن العالِمَ أو الأديب الذى لا يُبْرِز أثرًا لا يصح أن يُدْعَى عالما أو أديبا .

الابتكار والتقليد فيه

ويرى كثير ممن كتب فى هذا العصر أن التأليف فيه ليس به أثر للابتكار، وإنما هو جمع من أشتات الكتب، وتقليد لا أثر للاجتهاد فيه، وهذا قول صحيح سائغ فى كثير من الكتب، غير أن هناك كتبا تمتاز على كثير مما أُلِّف فيما سبق من العصور، وإلاّ فمن يستطيع أن يقول إن ابن خلدون فى مقدمته كان مقلدًا ؟ ومن يجرُؤ أن يدَّعىَ أن المقريزى فى خِططه لم يكن إلا نسَّاخا؟ ومن يظن أن ابن خلكان فى وفياته لم يكن محققا بعيد المدى؟ وهل يشك إنسان فى اجتهاد ابن مالك والشاطبىِّ وابن هشام المصرىِّ فى علوم اللغة؟ وهل لا يحق لهذا العصر أن يفخَر بمثل ابن منظور صاحب لسان العرب؟ ولو أردنا أن نحصى الكتب الجليلة الشأن فى هذا العصر لوجدنا عددًا غير قليل .

المتون والشروح والحواشى

هذا، وقد جرت عادة كثير من المؤلفين فى هذا العصر، وبخاصة مؤلفو العلوم العربية والدينية، أن يضعواموجزاً فى العلم يسمونه متنًا، ثم يفسِّرون مجمَله فى شىء من الإسهاب ويسمون هذا التفسير شرحا، وأشهر هذه المتـون فى النحو الألفية لابن مالك، وفى القراءات الشاطبيـةُ للشاطبىّ، وفى الفقه الحنفى متن الكنز للنَّسَفىّ، وقد جاء المتأخرون فوضعوا على هذه الشروح شروحا وتقييدات سميت بالحواشى .

وهذه النَّزعةُ ربما كانت سببًا فى خفاء مسائل العلم على المبتدئين فإن المتونَ كانت تُوضَع على نمَط من الإيجاز والإبعاد فى الاختصار يصعب فهمهُ .

ولماذا لا يـوضع العلم أولَ وَهلـة أمـام الطالـب فى أسلوب واضح مفهـوم سـائغ ؟ أمـا الحواشى فمتشعبة المباحث، كثيرة الاستطراد والانتقال من مسائل العلم إلى مسائل علوم أخرى .

وقد كتب ابن خلدون فى هذا العصر فصولا فى التعليم كـان أجدرَ بمعلمى الناشئين أن يتفهَّموها ويعملوا بها .

الكتب الجامعة

يمتاز هذا العصر بالكتب الجامعة. والذى مهّد لإبرازها شدة صبر العلماء وجَلَدِهم فى هذا العصر، وتعدّدُ نواحيهم العلمية. فكثيرًا ما كنت تجد بينهم من جمع بين الفقه والحديث والرياضيات والأدب والشعر والتاريخ. ثم إن نازعة الجمع والاختصار فى هذا الزمان كان لها شأن كبير فى إظهار هذه الكتب، وقد يكون ظهورها أثرًا للاعتداد بالنفس والثقة بها، وسبيلا إلى التباهى بعلوّ الكعب والإحاطة بكثير من الفنون والعلوم، أو إجابةً لرغبة سلطان، بعد أن علمنا ما كان لسلاطين هذه الدولة من الميل الشديد لنشر العلوم واقتناء الكتب.

أشهر مؤلفى الكتب الجامعة : وأشهر مؤلفى هذه الكتب شهابُ الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العُمَرىّ، وكتابه «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» سبق التعريفُ به. وشهابُ الدين أحمد بن على القلقشندى. وكتابه «صبح الأعشى». وقد ذكرنا عنه كلمة آنفا. ثم أبو العباس شهاب الدين أحمد النويْرىّ أحدُ رجال الملك الناصر بن قلاوون. واشتهر بكتابه «نهاية الأرب فى فنون الأدب». وهو كتاب ضخم يقع فى أكثر من ثلاثين مجلدا، وبه مباحث واسعة فى الفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعى والطب والسياسة والتاريخ والأدب. وبدار الكتب الملكية نسخة كاملة من هذا الكتاب. توفى سنة ٧٣٣ هـ.

كتب الدين والعربية

وأكثر مؤلفات هذا العصر فى الدين واللغة والعلوم العربية، ويمتاز التأليف فى علوم العربية بقوّته وسعَةِ مداه، وبروز التفكير فيه.

وأشهر المؤلفين فى علوم الدين.

(١) ابن تيمية

هو أحمد بن عبد الحليم، ولد بحَرّانَ سنة ٦٦١ هـ وقدِم مع والده وأهلِه إلى دِمَشْق وهو صغير، وقد خرجوا من حَرّان مهاجرين فِرارا من التتار، فساروا بالليل يحملون كتبهم وأثاثهم على عجلة لعدم وجود الدواب، فقدِموا دِمَشْق فى أثناء سنة ٦٦٧ هـ، ونشأ بها ابن تيمية نشأةً صالحة، فى أسرة ذاتِ تمسّك بالدين، وكان أبوه عالما فقيها جليل الصفات، فورث عنه كثيرًا من المواهب الخلقية والنفسية، ثم تلقى العلمَ على عدد جَمّ من جِلّة العلماء، وبرع فى علوم العربية والفقه الحنبلى، وأقبل على التفسير إقبالاً فحاز قصب السبق، وأحكم أصول الفقه وغيرَها من علوم الشريعة وهو ابن بِضْعَ عَشْرَةَ سنة، فبَهر علماءَ وقته بشدّة ذكائه وحدة ذهنه وقوة حافظته وسرعة إدراكه.

نشأ فى تصوف وعفاف وتزهّد واقتصاد فى الملبس والمآكل، مشغوفا بالعلم والدّرس، لا تكاد نفسُه

تشبع من العلم، أو تَرْوِى من الاطلاع، أو تكلُّ من البحث. وقلَّ أن يدخل فى مبحث من المباحث إلا استوعبه استقصاء واستنبط منه ما غاب من حُذَّاق العلماء.

وقام بوظائف التدريس وعمُرُه إحدى وعشرون سنـة، فطار صيته فى الآفاق، وانتهت إليه الإمامة فى العلم والزهد والـورع والشجاعة والكرم والتـواضع والحلم. كان شديدًا على المبتـدعين، حربا على جهل الأهواء، لا يخشَى فى الحق لـومةَ لائم، ولا يهاب الموتَ فى سبيله، حتى لقـد سُمِّىَ محيى السنة وآخرَ المجتهدين وهـو لم يتجاوز بعـدُ الثـلاثين من عمره. وقـد جَرّت عليه شـدتُه عـداوةَ كثير من معاصريه، وكان قوامُ مباحثه التوفيقَ بين المعقول والمنقول، وقد ألّف فى هذا الصدد كثيرا من الكتب، وكان المعروف أنّ العالمَ لا يُبرِّز إلا فى علم أو علمين، أما ابنُ تيمية فقد بلغ الغاية فى كثير من العلوم.

يقول بعض عارفيه: «كان إذا سئل فى فن من الفنون ظَنَّ السامعُ أنه لا يعرف غيرَ هذا الفن، ثم حكم أنّ أحدًا لا يعرفه مثلَه».

وقد أثار ما ناله من الشهرة كامنَ الحِقد فى نفوس حُسّاده، فأخذوا عليه كلامًا قاله فى أحد دروسه عدوه ابتداعًـا فى الدين، فجادلهم وجادلوه، واستعانوا عليـه بالسلطان، وسَعَوْا فى نقلـه إلى الديـار المصرية، فنُقِل وأودع السجنَ ثم أفرج عنه. ومازال أعداؤه يكيدون له حتى اعتُقِل مراتٍ، وكان آخرُ اعتقاله بمرسوم جاء من قِبَل السلطان سنة ٧٢٦ هـ بجعله فى قلعة دِمَشق، فأخليت له قاعة حسنة، وأقبل فى هذه المرة على العبـادة والتلاوة والتأليف، وكتب فى المسـائل التى حُبِس من أجلها مجلـداتٍ عِدَّة. فلما اشتهر ذلك مُنع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما عنده من الكتب، ولم يتركوا له دواة ولا ورقًا ولا قلمًا، فكتب بعـد ذلك بفحم على حيطان سجنـه يقول: «إنّ إخراجَ الكتب مـن عندى من أعظم النقم» ولم يعِشْ بعد ذلك طويلا، فمات فى العشرين من ذى القَعْدة سنة ٧٢٨ هـ. وقد ازدحم الناس فى جنازته ازدحامًـا شديدًا بين رجال ونساء، وبالغ المؤرخـون فى عدد من شيّعـوه فأوصلوه إلى مائتى ألف، وأخذ الناس يتنافسون فى التبرُّك بآثاره، ويظهرون ما خالط نفوسهم من الحزن على فقده.

وبلغت مصنفاته ثلثمائة مجلد، أكثرها فى التفسير والفقه والأصول والـرد على الفلاسفة والمبتدعة، وأشهر هـذه الكتب «مُنْتَقى الأخبار» و «فتاوى ابن تيمية» و «الإيـمان» و «الجمـع بين العـقل والنقـل» و «الواسطة بين الحق والخلق».

(٢) القسطلانى

هو أحمد بـن محمد بن أبى بكـر بن عبد الملك القَسْطـلانىّ القاهرىّ الشـافعىّ، ويلقب بشهاب الدين، ويُكْنَى بأبى العباس، من أشهر المحدِّثين والمؤرخين.

ولد فى الثانى والعشرين من ذى القَعْدة سنة ٨٥١ هـ بالقاهرة، وتعلّم بالأزهر، وحفظ كتبًا عدّة، منها الشاطبية، وتلقَّى العلم على جماعـة من كبـار العلماء، منهم الشيخ خـالد الأزهـرى والحافظ

السخاوى وشيخ الإسلام زكريا الأنصارى، فبرع فى العلوم الدينية ولا سيما الحديثُ والسيرة النبوية.

وألّف فى الحديث كتابَ «إرشاد السارى إلى شرح البخارى» وهو المشهور بشرحِ القسطلانى فى عشرة مجلدات. ومن مؤلفاته فى التاريخ «المواهب اللدنية فى المنح المحمدية» وهو كتاب جليل القدر ليس له نظير فى بابه، رتبه على عشرة مقاصد فى نسب النبى وولادته ورضاعه ومغازيه، وفيه فصول فى أسمائه وأولاده وأزواجه وأعمامه وخَدَمه ومعجزاته وخصائصه. وقد طُبع فى ثمانية أجزاء، وتُرْجِم إلى اللغة التركية، وله شرح على الشاطبية والبردة، وصنَّف «مسالك الحنفا فى الصلاة على المصطفى» وكتاب «لطائف الإشارات فى القراءات الأربع عشرة».

وكان يصحَب الشيخَ إبراهيم المتبولى، ويجلس للوعظ بالجامع العتيق. تُوُفى يومَ الخميس مُسْتَهَلّ المحرم سنة ٩٢٣ هـ، وتعذّر الخروجُ به إلى الصحراء ذلك اليوم، لأنه اليومُ الذى دخل فيه السلطان سليم مصر. ودُفن بمدرسة الإمام العَيْنِى بقرب الجامع الأزهر.

ومن أشهر المؤلفين فى علوم العربية:

(١) ابن هشام

هو جمال الدين عبد الله بن هِشام المصرىّ، الإمامُ المشهور، ولد سنة ٧٠٨ هـ كان من كبار العربية، وتخرَّج عليه خَلْق كثير، واشتهر بالتحقيق وسَعَة الاطلاع ووضوح البيان، والقدرةِ على تعليل الأحكام، وكان أديبًا عالما بأسرار الكلام العربىّ، ملأ صيتُه العالم الإسلامىّ. قال ابن خلدون فى مقدمته:

«ما زلنا ونحن بالمغرب نسمَع أنه ظهر بمصر عالمٌ بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه».

وله تصانيفُ فى النحو أشهرها «مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب» و «قَطْر الندَى وبلّ الصدَى» و «شذُور الذهب» توفى سنة ٧٦١ هـ، ودفن فى خارج باب النصر، ورثاه ابن نباتة بقوله:

سقى ابنَ هشام فى الثرَى نَوْءُ رحمة ... يجرُّ على مثواه ثوبَ غمام
سأروِى له فى سيرة المدح مُسْنَدًا ... فما زلتُ أروِى سيرةَ ابنِ هشام

(٢) ابن مالك

هو أبو عبد الله جمال الدين محمد، كان إمام النحاة وحافظَ اللغة فى عصره، ولد سنة ٦٠٠هـ، ونشأ بجَيّان، وهى بلدة بالأندلس، وتلقى العلمَ على شيوخها، ثم رحل فى طلب العلم إلى دِمَشْق، فأخذ عن جماعة من علمائها، وتصدَّر لتعليم العربية فى حلب، وبلغَ الغايةَ فى علوم العربية، وألَمَّ بأشعار العرب، وكان إمامًا فى القراءات، واسع الاطلاع فى الحديث، وأقام بدمَشْق مدة يصنِّف

ويدرِّس بالجامع والتربة العادلية، وقد حفِظ التاريخُ كتابا كتبه إلى الملك الظاهر بيبرس يطلب فيه بَسْطَةَ كفٍّ يستعين بها على مطالب الحياة وهو :

«الفقيرُ إلى رحمة ربه محمدُ بن مالك يقبِّل الأرض، ويُنْهى إلى السلطان أيَّد الله جنوده، وأبَّدَ سعوده، أنه أعْرَفُ أهل زمانه بعلوم القراءات والنحو واللغة وفنون الأدب، وأملُه أن يُعينَه نفوذُ من سيِّد السلاطين، ومُبيد الشياطين، خلّد الله مُلْكه، وجعل المشارق والمغارب مِلْكه، على ما هو بصدده من إفادة المستفيدين، وهداية المسترشدين، بصدقة تكفيه هَمَّ عياله، وتُعينه على التسبُّب فى صلاح حاله، فقد كان فى الدولة الناصرية عنايةٌ يتيسَّر بها الكفاية، مع أن هذه الدولَ من الدولة الظاهرية كجدول من البحر المحيط، والخلاصةِ من الوسيط والبسيط، وقد نفع الله بهذه الدولة الظاهرية خصوصًا وعمومًا، وكشف بها عن الناس أجمعين غمومًا، ولَمَّ بها من شَعَثِ الدين ما لم يكن ملموما، فمن العجائب كونُ المملوك عن خيراتها غائبًا محروما، مع أنه من ألزم المخلصين للدعاء بدوامها، وأقوم الموالين بمراعاة ذمامها، لا برحَت أنوارُها زاهرة، وسيوفُ أنصارها قاهرة ظاهرة، وأياديها مبذولةً موفورة، وأعاديها مخذولةً مقهورة، بمحمد وآله».

وله أكثرُ من ثلاثين مصنَّفا فى النحو والصرف والقراءات واللغة.

وأشهرُ مصنَّفاته «التسهيل» و «الكافية الشافية» و «الألفية»، وكان كريمَ الخُلق حَسَنَ السَّمْت كاملَ الوقار، توفى سنة ٦٧٢ هـ.

(٣) السيوطى

هو جلال الدين السيُّوطى من أعلام أخريات هذا العصر، الذين امتازوا بكثرة مناحيهم العلمية والأدبية، وبكثرة ما أبرزوه من المؤلفات. ولد بأسيوط سنة ٨٤٩ هـ، وينتهى نسبه من جهة أبيه إلى أصل فارسي، ويمتزج أصله بالدم التركيّ من قبَل أمه. مات والده وسنُّه خمس سنين وسبعة أشهر، وكان قد وصل فى حفظ القرآن إلى سورة التحريم، وأتم حفظَه قبل أن يبلُغ الثامنةَ، ثم أخذ فى تلقى العلم على خير أعلامه بالقاهرة، وانكبَّ على دراسة العلوم بأنواعها، حتى نبغ فيها، وأصبح مدرسًا تهرَع إليه الطلاب، ثم عُزِل من التدريس قبل موته بأربع سنين. وأربت مؤلفاته على الخمسمائة، وأكثرُ هذه رسائلُ صغيرة الحجم محدودة الموضوعات، وخيرُ مؤلَّفاته «الإتقان فى علوم القرآن» و «المزْهر» فى اللغة، «والأشباه والنظائر» فى النحو «وحسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة» فى التاريخ. وقد كتب ترجمةً لنفسه فى هذا الكتاب تَدُلُّ على كثير من الاعتداد بالنفس والصراحة، جاء فيها :

«ورُزقت التبحُّرَ فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة، والذى أعتقده أنّ الذى وصلتُ إليه من هذه العلوم سوى الفقه والنُّقُولَ التى اطّلعتُ عليها فيها، لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من

أشياخى، فضلا عمن هو دونهم، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه، بل شيخى فيه أوسعُ نظرًا وأطولُ باعا.

ودونَ هذه السبعةِ فى المعرفة أصولُ الفقه والجدلُ والتصريفُ، ودونها الإنشاء والتَّرسلُ والفرائضُ، ودونها القراءاتُ، ولم آخذها عن شيخ، ودونها الطبُّ، وأما علمُ الحساب فهو أعسرُ شىء علىّ، وأبعده عن ذهنى، وإذا نظرت فيه مسألةً تتعلق به، فكأنما أحاول جبلاً أحمِله.

وقد كَمَلتْ عندى الآن آلاتُ الاجتهاد بحمد الله تعالى، أقول تحدثًا بنعمة الله تعالى لا لأفخَرَ، وأىُّ شىء فى الدنيا حتى يُطْلَبَ تحصيلُه بالفخر، وقد أزِف الرحيل، وبدا المشيب، وذهب أطيبُ العمر؟

ولو شئتُ أن أكتبَ فى كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية، ومداركها ونقوضها، وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها، لقدَرْت على ذلك من فضل الله، لا بحولى ولا قوتى».
توفى سنة ٩١١ هـ.

(٤) ابن منظور

هو جمال الدين بن مُكَرَّم الإفريقىّ، ولد سنة ٦٣٠ هـ، واشتغل باللغة وعلومِها وتاريخها، وخدم بديوان الإنشاء بمصر، وألف مئاتٍ من المجلدات، أشهرُها «لسان العرب» وهو معجمٌ واسع، وموسوعة جامعةٌ فى اللغة والتفسير والحديث والأدب، جمع فيه بين تهذيب الأزهرى، ومعجم ابن سيده، والصحاح، وجَمْهَرة ابن دُرَيْد، ونهاية ابن الأثير، طبع فى مصر سنة ١٣٠٠ هـ فى عشرين مجلدًا. وكان ابن مكرَّم مشغوفًا باختصار الكتب، فاختصر مفردات ابن البَيْطَار، وتاريخ دمشق لابن عساكر، وتاريخ بغداد للسَّمانى، وكان إلى نواحيه العلمية شاعرًا مُقلاً فمن قوله:

بالله إن جُزْت بولدى الأراكْ ... وقَبَّلَتْ أغصانَه الخُضْرُ فاكْ
ابعثْ إلى المملوك من بعضِه ... فإننى والله مالى سِواكْ

توفى سنة ٧١١ هـ.

(٥) الفيروزآبادى

هو مجد الدين محمد الفيروزآبادى، ولد بالقرب من شيزار سنة ٧٢٩ هـ، وكان قوىّ الحفظ متمكنا فى اللغة والحديث والتفسير، وتبلغ مصنفاتُه نحو الأربعين أو تزيد، أشهرها «القاموس المحيط» وهو مختصَرُ كتاب ألفه سمّاه «اللامع المُعْلَم العُجاب الجامعَ بين المحكَم والعُباب»، والقاموسُ على كثرة تداوله غايةٌ فى الإيجاز إلى الغموض أحيانًا، لذا شرحه بعض علماء العربية كالقرافى والزَّبيدى ويمتاز القاموسُ بضبط الأعلام.

توفى سنة ٨١٧ هـ.

كـتب التـاريـخ

كثرة كتب التاريخ والتراجم: ويمتاز هذا العصر بكثرة ما أُلّف فيه من كتب التاريخ، بين موجَزَة ومطوَّلة، وربما كان الدافعُ إلى ذلك دينيًا قوميًا وفقده كثير من كتب التاريخ عند سقوط بغداد، وتغلُّب الفرنجة على بعض بلاد الأندلس، وربما كان لميل سلاطين المماليك إلى تدوين الوقائع وسِيَر الرجال شأنٌ فى كثرة ما ظهر من كتب التاريخ.

وكثُرتْ فى هذا العهد المعجمات التاريخية، التى جُمِعتْ فيها التراجم من أشتات الكتب، أو اعتُمِدَ فيها على الرواية أو المعاصرة ورُتّبت على حروف المعجم.

وظهر فى هذا العصر أيضًا الاهتمام بكتابة سيَر السلاطين والأمراء والوزراء، كما شاع أن يكتبَ العلماء ترجمةَ حياتهم بأنفسهم، وأولُ مَن نعلم ممن كتبوا ترجمةَ حياتهم بأنفسهم فى إسهاب وتفصيل وبيان للحوادث، أسامة ابن مُنقِذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ. قال السيوطى فى حسن المحاضرة عندما شرع فى كتابة ترجمة حياته :

«وإنما ذكرتُ ترجمتى فى هذا الكتاب اقتداءً بالمُحَدِّثين فقلَّ أن ألَّفَ واحدٌ منهم تاريخًا إلاّ ذكر ترجمتَه فيه، وممن وقع له ذلك الأمامُ عبد الغافر الفارسىّ فى تاريخ نيسابور، وياقوتٌ الحموى (توفى سنة ٦٢٦ هـ) فى مُعْجم الأدباء، ولسانُ الدين بن الخطيب (توفى سنة ٧٧٦ هـ) فى تاريخ غرناطة، والحافظُ تقىّ الدين الفارسىّ فى تاريخ مكة، والحافظ ابن حجر (توفى سنة ٨٥٢ هـ) فى قضاة مصر، وأبو شامة (توفى سنة ٦٦٥ هـ) فى الروضتين».

وظهر فى هذا العصر علمُ فلسفة التاريخ بظهور ابن خلدون، وسنتكلم فى ذلك عند ذكر ترجمته.

وجرَى مؤرخو هذا العصر كما جرَى سَلَفُهم على مَزْج التاريخ بالأدب، وهذا وإن كان عيبًا فنيًا فى التأليف، كان له فضل مذكور على مؤرخى الأدب فى أيامنا هذه، فلولا هذه النزعة فى المؤرخين لفقدنا كثيرًا من الحقائق الأدبية فى هذه العصور.

وقد عُنِىَ أكثرُ مؤرخى هذا العصر بالدّقة جُهْدَ المستطاع وتحرى الصواب، ومما يؤخذ عليهم، وهذا عيب لم ينفردوا به، تحكيمُ الوجدان والمبالغةُ فى المديح والإطراء أو التحقير والازدراء.

وقد ترى فى بعض هذه الكتب أخبارًا لا يقبلها العقل السليم، ينقلونها على علاَّتها من غير نقد أو تمحيص، وقد أخذ ابن خلدون على المؤرخين فى مقدمته مآخذ من هذا النوع.

وأغفل أكثر المؤرخين تحليلَ الحوادث وبيانَ عللها وأسبابها، واستنباط ما نشأ عنها من النتائج، كما أهملوا جانبًا عظيمَ الشأن فى كتب تراجمهم، وهو نشأةُ العظماء الأولى، ووصفُ بيئتهم التى درجوا منها، وما كان لها من الأثر فى تكوين بطولتهم.

كما تركوا وصف الحياة الاجتماعية والمنزلية، ولم يتجردوا لتفصيل عادات الناس وأحوالهم المعيشية.

وأشهر المؤرخين فى هذا العصر :

(١) ابن خلكان

هو شمس الدين أبو العباس أحمدُ بن خِلِّكَان، ولد سنة ٦٠٨ هـ. فى إِرْبِل ونشأ من أُسرة عريقة المجد تنتمى إلى البرامكة، وكان أبوه مدرسًا بالمدرسة المُظَفَّرِيَّة بإربل، فأخذ عليه مبادئ العلم، ثم رحل فى طلب العلم إلى حلب ودمشق، وفى سنة ٦٣٣ هـ. ولاّه الظاهرُ بيبرس قضاءَ الشام، ثم عزله عنها، فرحل ابن خلكان إلى القاهرة، وعُيِّن هناك مدرسًا بالمدرسة الفخرية، وفى أثناء إقامته بالقاهرة أتمّ القسم الأول من معجمه التاريخى، ثم عاد إلى منصبه بالشام بعد سبع سنين من خلعه، فوفَد عليه الشعراء يهنئونه. ومن ذلك قول سعد الدين الفارقى :

أذقتَ الشامَ سَبْعَ سنين جَدْبًا   غداة هجرتَه هجرًا جميلا
فلما زرتَه من أرض مصرٍ   مددتَ عليه من كفَّيْكَ نيلا

ولم يُقِم ابن خلكان فى منصبه هذا إلا فترةً قليلة، لأنه اتُّهِم بمعاضدة نائب دمَشْق على الخروج على السلطان فعُزِل، وعاش بقية حياته مدرّسًا بالمدرسة الأمينيّة وكانت وفاته سنة ٦٨١ هـ.

واشتهر بكتابة « وَفَيَات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » وهو معجَم تاريخىّ لم يذكر فيه من تراجم الصحابة والتابعين إلا طائفةً قليلة، ولم يترجم فيه للخلفاء، وإنما قصره على تراجم العلماء والملوك والأمراء والوزراء وكل من له شهرة بين الناس. وقد بذل عناية فائقة فى تحقيق نسب كل واحد، وتحرّى سنة ولادته ووفاته وضبط الأعلام ضبطًا دقيقًا.

والكتابُ مظهَرٌ من مظاهر العناية والتدقيق العلمى. وقد امتاز بتحرى الصحة والابتعاد عن كثير من الخرافات والفحش، وليس بين كتب التاريخ فى هذا العصر ما يضاهيه فى شرف منزلته وعظم فائدته، وقد نال شهرةً فى الشرق والغرب، وهو سهل العبارة، جَلِيُّ الأسلوب، بلغ الغاية فى الدقة والتمحيص، وبين تضاعيفه مباحثُ جليلة الشأن فى التاريخ والأدب.

والاهتمام بكتابة التراجم وجد قبل هذا العصر بزمن طويل، فقد جمع الخطيبُ صاحب تاريخ بغداد، وابنُ عساكر صاحب تاريخ دمشق آلافا من التراجم لمشهورى الرجال فى كل ناحية من نواحى العلم والأدب والصناعة. وقد ترجم « وفيات الأعيان » إلى الفارسية سنة ٨٩٥ هـ، وترجمه دِى سِلان إلى الإنجليزية، ونشرَ فى لَندن فى أربعة مجلّدات سنة ١٨٤٢ ـ سنة ١٨٧١ م، وأشهر ذيل له « فَوَات الوفيات » لمحمد بن شاركر الكتبىّ.

(٢) ابن خلدون

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خَلدون، ويتصل نسبه بوائل من عرب اليمن، رحَل خلدون جده التاسع إلى الأندلس فى القرن الثالث الهجرى، وسكن إشْبِيلِية، ولما تغلّب الأسبانيون عليها انتقل بأسرته إلى تونس، وبها ولد ابن خلدون سنة ٧٣٢ هـ، ونشأ فى بيت اشتهر بالعلم والأدب

والمروءة، فتعلم وتأدّب على أبيه وكبار رجال المغرب، وأتقن العلوم المعروفة فى عصره حتى صار فريدَ زمانه.

وقد رغِب من صغره فى خدمة الملوك، فولِىَ الكتابة لبعض ملوك الدولة الحَفْصِية بتُونس، ثم لملوك بنى الأحمر بالأندلس، ثم ارتقى منصب الوزارة عند حاكم بِجَايَة بالمغرب الأوسط، ولما ظهر نبوغه كثُر حسَّاده فسعوْا به إلى الحاكم، فتخلّى عن خدمة السلاطين، وانقطع للتأليف أربعة أعوام أقام فيها بين قبائل العرب على حدود الصحراء. وألف فى أثنائها تاريخَهُ ومقدمتَه المشهورة، ثم وفَد على مصر سنة ٧٨٤ هـ فى زمن السلطان برقوق، ودرّس بالأزهر، وولاه السلطانُ قضاءَ ولاية، فاستقدم أسرتَه من تُونُس فغرقوا جميعًا فى أثناء الطريق، فحزِن عليهم حزنًا شديدًا منعه من القيام بأعباء منصِب القضاء، فاستعفى وسافر إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، ثم عاد إلى القاهرة، واعتزل فى ضَيْعة له بالفيوم، ثم عاد ثانية إلى القضاء ثم استعفى، وهكذا إلى أن تولّى القضاء ستّ مرات. وقد أسَرَه تيمورلنك فى بعض غزواته بالشام، فنال ابن خلدون منزلة عنده، ثم طلب إليه أن يسمح له بالذهاب إلى مصر ليُحْضر مؤلَّفه فى التاريخ، فذهب إليها ولم يعد.

ويُعَدّ ابن خلدون أولَ من استنبط فلسفَةَ التاريخ، وقد فصَّلها فى مقدمة تاريخه، وأقام الأدلّة على صحة استنباطه بالحوادث التاريخية الصحيحة، وتاريخُه يسمى «العبَر وديوان المبتدأ والخبر» وهو فى سبعة مجلدات اشتهر ابن خلدون بمجلّد واحد منها، هو مقدمة هذا التاريخ، التى تعد مَفْخَرة فى عالَمِ التأليف العربىّ، لأنها أول بحث جامع فى علوم الاجتماع والسياسة وفلسفة التاريخ، وقد بحث فيها فى أحوال العمران وأسبابه، وفى منشأ الدول وأسباب رقيها وانحطاطها، ثم فى آلات الكسب من تجارة وصناعة وزراعة، وما يعتريها من تقدم أو تدهور، ثم فى العلوم وأنواعها، والكتب ومعايبها، وطرائق التعليم وكيف تكون، كلُّ ذلك فى أسلوب سهل شائق دقيق، واستنباط منطقىّ صحيح.

ويمتاز تاريخ ابن خلدون عما تقدمه من كتب التاريخ بما تضمّنه من المقدمات الفلسفية فى صدر أكثر الفصول عند الانتقال من دولة إلى دولة، وهو أوسع تاريخ للبربر ودولهم ولعرب الجاهلية، ويدلُّنا هذا الكتاب على اتصاف ابن خلدون بالصراحة فى القول، والسداد فى الرأى، والإنصاف فى الحكم.

وقد ساد فى عصر ابن خلدون التزامُ السجع فى الكتابة والمغالاةُ فى المحسنات البديعية فخالف ذلك، ورجَع بالإنشاء إلى عهده الأول، فرغِب عن السجع وزهِد فى البديع، وجعل اللفظ خادمًا للمعنى. وقد أشار إلى ذلك فقال :

« وكان أكثرها (الرسائل) يَصْدُر عنّى بالكلام المرسل بدون أن يشاركنى أحد ممن ينتحل الكتابة بالأسجاع، لضعف انتحالها وخفاء المعانى فيها على أكثر الناس، بخلاف المرسل فانفردت به يومئذ، وكان مستغربًا عند من هم أهل هذه الصناعة، ثم أخذت نفسى بالشعر، فانثالت علىّ منه بحور

توسطتْ بين الإجادة والقصور » .

فأنتَ ترى أنه ترك السجعَ ومال إلى الكتابة المرسَلَة جريا على الفطرة والسليقة ، وترى أنه حكم على شعره بأنه وسط بين الجودة والتقصير، ومن شعره قوله :

أبى الطيفُ أن يعتـاد إلا تـوهُّما ... فَمَن لى بأن ألقَى الخيـالَ المُسَلِّما
وإنى ليـدعـونى السُّلُـوُّ تعَلُّـلاً ... وتنهـانىَ الأشجـانُ أن أتقـدَّمـا
وذو الشـوق يعتـاد الـربـوع دوارسًـا ... ويعـرِف آثـار الديـارِ تَوَهُّمـا

توفى سنة ٨٠٨ هـ .

(٣) المقـريـزى

هـو أبو العباس تقىُّ الدين بنُ عَـلاَء الدين الحسينىّ ، أصلـه من بعلبك ، ونسب إلى حارة فيهـا تعرف بحارة المقارزة ، وكان جده من كبار المحَدِّثين ببعلبك ، وانتقـل أبوه إلى القاهرة فولد له فيها تقى الدين سنـة ٧٦٦ هـ ، فنشأ فى تلقى العلم ودراسة الحديـث على جده لأمه شمس الـدين بن الصائغ وغيره ، وسمع الحديثَ فى مكة من كثيرين ، وكان حنفىَ المذهب فى أول أمره ، فلما بلغ العشرين تحوّل إلى مذهب الشافعى .

ولما ظهر فضلُه وعلمه وأدبـه تقلد كثيرًا من المناصب الدينية والسياسية ؛ كالخطـابة بجامع عمرو والسلطان حسن ، والإمامة بجامع الحاكم ، وقراءة الحديث بالمؤيَّدية ، وتولَّى النيـابة فى الحكم وكتابة التوقيع والحِسْبة ، ورحل إلى مكة والشام ، وتقلّد مناصبَ بدمَشْق ، واتصل بالظاهر برقوق ، وصَحِب يَشْبَكَ الدُّويـدار وأصاب منه ثـروة وجاها ، ثم أقـام بالقاهـرة واشتغل بالتأليف فى التاريخ . ولـه فيه مؤلّفات جليلة هى مرجع الباحثين عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية فى ذلك العصر.

ومن أشهر مؤلفاته « المواعظُ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » وهو كتاب جامع جمُّ الفائدة ، جعل فيه وصف الخطط والمبـانى والبلاد المصرية ذريعةً إلى الإفـاضة فى تاريخهـا وتاريخ مؤسسيها ومـا توالَى عليها من حـوادث ، وله فى أثناء ذلك بحـوث اجتماعية تدل على تفكير بعيد المدَى ، وبـالكتاب كثير من التراجم والمباحث التى لا توجد فى سواه ، ولكثرة فوائده تُرْجِم إلى لغات عدَّة ، ونَسَج على منواله على مبارك باشا فى كتابه المعروف بالخطط التوفيقية .

ثم كتابه المسمَّى « السلوك لمعرفة دول الملـوك » وهو يشتمل على تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ هـ إلى سنة ٨٤٤ هـ ، ومن مؤلفاته « الدرر المضيئة فى تاريخ الدولة الإسلامية » يبتدئ من مقتَل عثمانَ رضى الله عنه ، وينتهى بالمستعصم آخر الخلفاء العباسيين ببغداد ، وكانت وفاة المقريزى سنة ٨٤٥هـ

كتب تقـويـم البـلـدان والرحـلات

الدمشقى - أبو الفداء

وقد نما فى هذا العصر علم تقويم البلدان، وألف فيه العددُ الجمُّ من العلماء، وهؤلاء منهم النظريون الذين نقلوا ما كتبوه من الكتب أو تَلَقَّوْه من الرواة ونَقَلَة الأخبار، كالدمَشْقى المتوفىَ سنة ٧٢٧ هـ، له كتاب يسمى « نخبة الدهر » فى عجائب البر والبحر» طبع بأوربا. وكأبى الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ فإن له كتابًا جليل الشأن يدعَى « تقويم البلدان » اهتمَّ به الفرَنْجة كثيرًا.

ابن ماجد النجدى - ومنهم المؤلفون عن مشاهدة وخبرة كابن ماجد النجدىّ، وهو ملاح عربى له منظومات موجزة فى فن البحر وهداية الملاحين فى المحيط الهندى، وقد كتب بجانب هذه المنظومات كتابًا فى سنة ١٤٨٩ م يشتمل على مبادئ الملاحة بعضُه منظوم وبعضُه منثور، ولم تظهر هذه المؤلفات فى أوْربا إلا من عهد قريب. وكان ابن ماجد بارعًا فى علمه وقد ورث هذه البراعة عن أبيه، ويقال إنّ ابن ماجد هذا هو الذى أرشد فَاسْكُو دى جاما إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذى يصل به المسافر حول إفريقية إلى شواطئ الهند.

ابن بطوطة

وأشهر مؤلفى الرحَلاَت فى هذا العصر أبو عبد الله محمد اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة، ولد بطَنْجَة، وخرج من بلده سنة ٧٢٥ هـ للحج، فبدأ بالحرمين فالشام فالعراق ففارس فما بين النهرين فآسيا الصغرى فجنوب روسيا والإستانة فآسيا الصغرى فبخارَى فأفغانستان إلى دهِلْى، ثم رحَل إلى سيلان والصين، وعاد إلى بلده سنة ٧٥٠ هـ. ورحل فى السنة التالية إلى غَرناطة ثم إلى السودان، وتوفى بَمرّاكُش سنة ٧٧٩ هـ. وقد دَوَّنَ كل هذه الأسفارِ فى رحلة سمّاها «تحفةَ النُّظار فى غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار» وقد طبعت بمصر وأوربا.

وقد فاق ابن بطوطة كل رحالة قبله ولا يغضُّ من شأن كتابه أنه اشتمل على بعض الأغلاط خصوصًا بعد أن نعلم أن مذكّراته التى دوَّنها فى أثناء الرحلة فقدت حينما دهَم السفينة التى كان بها لصوصُ البحر فى المحيط الهندى، وأنه اعتمد على ذاكرته فى قصِّ رحلته، لذا يبقى كتابه مرجعًا صحيحًا لوثف الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية فى البلاد التى زارها، وهفوتُه فى الحقيقة هفواتُ أهل عصره، وأغلبها تنشئ من تأثير البيئة وسرعة الميل إلى التصديق لكل ما يقال ويشاع.

وبالكتاب ناحية أدبية أجليلة الشأن، فقد أضاف إليه ابن جُزَىّ أبياتًا شعرية إثيرة استشهد بها فى مواطن عدّة، واقتباساتٍ رائعةً من ابن جُبَيْره وغيره، إضافات من عند نفسه، ولكنّ الكتاب يبقى بعد هذا قصةً سهلة مليئة بالحوادث والعجائب والفكاهات، من غير تكلف فى الأسلوبد، تُرسلُ على أخلاق أهل هذا العصر وعاداتهم.

كتب الأدب

ضعف التأليف فى الأدب : كـان التأليف فى الأدب ضعيفًا خـائرًا، وجمعًا غير مـوفّق من كتب الأولين، وممن اشتهر بالكتابة فيه فى هذا العصر:

الوطواط : جمالُ الدين الـوَطْواط المتـوفى ٧١٨هـ ، واشتهر بـرسائلة وبكتـابه « غُـرَر الخصائص الواضحة وغرَر النقائص الفاضحة» .

البهاء الدمشقى: وعـلاء الدين البهـاء الدمشقى ولـه كتـاب يدعَى « مطـالع البدور فى منـازل السرور» وهو خزانة شعر وأدب ، طبع بمصر.

الإبشيهى : والإبشِيهىُّ واشتهر بكتابه « المستطرَف فى كل فلن مستظرَف» .

النوّاجى : وشمسُ الدين النَّواجِىُّ القاهرىّ المتوفى سنة ٨٥٩هـ، وأشهر كتبه « حَلْبَةُ الْكُمَيْت» .

ابن حبيب الحلبى: وابنُ حبيب الحلبىُّ وكان أديبا مؤرخـا ، أشهر كتبه فى الأدب « نسيم الصَّبا» توفى سنة ٧٧٩هـ .

ابن حجة الحموىّ : وابنُ خجَّة الحَمَوِىُّ، وكان رئيس أدباء عصره، مولَعًا بالبديع ، وخير ُكتبه كتاب « خزانة الأدب واغاية الأرَب» شرح فيه بديعيته ، و هو خير كتاب لطالب تاريخ الأدب فى عصر المماليك ، لأنه أكثر فيه من الاستشهاد بشعراء عصره وصوَّر الحخيـاة الأدبية تصويرًا صادقًا . توفى سنة ٨٣٧هـ .

كتـب العـلوم العقـليـة

ابن النفيس : وكان التـأليف فى العلوم العقليـة والريـاضية قليـلا بالإضـافة إلى غيرهـا ، وأشهر المؤلفين فى الطبّ عَلاءِ الـدين بن النفيس ، شيخُ الطب بالـديار المصرية . تـوفى سنة ٦٨٧هـــ . وله كتاب «المختار من الأغذية» .

ابن الشاطر : ولابن الشاطر المتوفَّى سنـة ٧٧٧هـ مؤلفات فى الجغرافية والـرياضيات بدار الكتب الملكية .

ابن الهائم : ولشهـاب الدين بن الهاشـم الفَرضِىّ المتـوفى سنـة ٨١٥هـ كتـاب يـدعى « مرشـد الطالب» فى الحساب .

الدميرى : وأشهر المؤلفين فى علم الحيـوان كمال الدين الدَّمِيرِى المتوفَّى سنة ٨٠٨هـــ، له معجم مرلى حروف الهجاء ، للحياة الحيوان وطبائعه .

كتـب القصــص

ألف ليلة وليلة: وظهر فى هـذا العصر فى صورة نهائية كاملـة كتاب ألف ليلة وليلة، وقـد نال هذا الكتاب شهرة عـالمية، وفتَن كثيرًا من القراء، واجتذب بقوة تأثيره وروعـة خياله الأذن الأوربية، وربما كان هو الذى أوحى إلى بعض كتاب الأقاصيـص فى الغرب المشهورين بالإغراق فى الخيال بكثير من الصور الخياليـة الرائعة، وليس بعجيب أن يُغْرم أهل الغرب بهذا الكتاب لأنـه يجرى فى أقاصيصه على سَنن شـائق جذاب، وأكثـرُ ما تظهـر فيه المهـارة فى حَبْك القصة، وخَلْقِ المواقف المُعَقَّـدة التى تضيع وجوه الحيلة فى حلها، ثم العمل على الخروج من هذه المآزق فى لطف وحسن تصرف فنّى، هذا إلى إبداعٍ فى الـوصف وإبعاد فى الخيـال. وهو وإن وُضع فى أول أمره للتسليـة والترويح عن النفس لا يخلو من حكمة تساق إليك، وموعظة تصل إلى قَرارة نفسك، ودراسةٍ عامة لأحوال الحياة.

والفرق بين حكـايات ألف ليلة وليلـة والروايات الأوربيـة أن الكاتبَ فى الأولى كان كثير المبـالغة والإغراق، وأنـه اهتم بالأحـوال الظاهـرة وقَصَر وصفَه على المحسـوس المشاهـد. ولم يعمد إلى تحليل النفوس، ولم يتغلغل إلى أسرار الطبائع، ولم يُعنَ عنـايةً مقصودة بدراسة الأخـلاق، بخلاف الكاتب الأوربى فإن الدراسة النفسية أساسُ قصتـه وعمادها فى أغلب الأحوال، وهو يسير فى قصته على سَنَن واضح من الطبيعة من غير إسراف. ومصدرُ هذا الكتاب لا يزال محاطًا بالشكوك، والأقربُ إلى الحق أنه من أصل فارسىّ قديم، وأن منشـأه كتاب هَزَار أَفْسانَه (ألف حكاية) وبـه كثير من حكايات هذا الكتاب، وقـد أضيف إلى الأصل الفـارسىّ نوادرُ كـانت منثورة فى كتب الأدب، وحكـاياتٌ جـديدة كانت توضع على مـر الأيام، فالكتاب إذًا لم يوضع فى عصر واحد، ولم يصنفـه مؤلف واحد. أول من ترجم هذا الكتاب لأوربا جالَنْدا (١٧٠٤ ـ ١٧١٧ م).

قصص أخرى: ومن الأقاصيص التى انتشرت فى هذا العصر، والتى يغلب على الظن أنها نبتت مع الحروب الصليبيـة، سيرة عنترة بن شـداد وسيف بـن ذى يَـزَن، ثم قصـةُ الظـاهـر بيبرس، وهى تتضمن حروبَه مع الصليبيين، وقصة أبى زيد الهلالىّ وغيرها.

وهذه الأقاصيصُ لا تـزال تُقرأ فى مشارب القهوة، وقد فقدت الآن مـالها من روعة بسبب النهضة الفكرية العامة، وانصراف جمهرة الناس إلى قراءة القصص الحديثة وافتتانهم بها.

خيال الظل: وفى القرن السابع الهجرى ظهر خَيَال الظل وألفَ فيه ابن دَنِيَال المتوَفى سنة ٧١٠هـ كتابًا فـريدًا سماه «طيْفَ الخيال» وصف فيه لُعْبَةَ خيـال الظل، وبالخزانة التيمورية نسخـة منه، وهو كالرواية الهزلية يشتمل على مجون كثير.

وقد كان ظهور خيال الظل بدايةً صالحة للتدرج إلى القصص التمثيلية، ولكنه لم ينهض ولم يَدْرُج ولم يتقدم خُطوة إلى الأمام، وبقيت العربية عاطلاً من الأدب التمثيلىّ حتى ظهر فى العصر الحديث.

٣- العصر العثمانى

هذا هو العصر المظلم حقًا الذى أطفأتْ فيه العواصفُ مصابيح العلم والأدب، وتركتْ مصرَ الزاهيةَ الزاهرة فى ظلام حالك، وليل من الأحداث دامس؛ تلفتت فيه مصرُ فوجدتْ يدها صِفْرا من كل شىء، بعد أن كانت حاضرة الإسلام، وملجأ الأمم المظلومة، ومباءةَ العلماء والمتعلمين من أقطار الشرق والغرب، وبعد أن كانت مدارسُها وجوامعها حتى بعد ما أصابها من الكوارث فى أخريات عهد المماليك حافلةً بحلَقات العلم والأدب. وليس من شأننا أن نتعرض لحال مصر بعد الفتح إلا بقدر ما ينفع طالبَ الأدب فى الدرس والاستنباط، فإن من بدائه العقول أنّ للعلوم والفنون اتصالا وثيقًا بأحوال الأمم السياسيةِ والاجتماعية، وأنها لا تنمو إلا حيث تبسُط السكينةُ جناحها، وينشُر السلامُ أعلامَه.

الفتح العثمانى

هُزِم السلطان الغورى أمام جيش العثمانيين فى موقعه مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ، وأسلمه جُنده فحاول الفرار، وهو شيخ فانٍ فى الخامسة والسبعين، فسقط عن جواده وتخطّفته سنابك الخيل، فلم يُعثر له على أثر، وحاول طومان باى بعده صد غاراتِ العثمانيين، وكان بطلاً صادقَ العزم، فهُزِم فى أربع وقائع، وبعد شدة وبأس التجأ بمديرية البحيرة إلى شخص كان يثق بنجدته، وعاهده على المصحف ألا يغدِر به، ولكنه لم يلبَث عنده طويلا حتى وَشَى به إلى السلطان، فحُملَ مُصَفَّدًا إلى القاهرة، وشُنق عند باب زوِيلَة.

آثار الفتح

أما ما أصاب مصر من الفتح العثمانى فإنا نتركه إلى مؤرخى ذلك العصر، وبخاصة من كتب عن مشاهدة وعِيان، كابن إياس، فإن فى تاريخه صورة واضحة لحال مصر فى هذا الزمان، نصرف وجوهنا عن هذه الصورة، ونتجه إلى ما أصاب العلومَ والفنون، فنرى أن العثمانيين نقلوا أكثر الكتب التى كانت بخزائن المدارس إلى القسطنطينية، فحُرِمتْ مصرُ أغلى كنوزها، ثم نقلوا كثيرًا من العلماء والأدباء والأمراء والمهندسين والوَرّاقين وأرباب الصناعات إلى بلادهم، وقد ذكر ابن إياس أسماء كثير من هؤلاء، وقال إنهم قد يبلغون الثمانمائة والألف، وغرقت بعض السفن التى كانت تحملهم فمات كثير منهم، وكان من نتائج الفتح أيضًا أن انتقلت الخلافة من مصر إلى القسطنطينية بإرسال أمير المؤمنين المتوكل على الله وأولاد عمه إلى قاعدة العثمانيين، فأصبحت مصر ولاية عثمانية بعد أن كانت حاضرة الشرق ومركز الثقافة الإسلامية.

وكان من نتائج الفتح أن قلّتْ أموالُ الأوقاف التى كانت محبوسةً على العلماء وطلبة العلم، فتفرّق الطلاّب وانفضّت سوق العلم، ولم يبق منه إلا ذمامةٌ بالأزهر الشريف.

ولم تلق العربيةُ فى ذلك العهد من يأخذُ بيدها، لأن اللغة التركية حلّت محلها، وأصبحت لغةَ الكتابة والدواوين، وغزتها بكثير من الكلمات التركية التى تفشّت فى كتابة الأدباء فى ذلك الحين تَظَرُّفًا وتَشَبُّثًا بمحاكاة الغالبين، وطُوِى بِساط ديوان الإنشاء الذى كان له الفضل الأكبر فى إحياء العربية وآدابها.

النــــثر

كنا نعيب النثر فى عهد المماليك بإبعاده فى التكلف، وإغراقه فى التحلّي بصنوف البديع، فماذا نقول اليوم وقد عجز الكتاب عن أن يصلوا إلى هذه المرتبة؟ فحاولوا تكلّف البديع فلم يستطيعوا أن يأتوا بشىء له قيمة فنية، وتَرَدَّوْا فى الحضيض، وأتوا بالغَثّ السَّمج، الذى إن حسن فيه شىءٌ كان سرقة واغتصابا من بقايا آثار من سبقوهم من الكاتبين. على أن الضعف فى اللغة وأصولها تدلّى إلى دَرْك صار فيه كثير من الكتاب عاجزًا عن التّحَرُّز من اللحن، والنجاة من أرزاء العجمة والعِيِّ والجهل، وماذا يكتب الكاتب أو يُبدِع الفَنَّان والخوف يملأ جوانبه، والناس لاهون عن الاستماع إليه بما هم فيه من أمرٍ مَرِيج؟ وإنّ من حق العربية علينا أن نُطيل الوقوفَ هنا على أطلالها الدارسة، وآثارها الطامسة، وأن نذكر وهى تتمشّى إلى قبرها فى ضعف وهُزال ما كان لها من مجد كان جمالَ العصور، وزينة الممالك، وفخر الأجيال، وما كان لها فى شبابها من حسن بَهر الألباب، وسحر العقول.

وكان النثر مع هذا مُقفرًا من المعانى السَّرِيّة خاويًا من الأساليب الناصعة، وأصبحت موضوعاته لا تخرج عن الرسائل الإخوانية إلاّ قليلا، وسنُلقى عليك مثالا من أمثلة الكتابة فى هذا العصر ثم نترك لك الحكم.

فمما كتبه عبد الوهاب الحلبيّ إلى الشهاب الخفاجيّ قوله:

مثال من النثر: «لقد طفَحت أفئدة العلماء بشرًا، وارتاحتْ أسرارُ الكاتبين سرًّا وجهرًا، وأفعِمتْ من المسرة صدورُ الصدور، وطارت الفضائلُ بأجنحة السرور، بيُمن قدوم من اخضرّتْ رياضُ التحقيق بأقدامه، وغرِقتْ بحارُ التدقيق من سحائب أقلامه».

وعلى هذا النمط كان يُصاغ الكلام، وتتنافس فيه الأقلام.

الشـــــعر

أما الشعرُ فسكتتْ بلابلُـه وصَوَّحَتْ رياضُه، وحال نظمًا خاليًا من رَوْعـة المعانى، قفرًا من بدائع الصنـاعة، ولا عجب فإن الفنـون لا تزدهـر إلا حيث تطمئن القلـوب وتهدأ النفوس، ويكثـرُ الخير وتسهل أسباب الحياة. أرأيتَ الطائرَ الغِردَ يُغنِّى بين حَفيف السِّهام؟ أرأيتَ الزهرَ يَبْتَسِمُ وقد ألوتْ به العواصفُ ولَفَحَتْـه السَّمائم، وقد كان الأولـون يقولون: إن اللُّهَـا تَفْتَحُ اللَّها وقـد قلَّ العطاءُ فى ذلك العصر وانقطعتْ صِلاتُ الشعراء.

وكـان الشعر فى هـذا العصر محاكاةً للعصر السـابق، وأغلبـه فى الغزل الصنـاعىّ والإخوانيـات.
وأشهرُ شعراء هذا العصر:

(١) الشهاب الخفـاجى

هو أحمد بن محمد بن شهاب الدين الخفاجى المصرى، ولـد بسَرياقوس وتَلَقَّى دروسَه بالقاهرة ثم رَحَل مع أبيه إلى الحرمين، ثم الإستـانة، وتعيّـن قـاضيًا على الروملى ثم فى سلانيك، وعينّـه السلطان مراد قاضيًا للعسكـر بمصر، ثم استقال وسافر إلى دِمَشْق فحلب فالإستانـة، وتوفى سنة ١٠٦٩ هـ. وكان أديب عصره عالما باللغة وعلـومها كاتبًا شاعرًا مؤلفًا. ومن أشهر مؤلفـاته «ريحانة الألباء» وهو كتاب يشتمل على تـراجم لبعض أدباء عصره، ثم «شفاء الغليل بما فى لغة العـرب من الدخيل» جمع فيه طائفةً من الألفاظ الدخيلة والمُعَرَّبة، وضمّنَه مباحثَ مفيدة.

ومن شعره قوله:

إن وَجْـــدِى بمصر وَجْـــدٌ مُقيمٌ ... وحنينى كما تـــــرون حنينـى
لم يـــزل فى خيـــالىَ النيـلُ حتى ... زاد عن فكـرتى ففـاضتْ عيـونى

وقوله:

فـدَيْتُك يـامَن بـالشجـاعـة يرتدى ... وليس لغير السُّمْـرِ فى الحرب يَغْرِسُ
وإن عَشِقَ النـاس المَهَـا وعيـونَها ... من الـدَلِّ فى روض المحـاسن تَنْعِسُ
فـدِرْعُك قد ضَمَّتْـك ضمة عـاشق ... وصـارتْ جميعًـا أعينًـا لك تحرُسُ

وقوله مُضمنا:

يـاصاح إن وافيتَ روضـةَ نـرجسٍ ... إيـــاكَ فيهـــا المشىَ فهـــو مُحَرَّمُ
حـــاكتْ عيـونَ معـــذِّبى بـذبـولها ... (ولأجل عين ألـفُ عين تكـــرمُ)

(٢) ابن منجك

قال شهاب الدين الخفاجى فى ريحانة الألباء :

« الأمير محمد بن مَنْجَك الجركَسِى أصلا ومَحْتِداً، الشامى منشأً ومولدًا، أديب أريب، ونجيب وابن نجيب، أورق عوده بالشام وأثمر، فإذا عُدَّت السجايا عرَضًا فسجاياه جوهر، نشأ بها والدهر أبيضُ أقمر، ونادم العيشَ والعيشُ أخضر، وللبقاع تأثير فى الطباع، والعِرْقُ كما قيل لمغرِسٍ نَزَّاع، ومن كان جارَ الرياض، لبِس طبعُ بُرْدَ نسيمها الفضفاض، كما لبِس النهر الجارى، درعَ النسيم السارِى

وقد نَسَجَتْ كفُّ النسيم مُفاضَةً　　　عليه وما غيرُ الحَباب لها حَلَقْ

وقد صحِبنى بِجلّق ونسيمهُ سَجْسج، وخيوط شبيبته بيد الكهولة لم تُنْسَج، ولازَمنى إذ رأى انعطافى عليه، وشبه الشىء منجذب إليه ».

وقد اختار له الخفاجى طائفةً كبيرة من الشعر نكتفى منها بالصور الآتية التى تدل على علو كعبه فى الشعر وأنه كان فيه نادرة عصره من ذلك قوله :

سَقَىَ اللهُ يومَ القصرِ إذ كان بيننا　　　حديثٌ كمُرْفَضِ الجُمان المُنَضَّدِ
بروض يجول الماءُ تحت ظلاله　　　كأَيْمِ مَروعٍ أو حُسامٍ مُجَرَّدِ
يلوحُ به قانِى الشقيق وقد حَكَى　　　لواحِظَ مخمورٍ كُحِلْن بإثمِدِ
وَيَهمِى به قطرُ النَّدَى فتخالُه　　　مُبَدَّدَ عِقدٍ فى فراش زُمُرُّدِ
وريحانُه الغَضُّ الشَّهِىُّ كأنه　　　مبادِى عِذارٍ فوق خدٍّ مُوَرَّدِ

وقوله :

لا تَـتّهِمْ بالسوء دهرَكَ إنه　　　جَبَلٌ يُجِيبُ صداكَ منه صداءُ
مـرآتُكَ الدنيا وفعلُك صورةٌ　　　فيها فما الشَّنعاء والحسناءُ ؟

وقوله :

قصرَ الأمير بوادى النَّيْرَيْنِ سَقَى　　　رُباك عنى من الوَسْمِىِّ مدرارُ
كم مَرَّ لى فيكَ أيامٌ هواجرُها　　　أصائلٌ ولياليهن أسحارُ
حيثُ الشبيبةُ بِكْرٌ فى غضارتها　　　وللصَّبابة أحلافٌ وأنصار
حيثُ الرياضُ تغنيني حمائمُها　　　بالدفِّ والجنْك والمنثورُ لى جار
حيثُ الخمائل أفلاكٌ بها طلعتْ　　　زُهْرٌ من الزَّهْرِ والنُّدْمانُ أقمارُ

توفى سنة ١٠٨٠ هـ .

(٣) عبد الله الشبراوى

هو عبد الله بن شرف الدين الشَّبراوىّ القاهرىّ، من أكابر مشيخة الأزهر، وهو شاعر رقيق جذّاب، فى شعره لين وسهولة، وأغلبُه فى المدائح النبوية ومدائح أهل البيت، توفى سنة ١١٧٢هـ.

ومن شعره :

آل طـه ومَن يقل آل طـه ... مستجيرًا بجـاهكم لا يـردُّ
حبُّكم مـذهبى وعَقْـدُ يقينى ... ليس لى مـذهب سـواه وعَقـد
منكمُ استمـدُّ بل كلُّ مَن فى الـ ... ـكَوْنِ من فيض فضلكم يستمـدُّ
بيتكمُ مَهْبِطُ الرسـالة والوحـ ... ـيِ ومنكـمُ نـورُ النبـوةِ يبـدو
ولكـم فى العُـلاَ مقـامٌ رفيعٌ ... مـا لكم فيـه آلَ ياسينَ نـدُّ
ياابنَ بنتِ الرسـولِ من ذا يُضاهيـ ... ـكَ افتخـارًا وأنت للفخـر عِقْـدُ
ياحُسينًـا هـل مثـلُ أُمِّـكَ أمٌّ ... لشريفٍ أو مثلُ جـدِّك جَـدُّ

ومما قاله مؤرخًا فى رثاء أحمد الدلنجاوى :

سألتُ الشعرَ هل لـك من صـديقٍ ... وقـد سكن الـدلنجـاوىُّ لَحْدهْ ؟
فصـاح وخَـرَّ مغشيًـا عليـه ... وأصبح سـاكنًـا فى القبر عنـده
فقلـتُ لمن أراد الشعـرَ أقْصِرْ ... فقـد أَرَّخْتُ مـات الشعـر بعـده

سنة ١١٢٣هـ

ومن قوله يعتذر إلى بعض مشايخه :

إنّ ذنبـى واللهِ ذنـب كبيرُ ... غـير أنـى بحلمـكم أستجيرُ
ضاق صدرى وأخجل الذنبُ وجهى ... واعـترانى مـن الحيـا تغيـرُ
وتأسفتُ حين كـان الـذى كـا ... ن ولـكن جرى بـه المقـدور
وتأخـرتُ عن لقـاكم حيـاءً ... ثـم إنـى أعيـانىَ التأخـير
وتـركتُ الحضـور بين يـديكم ... خَجَـلاً حيـن عَـمَّنى التقصـير
لكن العفـو ليس يبعُـد عنكم ... فعـسى أن يصـحَّ قـلبٌ كسـير
إن ظنـى والله فيكـم جميـلٌ ... ولسـانى عـن اعـتذارى قصـير
سعـةُ الصدر قـد دعتنى إلى مـا ... كان منى والحـلُم عنكم شهـير
شِيـمةُ الأكرمـين عفـوٌ وصـفحٌ ... كـلُّ ذنـبٍ لديكـُمُ مغفـورُ

التأليف

نزل التأليف عن مرتبته كثيرًا، واقتصر على أن يكون تطويلاً لموجز أو اختصارًا لمطوّل، إلا فى القليل النادر.

الزبيدى

ومن أشهر المؤلفين فى هذا العصر الشهاب الخفاجى وقد مرت ترجمته، ثم الزَّبِيدِىُّ وهو محمد بن محمد الشهير بالمرتَضى الحسينى الزبيدى، ولد سنة ١١٤٥ هـ، ونَشأ باليمن، وَرَحل فى طلب العلم فنزل مصر سنة ١١٦٧ هـ، واشتهر أمره وعلا ذكره بين العلماء والأمراء وألّفَ رحلات لأسفاره، ثم تجَرَّد لشرح القاموس المحيط فأتمه فى سنين عدّة، وسمّاه « تاج العروس » ولما أنشأ محمد بك أبو الذهب مكتبته فى جامعه، أوعِزَ إليه أن يَقْتَنِىَ تاج العروس فاشتراه من مؤلفه بمائة ألف درهم، وكان السيد مرتضى يعرف التركية والفارسية والكُردية، وقد عَوّل فى شرح القاموس على لسان العرب، واستدرك على صاحب القاموس بعد كل مادة ما غفَل عن ذكره من المفردات اللغوية .

ومن مؤلفاته « إتحاف السادة المتقين » وهو شرح لإحياء العلوم للغزالى توفى سنة ١٢٠٥ هـ.

عبد القادر البغدادى

ومن كبار المؤلفين فى هذا العصر عبد القادر بن عمر البغدادى، درس بدمَشق، وتردد على القاهرة، ثم رحل إلى أدرنة واتصل برجال الدولة التركية، ثم عاد إلى القاهرة ومات فيها سنة ١٠٩٣هـ.

وكان غزيرَ المادة فى اللغة والأدب، محبًا لاقتناء الكتب، فكانت خزانة كتبه تشتمل على كثير من الكتب الثمينة النادرة، وأشهر مؤلفاته « خزانة الأدب ولُبّ لُباب لسان العرب »، وقد شرح فى هذا الكتاب شواهدَ شرح الكافية، وضمّنه كثيرا من تراجم الشعراء والأدباء فى الجاهلية وصدر الإسلام، والكتاب جليل القيمة جدًا يدل على علم واسع ودقّة وتمحيص .

على باشا مبارك (*)

فى حجرة واسعة تصان بها الكتب بدار العلوم، يرى الداخل فى أول ملتقى بصره صورة زيتية لشيخ جليل. تحف به المهابة، وتغضى لرؤيته العيون. تلك صورة المرحوم على مبارك باشا العالم الرياضىّ المهندس المؤرخ الأديب.

ترونه فى هذه الصورة، وقد تجاوز الستين، مظهرًا للقوة الجسمية، ومثالاً لحدة الذهن ونفوذه، سوىّ الخلق، قويم القامة، طويلاً طرمّاحا. وقديمًا قالوا: «وإن أعزاء الرجال طيالها». عريضَ المنكبين، لم تقوّس الأيام قناته، ولم يصوح الدهر نباته، يمثل المصرىّ الصريح فى وجهه وجسمه وسمته؛ جبين واسع يكاد يشف عما تحته من علم زاخر، ورأى ثاقب، كأن غضونه سطور دونتها التجارب، وخطتها يمين الأيام، وحاجبان مقرونان غزر شعرهما، وقد وخطه الشيب، يظلان عينين لهما نظرة تحار فى تأويل معناها. وتبيُّن مرماها: ففيها الجد، وفيها الإرادة الحكيمة المبصرة، وفيها الطموح والاستهانة بالقليل المبذول. وأنف قويم المارن يكاد يوصف بالضخامة لولا ملاءمته بقية مظاهر وجهه. وشارب أثيث الشعر، شمله الشيب، تحته فم أفوه، انفرجت شفته السفلى قليلاً كأنها كانت تحاول الابتسام فصدها الجد، ودهمتها صرامة الرجولة، فوقفت بين الإقدام والإحجام. ولحية كثة جثلة، سطع فيها صبح المشيب، فتركها فى نقاء صحف الأبرار، وبياض أيادى الكرام.

ذلكم هو على مبارك باشا الذى سنتحدث فى حياته الليلة، وقد أغنى ـ رحمه الله ـ الباحثين بعده عن تنسم أخبار حياته، وتلقفها مبدلة محرفة من أفواه أهل عصره، فكتب ترجمة حياته بقلمه إلى قبيل وفاته بخمس سنين. وقد بسط فيها القول فى أحوال صباه ونشأته الأولى، مما لم يظفر به التاريخ لغيره من عظماء الرجال. ولو أن كل عظيم سلك هذه السبيل لأسدى إلى الأدب والتاريخ إرثًا مجيدًا. وقد

(*) محاضرة ألقيت فى محطة الإذاعة ونشرت بصحيفة «دار العلوم» عدد يناير ١٩٣٥ م من ص ٢٧ إلى ص ٣٣.

كانت سنة بعض العلماء فى الأعصار الماضية أن يدونوا حياتهم بأنفسهم، كما فعل أسامة بن منقذ وجلال الدين السيوطى. ولكن هذه السنة المحمودة لم يتنفس بها العُمُر، ولم تبق عليها الأيام.

ولد المرحوم على مبارك باشا بقرية برنبال الجديدة بمديرية الدقهلية، سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف هجرية، من أسرة اشتهرت بحفظ القرآن الكريم، والتفقه فى الدين، فكانت فيها إمامة الصلاة والخطبة والقضاء بين الناس؛ لذلك كانت تسمى بأسرة المشايخ، وكان لها نصيب غير قليل من إجلال الحكام والمحكومين، ثم عصف الدهر بهذه الأسرة، واشتد بها العسر والضيق، فرحل أبو المترجم، الشيخ مبارك الروجى، بأسرته إلى الشرقية، ثم استقر فى جوار عرب السماعنة يفقههم فى دينهم، ويؤمهم فى صلواتهم. ولما بلغ المترجَم الخامسة أرسله أبوه إلى شيخ أعمى ليلقنه مبادئ القراءة، ثم بعث به إلى شيخ مقيم بالقرب من مساكن العرب. وكان أبوه يزوده ما يكفيه من طعام مدة أسبوع يقيمها فى كنف أستاذه الجديد. فكان يزور أهله يوم الجمعة، ولا يعود إلى شيخه فى ذلك اليوم ـ كما يقول ـ فارغ اليد خوف شره وأذاه.

بنفسى ذلك الطفلَ وقد حمل ما حمل من قليل المتاع، تاركا أمه وما يلقاه فى ظلها من رفق وحنان وعطف، هو كل ما يهفو إليه الطفل فى السادسة والسابعة، إلى شيخ حطم لا يتكلم إلا بلغة العصا، ولا يعرف من وسائل التهذيب غير الإرهاب والتعذيب. ولقد كان ذلك المعلم عنيفًا أشد العنف، مخيفًا أشد الإخافة، فما أقام علىّ منقمعا تحت حكمه سنتين، ختم فيهما القرآن الكريم وهو فى الثامنة أو التاسعة، حتى كره العلم والتعلّم، وعقد العزيمة صارمة على ألا يعود إليه. وأنتم ترون هذه العزيمة متجلية فى كلماته القليلة حين يقول: «ثم لكثرة ضربه لى تركته وأبيت أن أذهب إليه بعد ذلك». وحينما أجبره أبوه على الذهاب نوى الهرب، فما زال به أهله حتى صارحهم بأنه لا يود أن يكون فقيها، ولكنه يريد أن يكون كاتبًا. فأسلمه أبوه إلى كاتب زراعة ليعلمه الخط والحساب؛ فقاسى علىّ عنده عنتا من شظف العيش والجوع والمهانة والخدمة، وقد حدث أن سأله الكاتب مرة ما جُذاء الواحد فى الواحد؛ أى ما حاصل ضربهما ؟ فأجاب علىّ متلعثما خائفًا: اثنان. وكان بيد الكاتب مقلاة فضربه بها فشج رأسه؛ فذهب على يشكو إلى أبيه فلم ينصفه، ففرَّ وهو فى نحو التاسعة من عمره تحت ستار الليل هائما تتقاذفه الهموم، وتطوّح به الأوجال؛ وقد أصيب فى طريقه بالهيضة المعوية (الكوليرا)، فعطف عليه رجل وآواه مدة مرضه، حتى إذا أبلّ وعثر عليه أهله بعد البحث عنه عاد إليهم. وبعد سنة عمل مساعدًا لكاتب بمأمورية أبى كبير، وكان راتبه خمسة وعشرين قرشا فى الشهر، فأقام عنده ثلاثة أشهر فى بؤس وضنك لا يأخذ من راتبه شيئًا، ولما أخذ حقه بيده من أموال حصّلها غضب الكاتب عليه، وأغرى به المأمور فألقى به فى السجن، ولم ينقذه منه إلا خادم عنبر افندى مأمور زراعة القطن بنواحى أبى كبير؛ فأقام كاتبا عند عنبر هذا براتب قدره خمسة وسبعون قرشا فى الشهر. وهو هنا يحدثنا عما كان يجول فى نفسه فيقول: «إن الكتابة والماهية كانت هى السبب

فى سجنى ووضع الحديد فى رقبتى، وقد وجدت هذا المأمور خلصنى من ذلك، فلو فعل المأمور معى مثل ما فعل الكاتب فمن يخلصنى؟ وكانت همتى فى التخلص من كل ذلك وأمثاله، وأود أن أكون بحالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها».

وقد أخبره فراش المأمور أن سيده إنما نال تلك المنزلة لأنه تعلم بمدرسة قصر ابن العينى التى افتتحها عزيز مصر محمد على باشا، وأن الحكام إنما يؤخذون من المدارس؛ فأيقظ ذلك فى نفسه آمالا نيامًا. فغادر عمله وهو فيه المحب المكرم وخلى ساقيه النحيلتين للريح حتى بلغ قرية منية العز فكانت - كما يقول - فألاً حسنًا. ودخل مكتبها، وقد حاول أبوه أن يخرجه منه ويعود به إلى تعلم الدين أو الاشتغال بالكتابة فأبى علىّ عليه وصمم؛ فاهتبل أبوه فرصة خروجه وقت الظهر واختطفه، وذهب به إلى بلدته وحبسه فى الدار عشرة أيام. وهو هنا يقول: «كل ذلك ووالدتى تبكى منى وعلى، وتستعطفنى فى الرجوع عما يوجب فراقهم. وتحلفنى أن أرجع عن هذه النية؛ فوعدتها بالرجوع عن ذلك إرضاء لخاطرها. فأطلقونى وكانت لنا غنيمات صرت أرعاها، وأبعدونى عن حرفة الكتابة».

ولو أن عليًا سكن إلى هذه الحياة واستمرأ البطالة لتغير وجه التاريخ، ولكان على مصر أن تبحث عن على مبارك آخر يضع نظاما لثقافتها، ويرسم الطريق لنهوضها العلمى.

ولكن القدر أبى إلا أن يسمو بغلامنا الصغير، لأن عليًا أبى أن يكتفى من الحياة برعى غنيمات عجاف؛ وكأنما كشف له فى ذلك الوقت أنه سيكون راعيا للعقول، مهذبا للنفوس، يتنقل بها فى مروج العلم. ويوردها نمير الحياة الصافى. فتسربل الليلَ وخرج من داره خائفًا يترقب حتى بلغ مكتب منية العز ثانية؛ وكان أنجب تلاميذه، فاختير مع طائفة من النجباء لمدرسة قصر ابن العينى فى سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف، وكان عمره اثنتى عشرة سنة فأقام بهذه المدرسة سنتين لقى فيهما آلامًا وشدائد، ثم انتقل إلى مدرسة أبى زعبل، وبقى بها ثلاث سنوات. ثم اختير لمدرسة الهندسة ببولاق، فمكث بها خمس سنين كان فيها دائمًا أول فرقته. وفى سنة ستين ومائتين وألف عزم المغفور له محمد على باشا على إرسال أنجاله إلى فرنسا ليتعلموا بها، وصدر أمره بانتخاب فريق من نجباء الطلبة ليسافر معهم، وكان على مبارك من هذا الفريق، فسافر إلى فرنسا، وكان راتبه فى البعثة خمسين ومائتى قرش فى الشهر جعل نصفها لأهله. وقد درس فى فرنسا الهندسة العسكرية والمدنية. وكان مفتح العينين دقيق الملاحظة، فأفاد مصر بمشاهداته شيئًا كثيرًا. وفى سنة ست وستين ومائتين وألف عاد إلى مصر وعين مدرسًا بمدرسة طرا؛ وفى هذا الحين عزم على زيارة أهله، ونحن نتركه يقص عليكم نبأ هذه الزيارة إذ يقول:

«ذهبت إلى بلدتنا برنبال، وكان أهلى قد رجعوا إليها قبل ذلك بمدة، فوجدت أن أبى قد سافر إلى مصر لزيارتى، ولم أجد فى المنزل إلا والدتى وبعض إخوتى، وكان دخولى عليهم ليلا، فطرقت الباب

فقيل: من أنت؟ فقلت: ابنكم على مبارك. وكانت مدة مفارقتى لأمى أربع عشرة سنة لم ترنى فيها ولم تسمع صوتى، فقامت مدهوشة إلى الباب وجعلت تنظر وتحد النظر، وكنت بقيافة العسكرية الفرنسية لابسًا سيفا وكسوة تشريف؛ وكررت السؤال حتى عرفت صوتى، ففتحت الباب وعانقتنى ووقعت مغشيًّا عليها، ثم أفاقت وجعلت تبكى وتضحك وتزغرت، وجاء أهل البيت والأقارب والجيران وامتلأ المنزل ناسا، وبقينا كذلك إلى الصباح والناس بين ذاهب وآيب».

وبعد هذه الزيارة اتصل بمعية المغفور له عباس باشا الأول، وقام بأعمال هندسية كثيرة. ووضع نظاما للمدارس الملكية تبلغ نفقاته ألف كيس. فاختاره عباس الأول ناظرًا للمدارس الملكية، فقام بأعباء العمل على خير الوجوه مشرفا ومعلما ومرشدًا ومؤلفًا وطابع كتب. وكأن ما أصابه فى نشأته الأولى من ويلات التعليم وسوء النظام وقسوة المعلمين كان حافزًا له على الإصلاح. ولما تولى المغفور له سعيد باشا عزله من نظارة المدارس، وأمره أن يرافق الجيش إلى تركيا لمحاربة الروسيا، فأقام هناك نحو سنتين، قاسى فيهما شدائد وأهوالا، وعند عودته إلى مصر فصل من الخدمة، فسكن بيتًا صغيرًا، وعاد إلى ما كان عليه أولا من الفقر والضيق، وذهب عنه ـ كما يقول ـ ما رأى من الأموال والمناصب. ثم عاد إلى العمل، وتنقل فى مناصب كان منها أن عين معلما للضباط يلقنهم مبادئ القراءة والكتابة، فكان يخط لهم الحروف أحيانًا على الأرض وأحيانًا بالفحم على البلاط، ثم فصل، وقد كثرت نفقاته فى ذلك الوقت وأبهظه الدين، فاشتغل بالتجارة. فكان يشترى بالمزاد ما تبيعه الحكومة من عقار وأدوات وكتب ويبيعه للتجار فربح وغنم. ولما تولى المغفور له إسماعيل باشا وصله بمعيته وعينه ناظرًا للقناطر الخيرية، ثم أضاف إليه إدارة السكك الحديدية، وإدارة المدارس، وإدارة ديوان الأشغال، ثم نظارة عموم الأوقاف. تلك خمسة مناصب كاملة قام فيها جميعًا بضروب شتى من الإصلاح وبخاصة التعليم. فقد وضع نظامًا لإصلاح المكاتب الأهلية فى المدن والقرى، وأوجد للمدارس مطبعة حروف ومطبعة حجر لطبع كتبها، وأنشأ دار العلوم، وأسس بإشارة الخديوى إسماعيل باشا دار الكتب العامة، جمع فيها نوادر الكتب ونفائسها التى كانت مفرقة فى المساجد والخزائن الخاصة، وخصص بها معرضًا لآلات العلوم الطبيعية والهندسية، وضبط الأوقاف فى أنحاء القطر، وبذل جهدًا مشكورًا فى إحيائها وصيانتها، واستصدر أمرًا خديويًّا بتنظيم الشوارع ورصفها، وتحلية المدينة بالمتنزهات والميادين. وأنشئت فى أيامه ترعتا الإبراهيمية والإسماعيلية.

ومازال يتنقل فى المناصب، ويفصل عنها، حتى قلد نظارة المعارف، سنة ثمان وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية، واستمر عاملا بها ثلاث سنوات. وفى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وافته المنية. فكان الحزن عليه عاما شاملا.

والوقت لا يتسع لدراسة أخلاقه الكريمة بإسهاب وتفصيل، ولكنا نستنبط، موجزين، أنه كان بعيد الآمال، قوى الإرادة، شديد الثقة بنفسه ومواهبه، راسخ الإيمان بالله، رضى النفس مطمئنها،

وثابا إلى الإصلاح ، لا تفتر همته ولاتنى عزيمته ، قوى الملاحظة واسع الفكر ، خصيب الإنتاج مشغوفًا بالتجديد، وكان شعاره الدقة وحسن النظام، مجدًا مشمرًا فهو حركة دائمة، وقوة دائبة، وكان بصيرًا بأقدار الرجال، بارًا بأهله، شفيقًا بالضعفاء والفقراء. وكانت داره ندوة علم وأدب للمعلمين والطلاب، يطارحهم العلم، ويوضح لهم السبيل.

ومن أشهر مؤلفاته الخطط التوفيقية ، وعلم الدين ، وآثار الإسلام فى المدنية والعمران ، ثم كثيرٌ من الكتب المدرسية والهندسية .

رحمه الله رحمة واسعة .

الشاعر أبو الطيب (*)

طلب إلى أن أكتب فى إحدى نواحى أبى الطيب المتنبى، وأعلم أن الناس فى القديم والحديث كتبوا عنه كثيرا، وأن شعره نال من عناية الأدباء وبحثهم وجدلهم ما لم ينله شعر قبله ولا بعده وأن كتبًا ضخاما ألفت فى كل ناحية من نواحى الرجل والشاعر، حتى لقد يسبق إلى الوهم أن كل قول فيه يكون معادًا، وأن كل نظرة فيه تقع على نظرات سبقتها إليه من قرون، ولكن المتنبى الضخم يعز على من رامه ويطول، فهو الجبل الأشم أينما قلبت فيه النظر رأيت عجبًا، وكيفما ملت برأسك إلى ناحية من نواحيه رأيت جديدًا، وهو البحر الخضم تقف عند ساحله فيبهرك ما ترى من عظم، ويفتنك ما تشاهد من ألوان، ثم أنت لا تزال ترسل النظرة فى أثر النظرة فلا تعود كل واحدة منها إلا بمعنى جديد، وفن فى الحسن بديع، ولأمر ما كان المتنبى يقول فى ثقة ويقين:

أنام ملء جفونى عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم

فكيفما كتب الكاتبون فى المتنبى لا تزال فيه مجالات للقول، ولا يزال يطل عليك من مشارف أبياته معنى سرى فى ثوب من البيان قشيب يزيدك وجهه حسنًا إذا ما زدته نظرًا، والمتنبى وبيننا وبينه ألف سنة أو تزيد يطغى على الزمن قوة، ويزهو على الأيام جدة وما نزال نقرؤه سنة أربع وخمسين وثلثمائة بعد الألف فنهتز له كما اهتز سيف الدولة سنة سبع وثلاثين وثلثمائة، ولا يزال يهمس فى الأذن بالحكمة النادرة والقولة الحكيمة وقد مشت فوق رءوس الحقب، وخاضت إلينا مفاوز القرون، وكانت لدة الدهر فى شبيبته، ثم جاءت إلينا من ذلك المكان البعيد الذى نسميه الماضى وقد زادها القدم جدة، وخلع عليها تعاقب الأعوام بردين من جلال ويقين:

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها ... فمفترق جاران دارهما العمر

(*) نشرت بمجلة «الهلال» بالمجلد رقم ٤٣ ص ١١٤٤ عام ١٩٣٥ م.

ولا تحسبن المجد زقًا وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتركك فى الدنيا دويًّا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

نقرأ المتنبى فنحس أنه يخاطب كل نفس بأسرارها، ويكشف لكل سريرة مطوى أخبارها، وكثيرًا ما حدثنا عن خلجات كنا نحس بها، ونسمع فى النفس دبيبها ولكنا كنا عاجزين عن وصفها والتعبير عنها، وهى منا على طرف الثمام، ومن أخبر بهمسات النفوس من أبى الطيب ؟ ومن هو أقدر منه على كشف جولات الخواطر:

برتنى السرى برى المدى فرددننى أخف على المركوب من نفسى جرمى
وأبصر من زرقاء جو لأننى متى نظرت عيناى ساواهما علمى

ألف سنة تمر تطوى فيها أمم وتنشر أمم، ويتنقل فيها العقل الإنسانى فى أطوار شتى يمحو بعضها بعضا، وتتبدل العادات غير العادات والأفكار غير الأفكار، والمتنبى لا يزال يقرأ ويقرأ ويجد فيه كل عصر طلبته من غذاء روحى تطمئن به النفس وترتاح إليه الضمائر.

مضى سيف الدولة ومضت آثاره، وذهب كافور وانطوت أيامه. وأين على الحاجب هذا الذى أجاز المتنبى على قصيدة من روائع شعره بدينار واحد ؟ ذهب هؤلاء جميعًا وبقى ذكر المتنبى كالصخرة العبوس ينفرج أمامها زحام الأيام، وتنكص دونها صروف السنين:

وعندى لك الشرد السائرا ت لا يختصصن من الأرض دارا
قواف إذا سرن عن مقولى وثبن الجبال وخضن البحارا
ولى فيك ما لم يقل قائل وما لم يَسِرْ قمرٌ حيث سارا

فالمتنبى عظيم وأريد فى هذا المقال أن أكشف عن قليل من سر هذه العظمة، وأن أبين بقدر ما فى قلمى شيئًا من ضخامة هذا الشاعر وقوته التى عصفت بشعراء عصره، وحجبتهم بغبارها، وما كانوا خاملين ولا كانوا مقصرين، وفيهم السرى الرفاء وكشاجم والنامى والدمشقى والسعدى وأمثالهم من كبار الشعراء ! ولكنه السهم الغائر، والجد العاثر، أن تعيش فى عصر ينجم فيه نابغ يملأ الدنيا صخبًا وجلبًا، وينثر درر بدائعه يمينًا وشمالاً فيصغى إليه الدهر وتشخص له الأبصار وتبقى أنت مغمورًا فى الزحام لا تعدم وكزة من مغامر أو ركلة من مزاحم فى ذلك الخضم الزاخر الرجاف، والدنيا أم إذا برزت مواهب أحد أبنائها انصرفت إليه بتدليلها، وطوقته بحنانها نابذة أبناءها الآخرين الذين قصر بهم المدى وقعد بهم الجد العثور.

وكان المتنبى شاعرًا بتلك العظمة وذلك النبوغ النادر فتحدى شعراء عصره فى صلف لا يطاق وجبرية لا تحتمل:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غبارى ثم قال له الحق
ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وأظهر ما يمتاز بـه شعر أبى الطيب القوة والروعة والابتكار والنزوع إلى غـاية لم يصل إليها الشعراء من قبل، والقدرة على إرسال المثل، ودقة الوصف والتصرف فى المعنى القديم حتى يعود غضًّا جديدًا. وقد تجد لكل شاعر فى كل قصيدة قالها بيتًا أو أبياتًا قليلة تعد من عيون الشعر وبدائعه، أما المتنبى فلا تجد له فى كل قصيدة إلا بيتًا أو أبيـاتًا قليلة لم تصل إلى شأوه البعيد، والباقى الكثير من القصيدة غرر ودرر، فهو إذا مدح يقول:

نهبت من الأعمار مـا لـو حـويته ... لهنئت الدنيـا بأنـك خـالد

فالنـاس يمدحـون الملوك بالشجـاعة والإقدام وكثـرة الغزوات وأن النصر معقـود بلوائهم، ولكن المتنبى يترك كل هـذا ليتناولـه صغـار الفنانين ويصعـد فى المدح بهذه المعـانى إلى أفق أعلى تظهر فيـه خصائصه وتتميز مـواهبه فيجعل قتل الأعداء نهبًا لأعمارهم واغتصابًا لها، ثم يدفعـه خياله البعيد إلى فرض أن هذه الأعمار الكثيرة اتصل بعضهـا ببعض فكونت عمرًا طويـلا غير محدود ثم يرتقى إلى أوج أسمى فيفرض أن سيف الدولة وهب هذه الأعمار غير المتنـاهية التى انتزعها من أعدائه ولا يكتفى بأن هذا - إن تم - يصل به إلى الخلود بل يدعى أن الـدنيا بمن فيها وما فيها تهنـأ بهذا الخلود. ثم ما أجل تصوير النصر المحقق فى قوله بعد هذا البيت:

فأنت حسـام الملك والله ضـارب ... وأنـت لـواء الـدين والله عـاقـد

ثم انظر إليه حين يقول فى سيف الدولة:

أيحسب بيض الهنـد أصلك أصلهـا ... وأنـك منهـا سـاء ماتتـوهم

إذا نحن سمينـاك خلنـا سيوفنـا ... مـن التيـه فى أغـمـادها تتبسم

وقد اتخذ المتنبى من اسم سيف الـدولة سبلا شتى لـلافتنان فى مديحه والمماثلة بينـه وبين السيوف فأجاد فى كثير من ذلك وحلق، ومثل هـذه الفرص تعرض لكثير من الشعراء، ومجال القـول فيها هين إذا لم يتجاوز الشاعر اللعب بـاللفظ على نحو رخيص من التخيل، أما المتنبى فليس من هذا الصنف ولا من ذلك الطـابع. استمع لـه وهو يتهكـم بسيوف الهنـد حين تظن كـذبًـا وغرورًا وتلمسًـا لشرف الاتصال بسيف الدولة أنها هى وسيف الدولة من أصل واحد فكلاهما قاطع بتار، وكأنى أسمع تهاتفه فى سخرية واستهزاء حين يقول: «سـاء ما تتوهم» وهنا موطن قوته وصرامته الشعـرية، فأكثر ما تظهر فى هذه الجمل القصيرة المفصولة التى لها وقع السهام، ثم يصعد إلى أفق لا تسافر إليه الظنون فيقول إن هذه السيوف تكتفى مـن الشرف بأن اسمك وافق اسمها فإذا سميناك خلناهـا تبتسم فى أغمادها تيهًا وعجبًا.

ثم خذ مثالا آخر فى مدح كافور:

إذا طلبـوا جـدواك أعطـوا وحكمـوا ... وإن طلبوا الفضل الذى فيك خيبوا

ولـو جـاز أن يحووا عـلاك وهبتهـا ... ولكن من الأشيـاء مـا ليس يـوهب

أيستطيع شاعر أن يصور الصفح والتجاوز وعظم النفس هـذا التصوير؟ إن حسادك وأعداءك إذا سألوك العطاء أعطيت وأغدقت وسألتهم أن يتحكموا فيما يطلبون، ولكنهم لو طلبوا أن ينالوا ما فيك من كريم الشيم وعالى الهمم ردوا خـائبين لا ضنا منك ولا بخلا، فلو كان فى استطاعتك أن تمنحهم إياها لفعلت «ولكن من الأشياء ما ليس يوهب».

وفى هذه الجملة القصيرة أيضًا تظهر قوة الشاعر وشدة أسره.

ومن أبدع ما قاله فى المديح:

مـالـنَّـا من نـوالـه الشرق والغـر ... ب ومن خـوفـه قلـوب الـرجـال

قـابضًـا كفـه اليمين على الـدنـ ... ـيا ولـو شـاء حـازهـا بـالشمال

ننتقل بكِ إلى الوصف ولنبدأ بهذه الأبيات:

وذى لجب لا ذو الجنـاح أمـامـه ... بنـاج ولا الـوحش المثـار بسـالم

تمر عليـه الشمس وهى ضعيفـة ... تطـالعـه من بين ريش القشـاعم

إذا ضـوؤهـا لاقى من الطير فـرجة ... تَـدَوَّر فـوق البيض مثل الـدراهم

ويخفى عليك الـرعـد والبرق فـوقه ... من اللمع فى حـافـاتـه والهماهم

برع المتنبى فى وصف الجيوش والوقائع، ما فى ذلك شك، فقد كان يحمل بين جنبيه نفسًا نَزَّاعة إلى القتال تدفعها الآمال الكبار، وكانت وقائع سيف الـدولة مع الروم حافـزة لهذه النفس مؤججة لتلك الجذوة، ولو حاولنا أن نختار له خير ما قاله فى هـذه الناحية لطال المقال، ولكنا نكتفى بالأبيات التى قدمنا ففيها قـوة وفيها جمال شعرى وفيها وصف دقيق. ما أروع أسلوبـه فى البيت الأول ! وما أجمل ما فيه من تقسيم وتنسيق، فالجيش كثير العدد كثير اللجب تتهاوى قذائفه، أثار الوحوش من مكامنها والطيور من أوكارها، فلا ذو الجناح بناج من سهامـه المترامية ولا الوحوش بسالمة من عديده الخضم، ثار فيه الغبار فسد الأفق وعـلا فى السماء فكسف الشمس، فهى تمر عليه ضعيفة ضئيلة الضوء، فإذا أطلت عليه فإنها تطل من بين ريش النسـور التى حلقت فوقه لـوثوقها بنصره وشـدة طمعها فى جثث أعدائه، وقد شرح هذا المعنى فى قصيدة أخرى وجلاه فقال:

يطمـع الطير فيهم طـول أكلهـم ... حتى تكـاد على أحيـائهم تقـع

وهـذه الشمس إذا وفقت إلى فـرجـة بين أجنحـة النسور سقطت أضـواؤهـا على الخوذات مـدورة كالدراهم، وهذا تشبيه يدل على دقة الملاحظة وأن المشاهدة الدقيقة لمظاهر الأشياء كان لها أثر بعيد فى تكوين المتنبى، وقد أعاد هذا المعنى فى قصيدة شعب بوان فقال:

وألقى الشرق منهـا فى ثيـابى ... دنـانـيرًا تفـر مـن البنـان

ثم إن هذا الجيش كثرت فيه همهمة الأبطال، وهى الصوت يتردد فى الصدر فإذا رعدت السماء لم تسمع، وازداد فيه بريق السيوف فإذا لمع البرق لم يبصر، وإذا كانت الهمهمة وهى الصوت الخافت تخفى الرعد فأجدر بأن يكون الجيش بالغًا الغاية فى العظم.

وللمتنبى منحى فى الرثاء عجيب، فهو لا يلطم الخدود، ولا يشق الجيوب كما يفعل صغار الشعراء، ولكنه يطلق العنان لفلسفته فى الموت والحياة فهو يقول فى رثاء أخت سيف الدولة الصغرى:

خطبة للحمام ليس لها رد	ولكنها المسماة ثكلا
وإذا لم تجد من الناس كفئًا	ذات خدر أرادت الموت بعلا
ولذيذ الحياة أنفس فى النفـ	ـس وأشهى من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فما مَلَّ	حياة وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب	فإذا وليا عن المرء ولى

وقد سلك فى رثاء الأخت الكبرى طريقًا جديدًا هو برثاء القواد والملوك أشبه منه برثاء النساء:

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر	فزعت فيه بآمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا	شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى
كأن فعلة لم تملأ مواكبها	ديار بكر ولم تمنح ولم تهب

والبيت الأول تصوير غريب لحال من فوجىء بخبر محزن، فهو يتشبث بالأوهام، ويفزع لتكذيبه إلى أوهى الأسباب.

ومن خير مراثيه وأقواها مرثيته فى جدته، ولكنه شغل أكثرها كعادته بالحديث عن نفسه.

وللمتنبى فى الهجاء القول الممض والكلام المر. ولم يكن كثير الهجاء ولكن بيتًا واحدًا من هجائه يقوم مقام القصيدة الطويلة فى الإيلام وشدة الإيجاع وإصابة المحز، فهو يقول لابن كروس جليس ابن عمار:

فلو كنت امرءًا تهجى هجونا	ولكن ضاق فتر عن مسير

هذا منتهى ما يصل إليه الاحتقار فهو ليس برجل يؤبه له لأن قدره أضيق من أن يتسع لجولات الهجاء، فهو كالفتر أقل من أن ينفسح لمسير.

أما هجاؤه لكافور فقد قذفه فيه بالصيلم:

إنى نزلت بكذابين ضيفهم	عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدى وجودهم	من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ولو أن إنسانًا حاول أن يهجو ألأم مخلوق ما استطاع أن يقول فيه أنكى من هذا وأقذع.

وإذا شكا الزمان ونقد الاجتماع أو تعرض لأخلاق الناس، فهناك الانهمار فى الحكمة وضرب الأمثال وفلسفة الحياة. ولا نريد هنا أن نكثر من التمثيل فحكم أبى الطيب كثيرة جدًا وقد تناولها الأدباء بالجمع والتمحيص والنقد، وأكثر قصائده حكمًا: «لا افتخار إلا لمن لا يضام»، «فؤاد ما تسليه المدام»، «لهوى النفوس سريرة لا تعلم»، «صحب الناس قبلنا ذا الزمانا».

وأوابد أبى الطيب التى بز بها الشعراء ووصل بها إلى قمة الفن الشعرى أكثر من أن تجمع فى مثل هذا المقال. وتكفينا هنا هذه الكلمات الموجزة فى إذاعة شىء من سر عبقريته.

مصطلحات الشئون العامة(*)

الإراض

اللسان: «والإراض البِساط لأنه يلي الأرض، الأصمعى: الإراض بِساط ضخم من وَبَر أو صوف، وأرَض الرجلُ أقام على الإراض».

ويفهم منه أن الإراض قد يطلق إطلاقًا عامًّا على البِساط كيفما كان صغيرًا أو كبيرًا، وقد يخصَّص بالبِساط الكبير.

وقد رأى المجمع تخصيصه بذلك ليدلّ على الأبسطة العظيمة الرقعة التى تفرش بها الأبهاء والحجر الكبيرة.

البِساط

اللسان: «والبِساط ما بُسِط».

التاج: «والبِساط بالكسر ما بُسِط، وفى الصحاح ما يُبْسَط، وفى البصائر اسم لكل مبسوط، وأنشد الصاغانى للمتنخِّل الهذلىّ يصف حاله مع أضيافه»:

سأبدؤهم بمِشْمَعَةٍ وأُثْنِى   بجهدى من طعامٍ أو بساط

والمِشْمَعَة: المزاح والضحك، وأُثنى أى أُتْبِع. جمعه بُسُط ككتاب وكُتُب.

وإذا كان المعنى اللغوىّ للبساط كل ما يبسط أيا كان نوعه فقد خَصَّه العرف بنسيج خاصّ من الصوف ينسج بخيوط الخيش أو نحوها، وهذا هو المعنى الذى أراده المجمع.

(*) نشر هذا البحث بمجلة مجمع اللغة العربية الجزء ٣ ص ١٨٠ عام ١٩٣٦ م.

النَّفـــاطـــة

اللسان: «التهذيب: والنفاطات ضرب من السُّرُج يُسْتَصبح بها».

فهى إذًا مصباح يُمَدُّ بالنفط، وقد أراد المجمع أن تستعمل هذه الكلمة فى هذا «المعنى لأنها صريحة فيه ولأنها تحل مكان كلمة «لمبة الجاز» فى كلام العامة.

التحـــذيـــف

اللسان: «حذف الشىء يحذفه حذفًا قطعه من طرفه والحجام يَحْذِف الشعر من ذلك...

الأزهرى: تحذيف الشعر تَطْرِيره وتَسْوِيته، وإذا أخذت من نواحيه ما تُسَوِّيه به فقد حذفته وقال امرؤ القيس:

لها جَبْهَـــةٌ كَسَراةِ المِجَـنِّ (م) حَـــذَّفَـــه الصـــانـع المُقْتَـــدِر

وقال النضر: التحذيف فى الطُرَّة أن تجعل سُكَيْنِيَّة كما تفعل النصارى».

ويؤخذ من هذا النّص أنّ تحذيف الشعر تَطْرِيره وتَسْوِيته وقصّ أطرافه، ويُفْهَم منه أن هذا خاصّ بالمرأة.

وقد اختار المجمع هذه الكلمة لتُستعمل خاصّة فى تصفيف شعر المرأة وقصّ أطرافه.

الرمـــث

اللسان: «والـرَّمَث بفتح الراء والميم خشب يُشَـدّ بعضُــه إلى بعض كالطَّـوْف ثم يركب عليـه فى البحر، قال أبو صخر الهذلى:

تَمَنَّيْتُ مـن حُبِّى عُلَيَّـــةَ أننـــا على رَمَثٍ فى الشَّرْمِ ليس لنـا وَفْـر

وفى الحديث أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: إنا نركب أرماثًا لنا فى البحر....

قال الأصمعى الأرماث جمع رَمَث بفتح الميم والراء خشب يُضَـمُّ بعضُه إلى بعض ويُشَـدُّ ثم يُرْكَب فى البحر، والـرَّمَث الطَّـوْف وهـو هـذا الخشب، فَعَل بمعنى مَفْعـول مـن رَمَثْت الشىء إذا لَمَمْتـه وأصلحته».

وقد أطلق المجمع هذه الكلمـة على ما يُعْرَف «بالرومس» وعلى ما يُسَمَّى «بـالصَّنْدَل» وعلى كل ما يشبههما مما يجرى فى الماء أو يُجَرّ فيه.

المـــزفـــة

اللسان : «. . . والمِزَفَّة المِحَفَّة وقيل المِحَفَّة التى تُزَفّ فيها العَرُوس».

وقد أقرَّ المجمع صِحَّة استعمالها لعَرَبَة العَرُوس من أىّ نوع كانت.

الملقــة، المسـلفـة، الزحّـافـة

(١) **اللسان**: «. . . والمالَق الخشبة العريضة التى تُشَدّ بالحِبـال إلى الثورين فيقوم عليها الرجل ويجرّها الثوران فيُعَفّى آثـارَ اللُّؤمَة والسِنّ، وقد مَلَّقوا أرضَهم يُمَلِّقونها تمليقـا إذا فعلوا ذلك بها، قال الأزهرىّ مَلَّقوا ومَلَّسـوا واحد، وهى تُمَلِّس الأرض فكأنه جعل المالَق عربيـا، وقيل المالَق الذى يَقْبِض عليه الحارث، وقال أبو حنيفة المِمْلَقة خشبة عريضة يجرّها الثيران».

اللؤمة والسِنّ يُقْصَد بهما سِكَّة المِحراث وحديدته.

(٢) وسَلَفَ الأرض يَسْلُفها سَلْفًا وأَسْلَفها حَوّلها للزرع وسَوّاهـا، والمِسْلَفَة ما سَوَّاها به من حجارة ونحوها.

(٣) «زَحَف يَزْحَف زَحْفًا وزُحُـوفا وزَحَفانا مَشَى. . . وأصل الـزَحْف للصبىّ وهو أن يَزْحَف قبل أن يقوم».

والزَحّافة فَعّالَة للمبالغة من الزَحْف لكثرة ما تَزْحَف.

والأصل فى الزَّحْف أن يكـون من الأحْياء، وقد يطلق مجازا على غير الحَىّ كما هنا، فقـد شاع اسم الزَّحّافَة بمصر على المِسْلَفَة، وهو استعمال يراه المجمع صحيحا لا يُخالف مقاييس اللغة.

لهذا رأى المجمع أن تُطْلَق الكلماتُ الثـلاث: المِمْلَقة، والمِسْلَفَـة، والزَّحّـافَة على تلك الآلـة التى يُسَوِّى بها الزارع أرضَه بعد حرثها.

المِــردس، والمــرداس

اللسان : «رَدَسَ الشىءَ يَـرْدُسُه ويَـرْدِسُه رَدْسًـا دَكَّـه بشىء صُلْب، والمِرْداس ما رُدِسَ بـه . . . والرَّدْس دَكُّكَ أرضًا أو حائطا أو مَدَرا بشىء صُلْب عريض يسمى مِرْدَسا».

ويفهم من هذا النصّ أن المِرْداس والمِرْدَس اسما آلة على مِفْعال ومِفْعل من الرَّدْس وهو الدَّكّ، وقد رأى المجمع إطـلاق هاتين الكلمتين على الآلة البخـارية التـى تُدَكّ بها الحجارة وهـى المسماة فى عُرف العامة بـ«وابور الزلط».

الميطـــدة

اللسان : وَطَدَ الأرضَ رَدَمَهـا لِتَصْلُب . والمِيطَدَة خَشَبـة يُوَطَّـد بها المكان من أسـاس بناء أو غيره لِيَصْلُب . وقـد أطلقها المجمع على كـل آلة يـوطـد بها أساس بنـاء سـواء أحركت بـاليـد أم بالبخـار (مندالة) .

المنـــوار

استعمل بعض قدماء اللغويين هذه الكلمة فى القنـاديل تسرج أمام أبواب الملوك ، ولم نعثر عليها فى المعجمات التى بين أيـدينا ، وكل مـا يمكن أن يقال فى تخريجهـا أنها مِفْعال للمبـالغة من نـار يَنُور بمعنى أضاء ، وكثيرا ما تأتى صيغ المبالغة من اللازم ، وقـد يقال إنها مِفعال للآلة لأنها أداة النور، ولا تتصف الآلة بالعلاج دائما كالمحبرة والميثرة .

وقـد أطلق المجمع هذه الكلمـة على المصابيـح الكبيرة التى تضاء بها الميـادين والشوارع العظيمـة والتى تعرف «بالجلوبات» .

المِعـــرض

اللسـان : «والمِعْرَض الثوب تُعْرَض فيه الجارية وتُجْلَى فيه» .

المصباح : «والمِعْرَض وِزان مِقْوَد ثوب تُجْلَى فيه الجوارِى ليلة العُرْس وهو أفخر الملابس عندهم أو من أفخرها» .

التاج : (و) المِعرض (كِمنبرٍ) ثوب تجلى فيه الجارية وتُعْرَض على المشترى .

ومقتضى نصّ صاحب اللسان والمصباح تخصيص المِعْرَض بثـوب العَرُوس تُجْلَى فيه ليلة العُرْس، والمراد بالجارية فى عبارتها وفى عبارة صاحب القامـوس الفَتِيَّة من النساء لا الأَمَة ، ويظهر أن صاحب التـاج صرف لفظ الجاريـة فى عبارة المتن إلى الأَمَـة فَتَعَقَّبَ عليهـا بقـوله وتُعْـرَض على المشترِى ، وهـو تخصيص غير صحيح بعد أن تضافرت النصوص على التعبير بالجلاء وهو عَرْض العَرُوس على الزوج ، وخلاصة القول أن المعجمات تفيد تخصيص المِعْرَض بثوب الجلاء ، ويرى المجمع أن يخرج به عن هذه الدائرة الضَيِّقة ، وأن يُطْلِقه على الثوب الذى تلبسه المرأة فى زينتها وهو أفخر أثوابها . أو من أفخرها .

واشتقاق اللفظ يعين على هذا التوسع ، لأنّ المِعْرَض من أسماء الآلة ، فهو يدلّ على ما يكون وسيلة وأداة لعَرْض زينة المرأة فى خير أحـوالها ، على أن إطـلاق الخاصّ من بعض قيـوده كثير شائع فى لغـة العرب .

النطـــاق والمنـــطق

اللسان: «والمِنطَق والمِنْطَقَة والنِّطاق كلّ ما شدّ به وسطه[1]».

غيره: والمِنْطَقَة معروفة اسم لها خاصّة، تقول منـه نَطَّقت الرجل تنطِيقا فتَنَطَّق أى شدَّها فى وسطه، ومنه قولهم جَبَل أَشَمّ مُنَطَّق لأنّ السحاب لا يبلغ أعلاه . . . . . . وقد انتطق بالنِّطاق والمِنْطَقَة وتَنَطَّق وتَمَنْطَق، الأخيرة عن اللحيانى.

والنِّطاق شِبـه إزار فيه تِكَّـة كانت المرأة تَنتَطِق بـه، وفى حديث أم إسماعيل: أوّل مـا اتخذ النِساء المِنْطَق من قِبَل أم إسماعيل اتّخذت مِنْطَقًا هو النِّطاق وجمعـه مَناطِق، وهو أن تلبس المرأة ثوبها ثم تشدّ وسطها بشىء وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها.

وفى المحكم: النِّطَاق شُقَّة أو ثوب تلبسه المرأة ثم تشدّ وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى على الأسفل إلى الركبة، فالأسفل ينجرُّ على الأرض وليس لها حُجْزَة[2] ولا نَيْفَق[3] ولا ساقان والجمع نُطُق».

المصباح: «والنِّطاق جمعه نُطُق مثل كتاب وكُتُب، وهـو مثل إزار فيه تِكَّة تلبسه المرأة، وقيل هو حبل تشدّ به وسطها للمِهْنَة وعليه بيت الحماسة:

«كُرْهًا وحَبْلُ نِطاقِها لم يُحْلَل».

والمِنْطَق بالكسر مـا شددت بـه وسطك، فعلى هذا النِّطاق والمِنْطَق واحـد، وقيل لأسماء بنت أبى بكر ذات النِّطـاقين، قيل لأنها كانت تُطارِق نِطاقـا على نِطاق، وقيل كان لها نِطاقـان تلبس أحدهما وتحمل فى الآخـر الـزاد للنبى صلى الله عليـه وسلـم حين كـان فى الغـار، قـال الأزهـرى وهـذا أصح القولين».

الأساس: «وانتطق بِنطاق ومِنْطَق وهو إزار له حُجْزَة، قال ذو الرُّمّة:

خَبَرْنَجَــةٌ خَــوْدٌ كأنَّ نِطــاقَهــا ... على رَمْلَــةٍ بين المقيَّــد والخَصْر»

تـدور هذه المشتقـات جميعـا وهى المِنطَق والنِّطاق والمِنْطَقَة حـول أصل واحد هـو الناطقـة وهى الخاصرة.

ويظهر أن المِنْطَقَة الحِزام بلا خلاف، ففى عبارة القاموس:

«وكمِكْنَسَـة: ما يُنتَطَق بـه، وكِمنبر وكِتاب: شُقَّـة تلبسها المرأة وتشـدّ وسطها إلخ» ففَـرَّق بين

---

(١) لعلها الوسط.

(٢) الحجزة معقد الإزار، ومن السراويل موضع التكة «القاموس».

(٣) نيفق السراويل الموضع المتسع منه «القاموس».

تفسير المِنْطَقة والمِنْطَق والنِّطاق ويقول صاحب المصباح فى شرح المِنطقة: «والمِنْطَقة اسم لما يسميه الناس الحياصة».

أما المِنْطَق والنِّطاق فاختلف اللغويُّون فى معناهما: فهما فى بعض الأقوال الحبل يشدّ به الوسط، وهما فى قول آخر إزار أو شبه إزار فيه تِكّة تلبسه المرأة، وأن أسماء بنت أبى بكر إنما سميت ذات النِّطاقين لأنها كان لها نِطاقان تلبس أحدهما وتجعل فى الآخر الزاد، ويقول الأزهرى إن هذا أصح القولين فى تعليل التسمية.

بقى أن صاحب المحكم يصف النِّطاق بأنه لا حُجْزَة له ويراه ثوبا عاديا يُشدُّ حبل فى وسطه. أما صاحب الأساس فيشترط أن يكون به حجزة، ويفسره غيره من اللغويين بأنه إزار أو شبه إزار فيه تكة.

والمجمع أخذ برأى من يرى أن النِّطاق والمِنْطَق ثوب وأن له حُجْزَة، ثم إنه مع ما يرى من الترادف بينهما اختار أن يخصِّص النطاق بالثوب الظاهرىّ، يشدّ بوسَط المرأة ويرسل إلى قرب القدمين، وهو ما يسمى بالإنجليزية Skirt وبالعامية «الجنلة الخارجية»، وأن يخصِّص المِنْطَق بالثوب الداخلى تشدّه المرأة إلى وسطها ويسمَّى بالإنجليزية Petticoat.

الميدعة

القاموس: «الميدَع والمِيدَعة والمِيداع بالكسر الثوب المبتذل ج مَوَادِع».

اللسان: «والميدَع كل ثوب جعلته مِيدَعًا لثوب جديد تودِّعه أى تصونه به . . . . . .

قال الأزهرى: والتوديع أن تودِّع ثوبا فى صِوان لا يصل إليه غبار ولا ريح ووَدَّعت الثوب بالثوب فأنا أدعه مخفف.

وقال أبو زيد: الميدَع كل ثوب جعلته مِيدَعا لثوب جديد تودّعه به أى تصونه به.

وقال الأصمعى: الميدَع الثوب الذى تبتذله وتودّع به ثياب الحقوق ليوم الحَفْل وإنما يُتّخذ الميدَع ليودَّع به المَصُون».

أقول: وأصل ذلك كله من الدَّعَة وما اتّصل بها من التوديع والإيداع وهما بمعنى الصِيانة.

والمِيدَع والمِيدَعة على مِفعَل ومِفْعَلَة قلبت فيهما الواو ياء لسكونها بعد كسر، وهى من أوزان الآلات، فالمِيدَعة وَسِيلة الصِيانة، وفَسَّر اللغويون هذه الوسيلة على وجهين: فمنهم من فَسَّرها بالثوب يبتذل فى الخدمة أو نحوها لصيانة ثوب آخر يحفظ فى صِوان ونحوه لأيام الحَفْل (انظر رأى الأصمعى)، ومنهم من فَسَّرها بالصُّوان أو نحوه تُحفظ فيه الملابس وتودّع (انظر رأى الأزهرى).

ويمكن أن يفهم من عبارة أبى زيد السابقة وجه ثالث، وهو أن تكون الوسيلة لحفظ الثوب أن يُلْبَس فوقه ثوبٌ يُعْرَض للابتذال ليودّع ويصان به ثوب آخر تحته.

على هذا يمكن أن يراد بالميدعة ما تلبسه الفتاة أو المرأة فى أوقات عملها لصيانة ما تحته من الثياب.

البِذلة

القاموس: «. . . . . وكمكنسة (مِبْذَلَة) ما لا يصان من الثياب كالبِذْلَة بالكسر».

وقد أطلقها المجمع على الثوب يلبسه العامل أو نحوه وقت العمل.

النشير

التاج: «. . . وفى الحديث: إذا دخل أحدكم الحَمَّام فعليه بالنَّشِير ولا يخصف (النَّشِير) كأمِير: (المِئزر) سُمِّى به لأنه يُنْشَر لِيُؤْتَزَر به».

التاج: «(الفُوَط كَصُرَدٍ) أهمله الجوهرى، وقال الليث: (ثياب تجلب من السِّند) وهى غلاظ قِصار تكون مآزِر (أو) هى (مآزِر مخططة) يشتريها الحمالون والأعراب والخدم وسفل الناس بالكوفة، فَيَتَّزِرون بها (الواحدة فُوطة بالضم) قاله الأزهرى: قال: ولم أسمعها فى شىء من كلام العرب، ولا أدرى أعربية هى أم هى من كلام العجم.

قال ابن دريد: فأما الفوط التى تلبس فليست بعربية (أو هى لغة سِندية) معربة بوته بضمة غير مشبعة، قاله الصاغانى.

اللسان: «الفُوطَة ثوبٌ غليظ يكون مِئْزَرا يُجْلَب من السِنْد، وقيل الفوطة ثوب من صوف فلم يحل بأكثر وجمعها الفوط.

قال أبو منصور: لم أسمع فى شىء من كلام العرب الفوط، قال ورأيت بالكوفة أُزُرًا مخططة يشتريها الحمالون والخدم فيتَّزِرون بها الواحدة فوطة، قال: فلا أدرى أعربى أم لا.

المئـزر

اللسان: «. . . والإِزْر والمِئزَر والـمِئْزَرَة الإزار الأخيرة عن اللحيانى . . .».

التاج: (والإِزار) بالكسر معروف وهو (الملحفة) وفسّره بعض أهل الغريب بما يستر أسفل البدن، والرداء ما يستر أعلاه، وكلاهما غير مَخِيط.

وتفسير اللغويين لا يفرّق بين النَّشِير والمِئْزَر، ولكن المجمع رأى أن مادة النشير تساعد على إطلاقه على ما يُغَطِّى الجسم كلّه لأنه من النشر وهو البسط والامتداد، فأطلقه على الثوب من نسيج المآزر له كُمَّان وبه غطاء للرأس يلبس بعد الاستحمام، ويلبسه المصطافون فوق الإتب قبل نزول البحر وبعده.

الكمة، (الطاقية)

اللسان: «والكُمَّة القَلَنْسُوَة.

الصحاح : الكُمَّة القَلَنْسُوَة المُدَوَّرة لأنها تُغَطِّى الرأس.

ويروى عن عمر رضى الله عنه أنه رأى جارية متكمكمة، فسأل عنها فقالوا أَمَة آل فلان، فضربها بالدِّرَّة، وقال: يالكعاء أتتشبَّهين بالحرائر؟

أرادوا مُتَكَمِّمَة فضاعفوا، وأصله من الكُمَّة وهى القَلَنْسُوَة فَشَبَّه قناعها بها.

وفى الحديث كانت كِمام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بطيحا، وفى رواية أكمة.

وقد خصص المجمع هذه الكلمة بالقلنسوة المنبطحة التى تلبسها البنات والنساء.

الشبكة

أصل الشَّبْك إدخال بعض الأشياء فى بعض، ومنه تشبيك الأصابع وشَبَكَة الصياد، وقد أطلقت الشَّبَكَةُ هنا على ذلك النسيج الذى يُشْبه شَبَكَة الصياد تتخذه المرأة صيانة لشعرها أن يذهب نظامه.

القَرْطف

اللسان: «القَرْطَفَة القَطِيفَة المُخْمَلة قال الشاعر:

«بأن كذب القَراطف والقُروف»

الأزهرى فى ترجمة قطف : القَراطف قُرُش مُخْملَة، وفى حديث النخعىّ فى قوله ﴿يأيها المدثر﴾ أنه كان متدثرًا فى قَرْطَف هو القطيفة التى لها خَمْل.

التاج : «القَرْطَف كجعفر القطيفة» نقله الجوهرى، ومنه قول الكميت:

عليه المنامة ذات الفضول ... من الوهن والقَرطف المُخْمَل

وفى حديث النخعىّ فى قوله تعالى: ﴿يأيها المدثر﴾ أنه كان متدثرا فى قَرطَف وهو القطيفة التى لها

خَمْل والجمع قراطف، قال الأزهرى: هى قُرُش مُخْمَلَة، قال معقر البارقىّ:

وذبيـــــانيـــــة أوصت بنيهـــــا بأن كـــذب القـــراطف والقـــروف

أى عليكم فاغنموها.

وفى فقه اللغة للثعالبى: المنامة والقرطف والقطيفة: ما يتدثر به من ثياب النوم».

أقول ومن النصـوص السابقـة يظهر أن القَرْطَف نسيـج غليظ به خَمْل يُتَدَثَّـر به، وهـذا ما يسمى (بالبطانية) وقد أطلقه المجمع عليها.

الـزَّرْبيَّـــة، الـزرابــىّ
الطُّنفِسة، الطنافِس، السجادة

اللسان: «والزَّرابىّ البُسُط، وقيل كل ما بُسِط واتُّكِئ عليه، وقيل هى الطنافِس.

وفى الصحـاح: النمارق والواحد من كل ذلك زَرْبِيّة. . . .

وقال الفراء: هى الطنافِس لها خَمل رقيق، وروى عن المؤرج أنه قال فى قوله تعالى﴿وزَرابِىُّ مبثوثة﴾ قال: زَرابِىّ النبت إذا اصفرّ واحمرّ وفيه خُضرة وقـد ازْرَبّ، فلما رأوا الألوان فى البُسُط والفُرُش شَبَّهُوها بزَرابىّ النبت. . . . . وتكسر زايها وتفتح وتضم. . . . .

الطُّنفِسة: فى اللسـان: الطِّنفِسَة والطُّنْفُسَة بضـم الفاء الأخيرة. عن كُراع النمرقة فـوق الرَّحْل وجمعها طنافِس، وقيل هى البِساط الذى له خَمْل رقيق.

السجادة: فى التـاج: «الخُمرة المسجود عليها وسمع ضم السين كما فى الأساس».

أقول هذا هو الأصل فى معناها، ثم أطلقت على ما يفرش من الطنافس للسجود أو غيره.

ويرى المجمع أن تخصص الزَّرابِىُّ بما له خَمْل رقيق، وأن تطلق الطنافس والسجادات إطلاقًا عامًا.

طريق تكميل المواد اللغوية (*)

وضع المجمع فى دورته الثانية قرارًا خطير الشأن، كبير الأثر، هو:

قرار تكملة مادة لغوية

ورد بعضها فى المعجمات ونحوها ولم تردْ بقيتها

إذا لم تذكر من مادة لغوية فى المعجمات ونحوها إلا بعض ألفاظها كالمصدر أو الفعل أو أحد المشتقات الأخرى، فلذلك حالان:

الأولى: أن تكون المادة غير ثلاثية الحروف، وحينئذ يجوز لنا أن نصوغ منها ما لم يذكر على حسب قياس كل باب من أبواب مزيد الثلاثى وباب الرباعى وملحقه ومزيده.

الثانية: أن تكون المادة ثلاثية والمذكور حينئذ إما فعل، وإما مصدر، وإما مشتق غير الفعل.

(أ) فإن كان المذكور فعلا، فهو إما متعدّ وإما لازم. فالمتعدّى نصوغ له مصدرًا على وزن (فَعْل) بفتح فسكون، ما لم يدل على حرفة.

واللازم له أربع حالات:

١ - إما أن يكون على وزن (فَعِلَ) مكسور العين، فنصوغ له مصدرا على (فَعَل) مفتوح العين، ما لم يدل على لون، فيصاغ مصدره حينئذ على وزن (فُعْلة) بضم فسكون.

٢ - وإما أن يكون على وزن (فَعُلَ) مضموم العين، فنصوغ له مصدرًا على (فَعَالة) أو (فُعُولة) بالضم.

(*) ألقى هذا البحث فى جلسة المجمع بتاريخ ١٦ يناير ١٩٣٦ ونشر بمجلة المجمع بالجزء الثالث ص ٢١١.

٣ ـ وإما أن يكون على وزن (فَعَلَ) بفتح العين، فنصوغ له مصدرًا على (فُعُول) بالضم، ما لم يدل على حرفة، أو اضطراب، أو صوت، أو مرض، فنصوغ مصدر كل منها على الوزن الذى قرّر المجمع قياسيته فى دورتـه الأولى، وما لم يـدل أيضًا على سير أو امتنـاع، فإننا نصـوغ للأول مصـدرًا على (فعيل)، وللثـانى مصدرًا على (فِعـال) بالكسر، وما لم يكن معتـل العين فيكون قياسـه (الفَعل) بفتح فسكون.

٤ ـ وإمـا أن يكون مجهول البـاب، فنرجعه بحسب ما يـدل عليه من المعنى أو التعديـة أو اللزوم، إلى باب من الأبواب المتقدمة، ونصوغ له مصدرًا مناسبًا لهذا الباب.

(ب) وإذا كان المذكور فى المعجمات ونحوها مصدرًا:

١ ـ فإما ألا يدل على سجية، أو حزن، أو فرح، أو لون، أو عيب، أو حلية، أو خلوٍّ، أو امتلاء، أو خوف، أو مـرض على وزن (فَعَل)، فيصاغ لـه فعل من باب نصر أو ضرب، مـا لم تكن عينه أو لامه حرف حلق، فإن بابه (فَعَل يَفْعِل).

٢ ـ وإما أن يدل المصدر على معنى من المعانى السابقة.

فإن دل على سجية كان فعله على (فَعُل يفعُل)، وإلا كان الفعل من باب (فَعِلَ يَفْعَل).

(جـ) وإذا كان المذكور فى المعجمات ونحـوها مشتقا غير فعل استدللنا على مصدره أو فعلـه بمعرفة ما يدل عليه هذا المشتق من المعانى والتعدية واللزوم.

وكل ما تقدم جائز، ما لم ينصّ على أن الفعل ممات أو محظور، وما لم يسمع عن العرب ما يخالفه. فإن سمع عملنا بالمسموع فقط، أو عملنا بالمسموع أو القياس».

* * *

ولما كان العمل بهذا القرار يتطلـب دقة فى النظر، وذوقًا حساسًا فى العربية، وإلمامًا وبصرًا بعلم الصرف، وحيطة وأناة فى العمل، أردت أن أعرض أمثلة تبين طريق العمل بهذا القرار. راجيا أن يكون بها ما ينير السبيل فى هذا البحث.

وقد درست ثمانيـا وخمسين مادة ناقصة فى جميع المعجمات التى ظفـرت بها يدى، وانتهيت فى كلّ منها إلى حكم بعد البحث وطول النظر. ولعلى أكون قد وفقت إلى الوصول إلى ما أردت.

وإنى ذاكر الآن ما جاء من النُّصوص اللغوية فى كل مادة، ومعقّب عليها بما هدانى إليه نظرى. فأقول:

جبس

جاء فى المعجمات من هذه المادة :

الجِبْس: الجبان الفدم، الضعيف اللئيم، أو الثقيل الذى لا يجيب إلى خير، أو الردىء الدنىء.

والأجبس: الجبان الضعيف.

والتجبس: التبختر، وتجبس تبختر.

والمجبوس: المتهم فى عرضه.

ونرى أنّ المادة اشتملت على صفتين مشبهتين هما الجِبْس والأَجْبَس، ونعرف أنّ أفعلَ فيما دلّ على عيب فى الصفة المشبهة، يكون مؤنثه فعلاء وأنه يختصُّ بباب فرح.

وإذًا يكون الفعل جَبِس الرجل يُجبَس جَبَسا، جبن أو ضعف ولؤم أو ثقل ونرى فى هذه المادة أيضًا اسم مفعول من الثلاثىّ، وهو إنما يصاغ من المتعدى مجردًا من الظرف والجارّ والمجرور والمصدر، وهذا يوحى بوجود الفعل جَبَس متعدّيا.

ولما كان المضارع مجهولا، ساغ لنا أن نصوغه من باب نصر[1]، وأن نقول جَبَسَه يجْبُسه جَبْسا، اتهمه فى عرضه وعابه.

ومن مصدر هذا الفعل يأتى اسم الفاعل وبقية المشتقات القياسية.

وفى رأينا أنّ تجبَّس المزيد الذى جاء بمعنى تبختر مأخوذ من هذا الفعل، لأن التبختر فى الغالب لا يدلّ على الرجولة الكاملة.

جدس

جاء فى المعجمات التى فى متناولنا من هذه المادة:

الجادس من كل شىء ما اشتد ويبس كالجاسد.

وأرض جادسة لم تعمر ولم تحرث.

والذى نراه أن الجادس مقلوب الجاسد، وقد ذُكر للجاسد مصدر وفعل.

---

(١) فى المخصص ١٤ ـ ١٢٣ قال بعض النحويين: إذا علم أن الماضى على فعل (بفتح الفاء والعين) ولم يعلم المستقبل على أى بناء هو، فالوجه أن يجعل على يفعل (بكسر العين) لما قدمت من أن الكسرة أخف من الضمة وقيل هما يستعملان فيما لا يعرف اهـ. وقد رجحنا باب نصر لكثرة أفعاله.

قال فى اللسان:

والجسد مصدر قولك جسِد به الدم يجَسد إذا لصِق به فهو جاسِد وجَسِد. والذى يرجح عندنا أن الجادِس مقلوب الجاسِد تساويهما فى المعنى بدليل تفسيرهم الجادِس بالجاسِد.

فنحن الآن أمام مادتين متحدتين فى الأحرف لا فى ترتيبها، ولابن جنّى فى ذلك رأى فاصل، جاء فى شرح القاموس فى مادة «جبذ» واختلاف علماء اللغة فى أنه مقلوب جذب أو ليس مقلوبه.

قال ابن جنّى: ليس أحدهما مقلوبًا عن صاحبه، وذلك أنهما يتصرفان جميعا تصرفًا واحدًا، تقول جذب يجذب جذبا فهو جاذب، وجبذ يجبذ جبذًا فهو جابذ، فإن جعلت مع هذا أحدهما أصلا لصاحبه فسد ذلك؛ لأنك لو فعلته لم يكن أحدهما أسعد بهذه الحال من الآخر ، فإذا وقفتَ الحالَ بهما، ولم تؤثر بالمزية أحدهما، وجب أن يتوازيا فيتساويا، فإن قَصر أحدهما عن تصرف صاحبه فلم يساوه فيه كان أوسعهما تصرفًا أصلاً لصاحبه.

وإذا اعتمدنا هذا الأصل وارتضيناه، وهو ما نميل إليه، رأينا أن مادة جسد أكثر تصرفًا من جدس فتكون الأولى هى الأصل، ويقتصر فى الثانية على ما ورد منها.

أما أرض جادسة فيظهر أن الكلمة مشتقة من اسم ذات وهو جَدِيس (حىّ انقرض منْ عاد) وقد قالوا جدس الأثر يجْدُس[1] إذا دَرَس (كما دَرَسَتْ قبيلة جَدِيس)، ومن ذلك أرض جادسة أى خَرِبة لم تُعْمَر ولم تُحْرَث فهى قَفْر كما أقفرت الأرض من جَدِيس وعلى هذا تكون هذه المادة (جدس) جمعت أصلين: أحدهما اليُبْس والشدّة، والثانى الخراب والإقفار، ولا يكون للأصل الأول تصريف، أما الثانى فمتصرف.

جـــــدن

جاء فى المعجمات:

أجدن الرجل استغنى بعد فقر، والجَدَن حسن الصوت.

والجَدَن هنا مصدر كما يظهر على وزن فَعَل فيكون فعله لازمًا من باب فرح.

جدِن يجدَن بمعنى حسن صوته.

أما أجدن فالظاهر أنهـا مشتقة من الجامد، وهو ذو جَدَنٍ قَيْل من أقيال حمير والمناسبة ظاهرة[2].

---

(١) لم نعثر إلا على الماضى فى كتب اللغة، أما المضارع فقد استظهرناه ويكون مصدره الجدوس لأن ماضيه على فعل لازم.

(٢) ويمكن تخريجها على أنها مبدلة من أجدم ففى شرح القاموس أجدمت النخلة حملت شيصا، واستعمال أجدن الرجل بمعنى استغنى بعد فقر على هذا التخريج مجاز علاقته المشابهة.

جَــتّ

جاء في المعجمات:

الجَتُّ الجَسُّ للكبش لتنظر أسمين أم لا .

وظاهر أنّ الجَتّ مصــدر الفعل المتعدى المضعف (جَتَّ)، وبابه غالبًا نصر، تقول جَتَّ الكبش يَجُتُّه جسًّه، وليس ما يمنع من أن يراد به الجسّ مطلقًا لكبش أو غيره(١).

جَــرَه

جاء في المعجمات:

يقال سمعت جَرَاهِيَةَ القوم: كلامهم وجَلَبَتهم وعـلانيتهم دون سِرهم، وجَرَّهْت الأمر تجريها إذا أعلنته.

والظاهر أنّ الجَراهِيّة مصدر كالكراهية والطَماعِية والعلانية، وأن ما قد يظن له من فعل ثلاثى هو جَرَه مقلوب جَهَرَ، فإذا رجعنا إلى رأى ابن جنـى رأينا أن مادة جهـر أكثر تصرفًـا فتكون هى الأصل، ويقتصر على ما سمع من مادة جره.

غير أننا نجد فى اللسان فى مادة شده، قال أبو منصور: لم يجعل شُدِهَ من الدَّهَش كما يَظُنّ بعض الناس أنه مقلوب منه واللغة العالية دهِش على فعِل، وأما الشَّدْه فالدال ساكنة.

ويفهم من هذا النّص أنه إذا اختلفت أوزان التصاريف فى المادتين اللتين يُظَنّ أنّ إحداهما مقلوبة الأخرى اعتبرت كلّ مادّة أصلاً من غير نظر إلى تساويهما فى التصرف أو عدم تساويهما، ونحن إذا نظرنا فى مصادر جهـر لا نجد بينهما مصدرًا على وزن الفعـالية، فهى على حسب ما نقلـه صاحب اللسان أصل قائم بذاته فـإذا صرفناها قلنا: جَـرَه الشىء وبالشىءِ جَـرْها من بـاب فتح لأنه حلقى الـلام بمعنى أعلنه وأظهره، فهو متعدّ بنفسه وبالباء، ويشتّق منه بقية المشتقات.

جَــدَه

جاء في المعجمات:

رجل مَجْدوه: مَشْدوه فَزِع.

---

(١) قد تكون التاء مبدلة من السين، وقد ذكر فى المخصص لذلـك أمثلة. وإذا كان الأمر كذلك وجب الوقوف عند ماورد من مادة جت.

ونرجح أن يكون الفعل من باب فرح لدلالته على الخوف والفزع والدهش[1]، فيقال جَدِهَ فلان يَجْدَه جَدَهًا، وجُدِهَ به فهو مجدوه[2].

جشـــن

جاء فى المعجمات:

الجَشْنُ الغليظ والمجشونة المرأة الكثيرة العمل النشيطة.

ويظهر لنا أن الجَشْن صفة مشبهة على وزن فَعْل كضخم وفخم فيكون فعله جَشُنَ يَجْشُن جُشونة غِلُظ.

أما المجشونة فهى على وزن مفعول فيكون فعلها متعديا، كأن يقال جَشَنه يَجْشُنُه جَشْنًا شَغَلَهُ.

جـــزن

جاء فى المعجمات:

حَطَب جَزْن وجَزْل وجمعه أَجْزن وهو الخُشْب الغِلاظ.

والظاهر أن النون مبدلة من اللام فى هذه المادة فإنهما تتعاقبان كثيرًا، يقال فرس رِفَنٌّ ورِفَلٌّ، طويل الذنب، كما يقال جِبْرِين وجِبْرِيل.

لهذا نرى مادة جزل أصلاً، ونرى أن نقتصر على ما سمع من مادة جزن، ولا نزيد عليه.

جـــلذ

جاء فى المعجمات:

قالوا: إنهُ لَيَجْلَذ بكلِّ خير أى يظن به.

والأجْلِوّاذ والاُجْلِيوّاذ المضاء والسرعة فى السير، قال سيبويه لا يستعمل إلا مزيدًا. اهـ من اللسان.

من هذا يُرى أنه لا يصحّ أن يُؤتى بمجرّدلـ« اجْلَوَّذَ »كما قال سيبويه، ومن رأيى أنه إذا سمع المزيد وكان كافيا فى تأدية معنى الفعل المجرد اكتفى به وبمشتقاته، وأنه لا يسوغ حينئذ فرض فعل مجرد.

---

(١) فى المخصص: أجروا الذعر والخوف مجرى الداء لأنه بلاء اهـ ونص قبل ذلك على أن الداء من باب فرح ١٤ـ١٤٠.

(٢) أى: مجدوه به؛ ففى الكلام حذف وإيصال.

أما يُجْلَذ التى جىء بها دون بقية المشتقات والمصادر فهى نظير يُجْلَد بالمهملة لفظًا ومعنى، ومعناه يظن أو يتهم، ففى حديث الشافعى: كان مجالد يُجْلَد أى كان يُتَّهَم ويُرْمَى بالكذب، فكأنه وضع الظنّ موضع التُّهَمَة. ثم إننا لا نجد فيما بين أيدينا من المعجمات أيضًا تصريفًا للفعل يُجْلَد بالدال بمعنى يُظَنّ، لذلك نرى أن يقتصر على تصريف أسهل الفعلين وأن يقال جَلَده يَجْلُده جَلْدا ظَنّه أو اتّهَمَه أو رماه بالكذب.

جنص

فى اللسان: أبو مالك واللحيانى وابن الأعرابى: جَنَّص الرجل إذا مات. أبو عمرو: والجَنِيص الميت، وجَنَّص رُعِبَ رُعْبًا شديدًا أو هَرَب من الفَزَع، وجَنَّص بصره حَدَّدَه، وجَنَّص فتح عينيه فزَعًا.

ويغنينا عن الفعل المجرد هنا مزيده، إلا فى جَنَّص بمعنى مات؛ لورود الجَنِيص منه بمعنى الميت، والجَنِيص فيما يغلِب على ظنّنا صفةٌ مشبَّهة، فهى تحتاج إلى فعل مجرد، وهو فيما يغلب على ظنِنا من باب فرح[1]، لأن المادة فى جملتها تدل على الفَزَع والوَهَل، فيقال جَنِص الرجلُ يَجْنَص جَنَصًا مات، وجَنَّص المزيد بمعنى المجرَّد.

جهف

هذه المادة ليست فى اللسان، وفى التاج «أَجْهَفَ الشىءَ أخَذَه أخْذًا شديدًا، هكذا نقله عن الصاغانى فى العُباب، قلت: ولعله لغة فى اجْتَأَفَه بالهمزة، أو جَحَفَه بالحاء».

وجَأَفَ من باب فَتَح والمصدر الجَأْف من معانيه الأخذ بالشدّة؛ يُقال: جَأَفَ الشجرةَ إذا قلعها من أصلها.

وجَحَف من باب فتح أيضًا، ومن معانيه القشر والجَرْفُ والجَمْع والرَّفْس.

وهناك فعل ثالث هو جَعَف من باب فَتَح أيضًا، بمعنى الصَّرْع والقَلْع.

وأرى أن الهاء فى الفعل جَهَف مبدلة من الهمزة أو الحاء أو العين، ولما كانت الأفعال: جَأَف وجَحَف وجَعَفَ أكثر تصرفًا وجَبَ أن تكون هى الأصل وأن يُقْتَصَر على ماورد فى اللغة فى مادة جهف للاستغناء عنها بأصولها.

---

(١) جاء فى المخصص عند الكلام فى باب فرح «وقد يجىء الاسم فعيلا، ومثل له بمريض وسقيم وعسير وحزين».

حشب

في اللسان: احتَشَب القوم احتشابا إذا اجتمعوا، وفى التاج: ويقال أحْشَبه إذا أغْضَبه كأحْشَمَه نقله الصاغانى، وفيه الحَشِيب من الثياب والخَشِيب والجَشِيب الغليظ ؛ وفى اللسان: والحِشْمَة والحُشْمَة أن يجلس إليك الرجل فتؤذيه وتُسمِعه ما يكره، حَشَمَه يَحْشِمُه ويَحْشُمُه حَشْما.

والظاهر أن الباء مبدلة من الميم، وأن تَصَرُّفَ الأفعال فى ذى الباء قليل فيقتصر على ما ورد منها، وليس من العسير أن نجد صلة وارتباطا بين معنى الاحتشاب وهو اجتماع القوم ومعنى الغضب لأن الاجتماع قد يكون سببه الغضب.

أما الحَشِيب بمعنى الغليظ فيقرب فى لفظه ويتَّحِد فى المعنى هو والجَشِيب. وقد نُصَّ فى اللغة على فعل للجَشِيب من بابى نصر وكرم، جاء فى اللسان: وجَشَب الشىءُ يَجْشُب غَلُظ، وجاء فيه وجَشُبَ جَشَابة.

وعلى هذا نكتفى فى هذا المعنى أيضًا بمادة جشب، لكثرة تصرفها، ونقتصر على ما سمع من مادة حشب.

حقز

فى التاج الحاقِزة أهمله الجوهرىّ وصاحب اللسان، وقال الصاغانى هى التى تَحقِز برجلها أى ترمح بها كأنها مقلوب القاحِزة.

ونرى أن الصاغانى صرح بفعله بقوله هى التى تحقِز برِجلها، ولم يذكره غيره ولعله أخذه من لفظ اسم الفاعل.

وجاء فى مادة قحز: قحز كجعل يَقْحَز قَحْزًا وَثَب وقَلِقَ واضطرب.

ثم قال: وقَحَز الكلبُ ببوله يَقحَز بالفتح قَحْزًا وقحوزا وقحزانا محركة رمى بِهِ كقزح، وهو مقلوب منه كما قال الزمخشرى وابن القطاع. وجاء فى المستدرك: قحز الرجل عن ظهر البعير يقحز قحوزا سقط، وقحز الرجلَ قحزا وقحوزا وقحزانا أهلكه.

ونحن نرى تقاربًا فى المعنى بين حقز وقحز وقَزَح ففى كل منها معنى الطرح والرمى ونوافق الزمخشرى على أن أصل كل ذلك قزَح، لذلك نرى الاكتفاء بما ورد من مادة حقز.

حـلد

قال فى التاج: «(إبل محاليد) أهمله الجوهرى والجماعة أى (ولت ألبانها)، قلت: وقد تقدم له هذا المعنى بعينه إبل مجاليد، فإن لم يكن تصحيفًا من بعض الرواة فلا أدرى».

وجاء فى التاج فى مادة جلد: (و) الجِلاد (من الإبل الغزيرات اللبن)، والجِلاد أدسم الإبل لبنا، وعن ثعلب ناقة جلدة مِدرار (كالمجاليد) جمع مجلاد، أو الجِلاد من الإبل (ما لا لبن لها ولا نتاج).

ونرى أنه لا محل لشك صاحب التاج فى صحة الكلمة؛ لأن صاحب القاموس كان عليما بالغريب مشغوفا به، غير أننا نقول: إن ذات الحاء لغة فى ذات الجيم[1] ولما كانت مادة جلد تامة التصريف فقد جاء فى اللغة جلُدتِ الناقة تجلد جلادة جف لبنها فهى مجلاد ـ وجب الاقتصار على ماورد من مادة حلد اكتفاءً بذات الجيم.

حـمـر

اللسان: الحمرة من الألوان المتوسطة معروفة ـ لون الأحمر يكون فى الحيوان والنبات وغير ذلك ـ وقد احمرَّ الشىء واحمارّ بمعنى.

فذكر لهذه المادة فى هذا المعنى المصدر والصفة المشبهة وفعلين مزيدين، ولم يذكر المجرد، وقد نصَّ بعض أعلام اللغة على أن الحمرة لا يأتى منها فعل مجرد، ففى اللسان: قال الفراء: العرب لا تقول حِمر ولا بِيض ولا صفِر، ونحن نوجب العمل بهذا النص، وندعو إلى صيانة اللغة من أن يدس فيها ما ليس منها.

ولا بأس أن نورد هنا مصادر بعض الألوان وأفعالها التى عثرنا عليها فى أثناء مراجعاتنا وهى:

الصُّهبة: وفعلها من باب فرِح.

والشُّهبة: وتأتى من بابى كرم وفرح.

والزُّرقة: وبابها فرِح.

والأدمة: وهى من باب فرِح[2].

والسُّمرة: وهى من بابى كرم وفرِح.

والسواد: من باب فرِح، وفعله سوِد وساد.

---

(١) لا نظن أن هنا إبدالا؛ لأننا لم نعثر فيما وقفنا عليه أن الجيم تبدل حاء.

(٢) ومن باب كرم فى لغة ـ المخصص.

والقُتمة: وهى من بابى ضرب وفرِح.

والخُطبة: وبابها فرِح.

والقُهبة: وفعلها من باب فرِح[1].

والكُهبة: وهى من بابى فرِح وكرم.

والكُمدة: وبابها نصر.

والعُفرة: وبابها فرِح.

والدُّكنة: وبابها فرِح.

والحُوَّة: وبابها فرح.

والغُبْشة: شدة الظلمة، وبابها فرِح.

والغُبسة: لون الرماد، وبابها ضرب.

والكُمتة: حمرة يخالطها سواد، وبابها كرم.

والوُردة: الحمرة تضرب إلى الصفرة، وبابها كرم.

والشُّقرة: بياض فى حمرة، من بابى فرح وكرم.

أما السُّخمة، والصُّحمة، والدُّبسة والعِيسة والبرُشة، فلم تـذكر لها فى المعجمات أفعـال مجردة، وليس ما يمنع من وضع أفعال لها من باب فرِح، وهو الباب الشائع فى الألوان، وسنتناول بعض هذه بالكلام فى هذا المقال.

حمـــج

فى اللسان: التحمِيج فتح العين وتحديد النظر كأنه مبهوت، قال أبو العِيال الهذلِى:

وحَـــمَّـــجَ للجبـــانِ المـــو ... تُ حتـــى قلبـــه يَـــجِب

أراد حَمَّجَ الجبـانُ للمـوت فَقَلَب[2]، وقيل تحمِيج العينين غُئـورهما، وقيـل تصغيرهما ليمكـن النظر...

وقوله: «وقد يقود الخيل لم تُحَمِّجِ» فقيل تحمِيجها هزالها.

والتحمِيج التغير فى الوجه من الغضب ونحوه.

---

(١) ومن باب كرم فى لغة ـ المخصص.

(٢) يستقم المعنى على مجاز بديع من غير قلب.

وفى التاج «والحَمُوج كصَبُور الصغير من ولد الظبى»، وهذا المشتق يدل على وجود الثلاثى، وقد يكون من أسباب إطلاق الحَموج على الصغير من ولد الظبى هزاله أو صغر عينيه.

ونرى أن يصاغ فعله من باب ضرب لازما[1] حَمَج يَحْمِج حُمُوجًا بمعنى فتح عينيه فى دَهَش أو ضَيَّقَهما لتحديد النظر، وبمعنى هُزِل وتغير، ويكون فعَّل منه للمبالغة أحيانا وللتعدية أحيانا.

خـــدن

الخِدْن والخَدِين الصديق، والمُخَادنة المُصاحبة، والأَخْدَن: ذو الأخدان، ورجل خُـدَنَة: يُخَادِن الناس كثيرا، ونرى أن الخدن والخَدِين والأَخْـدَن صفات مشبهة، وأنها تنبىء بوجـود الفعل الثلاثى، غير أن الفعل المزيد «خادن» يؤدِّى معنى المجرد فلا داعى لوضعه.

خـــذر

فى اللسان: الخاذِر المستتر من سلطان أو غرِيم، ولم يُذْكَر لهذه المادة فعل أو مشتقات أخرى فى المعجمات، ولكن يظهر أن الذال فيها لغة فى ذات الدال (خدر) لذلك يقتصر فيها على ما جاء منها.

خســـن

فى اللسان: أهمله الجوهرى، وروى ثعلب عن ابن الأعرابى أخسن الرجل إذا ذَلَّ بعد عِزٍّ، وهى أقـرب فى المعنى إلى خَشُنَ العيش خُشُـونـة ضـد لان، وإذا كـانت السين مبدلـة من الشين كما هـو ظاهر[2] وجب الوقوف عند المسموع من مادة خشن.

خَفَـــل

فى اللسان: ابن الأعرابى الخافِل الهارِب، وكذلك الماخِل والمالخ، وقد أعاد ذلك فى مخل، ولم يذكر له فعلا أو مصدرا، أما ملخ فإنه مـن باب فتح ومصدره الملخ، ولما كان المعنى واحـدًا فى هذه المشتقات الثلاثة وهى الخافِل والمالخ والماخِل، وكان أحدها من باب فتح رجح أن يكون فعل الـخافِل من باب فتح أيضًا، أما الماخِل فلا نرى وضع فعل له لأنه مقلوب المالخ.

---

(١) إنما اخترنا باب ضرب هنا استئناسا بكلمة صبور الذى وزن بها صاحب التاج الحموج.

(٢) عدّ صاحب المخصص من هذا النوع من الإبدال أمثلة كثيرة ١٣ ـ ٢٧٨.

خـــلم

فى اللسان: الخلم بالكسر الصديق الخالص . . . والجمع أخلام وخلماء، قال ابن سيده:

وعندي أن خلماء على توهم خليم، والمخالمة المصادقة والمغازلة . . . والخلم مريض الظبية أو كِناسها لإلفها إياه وهو الأصل فى ذلك تتخذه مألفا وتأوِى إليه، ويسمى الصديق خلما لألفته . . . والخِلم أيضًا العظيم، وزاد فى القاموس الخالِم المستوِى الذى لا يفوت بعضه بعضًا، وإبل خِلْمَة بالكسر رِتاع، واختلمه وخَلّمه تخليما اختاره، وخالمه صادقه.

ومن ذلك يفهم أن الأصل فى هذه المادة« الخلم »مَريض الظبية، وهو اسم ذات وأن العرب نقلته إلى المصادقة والمصاحبة بجامع الإلف، ثم أخذت منه مصادر اشتقت منها خالمه وخلّمه واختلمه، ثم اشتقت اسم الفاعل وهو الخالم من مصدر الثلاثى بمعنى آخر يتصل بالمعنى الأصلى وهو مريض الظبية بسبب الاستواء فيها، أما الخلم: بمعنى العظيم فيبعد عن هذا الأصل بعض البعد.

ونحن نكتفى بالأفعال المزيدة التى وردت بمعنى المصاحبة والمصادقة، لأنها تغنى عن المجرد، ونرى أن يوضع فعل من باب نصر مصدره الخَلْم للدلالة على استواء المكان[(١)] وأن يوضع فعل من باب كَرُم للدلالة على العظَم[(٢)].

خـــمت

فى اللسان: الخَميت السمين حِمْيَرِيَّة، وفى القاموس الخميت السمين وبوزنه، وفى زنة صاحب القاموس للخميت بالسمين ما يشبه الإشارة إلى أن فعله كسمِن، فيكون خَمِتَ يَخْمَت، وقياس مصدر فعِل اللازم الفعَل، ويكون الخميت صفة مشبهة.

خـــنر

فى اللسان: أبو العباس: الخانر الصديق المصافى وجمعه خُنُر، يقال فلان ليس من خُنُرى أى ليس من أصفيائى، وعقب صاحب التاج على القاموس فى قوله جمعه خُنُر بضمتين بأن الصواب خُنَّر كـ: ركَّع، ولعل سبب ذلك أن فاعلا لا يجمع على فُعل، ويمكن أخذ الفعل والمصدر من المشتق خَنَرَه يَخْنُره خَنْرًا بمعنى صادقه وصافاه.

---

(١) وذلك لورود اسم الفاعل خالم.

(٢) تأتى الصفة المشبهة على وزن فعل بكسر فسكون من باب كرم كملح.

خـــوش

فى اللسان: الخَوْش صغر البطن، وكذلك التخـويش والمُتَخَوِّش والمُتخاوِش الضـامر البطن، وتَخَوَّشَ بَدَنُ فلان هُزِل بعد سِمَن، وخَوَّشه حقّه نَقصَه.

ومن السهل أخذ الفعل من المصدر هنا وهو الخوش بأن نقول: خاش البطن يخوش خوشًا صغر، وخاش المال يخوشه نَقَصه.

دَبَـــس

والدُّبسـة لون فى ذوات الشعـر أحمر مشرب، والأدبس من الطير والخيل الـذى لـونه بين السـواد والحمرة، وقد ادَّبس ادِّباسا، وقد ادباسّ وهو أدْبَس، والدِّبس الأسود من كل شىء . . . أبو حنيفة: أدبست الأرض رئِى أوّل سواد نبتها فهى مُدْبِسة . . . ودَبَّس الشىء واراه.

ذُكر من هذه المادة المصدرُ وصفتان مشبهتان وأفعال مزيدة، ولما كانت هذه المادة تدل على لون، وكان مصدرهـا على فُعْلَة كان فعلها مـن باب فرح، تقول: دَبِس الشىء يَـدبَس دُبْسَة كان لـونه بين السواد والحمرة، أما أَدْبَسَت الأرض فالمزيد فيها يغنى عن المجرد، وتقول: دَبَس الشىء يَدْبَس بمعنى توارَى واختفَى، ودبَّسته أخفيته، ولا يغنِى هنا ادَّبَس وادْبـاسّ عن المجرد لأنهما يفيدان معنى جـديدًا بالزيادة وهو التدرّج(١).

ذَهَـــف

فى تـاج الـعروس: (إبل ذاهفة) أهمله الجوهرى وصاحب اللسان، وقال ابن عباد: (معيبة) من طول السير (لغة فى الدال)، وصوّب الصاغانى فى التكملة أنها بإهمال الدال لا غير.

والداهفة بالدال بابها منع، ونـرى ما دامت ذات الـذال لغـة فى ذات الدال أن يقتصر عليهـا ولا يُصَرَّف منها.

رَبَش وبَرَش ورَمَش

فى اللسان: الأربش المختلف الألوان نقطـة حمراء وأخرى سـوداء أو غبراء أو نحو ذلك، وفرس أربَش ذو برش مختلف اللون، وخص اللحيانى بـه البِرْذَوْن وأربش الشجر أورق، وقيل أربش أخرج

---

(١) فى المخصص: وقد يستغنى بافعالّ عن فعل وفُعل ولكنا نميل إلى رأى المتأخرين وهو أن المزيد هنا أدّى معنى بالزيادة لم يكن فى المجرد فلا يستغنَى عن المجرد.

ثمره. . . ابن الأعرابى : أرمش الشجر وأربش وأنقد إذا أورق وتفطر، وأرض ربشاء وبرشاء كثيرة العشب مختلف ألوانها، وجاء فى مادة رمش: أرض رَمْشاء رَبشاء أو جَذبة كأنه ضد، ورجل أرمش أربش مختلِف اللون، وأرمش الشجر أورَق.

والذى يفهم بعد قراءة هذه المواد فى معجمات اللغة أن مادة برش هى الأصل وقد ذُكِر لها فى المعجمات فعل ثلاثى من باب فرِح، وذُكِر لها من المصادر البَرَش والبُرْشَة فيجب الاقتصار على ما ورد فى المادتين رَبش ورمش، لأن الأولى بها قلب مكانى ولأن الثانية أبدلت فيها الميم من الباء[١].

رتـل

فى اللسان: الرَّتَل حسن تناسق الشىء، وثغر رَتَل ورَتِل حسن التنضيد مستوى النبات، وقيل مفلّج. . . والرَّتَل بياض الأسنان. . . ، وربما قالوا رجل رَتِل الأسنان مثل تَعِب بَيِّن الرَّتَل، وكلام رَتَل ورَتِل أى مُرَتَّل حَسَنٌ على تُؤَدَة، ورَتَّل الكلام أحسن تأليفه وأبانه وتمهّل فيه. . . والرَّتَل، والرَّتِل: الطّيب من كل شىء، وماء رَتِل بَيِّن الرَّتَل بارد.

وزاد فى القاموس، والراتِلة القصير.

وظاهر أن الفعل المجرد من باب فرح، وأن مصدره الرَّتَل، وأن رَتَلا ورَتِلا صفتان مشبهتان[٢]، وأن التضعيف فى رتّل للتعدية، وتكون معانى الفعل هكذا:

رَتِلَ الشىءُ تناسَقَ أو طاب، والثَغْرُ استوتْ أسنانه أو فُلِّجَت أو ابيَضَّتْ، والكلامُ حَسُن وأُلقِىَ فى تُؤَدَة وإبانة، والماءُ بَرَد، أما الراتِلة بمعنى القَصير فاسم فاعل فيه التاء للمبالغة ويَحْسُن أن يكون فعله من باب نصر[٣].

رثـن

فى اللسان: الرِّثَانُ قِطار المطر يَفْصِل بينها سُكون. وأرض مُرَثَّنَة تَرْثِينا ومُرَثمة ومُثَرَّدَة أصابها مطرٌ ضعيف، وفى نوادر الأعرابى: أرض مَرْثُونَةَ أى مَرْكُوكة وأصابها رِثان ورِثام، وقد رُثِّنَت الأرض تَرْثِينا عن كُراع، قال ابن سيده: والقياس رُثِنَتْ كطُلّتْ وبُغِشَتْ وطُشَّتْ وما أشبه ذلك، الأزهرى: قال بعض من لا اعتمد عليه: تَرَثَّنَت المرأةُ إذا طَلَتْ وجهها بِغُمْرَة اهـ.

---

(١) عد صاحب المخصص من هذا الإبدال أمثلة كثيرة ١٣ ـ ٢٨٤.

(٢) الظاهر أن رتلا بالتحريك من المصادر التى استعملت استعمال الصفات.

(٣) يصح أن يبقى الفعل من باب فرح هنا أيضًا لأن الصفة تأتى من هذا الباب على فاعل أحيانًا.

وأقول: لعل النون مبدلة من الميم فى ترثنت المرأة، وهو ما يحدث كثيرًا فى لغة العرب، ففى مادة رثم فى اللسان ورَثَّمَت المرأة أنفها بالطين لطخته وطلته، وهو على التشبيه ا هـ.

وإنما كان على التشبيه لأن الرثم فى الأصل كسر الأنف أو الفم حتى يقطر منه الدم.

ويؤخذ مما ورد فى مادة رثن أنه ورد منها اسم مفعول للثلاثى وهو مرثونة. وأن ابن سيده استنبط أن قياس فعلها رثن، وبذلك يستطاع أن يقدر هذا الفعل من باب نصر متعديًا؛ ويقال رَثَنَ المطرُ الأرضَ يرْثُنُها رَثْنًا أصابها، وأما تَرَثَّنَت المرأة فالظاهر أنه مقلوب ترثمت فيقتصر فيه على الوارد.

خــوذ

اللسان: المُخاوَذَة المُخالفة إلى الشىء، خاوَذَه خِوَاذا ومُخاوَذَة خالفه.

الأموىّ: خاوَذْته مُخاوَذَة فعلت مثل فعله، وأنكر شَمِّر خاوَذْت بهذا المعنى، وذكر أن المخاوذة والخواذ الفراق. . . وخاوَذَتْـهُ الحُمَّى أخذته ثم انقطعتْ عنه ثم عاوَدَته. . . وفى النوادر أمر خائِذ لائذ، وأمر مُخاوِذ مُلاوِذ إذا كان مُعْوِزًا، وخاوَذ عنه إذا تنحَّى.

جاء من هذه المادة مصدر المفاعلة وفعله، ثم جاء اسم فاعل الثلاثى، ولما كان هذا الفعل أجوف واويا كان من باب نصر على الغالب، فهو خاذ يخوذ خَوْذا، تقول: خاذَنى الأمر أَعْوَزَنى، ولكن لما كان الفعل المزيد وهو خاوذ يؤدى معنى الفعل المجرد نرى أن لا حاجة إلى وضع مجرد له.

دخـــى

فى اللسان: الدَّخَى الظلمة، وليلة دخياء مظلمة، وليل داخ مظلم، قال ابن سيده: فإما أن يكون على النسب، وإما أن يكون على فعل لم نسمعه.

ونرى أن الدَخَى مصدر لمعناه صلة بالألوان لذلك يكون فعله من باب فرح؛ كأن نقول: دَخى الليل يَدْخَى أظلم فهو أَدْخَى والليلة دَخْيَاء، ويكون لفظ داخٍ صفة مشبهة على وزن اسم الفاعل كسالم من سَلِمَ يَسْلَم.

درك

فى اللسان: الدَّرْك اللحاق وقد أدركه ورجل دَرَّاك مُدْرِك كثير الإدراك، وقلّما يجىء فَعّال من أَفْعَل يُفْعِل إلا أنهم قالوا: حَساس دَرَّاك لغة أو ازدِواج، ولم يجئ فَعّال من أَفْعَل إلا: درَّاك، وجَبّار من أَجْبَرَه على الحُكْم أكرهه، وسار من أَسْأَر فى الكأس: إذا أبقى فيها سؤرا. وتدارك القوم: تلاحقوا. . . وفى الحديث: «أعوذ بك من دَرْك الشقاء».

قال ابن برى: جاء دَراك ودرّاك، وفَعـالِ وفعّال إنما هـو من فعل ثلاثى، ولم يستعمل منـه فعل ثلاثى، وإن كان قد استعمل منه الدرك.

ونرى أن نتابع نص ابن برى فى أن العرب لم تستعمل الثلاثى لهذه المادة، ونكُفّ عن استنباط فعل ثلاثى منها.

ثم إن فى عبارة اللسان: «ولم يجئ فعّال من أفعل إلا دَرّاك وجبار وسئّار» نظرًا من وجوه: الأول أن المصدر أصـل الاشتقاق فى رأى البصريين وهو الـرأى الراجح ودَرّاك مشتق مـن مصدر الثلاثـى وهو الدَّرْك، على أن وجود الدَّرْك يستلـزم وجود فعل ثلاثى أُميت اشتق منـه دَرّاك على مذهب الكوفيين، الثانى: جاء فى لسان العرب فى مادة جبر: وجَبَر الرجلَ على الأمر يَجْبُره جَبْرًا وجُبُورًا، وأجبره: أكرهه والأخيرة أعلى، فأثبت وجـود الفعل الثلاثى وهـو جَبَر فى لغة؛ فجبّـار من هذه اللغة لا مـن غيرها. الثالث أنه جاء فى مادة سأر فى اللسان: يقال سأر وأسأر إذا أفضل فليس إذن سأّر من مصدر أسأر.

دفــــه

فى اللسان: الأزهرى أهمله الليث، وروَى ثعلب عن ابن الأعرابـى قال: الدافِهُ الغريب، قال الأزهرى: كأنه بمعنى الداهِف والهادِف، وجاء فى دَهَف «والداهِفَة قال الأزهرى كأنه بمعنى الداهِف والهادِف».

والداهِف المُعْيِى من طول السير، والغريب قد يكون كذلك، وباب الداهِف مَنَع. وجاء فى هِدِف فى اللسان ويقال: هل هَدَف إليكم هادِف أو هَبَش هـابِش يستخبره هل حدث ببلده أحد سوى من كان به. فالكلمات الدافِه والـداهِف والهادِف كلها بمعنى الغريب، وبينها قلب مكانى فى الأحرف، وإحداهـا وهى الداهِف يمكن اعتبارهـا أصلا لهذه الموادّ، فيجب أن يقتصر فى مادة دَفـه على ماورد منها.

دكــــب

أهمله الجوهرى وصاحب اللسان، وفى القاموس المدكُوبة المعضوضة من القتال.

ونقول: إن اسم المفعـول يُشعر بـوجود فعل يمكن صـوغه من بـاب نصر متعديـا، فنقول دَكَب الكلبُ الهِرّة يَدْكُبها دَكْبًا عَضَّها فى القتال.

دلــــس

فى اللسان: الدَّلَس بالتحريك الظُّلْمَة، وفلان لا يُدالِس ولا يُوالِس أى لا يُخادع... ودلّس فى

البيع وفى كل شىء إذا لم يُبَيّن عيبه وهو من الظلمة . . . والدُّلْسة الظلمة . . . مالى فيه وَلْس ولا دَلْس أى مالى فيه خيانة ولا خديعة . . . واندلس الشىء خفى . . . إلخ .

والظاهر أن المذكور فى المادة ثلاثة مصادر هى الـدَّلَس والدَّلْس والدُّلْسَة والأخير مصدر الألوان، وأفعالها من باب فرح، وعلى هذا يكـون الفعل دَلِسَ الليل يَدْلَـس دَلَسا ودَلْسًا ودَلْسَـة أظلم، وجميع الأفعال المزيدة التى جاءت فى هـذه المادة لِتَدُلّ على الخفاء أو الخديعة من باب المجاز وتـوجيه الزيادة فيها ظاهر .

ذغــى

أهمله الجوهرى وصاحب اللسان، وفى **القاموس** : الذاغية المضَاغة الرَّغْناء وجاء فى **التاج** لابن سيله : والغاذِية من الصبىّ الرَّمّاعَة ما دامتْ رَطْبَة ، فإذا صَلُبَتْ وارتْ عَظْمًا فهى يافُوخ .

وإتيان صـاحب التاج بـالغاذِيـة فى مادة ذغى يشير إلى أن الـذاغِيَة مقلـوب الغَاذِيَـة ويظهر أنها أطلقت على الرَّغْناء على المجاز والجامع الرَّخاوَة وعدم تمام التكوين، ولما كانت مادة غذى أكثر تصرُّفا من ذغى وجب الاقتصار على ماورد من الثانية .

ذقــو

فى **التـاج** : (وفرس أَذْقَى) أهمله الجوهـرى والجماعة (وهو الـرِّخو الأذن الرخـو الأنف وهى ذقواء) ونصّ التكملة : فرس أذقى وَرَمَكَة ذَقْوَاء وهو الرِّخو الرانِف الأذن فتأمل هذه مع سياق المصنف اهـ .

وعبارة **اللسان** : رجل أَذْقَى رِخو الأنف والأنثى ذَقْوَاء ، والجمع الذُّقْوُ وهو الرِّخو أنف الأذن .

ونرى فى عبارة اللغويين هنا شيئا من الإبهام والاضطراب ، وذلك أن قولهم : الرخو الأنف المقصود به أنف الأذن، وأنف كل شىء طرفـه ، ويقصد به . رخاوة الأُذُنِ نفسِها، أما عبـارة صاحب التكملة وهى الرِّخو الرانِف الأذن فلعل صوابها رِخو رانِف الأُذُن، ورانِف الأُذن ورانفتها غُضْروفها .

ولنرجع الآن إلى استخراج الفعل بعـد أن ظهر لنا أنّ الوصف منه على أفعل فعـلاء ، وهذا خاصّ بباب فرِح ، فيكون الفعل الثلاثى ذَقِيَ الفرس يَذْقَى ذَقًا اسْتَرْخَتْ أذناه، أصل الفعل ذَقِوَ وقعت الواو متطرِّفة بعد كسرٍ فقلبت ياء .

ذكــب

قال فى **التـاج** : (المذكوبة) بالذال المعجمة أهمله الجوهرى وصاحب اللسان، وقال الصاغانى هى (المرأة الصالحة) .

وجاء فى لسان العرب فى مادة كذب: المكذوبة من النساء الضعيفة، والمذكوبة المرأة الصالحة، وكذلك فعل صاحب التاج فى مادة كذب.

ولأمرٍ ما يذكر صاحب اللسان المذكوبة بجانب المكذوبة، وظاهر ذلك أنه يرى بينهما قلبًا، والمكذوبة بمعنى الضعيفة اسم مفعول من كذبتها النفس أو الأيام فمنَّتْها بالصحة والقوّة ولم تَصْدُق فهى مكذوبة، وكذلك المذكوبة مقلوبتها بمعنى المرأة الصالحة اسم مفعول من كذبتها النفس أو الأيام فمنَّتْها الأمانى الكاذِبة فعرفَت قيمتها فاتّعظتْ وأصبحت صالحة بصيرة بأحوال الدهر وصروفه، فإطلاق المذكوبة على الصالحة من إطلاق اللازم وإرادة الملزوم، وإذا ثبت لنا أن المذكوبة مقلوب المكذوبة، وكانت تصاريف الثانية أكثر من تصاريف الأولى وجب الاقتصار على ماورد من الأولى.

رخـد

فى القاموس والتاج: الرَّخُودَة اللين والنُّعومَة والخصْب والسَّعَة، وهم فى رَخُودَة من العيش، ويقال هو رِخْوَدٌ كإرْدَبّ قال أبو الهيثم: الرِّخْود: الرِّخْو؛ زيدت فيه دال وشددت مكسوعا بها وهى بهاء رِخْوَدَّة، ويقال رجل رِخْوَدّ الشباب ناعمه، وقيل رجل رِخْوَدّ لَيِّن العَظْم سَمِين كثير اللحم رِخْو، وجمع رِخْوَدّة رَخاوِيد.

ويظهر لى أن الرَّخُودَة مصدر من المصادر السماعية النادرة، وأن معنى هذه المادة كمعنى رَغِد، ولكنها ليست مقلوبتها لأننا لا نجد مصدرًا من رغد على وزن فَعُولَة. ولما كانت قريبة المعنى من مادة رَغُد وكان الفعل رَغُد من بابى فرِح وكَرُم جاز أن نقتِصر هنا على باب واحد هو باب فرح ونقول: رَخِد العيش يَرْخَد رَخُودَة لانَ وطابَ واتَّسَع.

وأما الرِّخْوَدُّ فهو على رأى أبى الهيثم من مادة أخرى هى رَخُو، وعلى غير رأيه يكون وزنًا غريبًا للصفة المشبهة.

رزع

فى التاج: (هو أرزع منه) بالزاى بعد الراء أهمله الجوهرى وصاحب اللسان وقال الصاغانى فى العُباب (أى أَجْبَنُ)، وأهمله فى التكملة، ولا إِخاله إلا تصحيف أروع بالواو فانظره، أو هو بالغين المعجمة فتأمل.

وأقول إِن إبدال العين من الغين معهود فى لغة العرب؛ ذكر منه السيوطى فى المزهر جملة صالحة منها: العَلَث شدة القتال واللزوم له والغلث، ولَعَنّ لغة فى لَعَلّ وَلَغَنّ، وسمعتُ وعاهم ووغاهم، وبَعْثَر متاعه وبَغْثَره، وشعفها حبا وشغفها.

وجاء فى اللسان فى مادة رزغ فيه إرزاغا وأغمز فيه إغمازًا استضعفه واحتقره .

وإنا نجد كثيرًا من الاتصال فى المعنى بين رَزَع ورَزَغَ ورَدَغ ورَدَع جاء فى اللسان ورَدَغَتْ السماء مثل رَزَغَتْ، وفى التاج وأخذ فلانا فَرَدَغَ به الأرض إذا ضربه بها (يريد ضربها به)، وفيه فى رَدَع ويقال رُدِعَ بفلان أى صُرِعَ، وأخذ فلانا فرَدَعَ به الأرض أى ضَرَب به الأرض ا هـ.

وهذه المواد فى جملتها كما قال الصاغانى تدل على استرخاء واضطراب، ومن كل هذا استنبط أولا أن صاحب اللسان أتى بالماضى المجرد لـرَدَغَ ورَزَغَ ولكنه لم يذكر بابهما، وكذلك لم يذكره أحد من اللغويين فيما نعرف .

ثانيا أن الذى يفهم من نصوص اللغة ومن قواعد الصرف أن تصاغ مادة رَزَغَ على النحو الآتى :

رَزَغَت السماء تَـرْزَغ رُزُوغـا من باب فَتَح بَلَّت الأرض أو بَـالَغَتْ فى بَلِّهـا، ومثله أَرْزَغَت، ورَزَغَ الـرجل ارتَطَم فى الـوَحل أو فى العُيُـوب أو جَبُنَ مجاز، وأَرْزَغَه لَطَخه بالعيب، وأرزغ فيه استضعفـه واحتقره وعابه، وأرزغ الرجل احتفر حتى بلغَ الطِينَ الرَطْب، ويقال فى مـادة رَدَغ رَدَغَت السماء تَرْدَغ رُدُوغًا بَلَّت الأرضَ أو بالغَتْ فى بَلِّها، ورَدَغ بفلان الأرضَ يَرْدَغُها به رَدْغا ضربها به، ورَدَغ به صَرَعَه .

رضـــن

فى اللسـان : المَرْضُون شبه المَنْضُـود من الحجارة ونحوها يضم بعضهـا إلى بعض فى بناء أو غيره، وفى نوادَر الأعرابى رُضِنَ على قبره وضُمِدَ ونُضِدَ ورُثِدَ كُلّه واحد .

ولكنه فى مادة ضَمَد لم يذكر من معانيها معنى نَضَد، ثم إن الفعل نَضَد من باب ضرب، ورَثَد من باب نصر، فيمكن أخذ باب منهما للفعل رَضَن لتشابهها فى المعنى وليكن باب نصر لأنه أكثر، فنقول رَضَنَ البَنّاء الحجارة يَرْضُنها رَضْنًا ضَمَّ بالبِنَاء بَعْضَها إلى بعض .

رفـــخ

فى التاج : (وعيش رافِخ رافِغ) الغين بدل عن الخاء[1]، وفى اللسان فى مادة رَفَغ : والرَفْغ والرَّفاغَة سَعة العيش والخصب، وعيش أرفغ ورافِغ ورفيغ واسع طَيِّب، ورفُغَ عَيْشُه بالضم رَفاغَة اتسع، ولما كانت الخاء فى رافِخ مبدلة من الغين وجب ألا يُتَّسَع فى تصريفها .

---

(١) ذكر صاحب المخصص مثالا لهذا النوع من الإبدال ١٣ ـ ٢٧٥ .

رفـــن

التاج: (الرفْن: البَيْض) كـذا فى النسخ والصـواب النَّبْض كما هـو نصّ ابن الأعـرابى (و) الرِّفَنُّ (كجِدَّبِ الطويل الذنب من الخيل) قال الأزهرى: والأصل رِفَلّ . . . . . (والرافنة المتبخترة فى بَطَر).

ونقول: إن الظاهر أنّ الرَّفْنَ بمعنى النَّبْض مصدر، ونرى أن يكون فعله من باب ضرب لازمًا[1] فيقال: رَفَنَ العِرق يَـرْفِن رفونا ضرب وتحرّك ونَبَض، ومنه الـرافِنة المتبخترة فى بَطَرٍ لـدلالة الفعل على معنى الحركة.

أما الرِّفَنّ فنرى أنّ النون فيه مبدلة من اللام، وقد عَدّ السيوطى فى المزهر جملـة من هذا النوع منها فرس رِفَلّ ورِفَنّ، ولهذا نرى الاقتصار على ما سُمِع منه.

رقـــح

اللسان: الترقيح والترقح: إصـلاح المعيشة . . . . وترقَّـح لِعِياله: كسب وطلـب واحتال. . . والاسـم الرَّقَاحَة، والرَّقَاحَـة الكسب والتجارة، ومنـه قـولهم فى تَلْبيَـة بعضٍ أهل الجاهليـة: جئناك للنصاحة ولم نأت للرَّقَاحَة.

ونفهم من هذا أنّ الرَّقَاحَة مصـدر الفعل الثلاثى الذى لم يذكر فى المادة، وهو مصدر غير مقِيس فى مفتوح العين كالرَّجاجَة والفَطانَة، واقترانه فى تلبية أهل الجاهلية بـالنَّصاحَة التى هى مصدر نَصَح يُشْعِر بهذا، وإذ كان الفعل حلقىّ اللام نرى أن يكـون من باب فتح هكذا: رَقَح العيشُ يَرْقَح رَقاحَة صَلَح، والمال نما، ورَقّحه أصلحه ونمّاه، ورَقَح الرجل لِعِياله كسب كتَرَقَّح. وبعد كتابـة هذا رأينا أن البيهقى فى كتابه تاج المصادر قد عدّ الرَّقَاحَة مصدرًا من باب فَعَل يَفْعَل.

رفـــح

فى اللسان: الأرفح هو الذى يذهب قَرْناه قِبَلَ أذنيه فى تباعد ما بينهما . .

ابن الأثير: فى الحديث: «كان إذا رفَّح إنسانا»؛ أراد رَفَّأ أى: دعا لـه بالرفاء فأبـدل الهمزة حاء، وبعضهم يقول: رقَّح بالقاف، وفى حديث عمر رضى الله عنه لما تزوج أم كلثومٍ قال: رَفّحونى؛ أى: قولوا لى ما يقال للمتزوّجِ.

وظاهر أن هـذه المادة تشتمل على أصلين، وقد ذكر فيها من الأصل الأول الصفـة المشبهة لمصدر

---

(١) إنما آثرنا باب (ضرب) لمشابهته فى المعنى لنبض.

يدلُّ على الخِلقة الظاهرة، وهى على وزن أفعل الذى مؤنثه فعلاء، ولا تأتى هذه إلا من باب فرِح كما فى أَرْسَح ورَسْحاء وأَحْنَف وحَنْفاء، لهذا نقترح أن يكون مجرد هذه هكذا:

رَفِحَ الثور يَرْفَح رفَحا: ذهب قرناه قِبل أذنيه.

أما الأصل الثانى فهو رَفَأ؛ لأن الحاء فى رفَّح مبدلة من الهمزة وهنا يجب الاقتصار على المسموع بالحاء لأنه مقلوب المهموز.

رصـــح

فى اللسان: الرَّصَح لغة فى الرَّسَح، رجل أَرْصَح وأمرأة رَصْحاء... ويقال الرَّصَع قرب ما بين الورِكين، وكذلك الرَّصَح والرَّسَح والزَّلَل... وربما كانت الصاد بدلا من السين.

أقول: وإبدال الصاد من السين معهود. (راجع ص ٢٧٧ وما يليها من المزهر جـ ١).

فإذا عددنا الرَّسَح أصلاً لكثرة مشتقاته وجب أن نقتصر على ما سُمِع من مادة رَصَح.

ركـــى

فى اللسان: «والرَّكِيُّ: الضعيف، وقيل ياؤه بدل من كاف الركيك، قال فإن كان ذلك فليس من هذا الباب، وهذا الأمر أَرْكَى من هذا أى أهون منه وأضعف».

والعرب تبدل ثالث الأمثال فى المضعَّف ياء، فتقول فى التَّمَطُّط التَّمَطِّى، وفى التَّقَصُّص التَّقَصِّى، وفى التَّظَنُّن التَّظَنِّى، وقالت فى لَبَّبْتُ فى المكان لَبَّيْتُ، وفى قَصَّصْت الشعر قَصَّيْتُ، وقال تعالى: ﴿وقد خاب من دسَّاها﴾ أصله: دَسَّسَها، فإذا جرينا على أن الياء الثانية فى الرَّكِيّ مبدلة من كاف فلابد أن يكون ذلك الإبدال حدث أوّلا فى مصدر الخماسِيّ وهو التَّرَكُّك فأصبح التَّرَكِّى، ثم سَرَى هذا الإبدال إلى مصدر الثلاثيّ وهو الرَّكَاكَة أو الرِّكَّة، فصار المصدر على هذا التوهم الرَّكَاية أو الرِّكْيَة، فاشتقت منه الصفة المشبهة وهى: الرَّكِيّ بمعنى الضعيف، واسم التفضيل وهو: أَرْكَى.

وإنى أرى فى هذا تَكَلُّفا ظاهرًا، وأوثر الاقتصار على أن الياء فى الرَّكِى مبدلة من كاف الرَّكِيك، وفى أَرْكَى مبدلة من كاف أَرَكّ لسبب لا نعرِفه، وأنّ الفعل رَكَّ هو فعلهما فيقال: رَكَّ الشىء فهو رَكِيك ورَكِيّ، وهذا الشىء أرَكّ و أَرْكَى من ذاك.

رهـــم

فى اللسان: الرِّهْمَة بالكسر المطر الضعيف الدَّائم... وأَرْهَمَت السماء إرْهاما أمطرت، وروضة مَرْهُومَة ولم يقولوا: مُرْهَمة.... ونزلنا بِفُلانٍ فكنا فى أَرْهَم جانبيه أى أخصبهما.

ذُكِر من هذه المادة المصدر والفعل المزيد بالهمزة، واسم المفعول من الثلاثى واسم التفضيل، ويمكن أن نصوغ فعلا ثلاثيًا له مادام قد سُمِع اسم المفعول واسم التفضيل والمصدر.

ولما كانت عين المصدر حرف حلق يحسن أن يكون من باب فتح هكذا : رَهَمَت السماء تَرْهَم رِهْمَة : أنزلت المطر ضعيفًا، ورَهَمَت الأرض أخصبت، ورَهَمَت السماء الأرضَ سقتها فالأرض مَرْهُومَة .

سـخـم

فى اللسان : السَّخَم مصدر السَّخِيمَة، والسخيمة : الحِقد والضَّغينة. . . ورجل مُسَخَّم : ذو سَخِيمة ، وقد سَخَّم بصدره، والسُّخْمَةُ : الغضب، وقد تَسَخَّم عليه . . . ، والسُّخْمة السواد، والأسخَم الأسود، وقد سخَّمت بصدر فلان إذا أغضبته . . . والسُّخَام بالضم : سواد القِدْر، وقد سَخَّم وجهه أى سوَّده، . . . ابن الأعرابى : سَخَّمْت الماءَ وأوغرته إذا سَخَّنته .

ونرى أن هذه المادة تشتمل على أصلين : الأول : السَّخَم وهو السواد، وقد تكون الخاء فيها مبدلة من الحاء ، أو الحاء مبدلة من الخاء، وهذا كثير، وقد عدّ السيوطى من ذلك فى المزهر جملة صالحة (انظر ص ٣١٧ و٣١٨جـ١) وتفرع من هذا الأصل على المجاز السَّخِيمَةُ بمعنى الحِقْد، والسُّخْمَةُ بمعنى الغَضَب. الأصل الثانى : وهو التسخيم بمعنى التسخين، وظاهر جدًا أنّ الميم فيه بدل من النون، وهذا الإبدال كثير معهود. (انظر ص ٢٧٦ من الجزء الأول من المزهر).

لهذا نرى أن نكمل المادة على الأصل الأول هكذا : سَخِم الشيءُ يسْخَم سُخْمة وسَخَمًا سَوِد فهو أَسخمُ وهى سخماء، وسَخَّم وجهَه سَوَّده ومن المجاز سَخِم صَدرُهُ حَقَد، وسَخَّمَه دفعه إلى الحِقْد، وسَخِم الرجُل سُخْمَة غَضِب، وسَخَّمْت بصدره أغضبته فتَسَخَّم.

أما على الأصل الثانى : فنرى الاقتصار على المسموع وهو سَخَّمْت الماء لأن إبدال الميم من النون فيه ظاهر.

صـحـم

جاء فى كتب اللغة من هذه المادة الأَصْحَم والصُّحْمَة وهى سواد إلى الصُّفْرة، وقيل هى لون من الغبرة إلى سواد قليل، وجاء فيها الصَّحْماء، واصْحَامَّ النبتُ : اشتدت خضرته ، واصحامَّت الأرضُ : تغيَّر نَبْتُها .

ونرى أن ماذكر فى هذه المادة من المصدر والصفة المشبهة يهدينا إلى أنّ الفعل الثلاثى من باب فرح حتما، وماذكر فيها من الفعل المزيد لا يغنى عن المجرد؛ لأن الزيادة فيه لمعنى زائد وهو التدرّج،

والفعل المقترَح هو : صَحِمَ الشيءُ يَصْحَم صُحْمَةً سَوِدَ إلى صُفْرَة، أو اغْبَرَّ إلى سَواد .

سخد وصخد

فى اللسان فى مادة سخد : وأصبح فلان مُسَخَّدًا إذا أصبح وهـو مُصْفَرٌّ مُوَرَّمٌ . . . ، والسُّخْدُ الرَّهَلُ والصُّفْرَةُ فى الوجه، والصاد لغة على المضارعة اهـ .

ثم أعاد العبارة السابقة فى مادة صَخَد فاتحا سين السُّخْد قائلا : إن الصاد فيه لغة، ومقتضى عبارة التاج ضمُّها .

وجاء فى صفحة ٢٧٧ من المزهر ج ١ عن البطْليوسى : كل سين وقعت بعدها عين أو غين أو خاء أو قاف أو طاء جاز قلبها صادًا .

ونرى أن الأصل فى مادة سَخَد السُّخْد وهو الماء الأصفر الثَّخين يخرج مع الولد، وكل ما جاء فيها من المعانى يحوم حول هذا الأصل، وأن الأصل فى مادة صَخَد الحرارة وقوة حر الشمس فهى متصلة بمادة صَهَد، ولابد أن يكون بين الخاء والهاء تبادل ، فالمادتان سَخَد وصَخَد مختلفتان فى الأصل، والمعانى المتصلة بسَخَد تحتم أن تكون السين أصلا وأن الصاد مبدلة منها، لذلك نرى أن نضع فعلا لهذه المادة ، وأن نقتصر على ما ورد من مادة صَخَد .

ولما كان الفعل حلقىّ العين نرى أن يكون من باب فتح هكذا : سَخَد الرجل يَسْخَد سُخْدًا اسْتَرْخَى لحمه واصفرّ.

سدخ

فى اللسان : ضربه حتى انسدخ أى انبسط، ونقل التاج عبارة اللسان ثم قال : وقد تقدم فى الجيم فراجعه، وجاء فى التاج فى مادة سدج « وانْسَدَج مقلوب انْسَجَد وانْدَسَج إذا انكبّ على وجهه كحالة الساجد اهـ » .

ويرافق هذه الطائفة من الأفعال سَدَح ومعناه صَدَع. قال الأزهرى : والسَّدْح والسَّطْح واحد أبدلت الطاء فيه دالا كما فى مَطَّ وَمَدَّ وما أشبهه، ومن هذا نرى أن الانكباب على الأرض له ستة أفعال: هى سَجَد وسَدَج ودَسَج وسَطَح وسَدَح وسَدَخ .

ونرى أن ادّعاء صاحبِ التاج بأنّ انسدج مقلوب انسجد فيه نظر؛ لأننا لم نجد فى كتب اللغة نصًا يدل على صحة انسجد، ونعرف أن المطاوعة لانفعل إنما هى مطاوعة الفعل المتعدى ككسره فانكسر، وليس سجد فعلا متعديا بحال. إذًا انسدج فعل قائم بنفسه لا اتصال له بسجد، وهو مطاوع لفعل

متعدٍ هو سَدَج، ولا فرق فى الحقيقة بينه وبين اندسج لأن كليهما فعل قليل التصرف، ولكنا نستطيع أن نَعُدّ سَدَج أصلا ونصوغ منه فعلا من باب نصر هكذا: سَدَجَه على الأرض يَسْدُجه سَدْجا كَبَّه وطرَحه عليها، ويكون اندسج إذًا مقلوب انسدج، أما سَدَح وسَدَخ فأصلهما سَطَح أبدلت الطاء فى الأول دالا فصارت سَدَح، ثم أبدلت الحاء فى هذه خاء فصارت سدخ[1]، ولما كانت تصرفات الفعل سَطَح أكثر وأوسع نرى أن يكون هو الأصل وأن يقتصر على المسموع من مادتى سَدَح وسَدَخ.

سَـطَل

فى اللسان: وقال بعضهم الطاسِل والساطِل من الغبار المرتفع، ومن اسم الفاعل يستطاع الإتيان الفعل من باب نصر: هكذا سطل الغبار يَسْطُل سُطولًا: ارتفع.

سـطن

فى اللسان: الساطِن الخبيث، وقد ظننت أن السين هنا مبدلة من الشِين فرأيت فى اللسان الشاطِن الخبيث، والشيطان فَيْعَالٌ من شَطَن إذا بَعُد فيمن جعل النون أصلا، قال فى المصباح: وفى الشَيطان قولان: أحدهما أنه من شَطَنَ إذا بَعُد عن الحقّ أو عن رحمة الله فتكون النون أصلية ووزنه فَيْعَال... والقول الثانى أن الياء أصلية والنون زائدة عكس الأول، وهو من شاطَ يشيط إذا بَطَل أو احْتَرَق فوزنُه فَعْلاَن.

وأقول: إن صوغ الشاطِن بمعنى الخبيث من شَطَن لا شاطَ، ولما كانت كلمة الساطِن مبدلة من الشاطِن[2] وكانت مادة الشاطِن أعظم وأوسع وجب الاعتماد عليها.

زبـع

فى اللسان: الزِّبْع أصل بناء التَزَبُّع، والتزبعُ: سوء الخلق، والمتُزبع الذى يُؤذِى الناس ويُشارُّهم، والتَزَبُّع التَغَيُّظ كالتَزَعُّب، وتَزَبَّع الرجل تَغَيَّر، والزِّبِيع المُدَمْدِم فى غَضَب وهو المتزبّع.

أقول: ذكر فى هذه المادة مصدر الثلاثى وصفة منه على فَعِيل بمعنى فاعِل هى الزِّبِيع، وأشار إلى قرب هذه المادة من زَعَب بقوله: والتَزَبُّع التَغَيُّظ كالتَزَعُّب وإن كنا نرى أنها مأخوذة من الزَّوْبَعة وهى الشيطان أو الريح المعروفة، ويُستطاع أن يؤتى بالفعل المجرّد من هذه المادة من باب فتح لأنه حلقىّ اللام فيقال: زَبَع الرجل يزْبع زَبعا: اغتاظ أو ساء خلقه كتَزَبَّع.

---

(١) عدّ صاحب المخصص أمثلة كثيرة لهذا النوع من الإبدال ١٣ ـ ٢٧٦.

(٢) فى المخصص جملة كافية من هذا النوع من الإبدال ١٣ ـ ٢٧٨.

زرز

في التاج : الزَّرِيز كأَمِير: الخفيف النظيف، وقال أبو عمرو: هو العاقل المُحْكَم الرأى، ونصّ النوادِر: والشديد الرأى، هكذا نقله الصاغانى وأهمله الجوهرى وصاحب اللسان.

أقول لم يذكر فى هذه المادة إلا الصفة المشبهة، وقوله: الزَّرِيز كأَمِير يدفعنا إلى الاستئناس بأن فعلها مثل فعل أمير، وأَمِير يكون من باب فرِح ومن باب كَرُم [1]، ولكنا نقصِره على الباب الثانى ونقترح أن يكون زَرُزَ يَزْرُز زَرَازَةً خَفَّتْ رُوحهُ ونَظُفَ أو حَصُفَ رَأْيُه.

صقح

في اللسان : الصَّقْحَةُ الصَّلْعَة، ورجل أَصْقَح أَصْلَع ؛ يمانِية، وفى القاموس وشرحه : الصَّقَح محركة : الصَّلَع، والنعت أَصْقَح وهى صَقْحاء، والاسم : الصَّقَحة محركة، والصُّقْحة بالضم لغة يمانية.

وإذا كان المصدر الصَّقَح والوصف منه على أفعل فعلاء تعين أن يكون الفعل من باب فرِح، وكان الفعل حاصلا فى الكَفّ على حَدّ تعبير ابن جنّى.

سغى

أهمله صاحب اللسان : وفى التاج : السَّاغِيَة، أهمله الجوهرى، وقال الصاغانى عن ابن الأعرابى : هى الشربة اللذيذة، وكأنه من سَغَى الشرابُ فى الحلق مقلوب ساغ إذا سَهُل، ثم بُنِىَ منه الساغِيَة وهى كعِيشَةٍ راضِيَة فتأمل.

نقول : إن القلب هنا واضح، ولا نوافق صاحب التاج فى أن فى السَّاغِيَة مجازًا عقليًا استُعْمِل فيه اسم الفاعل مكان اسم المفعول لأن الفعل ساغ يكون لازمًا ومتعديًا، ولزومه أكثر وأشهر، فالساغِيَة مقلوب السائِغَة من الفعل اللازم ومعناها العذبة اللذيذة السهلة فى الحلق. ولما كان القلب هنا ظاهرًا وجب أن يقتصر على كلمة الساغِية من غير زيادة.

* * *

ومما يَتَّصِل بهذا الموضوع ما عقد له صاحب المخصص بابًا أسماه : باب أسماء المصادر التى لا تشتق منها أفعال (الصفحة ٢٢٢ من الجزء ١٤) وقد تناولنا هذا الباب ببحث فياض سننشره فى الجزء

(١) فى المخصص : وقالوا: أَمَر علينا كَتَبه . مفتوحان والفتح أجود وأفصح . وهذا يجعله من باب نصر أيضًا .

التالى من المجلة إن شاء الله تعالى[1]. ولكنا نتعجل هنا نشر خلاصة هذا البحث. فنقول :

عد ابن سيده من هـذه المصادر ستة وخمسين مصدرًا، نقل واحـدًا وأربعين منها عن أبى عبيد، ولكن أبا عبيد نفسه ذكر أفعالا لخمسة مصادر منها، وعقب ابن سيده على مصدرين، فذكر لكليهما فعلا. وهـدانا البحث إلى العثور على أفعالٍ لثمانيـة وعشرين منها. أما بقية المصـادر التى جاءت فى هذاالبـاب، فمنها ثمانية عن ابن دريد، وأربعـة عن ابن السكيت، وثلاثة عن ثعلب، وقد وجـدنا لهذه لها أفعالا، وانتهى بنـا البحث إلى أن الستة والخمسين مصدرًا التى زعم أنـه لا أفعال لها لم يصحّ منها إلا ستة مصادر.

(١) انظر صفحة ٢١٧ فى هذا الكتاب .

طموح المتنبي (*)

في نحو السنة الخامسة عشرة بعد الثلاثمائة، نرى عند أبواب دمشق شيخًا رقيق الحال، تقتحمه العين، أخذ منه جهد السفر وجهد الحياة، ودل عبوس وجهه ورثاثة زيه أنه لا ينال عيشه إلا بعرق القربة، ونضح الجبين، وقد أخذ بضبع غلام في الثانية عشرة، سعفته الشمس فزادت وجهه المليح سمرة على سمرته، وقد شعت عيناه الواسعتان السوداوان بذكاء نادر وعبقرية لا يخطئها من له علم بالفراسة، وتقدير مواهب بني الإنسان. وكان هذا الصبي قلق النفس كثير التلفت، كلما رأى مشهدًا من مشاهد العظمة في المدينة، أو مر به سري من سراتها في خدمه واتباعه حدق فيه، ومد عينيه في لهفة ظمأى ساغبة امتزج فيها الحسد بالغبطة، واليأس بالأمل، ثم أطرق إطراقه الحزين، وهمهم بما يشبه الأنين.

ذانكم هما الحسين بن الحسن، وابنه أحمد الذي عرفناه بعد ذلك بالمتنبي، قدم به أبوه دمشق، ليتلقى فنون الأدب واللغة على جهابذتها وأعلامها، بعد أن نطقت مخايله بما أعد له الزمان: من مجد رفيع، وشأن بعيد.

كان الطموح وتطلب معالي الأمور من أبرز صفات هذا الصبي وأظهرها، والخلق كيفما كان (كريما أو ذميما) إذا تملك نفسًا أخضعها لسلطانه، وأنزلها عند حكمه، وتحكم فيها تحكم الصبي على أهله فألقت إليه بعنانها ومكنته من ناصيتها وساقت إليه جميع ما فيها من صفات، لتكون وسائل غايته، وحشرت في طاعته كل ما تستطيع بذله لإطفاء غلته.

فالناس عبيد نفوسهم وما يسيطر عليهم من نزعات قوية إلى الخير أو إلى الشر، وعلماء الأخلاق في

(*) ألقى هذا البحث في الاحتفال بالذكرى الألفية للمتنبي، الذي أقيم بدار الأوبرا في ٢١ من فبراير سنة ١٩٣٦م ونشر

كل أفق وزمان يحشدون حشدهم، ويجهدون جهدهم لتقوية نزعات الخير والسمو الروحى إلى أرفع أوج، ومحاربة نزعات الشر والتدلى بالنفس الإنسانية إلى الحضيض.

وأساس هذا الخلق ودعامته أن يكبر المرء نفسه أولا، ويثق بمواهبه، ويسخر من شدائد الدهر وأزمانه، ويبذل الوسائل جميعها التى تصل به إلى الغاية، وأن يقدم إذا كان الإقدام عزمًا، ويحجم إذا كان الإحجام حزمًا، وأن يطأطئ ليثب، ويدمن القرع ليلج، وألا ينهنهه بأس، ولا يفل من عزيمته ملل، وأن يصانع ويداهن إذا خطت به المصانعة إلى طلبته، ويهدد ويتوعد إذا طار به التهديد إلى أربته، وأن يجعل عزمه مطية أمله، وأمله فوق نفسه، ونفسه فوق متناول الآمال، وقد كان المتنبى كذلك فى جميع أطوار حياته فهو يقول فى صباه:

إِنْ أَكُنْ مُعْجَبًا فَعُجْبُ عَجِيبٍ ... لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدِ
أَنَا تِرْبُ النَّدى وَرَبُّ الْقَوَافِي ... وَسِمَامُ الْعِدى وَغَيْظُ الْحَسُودِ
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللهُ ... غَرِيبٌ، كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ

ويقول فى كهولته:

وَفِى النَّاسِ مَنْ يَرْضى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ ... وَمَرْكُوبُهُ رِجْلاَهُ وَالثَّوْبُ جِلْدُهُ
وَلَكِنَّ قَلْبًا بَيْنَ جَنْبَيَّ مَالَهُ ... مَدًى يَنْتَهِى بى فِي مُرَادٍ أَحُدُّهُ

ويقول فى أواخر أيامه:

ذَرِينِى أَنَلْ مَا لاَ يُنَالُ مِنَ الْعُلاَ ... فَصَعْبُ الْعُلا فى الصَّعْبِ والسَّهْلُ فى السَّهْلِ
تُرِيدِينَ لُقْيَانَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً ... وَلاَبُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ

* * *

إن بوادى الطموح، ذلك الخلق العنيف الوثاب ظهرت فى شاعرنا منذ نشأته الأولى، وملكت عليه جوانب نفسه، فأحس عظم همته وسمو مطالبه فى فتائه وصباه، حين يقول فى كبر وصلف:

وخُضرَة ثَوْبِ الْعَيْشِ فى الْخُضْرَةِ الَّتى ... أَرَتْكَ احْمِرارَ الْمَوتِ فى مَدْرَجِ النَّمْلِ
أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِى بِـ(مَا، وكَأَنَّهُ) ... فَمَا أَحَدٌ فَوقِى، وَلاَ أَحَدٌ مِثْلِي

وقد وصل (فى صباه) إحساسُه عظمَ نفسه وكبر همته إلى حد الجنون، حين يقول:

أَىَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِى ؟ أَىَّ عَظِيمٍ أَتَّقِى ؟
وَكُلُّ مَاقَدْ خَلَقَ اللّهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقِ
مُحْتَقَرٌ فِى هِمَّتِى كَشَعْرَةٍ فى مَفْرِقِى

وقدرأى المتنبى ــ منذ غضارة عوده وميعة صباه ــ أن آمال نفسه الكبيرة لا تنال إلا بحد السيف وشباة السنان؛ لأنه نشأ فى عصر يشبه عصر الفتوة بأوربا، وقد رأى بعينيه ـ بعد أن أصبحت الدولة العباسية نهبًا مقسمًا ـ أن القوة كانت تؤسس ملكا فى يوم وليلة، لذلك نراه فى جميع أوجه حياته، يرى أن الحق للقوة وأن المجد لا ينال إلا تحت ظلال السيوف؛ استمعوا له حين يقول فى صباه:

وَإِلاَّ تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكَرَّمًا تَمُتْ وَتُقَاسِ الذُّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمِ
فَثِبْ وَاثِقًا بِاللّهِ وِثْبَةَ مَاجِدٍ يَرَى الْمَوْتَ فى الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فى الفَمِ

وقد يتغلب اليأس على هذا الفتى المسكين، ويحس بُعد آماله، وقصر ذات يده، فيقول:

لِيْسَ التَّعَلُّلُ بِالآمَالِ مِنْ أَرَبِى وَلاَ الْقَنَاعَةُ بِالإِقْلاَلِ مِنْ شِيَمِى
وَلاَ أَظُنُّ بَنَاتِ الدَّهْرِ تَتْرُكُنِي حَتَّى تَسُدَّ عَلَيْهَا طُرْقَهَا هِمَمِى
لُمِ اللَّيَالِى التى أَخْنَتْ عَلَى جِدَتِى بِرِقَّةِ الْحَالِ، واعْذِرْنِى وَلاَ تَلُمِ
أَرَى أُنَاسًا، وَمَحْصُولِى عَلَى غَنَمٍ؛ وَذِكْرَ جُودٍ، وَمَحْصُولِى عَلَى الْكَلِمِ

حتى إذا ضاقت نفس شاعرنا الناشىء، وأنف أن يطوف به طائف من الضعف، قال:

لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لاَتَ مُصْطَبَرٍ فَالآنَ أُقْحِمُ حَتَّى لاَتَ مُقْتَحَمِ
لأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الْخَيْلِ سَاهِمَةً وَالْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلَى قَدَمِ

على رسلك أيها الفتى! أين هذه الخيل؟ ومن أين تأتى بالشيعة والأنصار، وقد أراد القدر أن تكون من أسرة حيث وضعها القدر؟ ولكن النفس الطموح تتسلى بالآمال، وتتشبث بأذيال الخيال.

ما هذه الهمَّة الشماء يا أبا الطيب؟ وإلى أى شىء تتجه؟ لقد كشف المتنبى الحدث عن ذات نفسه، وباح بما يحيك فى صدره من ذلك المطلب السامى البعيد، الذى بذل لنيله فيما بعد ماء وجهه وماء حياته، فقال:

أَيَمْلِكُ الْمُلْكَ وَالأَسْيَافُ ظَامِئَةٌ وَالطَّيْرُ جَائِعَةٌ لَحْمٌ عَلَى وَضَمِ

مرحى مرحى !! لقد عرفنا ما كان يريده أبو الطيب؛ إنه كان يريد الملك، نعم لقد كان يريده، ولقد كان من أجل ذلك شديد الحقد على ملوك عصره، حتى فى أيامه الأولى، ولقد حاول فى سن العشرين أن يدعو إلى نفسه، فبايعه طائفة من عرب السماوة، ولكن المحاولة لم تنجح كما كان مقدرًا لها، فأخذ أبو الطيب وأودع السجن، وأظهر فى السجن ذلة واستخذاء لا يليقان بالفارس المغوار، صاحب الآمال الكبار، حين يناجى فى سجنه صاحب حمص :

أَمَالِكَ رِقِّى، وَمَنْ شَأْنُهُ ... هِبَاتُ اللُّجَيْنِ، وَعِتْقُ الْعَبِيدِ
دَعَوْتُكَ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَا ... ءِ وَالْمَوْتُ مِنِّى كَحَبْلِ الْوَرِيدِ
دَعَوْتُكَ لَمَّا بَرَانِى الْبَلاَءُ ... وَأَوْهَنَ رِجْلَىَّ ثِقْلُ الْحَدِيدِ
وقَدْ كَانَ مَشْيُهُمَا فِى النِّعَالِ ... فَقَدْ صَارَ مَشْيُهُمَا فى الْقُيُودِ

وخرج المتنبى من السجن، فنفض عنه ما اعتراه فيه من ضعف، وعاد إلى سالف عزيمته، وأنف طموحه، ولكنه رأى ضرورة تغيير خططه، وابتكار وسائل جديدة لغايته، فسبق إلى نفسه أن الاستجداء بالشعر، وجمع الأموال من هذه الطريق، قد يُعِدُّه إلى مطلبه الأسمى :

فَلاَ مَجْدَ فى الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ ... وَلاَ مَالَ فِى الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

فهام على وجهه فى الآفاق، يمدح من عز وهان، ولكن نفسه كانت تطالعه باليأس من هذه الوسيلة، وتناجيه فتقول :

إِلَى كَمْ ذَا التَّخَلُّفُ وَالتَّوَانِى ... وَكَمْ هَذَا التَّمَادِى فِى التَّمَادِى؟
وَشُغْلُ النَّفْسِ عَنْ طَلَبِ الْمَعَالِى ... بِبَيْعِ الشِّعْرِ فِى سُوقِ الْكَسَادِ

لا ياصاحبى، إن مطلبك البعيد لا ينال بالخضوع وذل السؤال، فكن كما قلت :

مَنْ أَطَاقَ الْتِمَاسَ شَىْءٍ غِلاَبًا ... وَاغْتِصَابًا، لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالاَ

وكأنى أرى المتنبى، بعد لأى، مطرق الرأس، كاسف البال، بين شعور بالضعف، وأمل فى القوة، ينشد :

فَسِرْتُ نَحْوَكَ لاَ أَلْوِى عَلَى أَحَدٍ ... أُسُوقُ رَاحِلَتَىَّ، الْفَقْرَ وَالأَدَبَا
أَذَاقَنِى زَمَنِى بَلْوَى شَرِقْتُ بِهَا ... لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَى - مَا عَاشَ - وَانْتَحَبَا
وَإِنْ عَمَرْتُ جَعَلْتُ الْحَرْبَ وَالِدَةً، ... وَالسَّمْهَرِىَّ أَخًا ، والمشرَفِىَّ أَبَا

ولكنه يسأم مديح الناس، وتضيق نفسه بالوهدة التى وضع فيها نفسه، فيثور ثورة الحانق المهدد :

لِلّــهِ حَــالٌ أُرَجِّيهَــا، وَتُخْلِفُنِي وأقتضِي كَـوْنَهَا دَهْـرِي، وَيَمْطُلُنِي
مَدحْتُ قَوْمًا؛ وَإِنْ عِشْنَا نَظَمْتُ لَهُمْ قَصَـائِدًا مِنْ إِنَـاثِ الْخَيْلِ والْحُصُنِ

لماذا كل هذا؟ لأن الناس لا يعرفون قدره، ولأن الأقدار لم تضعه فى موضعه:

أَنَا صَخْـرَةُ الْوَادِي إِذَا مَـا زُوحِـمَتْ وَإِذَا نَطَقْــتُ فَــإِنَّنِــى الْجَوْزَاءُ
وَإِذَا خَفِيـتُ عَلَى الْغَبِيِّ فَعَــاذِرٌ أَلَّا تَــرانِى مُقْلَـــةٌ عَمْيَـــاءُ

ومادام الناس لم يرفعـوه فوق الرءوس، ومادامو لاهين عما تستحقه عظمتـه ومواهبه، فليسحقهم تحت قدميه سحقا، وليقل:

ومَنْ عَــرَفَ الأَيَّـامَ مَعْـرِفَتى بِهَا وَبِــالنَّــاسِ، رَوَّى رُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ
فَلَيْسَ بِمَـرْحُـومٍ إِذَا ظَفِـرُوا بِـهِ وَلاَ فِي الـــرَّدَى الجارِى عَلَيْهِمْ بــآثِمِ

إن له مطلبا أسمى من قرض الشعر ومن بلوغ الغايـة فيه، وقد وسوست إليه نفسه أن هذا المطلب من حقه، وأنه لم يسع إليه متطفلا، ولم يحبس عليه آماله دعيا، استمعوا له حين يقول:

سَــأَطْلُبُ حَقِّى بِــالْقَنَــا وَمَشَــايِخٍ كَــأَنَّهُمُ مِنْ طُــولِ مَــا الْتَثَمُــوا مُــرْدُ
ثِقَــالٍ إِذَا لاَقَــوْا، خِفَــافٍ إِذَا دُعُــوا كَثِيرٍ إِذَا شَـــدُّوا، قَلِيلٍ إِذَا عُــدُّوا

سأطلب حقى!! ما هـذا الحق الذى يطلبه المتنبى؟ يكشف عن هـذا الحق فى كثير من الغموض والإبهام فيقول مرة:

إِذَا غَــامَــرْتَ فِى شَرَفٍ مَــرُومِ فَـــلاَ تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُـــومِ
فطعـم الموتِ فِى أَمْــــرٍ حَقِيرٍ كَطَعْـمِ الْمَوْتِ فِى أَمْــــرٍ عَظِيـمِ

ويقول ثانية:

ذَرِ النَّفْسَ تَــأْخُذْ وُسْعَهَــا قَبْلَ بَيْنِهَــا فَمُفْتَرِقٌ جَـــارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْــــرُ
وَلاَ تَحْسَبَنَّ الْمَجْـــدَ زِقًّـــا وَقَيْنَــــةً فَمَا الْمَجْــدُ إِلاَّ السَّيْفُ وَالْفَتْكَــةُ الْبِكْـرُ
وَتَــرْكُكَ فِى الــدُّنْيَــا دَوِيًّــا كَأَنَّمَــا تَــدَاوَلُ سَمْعَ المرْءِ أَنْمُلُـــهُ الْعَشْرُ

ويقول ثالثة:

أُرِيـــــدُ مِنْ زَمَنِى ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِى مَــا لَيْسَ يَبْــلُغُهُ مِنْ نَفْسِـهِ الــزَّمَنُ

ويقول أخيرا فى تهويل مرهب مخيف:

تَغَــرَّبَ لا مُستعظِمًا غيرَ نَفْسِـــهِ ... وَلاَ قَـــابِــلاً إلاَّ لِخَالِقِـــهِ حُكْمَا
وَلاَ سَــالِكــاً إلاَّ فُــؤَادَ عَجَــاجَــةٍ ... وَلاَ وَاجِــدًا إلاَّ لِمَكْــرُمَــةٍ طَعْمَا
يَقُـولُــون لِي : مَـا أَنْتَ فِي كُـلِّ بَلْـدِةٍ؟ ... وَمَـا تَبْتَغِي؟ مَـا أَبْتَغِـى جَلَّ أَنْ يُسْمَى

ما هذا الذى جل أن يسمى يا أخا العرب؟ لقد عرفناه من قبل، ولقد كشف عنه المتنبى مرة أخرى فى بيت دسه فى آخر قصيدة لكافور، حين يقول :

فَـــارْمِ بِى مَـــا أَرَدْتَ مِنِّى فَإِنِّى ... أَسَـــدُ الْقَلْبِ، آدَمِىُّ الـــرُّوَاءِ
وَفُـــؤَادِى مِنَ الْمُلُـــوكِ، وَإِنْ كَـــا ... نَ لِسَـــانِى يُـــرَى مِـنَ الشُّعَـــرَاءِ

ولكن ماذا يصنع المتنبى للوصول إلى هذه الأمنية الشاسعة، وقد يقف تطامن نسبه عقبة فى سبيل مطلبه العزيـز ؟ لا، لا، إن شيئا من ذلك لن يقف فى سبيل غاياته؛ إن المتنبى يفـرع مجدُه، الذى بناه لنفسه، مجدَ الباحثين عن أصلـه، ومجد آبائهم ، وإن الإنسان إنما يلجأ إلى الفخر بـالأنساب بعد أن تنفد وسائل الفخر الأخرى :

أَنَـــا ابنُ مَـنْ بَعْضُـهُ يَفُـوقُ أَبَـا الْـــ ... بَـــاحِثِ، وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَـــهْ
وَإِنَّمَا يَـــذْكُـــرُ الْجُدُودَ لَهُمْ ... مَـنْ نَفَــرُوهُ وَأَنْفَـــدُوا حِيَلَـــهْ
فَخْـــرًا لِعَضْبٍ أَرُوحُ مُشْتَمِلَـــهْ ... وَسَمْهَـــرِيٍّ أَرُوحُ مُعْتَقِلَـــهْ
وَلْيَفْخَـــرِ الْفَخْـــرُ إِذْ غَـــدَوْتُ بِـــهِ ... مُـــرْتَـــدِيًـــا خَيْرَهُ وَمُنْتَعِلَـــهْ
أَنَـــا الَّـــذِى بَيَّنَ الإِلَـــهُ بِـــهِ الْـــ ... ـــأَقْدَارَ، وَالْمَرْءُ حَيْثُمَا جَعَلَـــهْ

ثم يرحل أبو الطيب إلى سيف الدولة، وإذا قرأنا شعره فى هذا الأمير العظيم، وقد لزم بساطه نحو تسع سنين، نرى أن هذه المنازعة العنيفة إلى مطلبه الأسمى قد هدأت كثيرًا، وأن فخره كاد يقتصر على التمدح بمـواهبه الشعـرية البـارعة، وعلى تحدى شعراء العصر جميعًـا، وكانـوا شيوخ الشعـر ونجوم الدهر، كما يقول الثعالبى.

والسبب فيما أرى أنـه لم يجد مجالا، ولم ير فـائدة من كشف مـراميـه البعيدة فى حضرة أمير عـربى قـوى، نهض بملكـه الصغير إلى أسمى المراتب فى السيـاســة والعلم والأدب، فلم يستطع المتنبى أن ينبس بكلمة عن آمـاله، ولا عن قومـه ونصرائه، الذين كـان يتخيلهم فى كل قصيدة قبل ذلك، لهذا ضاق به المكان على اتسـاعه، وقلق به المضجع على وثارته، لأنه رأى أنـه إن أقام بكنف سيف الدولة فإنه سيعيش شاعـرًا ويموت شاعرًا ، وهـذا ما تأباه نفسه الطماحـة، فماذا يفعل؟ يتيه ويدل ويهدد، ويضن على سيف الـدولة بـالمديح، ويخاطبه مخاطبـة النـد، ويقرّعـه أحيانـا، ويصبح كَلاًّ لا يطـاق ولايحتمل، ويخاطب سيف الدولة فى مجلس حافل فيقول :

أُعِيذُها نَظَراتٍ مِنْكَ صَادِقَةً — أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ
وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيا بِنَاظِرِهِ — إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأَنْوارُ والظُّلَمُ؟
سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا — بأَنَّنِي خَيرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ!

وبعد كل هذا يرضى عنه سيف الدولة، ويقربه، ويخلع عليه، ولكن نفس المتنبى السجينة، تريد أن تنطلق، وتريد أن تطير إلى جو تجد فيه إربتها، وتصل فيه إلى غايتها، فيذهب المتنبى إلى مصر، وفيها كافور يقوم بالملك عن ابن سيده، فيظن المتنبى أن الزمن واتاه، وأن أمنيته التى غالبته عليها الأيام أصبحت منه على طرف الثمام! كافور يقصده أعظم شعراء المشرق ولا يجود عليه بولاية؟ هذا مستحيل، كان هذا الظن الكاذب أكبر غلطة غلطها المتنبى فى حياته، قطع عليها أصابعه حسرة وندما.

أخذ يتذلل للأسود ويتضع، ويصغر ويهون، ونسى الشمم، ونسى الشهامة، ونسى صلفه على سيد الدولة، وهو يرى أن الغاية تبرر الوسيلة، حتى لقد جعل خاتمة أكثر قصائده فى كافور، طلبًا ذليلا، يريد منه صاحبه النظر بعين الرأفة والإنصاف... اسمعوا طلبا من هذه:

وَلَوْ كُنْتُ أَدْرِي كَمْ حَيَاتِي، قَسَمْتُهَا — وَصَيَّرْتُ ثُلْثَيْهَا انْتِظَارَكَ؛ فَاعْلَمِ
وَلَكِنَّ مَا يَمْضِي مِنَ الْعُمْرِ فَائِتٌ — فَجُدْ لِي بِحَظِّ الْبَادِرِ الْمُتَغَنِّمِ
رَضِيتُ بِمَا تَرْضَى بِهِ لِي، مَحَبَّةً — وَقُدْتُ إِلَيْكَ النَّفْسَ قَوْدَ الْمُسَلِّمِ
وَمِثْلُكَ مَنْ كَانَ الْوَسِيطَ فُؤَادُهُ — فَكَلَّمَهُ عَنِّى، وَلَمْ أَتَكَلَّمِ

ولم يعبأ المتنبى بصلات كافور، ولا بما أغدق عليه من أموال؛ لأنه يقول:

وَمَا رَغْبَتِي فِي عَسْجَدٍ أَسْتَفِيدُهُ — وَلَكِنَّهَا فِي مَفْخَرٍ أَسْتَجِدُّهُ

وكان الأسود وعده بولاية، لا ليفى وعده، بل ليمد له حبل الأمل، وليطيل إقامته بمصر، فكان المتنبى يطالبه بوعده ويستبطئه، ويتهكم أحيانا بالحال التى وصل إليها كقوله:

أَبَا الْمِسْكِ هَلْ فِي الْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالُهُ — فَإِنِّي أُغَنِّي مُنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ؟
وَهَبْتَ عَلَى مِقْدَارِ كَفَّيْ زَمَانِنَا — وَنَفْسِي عَلَى مِقْدَارِ كَفَّيْكَ تَطْلُبُ
إِذَا لَمْ تَنُطْ بِي ضَيْعَةً أَوْ وِلَايَةً — فَجُودُكَ يَكْسُونِي، وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ

وما زال بين إلحاح ودهان، ويأس عابس، وأمل ضاحك، حتى ظهر له أنه كان موضع خديعة هائلة، وسخرية مخزية، وأنه لا ولاية ولا ملك، وأن ماء وجهه الذى أراقه، وشممه الذى دسه فى التراب، لم يحصل منهما على شىء إلا الهزيمة والعار، فهو يقول فى حزن وأنين:

وَلاَ أُمْسِى لأَهْلِ الْبُخْلِ ضَيْفًــــا وَلَيْسَ قِــرىً سِــوى مُخِّ النَّعَـــامِ
وَلَــمَّا صَــارَ وُدُّ النَّــاسِ خِبًّــا جَــزَيْتُ عَلَى ابْتِسَـــامٍ بِـــابْتِسَـامِ
وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمنْ أَصْطَفِيـــــهِ لِعِلْمـى أَنَّـــهُ بَعْـضُ الأَنَـــامِ

ثم يفر من مصر تحت ستار الليل. وتنفجر نفسه بهجاء كافور، انفجارا قد يكون الوحيد من نوعه فى تاريخ الأدب، وهنا يعرف المتنبى أن كل وسائله الأدبيه لا تجدى، وأن القلم وحده لا يصل به إلى شاسع آماله، فيقول قول النادم الحزين:

حَتى رَجَعْتُ وَأَقْـلاَمِى قَـوَائِلُ لِى: الْمَجْـدُ لِلسَّيْفِ، لَيْسَ الْمَجْـدُ لِلْقَلَمِ
اُكْتُبْ بِنَـا أَبَـدًا، بَعْـدَ الكِتَـابِ بِـهِ فَإِنَّـمَا نَحْنُ لِـلأَسْيَـافِ كَـالْخَدَمِ

ولكنه ينظر فيرى أن الشيخوخة أدركته، وأنه بعد كل ما بذله من جهد لم يعمل عملاً، ولم يبلغ أملاً، فيتعزى بأنه جاء إلى الدنيا بعد أن طارت منها فرص المجد، وعاش فى أمم لاتقدر الرجال، فيقول:

وَقْتٌ يَضِيعُ، وَعُمْـرٌ لَيْتَ مُـدَّتَـهُ فِى غَيْرِ أُمَّتِـهِ مِـنْ سَــالِـفِ الأُمَمِ
أَتَى الــزَّمَـــانَ بَنُـوهُ فى شَبِيبَتِـــهِ فَسَرَّهُـمْ، وَأَتَيْنَـــــاهُ على الْهَرَمِ

ويزيد به الألم، وتلذعه لوعة اليأس وضياع الأمل، فيصيح:

أَمَــا فِى هَــذِهِ الــدُّنْيَـا كَــرِيمٌ تَــزُولُ بِــهِ عَنِ الْقَلْبِ الْهُمُـــومُ؟
أَمَــا فِى هَــذِهِ الــدُّنْيَـا مكَــانٌ يُسَرُّ بـــــأَهْلِـــهِ الْجَارُ الْمُقِيـمُ؟

ولا يزال فى أسف وبكاء على تلك الأمانى الغالية، التى طارت أمام عينيه فى الهواء، وذهبت مع الهباء، إلى أن يقول ـ فى آخر قصيدة قالها ـ قول اليائس المتهدم:

فَــزُلْ يَـابُعْـدُ عَنْ أَيْـدِى رِكَــابٍ لَهَا وَقْعُ الأَسِنَّــةِ فِى حَشَــاكَــا
وَأَنَّى شِئْتِ يَـاطُــرُقِى فَكُــونِى: أَذَاةً، أَوْ نَجَـاةً، أَوْ هَــلاَكَـا. . . !

الفاروق: الأديب الناقد (*)

«.. امتزج تقدير عمر للشعر وإحساسه بروعته وجماله، بقوة نزعته الدينية وبما رسخ فى نفسه من الإيمان المكين، وكان يميل إلى الصدق فى المديح وإلى الحكمة العالية وإلى الجد فى القول. وكان يستنكر الهجاء ويحاول تأويله نزوعًا إلى درء الحدود بالشبهات..»

يستطيع الباحثون أن يجدوا مجالا فسيحا للقول إذا حاولوا الحديث عن عدل الفاروق وحكمته ودينه وسياسته. ويستطيع المؤرخون أن يظفروا فى حياة الخليفة العظيم بنبع فياض ينقع الغلة ويشفى العلة. ويستطيع المؤرخون أيضًا أن يهتدوا عند النظر فى سيرته الشريفة ببارق يؤسسون فى ضوئه ماشاءوا من نظريات لنظام الحكم العادل وصفات الحاكم الحكيم.

ولكن الأديب إذا نظر فى حياة عمر رضى الله عنه ـ وقد كانت حياة جد وصرامة وجهاد وعزم ـ لا يجد إلا لمحات هنا وهناك انتثرت فى كتب الأدب يعثر عليها بين الحين والحين.

وقلة ما بين أيدينا من لفتات الفاروق فى الأدب ونقده للشعر، إنما كانت لأن الكاتبين الأولين حينما كتبوا تاريخه العظيم توجهوا إلى أبرز صفاته وأظهر مميزاته فبهرهم لألاؤها، وملك عليهم زمام القول جلالها، ورأوا أن الوقت أضيق من أن يتسع لاستقصائها، فأسرعوا يدونون منها ما يستطيعون، ويتلقفون من كريم أخبارها ما يتلقفون.

أرأيت البحر الخضم المائج وقد وقفت على طرف من سيفه، أكنت مستطيعًا أن تحيط بمداه، أو تقف طرفك عند منتهاه؟

(*) : نشر بصحيفة «دار العلوم» بالعدد الأول يوليو ١٩٣٦م. من ص ٦٧ ـ ٧٦.

أرأيت السماء الصافية فى الليلة الصاحية وقد طرزت النجوم رقعتها، ولمعت الزهر على شطآن مجرتها؟

أترى وقد أرسلت طرفك إلى هذا الفضاء الفسيح أنك قادر على عد هذه الكواكب المشتبكة المتناثرة؟

كان الفاروق أديبا، وكان له ذوق عربى صميم فى نقد الشعر، ونظرة البصير فى الحكم على جيده ورديئه. ولو أن المؤرخين عنوا بهذه الناحية من حياة عمر لوصل إلينا منها الجم الكثير.

كانت النزعة الأدبية فيه شديدة الإحساس. وهذه النزعة هى التى دفعته إلى الدخول فى الإسلام فهو لم يسلم خوفًا من أحد، ولم يسلم رغبة فى جاه أو عتاد، ولكنه أسلم لأنه قرأ القرآن الكريم وتأثر به فملك شعوره وأخذ عليه نواحى نفسه.

وقد امتزج تقدير عمر للشعر وإحساسه بروعته وجماله، بقوة نزعته الدينية وبما رسخ فى نفسه من الإيمان المكين، فكان يميل إلى الصدق فى المديح وإلى الحكمة العالية وإلى الجد فى القول، وكان يستنكر الهجاء ويحاول تأويله نزوعا إلى درء الحدود بالشبهات. وكان شديد الميل إلى شعر زهير بن أبى سلمى، لمزيد عنايته بصقل شعره، وتهذيبه، ولكثرة ما كان يأتى فى تضاعيف كلامه من الحكم، ولأنه كان لا يمدح إلا مستحقّاولأنه كان شاعر سلم لا شاعر حرب، وقف مواهبه الشعرية على الإصلاح بين القبائل وحقن دمائها. فقد كان عمر يقول: أشعر الشعراء من يقول من ومن ومن، يقصد زهيرًا ويشير إلى ما جاء من صنوف الحكمة فى آخر معلقته.

دخل مرة على عمر بن الخطاب، ابن هرم بن سنان (ممدوح زهير) فقال له: من أنت؟ قال: أنا ابن هرم بن سنان. قال: صاحب زهير؟ قال: نعم. قال: أما إنه كان يقول فيكم فيحسن. قال: كذلك كنا نعطيه فنجزل. قال: ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم.

قال ابن عباس: قال لى عمر بن الخطاب: أنشدنى من قول زهير، فأنشدته قوله فى هرم بن سنان ابن حارثة حيث يقول:

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم	طابوا وطاب من الأفلاذ من ولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم	قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا	مرزّؤون بها ليل إذا احتشدوا
محسَّدون على ما كان من نعم	لاينزع الله منهم ماله حُسدوا

فقال عمر: ما كان أحب إلى لو كان هذا الشعر فى أهل بيت رسول الله!

فعمر هنا بعربيته الذواقة يدرك جلال الشعر وجماله وقوته، وبإسلامه الراسخ لا يريد إلا أن يكون الشعر صورة للحق الأبلج لا ختل فيه ولا خداع، فهو لذلك يود لو كانت أبيات زهير مديحًا فى بيت النبوة ليتم له المثل الأعلى الذى يريده للشعر، وهو أن يصل إلى قمة البلاغة مع الصدق الذى لا يعبث به رياء .

وقال عمر مرة - فيما روى الرواة - لابن عباس : أنشدنى لأشعر الناس الذى لا يعاظل بين القوافى ولا يتبع حوشىّ الكلام. قال : من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال : زهير بن أبى سلمى . فلم يزل ينشده حتى أصبح .

وكان عمر يطرب لقول زهير:

فـإن الحق مقطعـه ثـلاث	يمين أو نفـاذ أو جـلاء

ويلى زهيرًا فى المنزلة عنده نابغة بنى ذبيان للسبب الذى ذكرناه آنفًا، وهو جزالة شعر النابغة، وميله إلى الحكمة وضرب المثل، ولأنه فى كثير من اعتذاراته للنعمان كان يصور الحقائق كما هى من غير مواربة أو مخاتلة .

دخل على الفاروق مرة وفد من غطفان فقال لهم من الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة	وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا: نابغة بنى ذبيان. قال لهم : من الذى يقول :

أتيتك عاريا خلقا ثيابى	على وجل تظن بى الظنون
فألقيت الأمانة لم تخنها	كذلك كان نوح لا يخون

قالوا هو النابغة، قال: هو أشعر شعرائكم. والبيت الثانى من بيتى النابغة يشبه لغة الإسلام ولعل ذلك كان سببا فى إعجاب عمر بهذا الشعر، فقد رسخ الدين الكريم فى نفسه رسوخًا حبب إليه كل شىء من الشعر فيه أخلاق الإسلام وآدابه .

حج مرة فلما كان بضجنان قال : لا إله إلا الله العلى العظيم المعطى من يشاء ماشاء، كنت بهذا الوادى فى مدرعة صوف أرعى إبل الخطاب، وكان فظًا يتعبنى إذا عملت ويضربنى إذا قصرت، وقد أمسيت الليلة وليس بينى وبين الله أحد ثم تمثل :

لا شىء مما ترى تبقى بشاشته	يبقى الإله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه	والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له	والجن والإنس فيما بينها ترد
أين الملوك التى كانت نوافلها	من كل أوب إليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب	لابد من ورده يوما كما وردوا

وأشهد أن هذا الشعر لم يعظم عند عمر إلا لأنه يفيض بآداب الدين وينطق بلغة الإسلام.

وكثيرًا ما كانت القبائل أو عظماء العرب تفزع إلى ـ عمر رضى الله عنه ـ يستعدونه على الشعراء الذين هجوهم، فكان عمر رفقا بالشعراء وإبعادًا للشر عنهم يتكلف التأويل لهذه الأهاجى، ويبالغ فى تهوين أمرها، وهو أعلم بما انطوت عليه من سم زعاف. وحكايته مع الزبرقان بن بدر والحطيئة مشهورة.

ولما هجا النجاشى رهط تميم بن مقبل استعدوا عليه عمر وقالوا يا أمير المؤمنين إنه هجانا، قال: وما قال فيكم؟ قالوا قال:

إذا الله عادى أهل لؤم ودقة ... فعادى بنى عجلان رهط ابن مقبل

قال عمر: هذا رجل دعا؛ فإن كان مظلوما استجيب له، وإن لم يكن مظلومًا لم يستجب له.

قالوا: فإنه قد قال:

قبيلته لا يخفرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يريدون الماء إلا عشية ... إذا صدر الوراد عن كل منهل

قال عمر: ليت آل الخطاب مثل هؤلاء فإن ذلك أجمّ وأمكن، قالوا فإنه يقول:

وما سمى العجلان إلا لقوله ... خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

قال: سيد القوم خادمهم فما أرى بهذا بأسًا.

والخلاف فيما أعتقد بين رهط تميم وعمر أنهم يفهمون الشعر بروح الجاهلية، وعمر رضى الله عنه يفهمه بروح الإسلام.

كان عمر مع هذا يبغض صريح الهجاء ويستنكره، وقد حبس فيه الحطيئة لما لم يجد مناصا من عقوبته، ولكنه كان يتأثر بالشعر إذا استعطف به. وقد كان الحطيئة حين استعطفه ليطلق سراحه أعلم الناس بأخلاق الفاروق، فجاءه أولا من ناحية بنيه الصغار وما يلاقون من جوع وشظف بعد حبس أبيهم، ثم لما همّ بمدحه لم يجاوز الحد ولم يقل إلا حقًا:

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ ... زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة ... فاغفر عليك سلام الله ياعمر
أنت الإمام الذى من بعد صاحبه ... ألقت إليك مقاليد النهى البشر
ما آثروك بها إذ قدموك لها ... لكن لأنفسهم قد كانت الأثر

لذلك أمر عمر بإطلاقه وأخذ عليه ألا يهجو مسلما .

وكان عمر رضى الله عنه شاعرًا مقلا . قال سعيد بن المسيب كان أبو بكر شاعرًا وعمر شاعرًا وعلى أشعر الثلاثة .

وقد كان شعره صورة من نفسه المؤمنة ، حتى إنه حينما أراد أن يرتجز لحداء ناقته كان يقول :

إليك يغدو قلقا وضينها ... مخالفا دين النصارى دينها

أى دين صاحبها . ومن قوله يوم فتح مكة :

ألم تر أن الله أظهر دينه ... على كل دين قبل ذلك حائد
غداة أجال الخيل فى عرصاتها ... مسومة بين الزبير وخالد
فأمسى رسول الله قد عز نصره ... وأمسى عداه من قتيل وشارد

هذا موجز فى الناحية الأدبية الشعرية من حياة الفاروق أرجو أن يكون فيه غنية للمتأدبين .

اقتراح في مراتب وضع الألفاظ

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم ـ لسنا الآن فى صدد الكلام على اختيار كلمات للمعجم الكبير الذى سنضعه إن شاء الله؛ فإن هذا المعجم سيشتمل على كل شىء من حديث الكلام الصحيح وقديمه، مشهوره وغريبه، ذائعة ونادره، وإنما البحث الآن محدود باختيار كلمات صحيحة لأدوات حديثة، أو آلات جديدة، أو أى شأن من شئون الحياة العامة، وبعبارة أخرى: نحن فى صدد اختيار كلمات صحيحة بدل الكلمات التى يستعملها الناس محرفة أو أعجمية أو عامية ولا مسوغ لها، وأرى أن هذا الاختيار يتطلب وضع نظام محدد حتى لا تعمى علينا الطرق، وحتى لا نحتاج إلى الإفاضة فى المناقشة واقتراح مبدأ جديد عند النظر فى كل كلمة يراد اختيارها.

ومجالات الاختيار معروفة محصورة وهى :

(أولا) الكلمات العربية الفصيحة.

(ثانيا) الكلمات العامية الصحيحة، أو المحرفة وفى الاستطاعة تصحيح ألفاظها.

(ثالثا) الاشتقاق.

(رابعا) المجاز .

(خامسا) التعريب.

وأرى أن يكون النظام المتبع عند اختيار كلمة لمعنى من معانى الشئون العاملة أن ننظر:

(١) فإن وجدنا للمعنى الجديد فى المعجمات لفظا يطابقه، وكان هذا اللفظ جامعا ما اشترطناه من الخفة وموافقة الذوق ـ أخذناه.

(٢) ويجب أن نتجه بعد ذلك إلى متعارف الكلام عند الناس : فإن رأينا اللفظ الذى وضعوه لهذا

المعنى يمكن تصحيحة وتخريجه؛ اختير اللفظ المتعارف؛ ليكون بجانب اللفظ المعجمى رديفا، وأبيح للناس اختيار اللفظ الذى يرونه.

أما إذا كان اللفظ العامى بحيث لا يهتدى إلى أصله العربى، لكثرة ما اعتوره من عواصف التحريف فى أدوار التاريخ، أو كان منحولا من لفظة أعجمية - فإنه يجب نبذه.

أما إذا لم يوجد للمعنى الجديد لفظ يطابقه فى المعجمات، ووجد فى متعارف الكلام لفظ يستطاع تصحيحه - فإنه يكتفى باختيار اللفظ المتعارف. فإذا أظهر البحث فى مستقبل الأيام لفظا معجميا يطابق المعنى وضع هذا اللفظ بجانب اللفظ الأول.

(٣) فإذا لم نجد هذا ولا ذاك عمدنا أولا إلى الاشتقاق.

(٤) فإن لم يسعدنا الاشتقاق عمدنا إلى المجاز، وذلك إنما يكون باختيار كلمة من مهجور اللغة للمعنى الحديث، لمناسبة بين المعنيين كما نسمى الـ Direction بالكوثل.

(٥) فإن لم نجد فى ذلك طلبتنا عمدنا إلى التعريب، وذلك آخر سهم فى الكنانة.

حضرة العضو المحترم الدكتور فارس نمر - نريد من حضرة الأستاذ على الجارم أن يذكر لنا أمثلة.

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم - إذا كان عندنا معنى جديد لآلة أو أداة مثل (حنفية الماء) فإن أول ما نعمله هو أن ننظر إلى ناحيتين مختلفتين. وهما ناحيتا المعاجم، واللغة العامية، فإن رأينا فى المعاجم كلمة تطابق هذا المعنى، ورأينا فى العامية كلمة يمكن أن تكون صحيحة أخذنا الكلمتين فقلنا (الصنبور والحنفية) وتركنا الناس أحرارا فى استعمال أية كلمة منهما.

وإذا وجدنا أداة لم نجد لها اسما مطابقا فى العربية الفصيحة، مثل (عقرب الساعة) وهى كلمة لم يستعملها العرب فى هذا المعنى، ولكنها عربية صحيحة، نقول: عقرب الساعة ولا نقول: (المشير)؛ فإن هذه الكلمة موضوعة بالاشتقاق، ونحن لا نلجأ إليه متى وجد العامى الصحيح.

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين والى - هل هناك مشابهة بين العقرب وعقرب الساعة؟

حضرة العضو المحترم الأستاذ الشيخ أحمد الإسكندرى - القدماء سموه عقربا لمشابهة بينه وبين العقرب.

حضرة العضو المحترم الدكتور فارس نمر - كلمة (عقرب الساعة) عامية، وجدت إما للمشابهة بينها وبين العقرب، وإما لسبب آخر، فليست العلاقة هى المشابهة دائما.

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم - ذيوع الكلمة طول هذه السنين يشفع لها، وأنا أعتقد أن لابد من صلة وإن خفيت.

حضرة العضو المحترم الدكتور فارس نمر ــ كانت المشابهة فى زمن من الأزمان، ثم تنوسيت بانقضاء هذا الزمان، فليس من الضرورى إذن أن نبحث عن العلاقة سواء أكانت المشابهة أم غير المشابهة مادام اللفظ عربيا صحيحا، وهو شائع فى معناه .

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين والى ـ أما كلمة (الحنفية) العامية ــ فلها مناسبة أو وجه صحيح فى العربية، لأنها كما قيل نسبة إلى الحنفية المنتسبين إلى الإمام أبى حنيفة، فهذه نقبلها .

وأما المثال الثانى وهو (عقرب الساعة) الذى قلتم إننا نقبله ـ فهل هناك مناسبة بين العقرب وعقرب الساعة؟

حضرة صاحب المعالى رئيس المجمع ـ هناك قاعدة ومثال : أفى المثال تطعن أم فى القاعدة؟

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين والى ـ أطعن فى القاعدة .

حضرة العضو المحترم الأستاذ الجارم ــ القاعدة أننا إذا لم نجد فى المعجمات كلمة للمعنى الجديد نفضل الكلمة العامية الصحيحة المتعارفة .

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين والى ــ كلامى فى القاعدة، أما المثال فلو بحثنا فيه وضح ما قاله الأستاذ الإسكندرى من أن لعقرب الساعة نوعا من الشبه بالعقرب، فالمثال صحيح ، والقاعدة غير مسلم بها ؛ فإن قاعدة الأستاذ الجارم أن نأتى بالكلمة العامية ولو لم يكن بينها وبين المعنى صلة .

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم ــ أقول نأتى بالكلمة العامية إذا لم يكن لها رديف فى العربية .

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين والى ـ هذه القاعدة خارجة عن القواعد العربية، وقد تدخل فى اللغة ألفاظا كثيرة غير صحيحة .

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم ـ الكلمة التى اختيرت عربية صحيحة، فماذا يضيرنا لو أضفنا إلى معجمنا كلمة عربية صحيحة جرت على ألسنة العامة؟

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين والى ــ إذا جرت الكلمة العامية على أقيسه العرب قبلناها، وإلا فلا نقبلها .

حضرة العضو المحترم أحمد العوامرى بك ـ الكلمة صحيحة عربية مستعملة فى معنى شائع .

حضرة العضو المحترم الشيخ إبراهيم حمروش ـ إن اقتراح الأستاذ الجارم لا يخرج فى الجملة عن المادة الثانية من لائحة المجمع .

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم ـ هناك فرق بين ما أقوله وبين اللائحة : فأنا أريد أن أبين المراتب التى ينتهجها الواضعون للألفاظ ، فهل توافقون على الترتيب الذى أقترحه؟

حضرة العضو المحترم الشيخ أحمد الإسكندرى - أرى أن نتبع اللائحة ؛ فإن اللائحة هى العقد الذى اتفقنا عليه، وهى دستورنا .

حضرة العضو المحترم الأستاذ جب - إذا اتفق حضرات الأعضاء على أن تطبق اللجان هذه القواعد كانت بمثابة توضيح لما فى اللائحة .

حضرة العضو الأستاذ نلينو - أوافق حضرة الأستاذ على الجارم، غير أنى أخشى أن نقيد أنفسنا ونحن فى بدء أعمالنا بقيود ثقيلة، وقد يخيل إلينا أن الأمر هين، ولكننا لا نعرف ما يطرأ فى المستقبل . ثم إن اقتراح الأستاذ الجارم خلو من (التعريب) ولابد من التعريب أحيانا . على أنه لم يذكر مع المعاجم المراجع العلمية التى تحوى المصطلحات مثل كتب الطب والعلوم .

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم - لقد ذكرت التعريب فى اقتراحى ، ولا مانع عندى أن أقول (المراجع) بدلا من المعجمات؛ لتدخل كتب العلوم التى تحوى المصطلحات .

حضرة صاحب المعالى رئيس المجمع - أتوافقون على اقتراح الأستاذ على الجارم أم تكتفون بما ورد فى المادة الثانية من اللائحة؟

فقرر المجمع الاكتفاء بالتزام اللائحة .

حضرة صاحب المعالى الرئيس - لننتقل إذن إلى البحث فى الكلمات العامة .

كما جاء فى محضر جلسة المجمع فى دورته الثانية بالجلسة رقم ١٢ فى مارس ١٩٣٥ ونشر فى مجلة المجمع ص ١٢١ .

مقدمة

ديوان على الجارم (*)

الحمد لله ، والصلاة على جميع رسله وأنبيائه ، وبعد فإنى لا أريد أن أسهب فى الكلام على معنى الشعر وخصائصه . ومبعث الروحانية فيه ، ذلك لأن هذا المبحث طرقه الباحثون كثيرًا فأخفقوا. وأطالوا فيه فكانت إطالتهم أول دليل على العىّ والحصر، ومن العىّ إطالة الكلام ، وتكرار تاء التمتام.

أرادوا أن يحدُّوا روحانيته بالألفاظ . فعجزت الألف ، وضلت الباء . وكيف يحيط المحدود بغير المحدود؟ وكيف تكشف ظلمة المادة توهّج النور؟

إن شرح آثار الإحساس الجسمى من أبعد الأمور تأتيًا وأدخلها فى باب الاستحالة . أرأيت لو أنك ذقت سكرًا أو ملحًا ، ثم سألك سائل متعنت أن تشرح له طعم السكر أو الملح ، أكنت مستطيعًا؟ أرأيت لو شممت وردًا أو نرجسًا ، ثم بدهك إنسان يفقد حاسة الشم أن تبين له فى وضوح ودقة ذلك الأثر الذى شعرت به . أكنت قادرًا على أن تجد له اللفظ إن وجدت المعنى؟

فإذا كان هذا الشأن . وتلك الحال فى إحساس الأجسام ، فكيف فى إحساس العقول؟ وإذا كانت الألفاظ عاجزة عن وصف أثر المادة الجامدة فى الأجسام ، فكيف تكون إذا همت بوصف أثر الروح النورانية فى النفوس والأرواح؟

حاول عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه «أسرار البلاغة» ، «دلائل الإعجاز» ، أن يشرح ما بهر نفسه من ضروب البلاغة فى بعض ما ساق من الشواهد فأخفق وأخفق ، وطالما نظرتُ مبتسما إليه وهو يكد ويكدح ، ويعلو ويسفل ، ويحاول الوصول إلى مواطن السحر فلا يستطيع ، ويتلمس اللفظ لشرح ما

(*) نشر بمجلة الهلال بالعدد نوفمبر ١٩٣٧ ص ٢٤ .

يجول بنفسه فلا يوفق، والغيظ ينفخ أوداجه، والألم تسمعه فى نبرات لفظه، يرسل الصيحة إثر الصيحة، كأنما يدعو إلى اصطياد ظبى نافر، أو إلى التوثب إلى أجنحة طائر، ثم هو بعد طول الصياح وشدة الإلحاح لم يعمل شيئًا، ولم يترك فى كف القارئ شيئًا!

إنك تهتزّ للبحترى، وتطرب له، ولكنك لا تستطيع أن تفضّ خاتم سحره، ولا أن تنقل إلى نفس غيرك صدى جرسه فى نفسك حين يقول فى الفتح بن خاقان:

وَلَمّا حَضَرْنا ساحَةَ الإذْنِ أخَّرَتْ ... رِجالٌ عن البابِ الذى أنا داخِلُهْ
فأفْضَيْتُ مِنْ قُرْبٍ إلى ذى مَهابَةٍ ... أقابِلُ بَدْرَ التِّم حينَ أقابِلُه
فَسَلَّمْتُ فاعْتاقَتْ جَنانىَ هَيْبَةٌ ... تُنازِعُنى القَوْلَ الذى أنا قائِلُه

السحر فى اختيار النظم، وفى إبداع التصوير، وفى وضع الكلمة فى موضعها، وفى الجرس والنغم، ولكن أين السبيل إلى إبانة ذلك ؟

قف أمام صورة بديعة لمصور ماهر، وكن ممن يفهمون سر الفن، ومعنى الألوان وامتزاجها وتشاكلها، ثم اشرح لصديق آيات النبوغ فيها، فإن فعلت - ولن تفعل - فتجرأ على إفشاء سر البيان، وتصوير الخيال .

والناس يلهجون قديمًا بقول عُروة بن أذينة :

إنَّ التى زَعَمَتْ فُؤادَكَ مَلَّها ... خُلِقَتْ هَواكَ كما خُلِقْت هَوى لها
بَيْضاء باكَرَها النَّعيمُ فَصاغَها ... بِلَباقَةٍ فَأدَقَّها وأجَلَّها
مَنَعَتْ تَحِيَّتَها فَقُلْتُ لِصاحِبى ... ما كانَ أكْثَرَها لَنا وأقَلَّها!
فَدَنا وقالَ لَعَلَّها مَعْذورَةٌ ... فى بَعْضِ رِقْبَتِها فَقُلْتُ لَعَلها

ويقولون : إن أبا السائب المخزومى نزل بعُروة بن عبيد الله فقال له : ألك حاجة؟ قال: نعم، أبيات لعروة بن أذينة، بلغنى أنك سمعته ينشدها، فأنشده الأبيات، فلما بلغ قوله :

فَدَنا وقالَ لَعَلَّها مَعْذورَةٌ ... فى بَعْضِ رِقْبَتِها فَقُلْتُ لَعَلَّها

طرب وقال : هذا والله الدائم الصبابة، الصادق العهد، لا الذى يقول :

إن كان أهلُكِ يمنعونَكِ رغبةً ... عنّى، فأهلى بى أضَنُّ وأرغبُ

لقد عدا هذا الأعرابى طوره ! وإنى لأرجو أن يُغْفَرَ لصاحب هذه الأبيات لحسن الظن بها . وطلب العذر لها، ثم عرض عروة الطعام فقال: لا والله، ما كنت لأخلط بهذه الأبيات طعامًا حتى الليل!

إن الأديب وحده هو الذى يفهم الشعور الذى ملك على المخزومىّ نواحى نفسه، واللذة الفنّية التى لم يُرِد أن يفسدها بطعام طول يومه.

ثم انظر إلى قول سعد بن ناشب وكان من مردة العرب، وشياطين الإنس، تجد فخامة وجزالة وبطولة لا يصوّرها إلا الشعر، ولا يدركها إلا ذوق الشاعر:

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ... ونكَّبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَواقِبِ جانِبًا
ولم يَسْتَشِرْ فى رَأْيِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ ... ولم يَرْضَ إلاّ قائِمَ السَّيْفِ صاحِبًا

ومن التصوير الرائع الذى يملك الجنَان، ويعقل اللسان قول أبى نواس:

رَكْبٌ تَسَاقَوْا عَلَى الأَكْوارِ بَيْنَهُمُ ... كَأْسَ الكَرَى فَانْتَشَى المَسْقِيُّ والسَّاقِي
كأَنَّ أَرْؤُسَهُمْ والنَّوْمُ واضِعُهَا ... عَلَى الْمَنَاكِبِ لَمْ تُخْلَقْ بأعْنَاقِ
سارُوا فَلَمْ يَقْطَعُوا عَقْدًا لِرَاحِلَةٍ ... حتَّى أناخُوا إِلَيْكُمْ بَعْدَ أَشْواقِ
مِنْ كُلِّ جائِلَةِ الطَّرْفَيْنِ ناجِيَةٍ ... مُشْتاقَةٍ حَمَلَتْ أَوْصالَ مُشْتاقِ

قالوا: إن محمد بن زياد الأعرابى كان يطعن على أبى نواس، ويعيب شعره. ويضعّفه ويستلينه، فجمعه مع رواة شعر أبى نواس مجلس، فأنشده أحدهم الأبيات السابقة، فقال: لمن هذه الأبيات؟ وكتبها، فقال: للذى تذمه وتعيب شعره أبى على الحكمى، قال: اكتم علىّ، فوالله لا أعود لذلك أبدًا.

وإذا أردت لهو أبى نواس وعبثه الذى يبعث فى النفس إعجابا يروغ من التصوير، ونشوة تفر من الوصف والتعبير، فاستمع إليه حين يقول:

غَنِّنَا بِالطُّلُولِ كَيْفَ بَلِينَا ... وَاسْقِنَا نُعْطِكَ الثَّنَاءَ الثمينَا
من سُلافٍ كأنها كلُّ شئٍ ... يَتَمنَّى مُخَيَّرٌ أَنْ يَكُونَا
فإِذَا مَا اجْتَلَيْتَهَا فَهَبَاءٌ ... يَمْنَعُ الْكَفَّ ما يُبِيحُ الْعُيُونَا
ثُمَّ شُجَّتْ فاستضْحَكَتْ عن لآلٍ ... لَوْ تَجَمَّعْنَ فى يَدٍ لاقْتُنِينَا
فى كُؤوسٍ كأنَّهنَّ نجُومٌ ... دائراتٌ، بُرُوجُهَا أَيْدِينَا
طالِعاتٌ مَعَ السُّقاةِ عَلَيْنَا ... فإذَا ما غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فِينَا

هذا فن يدركه الذوق، ولا يشرّح تشريح الجثث.

ومن الأبيات التى يروعك جمالها: ويهتز وجدانك لتأثيرها، ويبهر نفسك تصويرها، قول الشريف الرضى:

وَلَقَــدْ مَــرَرْتُ عَلى دِيَــارِهِمُ ... وطُلُــولُهَا بِيَــدِ الْبِلَى نَهْبُ
فَتَلَفَّتَتْ عَيْنِى فَمُــذْ خَفِيَتْ ... عَنِّى الطُّلُــولُ تَلَفَّتَ الْقَلْبُ

ولو أردنا أن نقول فى لطف جمال الشعر وروحانيته، وعجز الألفاظ عن الإحاطة بسره، وإماطة اللثام عن مكنون سحره، لطال حبل الكلام، وحاد القلم عن الجادّة، ولكننا نستطيع أن نقول فى جملة قصيرة إن جمال الشعر فى نظمه وجرسه ورنينه، وفى انتقاء ألفاظه وتجانسها. وفى ترتيب هذه الألفاظ ترتيبًا يبرز المعنى فى أروع صورة وأبدعها، وفى اختيار الأسلوب الذى يليق بالمعنى ويليق به؛ فمرة يكون إخبارًا، ومرة يكون استفهامًا، ومرة يكون استنكارًا، ومرة يكون نفيًا، ومرة يكون تعجبًا؛ كل ذلك يكون مع المحافظة على الأسلوب العربى الصميم.

ثم فى المعانى وابتكارها أو توليدها من القديم فى صورة جديدة رائعة، ثم فى الخيال وحسن تصويره والتزام الذوق العربى فيه، ثم فى إحكام القافية والتمهيد إليها، ثم فى انتقاء البحر الذى يلائم موضوع القصيد، ثم فى التنقل فى القصيدة فى فنون شتّى من القول مع المحافظة على الوحدة الشعرية، ثم فى روح الشاعر وخفة ظله، وانسياقه مع الطبع. وتعمده لمس مواطن الشعور.

ولا يكون جمال الشعر دائمًا بالمجاز والتشبيه وضروب التزويق اللفظى؛ وإنما جماله فى استعداده للنفاذ إلى النفس والوصول إلى القلب على أى صورة كان، وفى أى ثوب يكون، ولأمر ما كان لبعض الشعر الجاهلى منزلته التى لا تسامى، ومحله الذى لا ينازع، ولأمر ما هوى الشعر صريعًا يلهث حينما أثقله المتأخرون بنفائس الحلى وأنواع الحلل.

وقد يخلط من لابصر له بالشعر بين تأثير الحال التى قيل فيها الشعر وتأثير الشعر نفسه، وكثيرًا ما نال الشاعر تصفيق الجماهير واستحسانهم لأنه يتجه إلى عاطفة فيهم سريعة الالتهاب سهلة الإثارة، وكثيرًا ما يلجأ بعض الشعراء فى موضوع بعيد عن عاطفة العامة إلى الاستطراد إلى ذكر ما يثير نفوسهم استجداءً لصيحات الاستحسان وطلب الإعادة.

هذا دجل أدبىّ نعوذ بالله منه، وهذا إفساد للفن ممن يريدون الالتصاق بالفن. شأن هؤلاء شأن صغار المصورين الذين يعمدون إلى دريهمات العامة بالإكثار من الألوان الزاهية البراقة، وإن ضاع الانسجام، وقُتل الفن الرفيع قتلا.

وربما كان الشعر أعصى الفنون على التعلم، وأبعدها من أن ينال بالدرس والتدريب، إنما هو شعاع يضعه الله فى قلب من يشاء، وهبة يمنحها لمن يشاء، وحاسة معنوية يزيدها فى خَلْق نفر من عباده يحسون بها مالا يحسه كثير من الناس، فيترجمونه بيانًا ساحرًا، وقولا مبينًا.

والشعر طريق معبّدة بين عالم الأجسام وعالم الأرواح، ينقل إلى المادة الفانية نفحات الروح

الخالدة، ويرسل إلى ظلمات الحياة نورًا قدسيًا، يبدّد غيوم الغموم، ويكشف السبيل للأمل الحائر.

فليس الشعر الوزن وحده، ولا القافية وحدها، ولا الكلمات التى تملأ فراغ التفاعيل، وإن عذبت ولطفت، وإنما الشعر ما وراء كل بيت من ضوء روحانىّ وجد له بين ألفاظه منفذًا، ومن سحر سماوىّ زحزح البيتُ دونه طرف الستار.

وشأن الشعر شأن الفنون كلها، إما أن يكون فنًا، وإما ألاّ يكون، وإما أن يكون شعرًا، وإما ألاّ يكون، فليس فيه كبقية منتجات العقول جيد ومتوسط وردىء. فهو إما أن يكون جيدًا، وإما ألا يكون شعرًا، نعم إن الجودة متفاوتة، ولكنها إذا نزلت إلى حد التوسط فقد الشعر مميزاته، وسلب مقوماته، وأصبح كلامًا، كما يُجرّد القائد المذنب من رتبه وألقابه فيصبح جنديًا.

والكلام فى الشعر يطول، وبحور الشعر فيّاحة النواحى، بعيدة الغور، ولكنى أريد هنا أن أقدّم للأدباء وجمهرة المثقفين مجموعة أشعارى، بعد أن أرجأت طويلاً نشرها، وأهملت كثيرًا فى جمعها، وبعد أن ألح علّى كثير من أصدقائى فى إبرازها لتنال حظها فى سوق الأدب.

فإذا استطاعت هذه الأشعار أن تزيد فى بناء العربية صفًا، أو أن تضيف إلى آياتها البينات حرفا. أو أن تذيع من مسكىّ معانيها شذًا طيبًا وعرفًا، فقد بلغت المنى، وحمدت السرى، ونلت التوفيق كله، وسكنت نفسى أن قدمت بين يدىّ عملاً أشعر أن فيه أداء لحق لغتى وأمتى، وأن فيه غذاء صالحًا للناشئة المصرية الكريمة التى بذلت حياتى وأبذل ما بقى منها فى تثقيفها وإنهاضها إلى الأوج الذى تريد وأريد.

(*) نشرت فى مقدمة ديوان على الجارم الجزء الأول عام ١٩٣٧م.

المصادر التى لا أفعال لها (*)

أسلفنا الكلام [1] فى الجزء السابق مـن المجلة فى تطبيق ما أقـره المجمع من تكميل المواد اللغـوية الناقصـة، ولما كان هذا الأصل الخطير الشأن يشترط فى هـذا التكميل ألا ينص علماء اللغة أو يشيروا إلى أن المادة لم يسمع لها فعل، أو أن فعلها أميت، وجب على الباحثين أن يلموا بنصوص اللغويين فى هذا الصدد حتى لا يصاغ فعل لم يجيزوا صوغه بالإجماع. وقد اعتاد بعض العلماء أن يعقِّبوا على بعض الأسماء أو المصادر بأنها لا فعل لها، ولكن الباحث إذا واصل البحث واستقصى كثيرًا من المراجع وجد من اللغويين من يـذكر لها أفعالا، ورأى أنهم فى المادة الـواحدة قـد ينقلون رأيين أحدهما بجـواز صوغ الفعل، والآخر بمنعه من غير تعقيب، كأنما كان عملهم محصورًا فى نقل آراء اللغويين ورصف بعضها بجانب بعض.

ولا شك أن هـذا البحث من المسـائل الأولى التى يجب على واضعى المعجم الـوسيط تمحيصهـا، حتى يخرج للناس تامًا كاملاً، وقد جمعت مواده كل ما كان ضروريا للتعبير من أسماء وأفعال.

ويدخل فى هذا الموضوع ما عقد له ابن سيده بابا فى الصفحة ٢٢٣ من الجزء الرابع عشر سماه باب أسماء المصادر التى لا يشتق منها أفعال، فقد أورد من هذه المصادر تسعة وخمسين مصدرًا، نقل منها ثلاثة وأربعين عن أبى عبيـد، وأربعة عن ابن السكيت، وثلاثة عن سيبويـه، وثمانية عن ابن دريد، وواحدًا عن ثعلب، ورد على أبى عبيـد فى خمسة منها فـأثبت لها أفعالاً، فبقى أربعة وخمسـون مصدرًا لاتزال فيما نقله لايصح أن يشتق منها أفعال.

(*) نشر هذا البحث بمجلة المجمع بالجزء الرابع ص ٢٢٥ عـام ١٩٣٧، وهو ما وصل إليه قـرار مجمع اللغة العربية الآن كما جاء فى تعليق الأستاذ الدكتور مهدى علام نائب رئيس المجمع فى عام ١٩٨٨.

(١) انظر ص ١٦٤.

وقد تناولت هذا البحث بإفاضة واستيعاب وتنقيب فى المعجمات فظهر أن لجميعها أفعالاً عدا سبعة منه .

وسأذكر فى هذا المقال نص صاحب المخصص أولا، ثم أعقب عليه ، والله الهادى إلى أقوم سبيل .

(١)

المخصص : « هو رجلٌ بَيِّنُ الرُّجولة وراجل بين الرجلة (ضبطت بكسر الراء) .

وفى اللسان : « والرُّجلة بالضم مصدر الرَّجُل والراجل والأرجَل ، يقال رجل جيد الرُّجلة ورجل بَيِّن الرجولة والرُّجلة والرُّجْلِيَّة والرجولية ، (والأخير عن ابن الأعرابى) وهى من المصادر التى لا أفعال لها ، وهذا أرْجَلُ الرجلين أى أشدهما ، أى فيه رُجلية ليست فى الآخر. قال ابن سيده : وأراه من باب أحنك الشاتين أى إنه لا فعل له . وإنما جاء فعل التعجب (يقصد اسم التفضيل . وسوغ ذلك أنهما سواء فى الحكم) من غير فعل .

وحكى الفارسىّ : إمرأة مُرْجِل تلد الرجال ، وإنما المشهور مُذْكِر» ويظهر أن المصدر أخذ من الاسم الجامد وهو الرجل ، وكذلك اسم التفضيل فاستغنوا بذلك عن الفعل . أما فى امرأة مُرْجِل ، فإنى أميل إلى أن اسم الفاعل هذا مأخوذ من الفعل أرجلت المرأة ولدت رجالاً .

(٢)

المخصص : « وحرٌّ بين الحُرية والحُرُوريَّة » .

وفى اللسان : « والحُرُّ بالضم نقيض العبد . . . ويقال حَرَّ العبد يَحَرُّ حرارة بالفتح أى صار حرا . . . وإنه لَحُرّ بين الحُرِّية والحُرورة والحُروريَّة والحَرارة والحَرار بفتح الحاء » .

فإذا كان صاحب المخصص يريد أن الفعل لا يشتق من الحرية والحرورية فذاك مسلم له ، لأنهما مصدران صناعيان (الأول أخذ من الوصف وهو الحر، والثانى أخذ من المصدر وهو الحرورة) والمصدران الصناعيان ليسا بأصل للاشتقاق ، وإن أراد أن الفعل لا يوجد ألبتة فغير مسلم بعد أن نص صاحب اللسان على الفعل الثلاثى ومصدره .

(٣)

المخصص : « ورجل غِرّ وامرأة غِرة بينة الغَرَارَة من قوم أغْرار » .

وفى اللسان : « والغِرُّ والغَرِير الشاب الذى لا تجربة لـه . . . وقد غَرِرت غَرارة . . وقد غَرَّ يَغِرُّ بالكسر غَرارة . . . ويقـال من الإنسان الغِرّ غَرَرْتَ يارجل تَغِر غَـرارة، وفى المصباح : وغَرَّ الشخص يَغِرُّ من باب ضرب غَرارة بالفتح فهو غارّ وغِرّ بالكسر، أى جاهل بالأمور غافل عنها» .

ومن ذلك ترى أن الغَرارة يأتى منها فعل ، وأنه يكون على بابين فرح وضرب .

(٤)

المخصص : « ورجل ظَهير بَيِّن الظَّهارة وهو القوى » .

وفى اللسان : « ورجل ظهير ومُظَهَّـر قوى الظهـر، ورجل مُصَـدَّر شديـد الصدر، ومصـدور يشتكى صدره، وقيل : هو الصلب الشديد من غير أن يُعَيَّن منه ظهر ولا غيره، وقد ظَهِرَ ظَهَارة » .

فالمصدر هنا يشتق منه فعل أيضا .

(٥)

المخصص : « حافر وَقَاحٌ بَيِّن الوَقاحة والوَقَح والقِحَة والقَحَة » .

وفى اللسان : « حافـر وَقَاحٌ صلب باق على الحجارة، والنعـت وَقَاحٌ، الذكر والأنثى فيـه سواء وجمعه وُقُح ووُقَّح . وقد وَقُح يَوْقُح وقاحة ووُقوحة وقِحَة وقَحَة » .

فقد ذكر له صاحب اللسان فعلا .

(٦)

المخصص : «ورجل عِنِّين بين العنِّينة وقد عُنِّنَ » .

وفى اللسان : ما يفيد إمكان أخذه من عَنّ يَعِنّ أو يَعُنّ بمعنى عَرَض، وذكر لذلك تعليلا . . .

(٧)

المخصص : « وصريح بيِّن الصراحة والصُّرُوحة » .

وفى اللسان : « وقـال ابن سيده . الصريـح الرجل الخالص النسب، والجمـع الصُّرحاء، وقـد صَرُح بـالضم صراحـة وصرُوحـة» . . . ومن العجيـب أن ينقل ابن سيـده فى المخصص أن الصَّراحـة والصُّروحة لا يؤخذ منهما فعل، ثم ينقض هذا النقل فى المحكم .

(٨)

المخصص : « وفرس ذَلول بيِّن الذُّل، وذليل بين الذُّل والذِّلة ».

وفى القاموس : « ذَلَّ يذِل ذُلا وذُلالة وذِلة ومَذَلة وذَلالة هان فهو ذليل». وفيه : «والذُّل بالضم ويكسر ضد الصعوبة . . ذَلَّ يَذِل ذُلا فهو ذَلُول». فذكر للذل والذلّة فعلا.

(٩)

المخصص : « ومعتوه بين العَتْه والعَتَه أيضًا».

القاموس : «عُتِه كُعِنى عَتْها وعُتْها وعُتَاها بضمهما فهو معتوه نقص عقله أو فُقِد».

وفى اللسان : « ورجل معتوه بيِّنُ العَتَـه و العُتْه : لا عقل له . ذكره أبو عبيـد فى المصادر التى لا يشتق منها أفعال» .

ومن العجيب أنه لم يعقِّب عليه، مع أنـه ذكر له فى صدر المادة فعلا، وكـذلك عبارة الصحاح، وقد أسـاء صاحب التاج النقل، ففيـه : « (و) فى الصحاح التعَته : (التَّجَنُّنُ والـرعونة) . ذكـره أبو عبيد فى المصادر التى لا يشتق منها أفعال » فنقل صاحب التاج التعته وهو مصدر قياسى بدل العتة .

وفى المصباح : «عَتِه عَتَها من بـاب تعب ، وعَتَاها بالفتح نقص عقلـه». فجعل العَتَه مصدرًا للفعل.

فكيف يقال بعد ذلك : إن العَتْه والعَتَه لا فعل لهما؟

(١٠) و (١١)

المخصص : « وجارية بيِّنة الجَرَاية والجَرَاء، وجَرِيٌّ بيِّن الجَرَاية وهو الوكيل».

وفى اللسان : « والجَرِيُّ الوكيل . . . ويقال جَـرِيٌّ بيِّن الجَرَاية والجِرَاية وجَرَّى جَـرِيًّا وكَّله . . . وسمى الوكيل جَرِيًّا لأنه يَجْرِى مجرى مُوَكِّلـه . . . والجارية الفَتِيَّةُ من النساء بينة الجَرَاية والجَرَاء والجَرَى والجِراء. والجَرَائية (الأخيرة عن ابن الأعرابى) ».

وفى المصباح : « والجارية السفينـة سميت بذلك لجريها فى البحر، ومنـه قيل للأمة جـارية على التشبيه لجريها مستمرة فى أشغال مواليها، والأصل فيها الشـابة لخفتها، ثم توسعوا حتى سموا كل أمة

جارية ، وإن كانت عجوزا لا تقدر على السعى ؛ تسمية بما كانت عليه .

ومن هذا وما قبله يظهر أن الجَرِىَّ والجارية فعلُهما جرى ، وأن هذه المصادر التى ذكرت إنما هى مصادر لهذا الفعل .

(١٢)

المخصص : « وفلان طريف فى النسب وطَرِفٌ بيِّن الطرافة » .

وفى الصحاح : « والطريف فى النسب الكثير الآباء إلى الجد الأكبر ، وهو خلاف القُعْدُد ، وقد طَرُف بالضم طرافة » .

فذكر فعله ، ولا شك أن فعيلا وفَعِلا يأتيان من باب كرم .

(١٣)

المخصص : « الأقعد بين القُعْدُد والقُعْدَد » .

وفى اللسان : « القُعْدُد القُرْبَى . . . والإقْعَاد قلة الآباء والأجداد . . . يقال : هو أقعدهم أى أقربهم إلى الجد الأكبر . . . ابن الأعرابى : ورث فلان بالإقعاد ولا يقال ورثه بالقعود » .

ومن ذلك يفهم أن اسم التفضيل وهو أقعد ، وكذلك المصدر وهو القعدد فعلهما رباعى ، وليس لهما فعل ثلاثى من مادتهما ، وكثيرا ما يستعمل القعدد وصفًا وهو الأقرب إلى الأب الأكبر .

(١٤)

المخصص : « وعقيمة بيِّنة العُقْم والعَقَم » .

وفى المصباح : « . . . وعَقِمت الرَّحِم عَقَمًا من باب تعب » .

فأثبت له فعلا .

(١٥)

المخصص : « رجل وضيع بين الضِّعَة والضَّعَة » .

وفى اللسان : « ورجل وضيع . وَضُع يَوْضُع وضاعة وضَعَة وضِعة صار وضيعا » ؛ فأثبت له فعلا .

(١٦)

المخصص : « ابن السكيت : وَطِيءٌ بيِّن الوَطَاءة والطِّئة والطَّأة» .

وفى اللسان : « والوطىء السهل من الناس والدواب والأماكن، وقد وَطُؤ الموضع بالضم يَوْطُؤ وطاءه وَوُطوءة وطئة صار وَطيئا » .

فأثبت له فعلا .

(١٧) ، (١٨) ، (١٩)

المخصص : « أبو عبيد : رفيع بيِّن الرفعة وقد وَضُع ورَفُع . قال أبو علىّ : ليس من هذا الباب على عقده ، إنما هو من هذا الباب على ما حدّه سيبويه ، وذلك أن سيبويه قال : ولم يقولوا : وَضُع ولا رَفُع ، كما لو يقولوا : شَدُدت ولا فَقُرت» .

وقد نقلنا عن صاحب اللسان ورود الفعل وَضُع ، أما رَفُع ففى اللسان : « والرِّفْعة خلاف الضعة ، رَفُع يَرفُع رَفاعه فهو رَفِيع إذا شَرُف ؛ » ثم نقل رأى سيبويه .

وفى المصباح : « رفُع الرجل فى حسبه ونسبه فهو رَفِيع

وأما شدّ فلم يجىء فعله من باب كرم ، وإنما جاء من باب ضرب ، والوصف منه شديد» (انظر المصباح) .

وفى اللسان : « وقد شدَّ يَشِدُّ بالكسر لا غير إذا كان قويا» .

وأما فَقُر ففى **المصباح** : « الفقير فعيل بمعنى فاعل ، يقال فَقِر يفقَر من باب تعب إذا قَلَّ ماله» .

قال ابن السراج : « ولم يقولوا : فَقُر - أى بالضم - استغنوا عنه بافتقر» .

ولا أجد معنى لهذا الكلام ؛ لأن الوصف فعيلا لا يختص بباب كرم ، كما أن الفقر يدل على الخلق وهو ألزم بباب فرح .

وفى اللسان : « وقال سيبويه ، وقالوا : افتقر ، كما قالوا : اشتد ، ولم يقولوا : فَقُر ، كما لم يقولوا : شَدُد ، ولا يستعمل بغير زيادة» .

وفى الصحاح : « وقولهم : فلان ما أفقره وما أغناه شاذ ؛ لأنه يقال فى فعليهما : افتقر واستغنى ، فلا يصح التعجب منهما» .

ومن العجيب أن صاحب الصحاح نفسه يقول فى مادة (غ ن ى) والغنى مقصورًا اليسار، تقول منه غَنِىَ فهو غَنِيٌّ، فأنكر الفعل فى مكان وأثبته فى آخر.

(٢٠)

المخصص: «والسرُّ من كل شىء الخالص بيِّن السَّرَارة».

اللسان: «والسّر من كل شىء الخالص بين السَّرَارة ولا فعل له».

(٢٥،٢٤،٢٣،٢٢،٢١)

المخصص: «الشمس جَوْنَة بيِّنة الجُونة، وبعير هِجان بين الهجانة، ورجل هجين بين الهُجْنة، وخصىّ مجبوب بيِّن الجِباب، وعربى بيِّن العُرُوبيّة، ابن دريد: والعُرُوبة والعَرَابة».

ليس للجون وهو الأسود أو الأبيض فعل مجرد، وإن كان مصدره يتطلب أن يكون فعله من باب فرح، وقد ورد له فعل مزيد.

ففى اللسان:

«التَجَوُّن تبييض باب العروس، والتَّجَوُّن تسويد باب الميت».

وتفسير التجون بالتبييض والتسويد فيه نظر، والأولى أن يقال: التجوين.

أما الهجان **ففى القاموس** «وكـ(كتاب): الخيار، ومن الإبل البيض والبيضاء، والرجل الحسيب، و. . . وفعل الكل يهجِن ويهجُن».

فأثبت له فعلا.

وأما الهجين. فقد أثبت له صاحب القاموس فعلا أيضا. قال: «والهجين اللئيم وقد هجن ككرم هجنة بالضم وهَجانة وهُجونة».

أما المجبوب ففعله فى اللسان جَبَّه يَجُبُّه جبّا وجِبابا.

وأما عربى بيِّن العُروبة، ففى اللسان: «وعربى بين العُروبة والعُروبيّة وهما من المصادر التى لا أفعال لها» ثم قال فى مكان آخر: «وعرُب الرجل يعرُب عُرْبا وعُروبا. عن ثعلب: وعُروبة وعَرابة وعُروبيّة كفَصُح (أى لفظا ومعنى) وعَرِب إذا فَصُح بعد لُكْنة فى لسانه».

فجاء بفعل من العُروبة والعَرابة.

(٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣)

المخصص : « أبو عبيد : عَبْد بيِّن العُبُـوديَّة والعُبُودة؛ وأمة بينة الأمُوَّة، وأُمٌّ بينـة الأمُومة، وأبٌ بين الأُبُـوَّة، وأخت بينة الأخُـوَّة مثل الأخ، وبنت بينـة البُنُـوة مثل الابن، وعَمٌّ بين العُمُـومة وكـذلك الخُؤولة، أما العَبْـد والعُبُوديَّة والعُبودَة، ففى اللسان: والاسم من ذلك العُبُودَة والعُبُـوديَّة ولا فعل له عند أبى عبيد، وحكى اللحيانى عَبُد عُبُودة وعُبُوديَّة. فأثبت اللحيانى فعلا للمصدرين.

وأما الأَمَة والأُمُوَّة، ففى اللسان: « وأَمَت المرأة وأَمِيَتْ وأَمُوَتْ (الأخيرة عن اللحيانى) أُمُوَّة صارت أَمَة، وقال مَرَّة: ما كانت أمة ولقد أَمُوَتْ أُمُوَّة، وما كنتِ أمة ولقد تَأَمَّيْتِ وأَمِيتِ أُمُوَّة ».

وأمـا الأم والأمومـة، ففى اللسان: « وأَمَّتْ تَـؤُم أُمُومـة صـارت أمًّا، وقـال ابن الأعرابى فى امـرأة ذكرها: كانت لها عمة تَؤُمّها أى تكون لها كالأم».

وأما الأب والأبُوَّة، ففى اللسان: « وأبوت وأَبَيْت صرت أبا، وأَبَوْتُه صرت له أبا. قال بَخْدَج:

اطلب أبا نَخْلة من يَأْبُوكا فقد سألنا عنك من يعزوكا

إلى أب فكلهـم ينفيكـــــا

التهذيب. ابن السكيت: أبـوت الرجل أأبوه إذا كنتَ لـه أبا، ويقال: مـاله أب يَأْبُـوه أى يغذوه ويربيه».

وأما الأخت أو الأخ والأخوة. . . . ففى اللسان: « قال ابن سيده: ولقد تَأَخَّيْتَ وآخيت وأَخَوْت تأخو ». فذكر ابن سيده نفسه للمصدر وهو الأخوة فعلا.

وأما البنت أو الابن والبنوّة، فلم نجد لها فعلا ثلاثيا.

وأما العم والعمومة ، ففى اللسان: « وما كنت عما ولقد عَمَمت عُمُومة ».

فأثبت للمصدر فعلا.

وأما الخال والخؤولة، ففى اللسان: « والمصدر الخؤولة، ولا فعل له ».

ولم نجد له فعلا ثلاثيا فيما بين أيدينا من المعجمات الأخرى.

(من ٣٤ إلى ٣٧)

المخصص : « يقال: أسد بيِّن الأَسَد، وليث بيِّن اللباثة، ووَصِيفٌ بيِّن الوَصَافة».

ثعلب : ووصِيفَة بيِّنة الإيصَاف، ووَلِيدة بيِّنه الوَلَادة والوَلِيدِيَّة ».

يقول في اللسان : « وأسد بيّن الأَسَد نادر . . . . وأَسِد الرجل : استأسد، صار كالأسد في جراءته وأخلاقه . . . . . . وفي حديث لقمان بن عاد : خذ مني أخي ذا الأسد، الأَسَد مصدر أَسِدَ يأْسَدَ، أي ذو القوة الأسدية» .

هذا النص يدل على أن الأسد مصدر معناه القوة الأسدية وأن فعله أَسِدَ يأْسَد فله إذا فعل مجرد .

وفي اللسان : « الليث الشدة والقوة . . . . والليث الأسد . . . . . . وإنه لبين اللَّياثة ، والليث الشجاع بين اللُّيوثة ، قال ابن سيده : وأراه على التشبيه . . . . . . ، وفي حديث ابن الزبير أنه كان يواصل ثلاثا ثم يصبح وهو أليَثُ أصحابه ؛ أي : أشدهم وأجلدهم» .

والذي نفهمه أن الليث القوة، وأن الليث وهو الأسد تسمية بالمصدر، وربما أخذ ذلك من قول صاحب اللسان (وبه سمي الأسد ليثا) . وإذا جاز ذلك كانت اللَّياثة بمعنى الأسدية ، وهي لذلك لا فعل لها، كالخؤولة التي هي مصدر مصوغ من كلمة الخال .

وأما وَصِيف بين الوَصَافة ، ففي اللسان : « وفي حديث أم أيمن أنها كانت وصيفة لعبد المطلب أي أَمَة ، وقد أوصف ووَصُفَ وصافة» .

فذكر للوصيف فعلا .

أما وليدة بيّنه الوَلادة والوَليديَّة ، ففي فتح الواو في الولادة نظر.

والذي في اللسان : « والوَليدة الأمة والصبيَّة بيّنه الوِلادة (بكسر الواو) والوَليدية» .

وظاهر أن الوَليدة فَعِيلة بمعنى مفعولة ، وفعلها ولد يلد ، والمصدر ولادة وإلادة على البدل . والأصل في معنى الوليدة الصغيرة، قال في اللسان : « وقد تطلق الوليدة على الجارية والأمة وإن كانت كبيرة» .

من هذا يظهر أن للمصدر وهو الولادة فعلا وهو ولد يلد ، أما الوَليديّة فمصدر صناعي وهو لا فعل له دائما .

(من ٣٨ إلى ٤٠)

المخصص : « ورجل جُنُب بين الجَنابة والجَنْبة وهو الأجنبيُّ والجانب مثله .

ابن السكيت : رجل جَلِيدٌ وجَلْد بيِّن الجَلادة والجَلَد ، ولحم طرىّ بين الطَّراوة والطَّراءة» .

في اللسان : « وَجَنب فلان في بني فلان يجنُب جنابة ويجنب ، إذ نزل فيهم غريبا ، فهو جانب والجمع جُنَّاب ، ومن ثمّ قيل : رجل جانب أي غريب ورجل جُنُب بمعنى غريب والجمع أجناب» .

فذكر له فعلا.

في اللسان: «والجَلَد الصلابة تقول منه: جلُد الرجل بالضم فهو جَلْد وجَلِيد» فذكر له فعلا.

في اللسان: «ابن سيده (نفسه) طرُوَ الشيء يطرُوُ وطَرِيَ طراوة وطَرَاء وطراءة وطراة مثل حصاةفهو طَرِيّ» فجاء له ابن سيده بفعل.

(من ٤١ إلى ٤٥)

المخصص: «ابن دريد: رجل جِلْف أي جافٍ غليظ، والمصدر الجَلافة، والعَدَالة مصدرُ عَدْل حَسَن العَدَالة، وقال: سيِّد بيِّن السُّودَد، وهم من أهل بيت النُّبُوَّة والنَّباوة، وضارٍ بيِّن الضَّرَاوَة والضَّرَاءة».

في القاموس: «والجِلف بالكسر الرجل الجافي كالجليف، وقد جَلِف كفرح جَلَفا وجَلافة».

ونقول: المشهور أن العدل في الأصل مصدر لعدل يعدِل من باب ضرب، ثم استعمل في الوصف فقيل شاهد عدل، ودليل ذلك أنه يطلق على الواحد وغيره بلفظ واحد، أما العدالة كما في المصباح فمصدر عَدُل، قال: «وعَدُل هو (الشاهد) بالضم عدالة وعُدُولة فهو عَدْل أي مَرْضِي يُقنع به».

ويظهر من سياق صاحب المصباح أن عَدْلا هنا صفة مشبهة، وقد يشايع هذا الرأي أنه يجمع فيقال: رجال عُدُول، وأنه قد يطابق في التأنيث فيقال: امرأة عَدْلة. وسواء أكانت كلمة عَدْل مصدرا في الأصل أم صفة مشبهة فإن للعدالة فعلا هو عَدل.

في اللسان: «السُّودَد الشرف معروف، وقد يهمز وتضم الدال طائية، الأزهري: السؤدُد بضم الدال الأولى لغة طيِّئ، وقد سادهم سُودًا وسودُدا وسِيادة وسَيْدودة، وعبارة المصباح وساد يسود سيادة والاسم السُّودَد».

ولا أرى معنى للتفرقة بين السيادة والسودد؛ فكلاهما يدل على معنى المصدر.

والنبيّ إما من النبأ وهو الخبر، وفي اللسان: «واشتقاقه من نَبَّأ وأنبأ أي أخبر... فعيل بمعنى فاعل للمبالغة، وفيه: «ونبأت الرجل ونبأني: أنبأته وأنبأني».

وقد انفرد صاحب اللسان فيما أعلم بالإتيان بنبأ بمعنى أنبأ وأخبر، وفي القاموس: نبأ بمعنى ارتفع وطلع وخرج من أرض إلى أرض.

وإذا كان النبي من نبأ بمعنى أخبر كان مصدره القياسي النَّبْء بسكون الباء ولكن المسموع

فتحها، أما إذا كان النبيّ من نبا بمعنى ارتفع فمصدره النَّبْو والنَّبْوَة والنَّباوة.

في اللسان: «وإن أخذت النبيّ من النبوة والنباوة وهى الارتفاع من الأرض لارتفاع قدره ولأنه شُرِّف على سائر البشر، فأصله غير الهمز وهو فعيل بمعنى مفعول.

وفي القاموس: «والنَّباوة ما ارتفع من الأرض كالنُّبْوة والنَّبِي وموضع بالطائف وبالكسر: النبوة». فهو يحتم كسر النون فى النباوة بمعنى النبوة.

ومن ذلك نرى أن كلمة النبيّ إما مهموزة وإما غير مهموزة، وأن لها مصدرًا وفعلا فى كلتا الحالتين.

في التاج: «وكلب ضارٍ بالصيد أى متعود به، وقد ضِرى يضرَى ضراوة كما فى الصحاح، وهو قول الأصمعى، وضرى بالقصر وضراء بالكسر والفتح».

وذكر فى صدر المادة الضراءة من مصادر ضرى.

(من ٤٦ إلى ٥٤)

المخصص: «ثعلب: شَيْخ بيّن الشَّيْخُوخِيّة والشَّيْخُوخة والتَّشييخ، وأيِّم بيّن الأيمة والأُيوم. أبو عبيد: فعلت ذلك به خَصُوصيَّة، وهو لِصٌّ بيّن اللَّصُوصِيّة، قال ابن السّكّيت: ولا تقالان إلا بالفتح. ثعلب: الضم فيه لغة. أبو عبيد: حَرُورِىٌّ بيّن الحَرُورِية. ابن السكيت: لا يقال إلا بالفتح ثعلب: الضم فيه لغة. ابن السكيت: فارِسٌ على الخيل بيّن الفُرُوسيّة والفُرُوسة. ابن دريد: صَارِمٌ بيّن الصَّرَامة وقالوا الصُّرُومة، وليس بثبت. وحازم بيّن الحَزَامة، وقالوا الحُزومة، وليس بثبت. وهو حجر صَلْد بيّن الصَّلادة والصُّلُودة».

وفي اللسان: «وقد شاخ يشيخ شَيَخا بالتحريك وشُيُوخة وشُيُوخِيَّة عن اللحيانى: وشَيْخُوخة وشَيْخُوخِيَّة فهو شَيْخ».

فذكر له فعلا.

أما التشيّخ والتشييخ اللذان ذكرهما فمن البديهى أن فعل الأول تشيَّخ، والثانى شيّخ، وهما مصدران قياسيان.

في اللسان: «وقد آمت المرأة من زوجها تَئِيم أَيْما وأُيُوما وأَيْمَة وإيمة» - فذكر له فعلا.

في المصباح: «وخصصته بكذا أخصه خصوصا من باب قعد وخصوصيَّة بالفتح، والضم لغة، إذا جعلته له دون غيره». فذكر له فعلا.

في المصباح : « ولصّ الرجل الشيء لَصّا من باب قتل : سرقه » .

وفى القاموس : « والمصدر اللَّصَص واللِّصاص واللَّصوصية واللُّصوصية » .

فله فعل .

اللسان : «حر وراء موضع بظاهر الكوفة تنسب إليهاالحَرورية من الخوارج . . . . . ويقال : حَرورىّ بيّن الحرورية » .

وظاهر أن الحرورية فى الأصل لا تدل على معنى المصدر، وإنما هى طائفة تنسب إلى مكان ، ويظهر أيضا أنها نقلت فى بعض الاستعمالات لمعنى يقرب من معنى المصدر بتضمينها معنى الانتساب إلى هذه الطائفة ، فحين قالوا: حرورى بيّن الحرورية أرادوا بيّن الانتساب إلى هذه الطائفة ، ولعل هذا التضمين هو الذى سوغ لبعضهم ضم الحاء فى لغة قليلة تشبيها لها بالمصادر، ولا أرى فىّ ميلا إلى عدها من المصادر.

اللسان : « والمصدر الفَراسة والفُروسية ولا فعل له ، وحكى اللحيانى وحده : فرَس وفرُس إذا صار فارسا . وهذا شاذ .

وفى المصباح : « وفى التهذيب : فارس على الدابة بيّن الفُروسية » .

وفى القاموس : « الفراسة الحذق بركوب الخيل وأمرِها ، كالفروسة والفروسية ـ وقد فرُس ككرم » .

وفى التاج : « وقال ابن القطاع وفرَس الخيل فروسة وفروسية أحكم ركوبها وفرُس أيضا كذلك ، فاقتصار المصنف على ذكر باب واحد قصور لايخفى » .

ومن ذلك يظهر أن للفروسية والفروسة فعلا .

فى المصباح : « وصرُم الرجل صرامة وزان صخُم ضخامة شجُع ، وصرم السيف احتد ، وسيف صارم قاطع » .

فذكر للمصدر فعلا .

اللسان : « حزُم بالضم يحزُم حزْما وحزَامة وحُزومة وليست الحزومة بثبت » فأثبت فعلا للمصادر.

اللسان: « وقد صَلَد المكان وأصلد وأرض صَلْد » .

ومن المجاز صلُد الرجل بخِل صلادة .

هذا ما تيسر لنا القول فيه فى هذا الموضوع ، وللسيوطى فى المزهر والهمع جولة فى هذا الباب سنتناولها إن شاء الله بالبحث فى مقال آخر .

صوم رمضان في اللغة(*)

تحتفى الأمم الإسلامية وتبتهج فى أقطار الأرض عامة بهذا الشهر الجليل المنزلة، الرفيع المكانة، الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وكما يتبع الجد الناس فيرتفع بعضهم فوق بعض درجات، وتقبل السعادة على بعض بنى الإنسان فينالون منها حظا موفوراً وشأنا مذكورًا، كذلك يسعد بعض الأيام دون الأيام ويبرز بعض الشهور علما بين إخوته من أبناء العام :

هو الجد حتى تحسد العين أختها　　　وحتى يصير اليوم لليوم سيدا

وإنما يسعد اليوم أو الشهر لما تضمنه من حوادث جسام كأن يكون لها شأن فى إنهاض أمة أو إعلاء كلمة دينها، وحينما أراد أبو تمام أن يشيد بفتح عمّورية وأن يعلى من قدره وأن يجعل يومه يومًا من أيام فتوح الإسلام فى قصيدته المشهورة التى يمدح بها المعتصم جعل يقول :

إن كان بين حروف الدهر من رحم　　　موصولة أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها　　　وبين أيام بدر أقرب النسب

فرمضان يظهر على الشهور جميعا بأنه الشهر الذى فيه الهدى ونور الحق، وأنزل فيه القرآن الذى كشف عن النفس حجابها، وقاد بنى الإنسان إلى خير طريق وأقوم سبيل .

فهناءً بنى الإسلام بالإسلام، وهناءً بشهر رمضان شهر الرحمة والإحسان، ونحب أيها السادة فى محاضرتنا هذه أن نقدم إليكم بحثا لغويا فى الصوم ومدلولاته وما كان له من شأن عند أهل الجاهليات، ثم نذهب بالحديث إلى البحث فى الشهور العربية وما كان لها من أسماء فى القديم وبحديث مع بيان علل هذه الأسماء وتمحيصها واختيار أسدّ الآراء فيها .

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ١٩٣٨/١١/١٠، ونشر بجريدة الأهرام .

الصـوم مصدر صـام يصوم، ومـن مصادره الصيـام، وتقول رجل صـائم وصَـوْمان (بفتح أولـه وضمّه) وصَوْم على الوصف بالمصدر، وهـو مما يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع، وجمع الصائم صُوّام وصُيّام وصُوّم وصُيّم وصَيامَى وصِيام، ولعل الأخيرة هذه من الوصف بالمصدر أيضا.

والأصل فى هـذه المادة أنها بمعنى الإمساك والامتنـاع فإن جميع المعـانى النوعيـة تـدور حول هـذا الأصل، ففى قولنا صام الرجل امتناع، وفى قوله تعالى على لسان مريم ﴿ إنى نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسيا﴾ امتناع؛ لأن المراد بالصوم فى الآية الكـريمة الصمت، وهو امتناع من الكلام. وفى قولهم صامت الريح وصام النهار، إذا قامت شمسـه عند انتصافه ولم تبرح مكانها، وصامت الناقة إذا أمسكت عن الدّر.

فلما جاء الإسلام خصص هـذا الصوم بالامتناع من أشيـاء فى وقت محدود ،ويرى بعض الباحثين أن الصوم بمعناه الاصطلاحى كـان معروفا عند أهل الجاهلية فقد ذكر صاحب حجـة الله البالغة أن قريشا كانت تصوم يوم عاشوراء ،واحتج على ذلك بأحاديث مأثورة. والصوم ـ على أى حال ـ رياضة نفسية وجدت حيث وجد الزهد ومحاربة الشهوات وكان بالجاهلية كثير من الزهاد الموحدين كخالد بن سنان العبسى وحنظلة بن صفوان وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهم وغيرهم.

واختلف اللغويون فى علـة اشتقاق كلمة « رمضان» . وأصل هذه الكلمة وهـو الرَّمَض يدل على الحرّ أو شدتـه فقال بعضهم: إنه مأخوذ من رمض الصـائم يرمَض إذا حرّ جوفـه من شدة العطش، وقال صـاحب القاموس وقـد انفرد بهذا التعليل: إنما سمى رمضان لأنـه يحرق الذنوب. ويـرى أكثر اللغويين أنـه سمى رمضان لأن العرب حينما نقلوا أسماء الشهـور عن اللغة القديمة وهى لغـة العرب العاربة عاد وثمـود وغيرهما سمّوا الشهور بحال الأزمنة التى وقعت فيها عنـد هذه التسمية فاتفق أنهم حينما أرادوا تغيير اسم شهر « ناتِق» كان الحر والرمض فى أشده فسموه رمضان.

والعلتان الأولى والثـانية يستلزم قبـولهما التسليم بأن العرب فى جـاهليتها كانت تصـوم رمضان أو بعضا منه وإلا فكيف تستقيم العلة الأولى وهى أنه من رمض الصائم إذا حَر جوفه من شدة العطش؟ وكيف تستقيم الثانية وهو أنه يحرق الذنوب؟ والـذى يرجع إلى أقوال اللغويين فى مادة(نتق) يرى أنهم يقولون: وأنتق الرجل صام نـاتقا وهو شهر رمضان؛ فإذا كان هذا اشتقاقا جـاهليا « وهو بعيد» كان دليلا على أن العرب قبل الإسلام كانوا يصومونه وإذا كـان اشتقاقا إسلاميا « وهو ما أرجحه» لم يتوجه به دليل على ذلك وفى هـذا مبحث دقيق يغرى المحققين بالبحث والإفاضة فيـه حتى يصلوا إلى حكم صحيح. على أنى أميل من الآن إلى أن صـوم رمضان لم يكن إلا فى الإسلام وأعتقـد أن اللغويين حينما حاولوا التعليل لاشتقاق رمضان تأثروا بالزمن الذى هم فيه وبالبيئة الإسلامية التى تحيط بهم، فعللوه تعليلا إسلاميا وذهلوا عن أن الكلمة من وضع أهل الجاهلية؛ لهذا يجب دائما تمحيص علل اللغويين والتريث فى قبولها.

ويحتم الفراء، وهو من كبار اللغويين، ذكر الشهر قبل رمضان والربيعين بأن يقال: هذا شهر رمضان وهما شهرا ربيع، ويوجب ألا يذكر« الشهر» قبل غيرها من الشهور وزاد بعضهم رجبا؛ فتحتم ذكر الشهر قبله ، واستخلص اللغويون من ذلك قاعدة هى أن كل شهر يبتدئ بالراء يجب أن يسبق بلفظ شهر والرأى الصحيح أنه يجوز فى كل الشهور أن تضاف إلى كلمة شهر وألا تضاف على حسب ما يراه المتكلم أكفل بما يريد من تأدية المعانى ومما رد به اللغويون على الفراء قول أبى ذؤيب :

جارية فى رمضان الماضى تقطع الحديث بالإيماض

فلم يذكر لفظ الشهر قبل رمضان. وجاء فى الصحيحين من رواية أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كاء رمضان أغلقت النيران وصفّدت الشياطين» وهذا صريح فى جواز تعريته عن الإضافة.

ويجمع رمضان على رمضانات ورماضين وأرمضاء وأرمضة ومما هو جدير بالنظر أن العرب سوّغوا جمع كل اسم من أسماء الشهور جمعًا مؤنثا سالماً فقالوا : المحرمات وصفرات وربيعات إلى آخر الشهور. وهذا فيما يظهر لنا على تضمين كل شهر معنى مؤنثا فإن الشهر يدل على فترة من الزمن أو مدة وربما كان تسويغهم هذا يعاضد الرأى الذى نقله صاحب المصباح المنير عن ابن الأنبارى قال : واعلم أن جمع غير الناس بمنزلة جمع المرأة من الناس؛ تقول فيه : منزل ومنزلات ومصلى ومصليات.

وقبل أن ننتقل من الحديث فى الشهور العربية يجب أن ننبه هنا إلى خطأ مشهور هو قول بعضهم : ربيع الأول وربيع الثانى وجمادى الأولى وجمادى الثانية ، وهذا غلط، والصواب أن يقال ربيع الآخر وجمادى الآخرة؛ لأن التعبير بربيع الثانى وجمادى الثانية يستدعى فى ذوق لغة العرب أن يكون هناك ربيع ثالث وجمادى ثالثة . ولنذكر قبل أن نختتم هذه المحاضرة أسماء الشهور عند العرب العاربة قبل أن يغيرها من جاء بعدهم من أبناء إسماعيل، وتخطئ المعجمات هنا وتسميها شهور الجاهلية كأن الجاهلية ما كانت تعرف شهور الإسلام فكانت العرب العاربة تسمى المحرم المؤتمر، وصفرًا ناجراً، وربيعا الأول خوّانا ، وربيعا الآخر وَبْصان، وجمادى الأولى حنينا ، والآخِرةَ رُبّى، ورجبا الأصم، وشعبان عاذلا (وأخطأ صاحب صبح الاعشى فسماه عادلا بالدال) وتسمى رمضان ناتقا كما سبق، وشوالا وَعِلا ، وذا القعدة وَرْنَة، وذا الحِجة بُرَك . وللغويين تعليل لكل اسم من هذه بنى على الظن وعلى كثير من التكلف.

هذه ، أيها السادة، محاضرة لغوية رمضانية أردنا فيها أن يكون للغة نصيب من الحفاوة برمضان والإشادة به ؛ نسأل الله لكم صوما مقبولا ، وحياة سعيدة صالحة . . والسلام عليكم ورحمة الله .

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (١) (*)

لقد نهضت لغة القرآن الكريم ـ ولله الحمد والمنة ـ نهوضًا مباركا فى جميع آفاق العربية، وأحس أبناؤها نزعة نفسية تدفعهم إلى ربط طريف مجدهم بتليده، وحديث تاريخهم بقديمه، فاتجهوا إلى العربية فى أزهى عصورها وأنضر عهودها، يتخيرون أرق ألفاظها وأقوى أساليبها وأروع أخيلتها، فامتلأت كتاباتهم بالطريف النادر، وأشعارهم بالرقيق الساحر، وخطبهم بالجزل الرصين. ومن وازن بين حالى اللغة الشريفة فى عصر نهضتنا هذه وفى العصر السابق عليه عصر السبات والظلام؛ رأى الفرق جسيما والبون عظيما، ودهش كيف أن ابنة عدنان استطاعت فى هذه الفترة القصيرة من أعمار الأمم وأدهار التاريخ أن تخطو هذه الخطوات الواسعة وتصل إلى تلك الغاية المباركة. ولكنى أعتقد أن حيوية هذه اللغة أقوى من كل حيوية فى سواها، وأنها تبقى كامنة خادرة حتى إذا وجدت السبيل أمامها مذللة، والطريق معبدة؛ وثبت وثبة تطوى لها الأرض، وتطأطئ لها الجبال. وإن نظرة فى تاريخ الفصحى تدل على أنها تنقبض فى صدفهاولا تموت، وتنصل فى ألواحها ولا تمحى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾. فلقد أصابت العربية أحداث، ومستها قروح كان أقلها كافيا لهدم أقوى اللغات ركنا وأمنعها حصنًا من غارات للأعجمية ذهبت بالرطب واليابس، وجولات للشعوبية كادت تقضى على الشرف الخالد والمجد التالد:

لقد رمتها الليالى فى فرائدها	وكاد بنيانها ينهار من صبب
وعاشت العجمة الحمقاء ثائرة	على ابنة البيد فى جيش من الرهب
يقوده كل ولاغ أخى إحنٍ	مضمخ بدماء العرب مختضب
كأن عدنان لم تملأ بدائعه	مسامع الكون من ناء ومقترب

(*) نشرت بمجلة الراديو المصرى بالعدد ١٨١ فى ٣٠ سبتمبر ١٩٣٨ ص ٨ ولقد تعرض المرحوم على الجارم لهذا الموضوع الهام وقدم فيه سلسلة من الأحاديث الإذاعية

ومع هذا أيها السادة بقيت اللغة العربية تنظر إلى الأحداث شزرا، وتسخر من الخطوب؛ فقام رجال فى هذا العصر فى كل بلاد العربية بنصرتها وشد أزرها والإشادة بمجدها .

لهذا أيها السادة ترونـا لا نألو جهدا فى تطهيرها من أدران اللحن ، وتنقيتها من فاسد الأساليب؛ لأن الشعور بالنقص أول مراتب الكمال ، ولأن أبا الطيب يقول :

ولم أر فى عيوب الناس شيئا   كنقص القادرين على التمام

ولو أن كل أديب نبه إلى خطأ فأصلحه ، أو فساد فى التعبير فتجنبه ،لطهرت اللغة من شوائب النقص فى زمن قصير. وإلى الشباب ندائى ، وإلى أبناء العربية رجائى أن يكون لهذه المحاضرات أثرها النافع إن شاء الله تعالى ؛

ولنبدأ بالكلام فى الموضوع فنقول :

يخطئ كثير من الشادين فى الكتابة فيستعملون فعلا لا وجود له فى العربية وهو «تضامن» فيقولون مثلا يجب أن نتضامن فى هذا الأمر وهذا المشروع يحتاج إلى التضامن؛ يريدون أنه يحتاج إلى بذل الجهد المشترك مع ثقة كل شخص بأخيه ، ومن العجيب أن هذا الفعل المصنوع الزائف انتشر على ألسنة المثقفين انتشارًا عظيمًا، وخير فعل يحل مكانه ويؤدى معناه الفعل «تواثق» ومصدره التواثق؛ قال كعب ابن زهير:

ليوفوا بما كانوا عليه تواثقوا   بخيف منى والله راء وسامع

أى : ليوفوا بالأمر الذى تعاهدوا عليه واتفقوا على بذل الجهد فيه متحدين متواثقين . ويشبه خطأهم فى استعمال هذا الفعل الذى لا أصل له فى اللغة استعمالهم الفعل تكاتف؛ فيقولون مثلا : يجب أن نتكاتف فى هذا الأمر؛ بمعنى نتعاون، ونجاح هذا المشروع موقوف على التكاتف؛ وهذا الفعل تكاتف لم يرد فى كتب اللغة المعتمدة، والكلمات الصحيحة فى هذا المعنى كثيرة فلسنا فى حاجة إلى ابتكار فعل جديد نشتقه من الكتف؛ ففى الاستطاعة أن نقول : نتعاون ونتعاضد ونتساند ونتآزر، ولابد من المعاونة والتعاضد والتساند والمؤازرة .

ومن الغلط أنهم يجمعون الأبله على بلهاء . وهذا من أعجب العجب؛ لأن أفعل الذى مؤنثه فعلاء؛ كأبله وبلهاء لا يجمع جمع تكسير إلا على : فُعْل، أما بلهاء فإذا صح فإنه يوجب أن يكون فى اللغة : بليه أو باله، وليس لهما وجود فيها؛ فالصواب أن يجمع الأبله على بله، كما يجمع الأحمق على الحمق، والأعرج على العرج .

ومن الغلط الفاشى قولهم: تحسنت الصناعة عن ذى قبل وزيادة قبل الكلمة «قبل» غلط لأنه لا معنى له ولأن العرب لم تستعمل هذا التركيب، ولم تجىء كلمة قبل فى لغتها مسبوقة بذى، وإنما تقول

فى التركيب السابق: تحسنت الصناعة عما كانت عليه من قبل. أما ذى فإنها لا تدخل على قبل، وإنما تـدخلهـا العـرب على قبل ــ بفتحتين ــ لمعنى غير هـذا فتقـول: أفعل ذلك من ذى قُبُلٍ؛ أى: فيما استقبل من الزمان، ولاشك أن الغرضين مختلفان، وأن قُبُل غير قَبْل.

ويغلطون فيقـولون: تقضى آداب اللياقة بكـذا؛ كأنهم يجعلون اللياقـة مصدرًا للفعل؛ لأن يليق وهو ليس له بمصـدر؛ لأنه لم يسمع بين مصادره ولأنه لا يدل على حرفـة حتى يتقاس، وإنما مصدره الصحيح: الليق والليقان؛ فالواجب أن نقول: تقضى آداب الليق والليقان بكذا، ولو أننا أبدلنا بياء اللياقة باء فقلنا: اللبـاقة ـ بالباء ـ لأصبنا شاكلة الصواب؛ فإن العـرب تقول: هذا الأمر يلبق بك ولا يليق بك أى لا يحسن فمن السائغ لنا أن نقول: تقضى آداب اللباقة بكذا.

ومن الأغلاط الفاشيـة قولهم: حادث مريع، فيصوغون اسم الفـاعل وهو مريع من الفعل أراع، ولا أثـر لهذا الفعل فى اللغـة وإنما يقـال: راعنى الأمـر وروعنى؛ بمعنى: أخـافنى وأفـزعنى ولا تقل أراعنى، فالصـواب أن يقال: حـادث مروع، ويصح أن تقـول: حادث رائع؛ بمعنى: مفـزع أيضًا ولكن الرائع يأتى لمعنى آخر؛ فقد يكون لما يعجب الناس بحسنـه وجهارة منظره أو شجاعته؛ تقول: جمال رائع، والأصل فى ذلك كله هو الروع؛ وهو القلب أو موضع التأثر منه. وزللهم هذا يشبه زللهم فى قولهم: هذا فعل مشين ــ بضم الميم ـ وما هذه الأفعال المشينة ؟وهـذا غلط صارخ؛ لأنه ليس بين أفعال اللغة (أشان) وإنما الفعل شانه يشينه شينا بمعنى: عابه فالصحيح أن يقال: عمل شائن، أو: عمل مشين ـ بفتح الميم ـ على أنه اسم مفعول أى أنه عمل يعيبه الناس ويشينوه.

ومن الغلط قـولهم: زرتك والساعـة تسع، مثلا، ووجـه الغلط فيه أن السـاعة هنا مبتـدأ، ومن القواعـد الأولى فى العربيـة وجوب مطابقـة الخبر المبتدأ، فإذا كـان المبتدأ مفـردًا وجب أن يكون الخبر مفردًا، والساعـة هنا مفرد يدل على شىء واحـد ما فى ذلك ريب، وتسع تدل بوضعهـا على أكثر من شىء واحد، أى أنها تـدل على تسعة معدودات، فـانتفت المطابقة واضطـرب الكلام، وهبك قلت: التفاحة تسع، أو: الـدواة تسع، أتظن هذا قولا تسيغه نفسك أو يستسيغـه سامعوك ؟ولكن الألسن جرت على هذا اللحن ولم تضجر له الآذان؛ لأنه شاع فى العاميـة فلما نقل إلى العربية المعربة كان له فى النفس مكان مأهول، والصواب ـ إن أريد التشبث بهذا التركيب ـ أن تقول: زرتك والسـاعات تسع، أو أن تقول كما يقول الناس: زرتك فى الساعة التاسعة.

ويقولـون: هذا الشىء يجلب الشهية للطعام، أو: يـذهب بالشهية. وكلمـة الشهية بهذا المعنى غلط هنا لا نـدرى من أين جـاءت، وإنما الشهيـة: مـؤنث الشهى، والشهـى: الشىء المشتهى واللذيذ، ولاشك أن الكلام لا يستقيم البتة على هـذا حين نقول: هذا الشىء يجلب الشهية للطعام؛ إذ يكون معنـاه هذا الشىء يجلب اللـذيذة للطعام وهـذا هراء، فالصـواب أن يقال: هـذا الشىء شه للطعام أو يشهى الطعام أى يحمل على اشتهائه.

إصلاح الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية (٢) (*)

أعود إلى الكلام فى تصحيح الأغلاط الشائعة فى العربية، وأنا أزداد فى كل يوم ثقة بأن الدعوة إلى هذه الناحية من الإصلاح أخذت تدنو من أفئدة الشبان والمتعلمين فى مصر وبقية الأقطار العربية، وأزعم أنه بعد أن كانت الأذن تنفر فى أوقات فراغها من البحوث العلمية وأقاويل الجد، شرعت تصغى إلى من بعيد علها تتدارك خطأ فتصلحه، أو غلطا فتتجنبه؛ لأنى أدعو إلى إصلاح يجب أن يحله كل عربى المحل الأول، وينزله من ثقافته فى المكانة العليا. ودعونى من الشبان المستهترين والكتاب الإباحيين؛ فلست هؤلاء أعنى ولا إليهم أسوق الحديث، ولعلنا نتقابل بعد قليل حينما ينتعشون من كبوتهم، ويفيقون من غفوتهم، ولقد وصلت إلى رسائل ليست بالقليلة، وعلمت فى أثناء رحلتى إلى لبنان وسورية والعراق أن صوتى لم يذهب فى الهواء، وأن صرختى لم تكن صرخة فى واد، وأن حميتى للعربية وأهلها عرفت سبيلها إلى القلوب.

وقد أخذت على نفسى ألا أحكم بخطأ كلمة لها فى العربية وجه مقبول، وألا أتجاوز عن غلط يأباه ذوق العربية وتتبذه نصوصها وتتجافى عنه أصولها؛ لأنى بان لا هدام، ومصلح لا متزمت، ومترخص فيما اتسعت له الرخصة، وحارس بستان إذا ذدت الغربان عن ثماره فلن أذود الصادحات عن أفنانه.

والتعرض للحكم بأن كلمة غير صحيحة وأن أخرى صحيحة ليس بالأمر السهل، ولا هو على طرف الثمام، وإنما يجب أن يصدر عن نضج فى اللغة والأدب، وتمكن من طرائق العرب فى تصريف الأبنية ومناحى استعمال الكلام، ورب كلمة لا تجد لها نصًا فى معجمات اللغة ولكنها جاءت فى أشعار المتقدمين، وعبارات كبار الكاتبين الذين يحتج بهم لمكانتهم فى اللغة؛ فللجاحظ مثلا كلمات لم نظفر

(*) نشرت بمجلة الراديو المصرى بالعدد ٨٤ فى ٢٤ سبتمبر ١٩٣٨ ص ٥ .

بها فى المعجمات وللإمـام الشافعى فى مـؤلفاتـه ألفاظ لم تقع بأيـدى اللغويين، وهـو الذى يقـول فيه الأزهرى صـاحب الحكم : (وقول الشـافعى نفسه حجة ؛ لأنـه عربى فصيح اللهجـة ، وقد اعترض عليه بعض المتحذلقين فخطأه ، وقد عجل ولم يتثبت فيما قال ؛ ولا يجوز لحضرى أن يعجل إلى إنكار ما لا يعرفه من لغات العرب) .

وقد كنت مرة أقرأ للمتنبى قصيدته البائية فى مدح سيف الدولة التى أولها :

فديناك من ربـع وإن زدتنـا كـربا   فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

فتلاقيت بهذا البيت :

ويخشى عباب البحـر وهو مكـانه   فكيف بمـــن يغشـى البـلاد إذا عبا

ورأيت أن الشراح جميعًـا فسروا عـب بمعنى زخـر وارتفع مـاؤه، فأحببت أن أرجع إلى المعجمات لدراسة هذا الفعل دراسـة كاملة، فلم أجد فيها نصا بهذا المعنى، ففيهـا : عب فلان الماء يعبه : شربه مرة واحدة، وعب النبت : طال ، وعب الرجل : إذا حسن وجهه بعد أن أصابه تغير .

ولم أجد بين صفحاتها فعلاً مثل عب البحر إذا زخر وارتفع ماؤه .

ولكنى أجد فيها كلمة العباب وأرى أنهم قالـوا فى تفسيرها : عباب الماء : أوله ومعظمه وارتفاعه . وهنا ينقذنى وينقذ المتنبى علم الصرف؛ فيقول : إن الماء إذا تدفق وارتفع سمع له صوت ونئيج، وإن الغالب فى الأفعـال الدالـة على صوت ـ من غير بـابى فرح وكرم ـ أن يكون مصـدرها على فعيل أو فعال؛ كصهيل وصراخ، وإذًا فعباب هذا إنما هو مصدر لـ «عب» بمعنى زخر ، وإذًا يكون اللغويون قد ذكروا المصدر وأغفلوا الفعل ثم يقول علم الصرف ثانية : أن مضارع عب الماء يجمل أن يكون يعب بكسر العين؛ لأنه فعل مضعّف لازم والغالب فى هذا أن يكون من باب ضرب .

ورب كلمة لهج بها المتعلمون بأنها خطأ ، وجرت عليها أقلام المعلمين الحمر قاسية غاضبة ؛ لأنهم لم يروها فى كتب اللغة ماثلة بنصها وحروفها واشتقاقها .

وذلك ككلمـة : عـائلـة ؛ لماذا؟ لأنها ليست فى المعجمات . يـاسـادتى أن هـذه الكلمـة ليست مستحدثـة فى هذا القرن ولا فى القـرن الذى قبل، إنها وجـدت فى شعر لشعراء الـدولة الأيوبيـة ، وقد يكون لها ذكر قبل ذلك ولكنى لم أعثر عليه ، والدولة الأيوبية نشرتها فى سنة سبع وستين وخمسمائة، إذن مـر على هذه الكلمـة المسكينة تسعـون وسبعمائة عام وهى تـدور على الألسنة وتكتب فى الشعـر، ثم نجىء نحن اليوم ونقـول لها اخرجى من وكرك أيتهـا الدعية اللـزيقة السنيدة فلست منـا ولا من لغتنا لأنك لست فى معجماتنا! ياسادتى المعجمات لا تذكر المشتقات ولو استوفت المشتقات جميعًا لعادت حجمًا كبيرًا وعبئًا ثقيلاً .

تعـالوا نبحث فى هـذه الكلمـة من الوجهتين اللغـويـة والصرفيـة ، وتمهلوا فإن الحكم على كلمـة بالإعدام يشبه قتل النفس البريئة بغير حق .

العائلة على وزن فاعلة، وهى مشتقة من عال ما فى ذلك ريب، فلننظر إذن معانى الفعل : عال؛ فنرى علماء اللغـة يقولـون: عال الرجل يعـول ويعيل إذا افتقر . يكفينا هـذا فعائلـة بمعنى مفتقرة، ولاشك أن زوج الرجل وصغاره مفتقـرون إلى من يقوم عليهم ويمونهم ؛ فعائلة الـرجل المفتقرة إليه هى زوجه وأولاده، وهذا هو المعنى الحقيقى الذى يقصده الناس عند التعبير بكلمة العائلة .

ثم نعـود إلى المعجمات ثانيـة ، فنـرى عال الـرجل أهلـه يعولهم : كفـاهم ومـانهم وأنفق عليهم، والعائلـة على هذا المعنى فـاعلة بمعنى مفعـولة؛ أى : معـولة . واستعمال اسم الفـاعل فى معنى اسم المفعول شائع فصيح. قال الله تعالى : ﴿فهو فى عيشة راضية ﴾ أى : مرضى عنها، ثم إن هنا معنى بليغا؛ لأن العائلة وإن كـان كاسبها يمونها هى التى فى الحقيقة تمونه ؛ لأنها هى التـى تدفعه إلى الكد والعمل وطلب الرزق.

قال تعـالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إمـلاق نحن نرزقهم وإيـاكم ﴾ فقد رزق الأولاد على رزق آبائهم؛ لأن الآباء بأبنائهم يرزقون .

جملة القول أن كلمة العائلة صحيحة من ناحية الاشتقاق اللغوى على كلا المعنيين لـ «عال».

ومـا يجرى هـذا المجـرى كلمة فنـان. نبت بين المتأدبين مـن يقول : لا تستعملـوا كلمـة فنـان فى صاحب الفن كالشاعر والمصور والمغنى والممثـل؛ لأن الفنان فى اللغة الحمار الوحشى، فرجع الكتّاب والمتعلمون إلى معجماتهم فوجدوا فيها :

والفنان فى شعر الأعشى حمار الوحش؛ لأن له فنونًا فى العـدو. فآمنوا وصدقوا وسخروا من كل من يسمى المصور فنانـًا. ولو تأمل هؤلاء فى عبارة اللغـويين لرأوا أمرين حقيقين بالنظـر؛ أولا أنهم قالوا: «الفنان فى شعر الأعشى) أى أن الأعشى استعمل هذه الكلمة ليدل بها على الحمار الوحشى، فالفنان إذن ليس اسما موضوعًا للحمار الوحشى يعرفـه به كل العرب ،على أن هذه الكلمة فى الحقيقة فى شعر الأعشى وصف لموصوف محذوف ، وهذا كثير فى لغة العرب فهو يقول :

وإن يك غريب من الشد غالها بميعـة فنـان الأجـارى مجـذم

أى بميعة حمار فنان الأجارى.

وثانيا أن اللغويين قـالوا: (لأن له فنونًا فى العدو) وهـذا صريح فى أن هذا الوصف إنما أطلق على حمار الوحش لأن لـه أنواعًا مختلفـة من العدو ومـا علمنا أن الوصف يختص بشىء بعينـه ، ولا أننا إذا وصفنا فرسًا بأنه سباق لا يسوغ لنا أن نصف عالما بأنه سباق فى علمه وفضله .

على أن صيغة فنـان من صيغ النسب الجارية على فعّال كـ: لبّان، وزجّاج ؛ أى : ذى لبن ، وذى زجاج . فمعناها : ذو الفنون ، فهى تطلق على كل صاحب فن فى العدو أو التصوير أو غيرها .

هذه أمثلـة قليلة عنـدنا منهـا كثير، تدل على أن كتب اللغة يجب أن تقـرأ بفهم وبصيرة وتمكن فى علوم الاشتقاق .

وهذه إشارات خاطفة للذين يتعجلـون فيكتبون فى الصحف والمجلات بأن هذه الكلمة خطأ وأن هذه الكلمة صحيحة من غير إلمام وتريث وتدقيق .

والله ولى التوفيق .

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٣) (*)

نعود الليلة إلى موضوع الكلام فى الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية، وقد وقفنا الكلام فى المحاضرة السابقة إلى تصحيح بعض كلمات حكم عليها ظلما بأنها غير صحيحة ، وبقيت عهدًا طويلا طريدة منبوذة تأباها أقلام الكاتبين، وتنفر منها أسماع المعلمين. حتى رددنا إليها اعتبارها كما يقولون ورجعناها إلى أخواتها وأهلها بعد طول الغيبة واشتداد النفرة، وعندى من هذا النوع كلمات كثيرة لا يزال المتحذلقون الواقفون عند عبارة المعجمات وألفاظها يعتقدون أنها خطأ وهى صحيحة فصيحة صريحة النسب. وأريد أن أخصص بهذا الشأن عدة محاضرات أتجه فيها إلى مقاومة هذا الخطر الداهم مادامت الجرائد والمجلات قد فسحت صدورها لطائفة من المبتدئين الذين يرون أن أول مدارج الشهرة أن يخطئوا الناس فيما يقولون ويكتبون ، ولو جاءوا فى ذلك بالغث السقيم! سأفرغ لهذا الموضوع فى ليالٍ تجيء ، ولكنى سأطرفكم الليلة بكلمتين اثنتين من هذا النوع لمحض التسلية والترويح، فإن النفس تميل إلى التنقل من حديث إلى حديث وهى ملول سئوم لا تصبر على طعام واحد.

الكلمة الأولى أيها السادة هى كلمة (كسول) .

نشأت تلميذًا فطالبا فمعلما ثم مفتشا والعلماء فى كل هذه الأطوار وفى جميع هذه الأحوال يخيفوننى من استعمال كلمة كسول، فيقولون : إياك أن تستعمل هذه الكلمة وصفا للرجل، وإياك ثم إياك أن تقول : هذا رجل كسول ؛ إنما يجب أن تقول : رجل كسلان وكَسِل، فإذا كنت تعطف على هذه الكلمة بعض العطف ، وأردت أن تعيد إليها أنفاس الحياة ، فاجعلها وصفا للمؤنث وقل : امرأة كسول. هذا ما استقر فى أنفس الأدباء وهذا ما يتحذلق به حذاق اللغويين منهم، والويل ثم الويل لطالب وصف فى مقاله أو كتابته رجلا بأنه كسول. هنا تقوم محاضرة لغوية طويلة الذيول موضوعها

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٢٧/ ٤/ ١٩٣٨ .

كسول وكسلان وكَسِل، وأن الأول منها يكون خاص بالنساء ولا يجوز له أن يخطر بين الفحول.

والسبب فى هذا أنهم بحثوا عن هذه المادة فى المعجمات فرأوا أن صاحب القاموس يقول:

«كسل كفرح، فهو كَسِل وكسلان، جمعه كسالى مثلثة الكاف، وكسالى بكسر اللام، وكَسْلَى وهى كِسلة وكسلانة وكسولٌ ومكسال».

رأوا هـذا النص فقالـوا: إن صاحب القـاموس خصص كلمتى كسل وكسلانٍ بوصف الـرجل وخصص كلمة كسول بـوصف الأنثى، وإذاً يجب ألا نقول: رجل كسول، ثم أرادوا أن يزيـدوا وثوقا وإيمانا فوق إيمانهم، فأسرعوا إلى أكبر مرجع من مراجع اللغة وهو لسان العرب لابن منظور فرأوا فيه:

كسِل عنه بالكسر فهو: كسيل وكسلان، والجمع: كَسَالَى وكُسَالَى وكَسْلَى.

قال الجوهـرى: وإن شئت كسرت اللام كما قلنا فى الصحـارِى، والأنثى كسلة وكسلى وكسـلانة وكسول ومكسال.

رأوا هذا أيضا أيها السـادة فزادوا يقينًا ـ كيف لا وصاحب اللسـان يقول: «والأنثى كسلة وكسلى وكسول! هذا معناه فى رأيهم أن هذه الصفات الأربع جميعـا خاصة بالمؤنث لا يتصف بها سواه، ولكن أين علم الصرف! أيها السادة؟ وأين فقـه اللغة؟ وأين فَنّ قـراءة كتب اللغويين؟ لا لا. لا يعنيهم من هذا شيء، هكذا قال صاحب القاموس وكفى، وهكذا قال ابن منظور وهو حسبهم.

ليس الأمـر كما تظنون أيها المتعجلـون. إن علينـا أن نفهم عبـارة اللغويين وأن نستعين فى فهمهـا بقبس من علم تصريف الكلام.

يقول علماء الصرف إن الـوصف إذا كان على وزن فعول وكـان بمعنى فاعل لا تلحقـه تاء التأنيث للفرق بين المذكر والمؤنث وذلك نحو شكـور وصبور بمعنى شاكر وصابر فيقـال للمذكر رجل شكور وللمؤنث امرأة شكور بغير تاء.

لم يقل علم الصرف أيها السادة إن الوصف الذى على وزن فعول بمعنى فاعل لا يوصف به المذكر، وإنما قـال: إن المذكـر والمؤنث يوصفـان بـه على السـواء من غير حـاجـة إلى تـاء التأنيث عنـد وصف المؤنث. إذًا علم الصرف يجيـز لنا أن نقـول: رجل كسول وامـرأة كسول كما أجاز لنا أن نقـول: رجل صبور وامرأة صبور. تعالوا بعد ذلك نفهم عبارة اللغويين على هذا الضوء وفى هداية هذا القبس. ماذا قال اللغويـون؟ قالوا: يقال للـرجل كسِل وكسلان؛ هذا صحيح لا غبار عليـه لأن هذين الوصفين خاصان بالمذكر، ولأنه لما كان الوصف كسولٌ مشتركا بين المذكر والمؤنث لم يضعوه بين أوصاف المذكر، لأن البداهة تقضـى بصحة أن يكون وصفا للمذكـر لخلوه من تاء التأنيث، فلم يجدوا حـاجة إلى ذكره فلما جاءوا لذكر أوصـاف المؤنث قالوا: كَسِلة وكسلانة وكسول؛ لينصوا على صـلاحية أن تكون كلمة

كسول وصفا للمؤنث مع خلوها من التاء. ومن هذا نرى أن اللغويين جروا على سنن تتسق مع العقل، فلم ينصوا على البديهى ونصوا على غير المألوف أو ما يصح أن يكون موضعا لشك، والذى يدل على هذا أن كلمة كسول جاءت فى شعر عربى وصفا للمذكر، وقد نقل هذا الشعر صاحب اللسان فى معجمه، فالكلمة إذًا لم تفته ولم يخف عليه مكانها ولو كان يعرف أنه أهملها فى موضعها لعاد إليه وذكرها فيه، ولكنه كما رأينا رأى ألا يضع الكلمة مع أوصاف المذكر؛ لأن صلاحيتها له من بدائه العقول. اسمعوا ما جاء فى لسان العرب فى مادة (زمل) : والزميل الضعيف الجبان . قال أُحَيحة :

ولا وأبيك ما يغنى غنائى   من الفتيان زمّيل كسول

والكسول هنا أيها السادة من الفتيان لا من الفتيات !

الكلمة الثانية كلمة (وحيدة) :

ظهر بين المستعلمين واللغويين من يمنع وصف الأنثى بكلمة وحيدة، فلا يجيز أن يقال: فتاة وحيدة فى الظرف، ولا: هذه هى المرة الوحيدة التى زرتك فيها. ماذا نقول يا سادتى؟ إذًا يقولون: قل وحِدة يا فتى. فجربت أن أقول: هذه فتاة وحدة فى الظرف، وهذه هى المرة الوحِدة التى زرتك فيها؛ فلم أجد ذلك سائغا فى حلقى ولا فى ذوقى! من أين جئتم بهذا؟ جئنا به من كتب اللغة! فارجع إليها إن شئت. فرجعت إلى القاموس فرأيت صاحبه يقول: رجل وَحَد وأَحَد وَوِحْد ووحيد ومتوحد: منفرد، وهى وحِدة، فقالوا: ألم نقل لك إنه قصر وصف المؤنث على وَحِدة ولم يقل وحيدة؟ قلت: نعم هذا صحيح، ولكنى أعرف من ناحية أخرى أن وحيدا بمعنى فاعل؛ أى: متوحد وأن كل فعيل إذا كان بمعنى فاعل لحقته تاء التأنيث قياسا، فأقول: كريم وكريمة، وعفيف وعفيفة، ولا أحتاج إلى المعجمات. ثم إنى أعرف من ناحية ثانية أن أصحاب المعجمات لا ينصون على ما كان قياسيا، وإلا صحبوا كل وصف لمذكر بمؤنثه؛ ثم أعرف من ناحية ثالثة أن اللغويين إذا رأوا أن العرب خالفوا القياس فى كلمة سارعوا إلى التنبيه عليها فقالوا مثلا (ولا تقل وحيدة) ولكن صاحب القاموس لم يفعل هذا وهو لم يذكر وحيدة لأن تأنيثها قياسّى لاغبار عليه.

على أنى حين أتمُّ قراءة هذه المادة فى القاموس نفسه أجده يقول بعد قليل: «والوحيدة من أعراض المدينة بينها وبين مكة» إذًا فالعرب قد نطقوا بكلمة الوحيدة وسموا بها مكانا بين مكة والمدينة، وهو علم منقول من الصفة ولو كانت كلمة الوحيدة مخالفة للغتهم ما استطاعوا أن ينطقوا بها، وإذًا يكون هؤلاء الذين يدعون على المعجمات إنما يتعجلون فى الحكم ويتسابقون إلى الهدم من غير فقه أو تمحيص. هذا ما أردت التحدث فيه فى هذه الليلة، أيها السادة، وسنستمر فى تناول هذا الموضوع فى محاضرات أخرى إن شاء الله وهو الموفق سبحانه .

إصلاح الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية (٤) (*)

والآن أيها السادة نلتقى فى رحاب العربية الشريفة التى تهوى إليها قلوب أبنائها على اختلاف الديار وبُعد الآفاق، والتى نعدها بحق الرمز الصادق لتاريخنا المجيد، والنبع الفياض لثقافتنا الحديثة، والعروة الوثقى لآمالنا المتفرقة وعواطفنا المتزاحمة. وقد ألقينا قبل ذلك من هذا المكان الذى يشرف على ديار العروبة جميعا أحاديث وأحاديث فى تنقية العربية مما أصابها من درن، وتطهيرها من وضر اللحن ومن كل ما أجلبت به عليها العجمة من دخيل فى اللفظ والتواء فى الأسلوب. وأهبنا بالشبان الأمجاد أن يصغوا إلى أحاديثنا، وأن يقتطعوا من أوقات لهوهم جزءا للتفقه فى اللغة والإلمام بصحيح أوضاعها، وأنهم إن فعلوا وتفضل الله علينا بأن نستمر فى أحاديثنا قضوا على كل ما تتعثر به الألسن من خطأ شائع، وتتظرف به أقلام بعض الكاتبين من عربية مدخولة ولكنا بعد أن مضينا شوطا فى إصلاح الخطأ فى الكلمات والأساليب لمحنا أن هناك داهية أدهى، وأن وراء الأكمة خطرا أعظم، ذلك هو تشبث بعض المعلمين بالحكم على كلمات صحيحة فصيحة بأنها خطأ، وقيام نابتة من المبتدئين تتعالم على الناس وترمى بالخطأ كل تركيب أو لفظ صحيح.

مسكينة أنت أيتها العربية. ماذا تصنعين بين مجازف باللحن لا يبالى ما يصنع، وجرىء اللسان والقلم لا يريد أن يترك لك أديبا صحيحا؟ وماذا يكون حالنا أيها السادة وقد أردنا أن نرأب صدعا فى البناء فإذا بنا نرى فى الجانب الآخر معاول تهدم القوى المتماسك من هذا البناء. ألقينا بكل شىء كان فى أيدينا وتركنا الحديث فى الأغلاط الشائعة إلى حين، وأسرعنا إلى هذه المعاول نحطمها وإلى تلك الأيدى العادية على العربية نغلها.

رحماك اللهم. أردنا أن نعالج فى العربية داء قديما فإذا نحن من هؤلاء الهدامين أمام داء جديد.

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ١٠/٦/١٩٣٨.

وقد ذكرنا فى حديث سابق أن الحكم بخطأ الصحيح من الألفاظ يرجع إلى أسباب منها : الجمود عند عبارة المعجمات من غير ذوق لغوى وملكة سليمة تدرك ما وراء هذه العبارات ، ومنها : الجهل بعلم الاشتقاق وقواعد التصريف ، ومنها : الاقتصار أحيانا على معجم من غير استقصاء غيره من كتب اللغة والأدب . ونحن الليلة متناولون أربع كلمات نفاها بعض المتحذلقين من حظيرة العربية وأهابوا بالأدباء والكتاب أن يجتنبوها ، منها كلمتا الفطور والغداء ، وأظن أن إنسانا لا يستغنى عن استعمال هاتين الكلمتين فى كل يوم من أيام حياته ، قالوا لنا : إنها خطأ لا يصح أن تتداوله الألسنة بحال ، فلا يصح أن تستعمل كلمة الفطور إلا لطعام الصائم عندما تغرب الشمس ، أما فى غير رمضان فطعام الصباح لا يسمى فطورا . ولكننا أيها السادة اللغويون نحتاج إلى هذا الاسم أشد الحاجة وكيف تكون لنا لغة تصح أن تسمى لغة إذا لم يكن بها اسم لطعام الصباح! قالوا : سمه غداء . سم الفطور غداء ؛ لأن القاموس يقول «والغداء طعام الغدوة» والغدوة أول النهار أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس قلت : إن الناس لا يقبلون أن تسموا لهم الفطور غداء ، قالوا : وما لنا وللناس إننا نأخذ اللغة من نصوصها ، قلت : وبم تسمون طعام ما بعد الظهر الذى يسميه الناس جميعا غداء؟ قالوا سمها الكرزمة . فلم أسغ الكلمة وعلمت أن شيئا من هذا الخلط لن يكون صحيحا ، فرجعت إلى المعجمات فماذا رأيت . رأيتها تقول :

الفطر الشق ؛ تقول : فطر فلان الحائط يفطُره شقه ، والفطر البدء بالشىء ؛ تقول : فطر الله السموات ؛ أى : بدأ خلقها ــ فالفَطر للصائم بفتح الفاء وهو المصدر وبكسرها وهو الاسم ــ مأخوذ من هذين المعنيين فالصائم بفطره يشق الصوم ؛ أى يصدعه : أو يبتدئ الأكل بعد أن كان محظورا ، والطعام الذى يبتدى به يسمى فطورا ؛ لأنه يكسر الصوم أو يجىء أول الطعام . وإذا جاء الفطر والفطور فى حديث أهل اللغة عن الصوم والصائم . ألا يسوغ لنا أن ننقله إلى غير الصائم ما دام الأصل اللغوى يعاضدنا والحاجة إلى الكلمة تستحثنا؟ نعم يسوغ ؛ إما على ضرب من المجاز بالاستعارة وإما بإطلاق الخاص بتوسيع معناه وإما بالرجوع إلى الأصل اللغوى المحض ؛ لأن طعام الصباح وهو الفطور أول طعام يبتدأ به فهو من الفطر بمعنى الابتداء ، أو لأنه يشق ما كان عليه الآكل طول الليل فيكون من الفطر بمعنى الشق والصدع ، وتوافق اللغات هنا عجيب جدا بين العربية والإنجليزية فإن الفطور يسمى بالإنجليزية "breakFast" أى صدع الصيام .

انتهينا إلى أن نسمى طعام الصباح فطورا كما يسميه جميع الناس . بقى الغداء وما قالوه من أنه طعام الصباح ، وكانت عبارة صاحب القاموس تشهد لهم ؛ لأنه يقول : والغداء طعام الغدوة وهى ما بين صلاة الفجر إلى طلوع الشمس ولكننا حين ذكرناهم بقوله تعالى فى شأن موسى عليه السلام ﴿ فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا﴾ وقلنا : كيف يلقيان نصبا من السير والسفر وقت الغدوة فى بكرة النهار؟ قالوا : لعله كان يسير ليلا . فذهبنا إلى المعجمات فرأينا صاحب المصباح

يقول : غدا غدوا ذهب غدوة ؛ هـذا أصله ثم كثر حتى استعمل فى الذهاب فى أى وقت . وإذًا يجوز أن تقـول : غدا فـلان إلى الإسكندريـة فى قطار العصر؛ بمعنى : ذهب . ثم رأينـا صاحـب الصحـاح يقول : والغداء الطعـام بعينه وهو خلاف العشـاء ، فهو لم يقيده بأن يكون أول النهـار، فطعام الظهر عنده غداء مـن غير شك . وهناك دليل آخر على ذلك لطيف، وهو مـا قاله شارح القـاموس، قال : ويسمى السحور غداء ؛ لأنه للصائم بمنزلته للمفطر. وفى هذا معنيان دقيقان؛ فهو أولا: يبيح لنا أن نسمى طعام الصباح فطـورا؛ لأن العرب تجوزوا وسموا سحور الصـائم غداء. وإذا تجوزوا فى الصائم فلم لا نتجـوز فى المفطر؟ وهـو ثانيـا : يفيد أن طعـام الغـداء هو طعـام ما بعـد الظهر، أو الـذى يلى الفطور؛ لأنهم أستعملـوه للصائم فيما يلى الفطـور وفى طعام نصف الليل. «أمـا الكرزمـة» هذه وهى أكل نصف النهار؛ فهى على غرابتها وثقلها ونبوها لم نرها فى كتب الأدب ولا فى شعر الشعراء، على أن ابن الأعـرابى ينكـرها ويقول : لم أسمعه لغير الليث.

ومن هذه الكلمات التى لا تـزال محكوما عليهـا بالخطأ من جميع المعلمين والمتأدبين «كلمة يـدعوه كذا» . و«تعود على كذا» فلا يجوزون مطلقا أن يكتب كاتب مثلا إن التغاضى عود فلانا على الكسل. أو أن يقول: إن فـلانا تعـود على الإهمال؛ لأنهم رجعوا إلى معجمات اللغـة فرأوهـا مجمعة على تعـدية الفعل بنفسه لـذلك يحتمون أن يقال : إن التغاضى عـود فلانا الإهمال فتعوده . ولكننا نـريد أن نفهم نصوص اللغـة معهم فى هدوء وتؤدة ففيها : وعـاد فلان على الشىء وإلى الشئ رجع إليه وفيهـا وعاد فلان الشىء صار عادة له . وفيها : وعوّد كلبه الصيـد فتعوده : جعله يعتاده، فالفعل عاد فى كل هذه التعاريف معناه الرجـوع إلى الشىء أو العمل فإذا تكرر هذا الرجوع صـار عادة ، وإذا جاز أن نقول: عاد فلان على الشىء بمعنى رجع . ألا يجوز حينما نريد أن نعدى هذا الفعل إلى المفعول بالتضعيف أن نقول : عوّد فلان فلانا على الشىء ؛ أى: أعادة إليه مـرة بعد أخرى. هـذا بدهى كما نقول: سار فلان على نهج قويم، وسيرته على نهج قـويم . وحينما قالوا : عاد فلان الشىء، وأرادوا تعـديته إلى مفعولين قالـوا: عودتـه الشىء، ولكن اللغـويين أهملوا ذكـر الفعل الأول مُضعَّفًا؛ وهـو عّوده على كـذا وأتوا بالفعل التالى وهو عوده كذا. وإهمالهم هذا لا يـدل على منع عوده على كذا مادام التضعيف مسموعا ومـادامت العرب استعملت الفعل المجـرد معَـدىً بعلى فقالـوا: عـاد فلان على الشىء فإذا لم يـؤمن المتأدبون بعد كل هذا، فأظنهم يمتلئون إيمانا عندما يسمعون قول زهير فى مدح هرم بن سنان :

وعـوَّد قـومَـه هـرِمٌ عليــه   ومن عــاداتـه الخلق الكــريم

عودهم عليه أى : جعلهم يعودون إليه لطلب المعروف مرة بعد أخرى . وكذلك إذا قلت : عودت فلانا على الكرم. كان المعنى: جعله يعود إليه مرات فتعود عليه .

ومن الكلمات التى أنكرها علىّ بعض الأدباء كلمة « نسائم» جاءت فى بيت قلته هو :

يُفَدِّيه غُصن الدوح ريَّان ناضِرًا   إذا اهتز فى كف النسائم مائله

قالوا : إن النسيم لا يجمع على نسائم وإنما جمعه أنسام ، ولم نجد أن كتابا فى اللغة جمعه على نسائم . والحق أن هذا الكلام عجيب جدا كأن الجموع القياسية يجب أن تؤخذ أيضا من كتب اللغة مع أنها لا تذكر الجمع القياسى إلا فى القليل النادر .

جمع نسيم على نسائم جمع قياسى ؛ لأن فعائل جمعا تطرد فى كل رباعى مؤنث ثالثه مدة زائدة ، فاجمع سلافة على سلائف ، وحبيبة على حبائب ، وحلوبة على حلائب . ولا تبحث عنها فى كتب اللغة ، والمؤنث إما أن يكون بالتاء كما سبق ، وإما أن تكون العرب عدته مؤنثا مثل شمال وشمائل ويمين ويمائن وعجوز وعجائز.

والنسيم مؤنثة لأن الريح مؤنثة وكل أسمائها مؤنثة كذلك .

وإذا كانت النسيم مؤنثة فهى رباعية ثالثها مدَّة زائدة هى الياء ، فهى تجمع على نسائم فى قياس مطرد لا يتخلف ، ولذا يقول الحسين الواسانى من أكثر من تسعمائة سنة :

ولما نضا وجه الربيع نقابه   وفاضت بأطراف الرياض النسائم

وفى هذا القدر ما يكفى هذه الليلة والسلام عليكم ورحمة الله .

إصلاح الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية (٥) (*)

نعود الليلة إلى ما بدأنا به من الحديث فى العربية الشريفة لغة الدين والقرآن وجامعة أشتات الأمم العربية على اختلاف آفاقها وتباين لهجاتها. فهى لغتها القائمة وصلتها الدائمة فكم نزلنا بلادًا عربية النبعة والتاريخ والأدب والعادات والدين فعجزنا فيها عن مشافهة كثير من عوامها وقلّت حيلتنا فى تفهم لهجاتهم لما اعتورها من التحريف والتغيير والمسخ ولما تفشّاها من مولّد ودخيل، كما هو الشأن فى عاميتنا المصرية فلم ينقذنا بينهم إلا مخاطبتهم بالعربية السهلة الصحيحة وحملهم على محادثتنا بها. هنالك اجتمع المتنائيان وتعانق الأخوان ورأيا أنهما وإن تباعدت بينهما الديار وشط المزار من أرومة واحدة تجمعهما أواصر تاريخ مجيد وتلتقى فروعهما عند أصل واحد كريم هو العربية والعرب بكل ما فى الكلمتين من معنى سام وذكريات غالية.

فالعربية هى رباط القلوب ونسب الأرواح وهى أخوة فى الدم والتاريخ دائمة وآصرة فى المجد والنسب قائمة. أليس من الواجب علينا بعد هذا أن نعمل على هدم العامية فى كل قطر عربىّ وأن نحيى فيه العربية الصحيحة حتى تزيد هذه الصلة قوة وهذه الآصرة متانة وإحكامًا؟

والقضاء على العامية لا يكون أولا إلا باستنكارها والاشمئزاز منها، وأنها تجر فى أذيالها بقايا من عصور الظلم والإظلام، وأنه لا يحسن بمتعلم أو بشبه متعلم أن ينطق بها أو يلقنها أطفاله الصغار. ثم بانتشار التعليم الأولىّ وعمومه، ثم بحرص الجرائد والمجلات كيفما كانت نواحيها على العربية الصميمة، وألا ينفذ إليها أسلوب عامى أو كلمة سقيمة. ثم بهجر التمثيل العامى هزليا كان أو غير هزلىّ، ثم بعناية كل خطيب أو مدرس أن يكون سليم التعبير صحيح الأسلوب. والمعلمون المعلمون

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٨/ ٧/ ١٩٣٨.

هم موطن الأمل ومحط الرجاء وهم الملح المصلح وما يصلح الملح إذا الملح فسد؟ فإذا التزموا العربية السهلة السائغة نفذت إلى نفوس تلاميذهم ورسخت أساليبها فى حوافظهم فانطلقوا يتحدثون فى يسر بعبارة صحيحة ونسق مستقيم.

لذلك أيها السادة وقفنا هذا الموقف وسنقفه ما تنفس بنا العمر نرفع الصوت لنصرة العربية وسنجد بحول الله من غيرة إخواننا وأبنائنا ما يشد أزرنا ويقوى زندنا.

وقد كنا نتحدث فى محاضراتنا السابقة فى كلمات وأساليب ادعى بعض المتعجلين خطأها وأذاعوا ذلك فى الجرائد ونشروه بين الناس وبين الناشئة المتعلمة، فكان ضرر ذلك جسيما وشره مستطيرا، فإن فيه تضييقا للعربية وهى فسيحة الصدر فياحة الرحاب، وقد وصل هؤلاء إذا حاولوا الكتابة إلى شبه شلل أدبى، فتشككوا فى كل كلمة ورجعوا إلى حروف المعجمات إذا هموا بأى تعبير.

وسنواصل البحث الليلة فى تصحيح كلمات أخرى أبعدوها عن حظيرة العربية، وحكموا عليها بالخطأ. ومحاها المعلمون بالقلم الأحمر من كراسات التلاميذ.

من هذه الكلمات كلمة: عديدة؛ بمعنى كثيرة، فإذا قال قائل: زرتك مرات عديدة، أو: عندى كتب عديدة خطئوه؛ لأن المعجمات لم تذكر، فى رأيهم، عديدة بهذا المعنى، وإذا وردت فى المعجمات فيجب فى مذهبهم أن ترد ظاهرة جلية لا تحتاج إلى إعمال فكر، ولا إلى تخريج على قواعد الاشتقاق.

فقد رأوا فى المعجمات مما يدور حول هذه الكلمة أن العديد: العدد، والكثرة، والنظير، ورنين القوس، وأن العديدة: النصيب؛ تقول: خذ عديدتك أى حصّتك ونصيبك. رأوا هذا، ولم يروا فيها أن العديدة تأتى بمعنى الكثيرة، فجهروا بأن استعمالها فى هذا المعنى خطأ، وراحوا يتعالمون بذلك منذ أكثر من ثلاثين سنة، والفلك يدور والليل يعقبه النهار، وكلمة عديدة بمعنى كثيرة على الرغم من ذلك تملأ الصحف والكتب، وتطّرد فى عبارات الأدباء المبرزين، ويظهر أن ثبات الكلمة طوال هذا الزمن على كثرة ما كان يصيبها من الزجر والطرد دليل على حقها فى البقاء ودليل على أن العربية تضن ببناتها أن تزال. تعالوا نفهم معًا أيها السادة:

استعملت اللغة العديد بمعنى الكثرة باتفاق منا ومنكم، ونزيد هنا ـ إذا أذنتم ـ أنها استعملت العديد بمعنى الكثير. قال الراغب فى مفرداته: ويقال: جيش عديد أى كثير، فالعديد إذًا تستعمله العرب بمعنى الكثير. قالت الخنساء ترثى أخاها صخرًا:

فأقسم لو بقيت لكنت فينا ... عديدًا لا يكاثر بالعديد

أى لا يغالب بالكثير من الرجال.

وإذا كان العديد صفة بمعنى الكثير فهو إذا مشتق من عد الشىء يعده، وإذا كان مشتقا فهو بلا

شك صيغة مبـالغة كــ: رحيم وسميع ؛ لأن فعله متعـد فالعـديد الكثير العـدد، كما أن الرحيم كثير الرحمة، والسميع: شـديد السمع ،ولا شك أن صيغة المبـالغة تـؤنث بالتاء ،فقل إذًا :كتب عـديدة ومـرات عديـدة. كما تقول: امـرأ ة رحيمة وسميعـة. ومن هـذا يظهر أن كلمـة عديـدة بمعنى كثيرة صحيحـة فى اللغـة والقيـاس ؛لا يصيبها رشـاش من شك. ثم إننـا نستطيع من نـاحيـة أخـرى أن نستخرجها بـالنص من عبارة اللغويين. قالوا العديـدة النصيب. أتدرون لم سموًا النصيب فى الميراث عـديدة؟ لأنـه سهام وأجـزاء من التركة معـدودة فعـديدة الـوارث ما أصـابه من المال المعـدود. وإذا استعملت العرب العـديدة بمعنى المعدودة فلم لا نستعملهـا نحن؟ ولا يقال هنا: إن كلمـة معدودة تفيد القلة؛ لأن الزجّاج يقول : كل عدد قلّ أو كثر فهو معدود.

ومن الكلمات التى خطئـوا فيها النـاس كلمـة (استغرب) فـلا تقل: استغـربت هذا الأمـر؛ أى : عددته غريبا؛ لأنهم يرون أن هـذا الفعل (استغرب) لم يأت فى المعجمات إلا لازما بمعنى المبالغة فى الضحك. قال فى اللسان : واستغرب عليه الضحك :اشتد ضحكه ولجَّ فيه . ونحن لا ننكر عليهم ذلك ولكننا نستغـرب ما يقولـون؛ لأن هذا الفعل استعمل كثيراً فى القديم والحديث وأقيسـة اللغة لا تأباه .

وأصله من غَـرَب الشىء يغرُب أو غَرُب يغـرب غرابـة؛ بمعنى بعد، فهو غـريب أى: بعيد عن المعروف المألـوف. فإذا أدخلنا عليـه السين والتاء لـلاعتداد والإصـابة قلنا: استغـربت الشىء ؛أى عددتـه غريبا، كما نقـول: استحسنت الشىء؛ أى أصبته حسـنـا ،واستقبحته؛ أى وجدتـه قبيحا، والسين والتاء للطلب أو الإصابة قياسية.

قال سيبويـه : والباب فى استفعل أن يكون للطلب أو الإصـابة ،وإذا قالوا: البـاب؛ فهذا معناه القياس. وقال ابن يعيش: والغـالب فى هذا البناء (استفعل) الطلب والإصابة ،ومـا عدا ذينك فإنه يحفظ حفظا ولا يقاس عليه .

ومما زعموا أن الفعل صارح لا يكون إلا لازما ،وأن الكتّاب يخطئـون حين يقولون: صارحت فلانا برأيى ودليلهم على ذلك أن المعجمات التى يعـول عليها لم تأت بهذا الفعل إلا لازما ،ولكن أبـا طالب عمّ النبى صلى الله عليه وسلم يقول :

وقـد صـارحـونـا بـالعـداوة والأذى ... وقـد طـاوعــوا أمـر العـدو المزايل

فاستعمل صـارح متعديا. وهـذا دليل يساق إلى أدلـة كثيرة ذكرتها على أن المعجمات لم تحصر كل كلام العرب ،وأنه يجب التريث والبحث قبل البت بنفى كلمة من ساحة اللغة الصحيحة.

هدانا الله إلى طريق السداد ووفقنا لخدمة دينه ولغة كتابه الكريم والسلام عليكم ورحمة الله .

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٦) (*)

تحدثنا فى أربع محاضرات سابقة فى تصحيح كلمات وأساليب جرت طائفة من حذاق العربية على الحكم بأنها خطأ، فأعدناها إلى فناء العربية بعد طول التشريد، واشتداد الجفاء، ورجعناها إلى أخواتها من بنات الضاد، فلقيت من البشاشة والرحابة ماهى خليقة به وقد كنا نريد أن نكون أبعد شوطا وأوسع مدى فى هذا البحث، ولكنا رأينا أن ننتقل بالسامعين إلى فن آخر من القول قد يكون أهون عليهم وأحب إلى نفوسهم وأبعد إلى خشونة الاصطلاح وجفوة التعقيد. فقد أسهبنا فيما عرضناه على السامعين آنفا فى نقل النصوص اللغوية وتمحيصها وبيان الطريق إلى فهمها حق الفهم، وقد كنا فى هذا نقصد إلى إرشاد طلاب اللغة والأدب إلى طريق قراءة كتب اللغة وفهم ما وراء ألفاظها من معان، وإلى ما فى أساليب تأليفها من عيوب قد تؤدى إلى خطأ فى الفهم وفساد فى الحكم؛ لأنها قد تهمل ما تحكم البداهة بعربيته، وقد تنقص فى مواضع فتكملها الآثار العربية الصحيحة من شعر ونثر وتشمر لمعونتها علوم التصريف وقواعد الاشتقاق .

وقد وضحنا ذلك بأمثلة كثيرة تناولت مسائل شتى مما ندَّ عن الناشئين فهمه، وغرب علمه، ولعلنا نكون قد رسمنا بما فصلناه نهجا قويما للباحثين، ومهيعا واضحا لمن أراد البحث والتمحيص .

والآن نتحدث فى أغلاط تنتشر فى عبارات الكتّاب، وبعض هذه قد جاء الغلط فيها من ناحية الأسلوب. لأن الترجمة فى هذا العهد الحديث طغت على كل شىء وتصدر لها فى كثير من الأحيان من لا يعرف من معنى الترجمة إلا أنها وضع كلمة عربية مكان كلمة أعجمية، وأنها نقل الأسلوب الأعجمى إلى العربية كما هو، بتغيير كلماته من غير تصرف سليم أو ذوق عربى دقيق. وليت الحال فى

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٣/ ٩/ ١٩٣٨ .

سقم الأسلوب والتوائه وأعجميته، كانت تقف عند الكتب المترجمة فقد تجاوزت ذلك بعيدا وسرت عدوى الترجمة إلى التأليف.

ورأى بعض الكتّاب أنه من التظرف والتجديد أن ينحو فى كتابته منحى الأسلوب الفرنجى فأصبحنا نقرأ أحيانا لبعض الكتاب كتابة عربية فى غير ردائها العربىّ الصميم فظهرت مضطربة مختلفة الألوان. هى أشبه بأعرابىّ انتزعته من البادية وأبقيت له خُفّيه وشَمْلته، ثم أضفت إلى كل ذلك ما يحلو لك من ملابس فرنجية فبدا فى زى عجيب تقتحمه العيون. لا هو بزى العرب ولا بزى الأعاجم. وإذا عرض لكم شك أيها السادة فى بعض ما أقول فإن أيسر ما يذهب بهذا الشك أن تعرضوا إلى قطعة مما يكتب هذا الصنف من الكتّاب، وأن تجربوا بأنفسكم بوضع كلمة أجنبية مكان كل كلمة عربية فإن استقام لكم ذلك من غير كلفة ورأيتم أنكم خرجتم بعد هذا العمل اليسير بقطعة فرنسية أو إنجليزية صادقة التعبير صحيحة المعانى، فاعلموا أنى صدقتكم الحديث وأنى لم أكن مبالغا ولا مغرقا. وفى الحق إنى لم أرشدكم إلى هذه التجربة إلا بعد أن سبرت الأمر بنفسى، ورأيت أن ذلك خير ميزان لتمييز الأسلوب العربى السليم من الأسلوب الأجنبى الدخيل. إن لكل لغة أسلوبها وخواص تعبيرها، وإنه من الخلط والخبل الأدبى أن يسطو أسلوب لغة على أخرى، وإن من ضعف القومية وخور النفوس أن تنسى الأمة مقومات لغتها لتفنى فى سبيل لغة أخرى. تخيلوا أيها السادة أننا ترجمنا إلى أية لغة غربية العبارات الآتية ترجمة حرفية وهى: أكل عليها الدهر وشرب، ركب فلان رأسه، قطعت المسافة فى يوم. إننا لو فعلنا لأتينا بالسخيف المضحك. فما بالنا نرى هذا ولا نعدل عن تشويه لغتنا بخلطها بأساليب لغات تخالفها فى النمط البيانى والتفكير وطرائق التعبير.

طلب إلىّ عظيم مرة أن أذكر له الفرق بين ترجمة فلان وترجمة فلان، وكانت لهما شهرة فى الترجمة وتمكن فى الإنجليزية وإلمام بالعربية فقلت له على الفور: إن فلانا يترجم الألفاظ وفلانا يترجم المعانى فسرّ لهذا الإيجاز الذى يتضمن المعنى الصحيح للترجمة ويبرز أكبر عيوبها، نحن لا نريد ترجمة الألفاظ ولكنّا نريد ترجمة المعانى. من يظن أن كتاب كليلة ودمنة مترجم؟! نريد ترجمة على هذا النمط، ومن هذا الطراز. نريد من المترجم أن يقرأ الصفحة فى الأصل الأجنبى ويفهمها حق الفهم ويدرك مراميها، أو كما يقول السادة الأزهريون منطوقها ومفهومها، ثم يلقى بالكتاب من يده ويكتب ما وعاه من عند نفسه بلسان عربى مبين، وإذا كان بالأصل مجاز أو خيال أو كناية بحث فى لغته الفسيحة الواسعة المدى عما كان يقوله العرب فى أمثال هذه التراكيب.

وليعلم أن لكل لغة خصائصها وبيئتها وأسباب سعتها وضيقها، فقد تجد كلمة فى اللغة الأجنبية لا تؤدى إلا بجملة فى العربية وقد تجد عكس ذلك، وقد تجد كثيرا من المترادفات الأجنبية فى ناحية خاصة فى حين أنك لا تظفر بكلمة عربية فى هذه الناحية إلا بعد عرق الغربة، وقد تجد عكس ذلك وقد تجد فى كل لغة دقة فى التعبير فى بعض نواحيها وانحلالاً شائنا فى نواح أخرى.

أقول هذا لأنى كثيرا مـا سمعت من بعض الشبان أن هذا التعبير مثلا أو هذه الكلمـة الإنجليزية أو الفرنسية ليس لها مثيل فى العربية. وهذا خطأ لأن العربية الشريفة لا تضيق بكلمة أو أسلوب كيفما كانت وكيفما كـان، ولكن التعبير قد يكـون موجزا فى اللغـة الأجنبية ويأبى ذوق العـربية إلا أن يترجمه مسهبا، وقد تكون الكلمة فى الأجنبية مؤدية لمعان مركبة لا تؤديها العربية إلا بكلمتين أو ثلاث.

طلب إلى مرة أن أراجع كتابا كبير الحجم ترجم من الإنجليزية لإصلاحه وتهذيبه فرأيت أن المترجم كـان أمينا إلى أقصى حـدود الأمانـة وأنـه ترجم كل كلمـة وكل حـرف، فعادت كتـابته وهى عجيبـة العجائب لا شرقية ولا غربية، فحرت فى أمـرى وسقط فى يدى ورأيت أن إصلاحه من المعجزات وأنه خير لى وأهون أن أكتبه من جديد.

هذه نبذة قصيرة فى الترجمة وخصـائص اللغات لو أردنا أن نبسط القول فيهـا لطال حبل الكلام، ويكفى أن نحفز شبـابنا المثقفين إلى الحرص على لغتهم، والتمسك بـأساليبها، وتطهير أقـلامهم من لوثات العجمة والدخيل.

ولنذكر أمثلة من الأساليب التى تسربت إلى العربية من سوء الترجمة ولم يتنزه عنها كثير من كتابنا.

من التراكيب المترجمة التى لا يستسيغها الـذوق العربى، وليست العـربية فى حاجـة إليها وليست الدقة فى التعبير تتطلبها ألبتة: قولهم مثلا: قال فلان كذا وأنا بدورى أقول كذا، وكلمة: بدورى هذه لم تتسلل إلى حمى العربيـة إلا من عهد قريب جـدا، وهى ترجمة حـرفية دسها بعض الكتـاب فى اللغة وحاكاه فيها بعض الشداة فى الكتابة ومن لا يدققون فى اختيار الأساليب، وهو تركيب مقحم لا معنى له، وهو لا يؤخر ولا يقدم والكلام بدونه سـائغ مستقيم؛ فلو قلت: قال فلان كذا وأنا أقول كذا. ما طالبك إنسان أن تنص على هذا القول كان بدورك أو بدور غيرك.

ومن التعبيرات المترجمة قـول بعضهم مثـلا: إن هذا المشروع يفيـد سكـان الصعيد وبـالتـالى جميع سكان القطر، وكلمـة بالتالى هنا عجيبـة وغريبة لم نرهـا فى فصيح الكلام قديمه وحـديثه، وكلمة ثم العـاطفة تغنى عنهـا تمام الغنـاء فالتركيب العـربى الصحيح أن تقـول: إن هـذا المشروع يفيد سكـان الصعيد ثم جميع سكان القطر.

ومن التراكيب المترجمة مثل قولهم: عظمت ثـروة مصر عن طريق الـزراعة، أو: نهضت مصر عن طريق العلم وهـذا التركيب (عن طريق) محدث فى العـربية تغنى عنـه باء الجر فى إيجاز ورشـاقة؛ فإن العرب تقول: عظمت ثروة مصر بالزراعة ونهضت بالعلم.

ومن التراكيب المترجمة السقيمـة قولهم مثـلا: نصف شفاف، وأنصـاف المتعلمين، وهذا بـدع لا يسيغه الذوق. وكانت العرب تقول فى هذا: شبه الشفاف، وأشباه المتعلمين. ومن كلام علىّ كرم الله وجهه فى خطبته المشهورة: «يا أشباه الرجال ولا رجال».

وعندى من هذا النوع أمثلة كثيرة موعدنا بها المحاضرات المقبلة إن شاء الله والسلام عليكم.

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٧) (*)

تناولنا فى حديثنا السابق طرفا من تأثير لغة الترجمة فى لغة التأليف والكتابة ، وذكرنا فيما ذكرنا أن إهمال العناية بالترجمة فى أول عهد نهضتنا الحاضرة جر على العربية ويلات تحاول اليوم التخلص منها فلا تكاد تستطيع . وأن شبح الترجمة وظلها يبدو اليوم ماثلا فى كل ما نقول ونكتب ، حتى أصبح كبار لغويينا وعظماء أدبائنا المحافظون على تراث الآباء الحريصون على إبقاء العربية صميما خالصة يخشون أن تهفوا أقلامهم بأسلوب دخيل ، أو يشتبه عليهم تعبير فى العربية ستيد .

ويجب أن نسارع هنا إلى أن نمحو من أذهان السامعين ما يمكن أن يخطر بها من أننا ندعو إلى الجمود ، أو ننادى بالوقوف باللغة دون النمو ومسابقة الحياة الحاضرة التى سبق فيها كل شىء وبلغ الغاية أو كاد .

لا يا سادتى إننى أعتقد أن لغتنا الشريفة بموادها الواسعة وصدرها الرحيب وأساليبها اللّينة المرنة ، جديرة بأن تعبر عن كل دقيق وأن تشرح أساليبها كل معنى مستحدث جديد ، وأن تخلع على مدنية هذا القرن الملىء بالعجائب ما شاء من حلل سابغات ، دون أن يمس شىء من أسلوبها العربى السمح ، أو يقوض جدارًا من بنائها الراسخ الرصين .

إن لغة العرب ليست لغة أثرية وضعت لتسد حاجات عصر موغل فى القدم ، حتى إذا انقضى ذلك العصر زالت بزواله وقامت على أساسها لغات جديدة لعصور جديدة . كلا ؛ إن العربية لغة كل زمان . إن لغة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والشعر العربى الرائع لا تضيق بحاجات أى قوم ولا أىّ زمان .

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٧/ ١٠/ ١٩٣٨ .

وقـد يخيل إلى بعض المشتغلين بـالأدب أو المعـانين للترجمة أن اللغـة لا تستجيب لهم فى بعض الأحيان إذا دعوها، وأنها تخذلهم كثيرًا فى مواطن الحاجـة، وأنهم إذا أهابوا بها للتعبير عن معنى جديد قصرت يـدها عن أن تنـاله، فتراهم وقـد عادوا بصفقـة المغبـون يملئون الجو صيـاحًا ويـرمون اللغـة بـالقصـور والتقصير. وليست اللغة قـاصرة ولا مقصرة ولكنهم هم القـاصرون المقصرون. عجـزوا عن استخراج كنوز اللغة من دفائنها، وقعدوا عن دراسة أسرارهـا وعجائبها، فإذا عاقبتهم بالهجر والصد وأسدلت النقـاب دون سحر جمالها، وأوصـدت الباب فى وجوههم، راحـوا يقولـون: إنها كزة الكفين وإن جمالها ـ إن كان لها جمال ـ صحراوى لا يجتذب القلوب فى هذا الزمان.

وفى الحق إن إهمالنا اللغـة ليس من عيـوب اللغة، وإن نـومنا طـويلا عن الانتفـاع بذخـائرها فى حياتنا الجديدة لا يكون إلا حجة على عجزنا أو تقصيرنا.

وإننى فى هذا المعنى أقول:

الـدهـر يسرع والأيـام معجلـة ... ونحن لم نـدر غير الـوخـد والخبب
والمحدثـات تسـد الشمس كثـرتها ... ولم تفـز بخيـال اسـم ولا لقب
والترجمات تشـن الحرب لاقحـة ... على الفصيح فيـا للـويل والحرب
نطير للفظ نستجـديـه من بلـد ... نـاء وأمثـالـه منـا على كثب
كمهـرق الماء فى الصحراء حين بـدا ... لعينـه بـارق مـن عـارض كـذب
أزرى ببنت قـريش ثم حـاربها ... من لا يفـرق بين النبـع والغـرب
وراح فى حملـة رعنـاء طـائشـة ... يصـول بـالخائبين: الجهل والشغب
أنترك العـربى السمح منطقـه ... إلى دخيل مـن الألفـاظ مغترب
وفى المعـاجم كنـز لا نفـاد لـه ... لمن يميـز بين الـدر والسخب
كم لفظـة أجهـدت مما نكـررها ... حتى لقـد لهثت من شـدة التعب
ولفظـة سجنت فى جـوف مظلمـة ... لم تنظـر الشمس منها عين مـرتقب
كأنما قـد تـولى القـارظـان بها ... فلـم يـؤوبـا إلى الـدنيـا ولم تـؤب

يقول بعض الناس إن كل شىء فى هـذه الدنيا يصيبه التطور والتحـول واللغة شىء من الأشياء، فلماذا لا يعتورها التطور؟ ولماذا نلـزم أن نعبر بلغة البادية فى زمان هو أبعد الأزمنـة عن البادية. مرحى أيها السادة!! إن اللغة يصيبها التطور. وقد أصابها هـذا فى عصور التاريخ جميعها وهو عارض طبيعى لا مناص منه ولا محيص ولكن التطور الـذى نريده تطور إحياء لا تطور إماتـة. ظهرت اللغة فى صدر الإسلام بمظهر جديـد، وأصابها فيض من التجديد أيام الدولة العبـاسية، فاتسعت للعلوم واتسعت للفنون واتسعت لشئون الحياة. وكـانت حياة مائجة صاخبة ولكن بنـاءها لم يمس وأسلوبها لم ينتقض وجمالها البـدوى لم تشنه تطـرية الحضـارة. ولنأخذ الآن فى تصحيح بعض الأسـاليب التى تسربت إلى

العربية من الترجمة فى عصرنا الحديث. فمن ذلك قولهم مثلا: بناء على اعتراف فلان حكم عليه بكذا، وهذه العبارة تكثر جدا فى الدواوين وتمتلئ بها الصحائف، وهى ترجمة حرفية من اللغات الأجنبية وليست من العربية فى قديم ولا حديث، والعرب تقول فى أسهل تعبير وأسلسه: حكم على فلان لاعترافه.

ومن ذلك قولهم أيضا: حضر فلان فى الساعة العاشرة، وجاء أخوه فى نفس الوقت. وكلمة فى نفس الوقت ترجمة غير سائغة، لأن كلمة «نفس» من ألفاظ التوكيد المعنوى وليس من ذوق العربية أن يقدم المؤكد على المؤكَّد، لأن الإنسان لا يؤكد شيئا غير موجود والتعبير العربى الصحيح أن تقول: حضر فلان فى الساعة العاشرة وحضر أخوه فى الوقت نفسه.

ومن الأساليب التى انتشرت انتشار الوباء قولهم: أنا كطبيب أقول كذا، وهو كمهندس يقول كذا، وهو تعبير منقول بالحرف من لغات الفرنجة، وهو إذا حاولت رجعه إلى العربية حاولت عسيرًا لأن ذوق العربية يقضى أن كاف التشبيه تدخل على غير المشبه، وهذا أيضا مما تقضى به بداهة العقول، فإذا قلت الشعر كالليل كان الشعر غير الليل، وإذا قلت: أنا كطبيب، حكمت العربية بأنك غير الطبيب مع أن مقصود القائل أن يقول إنه طبيب. أترون هذا الخلط وهذه العجمة وذلك التبلبل! هو يقول إنه طبيب وتعبيره يقول إنه ليس بطبيب. والأسلوب الصحيح فى هذا التعبير أن تستعمل الحال النحوية وما أسهلها وما أظرفها، وذلك بأن نقول: أنا طبيبا أقول كذا وهو مهندسًا يقول كذا. وقد أراد بعض الحذاق أن يصلح الأسلوب السابق فقال: أنا بوصف أنى طبيب أقول كذا وفى هذا تشويه وتكلف.

ومن أغلاط الترجمة التى جاءت من بعض الأقطاب قولهم إن قيمة هذا الكتاب بالكاد ثلاثون قرشا، وأحيانا يستعملون (بالكاد) هذه فى الحصول على الشىء بمشقة، فيقولون: استمر فلان يمشى طول النهار وبالكاد وصل إلى المدينة عند الغروب. وكلا هذين التعبيرين لم يستعمله العرب ولا المولدون إلا منذ عهد الترجمة الحديث على أنه والحمد لله ثقل على الألسنة فأخذ يتوارى من مصر بعد أن ملأ الروايات المترجمة ردحا. والكاد هذه مصدر من مصادر كاد التى للمقاربة ولم تستعمل العرب هذه المصادر فى هذا المعنى وإنما استعملوا الفعل فقالوا فى التعبير الأول: يكاد ثمن هذا الكتاب يبلغ ثلاثين قرشا، وفى التعبير الثانى: استمر فلان يمشى طول النهار ولم يكد يصل إلى المدينة إلا عند الغروب.

وفى هذا القدر ما يكفى وسنبحث فى محاضرة ثالثة إن شاء الله فى عيوب الترجمة من نواح أخرى مع الاستشهاد والتمثيل والله الموفق والسلام عليكم ورحمة الله.

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٨) (*)

نعود الليلة فنحدثكم فى إصلاح بعض الأغلاط الشائعة ولا نزال نأمل أن يكون من وراء هذه النبذة الموجزة ما يدفع بنا إلى انتهاج سبيل السداد فى القول والكتابة حتى تخلص العربية الشريفة مما علق بها من تشويه وتحريف فنقول :

١ ـ إن من الغلط : أن يقال مثلا هذه التذكرة تخوّل لصاحبها حق الدخول بدون أجرٍ ، وإن لفلان من الحقوق ما يخوّل له المطالبة بها . والفعل (خوّل) بمعنى أعطى يتعدى إلى مفعولين ، فمن الغلط دخول اللام على مفعوله الأول من غير مسوّغ ، فيجب أن يقال : هذه التذكرة تخوّل صاحبها الدخول بدون أجر وإن لفلان من الحقوق ما يخوّله المطالبة بها .

٢ ـ ومثل هذا غلطهم فى استعمال الفعل أعطى فيقولون مثلا أعطيت له كتابًا وأعطى المحسن للفقير ما يكفيه . والفعل أعطى يتعدى إلى مفعولين بنفسه فلا تدخل اللام على أحد مفعوليه مع تأخره عن الفعل ، فالصواب أن يقال : أعطيته كتابا . وقد دخلت اللام على أحد المفعولين مع تأخرها فى بيت من قصيدة لليلى الأخيلية تمدح الحجاج :

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما ... المنايا بكف الله حيث عراها
إذ هبط الحجاج أرضا مريضة ... تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها ... غلام إذا هزّ القناة سقاها
سقاها دماء المارقين وعلها ... إذا جمحت يومًا وخيف أذاها
إذا سمع الحجاج صوت كتيبة ... أعدّ لها قبل النزول قراها

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ١٣/ ١٠/ ١٩٣٨ .

أعـد لها مصقــولــة فــارسيــة — بأيــدى رجـال يحسنــون غـذاهــا
أحجـاج لا تعطى العصــاة مناهم — ولا اللــه يعطى للعصــاة منــاهــا

وشاهدنا فى قولها: « ولا الله يعطى للعصاة مناهـا» فعدت للمفعول الأول باللام وهو متأخر عن الفعل وهذا شاذ لا يجرى عليه قياس.

٣ـ ويقع مثل هذا الغلط فى الفعل منـح فيقولون مثلا: تمنح جوائز للفـائزين، ويقولون: يطعم الخادم ويكسى فوق ما يمنح له من أجر. والفعـل (منح) كالفعل(أعطى) يتعدى إلى مفعولين بنفسه فمن الخطل دخـول اللام على أحـد مفعوليـه بلا مسـوّغ، فالصواب أن يقـال: يمنح الفـائزون جوائز ويطعم الخادم ويكسى فوق ما يمنحه من أجر.

٤ ـ ويقولون: تكبد فلان المشاق؛ بمعنى أنه قاسى من الأمور ما فيه من شدة وعنت. والأولى أن يقال: كابد فلان المشاق، ففى اللغة يقال: كابـدت الأمر أى قاسيت شدته، ويقال أيضا: أكبدهـم الأمـر أى شق عليهم وأرهقهم وفى الحديث «أكبـدهم البرد» أى شق عليهم والفعـلان كـابـد وأكبـد مأخوذان من الكَبَد وهـو المشقة، أما الفعل(تكبد) فلم تستعمله العرب فى مقـاساة المشقة وإنما جاء مأخوذًا من الكبد وهو جزء معـروف من أجزاء جسم الحيوان، ويطلق الكبد أيضا على وسط الشىء. قـالت العـرب: تكبـدت الشمس السماء أى صارت فى كبـدهـا، وتكبّـد اللبن أى غلظ حتى صـار كالكبد، وتكبـدت الفلاة قصدت وسطها، فإذا قصـد قاصد من تكبد المشـاق أنه تغلغل فى وسطها وأنه تجاوز أطرافها ودخل فى غمرتهاـ جاز له ذلك على ضرب من التجوّز.

٥ ـ ومن الغلط قـولهم: فلان التحق بمدرسة كذا وشروط الالتحـاق بها كذا، لأن الفعل(التحق) لم نعثر عليه فى المعجمات المعتمدة التى بين أيدينـا، وليس التحق فى اللغة مطاوعًا للفعل ألحق، وإنما المطاوع له لحق وألحق تقول: ألحقت محمدًا بعلىّ أى أتبعتـه إياه فلحق هو وألحق أيضا، والمناسب من معانى ألحق هنا أن تكون بمعنى نسب أو بمعنى وصل فالصواب أن يقال: ألحقته بمدرسة كذا فلحق وشروط اللحاق كذا.

٦ ـ ويغلطون فيقولون: فلان يتجوّل فى البـلاد لأنه بائع متجّول كثير التجّول والفعل تجوّل لم نعثر عليه فى اللغة، وإنما يقال: جال فلان جولانا وجوّل تجوالا واجتال اجتيالا وانجال انجيالا، وكل هذه الأفعال بمعنى طـوّف، فالصواب أن يختـار أحد هـذه الأفعال الأربعة، ففيهـا كفاية وفيهـا غناء وأن يقال: فلان يجول فى البلاد أو يجّول أو يجتال أو ينجال، لأنه بائع مجوّال أو مجّول أو مجتال أو منجال.

٧ ـ ومن هـذا النوع استعمال الفعل تنازل فيقـولون مرة: تنازل فـلان عن حقه، ويقولـون أخرى: تنازل فلان بالحضور إلى الحفلة وكان حسنا منه هذاالتنازل. والفعل (تنازل) لا يكون فى نزال المتقاتلين فى الحرب. يقال تنـازل الفارسان إذا نـزل كل منهما فى مقابلـة صاحبه لقتـاله، فالأولى أن يقـال: نزل

فـلان عن حقه، وأن يقـال تفضل فلان بـالحضور. على أن التنـازل عن البيع والحق جاء فى عبـارات الفقهاء فلا أرى بأسًا فى استعماله .

٨ ـ ومن الغلط قولهم: كـان الصوت(يَدْوِى) فى الفضاء وكانت لفـلان صيحة داوية، ولم يأت من هذه المادة فعل من باب ضرب وإنما جاء منهـا: دَوِى الرجل يَدْوَى بمعنى مرِض، ودوِى صدره أى ضغن والذى يقال فى الصوت: دوّى بالتضعيف دويا فالصواب أن يقال: كان الصوت يدوّى فى الفضاء وكانت لفلان صيحة مدوّية .

٩ ـ ويقولون: خرج فلان ليروّح عن نفسه عناءَ التعب فيأتون بعد الفعل روّح بمفعول به هو عناء التعب ظانين أن الفعل ينقصه المفعـول به، مع أن الفعل فى الحقيقة أخذ مفعـولا أو ما فى معناه؛ لأن معنى يروّح عن نفسـه يريح نفسـه، فلو جئنا بمفعـول آخر لكان تأليـف الكلام هكذا: خـرج فلان ليريح نفسه عناءَ التعب. وهـو تركيب ظاهر الفساد لأن الفعل روّح وأراح لا يحتـاجان إلا إلى مفعول واحد، ومثل هـذا التركيب فى المعنى والاستعمال رفّه عن نفسـه ورفّه نفسـه أى أراحها، فـالصواب أن يقال خرج فلان ليروح عن نفسه دون أن يزاد على ذلك شىء، فإذا أريد ذكر ما يحصل به الترويح قيل خرج ليروح عن نفسه بمشاهدة التمثيل أو بالسير فى الحدائق، وإذا كـان من الحتم ذكر ما يراد إراحة النفس منه قيل يروح عن نفسه من التعـب. أو قيل: خرج ليسرّى عن نفسه التعب أو الهم أى ليلقيه بعيدًا .

١٠ ـ ومن الأغلاط الشائعة قولهم: إن الواجب يلـزمنى بمساعدة المعوزين وإن فلانا حكم عليه بكذا مع إلزامه بـالمصاريف. والفعل(ألزم) لا يتعدى بالباء وإنما يتعدى بنفسـه تقول: ألزمته العمل وألزمته المال. أى أوجبته عليه قال جل شأنه: ﴿أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ (هود/ ٢٨) فالصواب أن يقال إن الـواجب يلزمنى مسـاعدة المعوزين، وإن فـلانا حكم عليه بكـذا مع إلزامـه النفقات أو المصروفـات. والأولى أن يهجـر استعمال كلمـة المصـاريف لأن جمع مفعـول على مفـاعيل غير مقيس والقياس أن يجمع جمعاً سالماً.

١١ ـــ من هذا البـاب قـولهم فلان مـريض وتلـزم له إجـازة، والتلميـذ يلزم لـه كثير من الكتب والأدوات، والفعل لزم هنا بمعنى المصاحبة والتعلق. تقول: لزم الدائن المدين ولزم فلان البيت، أى صـاحبه فلم يفـارقه، وهـذا الفعل كيفما كـان معناه يتعـدى بنفسـه ولا يحتاج فى تعـديته إلى الـلام، فالصواب أن يقال فلان تلزمه إجازة وخير مـن هذا أن يقال: فلان يحتاج إلى إجازة والتلميذ يحتاج إلى كثير من الكتب والأدوات فإن هذا التعبير أوضح فى معناه وأبين .

١٢ ـ ومن الغلط قولهم: (دعّم) فلان البناء بالتضعيف، وكانت دعوى فلان (مدعّمة) بالدليل. والفعل المجرد دعم متعد بنفسه ليس فى حـاجة إلى وسيلة أخـرى، ولم نجد الفعل دعّم فى المعجمات

التى نرجع إليها فالصواب أن يقال : دعم فلان البناء ودعوى مدعومة بالدليل .

١٣ ـ ويستعملـون الفعل عقّم مكان الفعل (عَقَم) وأعقم فيقولـون مثلا : عقّم الطبيب المبضع ، وقطن معقّم . والأولى أن يقـال : عقَم الطبيب المبضع أو أعقمه ، وقطن معقـوم أو مُعْقَم فقد جـاء فى لسان العرب : قال ابن برى : الفصيح عقَم الله المرأة وعُقِمت ، أو عقِمت قال : أعقمها الله وعقمها مثل أحزنتـه وحزنتـه . ومعنى هذا الكلام أن طـائفة من العرب تبنـى الفعل عقَم من باب ضرب دائما وتجعله متعديا بنفسه وهذا هو الفصيح ومن العـرب من يصوغه من باب كرم ، ومنهم من يجعله لازمًا من باب فرح فإذا أرادوا تعديتـه عدوه بالهمز فقالوا أعقم أو جاءوا بـه من باب ضرب فقالوا عقَم ومن ذلك يؤخذ أن العرب لم تقل عقّم .

١٤ ـ وقد وقع لى فى أثناء قراءاتى أن قرأت حديثا لأحد الكتاب قوله : يستأدينا الواجب أن ننصح للناس . يريد يقضينا الواجب أى يطلب منا الواجب قضاء دين هو النصح للناس والفعل(يستأدى) لا يأتى لهذا المعنى وإنما يقال : استأدى عليـه بمعنى استعدى عليه . ويقال : استأدى فـلان فلاناً أى صادره وفى حـديث هجرة الحبشـة قال : «واللـه لاستأدينّه عليكم» أى لأستعـدينه عليكم ، فأبـدلت الهمزة من العين لأنهما من مخرج واحد يريد : لأشكون إليه فعلكم ليُعدينى عليكم وينصفنى منكم .

١٥ ـ ومن الغلط قولهم : هذا المشروع يحتاج كثيرًا مـن المال . فيعدون الفعل (احتاج) بنفسه وهذا غير صحيح والواجب أن يتعدى هذا الفعل بإلى فيقال : هذا المشروع يحتاج إلى كثير من المال .

١٦ ـ ويقولـون : اعمل هذا على ضمانتى ، أو : أقرضته المال بضمانة فلان ، و(الضمانـة) بالتاء لا تأتى مصدرًا للفعل ضَمِن بمعنـى كفل والتزم ، وإنما هذا مصـدره الضمان بدون تاء أمـا الضمانة فهى مصدر الفعل ضمِن بمعنى مرض ؛ تقول : ضمِن فلان –أى مرض– ضمانة وضمانا وضَمَنا وضُمنه .

إصلاح الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية (٩) (*)

ذكرنا فى حديثنا السابق جملة صالحة من الكلمات والتراكيب التى يقع فيها غلط الناشئين، وبيّنا وجوه الصواب فيها. وسنأخذ اليوم فى ذكر طائفة من هذا النوع راجين أن يكون لعملنا هذا أثر فى تسديد الألسنة، وتنقية العربية الفصيحة مما علق بها من غلط أو تحريف فنقول:

١ ـ من الغلطات الشائعة الإتيان بالواو بعد بل كقول أحد الكتاب كان الأرقاء فى الزمن القديم يُضربون ويعذبون بل ويقتلون: والصواب حذف الواو هذه لأن «بل» وحدها كافية فى العطف ولأننا لم نعثر على مثل هذا التركيب فى الفصيح، ولا يقال إن «بل» هنا سابقة لمعطوف محذوف ويكون التأويل مثلا: بل يصلبون ويقتلون؛ لأن فى ذلك تعسفا والتأويل والتمحل إنما يكون بعد السماع أما إذا كان التركيب لم يسمع فمن الخير أن ينبذ أول وهلة.

٢ ـ ويغلط بعض الناس فيقول: فلان ظهرت عليه (مخائل) النجابة، ويقولون: (مصائد) الأسماك فيعلّون الياء فى مخايل ومصايد بقلبها همزة ظانين أنها على مثال صحائف وقلائل، والصواب تصحيح الياء وأن يقال، مخايل ومصايد، كما يقال: مكايد ومعايش ومعايب وذلك لأن الياء فى مخايل وأشباهها أصلية لأن مفردها مخيلة فعلها خال، والياء الأصلية لا تقلب همزة فى هذه الصيغة، أما الياء الزائدة كما فى صحيفة وقليلة فتقلب همزة، ومما شذّ فى هذا الباب مصائب؛ لأنها من صاب يصوب فكان القياس أن يقال: مصاوب.

٣ ـ ومن الأغلاط التى سرت إلى الكتاب من الترجمة مثل قولهم: ولا نعلم إذا كان الدواء يشفى المريض أو يزيده سقما، ولا ندرى إذا كان الطالب يميل إلى الطب أو الهندسة، فيجعلون «إذا» الشرطية من أدوات التعليق وهذا التركيب غير معهود فى كلام العرب، والتعبير الصحيح أن نقول: لا

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٢٨/ ١٠/ ١٩٣٨.

نعلم أيشفى الدواء المريض أم يزيده سقما، ولا ندرى ألى الطب يميل الطالب أم إلى الهندسة وقد جاء هذا الأسلوب فى القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ وإنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا﴾ [الجن: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون﴾ [الأنبياء: ١٠٩] ويقول الشاعر العربى:

وما أدرى ولست إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

ويقول الآخر:

لعمرك ما أدرى وإن كنت داريا بسبع رَمَيْنَ الجمر أم بثمان

أى أبسبع رمين الجمر.

٤ ـ ومن الأغلاط الشائعة مثل قولهم: يجب أن يكون كذا وكذا وإلا للزم اجتماع الضدين ومعلوم أن «إلا» هنا إنما هى أداة الشرط «إن» مدغمة فى «لا» وفعل الشرط محذوف يدل عليه ما قبله وتقدير الكلام وإلاَّ يجبْ للزم اجتماع الضدين ووقوع اللام فى جواب إن الشرطية غلط والصواب حذف هذه اللام وأن نقول: وإلا لزم كذا، وإلاّ كان كذا. وقد حاول أبو البقاء فى كلياته أن يصحح هذا التركيب فقال: إنّ «إنْ» تستعمل استعمال «لو» ولكنه لم يأت لذلك بشاهد عربىّ.

٥ ـ وقريب من هذا ما يغلط فيه بعض المبتدئين فيقولون: إذا حصل كذا لحصل كذا فيأتون باللام فى جواب إذا والصواب حذفها.

٦ ـ ومن الأغلاط مثل قولهم. ما رأيك فيما إذا سافرنا اليوم؟ وقولهم: مثلا وسننظر فيما إذا كان الأمر يحتاج إلى إعادة البحث. وغلط هذا التركيب يظهر بقليل من التأمل فإن «ما» فيه إما أن تكون زائدة فيكون حرف الجر «فى» داخلا فى الحقيقة على «إذا» وهذا غير سائغ فى العربية: وإما أن تكون «ما» موصولة وفى هذه الحالة تكون الصلة خالية من العائد والصواب العدول عن هذا التركيب وأن تقول إذا سافرنا اليوم فما رأيك؟ وأن تقول: وسننظر أيحتاج الأمر إلى إعادة البحث أم لا.

٧ ـ ومما يغلطون فيه كثيرا قولهم مثلا: خرجت رغم فلان. والصواب أن يقال: على رغم فلان، كما قال زهير:

فردّ علينا العَيْر من دون إلفه على رغمه يدمى نساه وفائلهْ

أو أن يقال: على الرغم من فلان كما يقول ابن سناء الملك نسوق قوله للتمثيل لا للاستشهاد وهو:

وإنك عبدى يا زمان وإننى على الرغم منى أن أرى لك سيدا

أو أن تقول: خرجت برغم فلان، لأن الرغم معناه الكُرْه أو القسر أو الذل، فإذا قلت: خرجت

رغم فلان لا يستقيم لك المعنى إلا إذا قدّرت خافضا هو «على» أو «الباء» والنصب على نزع الخافض سماعيّ وليس بقياسى، ولم نر فيما بحثنا فيه من كتب اللغة كلمة الرغم مستعملة فى هذا التركيب بغير خافض.

٨ ـ ومما يقع فيه التحريف كلمة (مأزق). كثير من المتعلمين ينطق بها بفتح الزاى والصواب مأزق بكسرها لم يسمع إلاّ هذا والفعل أزِق يأزَق يأزِق. يقال: أزِق صدره أى ضاق، وقد نص علماء اللغة على ضبط المأزِق بالكسر كأن العرب حتموا أن يكون اسم المكان هذا من مصدر الفعل الذى بابه ضرب لا من مصدر ما بابه فرح فإذا صغت اسم المكان من باب فرح جريت على القياس وخالفت السماع والسماع مقدم على القياس وعبارة أساس البلاغة: ثبتوا فى المأزِق المتضايق، وهم ثبتٌ فى المضايق. ومثل المأزِق المأزل لفظًا ومعنى.

٩ ـ ومما يغلطون فى ضبطه الشّريان يضمون فيه الشين والصواب فتحها أو كسرها وهذا غلط شائع.

١٠ ـ ومثله فى الذيوع قولهم النُّشا بكسر النون والصواب: النَّشا بالفتح ليس غير، وهو فارسيّ معرّب أصله نَشاسْتَج، فحذف بعض الكلمة تخفيفا فبقى مقصورًا كما قالوا للمنازل مَنًا.

١١ ـ ويحرفون فيقولون: النَّقْرَس والصواب: النِّقْرِس بكسر النون والراء، وهو ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين.

١٢ ـ ومن التحريف الفاشى كثيرًا بين الناشئين قولهم تجرُبة وتجارُب بضم الراء فيهما ولا تجد بينهم إلا قليلا من يكسر الراء فيهما، وهو الصواب، أما ضم الراء فغلط.

١٣ ـ ومثل ذلك فى التحريف قولهم: صدرت نُشرة إلى المصالح بكذا، فيضمون النون والنُّشرة بضم النون إنما هى رُقية يعالج بها المجنون والمريض، والصواب فى المعنى الذى يقصدون: النَّشره بفتح النون وهى مصدر نشَر الخبر ينشره أذاعه دخلت عليه التاء للوحدة.

١٤ ـ ومن الغلط التعبير بالفعل « جندل» كأن يقال: ضربه فجندله والصواب: ضربه فجدّله أو جدّله أى صرعه على الجَدالة والجدالة الأرض. أما الفعل « جندل» فلم يرد فى كتب اللغة المعتمدة وإن وضع فى المعجمات المستحدثة كأنهم اشتقوه من الجندل وهو الصخر. وقد رأيت فى بعض الكتب فى رثاء البرامكة:

ولما رأيت السيف جندل جعفرًا ونادى منادٍ للخليفة فى يحى

وهو تحريف والصواب جدّل جعفرًا

١٥ ـ ومما يقع فيه الغلط قولهم: تقضى حقوق الزُّمالة بكذا والفعل هنا زَمَل فلان فلانًا يزمِله زَمْلاً أردفه على البعير أو عادله.

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (١٠)(*)

بيّنا فى حديثنا الماضى وجـه الصواب فى طائفة من الأغلاط الشائعة فى الكـلام والكتابة، وسنأخذ فى هذه الليلة ذكر طائفة أخرى آملين أن يكون لكلماتنا هذه أثرها المرجّى فنقول :

يغلط كثيرون فيقولون : إنى أعضد فلانـا أى أعينه وأنصره، وهذا المشروع فى حاجة إلى التعضيد. ولم يرد الفعل (عضّد) بهذا المعنى، وإنما المستعمل فى هـذا عضَد فلان فلانا يعضُده عضْـدا وعاضده معاضدة، فالصواب والأسهل أن يقال : إنى أعضد فلانا وهذا المشروع فى حاجة إلى المعاضدة.

وقد كثر بين كتـاب عصرنا استعمال الفعل تكاتف فيقولـون مثلا : يجب أن نتكاتف فى عمل الخير بمعنى نتعـاون، ونجاح هـذا المشروع موقـوف على التكاتف. وهـذا الفعل لم يرد فى اللغـة والكلمات الصحيحـة فى هـذا المعنى كثيرة فلسنـا فى حـاجـة إلى ابتكـار فعل جـديـد نشتقـه من الكتف، ففى الاستطاعة أن نقول : نتعاون ونتعاضد ونتساند ونتآزر ونتكاتف.

ومما يقع فيه الغلط الفعل (يتفرج) فيقولون مثلا : خرج فلان ليتفرج على الزينة، أو على اللاعبين. يقصدون أنه خرج لمشاهدة الزينة أو لمشاهدة اللاعبين، والفعل تفرّج يأتى فى اللغة على معنين. تقول : فرّج الشىء الغم عن فلان بمعنى كشفه وأذهبه فتفرج الغم وفرّج فلان الشىءَ فتحه أو وسعه فتفرج الشىء أى انفتح أو اتسع، وعلى هـذا المعنى يصح مجازًا أن نقول خـرج فلان ليتفرج أى لتتسـع نفسه بعد ضيقها وانقباضها، أما تعدية تفـرّج بـ«على» وتخصيصه بالمشاهدة فغير صحيح، وإنما يسوغ لك أن تقول : خـرجت لأتفرج بمشاهدة الـلاعبين، أو : لأتفرج باستنشـاق النسيم. ويصح أن تقول : خرجت للفرجة، لأن الفرجة. مثلثة الفاء معناها التخلص من الهم.

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٢٤/ ١١/ ١٩٣٨.

ومن الغلط قولهم: تأكدت من إخلاص فلان. ويقولون أحيانا: تأكدت إخلاصه واستعمال هذا الفعل تأكّد على هذا النحو غلط شنيع؛ لأن الفعل تأكد مطاوع الفعل أكد؛ يقال: أكدت الشيء فتأكد أى قويته فتقوى، فالذى يتأكد إنما هو الشيء لا أنت، وهو فعل لازم لأنه مطاوع المتعدى لواحد، والصواب فى هذا التركيب أن تقول: وثقت من إخلاص فلان.

ومن الأغلاط الفاشية أنهم يستعملون الفعل يجب فى حالة النفى استعمالا غير صحيح فيقولون مثلا: لا يجب أن تهمل حقوق الأصدقاء، ولا يجب أن تتهاون فى واجبك. ونفى الوجوب يقتضى الجواز فكأن معنى ما يقولون: ويجوز أن تهمل حقوق الأصدقاء، ويجوز أن تتهاون فى واجبك. وهو عكس المعنى الذى يقصدونه والصحيح أن يدخل النفى فى هذا التركيب على الفعل الواقع بعد أن يقال: يجب ألا تهمل حقوق الأصدقاء.

ويقولون: أمرنى فلان فصدعت بالأمر يقصدون فامتثلت الأمر، وهذا غلط فى فهم معنى الفعل صدع فإن معنى (صدع بالأمر) جهر به وصرّح مفرّقا بين الحق والباطل وهو معنى مجازى من الصدع وهو الشق والتفريق كما فى قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين﴾ [الحجر/ ٩٤] أى اجهر بالدعوة إلى الدين الحق فالصواب أن يقال هنا: أمرنى فامتثلت أو أطعت.

ومن الغلط قول بعض الناشئين: أعلن التاجر عن بضائعه وقولهم وهذا الشيء أعلن عنه فى الجرائد والفعل (أعلن) بمعنى أظهر لا يكون إلا متعديا بنفسه أو بالباء فالصواب أن يقال: أعلن التاجر بضائعه أو ببضائعه.

ويغلطون فيقولون: سيكون جناز فلان يوم كذا يقصدون حفلة الصلاة. وكلمة (جناز) ليست فى اللغة والمعروف الجنازة بالتاء ليس غير، وهى بكسر الجيم على الفصيح: السرير فيه الميت فالواجب أن يقال ستكون حفلة الصلاة يوم كذا.

ويقولون: هيئة المهندسين، أو هيئة المدرسين، وهذا الشيء مفيد للهيئة الاجتماعية. واستعمال الهيئة فى هذا المعنى لم يعهد فى كلام العرب؛ لأن الهيئة فى اللغة الحالة الظاهرة للشيء والشارة. تقول: فلان حسن الهيئة ولا ارتباط بين هذا المعنى وما يريدون، والأشبه بلغة العرب أن يقال: طائفة المهندسين، أو جماعة المهندسين، وهذا الشيء مفيد للجماعة أو المجتمع.

ويغلطون فيقولون: أبلّ فلان ولكنه لا يزال فى طَوْر النقاهة. وكلمة النقاهة غير صحيحة والصواب النَّقَه والنُّقوه. يقال: نقه فلان من مرضه ينقَه نقَها فهو نقِه فلان ينقَه نقوهاً فهو ناقه. أما النقاهة فلا تسوغ إلا إذا وجد لها فعل من باب كرم وهو غير موجود.

ومن الغلط الشائع قولهم كتب فلان رسالة شيقة وكان أسلوبه فيها شيقا واستعمال الوصف (شيق) على هذا النحو غير صحيح لأن الشيق كما فى معجمات اللغة المشتاق والرسالة لا تكون مشتاقة

والأسلوب لا يكـون مشتاقـا وإنما المشتاق قـارئها تقـول شاقتنى الرسالة تشـوقنى بمعنى حملتنى على الشوق إليها فالرسالة شائقة وأنا مشوق أو أنا شيق.

قال المتنبى من قصيدة مشهورة:

أرق على أرق ومثلى يـــــأرق ... وجـوى يـزيـد وعبرة تترقـرق
جُهد الصبابـة أن تكـون كما أرى ... عين مسهـــــدة وقلب يخفـق
مـا لاح بـرق أو تـرنم طـائر ... إلا انثنيت ولى فـــؤاد شيق

ففؤاد المتنبى شيق أى مشتاق.

ويقولـون واجهة البيت يريـدون جانبه الذى بـه الباب والعرب لم تستعمل هـذين اللفظين فى هذا المعنى وإنما كانت تقول وجه البيت لأن من معانى الـوجه مستقبل كل شىء وفى الحديث كانت وجوه بيوت أصحابه شارعة فى المسجد وفى لسان العرب وجه البيت الذى يكون فيه بابه.

ومن الغلط قـولهم فـلان يسكن فى الطـابق الأول مـن البيت أو الثـانى منـه فيستعملـون الطـابق استعمالا غير صحيح لأن الطابق فى اللغة الآجر الكبير أو نصف الشاة أو ظرف يطبخ فيه فليس لمعناه اتصال بأجزاء البيت والصـواب أن يقال فلان يسكن فى الطبقة الأولى. وقـد فسر الزمخشرى السموات الطباق بأنها طبقة فوق طبقة ومن المجاز قول العرب الناس طبقات أى منازل بعضها أرفع من بعض.

ويغلطـون فى الألفاظ الخاصـة بـالبيت أيضا فيقـولـون شُقة يقصـدون جـزءًا من الطبقة والأشبـه بـالصـواب أن يسمى هذا الجزء شِقـا بكسر الشين لأن الشق من معـانيـه نصف الشىء والغـالـب أو الأصل أن تقسم الطبقة شقين.

ومما يستحق النظـر قولهم بـالغ فى مدحـه بعض الشىء، وتماثل المريض بعض الشىء، وتحسنت حالـه بعض الشىء، وإضافـة بعض إلى الشىء فى هذه المثل وأمثـالها غريبـة؛ لأن المضاف هنـا وهو بعض يدل على بعضيـة المصدر لا على شىء آخر، فيجب أن يقال: بالغ فى مـدحه بعض المبـالغة، وتماثل المريض بعض التماثل، وتحسنت حاله بعض التحسن ولذلك كـانت كلمة بعض هنا نائبة عن المصدر وكـانت منصوبة ووجب أن تضاف إلى مصـدر من نوع الفعل العامل، أمـا إذا قلت أعطانى بعض الشىء ويكفينى بعض الشىء، أو بعض الشىء قـد يجزئ. فهذا مجال آخر لا شيـة للمصدر فيه، ولا أثر وإنما هو اسم واقع على الذات؛ فهو مرة مفعول به ومرة فاعل ومرة مبتدأ.

نهضة الشعر في العصر الحديث (*)

«الأدب أحد العناصر القوية التى تكوّن الأمم، وليست الأمم إلا مجموعة من عقول وأخلاق وعزائم وآداب وفنون، وكل أمة فى أول نشأتها تعمل على تكوين هذه العناصر فإذا تمت لها جميعًا جاءت السيطرة وجاءت الثروة وظهرت فيها الرؤوس المفكرة والعقول المبتدعة وأطل على كل هؤلاء جيش من الكتاب والخطباء والشعراء يشجعون العامل وينبهون الغافل، وهذه العناصر تكاد تكون متشابكة متداخلة كلما ضعف منها عنصر ذبلت له العناصر الأخرى وفقدت قوتها وربما مضت على الأمة قرون قبل أن يحس ما بها من ضعفا؛ لأن هذه العناصر لا تموت فى يوم وليلة، ولا نريد أن نطيل فى ضرب أمثلة من التاريخ الأوربى والإسلامى وحسبنا الآن أن نقول إن عناصر القوة ضعفت فى مصر فى حكم المماليك فلم تتجه العقول إلى الابتكار، وانحلت الأخلاق والعزائم لذلك كان الإنتاج الفعلى فى هذه الأمة تكرارًا وكان الشعر هزيلاً فى معانيه وروحه.

ولما أصبحت مصر ولاية عثمانية ضاع القليل الباقى من كل شىء ومسخ الشعر إلى أبعد حدود المسخ، ولما تولى مصر مصلحها الكبير «محمد على باشا» ونهض بتأسيس دولة فيها أخذت العناصر التى تكون قوةالأمة تعمل عملها، فتنبهت العقول واستيقظت الأخلاق والعزائم وسارت فى أثر هذه وتلك الآداب والفنون، ولكن عصر محمد على كان عصر إنهاض وتغذية. أما عصر إسماعيل فكان عصر نهوض وهضم وتمثيل، كثرت فيه المطابع وتزاحمت البعوث إلى أوربا وأنشئت المدارس وتعددت الصحف ونهض المترجمون والمؤلفون.

(*) نشرت بمجلة الراديو المصرى بالعدد ٣٦٨ فى ٤ إبريل ١٩٤٢م ص ٤ عن حديث للمرحوم على الجارم قدمه فى الإذاعة المصرية.

فى هذا العصر نشأ صفوت الساعاتى والشيخ على الليثى والشيخ على أبو النصر ومحمود سامى البارودى وصبرى وشوقى، وكانت نهضة الشعر الحقة بظهور هؤلاء الأساطين الثلاثة . كان البارودى حامل لواء النهضة فتبعه صبرى وشوقى وحافظ .

انتقل الشعر بهؤلاء فبعد أن كان ضعيفًا خائرًا لا يتعدى موضوعات المدح والتهنئة والهجاء أصبح قويًا فى أسلوبه ناصعًا فى ديباجته بعيدًا فى خياله ومعانيه، لا يكاد يتميز من الشعر العباسى فى أزهى عصوره إلا بما فيه من تجديد فى الأفكار والأغراض، واتسعت موضوعاته فجال فى الوصف والحماسة والحكم والأخلاق والاجتماع والتغنى بمجد مصر القديم ودعوتها إلى السبق والنهوض .

وجملة القول أن نهضة الشعر الحديث قامت على إحياء القديم فى أسلوبه وخياله، ثم على تطعيمه بكثير من عناصر الثقافة وآثار المدنية وجعله قلب الأمة النابضة بآلامها وآمالها .

وهو يفصّل هذا فى حديثه فلا يفوتك الاستماع إليه، والجارم بك إذا تكلم عن الشعر وهو الشاعر الفحل فإنما يتناول موضوعًا هو حجة فيه يعرفه حق المعرفة .

فى ذكرى المغفور له حفنى بك ناصف (*)

يود كثير من نابتة هذا الجيل أن يعرفوا الشيء الكثير عن رجالهم الذين طواهم عباب الماضى.

والنفس الإنسانية من الطمع بحيث تحب أن تعيش فى عصرها وفى عصور غيرها من الأولين، وهذا مظهر من مظاهر غريزة البقاء التى هى أم الغرائز الحيوانية وجذم فروعها وأفنانها؛ لأن المرء يريد أن تطول به الحياة فإذا لم يستطع أن يزيد فيها من أيامه هو عمد إلى أن يزيد فيها من أيام ماضيه البعيد فاتجه إلى التاريخ يقلب صفحاته وينشر طياته ويتعرف وجوه رجاله ويستقصى حوادث أزمانه، فما هى إلا لحظة حتى يجد نفسه فى جو جديد بين خلق جديد له وجود جديد. وقد عرف حملة الأقلام فى القديم والحديث هذه النزعة النهمة فى الإنسان فخلقوا له من أخيلتهم دنيا غير دنياه صوروها فى قصص وروايات يفر إليها القارئ إذا سئم تكرار حياته وضيقها وآلام حقائقها، فيجد عالما أوسع ومجالا أفيح وقوما غير قومه وعصرا غير العصر الذى يعيش فيه. وكثيرا ما نسمع بشخص من عظماء رجالنا يجرى اسمه على أفواه الآباء، أو يمر له ذكر خاطف فى صفحات الجرائد فنصبو إلى معرفة الشيء الكثير عنه، نريد أن نراه فلا نستطيع لأن الصور الشمسية لا تروى غليلا ولا تشفى عليلا، ثم نريد أن نستمع إليه فلا نجد إلى ذلك من سبيل، فليس إذًا إلا أن ندرس حياته وإلا أن تتسرب نفوسنا فى نفسه وإلا أن نستمع إلى قصته استماع المنصت المتفهم.

وحفنى بك ناصف الذى نشيد الليلة بذكراه رجل عظيم من أكبر علماء مصر وأشهر قادة الأدب فيها، وقصته قصة ممتعة حقا فيها أدب وفيها علم وفيها تسلية وفكاهة وفيها متطلع للمتأدبين ومثل

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٢٥/ ٤/ ١٩٤٢ .

عال للناشئين . قصة كثيرة الألـوان متعددة المناظر تضطرم فيها الحوادث وتتقلـب الأيام ، يظهر بطلها حفنى حينا ويختفى أحيانا ثم يظهر فى الفصل الأخير وقـد صقلته التجارب وملك زمام المعرفة وأصبح بذكائه ونبوغه وجده العلم الفرد والفارس المعلم .

قصـة حفنى بك قصـة النهضة الأدبيـة الحديثـه فى ضحاهـا وفى إبـان استكمالها واشتداد مـرتها ، وعندما أخـذت البذور التى غرسها المغفـور له محمد على باشـا تؤتى أكلها وتجود بثمارها ، وعنـدما مرّ وقت كاف على ذلك الطعام الأدبى العلمى الذى غذيت به النفوس والعقول فى مبدأ النهضة فهضمته ومثلته ثم صورته فى ألوان شتى فيها تقليد وفيها توليد وفيها ترسم وفيها ابتكار.

نشأ غلام هذه القصة فى قرية صغيرة هى« بركة الحج» من قرى قليوب . عاش يتيما بين أسرة تعيش كغيرها من أسر الريف معتمدة على الكـد والدأب ومـا تنتجه الأرض من خير قليل أو كثير ومـا كان أحوج هـذا الغلام فى هذا الحين إلى من يقرأ مخايلـه ويتفرس مواهبه ويـرى فيه نبوغ الجاحظ وشاعـرية النواسّى وأدب البديع وعلم الخليل . ويحى لذلك الغلام اليتيم الأسمر اللون المكلثم الوجه وهو يسير فى أنحاء قـريته وحيدا ذاهـلا وقد تملكته عاطفـة شعرية لا يعـرف لها كنها وطافت بنفسـه طيوف من الخيال ملكت عليه نفسه واستبدت بعقله .

فالنجـوم فى السماء حبات من اللـؤلؤ انتثـرت والبدر ينظـر إليها بـاسما فى استخفاف وسخـرية ، والأشجار وقـد هزها النسيم عـذارى سكرت من مـاء الشباب ورنحها الإعجـاب والإدلال ، والحقول الخضر والمياه المتـدفقة والسواقى الدائرة كل أولئك لـه ترجمات وله أشباح ولـه صور أخرى يصورهـا له خياله الفياض الخصيب .

لم يجد الطفل حفنى من يقرأ مخايلـه فقرأ مخايله بنفسـه ووجه استعداده إلى مـايريده منـه ، وإلى ما أعّده إليه . ولقد كان يكـون فلاحًا ، ولقد كان يكون تاجرًا ولقد كـان يكون أى شىء كأمثاله من أبناء القريـة ونابتتها ولكن نفسه عـزفت به عن كل هذا ، وكأن هامسـا فى أذنه كان يقول لـه إنك يا بنى لم تخلق لهذا ؛ إن أمامك يا بنى دنيا غير هذه الدنيا ، وناسا غير هؤلاء الناس الذين تعيش بينهم ، ومدى معنـويـا أفسح مـن هـذه الحقـول الفيح التى يتقطع دونها مـدى البصر ، وأنت عقـل يـا بنى ولست بجسم ؛ أنت روحانية مشرقـة ولم تكن مادة قاتمة مظلمة . يسمع حفنى هذا أو مـا يشبهه وهو مفترش الأرض مستند إلى جدار داره فتأخـذه الحيرة ويغم عليه الأمر، ويرى أنـه لا يفهم ما يجول فى نفسه ولا يدرك معنى ما تريده منه . وبينا هو إذ يمر أمامه أطفال يحملون ألواحا وهم يتنافسون فى إجادة حفظ بعض السور القصيرة من القرآن الكريم ، فيقوم الغلام حفنى ويلحق بهم وينقل النظرة من هذا الغلام إلى ذاك فى دهش وإعجـاب لما يسمع من حفظ واستحضـار وتحد وتفـاصح . يسـايـر حفنى هـؤلاء الأطفال فيصلون إلى الكتّاب فيدخل معهم ويندمج فى جمعهم .

غاب حفنى عن الدار فأخذت أمه فى تلهف واضطراب تسأل عنه كل من ترى : أين حفنى؟ أين حفنى؟ حتى إذا ارتفع النهار جاء غلام من قبل سيدنا يقول لها : إن حفنى فى الكتاب فهل تريدين أن يستمر وأن يتعلم؟ فتتنفس الأم الصعداء ويطوف بذهنها ما يلاقيه حفظة القرآن العاطلون من شظف العيش وضيق الحياة ثم تتجه إلى زاوية أخرى من التفكير وتطرق قليلا ثم تقول : نعم أريد أن يستمر وأن يتعلم وليكن ما يكون. وقد كان ما يكون حقا وكانت هذه الكلمة ـ لو علمت ـ ذات شأن كبير فى حياة الأدب المصرىّ وازدهار النهضة الحديثة.

ظهر نبوغ حفنى فى الكتّاب وتفتحت أول مرة مواهبه، واشتهر بقوة الحافظة وسرعة البادرة فحفظ القرآن الكريم بينما كثير ممن سبقوه لا يزالون فى المضمار. وحينما اشتد ساعده وبلغ الخامسة عشرة أو نحوها تطلع حفنى حوله فرأى آفاق القرية أضيق من آفاق آماله، ورأى أن نفسه الجياشه بين جنبيه تضطرب صاخبة ساخطة على حياة ضيقة كتب عليها أن تحبس فيها ولم تخلق لها. والسخط على ما يكون أول مراتب النبوغ ومعرفة النقص وأول منازل الكمال.

وبينما هو فى تفكير وآلام وتردد إذا جماعة مقبلون من ناحية المحطة يلتفون حول شاب معمم وهم فى سرور ومرح، وإذا الشاب قادم من الأزهر وإذا شباب القرية ينظرون إليه فى إكبار ويسألونه عن أحوال مصر وأهل مصر وعن الأزهر وعلمائه وطلبته وماذا يتعلمون فيه، والشيخ الأزهرى يتفاصح ويتكلم بلغة أرقى من لغتهم ولسان أجرى من ألسنتهم، وحفنى يسمع وهو مطرق ذاهل، ولعله شعر أن هذا الشيخ يتحدث عن الدنيا التى تحن إليها نفسه دون أن يعلم، ولعله فيما كان يسمع رأى تلك الحياة التى كان يصورها له خياله حقيقة واقعة ليس بينه وبينها إلا أن يعقد العزم ويشمر للرحيل. وفى يوم صائف خرج حفنى من داره وتطلع يمينا وشمالا فلم يجد أحدا فولى وجهه شطر القاهرة وعزم على النزوح إلى الأزهر، ولم يفكر وهو فى تلك الحال النفسية المضطربة وبين براثن تلك الرغبة الجامحة فى تلك الأم الرءوم التى تطير نفسها لفرقته ويتمزق فؤادها لغيبته.

سار فى الطريق قدما تلفحه الشمس بهجيرها، وتأكل الأرض من قدميه، حتى إذا وصل إلى القاهرة سأل: أين الأزهر؟ فأرشد إليه فدخله شابا صغيرًا غريبا حتى كأنه كان المعنىّ ببيت الطغرائى :

نـاء عن الأهل صفر الكـف منفرد   كـالسيف عـرى متنـاه عن الخلل

أقام بالأزهر ولا ندرى كيف أقام ولا كيف كان يعيش، ولكنا نعرف أنه كان ندىّ الصوت حلو التنغيم رخيم الأداء، فعرفه عشاق الفن ورجال التصوف بحسن الإنشاد وجمال الصوت والتطريب، ووجد حفنى أمامه باب العلم مفتوحًا فدخله مشغوفا، وميدان النبوغ فسيحا فجال فيه وصال، والعصامية أخت النبوغ والشظف سفير النعيم.

بصرت بـالـراحـة العظمـى فلم أرهـا   تُنـال إلا على جسر من التعب

أصبح بين إخوانه مضرب المثل فى الذكاء وسرعة البديهة وصدق الفهم وقوة الذاكرة. وفى ذلك الحين أحس بطائف من الشعر يتلجلج فى صدره، فتنغم به وترنم ثم فاض به لسانه كلامًا ساحرا يأسر القلوب ويستهوى النفوس، فشاع فى حلقات الأزهر ذكره، وأقبل علماؤه يستمعون إلى هذا الشاعر الناشئ الذى سيكون له شأن فوق شأن الساعاتى والليثى وأبى النصر. رأى حفنى أن عبقريته الشعرية يجب أن تخرج من نطاق الأزهر قليلا. فنظم قصيدة فى مدح المغفور له محمد توفيق باشا خديو مصر. وحينما أتمها هذبها وبيضها وذهب بها إلى ساحة عابدين، حتى إذا قرب من الباب رآه طائفة الحرس فتجهموا له وزجروه وأمروه بالانصراف فاستعطفهم وتلطف إليهم وأخبرهم بأنه نظم قصيدة فى مدح الخديو وأنه يريد أن يقدمها إليه بنفسه، فزادوا منه سخرية وبه استخفافا وله زجرًا؛ رأوا شابا مجاورًا تقتحمه العين لا يزينه ثوب ولا يشفع له سمت. وفى أثناء هذا المشهد الغريب مرّ رئيس التشريفات فاستوقفه الأمر فسأل فقيل له: شاب مجاور كما تراه خيلت له نفسه أنه يقول شعرا: ثم خيلت له أن شعره حقيق بأن يقدم للملوك، ثم زاد وأغرق فطلب أن يقدمه إلى الخديو بنفسه. فدفعهم عنه ودعاه إليه واستجلاه طلبته، فلما علم بها سأله أن يقرأ عليه القصيدة فما كاد يتم منها أبياتا حتى أخذ الباشا بما فيها من بيان رائع وخيال سام وتصوير بديع فقال له قف: يا بنى حيث أنت حتى أعود إليك. ثم صعد إلى الخديو مبهورًا وقال يا مولانا إن بالباب معجزة من معجزات النبوغ. شاب مجاور أنشأ قصيدة فى مدح مولانا لو وزن بها كل ما قيل فى مدحه لرجحته: وسيكون لهذا الشاب شأن خطير لم تتمخض عنه الأيام بعد. فأمر الخديو بدعوته إليه فجاء الشيخ حفنى وأنشد قصيدته بين يديه، فاهتز الخديو اهتزاز الكريم، وأعجب بما فيها من جمال وروعة وأمر له بمال.

أخذ الشيخ حفنى القطع الذهبية فى يديه يقلبها ويحملق فيها ويستمع إلى صليلها والدهشة تملأ جوانب نفسه. الآن صار غنيا. الآن صار مثريا. الآن يستطيع أن يشترى ما كانت تمتد إليه عيناه من طعام ولباس. الآن يستطيع أن يشترى دواوين ابن النبيه وابن الفارض والبهاء وابن مطروح وابن نباتة والشاب الظريف. إنه الآن رجل منتج وإن مواهبه التى كانت خيالا وأوهاما يمكن أن تتحول إلى ذهب أصفر رنان، ويمكن أن تنقله من هذه الحياة إلى حياة أخرى.

ذهب إلى زميله سلطان وساق إليه البشرى ونفض إليه الخبر فسر له وسّر لنفسه لأنه سيشاطره ما أفاء الله عليه من رزق. ثم مرت الأيام فإذا الدنانير قد طارت وإذا حفنى وسلطان يعودان إلى ما كانا عليه بعد أن لمع لهما برق خلب من النعيم. جلسا فى غرفتهما مطرقين حزينين وقد تنكر لهما الدهر وكاد يحول بينهما وبين الاستمرار فى طلب العلم.

وبينما هما فى تقليب كف واهتزاز رأس إذ دخل لزيارتهما الشيخ محمد صالح وكان قد لحق بدار العلوم فرأوا شكلا أنيقا: جبة جوخ وقفطانا قطنيا وعمامة بيضاء لم يمسسها درن، فسألاه عن منشأ هذه النعمة الطارئة فأخبرهم بأن دار العلوم تمنح طلابها مكافأة شهرية، ووصف لهم ما فيها من علوم

وتعلم ولم يغادرهما حتى عقدا العزم على دخول دار العلوم .

دخل حفنى دار العلوم، فاتسع أفقه وبرزت مواهبه فى الأدب، وتفرغ للبحث والإنتاج، فكان السبّاق بين أنداده، وجال فى ميدان الشعر وطارح الشعراء وعارضهم وتصدر مجالسهم .

ثم تخرج فى دار العلوم فعين مدرسًا، ولم يمكث طويلا حتى احتاج شفيق بك منصور النائب العمومىّ فى ذلك الحين إلى أديب يعينه فى كتابة البحوث ومراجعة مؤلفاته . فأرشد إلى حفنى وقيل له : إنك لن تجد له مثيلا فهو عالم فقيه أديب شاعر ناثر.

كانت هذه الوظيفة أول عهد لحفنى بالحياة العامة، فيها التقى بساسة مصر وكبرائها وعظماء أدبائها، وحضر مجالس اللهو والترف واختلف إلى نوادى الشعر والأدب فالتقى بالبارودى وصبرى والليثى وأبى النصر. وهنا ظهر حفنى كاملا وتجلت خصائصه بارعة وذاع صيته فى آفاق مصر: نكتة حاضرة بعيدة الغور، وعلم غزير بفروع العربية جميعها، وإحاطة نادرة بغرائب الأدب وآدابه، وشعر مصرى رقيق لا يخلو من جمال التورية وبراعة النكتة وحسن الذوق فى التصوير.

ثم نطرق قليلا فنرى حفنى بك أصبح أستاذا بمدرسة الحقوق، ثم قاضيا أهليا اشتهر بالعدل والنزاهة وسداد الرأى، ولكن القضاء لم يستطع أن يقضى على حفنى الأديب ولا على حفنى الشاعر الكاتب؛ فغطت شهرته فى الأدب أعمال وظيفته وأصبح عمله فى القضاء على هامش حياته الأدبية .

وكأن القدر كان يدخره للغاية التى أعده لها؛ فحينما لقى الشيخ حمزة فتح الله ربه لم يكن بالبلد من يقوم مقامه فى الإشراف على لغة العرب سوى حفنى بك، فعين المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف .

وآثار حفنى فى العلم والتأليف كثيرة يعرفها الناس ولشعره طابع خاص يمثل الديباجة المصرية فى رقته وحلاوته، لم يرد فيه حفنى بك أن يقلد شعراء بغداد وإنما أراد أن يتم به السلسلة الشعرية التى انقطعت بموت ابن النبيه وابن نباتة وأمثالهما من شعراء مصر.

وجدير بشعره ان يقرأ ويفهم، وجدير بالجامعة المصرية أن تعنى بجمعه ودراسته؛ لأنه يمثل فنا شعريا فريدا كاد يدركه الزوال .

وقد ختم حفنى بك حياته بأجَلِّ ما تُختم به حياة . ذلك هو كتابة المصحف الشريف، والإشراف على طبعه وترقيمه وهو عمل مضن يتطلب علما واسعا وكدا ومثابرة .

إن الأدباء بمصر قليل، وأمثال حفنى أقل .

غفر الله لحفنى وجزاه عنا خير الجزاء .

نشأة الشعر الأندلسى وتطوره(*)

الشعر الأندلسى حبيب إلى النفس، قريب من القلب، له مناح فى الخيال والتفكير والصياغة تجذب إليه الأسماع وتستهوى القلوب، وله شخصية متميزة، وخصائص فارقة بينه وبين الشعر المشرقى لم يوفق كثير ممن كتب فى تاريخ شعر الأندلس فى تحديدها واضحة خالية من اللبس والإبهام.

والشعر الأندلسى جميل كله، غير أننا نعتقد أن شعر الطوائف وما بعده هو النموذج الصحيح للشعر الأندلسى بعد أن استقر العرب فى شبه الجزيرة نحو أربعة قرون، وبعد أن نسوا بداوتهم الأولى ونشأت لهم أجيال فى حضارة جديدة وبيئة جديدة، وبعد أن امتزجوا بالأسبانيين وأصهروا فيهم، واختلط دم أبناء الصحراء بدماء سكان السهول الخضر، والأودية الزهر، فتكون نسل هذين العنصرين القويين، جمع إلى قوة البداوة الموروثة أناقة الحضارة المكسوبة، وإلى سرعة إدراك العربى دقة نظام العقل الأوربى.

* * *

حينما نزل العرب شبه الجزيرة عاشوا فى عزلة كما يعيش الفاتحون فى أول أمرهم دائمًا، وأضافوا إلى صلف الغالب المنتصر زهو العربى بجنسه وقوميته فجعلوا بينهم وبين القوط حدًّا، ونظروا إليهم وإلى مدنيتهم شزرًا، ولم يستفيدوا من ثمار عقولهم ولا من خصائص اتجاههم فى التفكير والنظر إلى الأشياء.

والشعر العربى على قلته فى هذه الفترة أراد أن يجارى الفاتحين فيكون محافظًا معتزلا معتزًّا ببواديه وصحرائه، حتى لكأن هذا الجو الأوربى الغريب وهذه المشاهد التى تختلب اللب، وتستهوى العين

(*) نشرت بمجلة الراديو المصرى بالعدد ٣٩٥ فى ٩ سبتمبر ١٩٤٤م ص ٣، ولقد تناول المرحوم على الجارم موضوع الشعر الأندلسى فى سلسلة أحاديث إذاعية لم نتمكن من الحصول إلا على الأحاديث التالية (الناشر).

وتستشير الإحساس بالجمال، لم تكن فى نظر الشعراء شيئًا مذكورًا، فهم دائبون على قديم أسلوبهم، لا يحيدون عن طرائقهم، يقيمون عمود الشعر فى قرطبة وغرناطة وأشبيلية، كما هو مقام بدمشق والكوفة والمدينة، ولا تزال أسماء مواضع جزيرة العرب: كسلع والعقيق، وحاجر، وكاظمة، تتردد فى أشعارهم، ولا يزالون كعادتهم يقفون بآثار الديار تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد، أما الأنهار الدافقة، والحدائق المتألقة، والمبانى الباسقة فلا تكاد فى أول عهدهم تسمع لهم فيها شيئًا.

فلما خفف الحكام العرب من غلوائهم، وطمأنوا من عصبيتهم، وامتزج أبناؤهم بأبناء الأسبانيين، وأصبح بين الغالبين والمغلوبين شىء من الاتساق الفكرى والاجتماعى، وتطورت الحياة العربية، وتطور معها الشعر والخيال، فأصبحنا نسمع له جرسًا خاصًا، ونغمًا متميزًا، ونستعرض منه صورًا خيالية فاتنة، وصار الشعر يؤدى ما يجب عليه أداؤه، فصور البيئة التى يعيش فيها، وخفق بالآمال والآلام التى تختلج فى صدور الشعراء، وكان ترجمانًا صادقًا لحياتهم، وللمأزق الحرج الذى وضعهم فيه القدر بين أعدائهم من القوط وأعدائهم من أنفسهم.

وتطور الآداب كتطور كل شىء فى الطبيعة، يحصل على التدريج، لا يكاد يحس، ولا يستطاع أن يحدد له مبدأ أو نهاية. وهكذا كان تطور الشعر الأندلسى لا تعرف متى بدأ، ولكنك تحس وجوده، وترى شيئًا من نموه فى فترة من خلافة عبد الرحمن الداخل.

وكانت أول بارقة لتميز الشعر الأندلسى وسموه إلى التلون بلون خاص، ونبضه بقلب جديد قول هذا الأمير فى نخلة جلبها من دمشق وغرسها فى بستان له بالزهراء بالأندلس، وقد أثارت فيه هذه النخلة الحنين إلى أهله ووطنه فقال:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض النخل عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى ... وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى

وقال يتشوق إلى معاهد الشام:

أيها الراكب الميمم أرضى ... أقر من بعضىَ السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض ... وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفونىَ غمضى
وقضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضى

* * *

ثم ترى الشعر بعد ذلك ناميا مطرد النماء فى عصور من جاء بعده من خلفاء بنى أمية، حتى إذا بلغ دولة ملوك الطوائف بلغ أشده وشارف اكتماله.

ازدهر الشعر والأدب والفن فى هذه العهود بالأندلس ما فى ذلك شك، فإن قارئ الأدب فى هذه الفترة يشعر بلذة نفسانية وجدانية، قلما يجدها فى ألوان الأدب بالآفاق الأخرى، وإن فيما تقرؤه من مجالس الأدباء وطرائف الشعراء، مما تطرب له الأذن وتهتز العاطفة، لدليلا على ما وصلت إليه فنون الكلام عند القوم من منزلة عالية ومقام رفيع، حتى لقد كان الأدباء المطبوعون إذا سمعوا شعرًا ولم يتبينوا قائله، قالوا: إنه أندلسى، وإذا انتحل أهل الشرق أبياتًا منه نمت عليها أندلسيتها فافتضحوا فقد ادعى المنازى لنفسه أبيات حمدونة بنت زياد الأندلسية وهى:

وقانا لفحة الرمضاء واد	سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا	حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا	ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا	فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالية العذارى	فتلمس جانب العقد النظيم

فدلت رقتها، وشهد أسلوبها على أنها أندلسية. قال الرعينى: وهذه الأبيات أثبتها مؤرخ الأندلس لحمدونة قبل أن يخرج المنازى من العدم إلى الوجود. وقال ابن النديم فى تاريخ حلب: وبلغنى أن المنازى وصل إلى أبى العلاء لينشده هذه الأبيات وكلما أنشد المصراع الأول من كل بيت سبقه أبو العلاء إلى المصراع الثانى.

ومن الذى يقرأ الأبيات الآتية فلا يقول إنها أندلسية وإن لم يعرف قائلها:

عاطيته والليل يسحب ذيله	صهباء كالمسك الفتيق لناشق
وضممته ضم الكمى لسيفه	وذؤابتاه حمائل فى عاتقى
حتى إذا مالت به سنة الكرى	زحزحته شيئا وكان معانقى
باعدته عن أضلع تشتاقه	كيلا ينام على وساد خافق

وأى أديب مرهف الحس، موسيقى الأذن، لا يجزم بأن أندلسيا هو الذى يقول:

متى أبثك مابى	ياراحتى وعذابى
متى ينوب لسانى	فى شرحه عن كتابى
الله يعلم أنى	أصبحت فيك كما بى
فما يلذ منامى	ولا يسوغ شرابى
يافتنة المتعزى	وحجة المتصابى
الشمس أنت توارى	عن ناظرى بالحجاب
ما النور شفت سناه	على رقيق السحاب
إلا كوجهك لما	أضاء تحت النقاب

وهل يصف الخال فى خد الحسناء هذا الوصف الرائع إلا خيال أندلسى حين يقول :

ألـــــوّامى على كلفى بحب — متى من حبه أرجو سراحا
وبين الخد والشفتين خال — كزنجى أتى روضًا صباحا
تحير فى جناه فليس يدرى — أيجنى الورد أم يجنى الأقاحا

وهل يبدع التنسيق والتصوير إلا ابن خفاجة الأندلسى الذى يقول :

ومهفهف طاوى الحشا — خنث المعاطف والنظر
ملأ العيون بصورة — تليت محاسنها سور
فإذا دنا وإذا مشى — وإذا شدا وإذا سفر
فضح الغزالة والغما — مة والحمامة والقمر

وإذ اسئلت من قائل الأبيات الآتية فلم تعرفه، فهلا يخطر ببالك أن ترجح أنه أندلسى :

كأنما الراح والراحات تحملها — بدور تم وأيدى الشرب هالات
حشاشة ما تركنا الماء يقتلها — إلا لتحيا بها منها حشاشات
قد كان من قبلها فى كأسها ثقل — فخف إذ ملئت منها الزجاجات

* * *

وصل الشعر الأندلسى إذن فى عهد ملوك الطوائف إلى ما وصل إليه من علو المكانة وبعد المنزلة. ونريد أن نتعرف الأسباب التى بلغت به إلى ما بلغ ؛ لأن مؤرخ الأدب الذى يريد أن يلتمس لكل شىء سببا، والذى يريد أن يزاحم المنطقى فى رجع النتائج إلى مقدماتها، أو تطبيق القاعدة على جزئياتها يقف فى شىء غير قليل من الحيرة أمام هذه الظاهرة الأندلسية.

لقد رسخ فى نفس هذا المؤرخ بما لا يقبل الريب أن الأدب والفنون جزء لا ينفك عن أحوال اجتماع الدولة وسياستها، فراح فى اطمئنان وهدوء بال يطبق هذه النظرية على الدول فى ماضيها وحاضرها والأقطار عند نشوئها وتطورها، فجاءت صحيحة صادقة لا تكاد تتخلف، وهو يزعم جازما أن الدولة الثابتة الدعائم، المستقرة الملك، الحكيمة السياسة العظيمة الثروة، التى يعيش أهلها فى ظلال الأمن والسلامة، يزدهر فيها الأدب وينمو. والدولة المهتزة الأركان، المزعزعة الحكم، المضطربة السياسة، الفقيرة فى منابع الثروة التى يعيش أهلها فى ذعر وتوجس، تبوخ فيها شعلة الأدب وتخبو.

رأى مؤرخ الأدب ذلك فى آخر حكم العباسيين بالعراق ورآه فى مصر فى معظم عصورها الخالية،

لا يكاد سراج الأدب يلتمع بها لحظة حتى ينطفئ. حتى أن المتنبى حينما زار مصر فى عهد كافور لم يجد من الشعراء من يزحمه أو يصاوله، أو يصح أن يكون له بمنزلة التلميذ من الأستاذ، وهجا المتنبى مصر وأهلها عند رحيله بأقذع الهجاء فما سمعنا أن شاعرًا انبرى له، أو رد اللطمة إلى وجهه.

ولولا أن حروب الصليبيين فى عهد الأيوبيين أيقظت عواطف الشعراء النائمة بمصر والشام، وهاجت من شعورهم الراكد، ما سمعنا منهم فى هذا العهد إلا المدح الممجوج، والخيال المكرر فى وصف سجادة أو سبحة أو سواك.

يضع مؤرخ الأدب قاعدته هذه أمام عينيه، ويحاول أن يطبقها على الأدب فى عهد ملوك الطوائف وما بعده، فيرى أنها تتخلف فى ظاهر الأمر بعض التخلف: حكومات ملوك الطوائف كانت مضطربة واضطراب الحكومات يستلزم اضطراب النفوس، والفنان لا تجود نفسه بالأوابد، ولا ينزل عليه الإلهام، ولا تتفتح عبقريته إلا فى جو هادئ كله صفاء واطمئنان، كالطائر الغرد لا يجود بأغاريده الحلوة إلا وهو فى أمن من براثن البازى ومناصب الفخاخ.

ونحن نعلم ما كانت عليه بلاد الأندلس من حروب لا يبرد وطيسها، واضطراب لا يركد غباره، فكيف يستريح مؤرخ الأدب بعد هذا إلى قاعدته الذهبية التى كان يباهى باستنباطها، والتى جعلها ميزانا لحكمه على الدول غابرها وحاضرها، حتى إنه لشدة ثقته بها كان يكتفى بالنظر إلى إحدى ناحيتى الدولة: ينظر إلى سياستها واجتماعها فيحكم على الأدب، أو ينظر إلى أدبها فيحكم على سياستها وأحوال الاجتماع فيها.

ولكن مؤرخ الأدب لا يريد أن يتقهقر، ولا يريد أن يفسد نظريته التى آمن بها إيمانه بنفسه؛ لأنه يستنكر تخلفها ويدعى أن تطبيق حال الأدب بالأندلس عليها بالوضع الذى هى عليه، وبالألفاظ التى صورت بها، فيه جور شديد، واشتطاط فى الحكم، وتجوز ظاهر فى استعمال بعض الألفاظ، ومخالفة للحق فى أخرى، ثم يجاهر بأن هناك أحوالا بجانب هذه القاعدة دعت إلى نهوض الأدب وازدهاره، ويزعم أن أكبر عيب وقع فيه مؤلفوا العرب أنهم كانوا يضعون القاعدة ثم يحشرون إليها الجزئيات حشرا، فإذا ضاقت ببعضها لم يعمدوا إلى توسيع القاعدة، كما كان يقضى بذلك الحق والتدقيق ولكنه شذ عنها، وكثيرا ما يكثر الشاذ حتى تخجل القاعدة، وكثيرا ما تتعدد المستثنيات حتى تحتاج إلى قاعدة جديدة.

* * *

إن تواتر الحروب واشتباكها بدويلات الطوائف لم يبث الذعر بين الأهلين، ولم تضطرب له حياتهم إلا فى أحوال قليلة نادرة، تخرج من حساب المؤرخ، فقد كانت هذه الحروب محلية فى أكثر وقائعها، ثم إنها كانت مقصورة على طائفة من المحاربين من الجنود المرتزقة، وبقيت الطوائف الأخرى التى تؤلف

النظام الاجتماعى فى أمن واطمئنان، ثم إن توالى الحروب واستمرارها طبع الأندلسيين على الاستخفاف بأخطارها وعدم المبالاة بأوزارها . .

اعتاد الأندلسيون الحروب حتى ألفوهـا، وحتى لم تستطع فى أكثر أحوالها أن تعترض نظام حياتهم وكان الأنـدلسيون يمتـازون بروح قويـة، وجلد شديـد، قد يكـون للبيئة الجغرافيـة والتاريخيـة أثر فى تكوينها، فقـد علمتهم الأيام الصبر على الحوادث والتماسك عند الكوارث، وكـان لهم إيمان غريب والقدر هـون عليهم كل شيء، فاستهـانوا بكل شيء ومضـوا فى أعمالهم، واستعجلوا لـذائذ الحياة، وشربوا كؤوس اللهو حتى الثمالة، عابثين ساخرين.

انظر كيف ينظر إلى الحرب الوزير الكاتب أبو جعفر بن طلحة حين يقول فيخلط الجد بالهزل:

ألفـت الحرب حتـى علمتنـى مقـارعـة الحوادث والخطـوب
ولم أك عـالما وأبيك حـربـا بغير لـواحظ الـرشأ الـربيب
فهأنـا بين تلك وبين هـذا مصـاب من عـدو أو حبيب

ثم انظر إلى ما يقول أبو جعفر بن عائش فى اقتناص اللذات وعدم المبالاة بمشاغل الحياة:

إذا رأيـت الجو يصحـو فـلا تصح ـ سقـاك اللـه ـ من سكـر
تعـال فـانظـر لـدموع النـدى مـا فعلت فى مبسم الـزهـر
ولا تقـل إنـك فى شـاغـل فليس هـذا آخـر الـدهـر
تخلف مـا فـات سوى سـاعـة تقنصهـا فى لـذة الخمـر

وإلى ما يقول أبو مروان بن غصن:

يـا فتيـة خيرة فـدتهم من حـادثـات الـزمـان نفسى
شربهم الخمـر فى بكـور ونطقهم عنـدهم بهمس
أمـا تـرون الشتـاء يلقى فى الأرض بسطـا من الـدمقس
مقطبـا عـابسـا ينـادى يـوم سرور ويـوم أنس

وإلى ما يقول محمد بن رشيق الغرناطى:

(سيـدى) عنـدى أتـر ج ونـارنـج وراحُ
وجنـى آس وزهـر وجمان لا يبـاح
ليس إلا طـرب فيـه النـدامى والملاح

ومكـــــــان لانتهـــــاك
قـــد نـأى عنــــه الفــــلاح

لا يـــــرى يطلع فيـــــه
دون أكـــــواب صبــــاح

فيـــــه فتيـــــان لهم فى
لــــــــذة العيش جماح

طــرحـــوا الـــدنيـــا يســارا
فـــــاستراحت واستراحـــوا

لا كقـــــــــوم أوجعتهـــم
لهم فيهـــــــا نيــــــاح

وإذا أردت أن تعرف مقدار استهانتهم بحوادث وصروف القدر فاقرأ لهذا الشاعر أيضًا :

ليس عنـدى من الهموم حـديث
كلما ســاءنى الــزمــان سررت

أتــرانى أكـون للـدهـر عـونـا
فـإذا مسنـى بضر ضجـــــرت

غمــــــرة ثـم تنجلى فكـأنى
عنـد إقــلاع همهـا مــا ضررت

غمرة ثم تنجلى! هذه كانت الكلمة الشائعة على الألسن فى هذا الزمان بها وبـأمثالها نفضوا غبار الهموم، وبها وبأمثالها عاشوا فى أمن نفسى بين هبوب العواصف وسقوط النوازل.

ثم إن مزاج أهل الأندلس كان من النوع المرح المستبشر الضحاك، وهو مزاج النازلين على شواطئ بحر الروم عامة! وإذا نشأ الفن فى أصحاب هذا المزاج نما وازدهر، على الرغم مما قد يصيبهم مما يكدر صفو الحياة، ففى قتام الحوادث المتعقد وبين صليل السيوف، ألّف المظفر بن الأفطس ملك بطليوس كتابا فى فنون الأدب فى نحو مـائة مجلدة، وألّف المقتـدر ابن هود، صاحب سرقسطـة، كتبا كثيرة فى الهيئة والهندسة.

عناية ملوك الطوائف بالشّعر والشّعراء(*)

بلغ ملوك الطوائف ووزراؤهم الغاية فى البذخ والترف، وتقلبوا فى أكناف النعيم، وأسرفوا فى اللهو والعبث، وكان بعضهم ينافس بعضا فى عظمة الملك ورهبة السلطان.

ثم كانوا جميعا ينافسون خلفاء بنى العباس بالمشرق فيما كانوا ينفقون من الأموال ويبعثرون من الهبات والصّلات، ويقيمون من مظاهر شامخة للمجد ودلائل باهرة لقوة الدولة. فنثر ملوك الطوائف الأموال فى تشييد القصور، وغرس الحدائق واقتناء التحف النادرة وإنشاء خزائن الكتب الحافلة بخير ما ألف فى العلوم والآداب.

فقد شاد المأمون بن ذى النون ملك طليطلة قصرا كان آية فى الفن وإبداع الصناعة، أنفق عليه أموالا تضيق بحسابها الدفاتر وصنع فى وسطه قبة من الزجاج الملون المنقوش بالذهب، وبنى حول القبة مجرى مستديرا يحيط بها. فكان الماء ينزل من أعلى هذه القبة إلى حافاتها متصلا بعضه ببعض، وكان المأمون يجلس تحتها دون أن يمسه رشاش، وقد دار ستر رقيق من الماء يتألق وتتعدد ألوانه العجيبة إذا أوقدت الشموع بالقبة ويقال: إنه بينما كان فيها ليلة ينتهب اللذات بين جواريه وقيانه إذ سمع منشدا يصيح:

أتبنى بناء الخالدين وإنما ... مقامك فيها لو علمت قليل

لقد كان فى ظل الأراك كفاية ... لمن كلّ يوم يقتضيه رحيل

ويقول أبو محمد المصرى فى وصف هذا القصر:

قصر يقصّر عن مداه الفرقد ... عذبت مصادره وطاب المورد

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٢٥/ ٤/ ١٩٤٢.

نشر الصباح عليه ثوب مكارم فعليه ألوية السعادة تعقد
وكأنما المأمون فى أرجائه بدر تمام قابلته أسعد
وكأنها الأقداح فى راحاته دُرٌّ جمان ذاب فيه العسجد

ويقول فى وصف القبة :

شمسية الأنساب بدريّة يحار فى تشبيهها الخاطر
كأنها المأمون بدر الدُّجى وهى عليه الفلك الدائر

وكانت قصور بنى عباد بأشبيلية منازل عزّ ومظاهر ملك وعظمة، لم يدخر شىء فى إبداعها وزخرفها وجلالة بنائها، وكان كلّ ملوك الطوائف على هذا الطراز لا تستثن منهم أحدا. فقد نافسوا خلفاء العباسيين فى كل شىء حتى فى أعراسهم، فنافس المستعين بن هود عرس «بوران» زوج المأمون الذى يضرب به المثل فى المشرق، فأنفق فى عرسه الأموال جزافا وحشر إليه الناس أرسالا، وفرق الهبات التى لا تعدّ، وأحضر ــ كما يقول صاحب القلائد ــ من الآلات المبتدعة والأدوات المخترعة ما يبهر الألباب، وتنقطع دونه الأسباب.

وبحسبك فيما وصل إليه الملوك والأمراء من الثروة والبذخ، والعناية بالأدب أن تقرأ ما كتبه ابن حيان مؤرخ الأندلس بشأن الوزير أحمد بن عباس . قال :

كان كلفا بالأدب مؤثرا له على سائر لذّاته، جماعا للدفاتر مقتنيا للجيد منها مغاليا فيها، نفّاعا لمن خصه بها، حتى جمع منها ما لم يكن عند ملك. وزعم بعض من عرف أمره أن ماله العين بلغ خمسمائة ألف مثقال جعفرية، سوى الفضة، والآنية والحلية. أما الأمتعة فى المخازن، والكسوة والطيب والفرش فبحسب ذلك. ثم يقول : وكان بقصره خمسمائة من مثمّنات القيان .

واشتهر عن أمراء الأندلس عنايتهم واحتفالهم بالشعر والشعراء والإغداق عليهم وإغراؤهم على المثول فى حضرتهم ودفعهم إلى مديحهم. وربما كان شىء من هذا سببا فى ازدهار الشعر فى هذا العصر وبلوغه القمة .

وما أشبه نهضة الشعر والأدب والعلوم عند تمزق دولة الأندلس وتفرقها إلى ولايات وطوائف، بما أصاب الشعر والآداب من نهوض عند انقسام الدولة العباسية إلى ولايات وإمارات منذ القرن الثالث الهجرى. فإن سيف الدولة بن حمدان أمير حلب المتوفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة، استطاع أن يجعل مملكته الصغيرة على ضيق مواردها وقصر مدة حكمه ـ كعبة يقصدها العلماء والأدباء والشعراء، وأن ينهض بالعلوم والآداب نهضة كادت تعيد إلى الأذهان عهد الرشيد والمأمون. أخذ كل ملك بالأندلس يفاخر صاحبه وينافسه فى أبّهة الملك ويباهى بكثرة قصاده وشعرائه، ويعظم ما يجزل لهم من عطائه

وأن يجعل إمارتـه مباءة العلماء والشعـراء، وأن يرسل اسمه مجلجـلا فى الآفاق. والشعـراء ألسنة تنشر المحامد، وإعلانات متنقلة، وآلات إذاعة، ووسـائل دعاية، لذلك تهافت عليهم الملوك واجتهد كل أمير أن يسبق منافسيه إليهم، فراجت سوق الشعر وعظـم شأنه، وأبدع الشعراء وافتنّوا، واللّهى ـ كما يقـولون ـ تفتح اللّها. فكـان لكل ملك شعـراء يختصون بحضرتـه، وكـان يجلس لسماعهم يومـا فى الأسبوع، وكانوا يستقبلون كل شاعر جديد بالحفاوة وإجزال الصلة.

وبلغ تدلل الشعـراء على الملوك فى هذا العهد حدّا قـد تدهشون له، ذلك أن بعـض الشعراء كان يحدّد لقصيدتـه ثمنا لا ينـالها أحد من الملوك بأقل منـه. حكوا أن المعتمـد بن عباد طلب إلى أبى علىّ العبدرىّ أن يمـدحه بقصيـدة يعارض فيهـا قصيدتـه التى مدح بها ابـن حمود، فقال لـه العبدرىّ فى صراحة وفى غير خشيـة: أشعارى مشهـورة، وبنات صـدرى كريمـة، فمن أراد أن ينالها فقـد عرف مهرها.

وبلغ من إعزاز الملـوك للشعراء أنهم كـانوا يتجاوزون عـن هجائهم ويقابلـون سلاطتهم بـالعطاء والهبات. فقد كـان النحلىّ الشاعر من صنائع المعتصم بن معن بن صمادح، صـاحب ألمرية، فذهب مرة إلى أشبيلية ومدح المعتضد بن عباد بشعر يعرّض فيه بالمعتصم، إذ يقول:

أباد ابن عبّاد البربرا   وأفنى ابن معن دجاج القرى

ثم نسى النحلىّ تلك الزلة التى بدرت منه، وساقته أسفاره إلى ألمرية، ونزل بقصر المعتصم، فدعاه إلى منادمته، وأحضر للعشاء موائد ليس فيها إلا الدجاج.

فقال النحلىّ: يا مولانـا، أما عندكم بالمرية غير الدجـاج؟! فقال المعتصم: إنما أردنا أن نبين لك أن الدجاج لم يفن بألمرية، وأنه لا يزال كثير بها، وأن نكذبك في قولك:

وأفنى ابن معن دجاج القرى

فطار لبّ النحلىّ، وجف ريقه، وتملّكه الخوف. فقال له المعتصم: خفّض عن نفسك، فلا بأس عليك ولا تثريب. وأجزل له العطاء فى إقامته، وواصل إحسانه إليه بعد سفره.

ليس من شك فى أن تـدليل الملوك للشعـراء إلى هذا الحد وحفـاوتهم بهم، دفعتهم إلى المنافسـة فى السبق والإجادة، وحفزت هممهم إلى التطلع إلى صلات الملوك والتقرب إليهم بأدبهم، فنشأت في هذا العهد غيرة شعرية عنيفة، وتحاسد أدبىّ مضطرم، وتزاحم على الجوائز بغيض.

رووا أن عمر بن الشهيد الشاعر حينما أنشد المعتمد بن صمادح قوله فى مدحه:

سبـــط البنان كأن كل غمامة   قـــد ركبت فى راحتيـه أناملا

لا عيش إلا حيث كنت وإنما   تمضي ليالي العمر بعدك باطلا

التفت المعتصم إلى من حوله من الشعراء وقال لهم: هل منكم من يحسن أن يجتذب القلوب بمثل هذا؟! فقال الخزّاز الشاعر: نعم. وإنما هو الحظّ المواتي وإن للسعادة هبّات، وقد أنشدت مولانا قبل هذا أبياتا أقول فيها:

ومـا زلت أجنـى منك والـدهـر ممحل   ولا ثمـر يجنـى ولا الـزرع يحصـد

ثمار أيـــاد دانيـــات قطـــوفهـــا   لأغصـــانها ظلّ علىّ ممـــدّد

يُـرى جـــاريـــا مـــاء المكـــارم تحتهـــا   وأطيـــار شكـــرى فـــوقهـنّ تغـــرد

فارتاح المعتصم وقال: أأنت أنشدتنى هـذا؟! قال: نعم. قـال: والله كأنها ما مـرت بسمعي. صدقت، إنه الحظ المواتي وإن للسعـادة هبّات. ونحن نجيزك عليها بجـائزتين: الأولى لها، والثانية لمطل راجيها.

آراء المستشرقين في الشعر الأندلسي (*)

ليس من شك فى أن الشعر الأندلسى شرقى المنبت عربى الزى والسمة، رحل مع طارق وأصحابه إلى إسبانيا، وحل مع العرب والبربر حيث حلّوا وطوّف معهم أينما طوفوا. وما كان ينزل بوادى الطلح بإشبيلية أو يحلق فوق بساتين قرطبة، أو ينصت إلى ترانيم الطيور بمرج غرناطة، أو يشهد جبال نيفادا التى تتألق الشمس فوق قممها الثلجية طوال العام، أو يلمح تلك المياه المنحدرة من الصخور لها خرير ولها نثيج وصخَب، أو يمر به ذلك النسيم الأوروبىّ الواهن بعد أن بلل بحر الروم أذياله، أو يملأ عينيه من الجمال الآرىّ الذى تزاوجت به خشونة الحسن القوطىّ بالوسامة الرومانية. ما كاد الشعر يحس هذه الأحاسيس، ويمتلئ من هذا الجمال الذى يفتن النفوس ويبهر العيون حتى نسى مقيله بالصحراء وحُداءه بالبيداء ووقوفه على الأطلال وبكاءه على هند وأسماء. حقا إنه كان انتقالا أشبه بالرؤى ترى فى المنام أو بتهاويل السحر تخدع لها الأبصار والأحلام. فُتحت للعرب بين عشية وضحاها كنوز الدنيا ودانت لهم أجمل بقعة فى أوروبا، ورأوا جبالا وأنهارًا وأودية خضرًا وأرضًا كثيرة الثمرات غنية المعادن، ومدنًا أمنع من عقاب السماء عزا وملكا كبيرا. فما لبث الشعر العربى حتى تأثر بهذه البيئة، وظهر فيه طابعها وانعكست عليه صورها، فباح بما يرى وبما يحسّ، ورسم بريشته العربية ما توالى أمام عينيه من مشاهد وما جال فى نفسه من خواطر، وما هيأه له الخيال من روائع وبدائع.

إن كل شىء فى الحياة يؤثر فى غيره ويتأثر به، ويفعل وينفعل. وهذه الصفة فى الأحياء وآثار الأحياء أبين وأظهر، فليس عجبا أن يتأثر الشعر العربى بالبيئة الأوروبية كما تأثر بها رجاله فى كثير من أحوالهم ومظاهر حياتهم. غير أن الشعر العربى مع قوّة التأثير الأوروبىّ فيه وعنفه كان محافظا شديد

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٣/ ٥/ ١٩٤٢.

المحافظة معتزا بخصائصه شديد الاعتـزاز، فتمسك بالأسلوب العربى الصميم وتشبث طويلا بأوزانه وقوافيه وحصر المعين الذى يستقى منه فى ثقافة العرب وعلوم العرب وتـاريخ العرب، وأنِف أن يشذّ عما تواضع عليه شعر المشـارقة أو أن يتخذ غير طريقه طريقا. ولكنـه مع كل هذا لم يستطع أن يفر مما تأثرت به النفس من المشاهد والأجواء والأفكار والأخيلة الغربية، ولم يستطع أن يعيش فى معزل عما تراه العين كل يـوم، وتسمعــه الأذن كل حين. إن العلم يعيش فى كل مكـان، وليس للعلـم وطن ــ كما يقولون ـ ولكن الفنون دائما موضعية محلية، تعبر عما يحيط بها من مظاهر جغرافية وسياسية واجتماعية، وإذا شذت عن ذلك فعبّرت عن بيئات أخرى كان صاحبهـا مقلّدا محاكيا، لا يصور ما يجول في قرارة نفسه.

وفى محافظة الشعـر الأندلسى يقـول نكلسون المستشرق: «إن نظـرة إلى الشعر الأنـدلسىّ فى جملته ترينا أنه لم يتغير عن شعر المشارقة، فقد بقى بقرطبة وإشبيلية على خصائصه ومميزاته التى لم تستطع أن تتخلص منها بغداد وحلب، غير أن الشعـر العربى بالمشرق كما تأثر بـالثقافة الفارسيـة، كذلك تأثر الشعر الأندلسى بالامتزاج التدريجى بين الجنسين الآرى والسـامى، فظهرت فيه طبائع هذين الجنسين وخصائصهما الأدبية. وربما كان من أبرز مميزات الشعر الأندلسى فى الغزل ذلك الشعور الرقيق المرهف الذى جعل الحب قدسًـا طهورًا، والمرأة ملكا كريما. وقـد سبق هذا الشعور أوانه وسبق مـا كان يحسه فرسان القرون الـوسطى بأوروبا نحو المرأة من كرامة وتبجيل. ثم هو من نـاحية أخرى لا يقل فى رفقه ونقائه عمّـا يتغنى به شعراء العصر الحديث من جمال صور الطبيعة ومفاتنها، وبسبب هذه الظاهرة فى الشعر الأنـدلسى مال إليه كثير من أدباء أوروبـا الذين لا يستطيعون إدراك معانى المعلقـات وقصائد المتنبى فى سهولة ويسر». والذى يقصـده نكلسون أن شعراء الغزل بالأندلس كـان أكثر شعرهم يضع المرأة فى موضع القداسـة، وكان لا يند فيه لفظ عما يقتضيه الـذوق السليم والأدب العَفّ النزيه، مثل قول ابن زيدون:

يـا روضــة طـالما أجنت لـواحظنـا ... وردًا جناه الصبـا غضـا ونسرينـا
ويــا حيــاة تملأنــا بــزهــرتها ... منى ضروبــا ولــذات أفــانينــا
ويــا نعيما خطــرنـا من نضــارتــه ... فى وشى نعمى سحبنـا ذيلــه حينـا
لسنــا نسميك إجــلالا وتكــرمــة ... فقــدرك المعتلى عـن ذاك يغنينــا
إذا انفــردت ومـا شـوركت فى صفـة ... فحسبنـا الـوصف إيضاحًـا وتبيينـا

وهذا الـرأى عجيب من الأستاذ نكلسون؛ لأن إجلال المرأة وإحـاطتها بسياج من الـرفق والحنان والحب الظاهر قديم متوغل فى القدم قبل أن يولد أجداد شعراء الأندلس، وهو خلق العرب الأولين، والشعر الجاهلى خفاق بالغزل الشريف، زاخر بإعلاء شأن المرأة، ودعكم مما وضعه الرواة ونسبوه زورا إلى العهد الجاهلى، فهذا عنترة يقول:

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى   حتى يوارى جارتى مأواها

ويقول عمرو بن كلثوم:

على آثارنا بيض حسان   نحاذر أن تفارق أو تهونا
ظعائن من بنى جشم بن بكر   خلطن بميسم حسبا ودينا
أخذن على فوارسهن عهدًا   إذا لاقوا فوارس معلمينا
ليستلبنّ أبدانًا وبيضًا   وأسرى فى الحديد مقرنينا
يقتن جيادنا ويقلن لستم   بعولتنا إذا لم تمنعونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا   لشىء بعهدهن ولا حيينا

ثم جاء شعراء الغزل العفيف فى عهد بنى أمية، كقيس وجميل وكثير وابن الدمينة وغيرهم، فكان غزلهم أنقى من قطرات السحاب، لا يخمش الذوق ولا يحمرّ له خد الفتاة. استمعوا إلى ابن الدمينة حين يقول:

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة   لقد سرنى أنى خطرت ببالك
فلو قلت طَأْ فى النار. أعلم أنه   رضا لك أو مُدنٍ لنا من وصالك
لقدمت رجلى نحوها فوطئتها   هدًى منك أو ضلّة من ضلالك
أبينى أفى يمنى يديك جعلتنى   فأفرح أم صيّرتنى فى شمالك

ثم تمشّى الفساد الخلقى فى الشعر العربى حتى أصبح المجون فيه فنا، ولم يسلم من ذلك كثير من الشعر الأندلسى الذى وصفه نكلسون بما وصفه. ويقول الأستاذ جب فى تأثر الشعر الأوروبى بالشعر الأندلسى: «إنه فى نهاية القرن الحادى عشر للميلاد ظهر فجاءة فى جنوبى فرنسا نوع جديد من الشعر، وإن المحققين فى نهاية القرن الثامن عشر رأوا أن بين هذا الشعر الذى انبثق فى إقليم بروفانس والشعر الأندلسى وجوه شبه قوية لما تجلّى فى غزله من الحب العذرى، ولما طرأ على أوزانه من التغيير الذى يشبه فى نظامه الموشحات الأندلسية».

ويقول المستشرق إستانلى لين بول:

«هُرِع الكثير من الإسبان إلى اعتناق الإسلام راغبين راضين، فامتزج الدينان وعاش الفريقان فى خلطة وصداقة وحسن معاملة، أما النصارى فأخذوا يبغضون لغتهم اللاتينية القديمة ويصدفون عن آدابها، فتعلموا العربية واستطاعوا بعد حين أن يكتبوا بها كما يكتب العرب أنفسهم، وقد ندد القَس يوجوليوس بهذه الحال، إذ يقول: النصارى يولعون بقصائد الشعر العربى وقصصه ومما يوجب الحزن والأسى أن الجيل الناشئ لا يعرف غير العربية، فهو يقرأ كتب المسلمين بشغف، وينشئ لها الخزائن الحافلة، فى حين أنه يبخل بنظرة إلى كتاب مسيحى. ثم يقول: لقد نسى النصارى لغتهم وهم مع

هذا يستطيعون أن ينظموا شعـرًا عربيا رائعا يفوق شعر العـرب أنفسهم»، ثم يقول لين بول فى ازدهار الأدب والشعر بـالأندلس : أمـا الأدب العربى فإن أوروبـا لم تر فى عهد من عهـودها حفـاوة بالأدب وأهله، كما رأت فى الأندلس حين كـان الناس من كل طبقة ينظمون الشعر ويظن أن هـذا الشعر هو الذى أوحـى للشعراء بإسبـانيا بأنـاشيدهم القصصيـة، وهو الـذى حاكـاه شعراء بروفـانس بفـرنسا وترسمت خطاه إيطاليا ولم تكن تعد الخطبة أو الرسالة كاملة إلا إذا تضمنت أبياتا من الشعر الرصين، ويظهر أن كل العـالم الإسلامى بـالأندلس اتجه بـروحانيته إلى آلهة الفنـون، فمن الخليفة فى عـرشه إلى النوتى فى سفينته تسمع النظم الرائق فى مشاهد الأندلس وجمال مدنها ثم فى روعة خرير الأنهار وسحر الليل السـاجى، وقد هـدأت النجوم ثم فى نشـوة الحب والخمر ومجتمع الأنس، وقـد اختلس المحب ساعة لقاء بفاتنته التى ترمى بقوس حاجبها فتصيب حبات القلوب.

إعادة النظر في قرار قياسية فعّل للتكثير والمبالغة(*)

وبعد افتتاح جلسة المجمع فى السبت ٢٠ يناير ١٩٤٥ أعلن أن موضوع اليوم هو إعادة النظر فيما سبق أن أقره مؤتمر المجمع فى الجلسة السابعة بتاريخ ٢٩/ ١/ ١٩٤٤ من جعل صيغة فعّل قياسا للتكثير والمبالغة، وذلك بناء على معارضة فى هذا القرار قدمها الأستاذ أحمد العوامرى إلى مجلس المجمع فى الجلسة السادسة عشرة بتاريخ ٢٠/ ٣/ ١٩٤٤، فرأى المجلس عرض الأمر على المؤتمر.

وقد وزعت على الأعضاء قبل موعد الجلسة بيومين مذكرة قدمها الأستاذ على الجارم فى تأييد قرار المؤتمر، وهذا نصها:

أما قياسيته للتعدية فمفروغ منها لورود نص عن أئمة اللغة بها، وموضع الجدل إنما هو موضوع «فعّل» من الفعل المتعدى للتكثير والمبالغة، وأدعى أن هذا كثير جدا فى لغة العرب حتى لكأنه من سليقتها، وإذا جاز بناء القياس على عشرين مثالا أو دونها، فإن الوارد فى معجمات اللغة من صوغ «فعّل» للتكثير والمبالغة من «فعَل» المتعدى أكثر من ذلك جدا، وقد كفتنى لمحة خاطفة لتدوين الأفعال الآتية:

أبّره	حصّبه	سطّره	قصّ الشعر
أدبّه	حطّمه	سقّفه	قلّبه
أرّخه	حقّره	سكّر الباب	قلّمه
ألّبه	حلّقه	شذّبه	كبّله
أمّله	خبّأه	شقّقه	كتّمه

(*) نشر بمجلة مجمع اللغة العربية ص ٢٢٨.

بذّر الحب	خبّله	شهّره	كسّره
بكّاه	خرّقه	طانه	كفّنه
ثقّبه	خصّه	عبّر الرؤيا	كلّمه
ثلّمه	خضّبه	عدّه	مزّقه
جرّحه	خلّقه	عقّده	مسّحه
جرّده	درّسه	غذّاه	مشّطه
جمّعه	ذبّحه	فجّره	ملّح القدر
حبّر الشيء	رقّعه	فلّقه	نقّطه
حجّبه	راعه	قرّنه في القرن	هدّمه
حدّه	سحّره	قسّمه	هشّمه
ودّعه			

فهذه أمثلة لواحد وستين فعلا متعديا ضعّف للمبالغة، جئت بها للتمثيل لا للاستقصاء، وأظنها كافية للقول بقاسية تضعيف الفعل المتعدى للتكثير والمبالغة.

اقتراح وضع قواعد جديدة يستعان بها

في اشتقاق الأفعال من الجامد للضرورة(*)

قـرر المجمع فى دوره الماضى جـواز الاشتقاق من الجامـد للضرورة فى لغـة العلـوم ، ولما كان هـذا الاشتقاق يحتاج إلى وضع قـواعد جديدة يستعان بها فى اشتقـاق الأفعال، أردت أن أضع اقتراحًا بهذا ليكون موضعًا للبحث، وهو:

الاسم الجامد: إما أن يكون ثلاثيا مجردًا أو مزيدًا فيه، ويصاغ منه فى حاليه فعلٌ ثلاثي بعد حذف الزوائد فى المزيـد، والفعل الثلاثـى الذى يـؤخذ من الجامـد يكون من بـاب نصر، لكثرة هـذا الباب وشيوعه، ويكون لازما ومتعديـا على حسب ما يقصد من معناه، فنقول مثلا: قطنت الأرض تقطن: كثر قطنها. وقطنتها: زرعتها قطنا.

إلا إذا كان الفعل حلقى العين أو اللام فيكـون من باب فتح لازما ومتعديـا أيضًا، على حسب ما يقصد منه، مثل: قمح الأرض يقمحها.

وإلا إذا دل على امتلاء أو خلـو أو لون أو عيب أو حيلة أو مـرض، فيكون من بـاب فـرح لازما، مثل: كبِد فلان يكبَد أى يمرض بكبده.

إلا إذا دل على صفة لها مكث، فيكون مـن باب كرم لازما، مثل كرُش الـرجل يكرش، أى عظم كرشه.

وإذا كان الاسم ربـاعى الأصول أو رباعيـا مزيدا فيـه، مثل درهم وكبريت، اشتق منه على وزن فعلل بعـد حذف الـزائد من المزيد. وإذا كـان خماسيا مثل سفـرجل، اشتقَ منه على وزن فعلل بعـد حذف خامسه.

(*) قدم فى الدورة الثانية للمجمع بالجلسة رقم ٢٤ ونشر فى مجلة المجمع، ص ٣٦٣ عام ١٩٤٥ .

وتلحق الأفعال المشتقة من الجوامد حروف الزيادة للمعانى التى تقصد من زيادتها فى الأفعال المشتقة من المصدر.

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم ـ لقد سبق أن قررنا جواز الاشتقاق من الجامد، ولا فائدة من هذا القرار إلا بوضع قواعد للاشتقاق، فنقول مثلا فى درهم دَرهم، وفى كبريت كبرت.

ومسألة المسائل فى هذه القاعدة خاصة بالفعل الثلاثى فيها. وإذا تهيينا أن نضع قواعد لهذا القرار فكأننا لم نفعل شيئا، والأفعال الزائدة شأنها هين، أما الثلاثية فتختلف أبوابها.

وما دمنا قررنا المبدأ فلا بد أن نجرى إلى أبعد شوط فيه. والاشتقاق من الجامد الثلاثى يستدعى إيجاد فعل ثلاثى، ولا بد أن يكون من باب من أبوابه الستة. وباب نصر هو أكثر الأبوب جريانا على الألسنة، حتى قال بعض العلماء: إذا ما جهلت باب فعل ثلاثى فاجعله من باب نصر.

والذى أراه فى الثلاثى هو أن نلتزم فيه أسلوب العرب، فما كانت عينه أو لامه حرف حلق مثلا جعلناه من باب فتح، كقمح وبلح. وإذا دل على صفة دائمة مثلا يكون من باب كرم، ككرش فلان إذا كان ذا كرش كبير، وهكذا. وإذا رأيتم حضراتكم تناقشنا فى هذا الاقتراح قبل انتهاء هذه الدورة.

المعارضات في الشعر العربي

١ - في العصر الجاهلي

غريزة المنافسة من أقوى الغرائز الحيوانية، وهي في الإنسان أبين منها في الحيوان وأظهر أثرًا؛ الإدراك يزيدها قوة ويستحثها إلى البروز والظهور. وإذا كانت في الحيوان غريزة عمياء، تصدر دافع آلي، ولا تتجه إلى غاية، ولا تعمل إلا عملا تسوقها إليه الفطرة عن غير قصد، فإنها في الإنس غريزة مبصرة متعمدة، تعرف ما تأتي وما تذر، وترمي إلى هدف منصوب، وتركض لتناول القصب ميدان سباق الحياة.

وتظهر المنافسة في أنواع الحيوان المنحط الإدراك في التسابق إلى طلب الغذاء والاستئثار به، ، الفرخ لا يكاد ينقف البيضة، ويتنسم نسيم الوجود، حتى يزاحم إخوته على الطعام، وقد يختط القطعة من منقار منافسه لينفرد بها في إحدى الزوايا الهادئة من الفناء. وأظنك قد شعرت مرارا الدابة البليدة إذا ركبتها فسارت بك منفردة نقلت الخطا بطيئة متثاقلة، وربما زادتها العصا بطئا وتثا وحرانًا. أما إذا ركبتها وكان بجانبها دابة أخرى أنشط منها وأسرع، فإنها تبذل جهد الطاقة في مجا تلك الدابة وتعطيك من النشاط فنونًا لم تكن لك ببال.

هذا شيء مشاهد في الحيوان لا مرية فيه ولا شك، ولو أردنا أن نستطرد فيه أو أن نعدد له الأمث لاتسع نطاق البحث وطال بنا حبل الكلام.

أما غريزة المنافسة في الإنسان فإنها تلازمه ملازمة الظل، وتصاحبه من لدن نشأته إلى منتهى رقدته، وتظهر في كثير من أعماله، وتكتب في سجل القدر ما يكون له من خطر في الحياة وما

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثاني ص ٣٨٣ عام ١٩٤٥.

يكون. فهى فيه بمنزلة القوة الدافعة فى الآلة الميكانيكية، تقدر قيمة الآلة بقدرها قوة وضعفًا، لذلك عنى رجال التربية بتقوية هذه الغريزة فى الأطفال بكل ما وسعهم من ضروب الإغراء، فدفعوهم إلى التغالب فى كل شىء، حتى فى الصراع والملاكمة. وعدوا الطفل الهادئ المستكين القانع بما لديه، الذى لا يمد عينيه إلى أفضل مما هو فيه مريضًا مرضًا نفسيًّا عضالاً، إذا لزمه فى صغره فقد الرجولة الكاملة حينما يشب عن الطوق، وأصبح فسلا خائرًا لا رجاء فيه ولا غناء عنده.

وترتكز غريزة المنافسة على غريزة المحاكاة، أو على غريزة الإحساس بالنقص، فإن الحيوان إذا شهد عملاً حاول أول الأمر محاكاته، لما يجول بخاطره أو خاطر فطرته وجبلته من أنه لا يستطيع أن يأتى بمثله، فيأخذ فى محاكاته مرة بعد أخرى، حتى إذا رأى أنه بلغ فى المحاكاة منزلة لا تقل عن الأصل المحاكى دقة وإحكامًا، تضاعفت فيه الثقة بنفسه، وتملكه الإعجاب بها، وطفق يستصغر فى يومه ما كان يكبره فى أمسه، وأراد أن يرتفع درجة أو درجات فوق من كان أو ما كان يحاكيه ويعده مثلا عاليًا فى الإتقان والإجادة، وهكذا يتنقل الحيوان أو الإنسان من محاكاة إلى منافسة، إلى سبق وتبريز.

هذه المنافسة وهذه المزاحمة بالمناكب للسبق والوصول إلى الغايات، هما سر تدرج الحياة الإنسانية نحو الكمال، وهما سر تطور الحياة من حال إلى حال، وهما سر تنقل التاريخ البشرى فى سلم الارتقاء؛ لأن المنافسة كما تكون فى الأفراد تكون فى الأمم، وإذا تنافست الأمم سعد العالم بكثير من نتائج هذا السباق التى تنهض بالإنسانية وتخفف كثيرًا من ويلاتها.

ويعجبنى بيت من الشعر للشاعر الإنجليزى «روبرت بروننج» Robert Browning وهو :

A mans' reach should exceed his grasp, or what is a heaven for ?

وترجمته :

غـايـةُ المرءِ فـوقَ مـا تصلُ الكَـ ـــفُّ وإلاّ لمن تكـونُ السماء !

هذا تصوير من أدق ما يصوره شاعر للنفس الوثابة والأمل السباق والمنافسة التى لا ترضى بالقليل ولا الكثير، إن صاحب هذه النفس يزهد فى كل ما يستطيع نيله : ويعد صغيرًا كل ما تصل إليه يده، ويأنف من أن يخلد إلى الأرض ويرضى بغاياتها الدنيا، وتثب همته إلى الوصول إلى ما فى السماء من خلد ومجادة. وهذا قريب من بيت «البارودى» :

همامـةُ نفس أرخصتْ كلَّ مطلَبٍ فكلَّفتِ الأيـامَ مـا ليس يُطلبُ

وهو أشبه جدًّا ببيت «شوقى» حين يخاطب الشباب :

واطلبـوا المجـدَ على الأرض فإنْ هى ضـاقتْ فـاطلبـوه فى السماء

«وللمتنبى» الطموح شعر كثير فى هذا المعنى، ولعل أقربه إلى ما نحن بصدده قوله :

ولكنَّ قلبًــا بين جَنْبيَّ مــا لــه ... مَــدًى ينتهى بى فى مُــرادٍ أحُــدُّه

وفى هذا المعنى أقول :

إنّ النفـــوسَ تضيقُ وهـى صغيرةٌ ... ويضيقُ عنهــا الكـونُ وهى كبــارُ

وللمتنبى أيضًا فيما يحوم حول هذا الموضوع قوله :

يقــولـونَ لى مــا أنتَ فى كلِّ بلــدةٍ ... وما تبتغى؟ ما أبتغى جَلَّ أن يُسْمَى!

وقوله :

وشرُّ مـــا قنصَتْــه راحتى قَنَصٌ ... شُهْبُ البُــزاةِ سَواءٌ فيــه والــرَّخَمُ

هذا استطراد موجز دعت إليه الموازنة بين شعر الإفرنج وشعر العرب، لنذلل على أن فيض الإلهام عام ينتظم الجماعات وإن اختلفت الألسنة والألوان، وأنّ توارد الخواطر يكـون فى الأفراد كما يكون فى الأمم، وأن كوكب الفنون يشرق على الشرق والغرب على السواء، ولنقول للشاعر «كبلنج» الذى قال : « الشرق شرق، والغرب غرب فلن يجتمعا » إنهما يـاسيدى يجتمعان فى كثير : يجتمعان فى العلوم، فإن الشرق فى العصور الوسطى كان أداة الاتصال فى نقـل فلسفة اليونان إلى أوربا، ويجتمعان فى الفنون، الأندلس، وهى شرقية فى كل شىء إلا فى موقعها الجغرافى، نقلت فنون الشعر والنقش والموسيقى إلى أوروبا، ويجتمعان فى العواطف؛ إنهما أدركا بعد لأى أن الإنسانية أسرة واحدة وإن تفرقت بها الأوطان وبعدت الديار.

ألا إنّما الأيــــامُ أبنـــــاءُ واحــــدٍ ... وهــذى الليــالى كلُّهـــا أخَــواتُ

نعود فنقول : إن المنافسة فى كل شىء حـافز إلى الرقى، يدفع الهمم إلى السخط على كل ما يمكن أن ينال، وهى إذا سرت إلى الفنـون وصلت بها إلى الأوج. والــذى يعنينـا فى هــذا البحث أن نبين أن المنافســة الفنية فى الشعر دفعت الشعراء إلى مـا يسمى بالمعارضة، والمعـارضة الشعرية مـوضوع خطير الشأن فى الأدب العربى، أردنـا أن نخصه بالبحث فى هذه اللفتـات القصيرة، وأن نعرضه عرضًـا قد يكون جـديدًا فى بابته، وأن نلم بنشأتـه وأسبابه ومميـزاته، ثم بآثاره، وبما أفـاء على الأدب العربى من ثمرات، وما جدد فيه من فنون.

والأصل فى المعارضة أن تكون بين الأحياء حين يدفع الشاعر إلى معارضة شاعر آخر ما يحس به فى نفسه من قوة وما يجيش فى صدره من رغبة فى التحدى وحب الغلب، فهو رجل معتز بفنه، واثق الثقة كلها من تمام تمكنه منه وتحكمه فيه. وفى هذا ضرب من الأثرة وحب الانفراد بالكمال، فهو لا يريد أن يرى له فى شعره قريعًا أو مثيلا. وكثيرًا ما كان يسير « امرؤ القيس » فى أحياء العرب، ومعه أخلاط من شذاذهم من « طيىء » و « كلب » و « بكر بن وائل » وقد زهاه الشباب، وأفسده الفراغ والجدة، وملأه

الغرور والزعم بأنه أشعر شاعر رددت صوته جزيرة العرب. فكان يتحدى كل شاعر، ويياتن كل قوال، وينافر كل من توهم أنه قد يزحزحه عن عرش شعر. يروى أن امرأ القيس لقى التوأم اليشكرى فقال له: إن كنت شاعرًا فأجز أنصاف ما أقول. فقال التوأم: قل ما شئت.

فقال امرؤ القيس	:	أحارِ ترى بُرَيْقًا هب وَهْنًا
فقال التوأم	:	كنار مجوسَ تستعر استعارًا
فقال امرؤ القيس	:	أرقتُ له ونام أبو شُريح
فقال التوأم	:	إذا ما قلتُ قد هدأ استطارا
فقال امرؤ القيس	:	كأن حنينه والرعدُ فيه
فقال التوأم	:	عشارٌ وُلّهٌ لاقت عشارا

وهكذا يستمران حتى يعجز امرؤ القيس عن إعجاز التوأم، فيلقى السلاح ويحلف أن لا ينازع أحدًا الشعر بعده. وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فإنها تصور نازغة غلابة تجيش بنفس كل معتز بفنه. ومما يحسن التنبه له هنا أن امرأ القيس عن قصد أو غير قصد، أو لأنه هو البادئ بالمماتنة، اختص نفسه بصدور الأبيات التى تخلو من صعوبة القافية، ثم إنه كان يتعمد وضع العقبات أمام التوأم، إما بالإتيان بما يتطلب التشبيه على البديهة، وإما بالإتيان بأحد طرفى التشبيه وترك التوأم يبحث عن الطرف الآخر.

ومن المعارضة فى الجاهلية ما رواه أبو عبيدة قال: كان امرؤ القيس قد تزوج امرأة من طئ حين كان جارًا لهم، فنزل به علقمة الفحل التميمى فقال كل واحد منهما لصاحبه: أنا أشعر منك. وتحاكما إلى زوج امرىء القيس، فأنشدها امرؤ القيس قصيدة طويلة أولها:

خليلىّ مرّا بى على أمّ جندب   لنقضى لبانات الفؤاد المعذّبِ

ثم أخذ فى وصف حصانه فأطال، ومما جاء فى هذا الوصف:

فللسّوط ألهوبٌ وللسّاق درّة   وللزجر منه وقع أهوج متعبِ

ثم أنشدها علقمة قصيدة طويلة من البحر والقافية أولها:

ذهبتِ بنا فى الهجر فى غير مَذْهبِ

ووصف فرسه أيضًا وهو يطارد الصيد حتى انتهى إلى قوله :

فأدركهنّ ثـانيًـا من عنـانـهِ يمـــر كغيثٍ رائحٍ متحلّبِ

فقالت زوج امرئ القيس لـه : علقمة أشعر منك، قال : وكيف ؟ قالت لأنـك زجرت فرسك، وحرّكته بساقك، وضربته بسوطك، أما فرس علقمة فقد أدرك الصيـد ثانيًا عنانه، لم يضرب بسوط، ولم يزجر بساق، فغضب امرؤ القيس وقال : ليس كما قلت ولكنك هويته فحكمت له .

ويخيل إلى أن أسواق العرب فى الجاهليـة كان بها الشيء الكثير من هذا، وأن الشعراء والنقاد كانوا ينتحون ناحية بعيـدة عن المتاجر وأماكن البيع، فيجتمعون فى حلقة واسعة يتـزاحم عليها الناس من كل صوب، لسماع خير ما ينشد من الشعر ولإرضاء ميولهم بمشاهدة ما يقع بين الشعراء من المعارضة والمنافرة والتحدى، كما نجتمع الآن فى سبـاق الخيـل أو حفـلات الملاكمـة أو المبـارزة بـالسيـوف . والمعارضة الشعرية كالمبارزة فى كثير من نـواحيها : فكما أن المبارزين يجب أن يستعملا سلاحًا من نوع واحد، كذلك الشـاعران يجب أن يتحدا فى البحر والقـافية . وكما أن فى المبـارزة محكمين، كذلك فى المعارضة نقاد محكمون يقضون لمن له السبق والغلب . وكما أن المبارزة قد تنتهى بقتـل أحد المبارزين، كذلك المعارضة الشعرية قد تؤدى إلى موت الشاعـر موتًا معنويًا لا تقوم له قيامه بعده . هذا وسيكون لنا بحول الله حديث عن المعارضة فى صدر الإسلام فى عدد تالٍ .

المعارضات في الشعر العربي (*)

٢ـ في صدر الإسلام

أشرقت الجزيرة العربية بنور الإسلام، وقام ابن عبد الله يدعو إلى الدين وحيدًا أول الأمر، وفى قلة من المناصرين بعد حين، قام يصدع بأمر ربه جريئًا لا يخشى فى الله إيذاء ولا تفنيدًا، فدعا إلى التوحيد، فكانت هذه الدعوة فتحًا جديدًا فى هذه الجزيرة التى مردت على عبادة الأوثان، ثم دعا إلى المساواة وكان شعاره ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [سورة الحجرات: ١٣] فى قوم نفخت خياشيمهم عُبيّة الجاهلية، وطبعوا على التفاخر بالأنساب، ثم دعا إلى هدم كثير من عادات الجهل والعصبية القَبَلية التى رسخت فى نفوس القوم حتى أصبحت من طبائعهم، ومن أخص مميزاتهم. والجاهليُّون أشد الناس جفاء وعنادًا، وأصعبهم قيادًا، وأحرصهم على التمسك بالقديم، فثاروا على النبى الكريم، وسد كثير منهم آذانهم عن سماع الوحى الإلهى، فلما طال به المدى، وطالت أيديهم إليه بالأذى، رأى لتذليل سبيل دعوته ولإرغامهم على الحق الذى عميت أعينهم عن نوره الساطع، أن يحاربهم بسلاحهم، وأن يتحداهم بوسائلهم، ولم يكن لهم إلا وسيلتان: السيف والشعر، فحاربهم بالسيف والشعر. جنّد عليهم جنودًا من أصحابه يقاتلونهم بحدّ السنان، وردّ عليهم من الشعراء جنودًا يصاولونهم بعضب اللسان. رُوى أنه لمّا كان يومُ الأحزاب، ﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا﴾، قال النبى ﷺ: «من يحمى أعراض المسلمين؟» فقال كعب بن مالك: أنا يارسول الله. وقال عبد الله ابن رواحة: أنا يارسول الله. وقال حسان بن ثابت: أنا يارسول الله. فقال النبى ﷺ: نعم اهجهم أنت فإنه سيُعينك الله بروح القدس. وقيل إن رجلاً جاء إلى ابن عباس فقال له: جاء اللعين حسان من الشام. فقال ابن عباس: ماهو بلعين، لقد نصر رسول الله ﷺ بلسانه ونفسه.

(*) نشرت بمجلة «الكاتب» بالجزء الثانى ص ٥٥٤ عام ١٩٤٥.

وكان للمعسكر الآخر من مشركى قريش شعراء مجيدون، منهم: عبد الله بن الزِّبَعْرَى، وعباس بن مرداس، وضرار بن الخطاب، وغيرهم. وقد كثرت المعارضات الشعرية فى هذا العهد، وثار غبارها، وحمى وطيسها، فإذا قال شاعر من المسلمين قصيدة فى الفريق الذى يناصره، أو أشاد بمديحه والمفاخرة به، أجابه شاعر أو شعراء من الفريق الآخر بقصيدة أو قصائد من البحر والقافية، فنهض الشعر من حيث إنه فن، ونهض مرة أخرى من حيث إنه أصبح أداة سياسية للدفاع والهجوم، ونهض مرة ثالثة من حيث إنه ازداد ثروة فوق ثروته بالكلمات الإسلامية الجديدة التى جاءت فى القرآن الكريم، وفى أحاديث النبى عليه السلام.

وإنى ألتقط هذه الفرصة السانحة لأردّ بكل ما فى نفسى من عنف على بعض من كتبوا فى تاريخ الأدب مدّعين أن الشعر هدأ وخبت ناره عند ظهور الإسلام. وقد احتجوا لهذا الرأى القائل بتعليل شعرى جذاب، لأنهم يقولون: إن العرب بهرهم القرآن، وأخذتهم بلاغته، فخرست ألسنتهم وأجدبوا حينًا طويلاً. وهذا كلام يجب أن يطير فى الهواء قبل أن يستقر فى أذنين. إن ذلك الانقلاب العظيم، وتلك الثورة الفكرية الشاملة، وهذا الدين الجديد الذى جاء ليبدّل كل شىء، كان جديرًا أن يثير النزعة الشعرية فى أمة مجدبة الخيال لا تعرف الشعر ولا فنون الكلام، فكيف بأمة طبعت على الشعر وفطرت على البلاغة البارعة التى تصوّر كل ما يمر بها من أحداث؟ إن من يطلع على كتب السّير يملكه الدهش لما يرى من كثرة ما قيل من الشعر من شعراء المسلمين وغير المسلمين على السواء، وأكثر هذا الشعر فى المعارضات التى اتحد بحرها وقوافيها، حتى يحارب كل خصم خصمه بسلاحه.

ويمكن أن يسمّى هذا النوع بالمعارضات السياسية؛ لأن الشاعر لا يتجه فيها لنفسه، ولبيان قوة فنه أولاً وبالذات، بل أعظم ما يكون اتجاهه إلى التغلب على مذهب خصمه، والتفوق عليه فى مجال الفخر والمحامد، أو فى ميدان الهجاء والتنابز.

ولا نريد أن نطيل فى هذا الموضوع بذكر كثير من الشواهد، فإن كتب الأدب تزخر بها وتموج، وبحسبنا أن نأتى بمثالين، نختار أحدهما مما قاله الشعراء فى غزوة انتصر فيها المسلمون نصرًا مؤزّرًا، وهى واقعة «بدر»، ونختار ثانيهما مما قيل فى غزوة «أحد» التى كان يومها بلاءً وتمحيصًا للمسلمين.

قال ضرار بن الخطاب يوم بدر:

عجبتُ لفخر الأوسِ والحَيْنُ دائرٌ ... عليهم غدًا والدهرُ فيه بصائرُ
وفخر بنى النجّار إن كان معشرٌ ... أصيبوا ببدر كلهم ثمّ صابرُ
فإن تك قتلى غُودرت من رجالنا ... فإنّ رجالاً بعدهم سنغادر
وتُرْدى بنا الجُرْدُ العناجيجُ وسْطَهم ... بنى الأوسِ حتى يشفى النفس ثائرُ

وهى طويلة . وقد أجابه كعب بن مالك فقال :

عجبتُ لأمـــر الله والله قـــادرُ ... على مـــا أراد ، ليس لله قـــاهـــرُ
قضى يـومَ بـدر أن نـلاقى معشرًا ... بَغَوْا ، وسبيـل البغى بالنـاس جائر
وقـد حشدوا واستنفـروا مَنْ يليهمُ ... من النـاس ، حتى جمعُهم متكـاثـر
وســارت إلينـــا لا تحاول غيرَنـــا ... بأجمعهـا كعبٌ جميعًـا وعـامـر
وفينـا رسـول الله والأوسُ حـولَـه ... لـه مَعْقِلٌ منهم عـزيـز ونـاصر
وجمع بنى النجّـــار تحت لـــوائه ... يُمشُّـــون فى الماذىِّ والنقعُ ثــائر
فلما لقِينــاهــم وكـلٌّ مجاهــد ... لأصحابه ، مستبسل النفس صابر
شهـــدنـــا بأنّ الله لا ربَّ غيرُه ... وأنّ رسـول الله بـالحق ظـاهـر
وقـد عَـرِيَتْ بيضٌ خفِـاف كأنها ... مقـاييسُ يُـزْهيهـا لعينيكَ شـاهـر
بِهِنَّ أبـــذنـــا جمعَهم فتبـــددوا ... وكـان يـلاقى الحَيْنَ من هو فـاجـر
فكُبَّ أبـو جهل صريعًا لـوجهه ... وعُتْبـة قـد غـادرنـه وهـو عـاثـر
وشيبــةُ والتيمىُّ غـادرن فى الـوغى ... ومـا منهمُ إلاّ بـذى العـرش كـافـر
فـامسَـوْا وفـودَ النـار فى مستقـرِّهـا ... وكلٌّ كفـــور فى جهنـم صـــائر
وكـان رسـول الله قـد قـال أقبلـوا ... فـولَّـوْا وقـالـوا إنما أنت سـاحـر
لأمـــرٍ أراد الله أن يهلكـــوا بـــه ... وليس لأمـــر حمّه الله زاجـــر

ويحسب قارئ هذه القصيـدة أن يرى الفرق العظيم بين شعر الجاهليـة وشعر الإسلام ، وأن يرى تأثر الشعراء الشديد بألفاظ القرآن ومعانيه .

أما فى غزوة أحـد فقد شمِت المشركون بمحمـد وأصحابه ، وقالوا فى هزيمتهـم شعرًا كثيرًا عارضه المسلمون بشعر كثير ، نكتفى فيـه بما قالتـه هنـد بنت عُتبة بعـد أن بقـرت عن كبد حمزة ولاكتهـا فلم تستطع أن تُسيغها ، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها وقالت :

نحن جـــزينـــاكم بيـــوم بـــدرِ ... والحربُ بعـــد الحرب ذات سُعْـــرِ
مـــا كـــان عن عُتبـــة لى من صبر ... ولا أخـــى وعمِّـــــه وبكــــــرى
شفيـت نفسى وقضيـت نَـــذْرى ... شفيتَ « وَحْشِىُّ » غليـلَ صـــدرى
فشكـــــرُ وَحْشِىّ علىّ عمــــرى ... حتـى تــــرِمَّ أعظمـى فى قبرى

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عبّاد بن المطلب فقالت :

خَزِيتِ فى بدرٍ وبعدَ بدرِ ... يابنتَ وقّاعٍ عظيمِ الكفرِ
صبَّحكِ الله غداةَ الفجرِ ... ما للهاشميين الطِّوال الزُّهُرِ
بكلِّ قطاعٍ حسامٍ يفرى ... حمزةُ ليثى وعلىّ صقرى
إذ رام شيبٌ وأبوكِ غَدرى ... فخضَّبا منه ضواحى النحرِ
ونذرُكِ السّوءَ فشرُّ نذرِ

ونعتقد أن الرواة وضعوا شعرًا ومعارضات كثيرة فى هذا العصر، غير أن هذا لا يمنع من كثرة الشعر الذى قيل، ولا يمنع أيضًا من أن النقاد قبلنا ميزوا بين صحيح الشعر ومنحوله. وينبغى لنا أن نسجل ما كان للنساء فى هذه الفترة من الشأن العظيم فى كلا الميدانين : ميدان القتال وميدان السياسة والأدب، مما يقلُّ أن تجد له مثيلاً فى عصر من عصور التاريخ أو فى أمة من الأمم.

فقد قاتلت أمُّ عمارة يوم أحد مع المسلمين : روت عنها أم سعد أنها قالت :

خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعى سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو فى أصحابه، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمى عن القوس، حتى خلصت الجراح إلىّ. ثم قالت أم سعد : فرأيت على عاتقها جُرْحًا أجوفَ له غورٌ، فقلت : من أصابكِ بهذا ؟ قالت : ابن قمِيئة أقمأه الله، لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ، أقبل يقول : دلونى على محمد فلا نجوتُ إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عميرة وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ ، فضربنى هذه الضربة، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات، غير أنَّ عدو الله كان عليه درعان. وسقط لواء المشركين يوم أحد فحملته عَمْرة الحارثية لقريش فاجتمعوا حوله.

وهنا نقف لنتحدث عن المعارضة فى عصر بنى أمية فى عدد يجىء إن شاء الله.

المعارضات في الشعر العربي (*)
٣ - العصر الأموي

هذا عصر الفتن والأحداث، والكوارث العظام، وتقلب القلوب، واللعب بالنفوس، وعهد الملك العضوض، وانتقال الخلافة من رفق الزهاد الناسكين، إلى سيطرة الدهاة المالكين، ثم هو عهد انطلاق العرب من ربقة الوحدة العربية التي قهرهم عليها الإسلام في عهد النبي الكريم والخلفاء الراشدين، فما كادت قبضته تنفرج عنهم أصابعها حتى عادوا قبائل وشيعًا، وفرقًا وأحزابًا، وحنوا إلى نعرة الجاهلية الأولى، وإلى الفخر بالأنساب والتحدث بالمآثر والأيام، ونبشوا ما دفنه الإسلام من أحقاد وترات، وانفصمت تلك العروة الروحية الجميلة التي بذل الدين غاية الجهد في عقدها، وتأليف وحدة محصدة الفتل من أشتات العرب تغزو العالم بقوة الإيمان، وتجبه الدنيا بعقيدة تنهزم أمامها الجحافل.

طلعت الشمس في بداية هذا العصر، محمرة حزينة، تنفث أشعتها دماء متناثرة، وأطرق الإسلام واجمًا وهو يرى أبناءه الذين كانوا جسمًا واحدًا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، يحتكمون إلى السيوف، ويحز منهم المرء رأس أخيه، جذلان مرحًا، كأنه في سبيل الله يجاهد، وفي إعلاء كلمته يجالد، ولكنها الفتنة العمياء، والداهية الدهياء، والرين يغشى القلوب فلا ترى الضلال ضلالا، ولا ترضى الصواب صوابًا.

بدأ هذا العهد بالخلاف بين علي ومعاوية، فسالت دماء عزيزة على المسلمين، ووثب شيطان الفرقة يفتر عن أنياب أفعى، ويحجل حجلان الغراب المشؤوم، ثم خرج كثير من المسلمين على علي

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثاني ص ٦٨٠ عام ١٩٤٥.

لأنه حكم فى دين الله، فنشأت فرقة الخوارج التى عاشت شاغبة ساخطة، لا تريد حكمًا، ولا ترضى عن حاكم، حتى استأصل شأفتها المهلب بن أبى صفرة فى خلافة عبد الملك بن مروان. ثم قام ابن الزبير فى مكة يدعو إلى نفسه، ويطالب بالخلافة، فكان له جند مناصرون. وهكذا انتثر العقد، وانشقت العصا، وانتقض الغزل أنكاثًا، وتفرق المسلمون شيعًا، وتبددوا أحزابًا مخلصين أو غير مخلصين، راغبين فى عرض الحياة الدنيا أو غير راغبين. فإننا نعتقد أن النفس الإنسانية فى هذا الزمان هى النفس الإنسانية فى كل زمان، وأن اتجاه الناس إلى الزعماء فى ذلك الحين، لم يكن كله خالصًا عن محض عقيدة أو اقتناع بمذهب.

والناس من يلق خيرًا قائلون له ... ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل

ومن الناس من يحتال فى أيام الشغب والفتن، فيلبس ثوبًا ذا لونين، ويصطاد فى ماءين؛ فقد رأينا من هؤلاء من يتصل بعلى؛ لأن الصلاة خلفه أخشع، ويحوم حول مائدة معاوية، لأن الطعام على خوانه أدسم. وإنى أشك كثيرًا فى أن مسكينا الدارمى كان صادقًا حين كان يرفع عقيرته بالدعوة إلى مبايعة يزيد بن معاوية ويقول:

بنى خلفاءِ الله مهلاً فإنما ... يبوّؤها الرحمنُ حيث يريد
إذا المنبر الغربىّ خلّاه ربُّه ... فإنّ أمير المؤمنين يزيد

وما أظن أن أعشى ربيعة كان يصور ذات نفسه حين قال:

وفضّلني فى الشعر واللبّ أننى ... أقول على علم وأعرف من أعنى
وأنىَ إذْ فضلت مروانَ وابنه ... على الناس قد فضّلت خير أبٍ وابن

أغلب الظن أن شاعرًا يعيش من فتات قوافيه، لا يحتاج إلى أن يقول على علم، ولا أن يعرف من يعنى. والشعر كالناس، أو قد يكون أبعد منهم نظرًا، وأسرع إلى الفرص اهتبالا، وحاجة الزعماء إلى الشعر والشعراء كحاجتهم إلى تكتيب الكتائب وتجنيد الجنود، فكان لعلى شعراء، ولمعاوية شعراء، وللخوارج شعراء، ثم للزبيريين بعد ذلك شعراء، وأشهر شعراء الشيعة الكميت، ويبرز من شعراء معاوية الأخطل وجرير وابن جعيل، ويحمل لواء شعراء الخوارج عمران بن حطان، ويشيد بآل الزبير عبيد الله بن قيس الرقيات.

وإذا كان للشعر ميزان حرارة، فإن حرارة شعر الأحزاب تنحط وتتدلى كثيرًا إذا قورنت بشعر الصدام والكفاح والنار المتأججة بين شعراء النبى ﷺ وشعراء المشركين؛ ذلك لأن البون بعيد، بين من يقول عن إيمان لاصق بالقلب، أو للنفح عن شرف قديم ممتزج بالدم، ومن يقول لينتصر لمسلم على مسلم، إما لعقيدة واهية، وإما لأجر يناله لقاء ما يقول. فقد أستطيع أن أزعم وأنا مغمض العينين أن شعراء الحزب الأموى لم يرسلوا سهام أشعارهم عن رأى صح عندهم وزنه، أو وضح لديهم برهانه،

ولكنهم كانـوا فى جملتهم أبواقًا مأجورة تنعق هنـا وهناك، وجرائد صفـرًا يوجهها الخليفـة أو صاحب دعايته كما يشاء. وحسبك أن قائد كتيبتهـم كان الأخطل، وهو هـو الذى لا يعنيه من أمـر الخلافة الإسـلامية شىء إلا مـا تدره عليـه من لبن وعسل. أمـا شعراء الشيعـة فكانـوا مخلصين فى غضبهم وبكائهم، ولكن قلوب بعضهم كانت تضعف أمام سيطرة الأموى، وترجف فرقًا من سيفه المسلول. فإذا قالوا نظروا قبـل أن يقولوا يمنة ويسرة، وإذا انزلـق بهم اللسان مـرة أو مرتين باتوا بليلة الملسوع، وأعدوا العدة للفرار. وإذا صح ما نسـب إلى الكميت من رعبه من هشام بـن عبد الملك، وهربه من السجن بعد أن لبس ثياب زوجه، وتركها خلفه تـلاقى من شياطين السجن ما تلاقى، والتجائه إلى قبر معاوية بن هشام، واستنقاذ نفسه بمدح بنى أمية، ثم استمراره فى مدحهم إلى آخر أيامه، علمنا ما يفعل الخوف بالعقائد، وكيف تستل الغرائز شهامـة الرجال. يقولون: إنـه عمل بمذهب التقية، ولكننا لا نفهم كيف تستبـاح هذه التقية إلى آخـر أنفاس الحياة؟ وقـد حدث هذا بعينـه لعبيد الله بن قيس الرقيات شاعر آل الزبير حين أهدر عبد الملك بن مروان دمه، فتنقل مختفيًا فى الأحياء والقبائل، حتى استعاذ ذليلا خانعًا بعبد الله بن جعفر، فسعى للعفو عنه، فلما ظفر بالعفو انطلق يهدر بمدح المروانيين كأنما أطلقت سيلا حبيسًا!

وكان الفرزدق شيعيًا، ولكنه كان لبقًا دوارًا، لا يتخذ من عقيدته حليـة يعرضها على الناس، ولا يجعل من مذهبه شـارة يلصقها بكم قميصه حتى يراهـا كل ناظر، وله شعر كثير فى مـدح بنى أمية، والقصيدة المنسوبة إليه فى مدح على بن الحسين موضوعة فى أغلب الظن.

وأريـد هنا أن أنبـه على حقيقـة يجب ألا يغفل عنها مـؤرخـو الأدب، تلك هى أنه كلما اشتـدت المنازعات الدينية أو السياسية كثر الوضع والانتحال، وقامت مصانع كل حزب تسبك شعرًا فى صور يصعب فيها كشف التـزييف والتزويـر، وأخذت تنسب إلى كل شاعـر من أى فريق شعـرًا يحاكى فيه أسلوبـه، وتبرز مميزاتـه، حتى لقد يخدع فيه بعض صيـارفة الكلام، فيـا أيها الأدباء خـذوا حذركم، وراجعـوا أنفسكم مرات كلما التقيتم بشعـر سياسى أو دينى، وادرسـوا البيئة، والنفـوس الإنسانيـة، وأساليب كل عصر، قبل أن تبتوا برأى أو أن تسرعوا بنفى أو إثبات.

أما شعـراء الخوارج، فقد زهدوا فى الـدنيا وزخرفهـا، وسخطوا على الحكم ورجالـه، وانصرفوا إلى عقيدتهم صحيحة أو فاسدة، يغذونها بأرواحهم ويذودون عنها بسيوفهم وألسنتهم. وسيرة عمران بن حطان رأس شعرائهم سيرة الفوضوى المجاهد الذى باع نفسه لمذهبه. والذى ينطبق عليه بيت المتنبى أصدق ما ينطبق:

تغـــرّبَ لا مستعظمًا غيرَ نفســـه ولا قـــابـــلاً إلا لخالقـــه حكما

وشعـر قطرى بن الفجـاءة يصور الفـدائية والثقـة بالنفس والاستهـانة بـالموت فى أسلوب سـاذج رصين:

وضاربةٍ خدًّا كريمًا على فتى | أغرَّ نجيبِ الأمهات كريمِ
أُصيب بدولاب ولم تك موطنًا | له أرض دولاب وديـر حميم
فلو شهِدتنا يومَ ذاك وخيلُنا | تُبيح من الكفار كلَّ حريم
رأت فتيةً باعوا الإله نفوسَهم | بجنات عدن عنده ونعيم

هكذا كانت حال الأحزاب، وهكذا كانت حال شعرائها، ولقد قيل شعر كثير فى نصرة كل حزب، ولكنه لم يكن شعرًا ملتهبًا متأججًا، حتى إنه لكثيرًا ما كان يفر من الحديث عن الحزبية البحتة إلى حديث المديح والهجاء. ولم تكن المعارضات فى هذا الشعر السياسى شديدة أو كثيرة؛ لفتور نفوس الشعراء، أو لأنهم كانوا مشتتين فى الأقطار بين الشام والعراق والحجاز، ولبعد الشقة بينهم وعسر الاتصال لم تستطع أجنحة الشعر أن تطير خفاقة بين هذه الأقطار.

والذى وعيناه من معارضات الشعر السياسى ما ذكره المبرد من أن معاوية أرسل إلى على كتابًا كتب فى آخره أبياتًا لكعب بن جعيل هى :

أرى الشامَ تنكر مُلْكَ العراق | وأهلَ العراق له كارهينا
وكلاًّ لصاحبه مبغضًا | يرَى كلَّ ما كان فى ذاك دينا
إذا ما رمَوْنا رميناهمُ | ودنَّاهُم مثلَما يُقرضونا
فقالوا علىٌّ إمامٌ لنا | فقلنا رضينا ابنَ هند رضينا
وقالوا نرَى أن تَدينوا له | فقلنا ألا لا نرى أن نَدينا
ومن دون ذلك خرطُ القتاد | وضربٌ وطعنٌ يُقرُّ العيونا

فكتب إليه علىّ جواب رسالته، ثم دعا النجاشى أحد بنى الحارث بن كعب، فقال له : إن ابن جعيل شاعر أهل الشام، وأنت شاعر أهل العراق، فأجب الرجل فقال : يا أمير المؤمنين أسمعنى قوله، قال : إذن أسمعك شعر شاعر، فقال النجاشى يجيبه :

دَعا يا معاوىَ ما لا يكونا | فقد حقّق الله ما تحذرونا
أتاكم علىٌّ بأهل العراق | وأهل الحجاز فما تصنعونا ؟

لا نجد كثيرًا من المعارضات القوية السياسية فى هذا العهد، ولكنا نجد نوعًا آخر طريفًا، ابتكره معاوية، وجرى الخلفاء بعده على أثره، فقد أحيوا العصبية بعد أن أخمد الإسلام نارها، وأرثوا العداوة بين الشعراء، وأثاروا بينهم عاصفة من التهاجى والإقذاع، حتى يصرفوا الناس عما أحدثوه من أحداث، وحتى يبعثوا روح الجاهلية الأولى، التى كان لهم فيها مجد عريق، وشرف ورياسة، وحتى يجدوا لأنفسهم فيما يتنابز به الشعراء ملهاة، كما يتسلى المترفون بمهارشة الديكة، ومناوشة الكلاب، وحتى يقفوا بينهم موقف المحكمين، ليرفعوا من تشاء السياسة رفعه.

وقد كثرت المعارضة الشعرية فى هذا النوع، وطمى سيلها، وهى التى نسميها بالمعارضة الهجائية، ولا يقصد بها إلا المباراة فى فنون الهجاء المقذع، والتباهى بمجد الجاهلية وأحسابها وأيامها، ونبش ما دفنه الإسلام من مثالب القبائل فى عهودها الأولى.

فقد ثارت حرب الهجاء ضروسًا طاحنة بين جرير والفرزدق والبعيث المجاشعى، وسبب ذلك أن ناسًا من يربوع يقال لهم بنو ذهيل سرقوا إبلا للبعيث فقال جرير قصيدة طويلة يهجو بها البعيث أولها:

طـاف الخيـال وأين منك لمامـا ... فـارجع لـزورك بـالسلام سـلامـا

فثار البعيث وعارضه بشعر مر الهجاء أوله:

أجـريـرُ أقصر لا تَحِنْ بك شِقْـوَةٌ ... إنّ الشقى تـرى لـه أعـلامـا

وكان الفرزدق فى ذلك الحين، قد قيد نفسه، وحلف أن لا يطلق قيده حتى يحفظ القرآن، ولكن هجاء جرير للبعيث أقض مضجعه، وأثار فيه نازعة النجدة ففك قيوده، وهب ينتصر للبعيث بقصيدة أولها:

ألا استهـزأت منى هُنَيْـدة أنْ رأت ... أسيرًا يـدانى خطـوَه حَلَقُ الحِجْل

وتبعه البعيث بأخرى يهجو جريرًا:

أهـاج عليك الشـوقَ أطلالُ دمنـة ... بنـا صفـة الجوّيْن أو جـانب المَجْل

فانبرى لهما جرير بقصيدة مطلعها:

عـوجى علينـا واربعى ربـةَ البعل ... ولا تقتلينـى لا يحِلُّ لكـم قتلى

فرماه الفرزدق بأخرى أولها:

ألا حىّ رَهْبَى ثم حىّ المطـاليـا ... فقـد كـان مأنـوسًا فأصبح خـاليـا

ويرى البـاحث فى هذه المعارضـات أو النقائض أنها ابتدأت ببحـر الكامل، ثم انتقلت إلى بحـر الطويل، والتزمت فيه قافية واحدة، حتى نقلها الفرزدق إلى قافية أخرى، وهو ضرب يعمد إليه المعتز بفنه فى المباراة للعبث بالخصم وإعجازه وتحديه.

وكان من أسباب اشتعـال المهاجاة، وتأجج المعـارضة بين الفـرزدق وجريـر ما رواه الـرواة من أن الأخطل فضل الفرزدق على جرير أمـام بشر بن مروان أمير الكوفة، وأرسل قصيدة طويلة يعلن فيها هذا التفضيل أولها:

بكـر العـواذل يبتـدون مـلامتى ... والعـاذلون فكلُّهم يَلْحـانـى

وفيها يقول:

قَبّح الإلـــــه بنى كليب إنهم — لا يحفظـون محــــارم الجيـــران
تـــاج الملـــوك وفخـــرهم فى دارم — أيـــامَ يـربـــوع مع الـرُّعيـــان

فأسرع الفرزدق يعاضده فى هجاء جرير:

يـابن المراغـة والهجـاء إذا التقت — أعنـــاقُـــه وتماحـك الخصمان
يـابن المراغـة إنّ تغلـب وائـل — رفعـوا عَنـانى فـوق كل عَنـان

فصال عليهما جرير يقول :

لمن الـديـار ببُرْقـة الـرَّوْحـان — إذ لا نبيع زمــاننـا بـــزمـــان

وفيها يخاطب الأخطل :

أنسيتَ ويـلَ أبيك غـدرَ مجاشع — وبجرّ جِعْثِنَ ليلـــة السِّيـــدان ؟
ونسيت أَعْيَنَ والـرِّبـابَ وجـاركم — ونـوار حيث تصلصـل الجِجـلان !

يقـول للأخطل: أنسيت غـدر مجاشع، وهى قبيلـة الفرزدق، بـالزبير بـن العوام حين استجـار بمجاشعى بعد وقعة الجمل، ثم يذكر بعد ذلك حادثة غريبة، هى أن غالبًا أبـا الفرزدق جاور طلبة ابن قيس بالسيدان، وكانت جعثن أخت الفرزدق صديقة لظمياء بنت طلبة تتحدث إليها كل ليلة، وكـانت إذا أرادت لقـاءهـا صفقت لها بحجل لتجىء إليها، فـاشتهى الفرزدق أن يلتقى بظميـاء، وحدث أن شغلت أخته ليلـة بأمر نفسها، فأخذ حجلهـا وحركه فجاءت ظميـاء كعادتها، فارتابت بالفرزدق وصاحت، وعادت إلى رحلها، فلما علم فتيان الحى من أهلهـا أسرعوا فأخـرجوا جعثن من خبائها، ثم سحبوها ليشهروا بها.

وكـان من ضروب إثـارة المنـافسـة والمعارضـة بين الشعـراء، مـارواه أهل الأدب من أن الفـرزدق والأخطل وجريرًا كـانوا فى حضرة عبد الملك بن مروان، فأحضر بين يديه كيسًـا فيه خمسمائة دينار، ثم قال: ليقل كل منكم بيتًا فى مدح نفسه، فأيكم غلب فله الكيس، فبدأ الفرزدق فقال:

أنـا القَطِـرانُ والشعـــراء جَـرْبَى — وفى القطـــران للجـــرْبَى شفـــاء

وقال الأخطل:

فـإن تـك زقّ زاملـــــــةٍ فـإنى — أنــا الطـاعـــون ليس لـــه دواء

وقال جرير:

أنـــا الموت الـــذى آتـى عليكم — فليس لهارب منـى نجـــــــاء

فقال عبد الملك: لعمرى إن الموت يأتى على كل شىء، وقضى له.

ويروون أن الفـرزدق قال فى هـذا المجلس: النوار طـالق إن لم أقل شعرًا لا يستطيع ابـن المراغة أن ينقضه أبدًا، ولا يجد فى الزيادة عليه مذهبًا، فقال عبد الملك: ماهو؟ فقال :

فإنى أنـــا الموت الـــذى هـــو واقع　　　بنفسك فـانظـر كيف أنت مـزاولـه
ومــا أحـــد يـــاابن الأتـــان بـوائل　　　من الموت إن الموت لاشك نـــائلـــه

فأطرق جريـر ثم قال : أم حزرة طالق ثلاثًـا إن لم أكن نقضته ورددت عليه، فقال عبد الملك : هات فقد والله طلق أحدكما لا محالة، فقال :

أنا البدر يغشَى نورَ عينيك فالتمس　　　بكفَّيك ياابن القَيْن هل أنت نائله ؟
أنا الـدهر يفنَى الموتُ والدهرُ خـالدٌ　　　فجئنى بمثل الـدهـر شيئًا يطـاولـه

فقال عبد الملك : فَضَلك والله ياأبا فراس وطلق عليك.

تلك روايات تصدقُ أو لا تصدقُ، ولكنها من ذخائر الأدب وطرائفه على أى حال، وحسبنا هذا القدر من المعارضـة الشعرية فى هذا العصر، وسنتحدث عن المعـارضة فى العصر العبـاسى فى عدد يجىء إن شاء الله.

المعارضات في الشعر العربي (*)

٤ ـ العصر العباسي

وهذا عصر كل ما فيه جديد، فهو جديد فى اتجاهه العربى، جديد فى سياسته، جديد فى روحانيته وفلسفته، جديد فى مدنيته. أو قل هو جديد فى كل شىء، فإنك إذا وازنته بالعصر الأموى، وبخاصة الصدر الأول منه، رأيت حضارة جديدة، وأخلاقًا جديدة، وصنفًا من الناس جديدًا.

انتُزِعت الخلافة الإسلامية من براثن الأمويين بسيوف الفرس ورماحهم، فركن العباسيون إلى سياستهم، واتخذوا منهم وزراء وقوادًا، وفتحوا لهم أغلاق أسرارهم، فدخلوا إليها من كل باب. ولم ينس الفرس، أو طائفة منهم، أن العرب هم الذين ثلوا عروشهم، وأذلوا تاريخهم الحربى المجيد. ثم إنهم لم ينسوا ما مُنوا به من الاضطهاد فى عهد بنى أمية، لذلك ناصروا بنى العباس وعملوا جاهدين فى بطء وحذر أن يستلوا النفوذ والسلطان من أيديهم قليلاً قليلاً.

وقد نام العباسيون وهم فى سكرة الأمل، والتعطش إلى الملك، وشفاء أضغان قديمة أركدتها سماحة الإسلام فى صدورهم حينًا، عن هذا الخطر واستغشوا ثيابهم دون رؤية أشباحه وتهاويله. ولم يهمس فى أذنهم ذلك الخاطر الذى جال بصدر المتنبى بعد مائتين من السنين:

ومن يجعل الضُّرْغام بازًا لصيده ... تصيّده الضُّرْغام فيما تصيّدا

ولم يصيخوا إلى قول نصر بن سيار:

أبلغ ربيعة فى مرْوٍ وإخوتهم ... فليغضبوا قَبْلَ أن لاينفع الغضبُ
ولينصِبوا الحربَ إن القوم قد نصبوا ... حربًا يُحرّق فى حافاتها الحطبُ

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثانى ص ٨٤٩ عام ١٩٤٥.

مـا بـالكم تُلقِحـون الحربَ مُـذْنكُمُ | كأنّ أهل الحجـا عـن رأيكم عُـزُبُ
وتتركــون عــدوًّا قــد أظلّكُمُ | بما تـأشّـب ، لا ديـنٌ ولا حسـبُ
قِـدْمًا يـدينـون دينًـا ما سمعت بـه | عن الـرسـول ولم تنـزل بـه الكتبُ
فمن يكن سـائلاً عـن أصل دينهم | فـإن دينهُمُ أن تُقْتـل العــربُ !

وتيقظ المنصور للأمر الداهم وتوهم أنه أدركه، واهتز منه عرش الرشيد وظن أنه استأصله، ولكن هيهات هيهات !

تغلغل الفرس فى الدولة العباسيـة فأصبحت فارسية إلا فى شعارها، كسروية إلا فى رايتها، وفتنوا الناس بمدنيّة الفرس، وأدب الفرس، وبالمال ينثـر هنا وهنـاك، فاجتذبوا القلوب، وأذلوا أعنـاق الرجال، وكانت لهم دولـة فى الدولة، وملك فى الملك، وجند وحاشية وشعـراء وعزّ وسلطان. وكان الخلفاء قد مدّوا لأنفسهم فى أسباب اللهو والعبث، وسحروا بالمدنيّة الجديدة فاستناموا إلى اللذات، وتفنّنوا فى النعيم، وتركـوا لهم شؤون الـدولة ينقضـون فيها مـا يشاؤون ويبرمـون. واهتزت القصـور بالموسيقى والرقص والغناء، وثملت مجالس الشراب بما فيهـا من عربـدة ومجون، وكأن كـل شىء فى بغداد كان يردد قول أبى نواس :

إنمـــا العيش سمـــاعٌ | ومُـــدام ونـــدامُ
فـإذا فـــاتـك هـــذا | فعلى الـــدنيــا الســلام !

وأصبح للقيان الملك والسلطان من دون الخليفة، فسمعنا الرشيد يقول بما يزعم الرواة :

مَلكَ الثـلاث الآنسـات عنـانى | ونــزلن من قلبى بكل مكـــانِ
مـــا لى تطيعنىَ البرّيــة كلُّهـــا | وأطيعهـنّ وهنّ فى عصيــــانى
مـــا ذاك إلا أن سلطـــان الهوى | ـ وبه قوين ـ أعـزُّ من سلطـانى

ثم سرت الفتن فى أحشاء الـدولة وأوصالها كلما أطفئت فتنـة تأججت أخرى. وكانت هذه الفتن تظهر أول الأمر فى صورة خلاف دينى أو مذهبى، ولكنها لم تكن فى الحقيقة إلا محاولـة أجنبية لانتزاع الحكم من أيدى العرب. أما هؤلاء فكـانوا فى نشوة من الملك والسلطان غـافلين سادرين، ولم تكن حياتهم اللاهية العابثـة الماجنة إلا نذير الفناء، وطلائع البلاء. وهذه كارثـة الأمم العربية التى هيأت لابن خلدون أن يـؤلف من نكباتها المتلاحقة فلسفـة وكتابًا، فإن الاستعصام بالأجنبى والاستقواء به مصيبة لازمت ممالك الإسلام منذ هذا العهد، فكانت أمّ قيحها ومصدر بلائها ومعول انهيارها.

استعان بنو العباس بالفـرس ثم بالأتراك فدالت دولتهم وذهبت ريحهم، وأصبح الخليفة العربى الهاشمى كما يقول الشاعر :

خليفـــــة فى قفــــص | بيـــن وصيـــف وبغـــا
يقـــول مـــا قـــالا لـــه | كما تقـــول البَبْغـــا

واستعان الفاطميون بالأرمن أيام خلافة المستنصر بالله فتمزق ملكهم بددًا، وجلب الصالح بن أيوب المماليك ليناصروه فقضوا على دولة الأيوبيين. أما الأندلس فلا تزال العين تدمع من أجلها على ملك كان زينة الدنيا وحديث الدهور.

هكذا نشأت الدولة العباسية، وفي هذا الجو المائج بالخداع والدسائس والمدنية الخلابة ترعرعت، وفيها نشأ الشعر صورةً من حياتها، مشتقًا من أفئدة الناس وميولهم ونزواتهم، نشأ الشعر فيها ساخطًا على القديم، منددًا به، بعد أن بهرته حضارات الأمم المغلوبة، ولعبت بعقله تلك الإباحية التى نعم الناس فى ظلالها بكل ما فى الحياة من متع وفتن وإغراء. فقد رأى الشعراء فى البساتين الضاحكة ما أسخطهم على الصحراء العابسة، وفى القصور الشامخة ما أنساهم الرسوم والأطلال، وفى مجالس الخمر والقيان ما بغّض إليهم ذكر هريرة وبَوْزع، وفى ترجمة علوم الأولين ما فتح عقولهم لدنيا من الثقافة جديدة. ووجدت الشعوبية فى الشعر ميدانًا فسيحًا للنيل من العرب، والتهكم بهم والإزراء بمحامدهم، وتشويه مآثرهم، ولم يغضب الخلفاء لقومهم ولم يقفوا لصد هذا الاضطهاد الأدبى الذى يتخوّن مجدهم. أين هذا من تعصب الأمويين للعرب وإسكات كل صوت يهمس بمجد غير مجد العرب؟ فإن إسماعيل بن يسار ما كاد ينشد أمام هشام بن عبد الملك قوله:

إنى وجَدِّك ما عودى بذى خَوَرٍ ... عند الحفاظ، ولا حوضى بمهدوم
أصلى كريم، ومجدى لا يُقاس به ... إلى لسان كحدِّ السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسبٍ ... من كلِّ قَرْمٍ لتاج الملك معموم
مَنْ مثلُ كسرى وسابورَ الملوك معًا ... والهُرْمُزانِ لفَخرٍ أو لتعظيمِ ؟!

حتى برقت عينا هشام من الغضب وقال: أعلىّ تفخر؟ وإياى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك؟ غطوه فى الماء، فغطوه حتى كادت نفسه تخرج. والحق أن ابن يسار كان موغلاً فى الصفاقة وقلة الذوق، وكانت بلواه أنه لم يعرف أن لكل مقام مقالاً، هكذا كانت الحال فى عهد بنى أمية. ولكنّ الشعر فى هذا العصر نال حرية فوق ما كان يجب أن ينال، وكان أكثر الشعراء من الموالى الناقمين من العرب، وعلى رأسهم بشار وأبو نواس والخريمى، فأصبحنا نسمع بشارًا يقول:

نمت فى الكرام بنى عامرٍ ... فروعى، وأصلى قريشُ العجمْ!

ويقول:

من خُراسانَ وبيتى فى الذُّرا ... ولدى المسعاة فرعى قد سَمَقْ

وسمعنا منهم من يقول:

فلستُ بتاركٍ إيوانَ كسرى ... لتُوضح أو لحَوْمَلَ فالدَّخُولِ
وضبٍّ فى الفلا ساعٍ وذئبٍ ... بها يعوى، وليثٍ وَسْطَ غِيلِ

ومن يقول :

بنى هـاشم عـودوا إلى نخـلاتكم ... فقد صـار هذا التمر صاعًـا بدرهم
فـإن قلتمُ رهـطُ النبىِّ محمـــدٍ ... فإنّ النصارى رهطُ عيسـى بن مريمِ

أما المتوكلى، وهو من ندماء الخليفة المتوكل، فقد بلغ الغاية فى النفج :

أنــا ابـن الأكــارم من نسـل جَمْ ... وحــائزُ إرث ملــوك العجم(*)
فقـل لبنـى هــــاشـم أجمعينَ ... هلمّــوا إلى الخلع قبل النـــدمْ
ملكنـاكُـمُ عَـنْـوةً بـالـرمـا ... ح طعنًــا وضربًـا بسيف خَـذِمْ
وأولاكـم الملكَ آبـــاؤنـــا ... فما إن وفيتـم بشكـــــر النعـمْ
فعــودوا إلى أرضكم بـالحجـازِ ... لأكـل الضِّبـــابِ ورعى الغنـمْ
فإنـى سأعلــو سريـــر الملـوكِ ... بحـــدِّ الحســام وحـــرف القلمْ

وهذا المذهب الشعوبى إصبعٌ من أصابع الغزو الأجنبى البطىء المستور، فقد كان لأعداء العرب جماعة تشبه فى عصرنا الحاضر (وزارة الدعاية) وكانت النزعة الشعوبية أمضى أسلحتها، وأنفذ سهامها، فأطلقوها فى صور شتى من الشعر والتأليف والقصص الدالة على بلاهة العرب وجهلهم، ثم دسوا سمومهم فى التفسير والحديث .

تمرد الشعراء فى هذا العصر على القديم، وسخِر كثير منهم من الشعر الجاهلى، وتندروا بأغراضه، وهزؤوا بنؤيه وأطلاله . وفى الحق إن معظم الشعر نحا فى هذا العصر منحىً غريبًا، ولم يكن عربيًا إلا فى ألفاظه وأسلوبه، أما فنونه التصويرية فكانت بدعًا جديدًا . لذلك لم يكن ليظن، وقد وصل الشعراء إلى قمة هذا الترف الفنىّ، وبلغوا هذه المنزلة من الاعتداد بأنفسهم، والزراية على من سواهم، أن تحدث أحدًا منهم نفسه بمعارضة الشعر الجاهلى أو الأموى، لأن المعارضة لا تكون إلا فى إحدى حالين : الرغبة فى تحدى القوى، أو الفلَج على الخصم فى الجدال الدينى أو السياسى . أما فى الأولى فقد عرفنا نظرتهم إلى الشعر والشعراء قبلهم، وأما فى الثانية فإن استقرار صخرة الإسلام وانتهاء الأمر إلى بنى العباس جملة لم يترك إلا حزبية ضئيلة . وإذا كان بالدولة أضغاث من نصراء الأموية أو العلوية فإن الخوف وقلة النصير لم يدع لهم إلا صوتًا خافتًا .

والمعارضات إنما تزدهر وتكثر بين عواصف الخلاف العنيف، ولم يكن فى صدر هذه الدولة شىء مما يثير المعارضة إلا ذلك الصراع القومى بين العرب والفرس، وكان فى أكثره شعرًا يتساقط من أحد الجانبين من غير أن يُلتزَم فيه اتحاد البحر والقافية، وكان يسلك أحيانًا سبيل المعارضة المعروفة، كما جرى بين عبد الله بن طاهر (من الفرس) ومحمد بن يزيد (من العرب) . قال عبد الله بن طاهر يتغنى بمآثر أهله ويفخر بقتلهم الأمين العباسى :

(*) جم : جمشيد ملك الفرس .

أقصرى عما لهجْتِ بـــــه ... ففـــؤادى عنكِ مشغـــولُ
أنـــا من تـــدرين مـــا نسبى ... سلفى الغـــرُّ البهـــاليلُ
وأبى مـن لا كِفـــاءَ لـــه ... من يســاوى مجده ؟ قــولــوا !

فعارضه محمد بن يزيد بقوله :

لا يَــرُغْـكَ القـــالُ والقيلُ ... كـل مـــــا بُلِّغْتَ تضليلُ
يـاابن بيتِ النـار ، مـوقـدُهـا ... مـــا لحاذَيْـــه سراويلُ(*)
مَنْ حسينٌ ؟ من أبـــوك ؟ ومن ... مُصْعبٌ ؟ غـــالتكُمُ غُـــول !

وهذا شعر ضعيف خائر لم يتفجر عن روية شعرية حاذقة .

وقد أثـار الخلاف فى أحقية بنى العبـاس بالخلافـة دون بنى علىّ شيئًا مـن الشعر الجدلى ، وقامت حول ذلك معـارضة بين الشعراء ، وكـان من أكبر دعاة العبـاسيين مروان بن أبى حفصـة ، فقد قال قصيدة يمدح بها المهدى حينما عقد البيعة لابنه الهادى جاء فيها :

يـاابن الــذى ورث النبىّ محمـدًا ... دون الأقـارب مـن ذوى الأرحـامِ
الــوحىُ بين بنى البنـات وبينكم ... قطع الخصـامَ فـلاتَ حينَ خصـامِ
مـا للنسـاء مع الـرجـال فـريضـةٌ ... نـزلـت بـذلك سـورة الأنعـامِ
خلُّـــوا الطـريق لمعشرٍ عـاداتهم ... حَطْمُ المنـاكب كلَّ يـوم زحـامِ
ارضُـــوا بما قسم الإلـــهُ لكم بــه ... ودعـوا وراثـة كلِّ أصيدَ حـامى
أنّى يكـــون وليس ذاك بكـــائن ... لبنـى البنـــات وراثـــةُ الأعمامِ

وحنق شيعة أبناء فاطمة من هذه القصيدة ، وكان أشد ما غاظهم منها قوله :

أنّى يكـــون وليس ذاك بكـــائن ... لبنـى البنـــات وراثـــةُ الأعمامِ

روى صاحب الأغانى : أن صالح بن عطية لما سمع منه هـذا البيت عاهد الله أن يغتاله ، فلم يزل يلاطفه حتى أنس به ، ثم مرض مروان بالحمى ، فخلا البيت يومًـا به وبصالح ، فوثب عليه صالح حتى أخذ بحلقه ، فما فارقه حتى مات . وتابع ابنَ أبى حفصة الطاهرُ بن على العباسىّ فقال :

لـو كـان جـدُّكُـم هنـاك وجـدُّنـا ... فتنــازعــا فيـه لـوقت خصـامِ
كـــان التراث لجدِّنـــا مـن دونــه ... فحـواه بــالقُـربَى وبـالإسـلامِ
حقُّ البنـــات فـريضـةٌ معلـومـةٌ ... والعـــمُّ أوْلى مـــن بنـــى الأعمامِ

وهبَّ الشعراء يعارضون هذا الشعر بشعر كثير ، منه ما قاله محمد بن يحيى التغلبى :

(*) الحاذان : ما وقع عليه الذنب من أدبار الفخذين .

لِمَ لا يكـــون ، وإنّ ذاك لكـــائن لبنى البنـــات وراثـــة الأعمـــامِ
للبنت نصفٌ كـــامل من مـــالـــه والعـــمُّ متروكٌ بغيـــر سهـــامِ
مـــا للطليـــق وللتـــراثِ وإنمـــا صلّى الطليـــق مخافة الصَّمْصـــامِ

ويشير فى البيت الأخير إلى أن العباس بن عبد المطلب كان مع المشركين يوم بدر، ثم أسر فافتدى نفسه. والمسألة كلها مغالطة سافرة، ومناظرة اختلف فيها اتجاه النظر. فالعباسيون يرون أن ابن العم، وهو على بن أبى طالب، لا يرث النبى مع وجود عمه العباس، والعلويون لا يحتجون بعلى وإنما ينظرون إلى فاطمة الزهراء وإلى ولديها الحسن والحسين، ويرون أن البنت فى الميراث أقرب من العم.

وقد استمرت هذه الحجة بيد العباسيين يلوحون بها كلما حدّثت علويًا نفسه بالخلافة، حتى جاء عبد الله بن المعتز فشد من أواصرها وقوى من أركانها بقصيدته الرائعة الغاضبة التى يقول فيها:

ونحـن ورِثْنـــا ثيـــابَ النبىِّ فَلِـمْ تجذبـــون بـأهـــدابها ؟
لكـم رَحِمٌ يـــابنى بنتـــهِ ولكـن بنـــو العـم أولى بها

ثم يقول:

قتلنـــا أميـــة فى دارهـــا ونحـن أحق بـأســـلابها
إذا مـــا دنـــوتم تلقَّيْتُمُ زَبـــونًـــا أمَـرَّت بجـــلاّبها

ومازالت هذه القصيدة تجتاب السنين بلا معارض، حتى جاء صفى الدين الحلى فسأله نقيب نقباء الأشراف ببغداد أن يعارضها فقال:

ألا قُـل لشرِّ عبيـــد الإلـــهِ وطـــاغى قـــريش وكـــذّابها
وبـاغى العنـاد وبـاغى الفسـادِ وهـــاجى الكـــرام ومغتـــابها
أأنـت تفـــاخـــر آل النبىِّ وتجحـــدهـــا فضل أحســـابها ؟
أعنكـم نفي الـــرجس أم عنهـم لطُهْـــرِ النفـوس وإلبـــابها ؟(*)
وقلتَ « ورِثْنـــا ثيـــابَ النبىِّ فَلِـمْ تجذبـــون بـأهـــدابها »
وعنـــدك لا تـــورث الأنبيـــاءُ فكيـف حظيتم بـأثـــوابها ؟

ثم كان من أسباب المعارضة فى صدر هذا العصر أن يهجو شاعر عظيما فيعارضه أحد الشعراء المنتمين إلى ذلك العظيم، ونحن نوجز هنا مارواه صاحب « الكامل » فى شأن عبد الله بن محمد بن أبى عيينة وإسماعيل بن جعفر. قال: كان ابن أبى عيينة بين الرؤساء الذين أخذوا البصرة للمأمون من المخلوع، وكان معاضدًا لذى اليمينين طاهر بن الحسين فى حروبه، وكان إسماعيل بن جعفر

(*) إلبابها: إخلاصها.

جليل القدر مطاعًا وكانت الحال بينه وبين ابن أبى عيينة ألطف حال، فوصله ابن أبى عيينة بطاهر فولاه البصرة، وولى ابن أبى عيينة اليمامة والبحرين وغوص البحر، فلما رجعا إلى البصرة تنكر إسماعيل لابن أبى عيينة، فاشتعلت بينهما نار البغضاء، ثم عُزل ابن أبى عيينة فأخذ يهجو إسماعيل ويسأل طاهرًا عزله، ولكنه كان يدافعه ويضن بالرجل. وفى ذلك يقول لطاهر:

مالى رأيتك تدنى كل منتكثٍ ... إذا تغيب، ملتاثٍ إذا حضرا
إذا تنسم ريح الغدر قابلها ... حتى إذا نفخت فى أنفه غدرا

ويتطير ابن أبى عيينة لإسماعيل بالعزل والأسر حين يقول:

لا تعدَمِ العزل يا أبا الحسن ... ولا هُزالاً فى دولة السِّمَن
ولا انتقالاً من دار عافية ... إلى ديار البلاء والفتن
ولا خروجًا إلى القفار من الـ ... أرض، وترك الأحباب والوطن
كم رَوْحةٍ فيك لى مهجَّرةٍ ... ودُلْجةٍ فى بقيّة الوَسَن

وقد وقع لإسماعيل ما تطير له به، إذ حمل إلى دار الخلافة معزولا مقيدًا ومعه ابناه فى ذل ومهانة. وفى ذلك يقول ابن أبى عيينة:

مَرَّ إسماعيل وابنا ... ه معًا فى الأُسَراءِ
جالسًا فى مَحْمِلٍ ضَنْـ ... ـكٍ على غير وطاءِ
يتغنى القيدُ فى رجـ ... ـليه ألوانَ الغِناءِ
باكيًا لا رقأت عيـ ... ـناه من طول البكاءِ

وقد عارض قصيدة ابن أبى عيينة النونية عمرو بن زَعبل مولى بنى مازن فقال أبياتًا كلها فحش صيغ فى صور من الأحاجى منها:

إنى أحاجيك ما حنيفٌ على الـ ... ـفطرة باع الرَّباحَ بالغبنِ
ياذا اليمينين اضرب علاوته ... يُدفعُ ومانى فى النار فى قَرَنِ

قال المبرد. وكان «مانى» رأسًا من رؤوس الزنادقة.

ويرد إبراهيم السواق على عمرو بن زعبل مدافعًا عن ابن أبى عيينة بقصيدة منها:

قد قيل ما قيل فى أبى حسن ... فانتحروا فى تطاول الزمن

ولابن أبى عيينة قصائد رائعة فى معاتبة ذى اليمينين، يدعونا جمالها الفنى إلى الخروج عن جادة الموضوع قليلاً، فإن شعرًا مثل هذا لا يصح أن يمر به الأديب مرًّا. وأروع هذه القصائد قوله:

أيــــا ذا اليمينين إنّ العتــــا ب يُغرى صدورًا ويشفى صـدورًا
وكنتُ أرى أنّ تـــرك العتــــا ب خيرٌ وأجـــــدرُ أن لا يُضيرا
إلى أن ظننتُ بـأن قـــد ظننــــــــــــتَ أنّى لنفســـىَ أرضى الحقـيرا
فأضمـــــرتِ النفسُ فى وَهْمِهــــا مـــن الهمّ همًا يكُـــدُّ الضميرا
ولا بـــــدَّ للماءِ فى مِـــرْجـلٍ على النـــار مُـــوقَـــدةً أن يفــورا
ومـن أُشربَ اليأسَ كـــان الغنىَّ ومن أُشرب الحرصَ كـــان الفقيرا

وكثر فى هـذا العصر تحدى الشعراء أو اختبـار صدق بـديهتهم بمطالبتهم بإجـازة بعض الشعر، وهذا ضرب من المعارضة قد نـدعوه « معارضة البدائه ». من ذلك ماروَوْا من أن الرشيـد كان ليلة بين سماره فغناه بعض المغنين قول جرير:

إنّ الـــذيـن غَــدَوْا بلبّك غـــادروا وَشَــلاً بعينـكَ لا يـــزال مَعينـــا

فطرب الرشيد وقال لجلسائه ـ وكان بين يديه بدرة ـ إن هذه البدرة لمن يجيز منكم هذا البيت. فلما لم يصنعوا شيئًا قال خـادم كان على رأسه: أنا لها ياأمير المؤمنين، فقال له: شأنك. فاحتمل البدرة وأسرع إلى دار الناطفى، فاستأذن منه على عنان، فلما أخبرها الخبر قالت: ويحك اكتب:

هيجتَ بـالقـول الـذى قـد قُلتـه داءً بقلبى مـــا يـــزال كمينــــا
قـــد أينعـت ثمـراتــه فى طينهــا وسُقِين من مـــاء الهوى فـرَوِينـــا
كـذب الـــذين تَقـوّلـوا يـــا سيدى إنّ القلـوبَ إذا هـــوِيْـن هَـــوِينـــا

فسر الرشيد، وكان ذلك سبب شرائه عنان.

ومن ذلك مارواه بكر بن حماد، قال: دخلت دار الناطفى، فقال لجاريته عنان: هذا بكر شاعر باهلة، يريد مجالستك، فقالت: لا والله إنـى كسلى، فحمل عليهـا بالسـوط ثم قـال لى: ادخل، فدخلت ودمعها يتحدر، فقلت:

هـــذى عِنـــانٌ أسبلـتْ دمعهـــا كـــالـــدرِّ إذ يَنْسَـلُّ من خيطـــهِ

ثم قلت: أجيزى، فقالت:

فَلَيْـتَ مـن يضربها ظـــــــالمًا تجفُّ كفـــــاه على سَـــوطـــهِ

ثم قلت لها: إنى وجدت بيتًا على ظهر كتاب لى لم أقدر على إجازته، فقالت: قل، فأنشدتها:

فما زال يشكـو الحبَّ حتى حَسِبتُـه تنفّـس فى أحشــــــــائه فتكلّما

فأطرقت ثم قالت:

ويبكـى فـأبكى رحمةً لبكـــــائه إذا مـا بكـى دمعًـا بكيت لـــه دما

ومن ذلك ما رواه صاحب بدائع البداله نرويه موجزًا، قال: قال دعبل الخزاعي: بينما أنا بباب الكرخ إذ أنا بفتاة تسمى قرة، معروفة بظرف وجمال وشعر وأدب وغناء، فتعرضت لها وقلت:

دموعُ عينى لها انبساطٌ ... ونومُ عينى به انقباضُ

فقالت:

وذا قليل لمن دهته ... بسحرها الأعينُ المِراضُ

فقلت:

فهل لنا منك عطفُ قلبٍ ... أو للذى فى الحشا انقراضُ ؟
إن كنت تبغى الوصال منا ... فالوصل فى ديننا قِراضُ

قال دعبل: فنقلتها من تلك القافية وقلت:

أتُرى الزمان يسرُّنا بتلاقِ ... ويضمُّ مشتاقًا إلى مشتاق ؟

فقالت:

ما للزمان تقول فيه وإنما ... أنت الزمان فسُرَّنا بتلاقِ

وهنا نقف القلم، ولنا عودة إن شاء الله نذكر فيها ما جدّ فى أخريات هذا العصر من معارضات.

المعارضات في الشعر العربي (*)
٥ - عصر التراجع العباسي

يزعم بعض مؤرخي الأدب أن اللغة والفنون تجرى فى ذيل الدولة، وتتابعها فى ميزان القدر، وتشاركها فيما قسم لها من رفعة وضعة، ومن قوة وضعف، فإذا قويت الدولة وعظمت شوكتها واشتد ساعد سلطانها، ازدهرت اللغة فى مادتها وأسلوبها وطرائق دلالتها، وكثرة الناطقين بها، والواردين على شريعتها، والمعتزين بشرف الانتماء إليها من قومها كانوا أو من غير قومها. وربما كان من لم يصله بها نسبه أشد غيرة عليها وأكثر بحثًا عن روائعها وإذاعة لمفاخرها. وقد يكون من أسباب ذلك أن اللصيق حين ضعف باللغة سببه، أراد أن يقوى الصلة بأدبه. فإن الإحساس بالنقص كثيرًا ما يحفز إلى الكمال. وقد يكون من الأسباب تلك النزعة التى تدعى اليوم بمركب النقص.

ونظرة فى تاريخ لغتنا الشريفة توحى بأن الغلبة الكاثرة من الباحثين فيها، المحققين لنصوصها، المشيدين بفرائدها، كانوا من الموالى والدخلاء على أمة العرب. وحسبك أن إمام اللغة فى عصره كان أبا عبيدة معمر بن المثنى، وأصله من يهود فارس، وأن ابن المقفع كان زعيم البيان، وأن بشار بن برد كان حامل لواء الشعراء، وغير هؤلاء كثيرون وكثيرون.

ومن أظرف ما يحضرنى ونحن نتكلم فى مركب النقص ما كان من أمر شهاب الدين بن الصيفى الشاعر، وكان فارسى النبعة ينتمى إلى تميم، فإنه كان يغرق فى التشبه بالعرب، ويتخير فى حديثه أغرب الغريب الذى لا يكاد يفهم، ويتزيا بزىِّ العرب القحاح، فلا يرى إلا متقلدًا سيفًا أو متنكبًا رمحًا، كل ذلك لأنه يحس أنه ليس منهم ويريد أن يراه الناس منهم. ولكن أبا القاسم بن القطان الشاعر البغدادى كشف عن حيلته وفضح خبيئته حين قال:

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثالث ص ٤٠٤ عام ١٩٤٦.

كم تُبـارِى وكم تطـوّل طُـرطـو رَكَ ! مـا فيـك شَعْـرَةٌ مـن تميم
فكُلِ الضبَّ واقـرِض الحنظلَ ليـا بسَ واشرب إن شئت بـولَ الظليم
ليسَ ذا وجـهَ من يُضيف ولا يُقْـــــــــرى ولا يـدفع الأذى عن حـريم

ويقول ابن خلدون: إن الأمم المغلوبة مولعة دائمًا بمحاكاة الغالب ؛ ولأمر ما تنتشر بعض اللغات الأجنبية الآن فى أنحاء الأرض ؛ لأن اللغة تتبع الراية وتساير الأساطيل.

ومن العجيب أن العربية قويت واشتد ساعدها فى مدى العصر العباسى كله، وأن اللغة لم تبال، والأدب لم يأبـه لما أصاب الدولـة من تدهـور سياسى مفجـع فى القرن الرابـع الهجرى، حينما انحلت أواصر ذلك الملك البعيد السلطان، وانقسم إلى دويلات فى الشرق والغرب، وتمزق ميراث المسلمين بين فرس وترك وديلم.

وتفـرّقـوا شيَعًـا فكلٌّ قبيلـة فيهـــــا أميرُ المؤمنين ومِنْبَر

أجل ! لم تسقط اللغة، ولم يسقط الأدب عند سقوط الدولة، على الرغم من نظرية مؤرخى الأدب التى أشرنا إليهـا فى صدر هذا المقـال ؛ والسبب فى أنها لم تسقط أن الأعاجم الذين قـذفت بهم أمواج الفتوح إلى شاطـئ العربية، والـذين توثبـوا بعـد ذلك إلى الملك، لم تكن لهم لغـة جديـرة بالإحيـاء والإنعاش، ولأنهم كانوا يعدون الشعر والأدب أكبر وسيلة للـدعاية لدولهم الناشئة، ولأنهم كان لهم تمكن فى الأدب ومشاركة فى فنونه. فقد كان بين ملوك آل بويه وغيرهم من ملوك الأوطان الطارئة أدباء وشعراء. وقد نترقى فى الحكم فندعى أن الشعر والأدب كانا فى القرن الرابع أقوى منهما فى صدر الدولة العباسية، ونزعم أن الشعـر تم نضجه وبلغ أشده واستـوى على سوقه فى هـذا القرن، بعد أن هضم الثقافات الأجنبية، وبعد أن نشأت فى المدنية الجديدة من رجاله أجيال. وإن عصرًا يزهى بابن الرومى وأبى تمام والبحترى والمتنبى والشريف والمعرى لعصر جدير بالزهو والاختيال.

أحسَّ الشعراء فى هـذه الملاوة بقوتهم، واعتزوا بفنهم، فلم يتطلعـوا إلى معارضـة من سبقهم من المجيدين، إلا ما نلتمح من ومضات هنا وهناك بين الحين والحين. فأغلب الظن أن بائية أبى تمام التى أولها:

لهن عـوادى يـوسف وصـواحبـه فمهـلاً فقـدمًا أدرك النجح طـالبـه

إنما هى معارضة لبائية بشار التى يصف فيها الجيش بقوله:

وجيش كجنح الليل يزحَف بالحَصى وبـالشوك والخطىِّ حُـمْـرٌ ثعالبُـه
مشينـا لـه والشمـس فى خِـدْرِ أمّهـا تطـالعنـا والطلُّ لم يَـجْـرِ ذائبـه

كما أنه مما لا يقبل الشك أن القسطلىّ كان فى رائيته يعارض رائية أبى نواس التى أولها:

أجـارةَ بيتيْنـا أبـوكِ غيـورُ وميسـورُ مـا يـرجَى لـديك عسير

ولا يتسع فراغنا الآن لتشمم قصائد هذا العصر واستخراج ما ينظر منها إلى معارضة ما سبقها من قصائد، فلنترك من ذلك بابًا مفتوحًا لبحث الباحثين.

وقد جدّ فى هذا العصر نوع من المعارضة جديد هو معارضة التلميذ أستاذه، ليبلو نفسه فى السير على جادته، ومقاربة خطوه، كما كانت الحال بين مهيار وأستاذه الشريف، فإن نفس مهيار كانت تدفع به أحيانًا إلى الجرى مع الشريف فى طَلَق، وإلى ترسم مذهبه القرشى الصميم. ويمكن أن تسمى هذه المعارضة بالمعارضة الترسمية.

وإنى لأجد ريح المعارضة فى بائية أبى فراس لقصيدة المتنبى التى قالها سنة تسع وأربعين وثلاثمائة والتى أولها:

منًى كنّ لى أن الشبابَ خِضابُ	فيخفى بتبييض القرونِ شبابُ

وقد بعث أبو فراس ببائيته من الأسر إلى سيف الدولة بعد سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة وأولها:

أما لجميل عندكنّ ثواب	ولا لمسيء عندكنّ متاب؟

وبهذه القصيدة أبيات يقرب لفظها وبعض معانيها قليلا أو كثيرًا من قصيدة المتنبى مثل قوله:

وقد صار هذا الناسُ إلا أقلَّهم	ذئابًا على أجسادهنّ ثياب

وقوله:

إلى الله أشكو أننا بمنازلٍ	تَحكّمُ فى آسادهنّ كلاب

وقوله:

ومازلتُ أرضى بالقليل محبةً	لديه، وما دون الكثير حجاب
كذاك الودادُ المحضُ لا يُرتَجَى له	ثوابٌ ولا يُخشَى عليه عقاب

وقوله:

فكيف وفيما بيننا مُلكُ قيصرٍ	وللبحر حولى زَخْرَةٌ وعُباب

أما قوله:

إذا صحَّ منك الوُدُّ فالكلُّ هيِّنٌ	وكل الذى فوق التراب تراب

فهو بعينه بيت المتنبى:

إذا نلت منك الودّ فالمال هين	وكل الذى فوق التراب تراب

ويبرز فى هذا العصر ضرب من المعارضة عنيف يصح أن ندعوه بمعارضة التحدى. وأظهر ما يطالعنا من هذا النوع ما حدث بين بديع الزمان الهمذانى وأبى بكر الخوارزمى. وكان البديع شابًا أشرًا أطغته العبقرية، وأبطره النبوغ، فما ترك لأديب أديبًا صحيحًا، وما علم بكاتب نال منزلة من الشهرة

إلا تعرض له والسوط فى يده يضرب به دراكًا. وكان فتى دانت له اللغة، وذل شموسها، فتصرف فيها كما يتصرف الطفل العابث المدلل بلعبه وألهواته.

وقصته مع الخوارزمى مشهورة طويلة الذيول، فقد ورد نيسابور وأبو بكر بها فى ذلك الحين العلم المفرد، والفارس المجلى، فكتب إليه البديع يتطلب زيارته فلم يحسن أبو بكر لقاءه، فرماه البديع بوابل من العتاب المر والكلم الممض، ثم دعاه متحديًا للمساجلة فى الشعر وسرعة البديهة فى مجلس يجمع كبار رجال الأدب، فحضر أبو بكر مرغمًا، ثم انطلقا فى المصاولة فى أبواب من الشعر والنثر واللغة، كان فيها الغلب للبديع. ويكفينا أن ننقل من هذه المبادهة طرفًا قصيرًا يتبين منه القارئ ما كان يتسلط عليها من روح خبيث، وحقد متأجج، قال البديع:

« واقترح علينا أن نقول على وزن قول أبى الطيب المتنبى:

أرق على أرق ومثلى يأرق ... وجوًى يزيدُ وعَبْرة تترقرق

وابتدر أبو بكر إلى الإجازة فقال:

وإذا ابتدهتُ بديهةً ياسيِّدى ... فأراك عند بديهتى تتقلّق
وإذا قرضتُ الشعر فى مَيْدانه ... لاشك أنك ياأخى تتشقّق
إنى إذا قلت البديهة قلتُها ... عَجِلاً وطبعُك عند طبعى يرفُق
مالى أراك ولست مثلى عندها ... متَموِّهًا بالتُّرهات تمخرق ؟

ثم وقف يعتذر ويقول: إن هذا كما يجىء لا كما يجب. فقلت: قبل الله عذرك، لكنى أراك بين قواف مكروهة، وقافات خشنة، كل قاف كجبل قاف، منها: تتقلق وتتشقق وتمخرق. فخذ الآن جزاءً عن قرضك، وأداءً لفرضك، وقلت:

مهلاً أبا بكر فزندُك أضيق ... فاخرَس، فإن أخاك حىٌّ يرزق
وانظر لأشنِع ما أقول وأدّعى ... ألـهُ إلى أعراضكم متسلّق ؟
ياأحمقًا ! وكفاك ذلك خِزْيةً ... جرَّبتَ نار مُعَرَّق هل تُحْرِق ؟

فلما أصابه حر الكلام، قطع علينا فقال: « يا أحمقا » لا يجوز فإن « أحمق » لا ينصرف. فقلنا: ياهذا لا تقطع، فإن شعرك إن لم يكن عيبة عيب، فليس بظرف ظرف. ولو شئنا لقطعنا عليك، ولوجد الطعن سبيلاً إليك. وأما « أحمق » فلايزال يصفعك لتصفعه حتى ينصرف وتنصرف معه ! ».

وهكذا ينطلقان فى سباب وإقذاع بشعر ردىء وأدب وبىء. ولم يدعنا إلى ذكر نبذ من هذه القصة إلا شهرتها، ولما لها من صلة بهذا الحديث.

ومن المعارضة أن يُعرض على الشاعر بيت أو أبيات ليقول من بحرها ورويها. وقد كثر هذا النوع فى هذا العصر واتخذه الأمراء ذريعة لاستجداء المديح حينما يبطىء عليهم الشعراء.

رووا أن الصاحب بن عبّاد لما حصل فى وقعة جرجان على الفيل الذى كان بعسكر خراسان أمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه على وزن قصيدة عمرو بن معديكرب التى أولها :

أعــددتُ للحـدَثـان سـا بغـةً وعـــدّاءً عَلَنْـدَى

فقال عبد الصمد بن بابك :

قسمًا لقـــد نشر الحيـــا بمنـــاكب العلَمينِ بُـــرْدا

وقال أبو الحسن الجوهرى :

قل للـــوزيـــر وقـــد تبـدّى يستعـــرض الكـــرمَ المُعَـــدّا

وقال أبو محمد الخازن :

حـــازوا سعـودَ ديـــار سُعْـدَى ورعَــوْا جنـابَ العيش رغــدا

وكان سيف الدولة كلما ماطله المتنبى وتلكأ فى مديحه أرسل إليه أبياتًا ليجيزها تصيدًا للمديح .
بعث إليه مرة بأبيات لسهل بن محمد الكاتب منها :

يــالائمى كـفَّ الملام عن الـذى أضنـاه طـولُ سقـامـه وشقـائه
إن كنتَ نـاصحـه فـداوِ سَقـامـه وأعنـــه ملتمسًــا لأمــر شفـــائه

فأجاب المتنبى بقصيدة أولها :

القلبُ أعلـمُ يــاعــذولُ بــدائه وأحـقُّ منـك بجفنـــــه وبمائه

ولكن المتنبى اللئيم أضاع اثنى عشر بيتًا فى الغزل، وتصدق على ممدوحه بستة أبيات ليس غير، لذلك استزاده سيف الدولة ، فكان من أروع ما قال فى المديح :

إن كـان قـد ملك القلـوبَ فإنـه ملك الـــزمـــان بأرضـــه وسمائه
الشمسُ من حسَّــاده ، والنصر من قـــرنـــائه ، والسيـف من أسمائه

وأرسل له مرة ببيتين للعباس بن الأحنف ، وطلب إليه أن يجيزهما وهما :

أمنّى تخافُ انتشـــار الحديث وحظـــىَ فى ستـــره أوفـــر ؟
ولـــو لم أصُنْـــه لبُقيـــا عليك نظـــرتُ لنفسى كما تنظـــر

فقال أبو الطيب :

رضـــاك رضـــاى الـــذى أوثـــر وسرُّك سرى فما أظهـــــــر ؟
كفتـك المروءة مـــا تتقى وآمنك الــــوُدُّ مـــا تحـــذَر
وسركُـمُ فى الحشـــا ميّت إذا نُشِـــر الســـرُّ لا يُنْشـــر
كـأنى عصـت مقلتـى فيكُـمُ وكــاتمت القلبَ مــا تُبصـــر

وإفشــاء مــا أنــا مستـودَعٌ — من الغـدر ، والحــر لا يغـدِر
دواليــك يــاسيفَهــا دولــةً — وأمــرَك ياخيــرَ من يأمــر
أتــانى رســولك مستعجــلاً — فلبّــاه شعـرى الــذى أذخَــر
ولــو كــان يــومَ وغًـى قــائمًا — للبّـــاه سيفــىَ والأشقــر
فــلا غفل الــدهــر عن أهلــه — فإنـك عيـــنٌ بهـــا ينظــر

وكأنى بسيف الدولة يتحرق غيظًا لأنه لم ينل من شاعره الضنين كل ما كان يريد من المديح .

ومن ضروب المعارضة فى هذا العصر أن يدعو الأمير الشعراء إلى القول فى موضوع بذاته وتسمى هذه بالمعارضة الموضوعية ، ولا يشترط فيها اتحاد البحر والقافية .

مات بِرْذَوْن كان أهداه الصاحب بن عباد إلى أبى عيسى المنجم ، فأوعز إلى ندمائه وشعراء حضرته أن يرثوه ويعزوا أبا عيسى فيه . فقال أبو القاسم الزعفرانى قصيدة طويلة أولها :

كن مــدى الــدهــر فى حِمَى النعماء — مستهينًــــا بحــــادث الأرزاء

وبدأ عبد العزيز الجرجانى قصيدته بقوله :

جلَّ واللهِ مـــا دهـــاك وعــزّا — فعـــزاءً إنَّ الكـــريـم مُعــزّى

وقال أبو القاسم بن أبى العلاء قصيدة أولها :

عــزاءً وإن كــان المصــاب جَليــلا — وصبرًا وإن لم يُغْـن عنك فتيـــلا

وزاد ما قيل فى هذا البرذون العزيز على عشر قصائد، كلها من جيد الشعر ورائعه .

ومن المعارضات التى نبتت ثم كثرت فى هذا العهد التراسل بالشعر؛ بأن يبعث الشاعر إلى صديق له أبياتًا فيجيبه عنها بأبيات من بحرها وقافيتها .

كتب أبو إسحق الصابئ إلى أبى الحسن النقيب الموسوى يشكـو زمانه ، وأنه أصبح يحمل فى محفة فى قصيدة طويلة منها :

إذا مــا تعـدَّت بى وسارت مِحَفّــةٌ — لها أرجـل يسعَى بها رَجُــــلان
ومــا كنت مـن فُــرســانها غير أنها — وفت لى مــا خـانت بىَ القــدمـان

فأجابه أبو الحسن بقصيدة أولها :

ظمائى إلى من لـــو أراد سقـــانى — ودَيْنى على من لـو يشاء قضـــانى

ومنهـا :

إذا أقعــدتك النــائبــاتُ فطــالما — سرَى مُــوقَـرًا من فضلك الملَــوان
وإن هــدمت منك الخطوبُ بمرّهــا — فَثَمّ لســـانٌ للمنــاقب بـــان
مــآثـر تبقى مــا رأى الشمسَ نــاظـر — ومــا سمعـت من سـامـع أذنــان

ويجدر بنا بعد أن ألممنا بصنوف المعارضة فى هذا العصر ألا نغفل ضربًا خفيًا قد يسمى بالمعارضة التشهية، وهو أن يتبع الشاعر سبيل من سبقه فى معالجه غرض من أغراض الشعر ليفوقه فيه، ويفلج عليه، ولا يشترط فى هذا النوع أيضًا اتحاد البحر والقافية. ومن ذلك ما ساقه الموصلى فى «المثل السائر» من توارد البحترى وأبى الطيب المتنبى على وصف الأسد فى قصيدة البحترى التى أولها:

أجـدّك مـا ينفك يسرى لـزينبـا   خيـالٌ إذا آب الظـلام تـأوّبـا

وقصيدة المتنبى التى أولها:

فى الخدّ إن عـزم الخليطُ رحيـلا   مطـرٌ تـزيـد بـه الخدودُ مُحولا

ومن أعجب العجب ما زعمه هذا الموصلى من أن البحترى جرى فى وصف الأسد على سنن بشر ابن عوانة، وأنه استرق كثيرًا من معانيه فى قصيدته التى أولها:

أفـاطمُ لـو شهـدتِ ببطن خَبْتٍ   وقـد لاقى الهزبـرُ أخـاك بشرًا

وهذه قاصمة الظهر، وعوراء الأبد، فقد ظن الموصلى أن بشر بن عوانة شاعر جاهلى، ولم يكن فى الواقع إلا شاعرًا خياليا خلقه بديع الزمان فى مقامته البشرية. والقصيدة كلها من كلام البديع، وبديع الزمان نفسه هذا الذى استرق معانى البحترى وبعض ألفاظه.

ولنا إن شاء الله عودة نتناول فيها المعارضات فيما تلا من عصور.

الذين قتلتهم أشعارهم(*)

١ - تدليل الشعر والشعراء

اتسع صدر الناس للشعر، ونظروا إليه نظرتهم إلى الطفل المدلل، فابتسموا له كلما أساء، واستهانوا بوخزه وإن أدمى، وضحكوا مع الضاحكين إذا تندر بهم أو جعل منهم سخرية للهو والفكاهة. وكأنما كانت محاباة الفنون ومجاملتها غريزة من غرائز الفطرة، فقد اجتمعت الأمم عامة على غض الطرف عن الشاعر، وإرخاء العنان له، وترك فنه يهيم به حيث شاء فى أودية الخيال والتصوير، دون أن يقف فى طريقه حائل؛ لأن الشعر يخلق لهم دنيا جديدة يستريحون فى ظلالها كلما قست عليهم رمضاء الحياة، ويفتح لهم من الخيال أبوابًا كلما سدت فى وجوههم أبواب الحياة، ويصور لهم أحلامًا ضاحكة كلما عبست لهم حقائق الحياة، فهم يحرصون دائمًا على أن يرف الشعر طليقًا فى جوه الروحى العجيب، دون أن تنتزع من جناحه ريشة تعوقه عن الطيران، أو ينصب له فخ يسكت صوته الصداح، ويقضى على تلك النغمات الفردوسية التى هى نفحة من عالم الروح، وصلة بين الأرض والسماء.

وكأن كل نفس تحس بهاجس يحوم حولها ويهمس: ماذا نعمل لو عشنا يومًا واحدًا من غير شعر؟ إن هذه الحياة بأرزائها وثقيل أغلالها لا تحتمل لحظة واحدة، ولابد من الفرار منها بشىء يحط عنا هذه الأرزاء، ويفك هاتيك الأغلال. أليس الأمل شعرًا؟ أليس الأمل بارقًا وضاء يلمع فى حواشى سحب الحياة القاتمة؟ أليس الأمل صيحة شعرية تذود عنا ذئاب الفكر القاتلة، وصولة الحقائق الجامدة؟ أليس الأمل اليد السحرية التى تمسح عناء المكدود، وتجفف دمعة الحزين؟ الأمل شعر والشعر أمل،

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثانى ص ٥٢٧ عام ١٩٤٦.

وهما مصباحا الحياة إذا انطفأ عاش الكون فى ظلمة دامسة. إن الطفل الباكى يهدأ للترنيم، والبائس الشاكى يستريح للغناء، والإبل الناصبة تنسى نصبها بالحداء.

وكان الشعر حبيبًا إلى قلوب النساء، على شرط أن يصف بحق أو بغير حق ما لهن من رشاقة وجمال. فما رأت فتاة عربية من بأس فى أن يكشف شعر عن محاسنها فى القبائل، أو يصور شاعر حولها قصة خيالية لم تطل برأسها إلى الوجود. ولو أن حديثًا غير الشعر خاض فى هذه المجالات لاشتعلت الفتنة وسلت سيوف من أغمادها. وأخبار تعرض حسان مكة لعمر بن أبى ربيعة فى أيام الحج، لكى يقول فيهن شيئًا، سائرة مشهورة ليس الحديث فيها إلا معادًا. ولو صدق ابن أبى ربيعة حين يقول:

قالت لها أختها تعاتبها	لتُفسِدِنّ الطوافَ فى عمر
قومى تصَدّىْ له ليبصرنا	ثم اغمزيه يا أختِ فى خفر
قالت لها قد غمزته فأبى	ثم اسبطرَّت تشدُّ فى أثرى

ولو صدق فى هذا لعددنا غانيات مكة أبرع فى الإغراء وألعب بألباب الرجال من فاتنات العصر الحديث!

ودللت اللغة العربية نفسُها الشعر، فأجازت فيه ما لم تجزه فى غيره: أجازت فيه مد المقصور وقصر الممدود، وتنوين ما لا ينصرف، ومنع صرف ما ينصرف، وتسكين المتحرك من الأبنية، وتحريك الساكن، إلى غير ذلك من منادح الشعراء.

ودلل الملوك الشعر، فأباحوا للشاعر وحده أن يخاطبهم مخاطبة الند، وأن يناديهم بأسمائهم عارية من ألقاب التمجيد والتعظيم، وأن يجرؤ عليهم بالنقد والخوض فى شئون الدولة صراحة وجهارة؛ واستساغوا من الشاعر صورًا لا يستسيغونها من الناثر، ولم يجدوا فى أنفسهم حرجًا من أن يستمعوا إلى شاعر غزل يتجاوز حد الغزل العفيف، أو شاعر يقذف بألفاظ يتوارى منها وجه الحياء، أو شاعر معربد يصف الخمر ومجلسها ونشوتها، ثم يقول للخليفة بعد أن لعبت برأسه سورتها:

خرجتُ أجرُّ الذيلَ تيهًا كأننى	عليك أميرَ المؤمنين أميرُ

وقد جرؤ النابغة الذبيانى على وصف المتجردة وصفًا يندى له جبين الأدب، ولم يبال بها للنعمان بن المنذر ملك العرب من حول وصول. وهجا كعب بن زهير رسول الله ﷺ فغضب وأهدر دمه ولو تعلق بأستار الكعبة، ولكنه حينما جاء معتذرًا متوسلا بالشعر عفا عنه وخلع عليه بردته. وقد كان شىء من غزل كعب فى قصيدته غزلا مكشوفًا سافرًا، فهو يقول فى وصف حبيبته:

هيفاء مقبلةً، عجزاءُ مدبرةً	لا يُشتكَى قصرٌ منها ولا طولُ

ولكنه كان يتحصن بامتياز الفن فلم يتجه إليه ملام.

وحبس ابن الخطاب - وكان صارمًا فى الحق - الحطيئة. بعد أن ولغ فى أعراض المسلمين، غير أنه لم يلبث أن أطلقه حينما بعث إليه بأبيات من الشعر هزت أريحيته وأطفأت نار غضبه.

ولمعاوية - حليم العرب وأكبر ساستها - الكثير من الأخبار فى هذه البابة. قالوا: إن عقبة الأزدى بعث إليه يومًا برقعة كان فيها:

معاويُ إننا بشرٌ فأسجح ... فلسنا بالجبال ولا الحديد
نزلتم أرضنا فجردتموها ... فهل من قائم أو من حصيد ؟
فهبنا أمةً هلكت ضياعًا ... يزيدُ أميرها وأبو يزيد

فدعا به معاوية وقال له: ما جرأك على؟ قال: نصحتك إذ غشوك، وصدقتك إذ كذبوك. فأطرق معاوية طويلا ثم قال: ما أظنك إلا صادقًا. ثم قضى له حاجته. وروى الرواة أن عبد الرحمن بن حسان كان يتغزل فى عاتكة بنت معاوية، وقال فيها قصيدته النونية التى ذاعت فى الآفاق والتى أولها:

صاحِ حيّا الإلهُ أهلاً ودارًا ... عند أصل القناة من جَيْرون

فدخل يزيد على معاوية مغضبًا وهو يقول: أما سمعت قول عبد الرحمن بن حسان فى ابنتك؟ قال: وما الذى قال؟ قال: إنه يقول:

وهى زهراءُ مثل لؤلؤة الغوّ ... اص مِيزَتْ من جوهر مكنون

فقال معاوية: صدق. فقال يزيد: ويقول:

وإذا ما نسبتَها لم تجدها ... فى سناء من المكارم دون

فقال معاوية: صدق أيضًا. فقال يزيد: ويقول:

ثم خاصرتُها إلى القبةِ الخضـ ... ـراء تمشى فى مَرْمَرٍ مسنون

فلم يزد معاوية على أن قال: كذب. وانتهى الأمر عند هذه الكلمة!

وروى الرواة أن إبراهيم بن المهدى حينما سقطت عنه الخلافة واستخفى من المأمون، هجاه دعبل الخزاعى، فدخل إبراهيم على المأمون فشكا إليه حاله وقال: يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه فضلك فى نفسك على، وألهمك الرأفة والعفو عنى، والنسب بيننا واحد، وقد هجانى دعبل فانتقم لى منه. فقال المأمون وماذا قال؟ لعلك تقصد قوله:

نعر ابن شَكْلَة بالعراق وأهلِه ... فهفا إليه كلُّ أطلسَ مائقِ
إن كان إبراهيم مضطلعا بها ... فلتصلُحَنْ من بعده لمُخارق
أنّى يكون وليس ذاك بكائن ... يرث الخلافةَ فاسقٌ عن فاسق!

فقال: هذا من بعض هجائه، وقد هجانى بما هو أقبح من هذا. فقال المأمون: لك أسوة بى، فقد هجانى واحتملته حين قال فى:

أيسومنى المأمونُ خُطةَ جاهل | أوَ ما رأى بالأمس رأسَ محمد؟
إنى من القوم الذين سيوفُهم | قتلت أخاك وشرّفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله | واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فقال إبراهيم: زادك الله حلمًا يا أمير المؤمنين!

ودعبل هذا شاعر هجاء بذيء اللسان مولع بالحط من أقدار الناس، وقد هجا الخلفاء فمن دونهم، وطال عمره؛ وكان يقول: لى خمسون سنة أحمل خشبتى على كتفى، أدور بها على من يصلبنى عليها، فما أجد من يفعل. ودعبل فى هذه الدعوى كاذب نفاج، فإنه كان شديد الخوف والحذر ممن يهجوهم، وكان لا يجد له منجاة منهم إلا بالفرار فى أقطار الأرض، فإنه لما هجا المعتصم طلبه فى كل مكان، ففر منه إلى مصر ونزل بأسوان وقال:

وإنّ امرأً أضحت مطارحُ سهمه | بأسْوانَ لم يترك من الحزم مَعْلَما
حللتُ محلاًّ يقصُر الطرفُ دونه | ويعجِزُ عنه الطيفُ أن يتجشّما

وهذا المعنى من أروع المعانى وأبدعها.

واشتهر المتنبى بالتيه على ممدوحيه، والإدلال عليهم، ومخاطبتهم مخاطبة النظير، والتهجم فى شعره على ما لا يحسن الحديث فيه. فقد هدد سيف الدولة بالرحيل عنه تلويحًا فى قوله:

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك | ولا تعطينّ الناسَ ما أنا قائل

ثم تصريحًا فى قوله:

لئن تركن ضُميرًا عن ميامننا | ليَحْدُثَنّ لمن ودّعْتِهم ندمُ

ثم تدلل عليه تدلل الأخ على أخيه فى آخر بيت من هذه القصيدة:

هذا عتابُك إلاّ أنه مِقَةٌ | قد ضُمِّن الدُّرَّ إلاّ أنه كلم

لو أن شاعرًا كتب إلى صديق له يعاتبه ما تجاوز ما كتب به المتنبى إلى سيف الدولة وقد بعث إليه كتابًا يدعوه إلى حلب:

وما عاقنى غيرُ قول الوشاةِ | وإنّ الوشايات طُرْقُ الكذب
وتكثيرُ قوم وتقليلُهم | وتقريبُهم بيننا والخَبَب
وقد كان ينصرهم سمعُه | وينصرنى قلبُه والحسب

ولم أر شاعرًا قبله يرثى أم ملك فيقول:

صلاةُ اللهِ خالقِنا حَنوطٌ | على الوجه المكفَّن بالجمال

أو أخت ملك فيقول:

يعلمن حين تحيّا حسنَ مبسمها　　　　وليس يعلم إلاّ اللهُ بالشنب

وانتهى تدلل المتنبى واعتزازه بشعره بعد أن بلغ منزلة من الشهرة إلى أنه كان يأبى أن يمدح غير الأمراء، حتى إنه لم يقبل أن يمدح أبا القاسم طاهرًا العلوى إلا بعد رجاء الأمير الحسن بن طغج وطول إلحاحه. ويتحدث أبو على الكاتب فيقول: كنت حاضرًا هذا المجلس فما رأيت ولا سمعت فى خبر أن شاعرًا جلس المـمدوح بين يديه مستمعًا لمدحه غير أبى الطيب، فإنى رأيت طاهرًا تلقاه وأجلسه فى مجلسه وجلس بين يديه وهو ينشد قصيدته التى أولها:

أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب　　　　وردّوا رقادى فهو لحظُ الحبائب

والكلام فى المتنبى من هذه الناحية يطول بما لا تحتمله هذه العجالة.

وحينما زج الشعر بنفسه فى ميدان السياسة فسد كما يفسد كل شىء، واتخذه الخلفاء والملوك ذريعة لإعلاء شأنهم ونكاية أعدائهم، حتى أصبح عدة الدول وجيشًا يساير جيوشها، وأداة لإذاعة مآثرها، وبوقًا للدعاية لها، وجمع القلوب حولها. وقد غالى كثير من الملوك فى دفع هذه الدعاية إلى أبعد مداها، فتملقوا الشعراء واستجدوا مديحهم، وأغروهم بالمال والمناصب، وتجاوزوا عن آثامهم.

فشاعر القصر فى عهد عبد الملك بن مروان كان الأخطل. وكان المنصور العباسى على صرامته وتشدده فى الدين يُغضى عن عربدة ابن هرمة وإدمانه، حتى إنه وقد أراد أن يبرئ نفسه أمام نفسه من تغاضيه عن مجاهرة الشاعر بشرب الخمر، أمر رئيس شرطته أن يقيم حد الخمر على ابن هرمة إذا جىء به إليه سكران، على شرط أن يضرب الذى يحضره مائة جلدة. فكان ابن هرمة يترنح فى طرق بغداد فلا يتقدم أحد لأخذه إلى رئيس الشرطة، وكان يصيح متحديًا والخمر تعبث بلسانه: أيها المسلمون: من منكم يشترى ثمانين بمائة!

وتأخر أبو دلامة الشاعر أيامًا عن باب المنصور، فلما حضر أمر بإلزامه القصر وإلزامه الصلاة فى مسجده، ووكل به من يراقبه، فمر به يومًا أبو أيوب وزير المنصور فإذا أبو دلامة يدفع إليه برقعة مختومة ويقول: هذه ظلامة لأمير المؤمنين فأوصلها إليه فلما فتحها المنصور قرأ فيها:

ألم تعلموا أن الخليفة لزّنى　　　　بمسجده والقصرِ ما لى وللقصر؟
أصلّى به الأولى مع العصر دائمًا　　　　فويلى من الأولى وويلى من العصر!
ووالله ما لى نية فى صلاتهم　　　　ولا البر والإحسان والخير من أمرى
وما ضرّه والله يُصلح شأنه　　　　لو انّ ذنوبَ العالمين على ظهرى!؟

فضحك المنصور طويلاً ثم أحضره وقال: ما قصتك؟ قال: دفعت إلى أبى أيوب رقعة مختومة أسأل فيها إعفائى من لزوم ما أمرتنى بلزومه. فقال له المنصور: اقرأها. قال: ما أحسن أن أقرأ. وقد علم أنه إن قرأها حده الخليفة حد تارك الصلاة. فلما رآه تنصل من ذلك قال: أحببت لو كنت أقررت

لأضربك الحد. ثم قال: أعفيتك من لزوم المسجد، فقال أبو دلامة: أو كنت ضاربى يا أمير المؤمنين لو أقررت ؟ قال: نعم. قال: مع قول الله عز وجل: ﴿ يقولون ما لا يفعلون ﴾ [الشعراء : ٢٢٦] فضحك المنصور ووصله.

والقصة كما هى موضوعة ظاهرة الوضع، ولكنها تصور حقيقة لا نزاع فيها هى أن الملوك كانوا يصانعون الشعراء ويجاملونهم مجاملة لا يظفر بمثلها سواهم.

وقد بلغ من استظهار بنى العباس بالشعر واتخاذه قوة متممة لملكهم أن أبا العتاهية الشاعر فى إحدى لحظات نسكه طاف به طائف من الزهد، فعقد العزيمة على أن لا يقول الشعر. فلما علم الخليفة المهدى بما اعتزمه أمر بحبسه، فحبس فى سجن الجرائم مع حاضر صاحب عيسى بن زيد. فلما طال حبسه أحضرهما المهدى، فسأل صاحب عيسى: أين عيسى بن زيد ؟ فقال: ما يدرينى أين عيسى بن زيد ؟ تطلبته فهرب منك فى البلاد، وحبستنى فمن أين لى أن أقف على خبره ؟ قال له: أين كان متواريًا ؟ ومتى كان آخر عهدك به ؟ وعند من لقيته ؟ قال: ما لقيته منذ توارى، ولا عرفت له خبرًا. قال: والله لتدلن عليه أو لأضربن عنقك الساعة. قال: اصنع ما بدا لك، فوالله ما أدلك على ابن رسول الله، وألقى الله تعالى ورسوله بدمه ! ولو كان بين ثوبى وجلدى ما كشفت لك عنه. قال: اضربوا عنقه، فضربت عنقه وأبو العتاهية واقف يرتعد فرقًا، فلما دعى قال له المهدى: أتقول الشعر أم ألحقك به ؟ قال: بل أقول الشعر والله ياأمير المؤمنين !!

وكان كبار الشعراء فى الأندلس يحددون للقصيدة ثمنًا لا يحظى بها ملك بأقل منه: حكوا أن المعتمد بن عباد ألح على أبى على العبدرى أن يمدحه. فما كان من العبدرى إلا أن أجابه فى كبر واعتزاز قائلاً: إن أشعارى مشهورة، وبنات صدرى كريمة، فمن أراد أن ينالها فعليه أن يعرف مهرها. وكانت جائزة قصيدته لا تقل عن مائة دينار.

وبلغ من إعزاز ملوك الطوائف للشعراء أنهم كانوا يتجاوزون عن هجائهم، ويقابلون سلاطتهم بالإعطاء والإغداق. كان النحلى الشاعر من صنائع المعتصم بن معن بن صمادح، فلما سار إلى إشبيلية مدح المعتضد بن عباد بقصيدة قال فيها:

أباد ابن عبّاد البربرا ... وأفنى ابن معنٍ دَجاج القرى

ثم مر زمن نسى فيه النحلى ما قال، وذهب إلى ألمرية حاضرة ملك المعتصم، فدعاه إلى منادمته وأعد للعشاء موائد ليس فيها إلا الدجاج، فقال النحلى: يامولانا، أما عندكم بألمرية غير الدجاج؟ فقال المعتصم: إنما أردنا أن نكذبك فى قولك: « وأفنى ابن معن دجاج القرى » فإن الدجاج لا يزال عندنا والحمد لله كثيرًا، فطار لب النحلى وطفق يعتذر ويعتذر، ولكن المعتصم أسرع إلى تهدئة روعه ووصله بأكرم صلة.

قلنا : إن الشعر فسد لأنه زج نفسه فى ميدان السياسة ، فاندفع الشعراء فى هذا الميدان ، وزهاهم أن يتزاحم الأمراء على أبوابهم ، ولم يعلموا أن السياسة سلاح ذو حدين ، وأن الأمراء الذين يبسمون لهم اليوم قد يعبسون غدًا ، وأن الفن إذا بيع بالمال ودفع به فى سوق المساومات ارتفع حينًا وكسد أحيانًا ، وأن الشاعر الذى يبيع نفسه لسواه يدخل فى رقه ، ويتعرض حينًا لرضاه وحينًا لسخطه ، وأن الذى يجعل من نفسه وضميره وفنه أداة لإعلاء قوم والحط من آخرين لا يفتأ إن وجد الحياة وطيبها عند هؤلاء ، أن يجد الموت وأهواله عند أولئك .

وذلك ما سنبسط الكلام فيه فى حديث آخر إن شاء الله .

الذين قتلتهم أشعارهم (*)

٢ - ابن العشرين

أتخيل طرفة بن العبد شابا ريان الشباب، ناضر العود، عربى الوجه والسمات متين البناء فارعًا. وأتخيله وقد أرسل شعره جثلاً أثيثًا، فانساب خلف عنقه خصلاً سودًا كأنها قطع الليل البهيم. ويصوره لى الوهم وقد أطبق أجفانه فى وجوم وذهول، كأنه ينظر إلى عالم آخر فيه استهواء وإغراء وفتنة، وفيه حياة هانئة بين ظل وماء ونسيم رفاف وجنة ونعيم، حتى إذا فتح عينيه أرسلهما سابحتين فى مضطرب من الخيال تجاوز به حدود الصحراء وانطلق محلقًا فى السماء.

وكلما ذكرت هذا الشاعر أو مر بى طائف من سيرته، تجلت لى العبقرية الوثابة، وقد ضاقت بها ساحة العمر، وضنت عليها الحياة بالبقاء، فأخذت تملأ بآثارها أرجاء الحياة، وتتحدى حصار السنين. فترسل من خلال قضبانها آيات بينات تزاحم الخلود، وتصارع الآباد. قال ابن العبد كثيرًا، وأنتج كثيرًا، وكأنه أحس بأن العمر لن يتنفس له طويلاً فعاجل الموت، ونطق بالشعر صبيا. فقد قيل إنه خرج يومًا مع عمه وهو صغير فنصب فخا لصيد الطير، فلما هم بالرحيل رفع الفخ وقال:

يـــالك مـن قبرة بمعمـــر	خـلا لك الجو فبيضى واصفرى
ونقـــرى مـــا شئت أن تنقـــرى	قـــد رفع الفخ فماذا تحذرى ؟

لابد يومًا أن تصادى فاحذرى!

وكأن الرواة أرادوا أن يكرموه بعد موته، أو عز عليهم أن تقطع الطريق على هذه العبقرية قبل اكتمالها فانتحلوا له كثيرًا من الشعر؛ ولكن الأديب البصير بمعادن الكلام يستطيع أن يشم ريح طرفة فى كل بيت يعرض عليه.

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثالث ص ٧٠٠ عام ١٩٤٦.

نشأ طرفة فى أسرة كريمة الحسب من ذؤابة بكر بن وائل، ومات أبوه صغيرًا فكفلته أمه «وردة»؛ ولمحت فيه عشيرته مخايل النبوغ فدللته، وبذلت له المال فى سخاء وإغداق. ورأت أمه فيه كثيرًا من صفات أبيه وسجاياه فشغفت به حبا، وبذلت له كل رغبة وأغضت عن كل هفوة، حتى نشأ طفلاً بطرًا متحكمًا، يقول ما يشاء ويفعل مايريد. وترك اليتم فى نفسه عقدة نفسية دفعته إلى السخط على العظماء والأغنياء، والثورة على نظم الحياة وأساليبها، والعطف على الصعاليك و « بنى غبراء ». وزادت تلك العقدة إحكامًا حينما منع أعمامه أمه من مال أبيه ؛ فقال وهو طفل :

ما تنظرون بحق « وردة » فيكم ... صغر البنون ورهط « وردة » غيب
قد يبعث الأمر العظيم صغيرة ... حتى تظلّ له الدماء تصبب
أدوا الحقوق تفر لكم أعراضكم ... إن الكريم إذا يحرب يغضب

وكانت شاعرية طرفة صدًى لنوازع قوية تسيطر على نفسه، وسيلا هدارًا لأربعة ينابيع تصطخب فى فؤاده: كان يتحكم فيه حب الحياة، والميل إلى التمتع بكل ما فيها من لذائذ وعبث، كأن إحساسًا روحيا أوحى إليه بأن حياته ستكون قصيرة الأمد، فأخذ يتملأ من كل ما فيها من متع طولا وعرضًا وعمقًا، ويسرح فى تيهاء اللهو بين شباب القبيلة المترفين بعد أن أعدوا للمجون عدته من فراغ وشباب وجدة، حتى إذا جارت به الطريق، وأسرف فى العبث خلعه بعض أهله. فهو يقول فى معلقته:

ومازال تشرابى الخمور ولذتى ... وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها ... وأفردت إفراد البعير المقيد
رأيت بنى غبراء لا ينكروننى ... ولا أهل هذاك الطراف الممدد
ألا أيهاذا الزاجرى أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى؟
فإن كنت لا تسطيع دفع منيتى ... فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

ويقول فيها :

نداماى بيض كالنجوم وقينة ... تروح إلينا بين برد ومجسد
إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا ... على رسلها مطروفة لم تشدد

وكان إذا صحا من نشواته، وأفاق من صباباته، اتجه إلى ينبوع آخر فوار هو ينبوع العقل والحكمة والتفكير فى شؤون الكون وصروفه، فقد كان على حداثته خبيرًا بالحياة، عليما بأسرار النفوس. فهو يقول:

وأعلم علمًا ليس بالظن أنه ... إذا ذل مولى المرء فهو ذليل
وأن لسان المرء ما لم تكن له ... حصاة، على عوراته لدليل

ويقول :

خالط الناس بخلق واسع ... لا تكن كلبًا على الناس يهر

ويقول :

وعين الفتــى تنبــى بما فى ضميره ... وتعـرفه بـاللحظ حين تنـاطقـه
ومن كـابـد الـدنيـا فقـد زاد همه ... ومن عف واستغنى رأى ما يـوافقـه
إذا المرء لم يبـذل من الـودِّ مثلها ... بـذلت لـه ، فـاعلم بأنى مفـارقـه

أما الينبوع الثالث فهو الزهو بنفسه ، والإعجاب بمواهبه . فإنك ترى شعره فى هذه الناحية صورة صادقة لفتى غض الإهاب ، كريم المنبت ، لماع العبقرية ، عرف قدر نفسه فحتم على الناس أن يزنوها بميزانه ، وأن ينظروا إليهـا بعينه . وزهـاه أنه ولم يبلغ العشرين أصبح فى القبيلـة فتـاها المدلل وصـوتها المجلل .

وأنمى إلى مجد تليـد وسـورة ... تكـون تـراثًـا عنـد حى لهالك
أبى أنـزل الجبـارَ عـاملُ رمحه ... عن السرج حتى خر بين السنابك

ويقول فى معلقته :

فإن تبغنى فى حلقـة القـوم تلقنى ... وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطـد
وإن يلتق الحى الجميع تـلاقنى ... إلى ذروة البيت الشريـف المصمـد

ويقول :

نحن فى المشتـاة نـدعـو الجفلى ... لا تـرى الآدب فينـا ينتقـر
ولقـد تعلـم بكـر أننـا ... آفـة الجزر مسـاميح يسر

ولكن ينبوعًا رابعًا كان أشـد الينابيع غليانًا ، وأطغاها طغيانًا ، ذلك هـو الحقـد على كل عظيم ، والثورة على كل نحام لئيم . وكأن طرفة كان يميل إلى ضرب من الاشتراكية ينال فيه الفقراء من الأغنياء ما يرد عنهم ألم الحاجة فهو يقول :

فلو شـاء ربى كنت قيس بن خـالد ... ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد !

ولم يمدح طرفة فيما نعلم إلا سعد بن مالك وقتادة بن سلمة ، لأنهما كانا جوادين يبذلان أموالهما فى السنين العجاف . ولكنـه هجا غير قليل مـن سادة القبـائل ، ورشق كثيرًا من أبنـاء عمـومته بـالكلم الممض . هجا ابن عمه عبد عمرو بن بشر ، وكان من خاصة الملك عمرو بن هند ، فقال :

أيـا عجبـا من عبـد عمـرو وظلمـه ... لقـد رام ظلمى عبـد عمـرو فأنعما
ولا خير فيــه غير أن لـــه غنى ... وأن لـــه كشحًـا إذا قـام أهضما
لـه شربتـان بـالنهـار ، وأربع ... من الليل ، حتى صار سخدًا مورما

وهجا الملك عمرو بن هند أقذع الهجاء بأبيات منها :

فليت لنـا مكـان الملـك عمـرو ... رغـوثـا حـول قبتنـا تخـور

وهجا بنى المنذر عامة فأفحش وأساء.

وقد كان هذا الهجاء سبب قتله، وهو فى سن العشرين، أو فوقها قليلاً، وقد خلط الرواة فى قصة مقتل طرفة واضطربوا، وحاولوا أن يحسنوا الوضع فلم يحسنوا. زعموا أن طرفة بن العبد قدم مع خاله المتلمس إلى عمرو بن هند لمديحه واستجداء صلته، فجعلهما فى حاشية أخيه قابوس، وكان قابوس شابًا ماجنًا كثير اللهو، يقضى يومه بين الصيد والشراب، وكان يكلف طرفة والمتلمس الوقوف على بابه إذا جلس للخمر، فضاق طرفة بالأمر، ولم يحتمل هذه الذلة فهجا عمرًا وقابوسًا بالقصيدة التى منها:

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثا حول قبتنا تخور

وبعد أن أقاما قليلا رحلا عن الحيرة، ومر زمن نُسى فيه ما كان من هجائهما لعمرو، واتفق أن خرج ابن هند مع بعض حاشيته للصيد وبينهم عبد عمرو بن بشر ابن عم طرفة فأصابوا طريدة فاشتووها، وبينما كان عبد عمرو يأكل إذ بدا كشحه فقال له ابن هند: لقد أبصر طرفة حسن كشحك حين قال:

ولا خير فيه غير أن له غنى وأن له كشحا إذا قام أهضما

فغضب عبد عمرو وقال: لقد قال فى الملك ما هو أقبح وأشنع، وأسمعه القصيدة التى هجاه بها فسكت عمرو وأسرها فى نفسه، وانتوى أن يأخذ طرفة على غرة، وكان المتلمس قد هجا الملك قبل ذلك. ومرت فترة من الزمن قدم بعدها طرفة والمتلمس على ابن هند لالتماس صلته، فكتب لكل منهما كتابًا ليوصله إلى عامله بالبحرين وقال لهما: انطلقا إليه فاقبضا جوائزكما. فخرجا فلما وردا «النجف» قال المتلمس لطرفة: إنك غلام غر، والملك من عرفت حقده وغدره، وكلانا قد هجاه، فلست آمناً أن يكون قد أمر فينا بشر، فهلم ننظر ما فى كتابينا، فإن يكن أمر لنا بخير مضينا فيه، وإن كان أمر بغير ذلك لم نهلك أنفسنا. فأبى طرفة أن يفض خاتم الملك، وعدل المتلمس إلى غلام من غلمان الحيرة فأعطاه الصحيفة فقرأها وصاح: ثكلت المتلمس أمه! فعلم المتلمس ما فيها، وانتزع الصحيفة من الغلام وألقاها فى نهر الحيرة وقال لطرفة: إن ما فى صحيفتك مثل الذى فى صحيفتى فلنعجل بالفرار. فقال طرفة: إن كان اجترأ عليك فما كان ليجترئ علىّ! ففر المتلمس إلى الشام، وذهب طرفة إلى عامل البحرين. فلما قرأ كتابه قال له: هل تعلم ما أمرت به فيك؟ قال: نعم، أمرت أن تجيزنى. فقال له العامل: إن بينى وبينك لخؤولة، فاهرب من ليلتك هذه فإنى قد أمرت بقتلك. فقال طرفة: اشتدت عليك جائزتى وأحببت أن أهرب وأجعل لابن هند علىّ سبيلا. والله لا أفعل هذا أبداً. ولكن العامل تكرم عن قتله وكتب إلى ابن هند: أن ابعث إلى عملك غيرى فإنى غير قاتل الرجل. فعزله واستعمل رجلا آخر يسمى عبد بن هند، فلما قدم أمر بقتل طرفه فقتل.

وهذه الرواية بينة الوضع، ظاهرة الكذب، لأن ابن هند إذا كـان يريد قتل الرجلين فقـد كان من الهين عليه وهو الملك المطاع أن يـأمر بقتلهما وهما بحاضرة ملكه، وإذا كان يخشى صـولة قبيلتهما فإن سما يدس فى طعام، أو رجلا من رجالـه يثب عليهما فى غبش الظلام، كفيل بأن ينيل الملك إربتـه فى غير جلبة أو صخب. ولم لم يمنحهما الملك جائزتيهما من خزانته، ويضطر إلى أن يبعث بهما إلى عامله بالبحرين ؟ إن أحط الناس إدراكا ـ بله طرفة والمتلمس ـ لا يستطيع أن يصدق أن خزائن الملك تضيق بجائزة شـاعرين ! وإذا أجـزنا هذا فلم يعطى الملك كـلا منهما رسالة؟ وهل كـانت رسـالـة واحدة لا تكفى لإبلاغ عامل البحرين إرادة الملك؟ وهل من السائغ فى طـرائق العقول أن يأبى طرفة فض كتابه بعد أن علم ما فى صحيفة المتلمس من موت محقق، وبعد أن نصح له المتلمس بالفرار؟ وهل يصدق مأفون أن طرفة يأبى الفرار، ويتهم العامل بما يتهم، بعد أن قرأ له الرسالة وأعلمه بما فيها وحضه على الهرب؟

يجب أن نرفض هذه الرواية من أولها إلى آخرها. وفى رأينا أن الذى يستسيغـه العقل أن يكون عبد عمرو قد وشى للملك بأن طرفة والمتلمس يهجوانه، فصبر الملك طويلا، وهو يضمر لهما الشر، ثم بعث إلى كل منهما برسـالة يدعوه فيها ويمنيـه الأمانى. أما المتلمس وكـان داهية ماكـرًا فحين بلغته الرسالة علم أنها مؤامرة لهلاكه فألقاها فى مجرى ماء وقال:

وألقيتهـا بـــالثنى من جنب كـــافـر	كـــــذلــك يلقى كـل قط مضلــل
رضيـت لها بـــــالماء لما رأيتهـــــا	يجول بها التيـــــار فى كل جـــدول

وأما طرفة فصـدق ما فى رسالته وذهب إلى عمرو بن هند فقتله، بعـد أن عرف أنه خدع، وأن ابن عمه هو الذى أوغر عليه صدر الملك، وفى ذلك يقول:

أسلمنى قـــــومـى ولم يغضبـــــوا	لســوأة حلــت بهـــم فـــادحـــة
كل خليـــــل كنـــت خـــاللتـــه	لا تـــرك الله لـهـــم واضحـــة !
كلهـــــم أروغ مـــــن ثعلـــــب	مـــا أشبـــه الليلـــة بـــالبـــارحـــة

هذا كل ما فى الأمر. ولكن الرواة طغى بهم الخيال فأوقعهم فى الخبال.

الذين قتلتهم أشعارهم(*)

٣ـ وضّاح اليمن

امتزج فيه الدم الفارسى بالدم العربى العريق، فأبرزا صورة تأنق فيها الجمال، وأبدعت فيها يد القدرة ما شاءت أن تبدع. كان أبوه إسماعيل حميريًا، وكانت أمه فارسية النبعة، تعتز بكل ما فى الفرس من جمال ساحر، ورشاقة فاتنة. ومات أبوه وهو لا يزال رضيعًا فكفلته أمه، وتزوجت رجلا من أبناء الفرس، فشبَّ الغلام فى ظلال حبهما قرير العين ناعمًا مدللا. وكثيرًا ما كانت الهواجس تتواثب على الأم، وهى ترى ابنها يشب فى فناء الدار عابثًا مرحًا، وقد تلألأ وجهه، وتفتحت محاسنه كما تتفتح أكمام الزهر لأشعة الصباح: إن عبد الرحمن زينة كل فناء، وملتقى إعجاب كل عين، وهو حقيق بأن تصونه فى سويداء فؤادها، وأن تتحدى به نساء القبيلة، وأن تحرص عليه حرصها على نسمات الحياة. ولكن القدر يأبى أن يعطى كل شىء كاملا. وهو لا يجود بالنعيم إلا لكى يملأ القلوب حزنًا على زوال النعيم، ولا يبسم إلا بمقدار ما يتألق البرق فى الليلة المظلمة ليجر وراءه جيشًا من الرعود والصواعق.

تتنهد الأم الوالهة فى ألم وحسرة، وتضرب بكف على كف فعل اليائس القنوط، حتى إذا سكتت عنها غشية الحزن، صاحت بعبد الرحمن فأقبل نحوها صخّابًا ضحوكا، فتمسح دمعة عرفت طريقها إلى جفنها بعد طول الاحتباس، ثم تميل برأسها على الغلام فتقبله فى وله ولهفة وتهمس فى أذنه والحزن يكاد يخنقها قائلة:

ـ أتحبنى ياعبد الرحمن؟ فيشب الغلام على أصابع قدميه ليملأ خديها لثما وتقبيلا، ويصيح:

ـ ما هذا السؤال ياأماه؟ لقد مللته وضجرت به! إنى أحبك كما أحب نجم الصباح الخفاق،

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثالث ص ٨٤٠ عام ١٩٤٦.

وصمت الصحراء الهادئ، وظل السرحة فى يوم قيظ. ولن يجد رأسى راحـة إلا فى أن يميل على ذلك الصدر الذى يموج بـالرفق والحنان، فيستريح بعـد كد، ويهدأ بعد اضطـراب. إنى أحـب الجمال وتفتننى الملاحة فى كل شىء. أحب الجمال فيك ياأماه، وأحبه فى النخلة الفارعـة وقد عبث بسعفها النسيم فماست تيهًا واختيالاً، وأحبه فى الأقحوانـة الباسمة سقاهـا الندى فاهتزت كما يهتـز الشارب الثمل، وأحبـه فى الشمس الغاربـة وهى تأبى إلا أن تغـوص فى لجة من الذهـب كما بـزغت فى لجة من الذهـب، فتلصق أمه وجهها بوجهه فى شغف وتقول:

ـ شاعر ابنى ورب الأكاسرة! فينحيها عنه مترفقًا ويقول:

ـ أتسمين الكلام شعرًا؟

ـ لا يابنى! إن الشعر كلام حقًا، ولكن ليس كل كلام شعرًا. ثم تنظر طويلاً فى وجهه وتهمس:

ـ أتحب أن تفارقنى ياعبد الرحمن؟

ـ أفـارقك؟! كيـف ياأمـاه؟ إن غصن الـدوحـة إذا فارق أمـه مـات. وتجيبـه الأم بين الزفـرات والعبرات:

ـ إن أخشى ما أخشاه يـاعبد الرحمن أن يطلبك أعمامك، وأن يغتصبوك منى. ولو فعلوا لذهبت حياتى معك. لقد قلت الآن: إن غصن الدوحة يموت إذا فارق أمه، ولكن الدوحة التى أنبتت فرعها سوف تموت ضربة لازب إذا انتزعوا منها فرعها، لأنه ينبثق من قلبها، وتتغلغل جذوره بين جوانحها. أعرفت كيف أخشى عليك ياعبد الرحمن، وكيف يزيد همى كلما زدت نموًا وجمالاً؟

وبينما هما فى الحديث إذ يدخل زوجها فتنطلق إليه بـاكية حزينة، تبثه لواعج نفسها، وتكشف له عما يساورها من خوف وآلام. ولكن الرجل يطويها إلى صدره فى حنو وإشفاق، ويهدئ نفسها القلقة الواجفة هامسًا: انضحى عنك الخوف يافتاتى، فإن عبـد الرحمن لم يكن ابن أحـد غيرى. إنهم لن يستطيعوا أن ينالوا منه منـالا؛ إنه فارسى لا عربى. ولن يكون للعرب فيه نصيب. إن كل شعرة فى جسده تصيح بأنه فارسى الأرومة كسروى النسب. انظرى إلى عينيه، ثم إلى جبينه، ثم إلى أنفه، هل ترين فيـه إلا ملامح الفرس وسماتهم؟ لا! إنـه ليس من العرب، ولن يستطيع أعمامه أن يستلبوه من أيدينا، ولو أعانهم الخليفـة الأموى. وتهدأ الأم وتعـود إلى وجهها الـوسيم بشـاشته ونضـارته بعـد أن عصفت بها الأحزان.

ويتوثّب القدر، ويضرب الدهر ضربته، وتزدحم الـدار بعم عبد الرحمن وجدتـه لأبيه، ومعهما جماعـة من حمير ومن آل قيفان ومن آل ذى جـدن يطالبـون بابنهم عبـد الرحمن فى شراسـة وصخب. فيشتد الحزن بأمه، ويتملكها الهلع. وتحتضن الغلام فى ذعـر يشبه الجنون، وتأبى أن تسلمه إليهم،

ويصيح زوجها : إن هذا الغلام ابنى، وهو فارسى، ولن أتركه لأحد منكم ولو لقيت الموت دونه. ويشيع الخبر فى الحِلّة فيسارع أبناء الفرس إلى نصرة أخيهم، وتدفع الحمية العرب إلى مظاهرة عم الغلام لاستنقاذه من أيدى أخواله الفرس ويتفاقم الشر، وتتأجج الفتنة، ويصبح الأمر نزاعًا على شرف الجنس بعد أن كان نزاعًا على غلام. ويقبل شيخ الحى فيشير بعرض الأمر على حاكم القبيلة، فتطمئن النفوس الثائرة إلى رأيه، ويرحل القوم ومعهم الغلام إلى الحاكم. ويتقدم إليه عم عبد الرحمن مدعيًا أن الغلام عربى، وأنه ابن أخيه إسماعيل، وأن نسبه ينتهى إلى يعرب بن قحطان. وتؤيده البينة، وتزكى قوله الشهود ويقبل زوج أمه فينكر أن يكون إسماعيل أبو الغلام من جد عربى، ويؤكد أن آباءه الأولين كانوا من الفرس الذين قدموا لنصرة سيف بن ذى يزن على الحبشة. ثم يتجه إلى الحاكم قائلا: « وإذا رجعت إلى نسبه أيها القاضى رأيت أنه عبد الرحمن بن عبد كلال بن داذ، و « داذ » اسم فارسى ما فى ذلك شك، فكيف يزعم هؤلاء أنه عربى خالص النسب ؟ » ولكن الحاكم يرد عليه بأن العرب قد تسمى أبناءها بأسماء العجم فقد سموا بأبرهة وهو اسم حبشى، وأن الأسماء علامات ودلالات لا توجب نسبًا ولا تدفعه، وأن أحد أجداد الغلام يدعى بأبى جمد، وهى كنية يمانية، ولا يعلم أن أمة من الأمم تكتنى غير أمة العرب. ثم حكم بالغلام للحميريين، ويتجه إليه فيبهره جماله، فيمسح بيده على رأسه ويقول: « اذهب فأنت وضاح اليمن ».

ويخرج الحميريون من لدنه فرحين يتسابقون إلى حمل الغلام وإلى تقبيله وتدليله، وتنتحى الأم وزوجها ناحية وهى تشهق بالبكاء وتردد الحسرات.

ينشأ الغلام بين أعمامه، بعد أن نال نصيبه من مال أبيه، نشأة ناعمة مترفة، وينتقل من الطفولة إلى الشباب مرحًا تياهًا، وسيما سمحًا ناضر العود، يزهى بوجه صباحى ألقى عليه الحسن رداءه، وقامة كأنها عامل الرمح، وجسم وثيق العضل فوار ماء الشباب. وكان شديد إحساس النفس، واسع الخيال، مطبوعًا على الشعر مجيدًا فيه ؛ جم الشهوات والنوازع، مولعًا باللهو والعبث ولذائذ الحياة. وكأنما أطغاه حسن صورته فراح يشبب بكل فتاة، وينصب شباكه لكل عذراء نفور ؛ وكان يتقنع لفرط حسنه إذا ورد مواسم العرب كما كان يفعل المقنع الكندى وأبو زبيد الطائى.

أولع بفتاة من بنات الفرس تدعى « روضة » فقال فيها شعرًا كثيرًا منه :

قالت : ألا لا تلجن دارنا	إن أبانا رجل غائر
قلت : فإنى طالب غِرّة	منه ، وسيفى صارم باتر
قالت : فإن القصر من دوننا	قلت : فإنى فوقه ظاهر
قالت : فإن البحر من دوننا	قلت : فإنى سابح ماهر
قالت : فحولى إخوة سبعة	قلت : فإنى غالب قاهر

قالت : فليث رابض بيننا | قلت : فإنى أسد عاقر
قالت : فإن الله من فوقنا | قلت : فربى راحم غافر
قالت : لقد أعييتنا حجة | فأت إذا ما هجع السامر
واسقط علينا كسقوط الندى | ليلة لا ناه ولا زاجر

ولما شفه حبها ؛ واشتهر أمره معها ، خطبها إلى أهلها فأبوا أن يزوجوه إياها ، فرحل عنها يائسًا وهو يقول :

يأيها القلب بعض ما نجد | قد يعشق المرء وهو يتئد
قد يكتم المرء حبه حقبًا | وهو عميد وقلبه كمد
ماذا تريدين من فتى غزل | قد شفه السقم فيك والسهد ؟
يهددونى كيما أخافهم | هيهات أنّى يهدد الأسد

وكان وضاح اليمن يرحل إلى مكة فى موسم الحج ليتلقى وفود الحجاج مقبلة من الشام وفيها الهوادج المطرزة بالذهب ، يحملن الكواعب الحسان ، والجوارى الساحرات ، والغيد الفواتن ، كما كان يفعل ابن أبى ربيعة وغيره من فتيان الشعراء . وكان النساء يتعرضن فى هذا الموسم للشعراء ، ويغرينهم على التشبيب بهن ؛ وينصبن لهم أشراك الفتنة وكان الشعراء فى هذا العهد أشبه بالمصورين فى عصرنا الحاضر تتعرض لهم الفتاة المدلة بجمالها لترى صورتها فى المجلات السائرة بعد يوم أو يومين .

وحج الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى بالناس سنة إحدى وتسعين ، وحجت معه زوجه أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان . وكانت بارعة الحسن فاتنة الملاحة . عرفت أنها جميلة فزادت بجمالها زهوًا ، وقويت فيها غريزة المرأة فأغرتها بالتبرج ، ففتنت الناس وفتنت الشعراء . رآها وضاح اليمن بمكة فسحره جمالها ، وكان معه كُثَيِّر صاحب عَزّة ، فرأى أن يحتفظ برأسه بين كتفيه ويكتفى بالغزل بجاريتها غاضرة ، ولكن وضاحًا كان شاعرًا مفتونًا مغامرًا ، خدعته نفسه فسوّلت له أن جماله سحر أم البنين وأوقعها فى حبائل حبه ، فأرسل الشعر فى التشبيب بها طليقًا غير هياب ، وكأنما غاب عنه أنه يحوم حول عرّيسة أسد ، ويعدو إلى الموت عدوًا . لقد تغزل غيره من الشعراء فى أم البنين ، ولكنهم كانوا أحزم منه ، كانوا يرسلون أبياتهم فى خفية ومكاتمة ، كما كان يفعل عبيد الله بن قيس الرقيات . ولما انقضى موسم الحج رحل شاعرنا إلى دمشق ليكون إلى جوار فاتنته وسالبة لبه ، ومدح الوليد بقصائد منها :

فإنك لو رأيت الخيل تعدو | سراعًا يتخذن النقع ذيلا
إذًا لرأيت فوق الخيل أسدًا | تُفيد مغانمًا وتفيد نيلا
إذا سار الوليد بنا وسرنا | إلى خيل نلفُّ بهن خيلا
وندخل بالسرور ديار قوم | ونعقب آخرين أذى وويلا

ويذيع شعر وضاح فى أم البنين، وينتهى خبره إلى الوليد فيعقد العزم على قتله. ولكن ابنه عبد العزيز يحاول أن يرد أباه عنه، فيدخل عليه راجيا ألا يقتل الرجل. ثم يتوسل إليه بقوله: لا تأبه للرجل ياأبى فإنه مائق مضطرب مسلوب العقل، وإذا قتلته يا أمير المؤمنين حققت قوله فى أمى، وتركت لى سبّة الأبد. ولكن افعل به ما فعل معاوية بأبى دهبل، فإنه لما شبب بابنته، وشكاه إليه ابنه يزيد، وطلب إليه أن يقتله، قال له معاوية: لو قتلته لحققت قوله، ولكنا نبَرُّه ونحسن إليه فيستحيى ويكف ويكذِّب نفسه. ولكن الوليد يأبى أن ينصت إلى رجاء ابنه، ويصيح: ألم تسمع قوله؟

قد أصبحت أم البنين مريضة	نخشى ونشفق أن يكون حماما
يارب امتعنى بطول بقائها	واجبر بها الأرمال والأيتاما
كم راغبين وراهبين وبؤّس	عصموا بقرب جنابها إعصامًا
بجناب طاهرة الثنا محمودة	لا يستطاع كلامها إعظاما

يكفينى أنه يصرح باسمها فى شعره ليطير فى الآفاق ويجمع حولها الشبهات. ثم إنه لم يكتف بذكر أم البنين حتى تعدى إلى ذكر أختى فاطمة إذ يقول:

بنت الخليفة والخليفة جدها	أخت الخليفة والخليفة بعلها
فرحت قوابلها بها وتباشرت	وكذاك كانت فى المسرة أهلها

أما لهذا الكلب مزدجر عن نسائنا وأخواتنا؟ أما له عنا مذهب؟ ويل له منى! والله لأسكتن لسانه. ثم يأمر بعض أعوانه أن يحملوا إليه وضاحًا وحين يساق إليه يأمر بحفر بئر فتحفر ويدفن فيها حيًا.

هذا مجمل قصة وضاح اليمن. وقد زاد فيها الرواة كثيرًا من أكاذيبهم، وبدت فيها أصابع الشعوبية عابثة ساخرة من العرب وخلفائهم. فقد زعموا أن أم البنين بعثت إلى وضاح وكثيّر وطلبت إليهما أن ينسبا بها. وادعوا أنها دعت وضاحًا إلى الشخوص إلى دمشق ومدح الخليفة، وأنها وعدته بأنها ترفده عنده، وتقوى أمره لديه. وروى أصحاب الأخبار أنه وقع بين رجل من زنادقة الشعوبية ورجل من بنى الوليد فخار خرجا فيه إلى أن أغلظا المسابة وذلك فى دولة بنى العباس، فوضع الشعوبى كتابًا زعم فيه أن أم البنين عشقت وضاحًا، وأنها كانت ترسل إليه فيدخل إليها ويقيم عندها، فإذا خافت أن يراه أحد وارته فى صندوق وأقفلت عليه، وأن الوليد بعث إليها مرة بجوهر ثمين مع خادم له، فدخل عليها الخادم مفاجأة ووضاح عندها فأدخلته الصندوق وهو يرى، فأدى إليها رسالة الوليد، ثم قال: يامولاتى هبى لى منه حجرًا فأبت عليه وزجرته، فعاد إلى الوليد وأخبره الخبر، فدخل على أم البنين وهى جالسة فى هذا البيت تمشط شعرها، فجلس على الصندوق ثم قال لها: هبى لى هذا الصندوق، فقالت: كل ما فى البيت لك ياأمير المؤمنين. قال: لا أريد إلا هذا الصندوق. فقالت:

خذ غيره يـا أمير المؤمنين فإن لى فيه أشيـاء أحتاج إليهـا ، قال : ما أريد غيره ، قالت : خذه ، فدعا بالخدم وأمرهم بحملـه وأن يحفروا بئرًا عميقة ، ثم دعا بـالصندوق وأخذ يشير إليـه ويقول : إنه بلغنا شيء إن كان حقًا فقد كفناك ودفناك ، ودفنا ذكرك ، وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر ، وإن كان باطلاً فإنا دفنا الخشب وما أهون ذلك ! ثم قذف بالصندوق فى البئر وهيل عليه التراب .

هذا هو حديث الإفك الجديد ، وهو حديث لا يدخل فى عقل عاقل ، ولا يقابل ممن يعرف سيرة الوليد وصرامته ، ومكانة أم البنين وشدة حفاظها وتمسكها بدينها إلا بالسخرية والاستهزاء .

الذين قتلتهم أشعارهم(*)

٤ - الشاعر المغامر

نشأ بالكوفة فى بيت يمنى رفيع النسب معروف المكانة، واختار له أبوه دراسة العلم والتثقيف فى علوم الدين ليكون فقيهًا محدثًا. وكان الفتى عبد الرحمن بن عبد الله متوقد الذكاء، حاضر البديهة، قوى النفس، فيه مرح، وفيه عزيمة، وفيه بطولة مخبوءة. ولم يكن يظهر لرائيه أنه سيكون له شأن فى الفقه أو الحديث، أو أنه سلك الطريق التى توائم مواهبه وطبائعه. لأن لرجال الدين سمتًا يتميزون به حتى فى أطوار الشباب، وسحناء يعرفون بها من قبل أن يعرف عنهم شىء. إنهم يمشون على الأرض هونا، ويجلسون فى صمت وإطراق، ويتحدثون بما لا لغو فيه ولا تأثيم، وينظرون إلى الدنيا نظرة قاتمة؛ لأنها خداعة غرارة، لا يدوم لها نعيم، ولا تستقر على حال؛ فهم لا يضحكون للنادرة الطريفة، ولا يبهرهم ما أبدع الله من جمال. ولكن ماذا يصنع عبد الرحمن، وهكذا وضعه أبوه، وهكذا قدر له أن يكون، وهكذا ألبس مسوح الراهب، ونزع عنه درع الفارس، وهكذا وضع بين يديه المصحف وكتب الدين، وحجبت عنه طرائف أشعار الأولين! لم يكن يستطيع أن يعمل شيئًا، فطرق المساجد، وتردد على دور العلم، واختار من بين كبار الفقهاء والمحدثين زوج أخته عامرًا الشعبى ليكون له شيخًا وإمامًا. لزم الشعبى أو ألزم الشعبى، وتجرد لدرس الحديث أو ألزم التجرد له، وظن بعض الناس أن سيكون له شأن فى الفتيا وتذليل المشكلات.

ولكنه على الرغم من انصرافه إلى علوم الدين، وما تقتضيه من تبتل، كانت تهفو نفسه إلى أن يركب جوادًا، فيُحضره إلى أبعد ما يكون الحُضْر. وكان إذا رأى فتيان العشيرة يتصارعون أو يتبارون فى القوة، أو فى الصفح بالسيوف، تمنى أن يزج بنفسه بينهم ليصرع أقواهم، ويطيح بسيف ألعبهم بالسلاح،

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الرابع ص ١٠٠٩ عام ١٩٤٦.

وكان إذا بـدت له كـاعب من حسـان الحى امتدت إليها عينـاه فى نهم لا يحسن برجـال الدين وحملة العمائم. وكان كثيرًا ما يباغت نفسه وهى تصوغ أبياتًا فى الغزل، وتترنم بها فى طرب ونشوة. كان يعيش حياتين، ويروح بين الناس بنفسين: نفس تقية ورعة تتجنب الخبائث ما ظهر منها وما بطن، وتنصب على دراسة القرآن والحديـث زاهدة فى الدنيا صـادفة عنها، ونفس فوارة جياشة تموج بـالحب والغزل والشعر، وتحن إلى اعتساف المخاطر واقتحام الخطوب.

بقى عبد الرحمن حائرًا بين هذين النفسين: مضطربًا بين ما يكـون وما يجب أن يكون، حتى رأى فيما يرى النائم أنه دخل بيتًا فيه حنطة وشعير، وسمع قائلاً يقول له: خذ أيهما شئت، فأخذ الشعير. رأى هذه الـرؤيا فأسرع إلى شيخه الشعبى ليعبرهـا له، فأطرق الشعبى مفكـرًا ثم قال: إن صدقت رؤياك تركت القرآن وقراءته وقلت الشعر.

كان التعبير صحيحًا، لأنـه ليس من فـرق بين الشعـر والشعير إلا تلك اليـاء الصغيرة التى قـد يخطؤها أو يشوهها الكاتب، ولعل الشعبى لمح هذا عندما عبر الرؤيا، ولعله لمح أن الشعـر شعير فى هوانه وكساده، وأنه يبذل لمن لا يستحقه رخيصًا فيطرحه ويزدريه. وكيفما كان الأمر، وسواء أصحت رواية المنام أم لم تصح، فإن صاحبنا هجر دراسة القرآن والحديث، واتجه إلى الشعر ظمآن إلى موارده، فنهل منها وعلّ.

لم يتدرج عبد الرحمن فى إجادة القريض، ولكنه وثب إليها دفعة واحدة كـأنه كان يختزن الشعر فى نفسه وهو يدرس الحلال والحرام، فلما فكَّ يديه عنهما، انطلق كما ينطلق السيل الهدار، وسار شعره بين الناس، فبهرهـم وملأ آذانهم لما فيه مـن قوة أسر، وبعد خيال، وروعة لغة، وسلامة أسلوب. ولكل هؤلاء لقبوه «بأعشى همدان».

وما كاد يحتضن مزهر الشعر، حتى طوّف به فى أنحاء البـلاد مدّاحا هجّاء، يحمل فى يمينه تاجا من الفخار لأهل اليمين، وفى شماله سوط عذاب من نار لأهل الشمال.

ورد على النعمان بن بشير وهـو عـامل حمص من قبل مـروان بن الحكم، فشكا إليه حاله، فرأى النعمان أن لهذه الشكاية مـا بعدها، وأن الشاعر يبدأ ذليلا، وينتهى شيطانًا مريدًا، فجمع اليمانيّة وقال لهم: هذا شاعر اليمن ولسانها، وقد دفعته إلينا حاجة، فهل من باذل؟ فنزل له كل رجل عن دينار من عطائه، وكانوا عشرين ألفًا. فمدح النعمان فقال:

ولم أر للحـاجـات عنـد التماسهـا	كنعمانَ نعمان النـــدى بـن بشير
إذا قـال أوفى مـا يقـول، ولم يكن	كمُـدلٍ إلى الأقـوام حبل غـرور
فلـولا أخـو الأنصـار كنت كنـازل	ثـوى مـا ثـوى، لم ينقلب بنقير

وورد مملقا على خالد بن عتاب فأنشده:

رأيت ثنـاء الناس بـالقـول طيبـا عليك ، وقـالوا ماجـد وابن مـاجد
بنى الحارث السامين للمجد : إنكم بنيتم بنـاء ذكـره غير بـائد
هنيئـا لما أعطـاكم الله واعلمـوا بأنى سأطرى خـالـدًا فى القصـائد
فإن يـك عتّـاب مضى لسبيلـه فما مـات من يبقى لـه مثل خـالـد

فافتدى منه عتاب عرضه بخمسة آلاف درهم .

ولهذا الشاعر مواقف مع عتاب تدل على خوف عتاب من سلاطته ومرّ هجائه . روى أهل الأدب أن عتابا كان فى غزاة مع الشاعر ، فحينما قفل الجيش ، خرج جوارى عتاب ليتلقينه وفيهن أم ولد له أثيرة عنده حبيبة إلى قلبه ، فجعل الناس يمرون عليها إلى أن جاز بها الأعشى وهو على فرسه يميل يمينًا وشمالاً من النعاس ، فقالت لجواريها : إن امرأة خـالد تفاخرنى بـالعرب ، وتـزهى علىّ بأبيها وعَمِّهـا وأخيها، وهل يزيدون على أن يكونوا مثل هذا الشيخ المرتعش ؟ وسمعها الأعشى فقال : من هذه فقيل له : هذه جارية خالد ، فضحك وقال : ويل للكسعاء ، ثم وقف أمامها يقول :

ومـا يـدريك مـا فـرس جـرور ومـا يدريـك مـا حمـل السـلاح ؟
ومـا يـدريك مـا شيخ كبير عـداه الـدهـر عن سنن المراح ؟
فأقسم لـو ركبت «الورد» يـومـا وليلتـه إلى وضـح الصبـاح . . .

ثم أتبع الأبيات ببيت رابع كلـه إقذاع ونكر ، فأسرعت الجارية إلى عتاب شـاكية باكية ، وأنشدته الأبيات، ووصفت له الرجل ، فقال : ذلك أعشى همدان . ثم بعث إليه وقال له : إن هذه تزعم أنك هجوتها، فقال الأعشى : إنها أساءت سمعًا ، وإنما قلت :

مـررت بنسـوة متعطـرات كضـوء الصـبح أو بيض الأداحى
على شقـر البغـال فصـدن قلبى بحسن الـدلج والحـدق المـلاح
فقلـت من الظباء ؟ فقلـن سرب بـدا لـك من ظبـاء بـنى ريـاح

فقالت الجارية : لا والله ، ما هكذا قال ، وأعادت الأبيات ، فما كان من حلم خالد ، أو من خوفه ، إلا أن قال للأعشى : والله لولا أنها ولدت منى لوهبتها لك ، ولكننى أفتدى جنايتها بمثل ثمنها ودفعه إليه ، ثم قال له : أقسمت عليك ياأبا المصبح ألا تعيد فى هذا المعنى شيئًا بعد ما فرط منك .

هذا منتهى الحلم ، أو منتهى ما يصل إليه تدليل الشعراء ، غير أن عتابا على الرغم من كل هذا لم يسلم من هجاء أبى المصبح ؛ ذلك أنه منّاه مرة الأمانى ، وأكثر له من الـوعود الحسان إذا ولى ولاية ، حتى لقد قال له : إذا اسند إلى عمل أعطيتك خاتمى لتقضى بين الناس . فلما ولى أصبهان رحل إليه الأعشى فنسى وعوده وأهمله وجفاه ، فرجع الأعشى إلى الكوفة بعد أن أرسل فى هجائه أبياتًا سارت كل مسار منها :

أتـذكـرنـا ومُـرة إذ غـزونـا | وأنت على بغيلك ذى الـوشـوم ؟
ويـركـب رأسـه فى كـل وحل | ويعثـر فى الطـريـق المستقيم
وليـس عليـك إلا طيلسـان | نصيبـى ، وإلا سحـق نيـم
فقـد أصبحت فى خـز وقـز | تبختر مـا تـرى لك مـن حميم
وتحسب أن تلقّـاهـا زمـانًـا | كـذبت ورب مكـة والحطيم

وقد ابتـدع الشاعـر فى هذه القصيدة فنـا من الشعر يمكن أن يسمى بـالشعر الـرمزى، ذلك أن الأبيات حينما بلغت خالدًا بعث إليه من يسأله عن «مرة» الذى ادعى أنه غزا معهما، وعن «البغل» ذى الوشوم الذى كان خالد يركبه وأين كان ذلك؟ ويسأله عن «الطيلسان» و «النيم» اللذين وصفهما ومتى رآه يلبسهما؟ فضحك الأعشى حتى بـدت نـواجذه وقـال: هذا كـلام أردت به وصفـه بظاهـره، أما تفسيره : فإن «مرة» مرارة ثمرة ما غرس عندى من القبيح، و «البغل» المركب الذى ارتكبه منى ولا يزال يعثر بـه فى كل وعر وسهل، وأما الطيلسـان فما أُلبسه إيـاه من العار والـدم. وإن شاء راجع الجميل فراجعته له. فلما بلغ الحديث خالدًا قال: إى والله، إنى أراجع معه الجميل، وأرسل إليه من ترضاه ووصله بمال عظيم.

وعاد الأعشى إلى ما كان له من المنـزلة عند خالد، ولكنه حضره مرة وهو يفـرق العطايا فجعل له أقلها، وفضل عليه آل عطارد، فخرج غاضبًا، وأطلق لسانه فى ذمه فنفد صبر خالد فحبسه ثم أطلقه بعد قليل، فقال فى هجائه :

ومـا كنـت ممن ألجأتـه خصـاصـة | إليك ، ولا ممـن تغـرُّ المواعـد
ولكنهـا الأطماع وهى مـذلـة | دنت بى ، وأنت النـازح المتبـاعـد
أتحسبنـى فى غير شىء ؟ وتـارة | تـلاحظنى شـزرًا وأنفك عـاقـد
فإنك لا كـابنىْ فـزارة فـاعلمن | خلقت ، ولم يشبههما لـك والـد
وإنك لـو سـاميت آل عطـارد | لبـزتـك أعنـاق لهم وسـواعـد

وهذا ضرب من الهجاء محض، فقد كان مما يسبق إلى الظن أن يهجو الشاعر آل عطارد، لأن خالدًا فضلهم عليه، ولكنه يمدحهم ليؤكد علو منزلتهم على خالد مع ما ناله من غبن بسببهم.

ولم تكن حياة الشاعـر ـ كما علمت من بعض ما مر بك ـ حيـاة هدوء واستقرار، فإنه كان لا يفتأ ضاربًا فى الأرض، غازيًا محاربًا، نائيًا عن أهله ووطنه، وله فى هذه الغزوات شعـر من أروع ما سجله ديوان الشعر العربى، وردده أفواه الرواة. جهز الحجـاج بن يوسف جيشًـا من رجال الكـوفة بينهم أعشى همدان إلى غزو الديلم، فطال أمد هذه الحرب، وأخذ فيها الأعشى أسيرًا، فقذف به فى السجن مكبلا، فبقى به حينًا، وكانت قد رأته بنت أمير الديلم، فراعها حسنه واكتمال قوته، فاهتبلت فرصة غفلة مـن أهلها ودلفت إليـه فى ظلمة الليل حـذرة خائفـة تبادله الغـرام، ثم قالـت له: أفرأيت إن

خلصتك اتصطفينى لنفسك ؟! قال: نعم. فحلت قيوده، وأخذت به طرقًا تعرفها حتى جاوزت به مدينة أبيها. وفى ذلك يقول:

أصبحت رهنًـا للعـداة مكبّـلا ... أمسى وأصبح فى الأداهـم أرسـف
ولقـد أرانى قبل ذلـك نـاعمًا ... جـذلان آبـى أن أضـام وآنـف

وضرب البعث على جيش أهل الكوفـة إلى مكران، فأخرجه الحجاج معهم وطـال بمكران مقامه ومرض، فاجتواها، وقال فى ذلك قصيدة من عيون الشعر وقلائده منها:

ولم تـك من حـاجتى مُكـرانُ ... ولا الغـزو فيهـا ولا المتجـر
وخـبرت عنهـا ولم آتهـا ... فما زلت من ذكـرهـا أذعـر
فإن الكثـير بهـا جائـع ... وإن القليـل بهـا مقـتر
ولكـن بعـثت لهـا كـارها ... وقيـل انطلـق كالـذى يـؤمر

وخرج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج بن يوسف سنة اثنتين وثمانين، وحشد معه جمعًا من أهل الكوفة، فلم يبق من أقرانهم أحـد له ذكـر ونباهة إلا خـرج معه. وقذف شاعرنـا بنفسه فى أتون الثورة فكان فارسها المعلم، وشاعرها المفرد، وأرسل الشعر مجلجلا بمـدح ابن الأشعث وذم بنى أمية والتحريض على الحجاج، واستثارة عزائم الجنود، فهو يقول فى ابن الأشعث:

قـرم إذا سـامى القروم تـرى لـه ... أعـراق مجد طـارف وتليـد
وإذا دعى لعظيمـة حشـدت لـه ... همدان تحت لـوائهـا المعقـود
يمشـون فى حلق الحديـد كأنهم ... أسـد الأبـاء سمعن زأر أسـود

وتغلب الحجاج على الثوار سنة ثلاث وثمانين وأسر زعماءهم، وكان منهم الأعشى فلما قدم على الحجاج أسيرًا قال له: الحمد لله الذى أمكن منك، ألست القائل لابن الأشعث وفرسك يهملج بك أمامه:

لما سمـونـا للكفـور الفتـان ... حين طغى بـالكفـر بعـد الإيمان
بـالسيـد الغطـريف عبـد الـرحمن ... سـار بجمع كـالقطـا من قحطـان
ومن معـد قـد أتى ابن عـدنـان ... أمكـن ربـى مـن ثقيـفٍ همدان
يـومًـا إلى الليل يسلى مـا كـان ... إن ثقيفًـا منهم الكـذابـان
كذابهـا المـاضى وكـذاب ثـان

ثم ألست القائل:

يـابن الأشج قريـع كنـــدة لا أبـالـى فيـك عتبـا
أنت الـرئيس ابـن الرئيـــس وأنت أعلى النـاس كعبـا

نبئت حجـــاج بن يـــو سـف ، خرّ مـن زلـق فتبـا
فـــانهض فـــديت لعلـــه يجلـو بـــك الرحمن كـــربـا
وابعث عطيـــــة فى الجنـــو د يكبهـــــن عليـــه كبـــا

كلا ياعدو الله بل عبد الرحمن بن الأشعث هو الذى خر من زلق فتب، وحار وانكب، وما لقى ما أحب. ورفع بها صوتـه واربدّ وجهه، واهتز منكبـاه فلم يبق أحـد فى المجلس إلا ارتعدت فـرائصه.
فتلعثم الأعشى وقال: بل أنا القائل أيها الأمير:

أبـى الله إلا أن يتمـم نـــــوره ويطفئ نـار الفـاسقين فتخمـدا
وينـــزل ذلا بـــالعـــراق وأهلــه كما نقضـوا العهـد الـوثيق المؤكـدا
ومـــا لبث الحجـاج أن سل سيفــه علينـــا فـــولى جمعنـــا وتبـــددا
ومـــا زحف الحجـــاج إلا رأيتـــه حســامـا ملقّى فى الحروب معـوّدا

فقال من حضر من أهل الشام: قد أحسن أيها الأمير فخل سبيله. فقال: أتظنون أنه أراد المدح؟ لا والله، ولكنه قال هـذا أسفًا لغلبتكم إياه، وأراد به أن يحرض أصحـابه. ثم أقبل عليه فقـال له: أظننت ياعدو الله أنك تخدعنى بهذا الشعر وتتفلت من يدى؟ يا حرسىُّ: اضرب عنقه.

الذين قتلتهم أشعارهم(*)

٥ - قتيل السفينة

قيل : عرضه أكبر من طوله ، وكتلة آدمية بشعة منفرة ، وصورة لو حاول مثال أن يجمع ما تفرق من الدمامة فى تمثال ما استطاع أن يأتى بأقبح منها وأشنع ؛ أو لو أراد طفل هازل أن يعبث بقلم ما وفق فى عبثه وتخليطه إلى ماهو أجفى منها للعين وأصدع للقلب ؛ أو لو رأتها تلك المرأة التى أخذت بضبع الجاحظ إلى نقاش ليرسمه لتخيف به ابنها لتركت الجاحظ يذهب إلى سبيله ولرأت فى تلك الصورة ما يرهب جيشًا من الصبيان الطغاة المعربدين .

لسنا من المتجنين على بشار بن برد ، ولسنا من المتندرين به بعد أن أمنا شر انتقامه بموته ، ولسنا ممن يروق لهم أن يصفوا شيئًا قبيحًا ، وقد ملأ الله - وله الحمد والمنة - الدنيا بالجمال ، وهيأ لنا فى هذا الكون من مظاهر الحسن ما يشرح النفس وتهفو له العين ، ومن بدائع الخلق ما يغرى أقلام الكاتبين ويستهوى بدائه الشعراء . ولكنا رأينا إجماعًا من التاريخ ، لا تكاد تند عنه رواية ، على أن بشارًا كان صورة مشوهة تزحف على الأرض ، وأثارة من فصيلة القردة والخنازير دست على البشرية دسا ، وأدخلت زورًا فى بنى الإنسان !

أوصى بشار مرة أحد صناع البصرة أن يصنع له جاما وأن ينقش به صور طير فلما أتمه ووصفه له لم يعجبه وهدده بالهجاء ، فأنذره الصانع - وكان جريئا سليطا - إن هو فعل أن يصوره على باب داره وأن يصور معه قردًا على حال يندى لها جبين الحياء ، فذعر بشار ، وأخذ يترضى الرجل ويقول : أنا أمازحه وهو يأبى إلا الجد !

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الرابع ص ١١٧٢ عام ١٩٤٦ .

وأراد أبو الشمقمق أن ينال منه بعض دراهم، ولم يكن بشار بالجواد المعطاء فزعم له أنه مرَّ بصبية ينشدون:

إن بشـــار بن بـــرد تيـسٌ اعمـى فى سفينـة

فأخرج إليه بشار مائتى درهم، وقال: خذ هذه ولا تكن راوية الصبيان ياأبا الشمقمق!

ورآه رجل من الكوفة منبطحًا فى دهليز، كأنه جاموس، فقال: ياأبا معاذ من القائل:

فى حلتى جسـم فتى نـــاحل لـو هبت الـريح بـه طـاحـا

والله إنى لأرى أن لو بعث الله الـرياح التى أهلك بها الأمم الخالية ما حـركتك من موضعك فبهت بشار ولم يقل شيئًا.

ووصفه الأصمعى: بأنه كان ضخمًا عظيم الخلق والوجه، مجدورًا، طويلاً، جاحظ المقلتين، قد تغشاهما لحم أحمر فكان أقبح الناس عمى، وأفظعهم منظرًا. ويقول فيه حماد عجرد:

فيـــا أقبح مـن قـــرد إذا مـــا مسخ القـــرد!

وقد نكب هذا المسخ الآدمى بِنفْسٍ أقبح من وجهه، وبصور من الرذائل أشنع من صورته: كان جشعًا نهمًا شهوانيا فحاشًـا ماجنًا مستهترًا سادرًا، أفسد بغزلـه نساء البصرة وشبانها، حتى لقـد كان يقول مالك بن دينار: مـا شيء أدعى لأهل هـذه المدينة إلى الفسـق من أشعار هـذا الأعمى! وكـان واصل بن عطاء يقول: إن من أخـدع حبائل الشيطـان وأغواهـا لكلمات هذا الأعمى الملحـد! ونهاه الخليفة المهدى عن الغزل وعن ذكر النساء مرارًا.

وقد يمر بعض شـداة الأدب غير عابئين بتكرار هذه الشكايـة من غزل بشار، ولا بشدة استنكار المهدى له، ونرى أن الأمر حقيق بالنظر، فإننا لم نر أوسع صدرًا من العـرب وملوك العرب بالغزل على كثرة ضروبه وأفانينه. لذلك نرجح أن غزل بشار كان من نوع سمج غير مألوف، وأن هذا الضرب من الغزل ضاع فى جملة ما ضاع من شعره، ولم يبق منه إلا بعض أبيات نقرؤهـا اليوم مشمئزين كارهين، كقصيدة الرائية التى تتضمن حوارًا ماجنًا بينه وبين فتاة أغواها.

لقد ألف الناس فى غزل جميل وكثير وعروة بن حزام وقيس بن ذريح فنا رفيعًا، لايخرج عن تصوير رائع للحسن يجمع بين جمال الوجوه وجمال النفوس؛ أما غزل بشار فكان من نوع خبيث فاجر، عرف مواطن ضعف المرأة، ودرس غرائزها، فسرى إلى قلبها عالمًا كيف يتجه وكيف يسير وكيف يلمس منه مكان الخفقان، حتى لقد دفعت ثقة بشار بسيطرته على المرأة إلى أن يقول:

لا يـــوئسنك مــــن مخبـــأة قـــول تغلظـــه وإن جـــرحـــا
عسر النســـــاء إلى ميــــاسرة والصعب يمكن بعـد ما جمحـا

فتنت عذارى البصرة بشعـره، وفتنت به عذارى العـراق، وتطلعت كل ذات دل إلى أن يشير إليها

فى شعره، أو أن يهتف باسمها فى أغزاله، وأصبحت داره متفيأ للحسان ومقيلا ؛ ولم تجد فتاة من العار أن يختلس منها قبلة، أو يقذفها بإشارة. وهو إلى كل ذلك لم يخجل من دمامته، ولم يقبع بها بعيدًا عن الناس فى خزى وحسرة يخشى أن يؤذيهم بها، أو يصيبه رشاش من تقززهم واشمئزازهم، لأنه كان صفيقًا مغرقًا فى الصفاقة، حتى إنه يقول:

نَمَتْ فى الكرام بنى عامر ... عروقى، وأصلى قريش العجم
فإنى لأغنى مقام الفتى ... وأصبى الفتاة فما تعتصم

ولا يقدم له أنه كان مكفوف البصر عذرًا، فإن فرار الناس من رؤيته، وتواتر وصفهم إياه بالدمامة، طالما قرع سمعه فأوغر صدره على الناس، وإذا كانت «الأذن تعشق قبل العين أحيانًا» كما يقول فإن الأذن يجب أن تعلم ما ينقل إليها إذا لم يكن لرؤية العين من سبيل.

كان له غزل كثير، وليس من غرضنا فى هذا المقال الموجز أن ننقد غزله، أو أن ننقد شعره عامة، ولكننا نرسلها كلمة عابرة قد يعجب لها بعض الناس، هى: أن الناس بالغوا كثيرًا فى شعر بشار. والحق أنه دون ما وصفوا كثيرًا، وأن شهرة بشار إنما جاءت من عوامل أبرزها خوف الناقد منه، ودعاية النساء والشبان له، وتقليد كل طبقة من الأدباء من فوقها. ولو أنك أخذت شعره بيتًا بيتًا لرأيت جيده قليلاً، ولظهر لك أن هذا القليل منتهب مسبوق. لا شأن لنا الآن بالكلام فى هذا فإن ذلك حديث يطول.

كان بشار حاقدًا على الناس لأنه كان يقدر مواهبه فوق قدرها، ويملى عليه غروره أنه يجب أن ينال فوق ما ينال الناس.

سمع بعض أهل البصرة قوله:

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ... ظمئت، وأى الناس تصفو مشاربه؟

فقال له: كنت أظن هذا البيت لرجل كبير. فقال بشار: إنه لأكبر الجن والإنس. وسمع مغنية بالكرخ تغنى من أبياته:

يامنظرًا حسنًا رأيته ... من وجه غانية فديته
بعثت إلى تسومنى ... برد الشباب وقد طويته
ويخضب رخص البنا ... ن يكى علىّ وما بكيته
إن الخليفة قد أبى ... وإذا أبى شيئًا أبيته

فصاح: هذا والله أحسن من سورة الحشر! ونحن لا ندرى، ولا بشار يدرى، لم خص سورة الحشر من سائر السور؛ ولكن إذا صحت الرواية كان الرجل مجنونًا بالعظمة والغرور، وكان له أن يهرف بما يشاء!

إننا لا ننكر ذكاء بشار، ولا قوة عارضته، ولا قدرته على ارتجال النكت اللاذعـة ولكننا ننكر عليه مغالاته فى تقدير هذا الذكاء، حتى لقد ظن أنه أمة وحده، وأن جميع الناس دونه، وأنـه يجب أن يسيطر عليهم ويزدريهم ويتبرم بهم ويبتز أموالهم، وأن يتخذ من شعره سوطًا يسوط به كل شاعر وكل أديب وكل عظيم وكل من تحدثـه نفسه بالتعالى عليه أو بالتهاون بأمره. لم نـر أحـدًا اغتبط بعماه كما اغتبط بشار، حتى لقد جعل منه نعمة يحمد الله عليها، واتخذه أداة للسخرية من الناس، فلقد كان يقول: «الحمد لله الذى أذهب بصرى حتى لا أرى من أبغض». وقال له صاحب له يمازحه: إن الله لم يذهب بصر أحد إلا عوضه بشىء فما عوضك؟ قال: الطويل العريض! قال: وما هذا؟ قال: أن لا أراك ولا أمثالك الثقلاء!

وكان بشـار فى أثناء هذا الحقـد على الناس، وتلك الجرأة المعربـدة للنيل من مالهم وأعراضهم، جبانًا رعديدًا، يجمع ذيله بين ساقيه إذا رأى خصمه لدودًا جريئًا، أو إذا أحس خطرًا داهمًا. فقد كان شعوبيا يكره العرب ويسخر منهم. ويمدح الفرس ويشيد بمجدهم. ولكنه إذا لمح فى الأفق نـذير سوء وضع عقيدته فى علبة ودفنها بين أطباق الثرى، وقام يغنى بأيام العرب ومقاماتها. فهو مرة يفتخر بولاء بنى عقيل:

إننى مـن بنى عقيـل بـن كعـب ... مـوضع السيـف من طلى الأعنـاق

ومرة يستأذن ابن ثور السدوسى فى هجاء أعرابى فيأذن له فيقول:

سأخبر فـاخـر الأعـراب عنى ... وعنـه متى تأذن بـالفخـار
أحين كسيت بعـد العـرى خـزًا ... ونـادمت الكـرام على العقـار
تفـاخـر يـابن راعيـة وراع ... بنى الأحرار؟ حسبك من خسار!

وكان بشار - فيما زعموا - زنديقًا يـدين بالرجعة فى هذه الدنيا، ويكفر جميع الأمة، ويصوب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين، ويقول:

الأرض مظلمـة والنـار مشرقـة ... والنـار معبـودة مذ كـانت النـار

ولكنـه كان يخفى مـذهبـه، ويتحدث بـه فى همس إلى من يثق بهم، وكلما تـوجس شرًا لبس غير ثوبه، واصطنع الإخـلاص وحب الوصول إلى الحق. جادله ابن خلاد مـرة فى مذهبه، فلما أفحمه ذل واستكان وقال: ما أظن الأمر إلا ما تقول، وإن الذى نحن فيه خذلان! ولذلك أقول:

طبعـت على ما فى غـير مخـير ... هـواى، ولـو خيرت كنت المهـذبـا
أريد فـلا أعطـى، وأعطـى ولم أرد ... وقـصر علمى أن أنـال المغيبـا

وأكبر الظن أن يكون بشار ماجنًا، وأنه لم يكن زنديقًا، ولم يكن صاحب رأى، فإن فطرته العابثة

أشغل بمجونها من أن تحقق مـذهبًا دينيًا، أو أن تعنى بـرأى فلسفى، ولكن بغضه للعرب هـو الذى دفعه إلى الثورة على كل ما يتصل بهم وبمعتقداتهم، وأراده على أن يكون زنديقًا.

كان بشار شاعـرًا مستجديًا، فكان يمـدح ولكنه كـان فى أكثر مـديحه يتربص لهجاء ممـدوحيه، ويعرض لهم بما فى نفسه ويهدد، فخافه الناس، واتقى شره الأمراء والوزراء. ورد على خالد بن برمك فكان مما قال له:

فإن تعطنى أفـرغ عليك مـدائحى	وإن تـأب لم يضرب على سـداد
ركـابى على حـرف، وقلبى مشيع	ومـالى بـأرض البـاخلين بـلاد

وكـان يرى أن الهجـاء أجلب للمال من المديح، وأعظم لمهابة الشاعر. قيل له مرة: إنك لكثير الهجاء، فقال: «إنى وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشـاعر من المديح الرائع، ومن أراد من الشعراء أن يكرم فى دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر، وإلا فليبالغ فى الهجاء ليخاف فيُعطى».

وهكذا بقى بشار مستمرًا هجاء الناس، مستنزفا أموالهم بالتهديد. وهو ما يسمى بـالإنجليزية «Black Mailing»، فهجـا جـريرًا وهـو حـدث، وكـان يقـول: «هجـوت جريـرًا فأعـرض عنى واستصغرنى، ولو أجابنى لكنت أشعر الناس». وهجا واصل بن عطاء والأصمعى وسيبويه ويزيد بن مزيد والعباس بن محمد، وهجا روح بن حاتم وكان من عظماء الـدولة العباسية، فقال روح: «ما لى صدقة إن وقعت عينى عليه لأضربنه ضربة بالسيف، ولو أنه بين يدى الخليفة»، فبلغ ذلك بشارًا فقام من فوره حتى دخل على المهـدى وعاذ به، فأحضر الخليفة روحًا وطلب إليه أن يصفح عـن بشار، فقال: إننى قد حلفت ياأمير المؤمنين فاحتل ليمينى. وانتهى الأمر بأن ضربه بعرض سيفه.

وهجـا الخليفة المنصـور فى قصيـدة يمدح بها إبـراهيم بن عبـد الله بن الحسن وكـان خارجًـا على العباسيين، فلما قتل إبراهيم خاف، فقلب القصيدة فى هجاء أبى مسلم الخراسانى.

وهجا يعقوب بن داود وزير المهدى بقوله:

بنى أميـة هبـوا طـال نـومكم	إن الخليفـة يعقـوب بن داود
ضاعـت خلافتكم يـاقوم فـالتمسوا	خليفـة الله بين النـاى والعـود

وهجا المهدى نفسه بقصيدة يشمئز القلم من نقل بعض أبياتها، فدخل يعقوب على المهدى وقال له: ياأمير المؤمنين إن هذا الأعمى الزنديق الملحد قد هجاك، فقال: بأى شىء؟ قال: بما لا ينطق به لسانى. فحلف عليه المهدى بالأيمان التى لا فسحة فيها أن يخبره، فقال: أما لفظًا فلا، ولكنى أكتب ذلك، فكتبه ودفعه إليه فكاد ينشق غيظًا. ثم انحدر إلى البصرة يقصد بشارًا، فلما بلغ البطيحة أمر بإحضاره إليه، وكان فى حراقة، وأمر بأن يضرب سبعين سوطًا، فضرب حتى شارف الموت، ثم ألقى

فى سفينة حتى مات، فجاء بعض أهله فحملوه إلى البصرة ودفن فيها .

وقد شمت الناس بموته، وهنأ بعضهم بعضًا، وتصدقوا، وحمدوا الله حمدًا كثيرًا . وقال أبو هاشم الباهلى :

يــابــؤس ميت لم يبكـه أحــدُ ... أجـل ، ولم يفتقـــده مفتقـــدُ
لا أم أولاده بكتــــــــه ، ولم ... يبك عليـــه لفــرقـــة ولـــدُ
بل زعمــوا أن أهلـــه فــرحًــا ... لما أتــــاهم نعيــه سجـــدوا

الحكمة والأخلاق في شعر شوقي (*)

اختص الله شوقي بخصائص إذا اتفقت لشاعر كان من أفذاذ الشعر وأساطين البيان، فقد طوعت له الفطرة خيالا رائعًا سباحًا ينفذ إلى مكامن أغلقت على كثير ممن سبقوه أقفالها، وسدت أبوابها، ووهبت له الدراسة وحسن الاستعداد لغة صافية نقية كانت في يديه كالغصن الأملود يلويه كيف يشاء، ويذلله لأغراضه كما يريد. وأسلوبًا قرشيا رصينًا بريءٌ من وصمة العجمة، ونجا من ميوعة الحضارة، وركة المتأخرين. واختصه الله بعقل نافذ وحافظة واعية جمعت له من المعاني والأفكار وعقد الصلات بين الأشباه وإدراك الفروق بين المتقابلات والمتشابهات ما يعيا بمثله كثير ممن خاضوا بحار الشعر فغرقوا عند ساحله.

والكلام في شوقي وشاعريته طويل الذيول لا يتسع له مقال، وهو أمر يجب أن تنظر فيه الجامعة وتخصه بدراسات واسعة تستغرق الأعوام.

وقد طلب إلى أن أتحدث في الحكمة والأخلاق في شعر شوقي، وهذا أيضًا مجال فسيح المدى، مترامي الجنبات، ولعلى أوفق فيه إلى الرأى القويم والقول المبين.

الحكمة في الشعر أثر التجربة الصادقة والإدراك الحق، وقوة البصر بحقائق الحياة، والأصل في الشعر أن يكون غنائيًا يصف ما تحس به النفس ويجيش بالصدر، وقد تتسرب الحكمة في غضون وصف الشاعر لآماله وآلامه، وقد ينطلق المثل من فيه من غير قصد عندما يعمق التفكير ويساير العقل الخيال. فقد ظهرت الحكمة في العصر الجاهلي وكان في كثير منها من الدقة وبعد النظرة ما يملؤك روعة وعجبًا. استمع لقول النابغة الجمدى:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

(*) نشرت بمجلة الراديو المصرى بالعدد ٦٥٨ في ٢٥ أكتوبر ١٩٤٧ م. ص ٨.

ولقول طرفة ابن العشرين :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ولقول الهذلى :

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

والتمشى فى هذا الطريق يدفعنا إلى الإطالة .

وهكذا استمرت الحكمة فى الشعر فطرية ساذجة ، حتى جاء العصر العباسى وترجمت كتب الأوائل ، وامتزجت حضارة العرب بحضارات الأمم الأجنبية ، فأصبحت الحكمة دراسة وفنًا قائمًا بذاته ، ودبت الفلسفة إلى الشعر ، وكان أول من حمل هذا اللواء أبو تمام الطائى ، ثم أبو الطيب المتنبى ثم أبو العلاء المعرى فأغرق وأوغل حتى كاد يفسد الشعر بالفلسفة . وجاءت فترة الركود الأدبى فمات الشعر أو كاد ، وماتت معه الحكمة والفلسفة ، ثم نقر فى الناقور ، وبعثر من فى القبور ، وظهر البارودى فى عصر إسماعيل العظيم بشعر جمع خصائص العصور الزاهرة ، فبهر الدنيا وشغل الناس ، وكان البارودى يكثر من الحكمة وضرب المثل ، ولكنها كانت حكمة منقولة مكررة معادة أو تافهة ليس له فيها من جهد إلا النظم وتقديم الأوزان وذلك مثل قوله :

والنفس إن صلحت زكت وإذا خلت ... من فطنة لعبت بها الأهواء

لو لم يكن بين الرجال تفاوت ... ما كان فيهم سادة ورعاء

وقوله :

والدهر مدرجة الهموم فمن يعش ... يهرم ومن يهرم يَمُتْ فيه البلى

ولو ذهبنا فى إحصاء حكم البارودى ، لملأنا منها أوراقا ، على أننا لو قلنا لكل حكمة : اذهبى إلى عشك الذى منه درجت ، لم يبق فى هذه الأوراق شىء .

أما شوقى ، فقد كان يرسل الحكمة مكررة أحيانًا ، شأن غيره من الشعراء ، ولكنه بعد أن نضجت شاعريته واشتد بالقريض أسره ، جعل ينثر الحكمة الشاردة ، رقيقة بعيدة الغور . فهو بهذه الميزة ند المتنبى وصاحبه المجلى ، وقد وصفت فيه هذه الناحية بقصيدة يوم تكريمه جاء فيها :

وقفت تجدد آثارها ... وتنشر للعرب أشعارها

بقول له نفحات الرياض ... إذا نقط الطل أزهارها

أطاعت قوافيه بعد الشماس ... جرىء القريحة جبارها

فمن حكمة علمتها السنون ... حديث النفوس وأخبارها

لها صفحة الكون منشورة ... تترجم بالشعر أسطارها

أشوقى وأنت طبيب النفوس ... وضعت عن النفس آصارها

نصرت الفضيلة من بعد أن ... طواها الزمان وأنصارها

وجئـــت لمصر كعيســى المسيـــح ... تفتــح للنـــــور أبصـــــارهــــا
بـــــآى تفصلهــــــا محكمات ... كـأن من الـــــوحى أسرارهــــا
تــــرد الشبيبـــــة للصـــالحات ... وتــــرجع للـــدين هتــــارهـــا

ووصفت هذه الناحية أيضًا فى قصيدة رثائه ، حين أقول :

عـــالم بـــالنفــوس مـــا غـــاب سر ... فى خبـــايـــا النفــوس حتى أبــانــه
أودع الـدهــر مسمعيه عـن الكــو ... ن ، حـــديثًـــا فلم يطق كتمانـــه
ذاك سر الإلـــه يختص من شـــا ... ء بــآثـــار فضلــه سبحــانـــه
شعـــره حكمـــة وصـــدق خيـــال ... وجمال وروعــــة ورصـــانــــةْ

أولع شوقى بإرسال الحكمة فاستمع له ، وهو يقول بعد العودة من منفاه :

نثــرت الــدمع فى الــدمن البـــوالى ... كنثــرى فى كـــواعبهـــا الشبــابـــا
وقفت بها كما شــــاءت وشــــاءوا ... وقـــوفـــا علّـم الصبر الـــذهـــابـــا
ومن شكـــر المنــاجم محسنـــات ... إذا التبر انجلى شكـــــر الترابــــا
وإن المجـــد فى الـــدنيـــا رحيق ... إذا طـــال الـــزمـان عليـه طـــابـــا

وما أصدق حكمه حين يقول :

لا تثبت العين شيئـــا أو تحققـــه ... إذا تحير فيهـــا الـــدمع واضطــربـــا
والصبح يظلم فى عينيك ســاطعـــه ... إذا ســدلت عليك الشـك والــريبـــا
إذا طلبت عظيما فــــاصبرن لـــــه ... أو فــاحشدن رمــاح الخط والقضبــا
ولا تعـــد صغيرات الأمـــور لـــه ... إن الصغـــائر ليست للعـــلا أهبــا
ولن تـــرى صحبـــة تـــرضى عــواقبها ... كـالحق والصبر فى أمر إذا اصطحبـا
كم صعّب اليوم من سهل هممت به ... وسهّل الغـد فى الأشيــاء مـا صعبـا
ضمـــوا الجهـــود وخلــوهـــا منكـــرة ... لا تملئوا الشــدق من تعريفهـــا عجبا
خلـــوا الأكـــاليل للتـــاريخ إن لـــه ... يـــــدًا تألفهـــــا درًا وتخشلبـــــا
أمـــر الـــرجـــال إليـــه لا إلى نفـــر ... من بينكـم سبق الأنبـــاء والكتبـــا
أملى عليه الهوى والحقـد فانـدفعت ... يـــــداه تـــــرتجلان الماء واللهبـــــا
إذا رأيت الهوى فى أمـــــة حكما ... فــاحكم هنالـك أن العقل قد ذهبـا

ويقول فى نصح قومه :

لا يعجبنكم ســـــاع بتفـــرقــــــة ... إن المقــص خفيــف حين يقتطـع

ويقول :

إذا آخت الجوهـــــرى الحظـــوظ ... كفلن اليتيـم لـــه فى الصـــدف

وإن عـــرضت عنـــه لم يحل فى ... عيـــــون الخرائد غير الخزف

ويقول :

إن الـــذى خلق الحقيقـــة علقما ... لم يخل من أهـل الحقيقـة جيـــلا

ويقول :

بـــالعلم والمال يبنى النـــاس ملكهم ... لم يبن ملـك على جهل وإقـــلال

ويقول :

والظن يأخـــذ مـن ضميرك مأخـذا ... حتى يـــريك المستقيم محالاً

ويقول :

إذا كـــان الــرمـــاة رماة ســوء ... أحلـوا غير مـرمـاهـا السهامـا

وما أحكم قوله :

تقضى على المرء الليـــالى أو لـــه ... فـالحمـد من سلطـانها والـذام

مـا ليس يـدفعـه المهند مصلتّـا ... لا الكتب تـدفعـه ولا الأقـلام

إن الغـــرور إذا تملك أمـــة ... كـالـزهـر يخفى الموت وهـو زؤام

يحصى الـذليل مـدى مطالبه ولا ... يحمى مـــدى المستقبل المقـدام

وقوله :

من يـــرد حقـه فللحق أنصـــا ... ر كثير وفى الـــزمـــان كــرام

لا تـــدومن نـــومـة الحق للبـــا ... غـى فللحق هبـــة وانتقـــام

إن للـــوحـش والعظـام منـــاهـا ... لمنـــايـــا أسبــابهن العظـــام

وقوله :

لا يقـــــولـن الفتـى أصلى فما ... أصلـه مسك وأصـل النـاس طين

نسـب البـــــدر أو الشمس إذا ... جىء بـــالآبـــار مغمــور رهين

وأصـــول الخمــر مـــا أزكى على ... خبث مـا قـد فعلت بـالشـاربين

وقوله :

فـــلا يغـــرنك سكـــون الملا ... فـالموت حـول الصـارم المغمـد

ويقول :

كـل دار أحـق بـــــالأهـل إلا ... فى خبيـث مـن المذاهـب رجـس

وقد أجاد الإجادة كلها فى قوله لبنى الشرق :

فمن خـدع السيـاسـة أن تغـروا ... بـألقـــاب الأمـــارة وهـى رق

وكــم صيــد بــدا لك من ذليـــل كما مــالت مــن المصلــوب عنـــق
ولـــلأوطـــان فى دم كل حـــر يـــد سلفـــت وديــن مستحق
ففى القتـــلى لأجيـــال حيــاة وفى الأسرى فــدى لهـــم وعتـــق
وللحـــريـــة الحمـــراء بــــاب بكل يـــد مضرجـــة يـــدق

والحكم فى شعر شـوقى كثيرة، لا تخلو منها قصيدة، وبخـاصة سياسيـاته واجتماعياته ومـراثيه، حتى إننا لنجدها أحيانا فى غزله، كقوله :

لك نصحـى ومــا عليك جـدالى آفــة النصح أن يكـــون جــدالا

أما حديثه فى الأخلاق فكثير شائع فى ديوانه، لأن شوقى نفسه كان صورة كاملة للخلق الكريم، وقد وصف نفسه بحق فى قصيدته التى يعتذر فيها لتخلفه عن فريضة الحج :

ويـارب هل يغنى عن العبـد حجـة وفى العمـــر مــا فيـــه من الهنـــوات
وتشهـــد مـــا آذيت نفســـا ولم أضر ولم أبغ فى جهـــرى ولا خلـــواتى
ولا غلبتنى شقـــوة أو سعـــادة على حكمـــــة آتيتنـى وأنــــاة
ولا بت إلا كـابـن مـــريم مشفقـــا على حســدى مستغفـرًا لعـداتى
ولا حملت نفس هـــوى لبـلادهـــا كنفســـى فى فعـــلى وفى نفثـاتى
وإنـــى ولا مـــن عليــك بطـاعـة أجـــل وأغلى فى الفـروض زكـاتى
ومن تضحك الـدنيـا إليــه فيغتـرر يمت كقتيـل الغيـــد بـــالبسمات

لذلك أشاد شوقى بالأخلاق، وجعلها أساسا لحياة الأمم ومصدرًا لإسعادها، فهو يقول :

تخلق الصفح تسعـــد فى الحيـاة بـــه فــالنفس يسعـدهـا خلق ويشقيهـا

ويبكى أحيانا ضعف الأخلاق فيقول :

فأيـن النبـــوغ وأيـن العلـــوم وأيــــن الفنـــون وإتقـــانها ؟
وأين مـن الخلق حـظ البـــلاد إذا قتـــل الشيـــب شبـانها ؟

ويقول :

الجهل لا تحيـــا عليـــه جماعـــة كيف الحياة على يدى عـزريلا
وإذا أصيب القـوم فى أخلاقهم فأقـــم عليهم مأتما وعـويـــلا

ولم ينس أن ينوه بالأخلاق فى قصيدته الرائعة التى يصف فيها مملكة النحل :

قف ســـائل النحل بـــه بـأى عقـــــل دبـــــره
يجبك بـــالأخـــلاق وهـــــــى كــالعقـــول جـوهـــره
ويـــــــرفع الله بهـــــا من شـــاء حتـــى الحشـــرة

ويزعم أن الخلق عماد الحياة فيصيح :

رب بـــان لهـــادم وجمـــوع ... لمشـــت ومحســـن لمخـــس
إمـــرة النـــاس همـــة لا تأتـــى ... لجبـــان ولا تسنـــى لجبـــس
وإذا مـــا أصـــاب بنيـــان قـــوم ... وهى خلـــق فإنـــه وهـــى أس

ويقول :

دون الجـــلاء ودون يافـــع ورده ... خطـوات شعب فى القتـاد تسـار
وبنـــاء أخـــلاق عليـــه من النهـــى ... ســـور ومن علـم الـزمـان إطـار

ثم يجمع كل ما فى نفسه فى بيت واحد فيقول :

وليس بعـــامـــر بنيـــان قـــوم ... إذا أخـــلاقهم كـــانـت خـــرابـــا

ولشوقى شعر كثير فى الحث على الإحسـان ، والرفق بالضعفاء ، والـدعوة إلى كل ما ينهض بمصر والشرق ، وشعره إلى ذلك يموج بـالحكمة والاعتصام بالخلق القويم ، ولا يتسع مجالنا هنـا للاستقصاء واستيعاب الشواهد ، ولكننا نرجو أن نكون قد ألممنا بها فيه كفاية وغناء .

شرح نهج البردة(*)

مُدح النبى الكريم بمدائح كثيرة منـذ ظهور الإسلام إلى اليوم. وجاء عصر المماليك فامتاز الشعر بكثرة المدائح النبوية والإجادة فيها. وأشهر شعراء هذا العصر شرف الدين محمد بن سعيد الصنهاجى البوصيرى المتوفى سنة خمس وتسعين وستمائة.

وشعر البوصيرى فى غير المدائح النبوية ضعيف خائر، ولكنه فى البردة والهمزية يحلق إلى أبعد أفق فى البلاغة وجمال الروعة وسمو العاطفة، مما يحملنا على الاعتقاد بأن الرجل كـان شديد التأثر بجلال المقام الذى يقول فيه، وأن روحه وحدها هى التى كانت تتكلم، وأن نفحة نورانية غمرته فتلقف وحيها ونطق بلسانها.

ويحدثنا البوصيرى نفسه عن سبب تسمية قصيدته بالبردة فيقول:

اتفق أنى أصبت بفـالج أبطل نصفى، ففكـرت فى عمل قصيـدتى هـذه وهى البردة، فعملتها واستشفعت بها إلى الله فى أن يعـافينى، ونمت ليلة فرأيت النبى ﷺ فمسح على وجهى بيده المبـاركة وألقى على بردةً فـانتبهت فوجدتنى قادرًا على النهـوض فقمت بارئا من علتى. وشاع خبر هذا المنام حتى بلغ الصاحب بهاء الدين برحنا فبعث إلى وأخذ القصيدة وحلف ألا يسمعها إلا قائما حافيا.

وقد خلقت البردة فنا جديدًا فى الشعر هو فن البديعيات، ذلك أن الشعراء أخذوا يعارضونها مع التزام نوع بـديعى فى كل بيت، وأشهـر هـؤلاء صفى الـدين الحلى وعـز الـدين الموصلى وابن حجـة الحموى. وعارض البردة فى العصر الحديث البارودى فأحسن وأجاد كعادته. ومطلع قصيدته:

يارائـد البرق يمـم دارة العلـم   واحـدُ الغمام إلى حى بـذى سلـم

(*) نشرت بمجلة الراديو المصرى بالعدد ٦٥٨ فى ٢٥ أكتوبر ١٩٤٧ م ص ١٦.

وحينما حج الخديو عباس الثانى سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وألف نظم أمير الشعراء شوقى قصيدته التى سماها « نهج البردة » وجعلها تذكارًا لهذه الحجة، وشعر شوقى رائع كله ولكنه فى هذه القصيدة أبدع وأروع، فإن الذى يقرؤها يشعر بأن الفن إذا اتصل بالصوفية النقية الصافية كان وحيا من الوحى وهمسا من الإلهام.

والآن نأخذ فى شرح بعض أبيات هذه القصيدة الفريدة:

ريم على القاع بين البان والعلم … أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

الريم: الظبى الخالص البياض. القاع: الوادى المنبسط. البان: شجر معتدل الساق تشبه به قدود الحسان. العلم: الجبل. الأشهر الحرم: هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب وكانت العرب لا تستحل فيها القتال. بدأ الشاعر قصيدته بالغزل، فشبه حبيبته بالظبى فى رشاقته وحسنه وجمال عينيه، ثم شكا من أن حبيبته قتلته بالهجر والتجنى، وأحلت دمه فى الوقت الذى تسكت فيه السيوف وتدفن الأحقاد.

لما رنا حدثتنى النفس قائلة … ياويح جنبك بالسهم المصيب رمى

رنا إليه: أطال النظر. يقول إن الحبيبة حينما نظرت إليه فتنته هذه النظرة وأصابت قلبه كما يصيب السهم المسدد مرماه.

جحدتها وكتمت السهم فى كبدى … جرح الأحبة عندى غير ذى ألم

ولكنه كتم هذه الرمية ولم يتشك منها لأن جرح المحبوب لا يؤلم «وكل الذى يأتى الحبيب حبيب».

يالائمى فى هواه، والهوى قدر … لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

لقد أنلتك أذنا غير واعية … ورب منتصت والقلب فى صمم

شفك: أضناك وأنحلك. منتصت: مستمع. يلوم لائمه فى الهوى ويذكره بأن الحب قضاء ليس للمرء فيه حيلة وبأنه لو عرف الحب وبرح به الغرام لكف عن لومه وتعنيفه، ثم يقول. إنى استمعت إلى عذلك مجاملة وإبقاء وكثير من الأحاديث ما يصل إلى الآذان ولا يصل إلى القلوب.

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبدًا … أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فنم

عاد إلى حبيبه بعد أن ذاق فيه آلام الحب فأخذ يدعو له بالسلامة من الهوى وويلاته ويطلب إليه فى رفق أن ينام هانئًا فى رعاية الحب بعد أن أرق محبه وأقض مضجعه.

يا نفس دنياك تخفى كل مبكية … وإن بدا لك منها حسن مبتسم

صلاح أمرك بالأخلاق مرجعه … فقوم النفس بالأخلاق تستقم

والنفس من خيرها فى خير عافية … والنفس من شرها فى مرتع وخم

حسن مبتسم: حسن ابتسام. مرتفع وخم: حياة وبيئة سيئة العاقبة.

انطلق الشاعر من الغزل إلى مناجاة النفس كما فعل البوصيرى، فهو يحذر نفسه من الاغترار بزخرف الدنيا لأنها تخفى وراء ابتسامها شرًا مستطيرًا. ثم يقول: إن النفوس لا تنجو من أوزار هذه الحياة إلا إذا تمسكت بالأخلاق الكريمة فإذا تحلت بخلال الخير عاشت فى أمن وعافية وإذا ترَدت فى مهاوى الشر عاشت فى أسوأ حال.

إن جل ذنبى على الغفــران لى أمل ... فى الله يجعلنـــى فى خير معتصـــم
ألقى رجــائى إذا عــز المجير على ... مفـرج الكرب فى الـدارين والغمم
إذا خفضت جنــاح الـذل أسألــه ... عـز الشفـاعـة لم أسأل سـوى أمم
وإن تقــدم ذو تقــوى بصـــالحة ... قـدمت بين يــديـه عبرة النـدم

خير معتصم: خير ملجأ وملاذ. الغمم: الهموم. لم أسأل سوى أمم: لم أطلب إلا شيئـا هينا عليه. عبرة الندم: دموع الحسرة والأسف.

يقول: إن كان ذنبى عظيما فإن أملى فى غفران الله يجعلنى فى خير حمى وأكرم جناب، وإذا قل من يجيرنى من العذاب فإن لى رجاء فى سيد المرسلين الذى بعثه الله ليفرج الكروب ويكشف الهموم، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم فإذا تقدمت إليه ذليلا خاشعًا أسأله الشفاعة فى لم أسأله إلا شيئًا هينًا يسيرًا، وإذا تقدم إليه التقاة الأبرار بما قدموا من خير وعمل صالح فإنى سأتقدم إليه بدموع الندم والحسرة:

لـزمت بـاب أمير الأنبيـاء ومن ... يمسك بمفتـاح بـاب الله يغتنم
محمــد صفــوة البـارى ورحمتـه ... وبغيــة الله من خلق ومن نسم
ونـودى (اقـرأ) تعالى الله قـائلها ... لم تتصل قبـل من قيلت لــه بفم
هنـاك أذن للـرحمن فـامتـلأت ... أسماع مكـة مـن قـدسيـة النغم

النسيم: النفوس. يقول إنى صرفت نفسى إلى الالتجاء إلى سيد الأنبياء لأنه مفتاح رحمة الله، ومن يظفر برضاه فقد غنم فى الدنيا والآخرة، فهو الذى اصطفاه ربه وأرسله ليكون رحمة لجميع خلقه، وهو الذى أنزل عليه الله: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾[العلق: ١] وهو خطاب لم ينطق به فم لسواه فصدع الرسول بالأمر ودعا إلى دين الرحمن وعز أرجاء مكة بالقرآن فملأ أسماع أهلها بالنغم القدسى والوعى الكريم.

سَـرَتْ بشـائر بـالهادى ومـولـده ... فى الشرق والغرب مسرى النور فى الظلم
أتيت والنـاس فـوضى لا تمرّ بهم ... إلا على صنم قــد هــام فى صنم

يقول: إن الدنيا هتفت مبشرة بمولد الرسولﷺ، وإن هـذه البشرى سرت فى مشـارق الأرض ومغاربها فكانت نورًا يبدد الظلم والظلام، فقد بعث النبى الكريم والناس فى جهالة عمياء عكفوا على عبادة الأوثان فكانوا أصنامًا تعكف على أصنام.

أسرى بك الله ليـــلا إذ مـــلائكـــه والرسل فى مسجد الأقصى على قدم
لما خطـرت بـــه التفـوا بسيـدهم كالشهب بـالبدر أو كالجند بالعلم
صلى وراءك منهم كـل ذى خطـــر ومـن يفـــــز بحبيـب الله يـأتمم
جبت السمـوات أو مـا فـوقهن بهم على منـــــورة درّيـــــة اللجـم
مشيئـــة الخالق البـــارى وصنعتـه وقـــدرة الله فـــوق الشـك والتهم
حتـى بلغت سماء لا يطـــــار لها على جنـاح ولا يسعى على قـــدم
وقيـل كل نبـى عنـــــد رتبتـــــه ويـا محمـد هـذا العرش فـاستلم

الشهب: النجوم. كل ذى خطر: كل ذى منزلـة رفيعة. والمراد بـالمنورة الـدرية اللجم: البراق، ومعنى استلم: قبّل.

يـذكر هنـا إسراء النبى الكريم من مكـة إلى المسجد الأقصى فيقـول: إن الملائكة والرسـل كانوا محتشدين للقائه، وإنهم التفوا حوله كما تلتف النجوم بالبدر والجنـود بالراية وإنهم ائتموا به فى الصلاة وهذا فوز لهم عظيم، ثم يصف عروجه إلى السماء وأنه ركب البراق وهو ليس من جنس الدواب ولكنه من خلق الله القدير ومشيئته العاليـة التى هى فوق الشك وخطرات الظنون، وأنه بلغ السموات العلا التى لا يصل إليها طائر ولا ساع بقدم وأن رتبته كانت فوق رتبة الأنبياء.

يـــارب هبت شعـــوب من منيتهـــا واستيقظت أمم مـــن رقـــدة العـــدم
رأى قضــاؤك فينـــا رأى حكمتـــه أكـــرم بـوجهك من قـــاس ومنتقم
فـالطف لأجل رســول العـالمين بنـا ولا تــزد قــومـــه خسفـا ولا تسم
يـــا رب أحسنت بـدء المسلمين بـــه فتمـم الفضل وامنـح حسن مختتم

هبت: نهضت من رقدتها. لا تسم: لا تكلفنا سوءًا أو مشقة.

يبتهل إلى الله ويسأله اللطف بالمسلمين ويقول: إن شعوبا كثيرة يارب تيقظت بعد الموت وعادت إليها الحيـاة، وقد رأى قضاؤك الحكيم فينا رأيـا وأنت خير قاض وأعدل منتقم، فـالطف اللهم بجاه رسولك بنا، ولا تزدنا ذلا وعـذابًا. ولقـد شملت المسلمين يـارب بـرحمتك ببعثك فيهم محمـدًا فأتمم عليهم النعمة وامنحهم حسن الختام.

الهجرة بطولة وعزم وإيمان(*)

احتلك الظلام قبل بَعثة النبى الكريم، وخبط الناس فى عمياء، وأصابت الكون موجة من الشر والفساد، فطُمست معالم الأديان، ونُبذت الشرائع، وماتت أخلاق الرجال، وأصبح الناس فوضى تقودهم الشهوات، وتسيطر عليهم غرائز الشرّ. فقد كانت الدنيا تعنو لتاجين، وتخضع لدولتين: هما دولة الرومان ودولة الفرس. وقد بلغ هاتان الدولتان قمة عزهما، وأمد مجدهما فى ملاوة من الدهر طويلة، ثم امتد بهما الزمان ونشأت فيهما أجيال فى أكناف الرفاهية والنعيم، رأوا الدنيا تحت أقدامهم، وأن ثمرات العالم تجبى إليهم، فانصرفوا إلى الراحة وناموا فى ظل ظليل من الأمن والثقة، وافتنّوا فى صنوف اللهو الفاجر والعبث الأثيم، وقذفوا بكل ما بقى فى نفوسهم من شهامة ورجولة وخلق رصين، فاضطربت الموازين وانقلبت الأوضاع، وأصبحت الرذيلة من دلائل النبل وكرم المنبت، والفضيلة عارًا تَنفر منه النفوس وسخرية تتنادر بها المحافل.

هكذا كانت الدنيا قبل بعث النبىّ الأمى عليه صلوات الله ورضوانه. أما بلاد العرب فكانت وكرًا للوثنية الجاهلية الغبية، أرخى أهلها على عقولهم النافذة الوقادة غشاء من التعصب والجمود، فعكفوا على أوثان لهم صنعوها بأيديهم، ثم زعموا أنها تضرهم وأنها تنفعهم، وأن لها التصرف المطلق فى هذا الوجود. ولقد كانت هذه الوثنية قبرًا لعقولهم، وقضاء على مواهبهم، وتفريقًا لوحدتهم، فكانوا جميعًا وقلوبهم شتى: شقاق ونزاع بين القبائل، وإدراك كاذب لمعنى الإباء والبطولة، ونخوة فيها جموحٌ وجهل، ووحشية يلتهم فيها القوى الضعيف، وكبر وجبرية لا يلينان لحق ولا يخضعان لحاكم، وحرية مقيدة مغلولة لا تنال إلا بالاحتكام إلى السيوف، وتفاخر أجوف بالألقاب والأنساب. جهل وظلم وظلام! حقًا لقد فسد الكون كله، وضلت الإنسانية سبيلها، وسقطت البشرية فى هوّة عميقة

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ١٣/ ١١/ ١٩٤٧.

الغور بعيدة المرتقى، وتطلعت الأرض إلى السماء تلتمس منها النور والهداية. إن الله أرحم من أن يترك الناس هكذا هملا! وأكرم من أن يدع العقل الإنسانيّ هكذا مرتكسًا بين رذيلة موبقة وجهل محيق!

رأى الله أن يبعث للناس كافة رسولا اختاره واجتباه من صفوة خلقه، رأى الله أن يبعث فيهم محمدًا الأمين بعد أن اصطفاه لنفسه وكمله بأكرم الصفات، وحلاّه بمكارم الأخلاق. اختار رسوله من جزيرة العرب لأنها مقر بيته العتيق، ولأن العرب ـ على ما كان فيهم من جفوة وخشونة ـ كانوا أمة أبيّة، موفورة الذكاء، متأججة العاطفة، سلمت بداوتها من مآثم المدينة، فلم تُضعِف الشهوات رجولتها، ولم تعبث رفاهية النعيم بغرائزها. وهى أمة إذا اقتنعت بحق أو اطمأنت نفوسها إلى رأى قذفت بأرواحها رخيصة فى نصرته، واستعذبت العذاب فى سبيله.

رأى الله جلت حكمته هذا، فبعث فى العرب رسولا من أنفسهم، استطاع بهذه الأمة الصغيرة المفككة، بعد أن وحد كلمتها الإيمان، أن يغزوا بها العالم كله، وأن يَثُلّ بها عروش القياصرة الرومان، ويحطم تيجان الأكاسرة. وأمة العرب لم تذق فى حياتها ذل الاستعمار، أحاطت بها من جانبيها إمبراطورية الرومان ودولة الفرس، وبذلت كل دولة جهودًا فى أن تبسط ظلها عليها، ولكن العرب كانوا أصلب عودًا، وأحمى أنوفًا من أن ينهزموا أمام فاتح، أو أن تلين قناتهم لغازٍ كيفما كان صوله وطوله وحوله؛ فهذه الأمة العزيزة بأنفتها، القوية بأخلاقها كانت أولى بأن يكون رسول الله ﷺ منها، حتى ينشأ كما نشأت، عزيزًا من أعزاء، وحتى يستطيع أن يبعث من حرية الصحراء إلى العالم كله حرية طليقة تضع عنه إصره والأغلال.

نشأ محمد ﷺ فى أرفع بيت وأشرف قبيلة، وكان فى حداثته يمتاز بصدق التفكير وقوة البيان وطهارة النزعة. وإن من يُعده الله لرسالته العظمى ودعوته الكبرى خليق بأن تظهر فيه مخايل النبوة، وأن ينماز عن الناس جميعًا بما أودع الله فيه من وقوى كامنة، وبما أمده من سجايا وشيم. رأت فيه قريش كل هذا، وتكهن عقلاؤها بما سيكون له من شأن وخطر. كان بشرًا مثلهم ولكنه كان روحًا قدسيًّا يمشى على الأرض، وسرًّا سماويًّا يخالط الناس كأنه من الناس. وقد شاء الله عزّ شأنه أن ينشأ نبيه المرجّى يتيمًا وأن تدفعه الحياة إلى طلب الرزق، وأن يلاقى من أحداث الأيام ما يلاقى الناس من خير وشرّ، فما كاد يبلغ العشرين حتى اتخذ التجارة سبيلا لكسب العيش، فطلب الحياة من أسباب الحياة، وفى هذا بلاغ للناس وحكمة بالغة لأولى الألباب. فليت شعرى هل علم قياصرة الروم وأكاسرة الفرس وجحاجحة الأمم جميعًا أن هناك فى زاوية محجوبة من جزيرة العرب، سيفًا بتارًا يريد أن يستل من غمده ليهزم الشرك ويقضى على الطغيان؟ وهل خطر لهم وهم فى غمرات شهواتهم أن كوكبًا سماويًّا من الحق وصدق العزيمة سينقض من حيث لا يتوقعون فيبدِّد شملهم ويفرق سمّارهم؟

نشأ النبى الكريم نشأة روحية طاهرة، فيها زهد، وفيها تبتل، وفيها عزوف عن كل ما يشين.

وكان يقضى فى كل عام زمنًا متحنثًا فى غار حراء منصرفًا إلى التوجه إلى خالقه والتفكير فى دلائل قدرته . صمته عبادة، ونطقه تقديس وتسبيح، ونظراته إيمان واعتبار. وقد هبط عليه الوحى الكريم فى إحدى هذه المرات، فأصابته رجفة وغشيه من هول الأمر ما غشيه، وهاله ما هاله . فما إن سمع صوت الملك هامسًا فى أذنه «اقرأ» حتى صاح فى فزع: «ما أقرأ»، ثم قال : ماذا أقرأ؟ فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [العلق ١ ـ ٥] فكان هذا مبدأ رسالته وأول صوت انطلق فى بطحاء مكة، فهزّ العالم هزًّا، وأطلق العقول من عقالها، أطاع الرسول نداء ربه فأرسل صوته قويًّا مجلجلا فى أنحاء مكة، يدعو قومه إلى الدين الحق، ويبشّر وينذر، لا يهاب قوة ولا يخشى جبروتا، ولقد كان العبء شاقًّا، والجهاد مضنيًا، ولكن صبر النبوة كان لا يخور، وعزم الرسالة كان لا يلين، جاء يدعو القوم إلى إله واحد وإلى نبذ آلهتهم، وفيها مجدهم كما يزعمون، وجاء يصرفهم عن عادتهم بعد أن امتدت فيهم جذورها ورسخت أصولها، وجاء ينعى عليهم التفاخر بالأنساب والألقاب، وهى غذاء غرورهم، وجاء يسوى بين الناس جميعهم وهم أحفل الناس بنظام الطبقات، ثم جاء يشرع لحياتهم ومعاملاتهم بعد أن استمرءوا الفوضى واغتصاب الأموال.

لم يستجب لدعوة الرسول الكريم إلا فئة قليلة شرح الله صدورها للإيمان، ولكن الرسول أقام سنين مثابرًا يصدع بأمر ربه، ويعرض نفسه على القبائل، حتى رأى أن يهاجر إلى المدينة، فهاجر. لقى النبى ﷺ كثيرًا من الإيذاء من قريش، وتعرض لكثير من أسباب الهلاك . إن من يظن أن النبى ﷺ هاجر لإيذاء قريش إنما يقيس حياة الرسل الكرام بحياته، ويحكم على أنفسهم بهواجس نفسه . إن أولى العزم لا يخافون وإنهم معصومون من الناس ومن شر الناس، وإن الذى يقول لابنته فاطمة بعد أن غلبها البكاء لشدة ما يقاسى من قومه : «لا تبكى يا بنية، فإن الله مانع أباك». وإن الذى يقول لصاحبه إذ هما فى الغار: « يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما». إن الذى يقول هذا وهذا لا يأبه لإرجاف ولا يبالى بوعيد. إنما هجر الرسول عليه أزكى السلام مكة لأنه رأى بعد حين، وبعد ما ظهر له من غلظة أهلها وجفوتهم ـ وقد كانت فيهم الرياسة والزعامة ـ أن عقولهم لم تنضج بعد لتفهم الدين الجديد وأنه يجب أن يُترك لهذه العقول الجامحة وقت يراوضها فيه التفكير ويفاديها، فلعل طول التأمل وتكرار النظرات يهدئ من شماسها ويفتح ما أغلق من أقفالها. هكذا رأى النبى الكريم أن يترك قريشًا لأنفسها حينًا من الدهر، على أن يعاودها بالدعوة إلى الإسلام بعد أن يكمل استعدادها ويتم نضجها . وهكذا كان، فإن اعتزاز الدين إنما كان بفتح مكة حين جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا . وقد كان أهل المدينة ألين جانبًا وأشف نفوسًا وأجدر بالإسراع إلى الدعوة لدماثة فى خلقهم ولاختلاطهم بكثير من أهل الكتاب، ولأن بعضهم وفد عليه بمكة، فآمن به وبايعه . لكل هذا هاجر رسول الله إلى المدينة .

والهجـرة من أولها إلى نهايتها عمل كلـه بطولـه وإقدام واستهـانة بـالصعاب. خـرج مع صاحبـه الصديق فى جرأة واعتزام، ومكثا بالغار أيامًـا، وعلم فتيان قريش بخروجهما، فاقتفوا أثرهما والسيوف تلمع فى أيديهم، والشر يصرخ بـاسمه فى وجههم، ولكن الله أعماهم عنه، فنجّى رسالتـه وأتمّ نوره، وحمى رسوله من صولة المشركين.

كان الطريق وعرًا طويلاً، والقيظ لافحًا والسير مضنيًا، ولكن محمدًا وصاحبه كانت تظلهما آمال رفافة النسيم، ويذلل مسالكهما إيمان لا يدع للكلال أو الألم إلى نفسيهما سبيلاً. سارا أيامًا وأيامًا حتى بلغا المدينة فدخلها الرسول وهو يمتطى ناقتـه، وقد أرخى لها زمامها، والمسلمون من أهل يثرب حوله يهللـون ويكبرون حتى بلغت الناقـة مربـدًا لغـلامين يتيمين من بنى النجار، فبركت، فنـزل الرسـول الكريم وطلب أن تبنى لـه دار بهذا المكان وأن يقـام به مسجد للمسلمين. وهكـذا، رسخت صخرة الإسلام شامخة شماء، وهكذا ضرب النبى الكريم المثل الأعلى فى الصبر والثبات لكل مجاهد وثّاب. ثم جاءت الآية الكريمة تتوج هـذه الهجرة المباركة، فتقول: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجـه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم﴾.

الشعر الأندلسي (*)

يمرّ أساتذة تاريخ الأدب وكل من كتب فى تاريخ الأدب بالشعر الأندلسيّ فيقفون به لحظات كما يمر الشاعر الجاهلي على دراسات الأطلال، فلا يلقى عليها أكثر من تحية وذكرى، وربما ودّعها، وهو يزجر ناقته للسير، بكلمة دعاء يسأل لها فيها انهمال المطر وعودة الخصب ورونق الحياة. يمرّون بالشعر الأندلسى فيكتفون بالقول بأن هناك فروقًا بينه وبين الشعر المشرقى، وبأنه يمتاز بكثرة الوصف وتعدد ألوانه، لا يزيدون على ذلك شيئًا، ولا يسمحون بأن يبينوا لنا هذه الفروق حتى ندركها ونشعر بها ونحكم معهم واثقين، وحتى نكون على أهبة لتبيينها لكل سائل، وشرحها لكل طالب، وحتى نستطيع أن نضع شعرًا أندلسيًّا إلى جانب شعر مشرقى ثم نشير بسبّابتنا إلى الفروق فرقًا فرقًا، كما يفعل كل مختص فى صناعته، ماهر طَبّ بمهنته. إن تاجر القطن يعرف أول وهلة نوع القطن الذى يعرض عليه، ويجد من النظرة الأولى الفرق بين ضروبه ومراتبه. وإن عالم التشريح إذا ألقيت إليه عظمًا بشريًّا نبأك بعد قليل باسمه وموضعه من الجسم وبسن صاحبه، وبأنه عظم رجل أو امرأة، وربما قص عليك بعض الأمراض التى اعتورته أيام حياته.

لا يذكر لنا أساتذة تاريخ الأدب شيئًا من هذه الفروق، وإنما يكتفون بكلمات غامضة عائمة، لا تروى غليلاً، ولا تشفى عليلاً. والموضوع جد خطير، وهو مبحث لا ينتهى فيه الأمر بكلمة عابرة، أو فكرة خاطرة. وهذا عيب مؤرخى الأدب من قدامى ومحدثين، لا يتركون سانحة ولا بارحة من غير أن يشيروا إليها، ولا يتركون موضوعًا من غير أن يرسلوا إليه نظرة عاجلة لا تسمن ولا تغنى من جوع. يطرقون كل باب ولا يدخلونه، ويدلون على الكنوز ويكتفون بالبحث عنها فوق الطبقة الأولى من التراب. إن برامج تاريخ الأدب ومناهجه فى المدارس تموج بأدق المسائل وأجدرها بالبحث، ولقد كان

(*) نشرت بمجلة « الكتاب » عدد ديسمبر ١٩٤٧ .

واضعوهـا كرمـاء إلى أقصى حد، أسخيـاء بما لا يدخـل فى طوق باذل. ولكـن يظهر أن عـد أمهات المسائل شىء، وأن بحثها واستقصاء أطرافها شىء آخر، ويظهر أيضًا أن التفكير فيما يمكن أن يبحث ويـدرس سهل هين يسير، وأن البحث نفسـه والـدرس نفسـه من أعقـد الأمـور وأعصـاهـا على غير الراسخين، وربما مرّ بك عنوان طريف فى الأدب له بـريق، وله روعة، فإذا أنعمت فيه النظر وتجرّدت للبحث فيه بجدّ واستيعاب لم تلق أمامك شيئًا، أو التقيت بتوافه من القول لا تغنى فتيلاً.

أنا واثق من أن هنـاك فروقًا بين الشعرين الأنـدلسى والمشرقى، وأنا محسّ هذه الفروق حقًـا، وأنا مدرك مـن غير حاجة إلى تعليل أو فلسفـة أننى بعد قـراءاتى الطويلـة للشعرين الأنـدلسى والمشرقى أستطيع أن ألمح الشعر الأندلسى، وأن أتبين خصائصه غـامضة من وراء ضباب. وأعتقد أن الأديب الذى لا يستطيع أن يمّيز على وجه من الـوجوه بعد طول المعاناة والمزاولـة، خصائص الشعر وسماته فى عصوره المختلفة أديب خائب ضعيف الملكة له دماغ لا تثبت عليه الصور.

وقديما كـان نقاد الأدب يميـزون شعر شاعـر من شعر شـاعر آخر. قـال أبو عبيـدة: أنشد رجل بشارًا:

وأنكـرتنى ومـا كـان الـذى نكـرت   من الحوادث إلا الشيب والصلعـــا

ونسب البيت إلى الأعشى، فـاستنكر بشار نسبتـه إليه وقـال: هذا بيت مصنـوع، ما يشبـه كلام الأعشى. فعجبت لذلك، فلما كان بعد عشر سنين كنت جالسًا عند يونس فقال: حدثنى أبو عمرو ابن العلاء أنه صنع هذا البيت وأدخله فى شعـر الأعشى. فجعلت حينئذ أزداد عجبًا من فطنة بشار، وصحة قريحته، وجودة نقده للشعر.

إن الشعر كالماء يأخذ لون إنائه، وهو مثل كل مخلوق حىّ نابض، يتأثر بالبيئة التى هو فيها، وإذا كـان هناك فـرق بين شعر شـاعـر وشاعـر، فأولى أن يكـون هذا الفـرق أبين وأظهر بين شعـر الموطن والموطن. إن الشعر الجاهلى غير الشعر الإسلامى وهذا لا يماثل الشعر العباسى فى خصائصه؛ وشعر مصر غير شعر الشـام؛ والشعر المصرى فى عهـد الفاطميين غيره أيـام الأيوبيين والمماليك، كـل هذه حقائق ثابتـة بالذوق والإحساس من غير أن تنال مـا تستحق من الدراسة والتمحيص حتى تثبت على الجدل وتأخذ مكانا قريبًا من الحقائق المنطقية التى تصمد للنقد وتعتز بالبرهان.

أما أن الأنـدلسيين أكثروا من الوصف فصحيح، ولكننـى لا أعد هذا من الفـروق بين الشعرين، لأنى أريد الفروق فى الصناعة الفنية، فى الأسلوب، فى الصياغة وفى تصوير الخيال، لا فى أنهم أكثروا من هذا النوع وأقلـوا من ذاك. ومن ذا الذى يعيش فى الأندلس، فى هذه الروضة الـوارفة الظلال، فى هذا الفـردوس الأرضى، ويكون فيـه فطرة الشعـر، ولا يسجع سجع الحمائم؟ من ذا الذى يـرى تلك الأنهار الـدافقة، والأدواح البـاسقـة، والبساتين البـاسمـة، والجبال السـامقـة، ولا يطرّب تطـريب العنادل؟ ولكن بِمَ كانوا يطرّبون؟ وبأىّ لحن كانوا يغنون؟ وعلى أى مزهر كانوا يضربون؟

هل تأثر شعراء الأنـدلس بالثقافة الإسبـانية ؟ سؤال يجب أن يجاب عنه ، لأننـا واثقون إلى حد لا يقبل الشك ، بأن الإسبان تأثروا بالثقافة العربية ، وأن مـدارس العرب كانت مثابة ومآبا لطلاب العلم من القارة الأوربيـة جميعها ، وأن الأدب الإسبانى والشعر الإسبـانى يفيضان بالأخيلة العـربية والذوق العربى ونمط العرب فى التفكير، وأن كثيرًا من كتب العرب ترجمت إلى الإسبانية واللاتينية ، وكانت فى أوربا فى عهود ظلامهـا سراجًا وهاجًا . نحن على يقين من كل هذا، ولكن الذى نـريد أن نتعرفه على نحو تطمئن إليه النفس، هو استفادة الشعر الأندلسى من الحضارة الإسبانية . إن الشعر المشرقى تأثر بالفـرس والرومان واليونـان والهنود، وظهرت آثار هـذه المدنيات فى معانيه وأخيلتـه وأساليب تفكيره، فهل ظهرت فى الشعـر الأندلسى أثـارة من المدنية الإسبانيـة ؟ الحق أن هناك تأثيرًا وتأثـرًا، ولكن هذا التأثر لم يكن فى قوته ووضوحه كما كانت الحال فى تأثر الشعر المشرقى بالحضارات الأجنبية ، لأن عرب إسبانيـا ، وهم الفاتحون المعتزون بقـوميتهم وجنسهم ، كانوا فى مبـدإ الفتح فى قمة من الكبر والصلف والتعصب لعروبتهم لا تطوّع لهم التدلى إلى اقتباس شىء من شعب مستكين مغلوب ، فكانوا فى ذلك أشبه ببنى أمية فى المشرق، على أن هـذا التشبيه يذهب هباء إذا علمنـا أن الأمويين أنفسهم هم الذين كانوا يحكمـون الأندلس فى ملاوة طويلـة من عهود الازدهار. ويجب أن لا ننسى أن الثقافـة الإسبانية أيام الفتح العربى لم يكن لها من القوة والـروعة ما يغرى العرب باقتباسهـا والعكوف على ترجمتها ، كما فعل العبـاسيون فى عهـد نهضتهم الأولى، غير أن العرب فى عهـد ملوك الطـوائف وبخاصـة بعد أن استقرّوا طـويلاً بـالجزيرة، وبعـد أن خمدت من نفوسهم حماسـة الفتح ، وبعد أن امتـزجوا بـالإسبان وأصهروا فيهـم، أخذوا يحاكون الإسبان فى لبـاسهم وسلاحهم وأعلامهم وسروجهم ، وكان كثير منهم يعرف الإسبانية وغيرها ، وكثير يحذق علومهـا وآدابها . قال صاحب « نفح الطيب » : « كان محمد بن أبى بكر المرسى من أعرف أهل الأندلس بالعلـوم القديمة ، كالمنطق والعدد والموسيقى والطب ، وكان فيلسوفًا طبيبًا ماهرًا ، وآية من آيات الله فى المعرفة ، وكان يعلّم أبناء كل أمة بلسانها ما يرغبون فى تعلمه من فنون ، ولما تغلب طاغية الإسبـان على مرسية عرف له قدره ، فبنى له مـدرسة يقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود» .

وقـد تلقى العـرب من الإسبـان شيئًـا غير قليل من مهـارتهم فى الهنـدسـة وفنـون العمارة والنحت والتصوير.

وأظهر ما يبدو لنا من تأثر الشعر الأندلسى بالثقافة الإسبانية ما شاع فيه من نظم حوادث التاريخ وسير الأبطال والملوك ، فإن هـذا شىء جديد فى الشعر العربى من غير شك . وأول ما نقـرأ هذا النوع لابن عبد ربـه صاحب « العقد » ، فقـد نظم سيرة أبطال الإسلام ، ثم جـاء من بعده أبو طـالب عبد الجبار فنظـم قصيـدة طويلـة فى ثلاثة وخمسين وأربعمائة بيـت ، منها سبعة وخمسـون ومائة فى المقـدمة والتوحيد والتصوف وبدء الخليقة وتاريخ الرسل ، ومـائتان وأربعة عشر بيتًا فى تاريخ الإسلام من لدن

الخلفاء الراشدين إلى خلافة المسترشد العباسى، واثنان وثمانون فى تاريخ الأندلس من دولة بنى أمية إلى حكم على بن يوسف بن تاشفين، وكان ذلك حوالى سنة خمسمائة من الهجرة. ولاشك أن الشعر العربى لم يكن له عهد بهذا الطول فى القصيد، ولا بالتعرض لتاريخ الوقائع والأشخاص، فإننا لا نعرف شاعرًا بالمشرق نحا هذا المنحى؛ ونعتقد أن شعراء الأندلس سمعوا كثيرًا من الملاحم الإسبانية الطويلة التى كان يتغنى فيها الشعراء ببطولة شجعانهم، وكان المنشدون من الإسبان ينشدونها فى المجامع والمحافل العامة.

والموشحات الأندلسية قبس من الشعر الإسبانى، أو قل إن الشعر الإسبانى هو الذى أوحى بها ووجه الشعراء إلى تلك الحرية، وأجج فيهم هذا التمرد على الأوزان القديمة، وما يزعم الناس من أن ابن المعتز نظم موشحة لا يؤبه له كثيرًا؛ لأن للموشحات روحًا وفنًّا وطعمًا، وما نظمه ابن المعتز من بعض أبيات لا يخرج فى رأيى عن محض تصرف فى القافية لم يكن معهودًا.

ومن الجديد الذى نلمحه فى شعر الأندلس دفع بعض الشعراء الجماد إلى الكلام، وتحريك لسانه بالحديث، وتنزيل الصخر الأصم منزلة العاقل المدرك، واستنباط العبرة من وراء كل ذلك. وكانت أول محاولة لهم فى هذا الاتجاه ما عقدوه من حوار نثرى بين بلاد الأندلس، فجعلوا كل مدينة تجادل عن نفسها، وتتحدث بمحاسنها، وتفخر على بقية البلدان بما لها من شأن ومكانة، فترد عليها مدينة أخرى وهكذا، وأكبر الظن أن هذا مقتبس من الأدب الإسبانى، فإذا حدث شىء من ذلك فى المشرق كالمنافسة بين السيف والقلم، فإنما هو عن الأدب الأندلسى مأخوذ.

كان العرب يحيون الديار، ويلحون عليها فى أن تتكلم، ولكنها كانت تمتنع أن تفوه بكلمة، حتى ليقول قائلهم:

أمن أمّ أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانة الدراج فالمتثلم

ويقول الآخر:

يادار عبلة بالجواء تكلمى ... وعمى صباحًا دار عبلة واسلمى

ولكن ابن خفاجة الأندلسى استطاع أن ينطق الحجر، فأنشأ لنا قصيدة كاملة قصَّ علينا فيها حديثًا طويلاً لجبل مر به فى طريق سفره. وإنى أزعم أن هذا جديد فى الشعر العربىّ، وأن للبيئة الإسبانية شأنًا فيه. استمع له:

وأرعنَ طماح الذؤابة باذخ ... يطاول أعناق السماء بغارب
يسدّ مهبّ الريح من كل وجهةٍ ... ويزحم ليلاً شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه ... طوال الليالى مُفكر فى العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم ... لها من وميض البرق حمر ذوائب

أصخت إليه وهو أخرس صامت		فحدّثني ليل السرى بالعجائب
وقال : إلى كم كنت ملجأ قاتل		وموطن أوّاه تبتل تائب !
وكم مرّ بى من مدلج ومؤوّب		وقال بظلى من مطى وراكب
ولاطم من نكب الرياح معاطفى		وزاحم من خضر البحار غواربى
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى		وطاحت بهم ريح النوى والنوائب
فما خفق أيكى غير رجفة أضلع		ولا نوح وُرْقى غير صرخة نادب
وما غيض السلوان دمعى وإنما		نزفت دموعى فى فراق الصواحب
فحتى متى أبقى ويظعن صاحب		أودع منه راحلًا غير آئب
وحتى متى أرعى الكواكب ساهرًا		فمن طالع أخرى الليالى وغارب
فرحماك يامولاى دعوة صارخ		يمدّ إلى نعماك راحة راغب

هذا خيال جديد فى أسلوب جديد، وأعتقد أن قصيدة أبى الهول لشوقى إنما هى محاكاة لابن خفاجة .

وتأثر الشعر الأندلسى بالبيئة النصرانية واليهودية واضح . نعم إن هذا التأثر وجد بالمشرق أيضًا منذ قال الشاعر الجاهلى :

إنّ من يدخل الكنيسة يوما		يلق فيها جآذرا وظباء

ولكن شيئًا من ذلك كان قليلا، أما فى الأندلس فكان بيّن الأثر لاختلاط العرب بالفرنجة واليهود اختلاط معاشرة ومخادنة، يقول ابن الزقاق :

وحبب يوم السبت عندى أننى		ينادمنى فيه الذى أنا أحببتُ
ومن أعجب الأشياء أنى مسلم		حنيف ولكن خير أيامى السبت

وتقول نزهون الغرناطية :

لله درّ الليالى ما أحيسنها		وما أحيسن منها ليلة الأحد !

أما محمد بن الحدّاد الشاعر فقد فتن فى صباه بفتاة نصرانية سماها نويرة، ولعل اسمها نورا «Nora» وإن زعم بعض المؤرخين أن اسمها جميلة، وقد أبدع فى التغزل بها، وقال فيها كثيرًا، ومن ذلك قوله :

فإن لى بالروم رومية		تكنس ما بين الكنيسات
أهيم فيها والهوى ضلة		بين صوامع وبيعات
أفصح وحدى يوم فصح لهم		بين الأريطى والدويحات

هذا ما نعرفه الآن من تأثر العرب بثقافة الأندلس، وربما غاب عنا أكثر منه، وربما جهلنا أكثر من هذا الأكثر، ولكنا إذا رجعنا إلى الشعر الأندلسى لا نلمح فيه ثقافة تزيد عن ثقافة العربى الصميم،

أو تزيد عن ثقافة شاعر معاصر فى العهد العباسى، وأكبر ظنى أن الشعر الأندلسى ظل محافظًا فى هذه الناحية وأنه كان يستورد ثقافته من المشرق، ويستغنى عن بضائعه المحلية. لم ينس الأندلسيون المشرق، ولم ينس شعراؤهم أن يغنوا بالمشرق ومجده وحضارته، وكانت الرحلة للتجارة والحج بين الأندلس والمشرق يصحبها رحلات أدبية علمية مستمرة، يحمل فيها الأدباء إلى الأندلس كل مستحدث فى المشرق من شعر وعلم وأدب، فالطريقة النادرة أو المقطوعة الشعرية كانت تقال بالمشرق فلا يمر بها أيام حتى تسمع بالأندلس، وكم من أديب أندلسى أهدى آثاره إلى ملك مشرقى، كما كان بعض مؤلفى المشرق يهدون مؤلفاتهم إلى ملوك الأندلس، وحسبنا من فتنة الأدباء الأندلسيين بالمشرق أن ابن عبد ربه صاحب « العقد » لم يجمع فى كتابه إلا أدب المشرق، حتى إن الصاحب بن عباد حينما قرأه لم يزد على أن قال: « هذه بضاعتنا ردت إلينا ». ولهذه الصلة الوثيقة بين الأدبين كان يشبه الأدباء بعض شعراء الأندلس ببعض شعراء المشرق، فقد سمى ابن هانئ بمتنبى الغرب، وسمى ابن زيدون بالبحترى. ومع هذا لا تزال هناك فروق بين الشعرين فى الصناعة الفنية وطرق تصوير الخيال.

أعلام الإسلام

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (*)

كان من عادة قدماء الفرس عند البدء بمخاطبة كبار ساستهم أن يقولوا : أيها السيد أبقاك الله! وهذا الدعاء على استحالته يوحى إلى النفس بأنه لو تحقق لكان حلا موفقا لكثير من المشكلات السياسية، على شريطة أن يكون المدعو له بالخلود رجلا يجمع كل صفات الرياسة والعبقرية. وكان معاوية بن أبى سفيان من هذا الصنف السياسى النادر، الذى لا تظفر بمثله البشرية إلا بين الحين والحين. ولم يكن حكم معاوية قصير الأمد، فإنه قضى أربعين عامًا يصرّف شئون المسلمين، منها عشرون سنة كان فيها أميرًا للمؤمنين غير منازع. ومع هذا، لو تنفس به العمر وامتد به الأجل لقضى على أسباب الفتنة فى الدولة، ولتغيّر كثير من مظاهر التاريخ. فلقد كان معاوية ملكًا موهوبًا، يجمع جميع آلات الرياسة والسياسة. وكان من الضرب الذى لو وجد فى أى عصر قديم أو حديث لبزّ كبار الدهاة.

قامت دولته على أربع دعائم: البطش، والسخاء، والحلم، وحسن اختيار الرجال. وكان يداول بين هذه الصفات الأربع عقل لوذعى نفاذ كادت تنكشف له محجبات الغيوب، فما عالج أمرًا بمساعدة منها إلا وصل إلى غايته. فهل ورث ابنه يزيد منه تلك الصفات السامية التى مهدت له الأمر، وأذلت له أعناق الرجال، وأخذت بيده إلى الخلافة وقد كانت السبيل إليها أضيق من شدوق الأراقم؟ سنرى! أراد أبوه أن يمهد له سبيل الخلافه، وأن يحمل وجوه الناس وعظماءهم على أن يعترفوا له بولاية العهد، وهذه قصة طويلة فى كتب التاريخ، ظهرت فيها مواهب معاوية وتجلت عبقريته، وقد انتهت باستجابة أهل العراق والشام لدعوته، وبقى الحجاز. والحجاز كان دائما الشوكة القاسية

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ١٦/ ٣/ ١٩٤٨ .

التى تقض مضجع معاوية، ولكنه كان يسكت نائم الفتنة بالحلم والمال. بقى الحجاز الحرون ممتنعا عن الاعتراف بيزيد، فماذا يفعل معاوية؟ سار إليه فى ألف فارس، ثم اختلى بقادته وزعمائه، وأنذرهم بالقتل إن حدثتهم أنفسهم بمخالفته، ثم ذهب بهم إلى المسجد، وأمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل رجل منهم رجلين، ومع كل واحد سيف، فإن رد رجل منهم عليه وهو يخطب بتصديق أو بتكذيب، ضُرب عنقه بلا تردد. ثم صعد المنبر ودعا إلى مبايعة ابنه من بعده بحضورهم، فبايعه الناس. ولقد كان يعتقد معاوية أن مثل هذا لا يكفى، ولكن دهاءه كان يقول له: إنه يكفى إلى حين، وإن فرصة مقبلة سوف تحسم الداء. وحينما حضرته الوفاة لم ينس مصدر بلاء الدولة، فكان من وصاته ليزيد قوله: انظر إلى أهل الحجاز فإنهم أصلك، وأكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب. ولست أخاف عليك أن ينازعك فى هذا الأمر إلا أربعة: منهم الحسين بن على، وعبد الله بن الزبير، أما الحسين فهو رجل خفيف، ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه، فإن خرج وظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحمًا ماسة. وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد، فذاك ابن الزبير، فإن وثب عليك فقطعه إربًا إربًا، واحقن دماء قومك ما استطعت.

ولكن يزيد لم يعمل هذه الوصاة، ولو ورث بعض صفات أبيه لرحل إلى الحجاز بنفسه وأخذ البيعة طوعا أو كرها من الحسين وابن الزبير، ولأطفأ بذلك فتنة أضعفت الإسلام، وامتدت نارها حتى قضت على دولة الأمويين. لكنه ترك الحسين حتى خرج إلى العراق، فكان ما كان من المصائب والويلات. وترك ابن الزبير حتى قوى أمره وكاد يظفر بالخلافة العامة.

إن انحدار الدولة فى عهد يزيد إنما جاء من يزيد نفسه ومن الرجال الذين اختارهم لنفسه. نعم، إنه ورث من أبيه البطش والجرأة، ولكنه لم يكن من نوع بطش معاوية ولا من طابعه، بل كان بطش المغيظ المنتقم الذى لم يدرس صدور الأمور وأعقابها. وقد اختار لولاية العراق عبد الله بن يزيد، وهو فتى فتاك أحمق ليس فيه مكان لرفق أو ذكاء، أراد أن يحاكى أباه فضل الطريق. وولى مسلم بن عقبة جيش الحجاز، وهو قائد مدمر قاس ينقلب بعد الانتصار شيطانا مريدا. فتك ابن زياد بمسلم بن عقيل، ثم قتل الحسين بكربلاء، وقد كان يستطيع أن يرسله إلى يزيد ليرى رأيه فيه ويخلّص الدولة من عار قتل ابن بنت الرسول ﷺ. ولقد كان الشيعة بالعراق يحبون آل البيت حبا لا يدفعهم إلى الموت، فلما قتل الحسين وسبى أهله ونساؤه انقلب هذا الحب فدائية عنيفة لا تبالى بالموت ولا تأبه لحياة.

ارتاح يزيد لمقتل الحسين، وارتاح لما يكون وراءه من آثار، فأحسن بعض الإحسان إلى آل البيت، ولكنا نراه لم يفعل شيئا لابن زياد سوى أن يقول: لعن الله ابن مرجانة، لقد كنت أرضى منه بدون قتل الحسين. وعلم يزيد بعد هذه النازلة أن ابن عباس امتنع عن البيعة لابن الزبير، فأراد أن يحاكى أباه مرة فى دهائه، فكتب إليه: أما بعد، فقد بلغنى أن الملحد ابن الزبير دعاك إلى بيعته، وأنك اعتصمت ببيعتنا وفاء منك لنا، فجزاك الله من ذى رحم خير ما يجزى الواصلين لأرحامهم، الموفين بعهودهم،

فما أنس من الأشياء فلست بناس برك وتعجيل صلتك بالذى أنت له أهل. فانظر من طلع عليك من الآفاق ممن سحرهم ابن الزبير بلسانه، فأعلمهم بحاله، فإنهم منك أسمع الناس ولك أطوع. فكتب إليه ابن عباس: أما بعد، فأما تركى بيعة ابن الزبير، فوالله ما أرجو بذلك برك ولا حمدك، ولكن الله بالذى أراه عليم، وزعمت أنك لست بناس برى، فاحبس أيها الإنسان برك عنى، فإنى حابس عنك برى. وسألت أن أحبب الناس إليك، فلا ولا سرورًا ولا كرامة، كيف وقد قتلت حسينًا وفتيان عبد المطلب، مصابيح الهدى ونجوم الظلام؟ فليس شىء أعجب عندى من طلبك ودى، وقد قتلت ولد أبى، وسيفك يقطر من دمى، ولا يعجبك أن ظفرت بنا اليوم، فلنظفرن بك يوما. والسلام.

كان من آثار هذه الفاجعة وغيرها أن نفرت القلوب من يزيد، وثار أهل المدينة. فماذا فعل يزيد؟ بطش بهم بطشة الجبارين، وأرسل عليهم مسلم بن عقبة. وكان من أمر يزيد له أن ينذرهم ثلاثًا قبل أن يقاتلهم، فإذا ظفر بهم أباح المدينة ثلاثة أيام. وقد فتك مسلم بأهل المدينة فتكا يشبه ما نقرؤه عن هولاكو وتيمور لانك، وأباح المدينة ثلاثًا بين نهب وسلب وإغراق فى العدوان. ثم استخلف الحصين ابن نمير لغزو ابن الزبير بمكة، فأغار عليها بجيشه، وقذف البيت بالمجانيق والنفط والنار.

لم ينشئ يزيد جديدًا فى نظام الحكم، ولم يترك وراءه ذكرًا عطرًا؛ لأن الثورات فى أطراف المملكة استغرقت مدة حكمه. وفى أيامه فتح عقبة بن نافع بعض بلاد بإفريقية حتى بلغ بحر الظلمات ولكنه فقدها فى النهاية وقتل. لم يستطع معاوية أن يلقن ابنه فى حياته سياسة الحكم، ولم يستطع أن يطبعه بطابعه، فقد كان يزيد مولعًا باللهو والمجون وسباق الخيل، وكان استعداده غير استعداد أبيه، وكان يعتقد أن الملك الذى أثّله له لا تخشى عليه الزعاع، وأنه يكفى أن يحكم العرب بالقوة والجبروت حكما عسكريا.

على أن يزيد كان على غرار الشبان المترفين الذين كثروا فى هذا العهد بالمدينة، وكان لهم أثر بارع فى الأدب والغناء، وكانت لهم مجالس لهو وطرب وفى رأيى أن القدر زحزح يزيد عن مكانه وحمله عبء الخلافة وهو عبء لم تخلق له كتفاه. ولقد كان شاعرًا من الطبقة الأولى قبل أن يكون ملكا صالحا، فقد قال بعض المؤرخين: بدئ الشعر بملك، وختم بملك. يعنى امرأ القيس ويزيد بن معاوية. ومن شعره:

جاءت بوجه كأن البدر برقعه ... نورًا على مائس كالغصن معتدل
إحدى يديها تعاطينى مشعشعة ... كخدها عصفرته صبغة الخجل
ثم استبدت وقالت وهى عالمة ... بما نقول وشمس الراح لم تفِل
لا ترحلنّ فما أبقيت فى جلدى ... ما أستطيع به توديع مرتحل
ولا من النوم ما ألقى الخيال به ... ولا من الدمع ما أبكى على الطلل

ويقول فى وصف الخمر

إذا ما طفا فيها الحباب حسبتها ... كواكب درّ فى سماء عقيق
تدب دبيب البرء فى كل مفصل ... وتكسو وجوه الشرب ثوب شقيق
هما ما هما لم يبق شىء سواهما ... حديثُ صديق أو عتيق رحيق
وإنى من اللذات دهرى لقانع ... بحلو حديث أو بمرّ عتيق

وهكذا كان يزيد، وهكذا مضت خلافته، وقد انتظر الناس منه بشغف أن يقوم بعمل عظيم، ولقد قام بهذا العمل فعلا، وقام به على أحسن وجه؛ لأنه أسرع إلى الموت، أو أسرع الموت إليه. فمات سنة أربع وستين. ولله الأمر من قبل ومن بعد، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

عنترة

شاعر الحرب والحب (*)

لم يفز شاعر جاهلي بمثل الشهرة التى فاز بها عنترة، فقد لهج باسمه خاصة الناس وعامتهم، وسار حديث بطولته مسير الأمثال. نشأ عنترة فى كنف أبيه عمرو أو شداد على اختلاف الرواة، عبدًا مهينًا مسكينًا، لأن أمه زبيبة كانت أمَة حبشية أسرها أبوه فى إحدى غاراته. وكانت العرب تستعبد أبناءها من الإماء، فإذا ظهر عنهم نبوغ أو امتازوا بصفات البطولة اعترفوا بهم وألحقوهم بنسبهم. بقى عنترة منبوذًا من أهله، يقوم فى أسرته بما يقوم به العبيد من الخدمة والحلب ورعى الإبل، وكان صدره الجياش بالآمال الجسام كثيرًا ما يثور على القدر، وكانت مواهبه المختبئة تحت ستار من الذلة والمهانة كثيرًا ما تضطرم لتجد لها متنفسا، وكان يعقب هذا وذاك سخط على الأوضاع، وحقد على قوانين الاجتماع. لقد ولد عنترة بطلا، وولد عبقريًا فسيح مدى العقل، بعيد غور التفكير، وولد شاعرًا لم تتفتح أزهار الرياض عن مثل قوافيه. فلم كتب عليه أن يعيش عيشة الذل، وأن يطرح بين السوائم يرعاها كأنه إحدى السوائم؟ ولكن الفرصة لم تبطئ كثيرًا على عنترة، فقد أغار بعض أحياء العرب يوما على قبيلة عبس فاستاقوا إبلا لهم، فتبعهم العبسيون وقاتلوهم عما اغتصبوه ولكنهم لم يظفروا بشىء، فقال له أبوه:

كر ياعنترة! ولكنه أجاب فى سخرية حزينة: العبد لا يحسن الكر، وإنما يحسن الحلاب والصر، فقال له أبوه. كر وأنت حر! فوثب على القوم فبدد شملهم وأعاد إلى قومه إبلهم، وكانت هذه الحادثة فاتحة مجده، فاعترف به أبوه، وأصبح فى قبيلته الفارس المعلم. وكان كلما أحس بأنه هجين وأن أمه أمة سوداء ثارت نفسه، فأسكتها بأن المجد لا يعرف نسبًا، وأن نسبه من أبيه أشرف الأنساب، وأن المرء بما هو فيه لا بأمه وأبيه، ويقول:

(*) نشرت بمجلة الراديو المصرى بالعدد ٦٨٩ فى ٢٩ مايو ١٩٤٨ م ص ٨.

إنى امـــرؤ من خير عبس منصبـــا		شطـرى ، وأحمى سـائرى بـالمنصل
وإذا الكتيبـــة أقبلت وتــلاحظت		ألفيـــت خيرًا مـــن معـــم مخول

وهذان البيتان من قصيدة من أروع قصائده منها :

بكـــرت تخوفنى الحتــوف كـأننى		أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فـأجبتهــــا إن المنيــــة منهـل		لابـــــد أن أسقـى بكأس المنهـل
فـــاقنى حيـاءك لا أبـالك واعلمى		أنى امـــرؤ سأمـــوت إن لم أقتل
إن المنيـــــة لــــو تمثل مثلـت		مثلى ، إذا نــزلــوا بضنك المنـزل
والخيـل تعلم والفـــوارس أننـى		فـــرقـت جمعهم بضربـــة فيصل
إن يلحقوا أكرر ، وإن يستلحمـوا		أشـــدُد ، وإن نـزلـوا بضنك أنـزل
والخيل ســـاهمة الـــوجـــوه كأنما		تسقى فـــوارسهـــا نقيع الحنظل
ولقـــد أبيت على الطـــوى وأظلــه		حتى أنـــال بـــه كـــريـم المأكل

أنشد النبى صلى الله عليه وسلم هذا البيت الأخير وقال : «ما وصف لى أعرابى فأحببت أن أراه إلا عنترة» .

ويروى الرواة أن عنترة لم يعـرف أول أمره بالشعر، ولكنه كان يقـول البيت والبيتين فسابه رجل من عبس وعابه بسـواد لونه وبأنه لا يقـول الشعر، فأجابه عنترة بعـد كلام مر: والله إنى لأحتضر البأس، وأوفى المغنم، وأعف عن المسألة، وأجود بما ملكت يدى وأفصل الخطـة الصمعاء. وأما الشعر فتعلم نبأه ثم قال معلقته.

وشعر عنترة ككل الشعر الجاهلى بـدوى البيئة، روحانى النزعة، سهل الخيـال، قوى الأسلوب، جياش بالعواطف، يصف ما يرى، ويسجل ما يحس، لم يفسده تكلف الصناعة، ولم يذهب بجماله زخرف اللفظ، ولم تثقله الحضـارات الأجنبية بخيالها العميق الغور، ومعانيهـا البعيدة المرتقى. وشعر عنترة يجب أن يؤخـذ بحذر وبحذر شديـد، ويجب ألا يوثق فيه إلا بما رواه الـرواة فى العصور الأولى، لأنه يكثر فيه الموضوع والمنحول. ذلك لأنه منذ وضعت قصة عنترة فى عهد الفاطميين ـ وربما كان قبل ذلك العهد ـ زيفت أشعار كثيرة ونسبت إلى عنترة. والعـالم بالأدب البصير بأفانين الكلام يستطيع أن يميز فى سهـولة مـا كان من الشعر جـاهليا، ومـا كان منه لصيقـا دخيلا، ولكن هـذا الموضوع واسع الجنبات وخير لنا ألا نعرض له الآن.

ومعلقة عنترة أروع شعره وأصدقه وهى تطالع المستمع بقوله :

هل غـــادر الشعـــراء من متردم ؟		أم هل عـرفت الـدار بعـد تـوهم ؟

يقول : إن الشعراء الأولين استـوعبوا معانى الشعر فلم يتركوا مقـالا لقائل ثم ينفتل فى سرعة البرق

إلى الحديث فى المحبوبة فيعطيك صورة للعقلية الجاهلية فى سرعة انتقالها، حتى لكأنها مثال لحياة القوم فى سرعة تنقلهم وانتجاعهم من مكان إلى مكان. ثم ينادى هذه الدار فى رقة تستنزل العصم، وتذيب الصخور الصم!

يادار عبلة بالجواء تكلمى! وعمى صباحًا دار عبلة واسلمى

ثم يقف ناقته عند هذه الدار حزينا مشبوب الجوى فيقول:

علقتها عرضا، وأقتل قومها؟ زعما لعمر أبيك ليس بمزعم

أى طمع فى غير مطمع.

ولقد نزلت فلا تظنى غيره منى بمنزلة المحب المكرم

ثم يصف رحيل المحبوبة، وينتقل إلى وصفها بعذوبة الفم وطيب مقبله، حتى كأن به مسكا فتيقًا أو كأنه نسيم روضة أنف. ثم يثب من الحديث فى الروضة إلى وصف ذبابها:

وخلا الذباب بها فليس ببارح غمدًا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه فعل المكب على الزناد الأجذم

وهذا تشبيه لا يستطيعه شاعر محدث ثم يهزه لاعج الشوق فيتمنى لو زار حبيبته على ناقة قوية خطارة زيافة ثم يسير فى وصف الناقة فيشبهها بالظليم، ويقول: إنها تنحرف فى سيرها لنشاطها، حتى كأن بجانبها هرًا تتقيه ويتقيها، وهذا خيال بعيد وعجيب.

وكأنما تنأى بجانب دفها الـ ـوحشى من هزج العشى مؤدم

الدف الوحشى: الجانب الأيمن. هزج العشى: الهر يموّ بالليل. مؤدم: كبير الرأس قبيحه.

هِرّ جنيب كلما عطفت له غضبى، اتقاها باليدين وبالفم

أترون هذه الصورة التى لا يتخيلها إلا فنان؟ ويعود بعد هذا إلى حبيبته وآسرة لبه فيصف لها نفسه بالشجاعة والسماحة والإباء وحب اللهو والمرح:

إن تغدفى دونى القناع فإننى طب بأخذ الفارس المستلئم
أثنى على بما علمت فإننى سمح مخالقتى إذا لم أظلم
وإذا ظلمت فإن ظلمى باسل مر مذاقته كطعم العلقم
ولقد شربت من المدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلم

المشوف المعلم: الدينار.

فإذا شربت فإننى مستهلك مالى، وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

هـذا من أروع الكلام وأسمحه . ثم يفخر بـالجرأة والإقدام حتى إذا بلغ من ذلك غـايته عـاد إلى حديث غرامه .

هــلا سألت الخيل يـابنة مـالك ... إن كنت جـاهلــة بما لم تعلمى
ينبئك من شهـد الـوقيعـة أننى ... أغشى الـوغى وأعـف عنـد المغنم

وهذا أعظم وصف لبطل كريم .

ومــدجج كـسره الكماة نـزالـه ... لا ممعن هــربـا ولا مستسلم

ما أدق تصوير المتردد الحائر !

فشككت بـالـرمح الأصم ثيابـه ... ليس الكـريم على القنـا بمحـرم

ثم يفتن فى وصف قرنه ويعود فيناجى هواه ويشكو صبابته :

يـاشـاة مـا قنص لمن حلت لـه ... حـرمت على ، وليتهـا لم تحرم !

تكنى العرب عن المرأة بالشاة .

فبعثت جـاريتى فقلت لها اذهبى ... فتجسسى أخبـارهـا لى واعلمى
قـالـت رأيت من الأعـادى غـرة ... والشـاة ممكنـة لمن هـو مـرتمى

ويطفر من هذا إلى تصوير حومة القتال فى أسلوب قوى متين :

فى حـومـة الحرب التى لا تشتكى ... غمـراتها الأبطـال غير تغمغم
إذ يتقـون بى الأسنـة لم أخـم ... عنهـا ولكنى تضـايق مقـدمى

لم أخم : لم أجبن .

لما رأيت القــوم أقبل جمعهم ... يتـذامـرون كـررت غير مـذمم
يـدعـون عنتر والـرمـاح كأنها ... أشطـان بئـر فى لبـان الأدهم

الأشطان : الحبال . اللبان : الصدر .

مـا زلت أرميهـم بثغـرة نحـره ... ولبـانـه حتى تسربـل بـالـدم
لـو كان يـدرى ما المحـاورة اشتكى ... ولكـان لـو علم الكـلام مكلمى

ومات عنترة بعد أن شـاخ وكبر. كان فى غزاة فسقط عن جواده ولم يستطع الـركوب ، فرآه فتى من طيئ فقتله . وهكذا يموت أشجع الشجعان وأفرس الفـرسان ، ولكنه يموت كما يموت كل حى ، ثم يعيش كما يعيش كل عبقرى بآثاره ، ويخلد كما يخلد كل نابغ بما ترك وراءه من مجد وذكريات .

أعلام الإسلام

صقر قريش عبد الرحمن الداخل

حاكم جبار.. وشاعر رقيق(*)

يبدو أن للعباقرة سمات خاصة، وأن لأرواحهم نفحة متميزة يشمها من وهبت له تلك الحاسة الخفية، التى تقرأ ما وراء الغيب فى لمحات الوجوه، والتى تهديها الفراسة إلى سبر غور النفوس. فقد قالوا: إن عبد الرحمن بن معاوية دخل يومًا وهو صبى على جده هشام بن عبد الملك، وكان يحادث أخاه فى شأن ذى خطر، فانطبق الطفل إلى جده ليجلس فى حجره، فنحاه هشام عنه فيما يشبه الغضب، فصاح به مسلمة وكان روحانى النظرة، صادق الفراسة: دعه يا أمير المؤمنين، فإنه صاحب بنى أمية ووَزَرهم عند زوال ملكهم. وقد حققت الأيام ظن مسلمة، وكتبت لهذا الطفل المدلل أن يكون سيد أبطال العالم، وأثبتهم نفسًا وأبعدهم آمالا، وأنفذهم ذكاء، وأوسعهم دهاء وسياسة.

دالت دولة بنى أمية، وقام على أشلائها بنو العباس، فأعملوا السيف فى كل أمى، وانتشر أعوانهم فى البلاد يتصيدون بنى أمية فى غير رفق وفى غير هوادة، وسمع خلفاؤهم وأطاعوا القول لشاعرهم الذى يقول:

فضع السوط وارفع السيف حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

والآن نترك بطلنا بقصته من بدايتها، فإن لبساطة لغته، وصدق نبراته حلاوة تبزّ كل حديث منمق بليغ، قال:

(*) فى سلسلة أعلام الإسلام. وأذيعت من الإذاعة المصرية فى ٤/ ٧/ ١٩٤٨.

إني جالس يومًا بإحدى قرى الفرات، فى ظلمة بيت تواريت فيه، لرمد كان بى، وابنى سليمان يلعب فى فناء الدار، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها، إذ دخل الصبى إلىّ فازعا باكيا، فخرجت أنظر، فإذا بالروع قد نزل بالقرية، وإذا بالرايات السود (رايات العباسيين) عليها منحطة، وأخ لى حديث السن يشتد هاربا وهو يصيح: النجاء النجاء يا أخى، فهذه رايات المسوِّدة. فنجوت بنفسى وأخى معى، وخرجت فكمنت فى موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار، فلم تجد لى أثرًا. ومضيت فأتيت رجلا من معارفى بشط الفرات، فأمرته أن يبتاع لى دواب وأن يعد ما يصلح لسفرى، فوشى بى عبد سَوْء إلى عامل القرية، فما راعنى وراع أخى إلا جلبة الخيل تحفزنا، فاشتددنا فى الهرب، وسبقنا إلى الفرات، فرمينا بأنفسنا، والخيل تنادينا من الشط: ارجعا لا بأس عليكما، فسبحت حاثًّا لنفسى، وكنت أحسن السبح، وسبح الغلام أخى فلما قطعنا نصف الفرات قصّر أخى ودهِش، فالتفتُّ إليه لأقوى من قلبه، فإذا هو قد أصغى إليهم، وهم يخدعونه عن نفسه، فناديته: تقتل يا أخى. إلىّ، إلىّ. فلم يسمعنى، وإذا هو قد اغتر بأمانهم، وخشى الغرق فاستعجل الانقلاب نحوهم، وقطعت أنا الفرات وحدى وقد همَّ بعضهم بالتجرد للسباحة فى أثرى، فاستكفّه أصحابه وتركونى. ثم قدموا الصبى الذى صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثكلا ملأنى مخافة، ومضيت هائمًا أحسب أننى طائر، فلجأت إلى غيضة أشِبة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب، ثم خرجت هاربا أؤم المغرب حتى وصلت إلى إفريقية.

بلغ بطلنا المقدام إفريقية، ولحقه بها خادمه بدر، فأقام نحو خمس سنين مستخفيا، حاول فى أثنائها أن يجمع حوله ثوار المغرب الساخطين، ولكنهم كانوا شراذم مفككة الأوصال، وما زال يضطرب بين القبائل حتى استقر به المقام بمحلّة على ساحل البحر لقوم من زناتة، فكان يجلس على الساحل ويمد بصره نحو إسبانيا، والآمال تتراقص حوله، والعزائم تغلى فى نفسه، والطموح يكاد يطير به إلى الشاطئ البعيد. ولم لا يطمح مثل عبد الرحمن إلى هذه الغاية التى يراها غيره محالا؟ ولم لا تذلل نفسه الوثابة فى سبيلها كل صعب جموح؟ إن الصراع الدائم بالأندلس بين البربر والمضرية واليمنية جدير بأن يمهد له السبيل، وأن يفتح أمامه كل مغلق. ألم يكن من تلك السلالة الأموية التى ملكت الدنيا وملأت راياتها الآفاق؟ ألم يكن له ذلك الطابع الذى يهيؤه للعظمة والمجد؟ وإذا لم يَرمِ بنفسه بين أنياب الصعاب، فلمن إذًا أعدت خطيرات الأمور؟

لذلك أرسل خادمه بدرًا إلى الأندلس، ليمهد له السبيل بين زعماء جند الشام النازلين بإلبيرة، فذهب بدر إلى الأندلس، وحدّث هؤلاء الزعماء بشأن مولاه، فأحسنوا استقباله، ووعدوه بنصرة سيده، وكانوا لا يزيدون على الأربعمائة.

وبينما كان عبد الرحمن فى ذات أصيل يصلى على سيف البحر، إذ رأى السفينة التى تحمل بدرًا

ووفد الأندلس، فنزل بعض رجالها وهويقول: أبشر يا سيدى! فسأله عبد الرحمن: ما اسمك؟ قال: تمام. فقال: وما كنيتك؟ قال: أبو غالب. فصاح عبد الرحمن: الله أكبر، تم أمرنا وغلبنا بحول الله وقوته. ثم نزل السفينة فأبحرت به فى سبتمبر سنة خمس وخمسين وسبعمائة ميلادية، وكان فى الحادية والعشرين من عمره، وما كاد يصل إلى ساحل إلبيرة حتى أقبل عليه مناصروه، وانثال عليه الناس انثيالا، فبلغ إشبيلية، وعقد العزم على السير إلى قرطبة، ولما لم يجد لجيشه علماً أتى بقناة وربط بها عمامته، وقد كتب الظفر لهذا العلم الصغير، فلم يهزم فى موقعة قط. ولما أقبل عبد الرحمن على المدينة خرج له صاحب الأندلس يوسف الفهرىّ فتغلب عليه، ودخل قرطبة ظافرا. ولم تمض سنة على نزوله الأندلس حتى كان المسيطر على جميع أرض إسبانيا. وبإقدام هذا البطل وعبقريته وبعد همته، قدّر للدولة الأموية فى الأندلس أن تبقى فى الحكم نحو ثلاثة قرون.

كان عبد الرحمن الداخل شجاعًا واسع الحيلة، استطاع أن يحتفظ بملكه بين الزعازع والعناصر المضطربة لأنه كان سريعًا عند الخطب، قوى العزيمة إذا وثب، غير متحرج إذا صمم، شديد البطش إذا غلب، سياسيا داهية، أعد لكل مفاجأة عدتها، وكثيرًا ما عجمته الحوادث فرأت فيه بطلا همامًا.

لم يستقر بعيشه طويلاً حتى اجتاز العلاء بن مغيث ليرفع العلم العباسى بإسبانيا، فحاصر عبد الرحمن بجيش لجب فى قرمونة ولكن عبد الرحمن كان عبقريًا لا يطيش له جنان، فجمع سبعمائة من خيرة رجاله، ثم أوقد نارًا عظيمة وصاح فيهم: إننا الآن بين حالين: نصر مؤزر أو موت محقق. ثم ألقى بقراب سيفه فى اللهب، فتأثر أصحابه وألقوا بقربهم فى النار، وأقسموا ألا يضعوا السيوف فى أغمادها حتى يهزموا أعداءهم، ووصلت أنباء هذه الهزيمة إلى المنصور العباسى، فقال: ما فى هذا الشيطان مطمع، فالحمد لله الذى صير هذا البحر بينى وبينه.

وثار عليه البربر فى الشمال فأطفأ ثورتهم، ثم وثب على اليمنية فاستأصل شأفتهم، وقتل منهم ثلاثين ألفا فى موقعة واحدة.

ومنذ ذلك الحين استقر الأمر للداخل، وخضع لعزيمته كل زعيم وأثبت أنه سيد الموقف، وتقرب إليه قارله وهو الاسم العربى لشارلمان ملك فرنسا، ودعاه إلى السلم والمصاهرة، فقبل السلم وأبى المصاهرة.

ظفر عبد الرحمن بإخضاع قومه، ولكنه لم يظفر بإخلاصهم، لأنه كان لا يجامل أحدا يقف فى طريق سياسته، ولا يصفح عن زلة من أقرب الناس إليه، فقد قتل أكثر معاضديه عندما هبط الجزيرة بعد أن شك فى وفائهم، وقتل كثيرا من أهله وأقاربه، ونفى خادمه بدرًا الذى ذلل له الطريق إلى الأندلس.

ويصف بعض المستشرقين عبد الرحمن بأنه جبار لطخ عرشه بالدماء، ولكن ماذا كان يعمل منشئ دولة جديدة بين عتاة جبارين، إن لم يكن قاسيا جبارًا ؟ لقد كان من الصعب على عبد الرحمن أن يسلك لتوطيد الحكم سبيلا أخرى، ولم تكن إليه من وسيلة لاجتثاث الفوضى إلا أن يقابل هذه الفوضى بالشدة والعسف .

ولكن عبد الرحمن الشاعر كان غير عبد الرحمن الملك السياسى، فإن شعره يدل على رقة العاطفة ولطف الإحساس، كتب إلى أخته فى الشام :

أيها الراكب الميمم أرضى ... أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما تراه بأرض ... وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الدهر بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضى

ومات عبد الرحمن فى ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين ومائة، وهو ابن سبع وخمسين سنة، ولا يزال ذكره حيا يدوى فى الآفاق، فعليه الرحمة والرضوان .

صديقى أحمد شوقى (*)

فى مدينة رشيد تلك المدينة الشاعرية الهادئة ، التى تقبل أذيالها الأمواج ، وتتوج هامتها الرمال الذهبية ، نشأت فى أسرة فتنت بالأدب ، وأغرمت بفطرتها وباستعدادها الموروث بروائع الشعر على اختلاف ألوانه وفنونه . وكان أبى إذا جلس بعد العشاء التف حوله أبناؤه فتنقل بهم من أدب إلى تاريخ إلى بحوث سهلة فى اللغة ، ثم إلى شعر جزل رصين . ولقد كان عليه الرحمة كثير القراءة ، قوى الحافظة ، حسن العرض والأداء ، فكان متاعًا أن نستمع له ، وأن ترف نفوسنا حوله طليقة مرحة فى هذا الجو العجيب . وكان أخى الأكبر مولعا بشعر شوقى ، معجبا به ، لا تكاد تظهر له درة حتى يلتقطها ، أو تنشر له الجرائد قصيدة حتى يحفظها فى ضبط وإتقان ، كأنها من وحى السماء ، فإذا أجاد حفظها أخذ يترنم بأبياتها فى غدواته وروحاته ، لا يلهيه عنها إلا أن تظهر لشوقى قصيدة أخرى . وكنت فى غضاضة صباى ، وقد أكون فى طفولتى ، أترسم خطا هذا الأخ الكريم ، وأتخيل فيه المثل الأعلى الذى إليه أصبو ، وبالآمال فى ظلاله أعيش . وكم كنا ننتظر الأعياد والمواسم وما يجد من صروف وأحداث ، لتطلع علينا جريدة المؤيد بفريدة من فرائد شوقى . وأذكر أنى كنت أترقب البريد فى شوق وشغف ، فلا أكاد أظفر بالجريدة وألمح فيها قصيدة لشوقى حتى تأكلها عينى فى شوق ونهم ، وفى الحق أن جوع الأرواح أقل صبرًا على الحرمان من جوع الجسوم ، ثم أعود إلى أخى وأناوله القصيدة فيسرع إلى قراءتها بصوت رنان رائع الإيقاع ساحر الأداء ، يزيد جمالها جمالا ، ويملأ منها الفراغ الذى لم يستطع الشاعر ولم تستطع اللغة أن تملأه .

ولن أنسى ما حييت تلك الروعة الروحانية التى كانت تهز قلبى هزا ، حينما كنت أتعثر فى قراءة قصيدته فى السلطان عبد الحميد التى بعث بها من الآستانة لتنشر بمصر :

(*) ذكريات طريفة . . لم يسبق نشرها عن أمير الشعراء . نشرت بمجلة «الهلال» بالمجلد ٥٦ الجزء ٩ ص ٨٤ عام ١٩٤٨ .

بـــالله يـــانسمات النيل فى السحـــر هل عنـدكن عن الأحبـاب من خبر ؟
عــــرفتكن بعـــرف لا أكيفــــه لا فى الغـــوالى ولا فى النـور والـزهـــر

ومنها :

ومـــا شجـــانى إلا صـوت ســاقيــة تستقبـل الليل بين النـــــوح والعبر
لم يترك الـوجـد منهـا غير أضلعهـا وغير دمع كصـوب المزن منهمـــر
بخيلـــة بمآقيهـــا فلـــو سئلت جفنًـا يعين أخـا الأشـواق لم تعـر

ومنها وقد أبدع فى التخلص :

مصر العــزيـــزة مـــا لى لا أودعهـــا وداع محتفظ بـــالعهـد مـدكـــر !
خلفت فيهـا القطـا مـا بين ذى زغب وذى تمائم لم ينهـض ولم يطـــــــر
أسلمتهـم لعيـــــون الله تحرسهـم وأسلمــــــونى لظـل الله فى البشر

وتعـاودنى الآن وأنا أكتب هـذه الأبيات ، تلك الـروعـة التى هزتنى فى صبـاى ، وتطوف حـولى أطياف براقة من الشباب النضر والأمل الباسم ، فسقيا للشباب ولأيام الشباب !

* * *

عرفت شوقى حينما تفتحت عيناى على شعر يقرأ ، عرفتـه وصادقته على بعد ما كان بيننا من ديار وآفاق ، عرفته غلاما ليس لاسمه وجـود إلا فى سجل المواليد ، وهو هو شوقى العلم الفرد فى مصر ، وشاعر القصر الذى ملأ اسمه أسماع الزمان ، عرفته فى شعره ، ودرست خلجات نفسه فيما كان يبوح به لسانه أو يطويه صدره .

ثم دارت الأيام وتقلبت الصروف ، ولم يعد شـوقى شاعر القصر؛ لأن المقادير أرادته على أن يغرد طليقًا ، وعلى ألا يكـون شاعر فـرد بعينه بل شـاعر مصر والشرق . وكنت فى هذه الفترة أستـاذًا بدار العلوم منصرفًا عن الشعـر بدروسى وكتبى وأوراقى ، ولكن شيطان الشعر لم يمهلنى طـويلاً ، فطاف بى ذات ليلة وهمس فى أذنى بقصيدة أولها :

مـــا لى فتنت بلحظك الفتـــاك وسلـــوت كـل مليحـــة إلاك !
يسراك قـد ملكت زمـام صبـابتى ومضلتى وهــــداى فى يمنـــاك

ونشرت جريـدة الأهرام القصيدة ، وأعجب بها النـاس ، وأخذ اسمى يجد فى الأفواه مكـانا ، ولم يمض غير قليل حتى قابلنى شوقى فى أحد محافل القاهرة ، فعرفته مرة أخرى بعد أن عرفته فى شعره ، وكان بى حفيـا فاتصلت بيننا أواصر المودة ، وتعـددت المقابـلات ، ففهمت نفس الرجل ، ودرست عاطفة الشاعر وطرائق فنه .

كان شوقى جم التواضع طاهر القلب ، سخى الكف لطيف العاطفة ، خيرًا . وكان قليل الكلام كثير الإطراق ، وأغلب الظن أنه كان ينظم الشعر وهو جالس بين أصدقائه ، فكان يكتفى بأن يبعث

إليهم بالكلمة أو الكلمتين ثم ينصرف إلى قصيدته التى هو بصدد نظمها . كنا نطوف يوما فى سيارة حول الجزيرة فأعطانى كتفه وانصرف عنى طويلاً ، حتى كدت ألوم نفسى على مرافقته ، ولكنه بعد لأى التفت إلى فجأة وسألنى سؤالا فى اللغة ، وكان السؤال عجيبا ؛ لأن الجواب عنه لم يكن يخفى على مثل شوقى ، وضحكت وعلمت أنه يريد أن يجاملنى بالحديث . وأستطيع أن أقول هنا : إن شوقى كان مكينا فى اللغة وفى طرائق استعمالها ، ولم يكن يأخذها من المعجمات ، وإنما كان ينهل من صحيح الشعر وجيد النثر . ولو أردنا أن نتعقب ذلك فى شعره وأن ندلل عليه لطال حبل الكلام .

* * *

وحينما عاد من إسبانيا زادت مودتنا توثقا ، واتفق أن حضر أخى الأكبر إلى القاهرة وألح فى أن يرى شوقى ، فذهبنا إلى داره بعين شمس ، وكان شوقى كريما فى لقائه ، كريما فى حفاوته . . وما كاد يستقر بأخى المجلس حتى انطلق يسأل شوقى عن قصائده التى قالها منذ أزمان ، ويطلب إليه أن ينشدها له ، ولم يكن شوقى حسن الإنشاد ، ولم يكن حافظًا لشىء من قصائده ، ولكن أخى رحمه الله لم يبخل على شوقى بأن يسمعه شعر شوقى ، فاندفع كما يندفع الأَتِىّ الجارف ينشده قصائده فى صوت جهير ، ويفسر له بعض أبياتها ، وشوقى مأخوذ معجب بأن يكون له رواة هم أحرص منه على شعره وأشد كلفا !

ودارت فى هذه الليلة فنون شتى من الأحاديث ، عرفت منها أن شوقى قوى الإيمان بالله ، عظيم الأمل فى رحمته ، وأنه يبغض الفلسفة فى الدين ويريده نقيا فطريا كما نزل على محمد بن عبد الله ﷺ ، وأن له طبيعة دينية سمحة تنفر من التعصب والجمود وضيق الأفق ، وأنه يحب آل الرسول ﷺ حبا جما يكاد يقرب من التشيع ، وأنه يؤمن بالقضاء والقدر إيمان العجائز .

* * *

واتخذ الحديث مجرى الأدب حينما أخذنا نطوف بأبيات من سينيته الأندلسية التى عارض بها البحترى ومر بنا البيت :

أحـرام على بـلابلـه الـدو ح حلال للطير من كل جنس ؟!

وجاء ذكر الابتداع والتقليد ، فقال شوقى : إن الابتداع المطلق قليل نادر ، وربما فاز به الشاعر المجيد فى بيت واحد من قصيدة طويلة . فقلت بصوت به رنة ذات معنى : هل غادر الشعراء من متردم ؟ فقال شوقى : « أجل يا أخى ، ولكن الشاعر الموهوب يحسن التوليد ، ويأتى بالمعنى المولد من معان قديمة فيروعك حسن مأخذه ، وتبدو لك فيه جدة مصنوعة ، لها فى نفسك كل ما للمعنى الجديد من أثر . ألا ترى أن تشبيه ذوائب الحسان بالليل فى السواد والطول ، وتشبيه وجه المليحة بالقمر ، تشبيهان مبذولان ملقيان فى الطرق ، ولكن المتنبى حينما أخذهما صهرهما بذوقه وأخرجهما من مصنع فنه فى ثوب جديد براق حين يقول :

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فأرت ليالي أربعا
واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في آن معا

فقلت : وربما كانت إجادة فن الأخذ والتوليد من أكبر ميزات شعراء الأندلس ، فإن كل معانيهم مشرقية ولكنهم بالتطعيم والتوليد أعادوها جديدة رائعة .

* * *

ولما أزمع أدباء مصر وشعراؤها إقامة حفل لتأبين إسماعيل صبرى نظم شوقى فى رثائه قصيدته التى أولها :

أجل وإن طال الزمان موافى أخلى يديك من الخليل الوافى

وسألنى فى تردد وحياء أن ألقى له قصيدته فى الحفل . . فقبلت مسرورًا ، وحرص شوقى بعد ذلك على أن أكون منشد قصائده ، فما ترددت مرة فى إجابة طلبه .

واحتفلت العروبة بزعامته وإمارته للشعر ، وقد أنفق شوقى فى هذه الحفلات كثيرًا وأغدق على كثير ، فبعثت إليه بقصيدة لتكون هدية له فى عرس إمارته أولها :

وقفت تجدد آثارها وتنشر للعرب أشعارها
وتبعث بغداد بعد المما ت تحدث للناس أخبارها

* * *

وكنت أعرف أن شوقى كثير القراءة ، ولكننى لم أكن أظن أنه يعنى بقراءة الشعر فى عصور تراجعه ، حتى زرته يوما وكان مريضًا ، وكانت حجرة نومه صغيرة قليلة الأثاث . دخلت عليه فإذا هو فى سرير صغير ، وقد بعثرت الكتب حوله عن يمين وشمال ، فمددت يدى إلى أحدها فإذا هو «خزانة الأدب» لابن حجة الحموى ، فسألته فى استنكار : « أتقرأ أمثال هذه الكتب ؟ إن أكثر ما فيها شعر صناعى ليس به إلا زخرف لفظى وبراعة فى التزويق » . فابتسم وقال : « إن الشاعر ياأخى يجب أن يقرأ كل شعر ، وإن هذا الكتاب كاسمه خزانة أدب ، وخير ما فيه شعر العصر المملوكى » . ثم اتجه نحوى يقول : « أتستهين بشعر المماليك ؟ » فقلت : « إنه لا يعدو أن يكون لعبًا بألفاظ على حساب المعانى ، وعناية بالنكتة والتورية » فابتسم وقال : « إن شيئًا من ذلك لو عرض لى فى شعرى لعددته غنما فنيا ، إننا يا أخى فتنا بشعر بغداد فأضعنا كثيرًا من مقومات بيئتنا المصرية ، وشعر المماليك شعر مصرى صميم ، وإن فى ديوان ابن نباتة الذى نبذناه كبرا وتعاظما العجب العجاب من روائع الفن وحلاوة الروح المصرية المرحة » .

* * *

وكان هذا آخر العهد بصاحبى عليه الرحمة والرضوان ، ولست أجد الآن فى توديعه أبلغ مما قاله فى توديع حافظ :

اليـوم هـادنـت الحوادث فـاطـرح ... عبء السنين وألق عـبء الـداء
خلفت فى الـدنيـا بيـانًـا خـالـدًا ... وتـــركت أجيـــالاً من الأبنـــاء
وغـدًا سيـذكرك الـزمـان ولم يـزل ... للـدهـر إنصـــاف وحسن جـزاء

أعلام الإسلام طارق بن زياد(*)

للدول فى أول نشأتها عزم الشباب، وإقدام الشباب، وآمال الشباب. وهى فى بداوتها الأولى تمثل خشونة القوة، وبعد الهمة، و جرأة العزيمة التى لا تبالى بالموت، ولا تأبه للحياة هكذا كانت دولة العرب فى صدرها الأول، فقد انطلقت من جزيرتها التى ربضت فيها قرونًا، منعزلة عن العالم، لاتتصل به إلاّ لماماً فى بعض مشارفها وتخومها. انطلقت أمة العرب من عرينها فتية وثابة كأنها الأتىّ الزخار، فعصفت بأمة الفرس، وثلّت عروش دولة الرومان، وكانت قلوبها أصلب من رماحها، وعزائمها أمضى من سيوفها. وقارئ التاريخ فى هذه العهود يملكه الدهش، وتستبد به الحيرة، كيف استطاعت هذه الأمة الصحراوية التى لا تتسلح إلاّ بالحق أن تحطم بضربة سيف، أو وخزة رمح، أعرق دول العالم فى ذلك الحين مدنية وعمرانًا، وأعظمها قوة وسلطاناً؟ ولكنّه الإيمان الراسخ فى الصدر والفناء فى العقيدة، وبيع النفس رخيصة فى سبيل الله، كل أولئك خلق فيهم من الضعف قوة، ومن التردد إقدامًا، ومن الرهبة جرأة وصلابة وعنادا. لقد كانت هذه الصفات تقيم جيشاً لا يقف فى وجهه جيش، وعتادًا ينهزم أمامه كل عتاد.

فتح الله على المسلمين بلادالشرق والغرب، وأمكنهم من دهاقنة الفرس وبطارقة الرومان، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، فجعلت منهم الفتوح قوادًا وأبطالاً، لم تظفر البشرية بكثير من أمثالهم وأغراهم الظفر بالظفر، والغزو بالغزو وتوسيع رقعة الإسلام، فكثر فيهم المغامرون الذين حملوا أرواحهم بأيديهم فاتحين غازين، لا يبالون ما أمامهم ولا يخافون عاقبة ما وراءهم، من كل ضرغامة وثّاب.

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ١٩/ ١٠/ ١٩٤٨.

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

لكن أصلب هؤلاء المغامرين عودًا، وأقواهم عزمًا، طارق بن زياد فاتح الأندلس. نشأ طارق بنفرة وهى حلّة صغيرة بإفريقية. ولا يقص علينا الرواة كعادتهم شيئا من نشأة طارق الأولى، ولكنّا نستطيع أن نعرف أوله من آخره، وأن نقرأ من رجولته ما كان عليه فى صباه. ويكفى أن نتخيله غلاماً موثّق الخلق، قوى العضل، كبير الهامة ضيق العينين، يجلس إلى جانب أبيه ذاهلاً مبهوراً كلّما قص عليه بعض أنباء إسبانيا بما فيها من جمال وثروة وخصب، وما لملوكها من قوة وسلطان. ويكبر الغلام وتكبر معه آماله. لا يجد أشفى لنفسه وأدنى لمطامحه من أن يكون جنديا فى جيوش الإسلام. فلم يكد يصل إلى مسمعه أن الوليد بن عبد الملك ولّى موسى بن نصير على إفريقية وما خلفها، حتى يأخذ طريقه إليه لينضم إلى جيشه، ويظهر فيه من الشجاعة وحسن التدبير ما يقربه إلى نفس موسى، فيجعله فى مقدمة جيشه. وينطلق طارق القائد فيخضع البربر، ويستولى على معاقلهم، ويفتح مدينة طنجة التى هى قصبة بلادهم، وأم مدائنهم. ونتخيله بين الحين والحين وهو يقف على سيف البحر، ويطرح بصره نحو إسبانيا، وغريزة الغزو والغلب تضطرم فى نفسه، فيهز رأسه فى عزم وإصرار، ساخرًا من العقبات، مستهينًا بالموج الغاضب المتوثب. وتمر الأيام وتجىء سنة اثنتين وتسعين للهجرة، فإذا موسى بن نصير يدعوه إلى غزو الأندلس، نعم يدعوه إلى أحبّ شىء إلى نفسه، يدعوه إلى تحقيق غاية كانت مسرى أحلامه بالليل، ومسبح آماله بالنهار. أنصت طارق إلى قائده فإذا هو يقول: لقد أعددنا أربع سفن، واثنى عشر ألفا من الجنود بين فارس وراجل، فاذهب يا طارق إلى عدوة الأندلس، وبدّد جموعهم، وامتلك بلادهم وحطّم تاج لذريق. يا للجرأة! ويا لعظمة الثقة بالنفس! اثنا عشر ألفاً من الجند لا يتسلح أكثرهم إلاّ بهراوة أو حجر يقذفون بأنفسهم لغزو دولة من أقوى ممالك الأرض جندا وأعظمها عدة وعديدًا؟ ولكنه الإيمان الحق الذى يعصف بالجيوش ويزلزل العزائم.

اقتحم طارق البحر بهذه الفئة القليلة تحت ستار الليل، حتى بلغ جبل الفتح الذى يسّمى باسمه. وما كاد ينزل بجنده حتى علم لذريق بقدومه، فأقبل عليه فى جيش خضم، تحيط به الفرسان وهو محمول على سريره وعليه مظلة مكللة بالدر والياقوت، ولما لمح طارق سواد الجيش الإسبانى هاجت نفسه وجاشت، وخاف أن يهول جندَه عظم جيش أعدائه، فأسرع إلى السفن وأحرقها حتى يمحو كل أمل فى الفرار، ثم وقف بين جنده خطيبًا يصيح: «أيها الناس، أين المفر! البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلاّ الصدق والصبر. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفوره، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا قوات إلاّ ما تستخلصونه من أيدى عدوكم. ولم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة، وإنى عند ملتقى الجمعين لحامل بنفسى على طاغية القوم فقاتله إن شاء الله، فاحملوا معى». فثارت حماسة الجند عاتية صاخبة، ووثبوا على جيش الإسبان

أسودًا ضارية، ثم لمح طارق لذريق فصاح : هذا طاغية القوم، هذا هو بعينه. ثم حمل عليه وحمل أصحابه معه فتفرقت المقاتلة بين يدى لذريق وأدركهم الوهل من جرأة العرب وصدق حملتهم، فخلص إليه طارق فضربه بالسيف فقتله على سريره، فلما رأى أصحابه مصرع صاحبهم ثارت حميتهم، ولكن النصر كان حليف المسلمين، فكروّا على أعدائهم فتكا وتقتيلا. وكتب ابن نصير إلى الخليفة يقول : إنها ليست الفتوح يا أمير المؤمنين ولكنها الحشر ويومه. وحينما جدّل طارق لذريق وأعمل سيفه فى أصحابه فرّ الإسبان إلى الحصون والقلاع فأقبل نحوهم والنصر جنبيه حتى انتهى إلى طليطلة دار مملكة القوط فألفاها خاليه فدخلها، ثم دفعته عزيمته إلى اختراق أرض جليقية إلى أقصى الشمال. ولحق به موسى بن نصير وجعله فى مقدمته، وكانا لا يمران بموضع إلا فتح عليهما، حتى بلغا وادى ردونة، وخاف الخليفة الوليد من توغل المسلمين فى بلاد الفرنجة، فبعث رسولاً إلى ابن نصير يستعجله فى القفول، فعاد طارق إلى الشرق بعد أن أقام بالأندلس أكثر من ثلاث سنوات، ثم تنازع القائدان وتقاضيا إلى سليمان بن عبد الملك، فحكم لطارق وأعاده إلى القيادة بإسبانيا.

طيف حبيب(*)

فى أيام الصيف القائظ ومنذ خمسين سنة كنت بمدينة الفيوم . نعم طوحت بى المقادير إلى هذه المدينة وأنا طالب أزهرى حدث السن ، نشأ فى أقصى الشمال ودرج بين البحار والرمال وفى ظلال النخيل ، لا يعرف للشمس لفحا ، ولا يشكو من حرها ضبحا :

وقد تلجئ الحاجات يا أم مالك　　　إلى هجر دار، أو فراق صديق

كان أبى قاضيا للمديرية ، فكنت إذا حمى وطيس القيظ بالقاهرة ، وأظلتنى عطلة الأزهر ، حملت خرجى أو حقيبتى - وأظن أنه لم يكن لى حقيبة فى ذلك الزمان البعيد - ويممت شطر البلد الذى يقيم به أبى .

وكانت مدينة الفيوم فى هذا العهد من أجمل مدن مصر منظرًا وأخفها روحا ، يمر بوسطها بحر يوسف هادئًا وئيد الخطى ، ويقوم على أحد شاطئيه قصور العظماء وسراة المدينة رحيبة فخمة متماثلة فى طراز البناء ، تنطق بما لقطانها من المنزلة وبسطه الرزق . ولى فيها فى تلك الأيام قصيدة منها :

ساكنى الفيوم إنى ذاكر　　　عهدكم، والذكر فى البعد وفاء
كم شدا شعرى على دوحتكم　　　أى شعر غرد؟ أى غناء ؟!
بلد كالزهر حسنا وشذا　　　بين أظلال وأنسام وماء
مثل خد البكر فى تلوينه　　　ترتدى فى كل حين برداء
فهى بالأمس سواها فى غد　　　وهى فى الصبح سواها فى المساء

(*) نشرت « بمجلة الهلال» بالمجلد ٥٦ الجزء ١٢ ، ديسمبر ١٩٤٨ ص ٩٣ .

وكنت فى ذلك الحين شاديا فى الأدب ، مولعا بالشعر . وللأدب إينما حل نفحة تجتذب إليه الأدباء ، كما تجتذب النحل الرياض . والأدب ماسونية تذهب بالكلفة ، وتمحو الفروق بين الأشخاص . وأخوة متينة العرى وثيقة الأواصر ، وقديما قالوا : « صلة الأدب فوق صلة النسب » فما كدت أحل بالمدينة حتى سعى إلى أدباؤها ، أو سعيت إليهم ، وكانت لنا مجالس فى ناد صغير كان يزين لنا الغرور أنها تفوق مجالس عكاظ وحلقات المربد . أدب وشعر وفكاهة ، ثم دعابات ومجون تصور لهو الصبا وعبث الشباب . فسقيا للشباب ولأيام الشباب !

وكان عصر الأدب فى طليعة هذا القرن بمصر زاهرًا ، وكان للأدب فتنة وله فى نفوس الشباب روعة ، وإنما تروج سوقه حيث تميل إليه الأسماع ، وحيث تقدر جهود الأديب .

كنا فى النادى ذات ليلة نتناشد قصيدة للشيخ عثمان زناتى (١) مطلعها :

لا أنت واصلة ولا أنا سالى صدق الهوى وكذبت فى آمالى

والشيخ عثمان شاعر مقل ، جرى فى غبار البارودى وحاكاه فى أسلوبه العربى الرصين وفى التشبه بشعراء الجاهلية . وبينما نحن فى جدال عنيف إذ دخل مهدى أحمد خليل (٢) وكان وقتئذ مدرسا للعربية بالمدرسة الابتدائية ، وهو شيخ فارع مبسوط الجسم ، مفرط فى الطول ، رمى الله عينيه بالعمش ، وخديه بالنمش ، كان يزعم أنه يقول الشعر ولكنه فى الحق إنما كان ينحت من الصخور ، يجمع من ألفاظ القاموس المحيط كل غريب نفور متعاظل ليملأ به تفاعيله ، دخل مهدى خليل وقال : « أتعلمون من سيزورنا فى النادى هذه الليلة ؟ » ، قلنا : « لا » ، قال : «أحزروا» ، قلنا : «لا نحرز ، اجلس فما عهدناك مرة بشير خير » ، فقال : « إنى والله فى هذه المرة بشير خير ! » . ثم وضع يديه على ركبتى وقال : « سيزورنا الليلة السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، فقد حضر من القاهرة بالأمس لزيارة أبيه القاضى الشرعى بمركز الفيوم » .

كلنا كان يعرف السيد مصطفى فى أدبه قبل أن يلتقى به ، فقد كانت له شهرة ذائعة على حداثة سنه وقرب قيد اسمه فى سجل الأدباء . وأذكر أنى عثرت مرة على أوراق مطبوعة بها قصيدة قافية تربى على مائة بيت نسبت للسيد مصطفى ، كلها تشهير بالاحتلال ، ونسبت إليه قصيدة أخرى حكم عليه بالحبس بسببها كان لها ضجة بمصر ودوى يثقب الآذان . ويظهر أن السيد مصطفى حينما رحل من منفلوط إلى القاهرة أول ما رحل ، كان موفور المواهب كامل العدة فى الأدب ، التف به قوم جعلوه لسانهم الناطق ، فرمى عن قوسهم جريئًا غير هياب ، على حين كان هؤلاء السادة يختفون خلف كرامة مصنوعة ووقار مختلق .

كانت الساعة التاسعة حينما دخل السيد مصطفى النادى ، فرأينا شابا فى نحو الثانية والعشرين ،

---

(١) كان أحد خريجى دار العلوم ، ومكث مدة أستاذًا بمدرسة البوليس .
(٢) تخرج فى دار العلوم عام ١٨٩٨م .

معتدل الطول ، ناضر العود ، وسيما فى غاية الوسامة ، قسيما فى منتهى القسامة . وجه عربى يميل إلى الاستدارة ، وعينان سوداوان ذابلتان فيهما خيال وفيهما فن ، وأنف مستقيم لا ترى فيه عوجا ولا أمتا . وكان السيد جميل الزى أنيقا فى ملبسه دون أن يشعرك أنه يتعمد الأناقة أو يتكلف حسن الشارة.

حيينا السيد تحية المشوقين إلى رؤيته المعجبين بأدبه ، وسلك بنا الحديث شعبا شتى نال فيها السيد قسطا يسيرا ؛ لأن الحياء كان من أبرز صفاته ، فلم تكن تتفتح نفسه وتبدو على سجيتها إلا بعد معاشرة ومخالطة .

رأيت السيد فهفت إليه روحى ، وسكنت نفسى ، وتوالت الاجتماعات بالفيوم فنفض عنه الكلفة ، ورأيته كما هو وكما كنت أحب أن أراه : جم الأدب ، كثير الحفظ والرواية ، حسن الاختيار لما يحفظ ، فلا يروى لشاعر إلا الجيد المختار والرائع المنتخل . وتمكنت بيننا الصلة فلم أكن أغادر مجلسه إلا حيث نفترق للنوم . وكان معه بالفيوم أخوه أبو بكر ، وكان أديبا قارئًا ولكن أدبه كان من صنف آخر . وأذكر أنى أنشدتهما مرة قصيدة لى فى الفخر منها :

إذا كان عيبى بينهم أننى فتى ... صغير، وشعرى بالشبيبة مسود
فمهلاً أنا النجم الذى يبصرونه ... صغيرًا، ويخفى قدره عنهم البعد

ويظهر أن أبا بكر حفظ بعض أبيات من القصيدة ، وأتفق أن تنازع مع بعض أخوته يومًا أمام أبيه وصاح فيهم : « صدق والله الشيخ على الجارم ! » . فقال أبوه : « وما شأن الشيخ على الجارم ياولد؟» فقال : « لأنه يقول :

سئمت حياتى بين قوم فضائلى ... لديهم يغطيها التعصب والحقد
إذا ما بدت ترنو إليهم فضيلة ... تصدى لها نذل وكر لها وغد»

وكان جزاء أبى بكر المسكين أن لاقى من أبيه على هذه الصراحة شر ما يلاقى مولود من والد ! وقد أخبرنى السيد بهذه القصة وهو لا يكاد يمسك نفسه من الضحك .

أقمنا بالفيوم نحو شهرين عرفت فيهما عن كثب فضل السيد وخلقه وأدبه ، فقد كان سريع الخاطر ، حلو النادرة ، لا ينطق الهجر ، ولا يحب أن يسمعه ، دقيق الحس نبيل العاطفة ، جذابا إلى أقصى حدود الجاذبية ، سخيا إلى أبعد مطارح السخاء . ثم هو محدث لبق يحسن اختيار لفظه ، ويجيد تصوير معناه . وكان بصوته الهادئ صحل خفيف له حلاوة وعذوبة ، وكان من عادته إذا بدا الحديث أن يزم شفتيه قليلاً فتبدو فى خده الأيمن فحصة خفيفة تزيد وجهه حسنا وملاحة .

عدنا إلى القاهرة معًا وكنا سئمنا دروس الأزهر . واحتوينا متونه وشروحه وحواشيه ، ورمينا الطرف إلى منتهاه وغايته فرأينا أننا لا ننال الشهادة إلا إذا قضينا فى الدرس اثنى عشر عامًا وكنا من كبار

النابغين ، وكم كـان مرتب الشهادة ياتـرى فى ذلك الحين بعد الكد الطـويل والعيش الممض ؟ أربعة ريالات صحيحـة كاملـة نقدًا وعـدا فى كل شهر ! رأينا هـذا فانصرفنـا عن الأزهر وجعلنـا مجلسنا فى الصباح « بقهوة أفندية » وهى قهوة لا تـزال أمام المشهد الحسينى إلى الآن . ألا ليت شعرى هل كانت تعلم جدران هذه القهوة ، أو كـان يعلم صاحبها أن طائفة البؤساء المفلـوكين الذين يجلسون فى أحد أركـانها وهم بين إنشاد وشعـر وتنادر وضحك وصخب ، سيكـونون أعـلام الأدب فى مصر ، وزعماء النهضة فى الشعر والكتابة ؟

كنت ترى فى هذا المجلس حـافظ إبراهيم ، وإمام العبد ، وعبـد الرحمن البرقوقى ، وأحمد نسيم ، وأحمد فؤاد . وكان من عادتنا أن نجلس كل يوم إلى كتاب أدب أو ديـوان شاعر نقرأ طرائفه ونتخذ منه مادة للنقد والجهر بالرأى الحر الجرىء ، فإذا جاء موعد الغداء ذهـب أكثرنا مع السيد إلى داره ، وكان رحمه الله يزيد وجهه تهللاً وبشرا كلما زاد عدد الطاعمين .

ثم دخلت دار العلوم فانحـرف بى الاشتغال بها عن طريق السيد ، وكان قد زاد اتصـاله بالشيخ على يوسف فنشر بالمؤيد « النظرات » التى رفعته إلى القمـة ، وطارت باسمه كل مطار ، وهى مقالات تصور عـاطفته وتكشف عن ذات نفسه التى تفيض بـالرحمة والحنان ، ثم هى إلى ذلك فن جـديد فى الكتابة الجزلة السهلة الرائعة التى كانت فتحًا مبينا فى النثر العربى ، ومثلاً عاليًا لناشئة المتأدبين .

وحينما عدت من انجلترا كـان السيد كما تركته لا يـزال يمتلك ناصية المجـد ، ذلك المجد الهادئ الرصين الذى بلغـه بسنان قلبه العف ، وبروعة فنـه الرفيع ، والذى لم يصل إليه بسـلاطة لسان ، أو غرابة مذهب ، أو إثارة جدل حول اسمه ليدفع الناس إلى ذكره والتحدث عنه .

وتمكنت صلته فى ذلك العهد بالزعيم الراحل سعد زغلول باشا ، واتفق أن مات السيد عليه الرحمة يوم جرح الرئيس بميدان محطة القاهرة ، فشغل الناس خطب الرئيس عن خطبه ، وصرفتهم فجيعتهم الكبرى فى سعد عن أن يؤدوا ما عليهم للكاتب المجيد يوم رحيله من حفاوة وتكريم ، وفى ذلك يقول شوقى :

اخترت يـــوم الهول يـــوم وداع ... ونعاك فى عصـف الرياح النـاعى
هتف النعاة ضحـى فأوصد دونهم ... جـرح الـرئيس منـافـذ الأسماع
من مـات فى فـزع القيـامـة لم يجد ... قـدمـا تشيع أو حفـاوة سـاع
مـا ضر لو صبرت ركـابك ساعـة ... كيف الوقوف إذا أهاب الداعى؟
خل الجنـــائز عنـك لا تحفل بها ... ليس الغـــرور لميت بمســـاع
سر فى لـــواء العبقـــريـــة وانتظم ... شتى المواكـب فيـــه والأتبـــاع
واصعـد سماء الذكـر من أسبـابها ... واظهـر بفضـل كـالنهـار مـذاع
فجع البيـــان وأهلـــه بمصـــور ... لبق بـوشـى المتعـات صنـاع

الجملة الفعلية أساس التعبير
في اللغة العربية(*)

تقتضى العقلية العربية أن تكون الجملة الفعلية الأصل والغالب الكثير فى التعبير ، لأن العربى جرت سليقته ودفعته فطرته إلى الاهتمام بالحدث فى الأحوال العادية الكثيرة، وهى التى لا يريد فيها أن ينبه السامع إلى الاهتمام بمن وقع منه الحدث، أو التى لا يهتم هو فيها بمن وقع منه الحدث ، فالأساس عنده فى الإخبار أن يبدأ بالفعل فيقول : عدا الفرس، ورعت الماشية ، وعاد المسافر . وقد يلتجئ العربى إلى الجملة الاسمية إذا كان القصد إلى الفاعل وإلى الإسراع بإزالة الشك فيمن صدر منه الفعل ، فيبدأ بذكره أولا قبل أن يذكر الفعل لكى يخصصه به، أو لكى يبعد الشبهة عن السامع ويمنعه أن يظن به الغلط أو التزيد . قال صاحب دلائل الإعجاز : « . . . فإذا عمدت إلى الذى أردت أن تحدث عنه بفعل فقدمت ذكره ثم بنيت الفعل عليه فقلت : زيد قد فعل وأنا فعلت وأنت فعلت ، اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل . إلا أن المعنى فى هذا القصد ينقسم قسمين : أحدهما جلى لا يشكل وهو أن يكون الفعل فعلا قد أردت أن تنص فيه على واحد فتجعله له وتزعم أنه فاعله دون واحد آخر أو دون كل أحد . ومثال ذلك أن تقول : أنا كتبت فى معنىّ فلان وأنا شفعت فى بابه ، تريد أن تدعى الانفراد بذلك والاستبداد به وتنزيل الاشتباه فيه وترد على من زعم أن ذلك كان من غيرك أو أن غيرك قد كتب فيه كما كتبت . ومن البين فى ذلك قولهم فى المثل : أتعلمنى بضب أنا حرشته ؟

(*) ألقى هذا البحث فى مؤتمر المجمع السنوى فى ١ يناير ١٩٤٩ ونشر بمجلة المجمع بالجزء السابع ص ٣٤٧.

« والقسم الثانى ألا يكون القصد إلى الفاعل على هذا المعنى ولكن على أنك أردت أن تحقق على السامع أنه قد فعل وتمنعه من الشك ، فأنت لذلك تبدأ بذكره وتوقعه أولا ومن قبل أن تذكر الفعل فى نفسه ، لكى تباعده بذلك من الشبهة وتمنعه من الإنكار ، أو من أن يظن بك الغلط أو التزيد ، ومثاله قولك : هو يعطى الجزيل وهو يحب الثناء : لاتريد أن تزعم أنه ليس ههنا من يعطى الجزيل ويحب الثناء غيره ، ولا أن تعرض بإنسان وتحطه عنه وتجعله لا يعطى كما يعطى ولا يرغب كما يرغب ، ولكنك تريد أن تحقق على السامع أن إعطاء الجزيل وحب الثناء دأبه ، وأن تمكن ذلك فى نفسه . . . » قال عبد القاهر : ومما يحسن ذلك فيه ويكثر ، الوعد والضمان كقول الرجل : أنا أعطيك ، أنا أكفيك ، أنا أقوم بهذا الأمر . . . وكذلك يكثر فى المدح والفخر نحو :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى   لا ترى الآدب فينا ينتقر

(دلائل الإعجاز ص ٩٩)

ثم انتقل عبد القاهر إلى الحديث فى عادة العربى بالتعبير بالجملة الفعلية إذا لم يوجد مقتض للاهتمام بالفاعل فقال : « ويزيدك بيانًا أنه إذا كان الفعل مما لا يشك فيه ولا ينكر بحال لم يكد يجىء على هذا الوجه ، ولكن يؤتى به غير مبنى على اسم ، فإذا أخبرت بالخروج مثلا عن رجل من عادته أن يخرج فى كل غداة قلت : قد خرج ، ولم تحتج إلى أن تقول : هو قد خرج . ذلك لأنه ليس بشىء يشك فيه السامع فتحتاج أن تحققه وإلى أن تقدم فيه ذكر المحدث عنه . وكذلك إذا علم السامع من حال رجل أنه على نية الركوب والمضى إلى موضع ولم يكن شك وتردد أنه يركب أو لا يركب ، كان خبرك فيه أن تقول : قد ركب ، ولا تقول : هو قد ركب » .

يتضح من هذا أن من طبيعة العربى تقديم ما يهتم به ، فهو مطبوع بشعوره الخاص على أن يبدأ الكلام بما يرى أن السامع فى حاجة إلى تقديمه ، فإذا قال : « سبقت فرسى » فإنه يرى أن السامع يتطلع أولا إلى وقوع الحدث وهو السبق ، ثم يأتى صدور السبق من الفرس ثانيًا . وعلى هذا النمط يجرى فى أكثر أخباره . ولكن إذا كانت الفرس معروفة بالبلادة والبطء وكان السامع لا يتوقع سبقها عدل عن الجملة الفعلية وقال : « فرسى سبقت » للإسراع بما يقتضى الدهشة والعجب .

ومما يستأنس به فى هذا الباب ما جاء فى دلائل الإعجاز من الكلام عن التقديم والتأخير بين الفاعل والمفعول به :

« واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه (فى التقديم والتأخير) شيئًا يجرى مجرى الأمر غير العناية والاهتمام . قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول : كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى ، وإن كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم . ولم يذكر فى ذلك مثالا : وقال النحويون : إن معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس فى فعل ما أن يقع بإنسان بعينه ولا يبالون من

أوقعـه، كمثل مـا يعلم من حـالهم فى حال الخارجـى يخرج فيعيث ويفسد ويكثـر بـه الأذى ، أنهم يريدون قتله ولا يبالون من كان القتل منـه ولايعنيهـم منه شىء ، فإذا قتل وأراد مريد الإخبار به بذلك فإنـه يقدم ذكر الخارجى فيقـول : قتل الخار جىَ زيدٌ ولا يقـول: قتل زيد الخارجى ، لأنـه يعلم أن ليس للناس فى أن يعلمـوا أن القاتل زيد جـدوى وفائدة فيعنيهم ذكـره ويهـمهم ويتصل بمسرتهم ، ويعلم من حالهم أن هم متوقعـون له ومتطلعون إليه متى يعلمون وقـوع القتل بالخارجى المفسد وأنهم قد تجنبوا شره وتخلصوا منه .

« ثم قـالـوا : فإن كـان رجل ليس لـه بأس ولا يقدر فيـه أنـه يقتل، فقتل رجـلا وأرادا أن يخبر بذلك، فإنـه يقدم ذكر القاتل فيقـول: قتل زيد رجلا : ذلك لأن الذى يعنيـه ويهم الناس من شأن هذا القتل طرافته ومـوقع الندرة فيه وبعده كان من الظن . ومعلوم أنـه لم يكن نادرًا وبعيدًا من حيث كان بالذى وقع بـه ، ولكن من حيث كان واقعًا الذى وقع منه . فهذا جيـد بالغ إلا أن الشأن فى أنه ينبغى أن يعرف فى كل شىء قدم فى مـوضع من الكلام مثل هذا المعنى ، ويفسر وجه العنايـة فيه هذا التفسير . » انتهى كلام عبد القاهر .

ومما يؤكـد طبيعة العربى فى تقديم ما يهتم بـه ما جرى عليه فى الاستفهام . فإن هنـاك فرقًا بين أن يقول العـربى « أفعلت؟ » وبين أن يقول « أأنت فعلـت ؟ » فهو يسأل فى الصورة الأولى عـن صدور الفعل لأنه يشك فى صدوره ولذلك قدمه . أمـا فى الصورة الثانية فهو لا يشك فى الفعل ولكنه يشك فيمن فعله . ويأتى النفى على هذا النحو فقولك : « ما كتبت » غير أن تقول : « ما أنا كتبت » لأنك فى الأولى نفيت عنك كتابة لم يثبت وقوعها أما فى الثانيـة فقد صدرت الكتابة ، ولكنك تنفى صدورها منك . وإذا قلت « ما أكلت الطعـام » فإن هذا لا يحتم أن يكون الطعـام أكل، ويجوز أن يكون أكل وأن آكله غيرك .

وتقـديم الفعل على الفـاعل هـو الأصل ، فالمرء يهتـم بالحدث أولا ، ثم يتجـه إلى محدثـه ؛ لأن الحدث هو الأمر الجديد الذى يعنيه شأنه ، ولذلك يمكن أن ندعى أن الأسلوب العربى هو الأسلوب الجارى على الأصل ، كلما خطر بذهن متكلم وقـوع حدث من فاعله فهـو يندفع أولا إلى ذكر الحدث ثم ينسبه إلى من صدر منه .

ودليل أهميـة الحدث فى طبيعـة المتكلمين أن اللغـات تكتفى كثيرًا ببنـاء الفعل للمجهـول وتهمل فاعله ، لأن لحصـول الفعل عندها المرتبة الأولى ، نعـم . إنهم ذكروا لإهمال الفاعل أسبابا كثيرة ولكن من أكثـر أسباب البناء للمجهـول عدم الاهتمام بـالفاعل نفسـه، وحصر الإخبار فى وقـوع الفعل من شخص ما .

وقد يحتج علينا محتج بأن منطق الأشياء كان يقتضى العكس ، وهو أن يقدم الفاعل على الفعل؛ .

لأن ذكر الفعل قبل فـاعله ذكـر للأثر قبل المؤثـر . وعلى ذلك جرت لغـات أهل الغرب ، وعلى ذلك جرى العـامة فى مصر وغيرها مـن الأقطار العربيـة ، ولكنا نجيب بأن المسألـة ليست مسألة منطق ، وإنما هى مسألة شعور العربى بما يرى نفسه مندفعًا إلى الإسراع بالتعبير عنه .

ولعل أسـاس ميل العرب إلى البـداءة بالفعل أنهم كـانـوا يعيشون عيشـة بداوة تحيط بها المخـاوف ويكتنفها التوجس ، وتكثر فيها المفاجآت فكان يهمهم أن يسرع المتكلم بذكر الحدث قبل من وقع منه الحدث ، فتقول مثلا : سطا الذئب ، وأغارت قبيلة بنى فلان ونضبت البئر ، إلى غير ذلك .

ثم إن الفعل فى نظـر العـربى يتضمن فـوق الحدث الـذى يفيـده نـوع الفـاعل على شىء مـا من الإجمال. فإذا قيل مثلا : « عدا » فإنه يفهم قبل أن يذكر فـاعل العدو أن الفاعل لابد أن يكون حيوانًا ، وأن يكون حيوانـًا خاصًا مما يصح أن يعدو . ويتضح الأمر أكثـر من هذا إذا قيل : « اجترّ » مثلا ، فإن الفاعل ينحصر فى أنواع قليلة من الحيوان . فهو إذا قدم الفاعل استفاد أمرين : معنى الحدث ، ثم نـوع الفـاعل على الإجمال . وقد يـدل الفعل على فـاعل بعينـه نحو : نقت الضفـادع ومـاء القط إلخ . . .

والفعل يتضمن حدثًا وزمنًا ، أو بعبارة أخرى يتضمن معنيين فى آن ، فالعربى يسرع بتقديمه بدل أن يقدم من صدر منه الفعل لأنه لا يفيد إلا معنى واحدًا .

ثم إن العربى ميال بفطـرته إلى الإيجاز وتجنب الفضول . فهو يقول : جاء الـرجل ولا يقول الرجل جاء ؛ لأن الثانية تتضمن تكرار الإسناد لا محالـة . وهو لا يلجأ إلى تكرار الإسناد إلا لغرض بلاغى. حقًا إن الكوفيين أجازوا تقديم الفاعل على الفعل ، وأن مثل قولك : « الرجل قام » لا يتضمن الفعل فيه ضميرًا على رأيهم وإنه كقولك « قام الرجل » تمامًا . ولكنى أرى أن نحيزة العربى ألا يخلى فعلاً من فاعلـه ، سواء أكـان هذا الفاعل ظـاهرًا أم ضميرًا بارزًا أم مستترًا ، وأن ذوقـه العام يقتضيـه أن يقدم الفعل على الفاعل كما نراه فى الكلام الكثير من لغة العرب . ولو كان العربى يجيز تقديم الفاعل على الفعل لقال « أنا قام » و « أنت قام » ، ولكنه يقول: « أنا قمتُ » و « أنت قمتَ » ولو ادعى مُدَّعٍ ، أن التاء فى قمتُ وقمتَ حرف للتكلم أو الخطاب فى هذه الأمثلة ، فماذا يقول فى قول القائل : « قمت لفلان » ؟ أيدعى أن الجملة بلا فاعل ، أم ماذا يقول ؟

أما إذا أراد العربى أن يخبر عن اسم باسم ، فقد يكون الخبر اسما جامدًا وقد يكون وصفًا أى اسمًا مشتقًا يدل على ذات متصفة بحدث وهذا هو الكثير الغالب ، وهو فى هذه الحالة يقدم المخبر عنه على الخبر إذا لم تدفعه لفتة بلاغية .

ذلك لأنه يعـد الخبر صفة لـلاسم الأول ومن طبيعته أن يقدم الموصـوف على الصفة فهـو يقول : الـرجل قائم ، كما يقـول : رأيت رجـلاً قائمًا . وليس من عـادة العـربى أن يعدل عن هـذا النمط إلا لأغراض تقتضى العناية بالخبر فيقدمه .

أعلام الإسلام

العربى الذى هز إيوان كسرى

أسد قريش سعد بن أبى وقاص (*)

هـذا قـائد من أعظم قـواد المسلمين وبطل من أكبر أبطـال التـاريخ ! وعجيب حقًـا أمـر هـؤلاء العرب، فإنهم فى حيـاتهم الأولى ، حياتهم فى الجاهليـة ، كانوا أمـة جاهلـة بدويـة تعيش فى صحراء جافية منعزلة عن العالم إلا فى بعض مشـارق الشام وفارس . لم ينلهم شىء من حضارة ، ولم يمر بهم طيف من تثقيف ، فما كاد يسطع بينهم فجر الإسلام ، وما كاد ينشر بينهم محمد ابن عبد الله رسالته ، حتى تفتحت قلوبهم ، وتخلصت من الأسر عقولهم ومشوا فى نور الله حكماء مبصرين وساسة مديرين كأنهم خلقـوا خلقًا جديـدًا ، أو كأنما استبدل بهم قـوم آخرون . هـذه كيميـاء الإسلام التى حـولت النحاس ذهبـا نضارًا ، وأصـارت الجهل والاعتزاز بالقـوة الوحشية والفخـر الأجوف بـالأنساب علما وسياسة وتواضعًا ، فكان منهم بعد قليل من الزمن علماء مفكرون ، وحكام عادلون ، وقواد مدبرون . وهذا شأن لو أطلنا الحديث فيه لخرج بنا عن جادة ما أردنا .

كان بطلنا سعد بن أبى وقاص شابًا قـرشيًا ، يعتز بشرف فى الجاهلية عريق ، وثروة واسعة ، وهمة تزاحـم الثريـا ، وشجاعة وعـزم وقوة جنـان . وكانـت ألهوة هذا الشاب أن يقضـى سـاعـات فى برى السهـام، ولعله مـا كـان يظن وهـو يبريها أن هذه السهـام التى يعبث بها سيرسلهـا يـومًا إلى صـدور أعدائه، وسيفتح بها يـوما ملكا كبيرا ، لم تكن تحلم بـه جزيرة العـرب ، ولم تكن تستطيع أن يخطر لها ببال . قـام رسول الله صلى الله عليـه وسلم بدعـوة العرب إلى الإسـلام ، فلقى من جفوة كفـار قريش

(*) أذيع هـذا الحديث من إذاعة القـاهرة فى ٣٠/ ١١/ ١٩٤٨ . ونشر بمجلـة (الراديـو المصرى) فى ٢٩ ينايـر ١٩٤٩م . ص ٨ .

وصناديدهم ما لقى ، وتناقل شباب مكة وشيوخها هذه الدعوة فى سخرية واستنكار ، ونام الشاب سعد ذات ليلة ، فرأى فى نومه كأنه فى ظلمة دامسة لا يكاد يبصر فيها شيئًا ، وبينما هو فى حيرة ، إذ بزغ له قمر فى وسط الظلام فتبعه ثم تبعه ، وما كاد يبلغه حتى رأى أن زيد بن حارثة ، وعلى بن أبى طالب ، وأبا بكر بن قحافة قد سبقوه إليه . فسألهم قائلاً : متى انتهيتم إلى هاهنا ؟ فأجابوا : جئنا الساعة . تيقظ الشاب وأخذ يسأل عن مكان النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى علم أنه يدعو إلى الإسلام مستخفيًا ، ومازال يقتص أثر الرسول الكريم حتى لقيه بشعب أجياد وقد صلى العصر ، فأسلم وهو فى السابعة عشرة من سنيه .

دخل سعد الإسلام بقوة اقتناعه بالحق ، ورسخ الدين فى نفسه على صخرة من اليقين ، فما كانت تزعزعه رغبة ، ولا يتخونه إرهاب . استمع له وهو يحدثنا عن نفسه قال :

كنت شابا بارا بأمى حفيا ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ما هذا الدين الجديد الذى أحدثته؟ لتدعنه وإلاّ فإنى لست بآكلة ولا شاربة حتى أموت فتعيّر بى فى القبائل . فقلت : لا تفعلى يا أمى ، فإنى لن أدع دينى . فمكثت يوما وليلة لا تأكل ولا تشرب حتى جهدت . فقلت : والله يا أمى لو كان لى ألف نفس فخرجت نفسا نفسا ، ما تركت دينى لشىء . فلما رأت شدة عزيمتى أكلت وشربت . وفى نزلت الآية الكريمة : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا﴾ [لقمان : ١٥] .

دخل سعد الإسلام مقتنعا مخلصا ، مجاهدًا مقدامًا ، مستميتا فى نصرته . وهو أول من رمى سهمًا فى الذياد عن الدين : ذهب فى أول عهده بالإسلام فى سرية إلى ماء بالحجاز ، فلقيهم جمع من قريش على رأسهم أبو سفيان ، فاعتركوا فكان أول من رماهم ابن أبى وقاص . وقد كان هذا السهم موضع فخره واعتزازه فكان يقول : إنى لأول رجل رمى بسهم فى سبيل الله . شهد مع النبى الكريمﷺ غزواته كلها ، وكان فى فتح مكة يحمل إحدى رايات المهاجرين الثلاث ، وثبت مع الرسولﷺ يوم أحد بينما زلزل المسلمون فدافع عنه ونافح دونه ، وكفاه مجدًا أن النبىﷺ يقول له فى هذه الموقعة : « ارم فداك أبى وأمى» !!

قد يكون له فى هذه الشجاعة ، وفى تلك الفدائية ، أمثال ، وأنداد ، ولكن القدر كان يخبىء له مجدا يبهر العيون ، وتقصر دونه يد المتطاول وذكرا خالدًا فى الآخرين سيبقى أنشودة الدنيا ، وحديثًا عجبًا فى فم الزمان . ذلك حينما تحفز الفرس لقتال العرب ، وحينما عقد عمر بن الخطاب عزيمته وصاح صيحته : والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب ! وحينما صمم على إعداد جيش لفتح فارس يقود رجاله بنفسه فاستشار عمر أصحاب المشورة ، فأجمعوا رأيهم على ألا يذهب على رأس الجيش مخاطرًا ، وأن يندب رجلاً من أصحاب رسول اللهﷺ ، وأن يبقى هو بالمدينة ليمده بالجند

والعتاد، فإن كان الذى يشتهى من الفتح فذلك ما يريد ويريدون ، وإلا ندب جنودًا آخرين يغيظ بهم العدو حتى يجيء نصر الله . وبينما القوم يتشاورون فيمن يختارونه لقيادة الجيش ، إذ جاء إلى عمر كتاب من سعد ، وكان على بعض صدقات نجد يخبره فيه بأنه تخير الف فارس من ذوى النجدة والرأى لقتال الفرس، وما سمع القوم اسم سعد حتى صاحوا: لقد وجدت الرجل ! قال : فمن ؟ قالوا: الأسد فى براثنه ! سعد بن مالك! فوافقهم عمر . وكتب له كتابًا يدل على صلابة عمر وشدته مع قواد جيوشه . ثم على سماحة مبادئ الإسلام جاء فى كتابه :

ياسعد بن وهيب ، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحبه ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته فالناس شريفهم ووضيعهم فى دين الله سواء ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه ، وعليك بالصبر .

خرج سعد من المدينة إلى العراق فى أربعة آلاف من الجند ، وكان جيشه يجمع خيرة العرب من الأبطال الشجعان ، والشعراء والخطباء . وذوى الرياسة والمكانة وأخذ الجنود ينضمون إليه فى طريقه حتى بلغ عددهم ستة وثلاثين ألفا وكان الاتصال وثيقًا بين الجيش والخليفة . فما كان سعد ينزل منزلا أو يتبوأ متبوأ حتى يخبر عمر بأمره . وصل سعد من شراف يريد القادسية بعد أن نظم جيشه وقسمه فرقا . ووضع على كل فرقة بطلا من أهل السابقة فى الإسلام . ثم أخذ يشن الغارات متفرقة ليغنم لجيشه ما يقوم بمئونته . حتى بلغ القادسية وهى باب مملكة الفرس فأقام بها شهرًا وذعر الفرس لقدومه وطار صواب ملكهم فأرسل إلى قائده الأعظم رستم يأمره بالمسير إلى العرب، وصد سيلهم، فاعتذر أول الأمر ولكنه أرغم على القبول كارها، فسار بجيش لجب إلى ساباط فى مائة وعشرين ألفا يتقدمهم ثلاثة وثلاثون فيلا .

وبعث سعد إلى يزدجرد وفدا من أهل الرأى والشجاعة والسياسة وبلغ الوفد المدائن فعجب أهلها حين رأوا رجاله عجافا، وجعلوا ينظرون إلى أشكالهم وإلى أرديتهم على عواتقهم، والسياط فى أيديهم والنعال فى أرجلهم، وإلى خيولهم الضعيفة الهزيلة ، ويتساءلون بينهم كيف يقدم هؤلاء على غزونا ؟ وكيف يطمعون فى الظفر بنا واقتحام عاصمتنا ؟ ودخل الوفد على يزدجرد الملك فقال لهم : ما الذى أقدمكم هذه البلاد ؟ أتراكم اجترأ تم علينا لما تشاغلنا بأنفسنا ؟ وبعد حوار طويل قال له المغيرة بن شعبه : اختر إحدى خلال ثلاث : فإما الجزية ، وإما السيف، وإما أن تسلم فتنجو بنفسك. فغضب الملك وأمر برد الوفد إلى قائده .

وكان دهاقنة الفرس وكبراؤهم أشد عداء للعرب حينما علموا أن دينهم يسوى بين الطبقات فى ديمقراطية واسعة الأفق ويجعل الناس سواء لا يمتازون إلا بما قدموا من عمل صالح .

وبدأ القتال بين الفريقين عندما كبر سعد تكبيرته الرابعة والتقى الجيشان ، وكانت الحرب زبونا ضروسا مشتعلة الأوار ، استمرت أياما وقتل كبار قواد الفرس ، وهبت ريح دبور فأطارت طيارة رستم عن سريره ، فأسرع إليه القعقاع بن عمرو فضرب جبينه بالسيف حتى قتله ، ثم صعد سريره يصيح : قتلت رستم ! قتلته ورب الكعبة ! إلى إلى ! فأطاف به الجند يهللون ويكبرون . وانهزمت جيوش يزدجرد وولت الأدبار .

واهتبل سعد الفرصة فسار بجيشه لفتح المدائن فاقتحم جنوده نهر دجلة بخيولهم ، وبلغوا إيوان كسرى وفر الملك ، وغنم المسلمون مغانم كثيرة وكان فتحًا مبينًا . ثم أقام سعد بالكوفة قليلاً حتى عزل عنها .

وجاءت فتنة على ومعاوية فاعتزل الفريقين ودعاه ابن أخيه هاشم أن يدعو لنفسه وأن ينهض لطلب الخلافة وكان مما قاله له : إن هاهنا مائة ألف سيف يرونك أحق بهذا الأمر ، فأجابه سعد فى غضب : أبالفتنة تأمرنى ؟ لو كان لى بدل ما ذكرته سيف واحد إذا ضربت به المؤمن نبا ، وإذا ضربت به الكافر قطع ، لأجبتك : « لن أجرد سيفى فى وجه مسلم » !

ولما حضرت سعدًا الوفاة طلب جبة له بالية وقال لأهله : كفنونى فيها لأنى لقيت المشركين بها يوم بدر.

رضى الله عن سعد وجزاه خير ما يجزى به المجاهدين .

والناس ألف منهمُ كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنى

الموشح

من تراثنا الأدبي الموسيقي (*)

أول ظهوره بالأندلس ، والسابق إلى ابتداعه مقدم بن معافى من شعراء الأمير عبد الله المروانى ، ثم تبعه أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد . وبزهما فيه عبادة القزاز شاعر المعتصم صاحب ألمريه ، وهو من ملوك الطوائف وكان الموشح مظهرًا للإبداع والافتنان ، ومن أشهر الوشاحين الأعمى التطيلى ، والطبيب ابن باجة سنة ٣٣٥ هـ وإليه تنسب أكثر لحون الأصوات التى كان يتغنى بها فى الأندلس ، وابن اللبانة سنة ٥٠٧ هـ ، وابن سهل الإسرائيلى ، ولسان الدين بن الخطيب .

وانتقل الموشح إلى المشرق فحاول نظمه جماعة من الشعراء ولكنهم لم يبلغوا شأن الأندلسيين ، فكانت موشحاتهم لا تخلو من تكلف وعجز عن اختيار الكلمات الموسيقية المرنة .

ومن أول المحسنين فى هذا الفن من المشارقة ابن سناء الملك ، وله الموشحة المشهورة التى لا يزال نتغنى بها إلى اليوم :

كللى ياسحب تيجان الربا بالحلى واجعلى سوارها منعطف الجدول

وجاء بعده كثير من شعراء مصر والشام ومن أشهرهم الشاعر الموسيقى الملحن . . شمس الدين ... عان سنة ٧٢١ هـ ، قال ابن شاكر الكتبى : « كان ينظم الشعر الرقيق ويدرى الموسيقى ويعمل الشعر ويلحنه ويغنى به المغنون وكان يلعب بالقانون » .

(*) نشرت بمجلة الموسيقى العربية التى تصدرها اللجنة الموسيقية العليا بالقاهرة عدد سبتمبر ١٩٨٧ ص ١٤ عن نشر سابق .

والذى دعا الأندلسيين إلى ابتكار الموشح أنهم رأوا أن الشعر كيفما بولغ فى شطر أبحره أو جزئها أو نهكها ربما لا يجرى مع النغم الذى يريدونه ، ورأوا أن المشارقة كانوا يقولون الشعر ثم يلحنونه ، وأن التلحين لذلك لم يكن حرًا طليقًا بل كان الوزن الشعرى يقيده ويحول بينه وبين تصوير العاطفة تصويرًا صادقًا ، ومثل ذلك مثل من يشترى الثوب مخيطًا ثم يعمل على أن يطوله من ناحية ويقصره من أخرى حتى يتقارب مع ملاءمة جسمه . ورأوا ذلك فأرادوا أن يخضعوا الشعر للنغم ، لا كما فعل المشارقة من إخضاع النغم للشعر . لذلك خرجوا من الموازين الشعرية المعروفة ولم يتقيدوا بها ، والذى ساعدهم على ذلك أن الشعراء فى العصر العباسى الأول تصرف بعضهم فى الأوزان كمسلم ابن الوليد ، ثم تصرفوا فى القوافى كما تراه فى بعض أشعار بشار وابن المعتز ، فكان هذا التصرف تمهيدًا لابتكار الموشح الذى تصرف فى الوزن والقافية معا ، فهو مرة يجرى على أبحر الشعر المعروفة كموشح ابن سهل الإسرائيلى وابن الخطيب فكلاهما من بحر الرمل ، وكثيرًا ما يبتكر له الأوزان ، حتى لقد قيل إن بعض الألحان الموسيقية كانت تجىء إلى مصر من بلاد الروم على أوزان ساذجة تضرب على آلات الموسيقى خالية من الكلام ، فكان المغنون يأخذون اللحن منها ، ويتأملون توقيعه مراعين متحركاته وسواكنه ، وينظمون الكلام على هواه ، وعلى قدر ما فيه من الأغصان والسلاسل حتى يكمل توشيحا موزونا .

ولم يسبق الأندلسيون المشارقة إلى الموشح لسبقهم إياهم فى الموسيقى والغناء ، فإن المشارقة من غير شك كانوا أساطين هذا الفن وعماده غير مزاحمين ، وقد برعوا فيه وأبدعوا وكان منهم الأعلام المبتكرون الذين يموج بذكرهم كتاب الأغانى ، والأندلسيون عيال على المشارقة فى هذا الفن ، فلم يزدهر بينهم إلا حينما اجتاز زرياب الفارسى إلى عدوة الأندلس أيام خلافة عبد الرحمن الثانى ، فقد كان فى خدمة المهدى العباسى ، وكان تلميذًا لإسحاق الموصلى ، ويزعمون ، فيما يزعمون ، أن إسحاق رأى من دلائل نبوغه ما أوجس منه خيفة أن يكون له شأن فى أعين الخلفاء ، فأغراه بمغادرة بغداد إلى الأندلس .

والموشحات تغنى بمصر من زمن بعيد غير أن اختيارها لم يكن موفقًا ، فلم ينتخب أرقها لفظًا ولا أغزرها معنى ، ولا أبعدها فى الافتتان اللفظى وزنًا . وجرت عادة المغنين أن ينشدوها معا فلم تظهر ألفاظها ، ولم تتضح معانيها ، وكل الذى يبقى لك منها أصوات تجرى على نغم موسيقى خاص . والتزم المغنون أيضًا أن يجعلوا التوشيحات مدخلاً للأدوار ، فهو عندهم كالحتم أن يغنى التوشيح ثم يتلوه الدور ، وفى العصور المتأخرة دخلت اللغة العامية الموشحات .

شعراء النهضة من دواوينهم

محمود سامى البارودى (*)

لو وضع أمامك ديوان البارودى، ومحى من غلافه اسم الشاعر، وكنت أبصر الناس بالشعر، وأعرفهم بخصائصه، وأقدرهم على ترسم ميزاته فى كل عصر من عصور الأدب، ما شككت فى أن أمامك مجموعة مختارة من بدائع شعر الجاهليين، وروائع العباسيين. ذلك لأن البارودى كان بارعا فى المحاكاة والتقليد، وكانت الصلة بين حافظته وقوته البيانية تشبه الصلة بين عينى الرسام البارع ومشاهد الطبيعة، فكما أن الفنان العبقرى لا يخطئ الألوان والظلال والنسب بين الأشياء، كذلك كان البارودى لا يخطئ فى وضع الصور الكلامية فى جزالتها أو رقتها، وفى تقديمها أو تأخيرها مطابقة للأسلوب العربى الصميم الذى يحاكيه. وتلك هبة فطرية قبل أن تكون ثقافة أو علما. وهى نفحة ربانية يختص بها الله أعلام الفنانين بين الحين والحين. إن البارودى نشأ فى بيئة شركسية من أبوين شركسيين، والعربية أبعد ما تكون من هذا الجوار. والبارودى لم يتلق أصول اللغة عن أستاذ، ولم يجلس مجلسا لدرس مسائل النحو والصرف. والبارودى نشأ فى عصر راكد ذميم ماتت فيه اللغة، ومات الأدب، وأصبح الشعر القليل فيه إذا سلم من الخطأ والكسر، لم يسلم من الغثاثة والسخف، فمن الذى أطلع تلك الزهرة الناضرة فى هذه الصحراء المقفرة. . . ؟ ومن الذى بعث هذا النجم المتلألئ فى هذه الليلة الليلاء. . . ؟ أطلع هذه الزهرة النبوغ الموهوب، وبعث هذا النجم النبوغ الموهوب. كأن الله عز شأنه حينما أراد أن يبعث مصر بعثا سياسيا، وأن ينهضها بعد طول السبات لتأخذ مكانها بين الأمم الناشطة العاملة، أراد أن يتم عليها نعمته ببعث أدبى شعرى يعيد إلى اللغة

(*) نشرت هذه المقالة فى مجلة المستمع العربى وكذلك فى كتاب « فى السياسة والأدب والفن» الناشر: مودى جرافيك.

نضارتها، وإلى لسان القرآن مجده القديم جديدا، وأن يجعل مصر زعيمة الشرق، وحاملة لواء العربية والشعر بين الأمم. البارودى درس الشعر من الشعر، وتعلم النحو والصرف من الشعر، وعرف دقائق اللغة وغرائبها من الشعر، فإنه أبى أن يسلك طريق أهل عصره، الذين انكبوا على دواوين صغار الشعراء المهزولين، فتجرد لدراسة الشعر الجاهلى، والعباسى فى أزهى عصوره حتى تملأ منها، ثم طلع على الناس بشعر لا عهد لهم به، فبهرهم وأطار صوابهم، وأخذوا يترسمون خطواته، ويقتفون آثاره، فهو زعيم النهضة الشعرية فى الشرق غير منازع، وهو مجدد؛ لأنه بعث القديم وأثار التراب عن الكنز الدفين :

ملكت مقاليد الكلام وحكمة	لها كوكب فخم الضياء منير
فلو كنت فى عصر الكلام الذى انقضى	لباء بفضلى جرول وجرير
ولو كنت أدركت النواسى لم يقل	«أجارة بيتينا أبوك غيور»

وهكذا تثور شاعرية البارودى حتى تصل إلى ذروتها، فتتحدى السابقين من الشعراء المبرزين، وهكذا ينتقل المحاكى القانع بالمحاكاة إلى الاعتداد بنفسه، والثورة على أصنامه التى كان يومئ إليها بالذلة والخشوع، فقد عارض النابغة وأبا نواس والمتنبى وأبا فراس والشريف الرضى ولم يكن دونهم إن لم يكن قد بزهم. ومن أين للشريف أن يقول :

إذا أنا لم أعط المكارم حقها	فلا عزنى خال ولا ضمنى أب
ولا حملت درعى كميت طمرة	ولا دار فى كفى سنان مذرّب
خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة	علىّ يدا أغضى لها حين يغضب
فلست لأمر لم يكن، متوقعا	ولست على شىء مضى، أتعتب
أسير على نهج يرى الناس غيره	لكل امرئ فيما يحاول مذهب
وإنى، إذا ما الشك أظلم ليله	وأمست به الأحلام حيرى تشعب
صدعت حفافى طرتيه بكوكب	من الرأى لا يخفى عليه المغيب

وإذا سمينا هذا البعث لروائع العربية تجديدا، فإننا لا نغفل عن أن البارودى كان مجددا حقا بالمعنى الذى يفهمه الناس، فقد كان الشعر قبله مقصورا على المدح والتهنئة والرثاء، ولا يخرج عن هذه الأغراض. أما البارودى فأول شاعر جعل من شعره صورة لما يحسه ويبصره، فكان شعره يمثل نفسه ويصور عصره، شاهد الوقائع فوصفها حين يقول :

ولما تـداعـى القـوم، واشتبك القنـا ... ودارت كما تهوى على قطبهـــا الحرب
ودارت بنـا الأرض الفضـاء كأننـا ... سقينـــا بكـأس لا يفيـق لها شرب
صبرت لها حتـى تجلـت سماؤهـــا ... وإنـى صبـــور إن ألم بـى الخطـب

واصطخبت فى أيامه أحداث السياسة فخاض غمارها، وقال فيها الشعر الرائع الرصين، ووصف الآثار المصرية وروضة المقياس والجزيرة :

فبـادر لميقـات الصـلاة ومل بنـا ... إلى القصف، مـا بين الجزيـرة والنهـر
إذا مـا قضينـا واجب الـدين حقـه ... فليس علينـــا فى الخلاعـــة مـن وزر
تـرى كل ميـلاء الخمار من الصبـا ... هضيمـة مجرى البنـد، نـاهـدة الصـدر
إذا انفتلت فى حـاجـة خلت جـؤذرا ... أحس بصيـــاد فـأتلع من ذعـــر
لـوى قـدهـا سكـر الخلاعـة والصبا ... فمالت بشطـر واستقـامت على شطـر

وقال فى الاجتماع والأخلاق وطرائق الإصلاح ، واستثار قـومه إلى النهـوض والوثـوب، ونفى إلى سرنديب، فكان حنينه إلى وطنه زفرة تذيب القلوب وتستنزف ماء الشئون :

لا فى سرنـديـب لى خل ألــوذ بـه ... ولا أنيس ســوى همى وإطـــراقى
أبيت أرعى نجـوم الليل مـرتفقـا ... فى قنـة عـز مـرقـاهـا على الـراقى
يـاروضـة النيل، لا مستـك بـائقـة ... ولا عـــدتك سماء ذات إغــداق
إذا تـذكـرت أيـامـا بها سلفت ... تحدرت بغـروب الـدمع آمــاقى
ويـا بـريـد الصبـا بلغ ذوى رحمى ... أنـى مقيم على عهـــدى وميثـــاقى

نشأ فى بيت عـريق، وكان لآبـائه سالفة فى الشرف، ومـراس فى معامع القتـال، وانتماء إلى بعض سلاطين المماليك، فانضمت هذه الوراثة النبيلة ، إلى النزعة الشعرية الملتهبة فأججت نارها، ودفعتها إلى التغنى بذلك المجد، وإلى التشوف إلى ما ينتظرها من آمال جسام :

أبـت لى حمل الضيـم نفس أبيـــة ... وقلـب إذا سيـم الأذى شـب وقــــده
نمانـى إلى العليـــاء فـــرع تأثلت ... أرومتـــه فى المجــد وافتر سعـــده
بما كـــان أوصـــاه أبـــوه وجـــده ... وحسب الفتـى مجدا إذا طلب العـــلا
إذا ولـــد المولـــود، منـــا فـــدره ... دم الصيـــد، والجرد العنـاجيج مهـــده
فإن عـــاش فـالبيـــد الـديـاميم داره ... وإن مـــات فـــالطير الأضـــاميم لحده

أصدّ عن المرمى البعيد ترفعا وأطلب أمرا يعجز الطير بعده

* * *

وإنى امرؤ لولا العوائق أذعنت لسلطانه البيد المغيرة والحضر
من النفر البيض، الذين سيوفهم لها فى حواشى كل داجية فجر
إذا استلّ منا سيد غرب سيفه تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

ومن هذا كان أضخم شعر البارودى وأقواه، ما كان فى الحماسة ووصف الوقائع والفخر، فإذا تغزل أو وصف مجالس لهوه حاول الرقة فظفر بها :

غلب الوجد عليه فبكى وتولى الصبر عنه فشكا
وتمنى نظرة يشفى بها غلة الشوق فكانت مهلكا
نظرة ضم عليها هدبه ثم أغراها فكانت شركا

* * *

هل من فتى، ينشد قلبى معى بين خدور العين بالأجرع
كان معى ثم دعاه الهوى فمر بالحى ولم يرجع
فهل إذا ناديته باسمه يفيق من سكرته أو يعى

والبارودى شاعر أسلوب فحسب، يكتفى بجرس الألفاظ وموسيقاها ورنينها، أما المعانى والأخيلة فليس له فيها من جديد، وكأنه حينما حاول محاكاة أسلوب الأولين، أغرق فى محاكاتهم فحاكاهم فى معانيهم وأخيلتهم، فلم يخلص له من المعانى المبتدعة إلا النزر القليل، والشأن فى معانيه وأخيلته شأن الحكم التى كان ينثرها فى غضون قصائده، فإنها مسبوقة معادة، فالبارودى أشبه بمقلد الآثار الماهر، يصنع التمثال ويدسه فى التراب ليظهر عليه القدم، وهو يرى، أنه إذا زاد فيه شيئا أو نقص فيه شيئا جاوز حدود الفن، وظهر للناس زيفه وخداعه. ويكفى مصر والشرق، أنهما ظفرا منه بعودة الشعر العربى الصميم إلى حياته الأولى، وبالقضاء على تلك الزخارف اللفظية السمجة التى قضت على جماله الفطرى قرابة ثمانية قرون.

المرحوم أحمد شوقى بك

وهذا روض فسيح الجنبات، وسيم القسمات، ظليل الأدواح كريم النفحات، لن نستطيع إلا أن نقتطف منه زهرات قليلة، تنم عن كريم منبته وطيب ثراه.

نشأ شوقى وفيه كل أدوات النبوغ والعبقرية. فطرة شعرية تتحدى الشبيه والنظير، وذكاء لامع نفاذ وأدب جم، ودرج فى بيت شريف الأرومة، يعيش فى ظل الأسرة الخديوية . . .

أأخـــون إسماعيل فى أبنـــائه	ولقـــد ولـــدت ببـــاب إسماعيـــلا
ولبست نعمتـــه، ونعمـــة بيتـــه	فلبست جـــزلا وارتـــديت جميـــلا

ثم إنه نـال القسط الأوفى من الثقافة فى مصر وفرنسا، وأكثر من القراءة، وأكثر من الرحلة إلى بلدان أوروبا وبلدان الشرق، ويلتقط منها خير ما فيها من ثمر، وبعد أن اكتمل، وجاوز العشرين من عمره اتصل بالقصر، وأصبح شاعر القصر. وقصر قصائده فى أول الأمر على المناسبات كتهنئة الخديوى بالعيد أو برمضان أو بالقدوم من سفر، فإذا تجاوز هذا، تجاوزه إلى الغزل والإخوانيات، أو تمجيد دولة الأتراك. وكان شعره الغزلى فى طليعة شبابه بديعا رائعا. استمع له وهو يقول :

روعـــوه، فتـــولى مغضبـــا	أعلمتم كيف تـــرتـــاع الظبـــا ؟
خلقـت لاهيـــة نـــاعمـــة	ربما روّعهـــا مـــر الصبـــا
لى حبيـب كلما قيـل لــــه	صـــدق القـــول وزكى الـــريـــا
كـــذب العـــذال فيها زعمـــوا	أملى فى فـــاتنى مـــا كـــذبـــا
لـــو رأونـــا والهوى ثـــالثنـــا	والـــدجى يـــرخى علينـــا الحجبـــا
فى جـــوار الليل فى ذمتـــه	نـــذكـــر الصبح بأن لا يقـــربـــا

ملء بـردينـا عفـاف وهـوى | حفظ الحسن وصنت الأدبـا

* * *

اللـه فى الخلق من صب ومن عـانى | تفنى القلـوب ويبقى قلبك الجانى
صـونى جمالك عنـا إننـا بشر | من التراب وهـذا الحسن روحـانى

وعلى الرغم من اختصاص شوقى بالقصر، فإن جمهرة الأدباء والمثقفين كانوا ينتظرون شعره فى تشوف وشوق. ويتخطفون الجرائد حينما تنشر قصائده فيتناولونها بالدرس والحفظ، ويتناشدونها فى مجالس سمرهم. نعم إن شعر المناسبات ممجوج مملول، ولكن شوقى استطاع مع تكرار الموضوع أن يجعل من كل قصيدة باقة مختلفة الأزهار، متعددة الألوان، فيها غزل وفيها وصف وفيها دعوة إلى المجد، وفيها أدب جديد وحكمة رائعة.

وبقى شوقى مقيدا بهذه الأغراض القليلة مدة اتصاله بالقصر؛ لأن منصبه الرسمى كان يمنعه من أن يجول فيما يجول فيه الناس، وأن يهتف بما يهتف به حافظ وأمثال حافظ. وفى الحق، إن قوته الشعرية كانت معطلة، ونبوغه الفنى كان مكبوتا، فلم يجد له متنفسا إلا فى الإشادة بانتصار الترك على اليونان، وفى مثل القصيدة التى قالها فى مؤتمر جنيفا، وهى ملحمة تاريخية ألم فيها بتاريخ مصر منذ القدم إلى عهدها الحاضر وهى فى نحو ثلاثمائة بيت. فلما انقطعت صلاته بالقصر، وأصبح حرا، غرد فوق كل فنن، وحام حول كل روض، وعبر عما يجول فى كل نفس، وكان شعره - كما يقول هو عن نفسه :

كـان شعرى الغنـاء فى فـرح الشرق | وكـان العـزاء فى أحـزانه

غرد شوقى طليقا فبهر مصر، وبهر الشرق، وأصبح اسمه ملء الأفواه والمسامع. فقد منصبه، فأولاه الشعر منصبا خالدا على الدهر، وفقد الاتصال بالأمير، فأصبح أميرا على الشعر والبيان، وارتحل شوقى إلى الأندلس فى أثناء الحرب الماضية، فأثارت مشاهد الحضارة العربية شاعريته، وألهبت وجدانه، وأيقظت شيطان شعره، فغنى بآثار العرب، ومجد العرب، ثم أكثر من الحنين إلى مصر وأهلها، فهو يقول :

يـا نـائح الطلح أشباه عـوادينـا | نشجى لـواديك أم نأسى لـوادينـا؟
مـاذا تقص علينـا غير أن يـدا | قصت جنـاحك جـالت فى حـواشينـا
رمى بنـا البين أيكـا غير سـامرنـا | أخـا الغـريب: وظـلا غير نـادينـا
أسـاة جسمـك شتى حين تطلبهـم | فمن لـروحك بـالنطس المداوينـا؟
آهـا لنـا! نـازحى أيك بأنـدلس | وإن حللنـا رفيفـا من روابينـا

رسم وقفنا على رسم الوفاء له — نجيش بالدمع، والإجلال يثنينا
لفتية لا تنال الأرض أدمعهم — ولا مفارقهم إلا مصلينا
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة — للناس كانت لهم أخلاقهم دينا

وعاد من الأندلس إلى مصر، واندمج فى غمار الأمة، وزادت السن شعره قوة ونضجا. وكان شوقى أول أمره متعصبا للترك، كثير التفاخر بهم فلما ألغوا الخلافة، انصرف عنهم وقال يرثيها:

عادت أغانى العرس رجع نواح — ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت فى ليل الزفاف بثوبه — ودفنت عند تبلج الإصباح
شيعت من هلع بعبرة ضاحك — فى كل ناحية وسكرة صاحى
ضجت عليك مآذن ومنابر — وبكت عليك ممالك ونواحى

ثم اتجه بعد هذا إلى التمسك بالمصرية، فأكثر من القصائد فى مجد قدماء مصر، والإشادة بمدنيتهم:

خليلى اهبطا الوادى وميلا — إلى غرف الشموس الغاربينا
وسيرا فى محاجرهم رويدا — وطوفا بالمضاجع خاشعينا
وخصا بالعمار وبالتحايا — رفات المجد من توتنخمينا
وقبرا كاد من حسن وطيب — يضىء حجارة ويضوع طينا

وبعد حين رأى أن هذه النزعة قد تفرق بين مصر والأمم العربية، فولى وجهه نحو الشرق، وأخذ يغنى بمجد العرب، ويحفز أممهم إلى النهوض، فيقول فى دمشق:

سلام من صبا بردى أرق — ودمعٌ لا يكفكف يا دمشق
دخلتك والأصيل له ائتلاف — ووجهك ضاحك القسمات طلق
وتحت جناحك الأنهار تجرى — وملء رباك أوراق وورق
وحولى فتية غر صباح — لهم فى الفضل غايات وسبق
على لهواتهم شعراء لسن — وفى أعطافهم خطباء شدق

على أن شوقى كان رجلا واسع الأفق، متدفق العاطفة، لا تنحصر عواطفه فى بلد أو أمة، بل تفيض فتشمل الناس جميعا.

بكى باريس فى محنتها أيام الحرب الماضية ، وطوكيو حينما أصابها الزلزال ، وأشاد بمجد روما ، ورثى نابليون وكارنارفون (Carnarvon) وكتشنر وفيه يقول :

أنتم القوم حمى الماء لكم ... يرجع الورد اليكم والصدر
لجج الدأماء أوطان لكم ... ومن الأوطان دور وحفر
لست فى البحر وحيدا فاستضف ... فيه آباءك تنزل بالدرر
ورسوا فيه كراما وطفا ... طائف النصر عليهم والظفر

ثم إنه أعلى ذكر هول كين (Hall Caine) وتلستوى وفردى وهوجو وشكسبير، وفيه يقول :

أعلى الممالك ما كرسيه الماء ... وما دعامته بالحق شماء
يا جيرة (المنش) حلاكم أبوتكم ... ما لم يطوق به الأبناء آباء
ملك تطاول ملك الشمس، عزته ... فى الغرب باذخة فى الشرق قعساء
أعلاه بالنظر العالى ونطقه ... بحائط الرأى أشياخ أجلاء
وحاطه بالقنا فتيان مملكة ... فى السلم زهر ربى فى الروع أرزاء

أما أسلوب شوقى فمتين بطبعه، لا يتكلف فيه الصقل والإجادة فيأتى مصقولا جيدا، وإن خفيت مراميه أحيانا لتزاحم معانيه وبعد خياله. وكان شوقى دقيق الحس فى اختيار أوزان شعره مطابقة للغرض الذى يقول فيه ، ألم تر إلى قصائده الثلاث التى قالها فى وصف الليالى الراقصة بعابدين ، فإن كل وزن فيها أشبه بالإيقاع الموسيقى المرقص .

حف كأسها الحبب ... فهى فضة ذهب

والتى يقول فيها فى وصف الراقصات :

والقصور مسرحها ... لا الرمال والعشب
يستفزها نغم ... لا صدى ولا لجب
يستعاد مرقصه ... تارة ويقتضب
فالقدود بان ربى ... بيد أنها تثب
يلعب العناق بها ... وهو مشفق حدب
فهى مرة صعد ... وهى مرة صبب
وهى ههنا وهنا ... تلتقى وتصطحب

مثلما التقت أسل   أو تعانقت قضب
الرءوس مائلة   فى الصدور تحتجب
والنهود هامدة   والخدود تلتهب
والخصور واهية   بالبنات تنجذب

واتجه شوقى فى أخريات أيامه إلى نظم القصص التمثيلية ، فسما وحلق ، وفتح بابًا بهذه القصص لأفكاره وثقافته العالية الواسعة ، ووجه الشعر العربى إلى الطريق التى كان يجب أن يسلكها من أكثر من ألف عام .

حافظ إبراهيم

يعد حافظ إبراهيم ، أول شاعر بمصر تحدث إلى الجماهير فاستثارها، واستحث عاطفتها وعبر عن آمالها، فلقد كان الشعر بالبارودى، وصبرى، وشوقى، فى أول أمره أرستقراطيا، لا يتناقله إلا خاصة المتأدبين، حتى ظهر حافظ ، وهو من غمار الشعب، ومن بين طبقاته المعوزة درج ونشأ، فنقل الشعر من مجالس الخاصة إلى محافل الشعب وسوامره، وقد وجد حافظ من توثب مصر إلى النهوض، ومن إطلاق الحرية للناس والجرائد، وجد من كل هذا فرصة سانحة لأن يرفع صوته مجلجلا، وأن يتخذ من شعره أداة للإصلاح الاجتماعى ولحفز الهمم :

أيها الشرقى شمر لا تنم ... وانفض العجز، فإن الجد قاما
وامتط العزم جوادا للعلا ... واجعل الحكمة للعزم زماما
وإذا حاولت فى الأفق منى ... فاركب البرق، ولا ترض الغماما
سابق الغربى واسبق ، واعتصم ... بالمروءات وباليأس اعتصاما

وهو فى هذا يقتفى آثار البارودى، الذى فتح الطريق لمن جاء بعده من الشعراء، ونقل الشعر إلى ذلك الميدان الفسيح ، ثم هو من ناحية أخرى، رجل ديمقراطى النشأة والمربى والمنزلة، فهو يريد أن يجعل شعره مثله ديمقراطيا. وكان فى أول أمره يلتزم أغراض الشعر القليلة المعروفة، ولكنه بعد قليل ضاق بها صدره، فصاح يخاطب الشعر :

ضعت بين النهى وبين الخيال ... يا حكيم النفوس يابن المعالى
ضعت فى الشرق، بين قوم هجود ... لم يفيقوا، وأمة مكسال
قد أذلوك بين أنس وكأس ... وغرام بظبية أو غزال

ونسيب، ومدحة، وهجاء ورثاء وفتنة وضلال
وحماس أراه فى غير شىء وصغار يجر ذيل اختيال
عشت ما بينهم مزالا مضاعا وكذا كنت فى العصور الخوالى
حملوك العناء من حب ليلى وسليمى ووقفة الأطلال
آن يا شعر أن نفك قيودا قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

خرج حافظ من هذه الربقة الضيقة القاتلة، التى كانت تقصر الشعر على المدائح والمراثى والتهانى، وانطلق يقول فى السياسة والاجتماع والأخلاق، فهو يقول . . .

إن فينا لولا التخاذل أبطا لا إذا ما هموا استقلوا اليراعا
وعقولا لولا الخمول تولا ها لفاضت غرابة وابتداعا
قد مللنا وقوفنا وبكانا حسبا زائلا، ومجدا مضاعا
وسئمنا مقالهم كان زيد عبقريا وكان عمرو شجاعا

ثم يقول :

شمر، وكافح فى الحياة فهذه دنياك دار تناحر وكفاح
وانظر إلى الغربى كيف سمت به بين الشعوب طبيعة الكداح
والله ما بلغت بنى الغرب المنى إلا بنيات هناك صحاح
ركبوا البحار وقد تجمد ماؤها والجو بين تناوح الأرواح
يلقى فتيهم الزمان بهمة عجب ووجه فى الخطوب وقاح
ويشق أجواز الفضاء مغامرا وعر الطريق لديه كالصحصاح

على أنه لم يترك المديح والرثاء مرة واحدة، وكان له نفس طويل فى الرثاء، كقوله يرثى الملكة فكتوريا :

أشمس الملك أم شمس النهار هوت، أم تلك مالكة البحار
فطرف الغرب بالعبرات جارى وعين اليم تنظر للبخار
بنظرة واجد قلق الرجاء
ملأت الأرض أعلاما وجندا وشدت لأمة السكسون مجدا
وكنت لفألها يمنا وسعدا ترى فى نور وجهك إن تبدى
سعود البدر فى برج الهناء

درج حافظ، كما قلنا، فى بيئة رقيقة الحال، ومات أبوه وهو فى الرابعة من عمره فكفله خاله ثم تخلى عنه، فنشأ بائسا يطرق أبواب الرزق فتضيق به، حتى لحق بالمدرسة الحربية ثم عين ضابطا بالجيش فلم ينجح فيه وفصل من الخدمة، فعاد إلى بؤسه يعيش من الاتصال بالأغنياء وأبناء الأغنياء، ويتخذ من شعره وسيلة لحياته، لهذا ترى قدرا كبيرا من شعره يفيض بشكوى البؤس والشقاء :

ويا نوحا جنبت على البرايا	ولم تمنحهم السود الصحيحا
علام حملتهم فى الفلك هلا	تركتهم فكنت لهم مريحا
أصاب رفاقى القدح المعلى	وصادف سهمى القدح المنيحا

* * *

ويا قدمى إن سرت بى لمذلة	ولم ترتقى إلا إلى العز سلما
فلا تبطئى سيرا إلى الموت واعلمى	بأن كريم القوم من مات مكرما

وطالما أنشأ القصائد الطوال فى الحث على معاونة الفقراء ومساعدة الأيتام وعلى إنشاء الملاجئ والمستشفيات، على أن عهد البؤس هذا، كان عهد شبابه أيضا، حين كان يغشى مجالس أبناء الأثرياء، ويتمتع بما فيها من لهو وعبث ومجون، فهو يقول :

فتية الصهباء خير الشاربين	جددوا بالله عهد الغائبين
واذكرونى عند كاسات الطلا	إننى كنت إمام المدمنين
وإذا ما استنهضتكم ليلة	دعوة الخمر فثوروا أجمعين
رب ليل قد تعاهدنا على	ما تعاهدنا، وكنا فاعلين
فقضيناه ولم نحفل بما	سطرت أيدى الكرام الكاتبين

قضى الشاعر فى عهد البؤس نحو ثمانى عشرة سنة، وهو فى الحقيقة عهد ازدهار شعره، أطلق فيه حافظ سراح نفسه، فحلقت فى سماء البيان حرة طليقة، تغرد بأعذب الألحان، فكان من نعم الله على الشعر، أن يكون حافظ بائسا، وكان من منته على العربية والأدب أن يكون شاعرنا مكدودا مستجديا، حتى إذا ذهب عنه البؤس، وعاد إلى الوظائف فى سنة إحدى عشرة وتسعمائة وألف سكت، وأجبل إلا قليلا وطار غريد الشعر من قفص صدره، وغادره شيطانه حزينا محسورا.

كان طبعه الخوف وكأنه بعد أن ذاق مرارة الفاقة، وظفر آخر الأمر بوظيفة ضخمة المرتب بدار الكتب، خاف إن هو نطق أن تطير الوظيفة من يديه، وأن يعود إلى بؤسه كرة أخرى وقد مكث بالوظيفة نحو إحدى وعشرين سنة، حتى أحيل إلى المعاش وعادت إليه حريته طلب الشعر فلم

بجده، وحاول أن يقـول فى بعض الإغـراض الاجتماعية، كما كان يقـول ويبدع فى قـديم الزمـان، فلم تطاوعه إلهة الشعر، وجاء شعره غثا سقيما، سمعه الناس مستنكرين آسفين، يترحمون على شعر حافظ وعلى أيام حافظ، ومن الشعـر ما يجود بالهرم وتقدم السن، كشعر شـوقى، ومنه ما ينحط ويضعف، كشعر حافظ والبارودى .

أما شعـر حافظ، فكان شعـر ديباجة وأسلـوب، عنى فيه بـاللفظ والرنين الموسيقى فوق عنـايته بابتكـار المعانى والغوص وراء الأفكار البعيـدة المنال، ولا عجب، فهو شاعـر الجماهير كما أسلفنا، والجماهير لا تريـد إلا النغم الرائع، والتعبير الذى يهز النفـوس، ويستثير الوجدان، وقـد اتخذ حافظ البارودى إماما له فى هذه الناحية، ألست تراه يخاطبه فيقول :

إمـــام القـــوافى إن لى مستهــامـــة	بمـــــدح ومـن لى فيك أن أبلـغ المدى
أعـــرنى لمدحيـك اليراع الــذى بــه	تخط وأقـــرضنـى القـــريـض المســـددا
ومـــر كل معنى فـارسـى بطـــاعتى	وكـل نفـــــور منــــه أن يتــــوددا

وكانت ثقافة حافظ الأولى محدودة جدا، فلم ينل منها إلا ما يعطيه التعليم الابتدائى، ولكن هبته الفطرية، وكثـرة مطالعاته، ومجالسته العلماء والأدبـاء، جعلت منه شاعرا عـربيا . على أنه لم يصل فى التمكن من اللغة وأصولها إلى ما يقـارب المنزلة التى وصل إليها البارودى بثقافتـه العصامية، لذلك لم يسلم شعره من الخطأ، وكأن حافظا كان يحس هذا، فكان لا ينشر قصيدة، إلا إذا عرضها مرات على الأدباء ورجال اللغة، هذا يصلح له كلمة، وهذا يصحح أسلوبا، على أن شيئا ليس بالقليل من ذلك فرّ من نظرات الناقدين .

وثقافة حـافظ فى اللغة محدودة أيضا، فهو إذا قـورن بشوقى فى هذه الناحيـة، لا يعد شيئا، ومن هذا كانت معانيه مألوفة وخياله ضيق النطاق، وكان شعره فى جملته، أشبه بدروس الوعظ والإرشاد، منه بابتكار رأى أو دعوة إلى فكر جديد .

إسماعيل صبرى باشا

لو استطاع رسام ماهر أن يرسم لشاعر صورة بارعة، تتجلى فيها دقة الخيال وإرهاف الحس، وحدة الذوق، إلى لطف العاطفة وسرعة إدراك معانى الجمال، ما كانت هذه الصورة لغير إسماعيل صبرى.

فإنه جمع هذه الصفات جميعا، وهى التى جعلت من شعره مثالا للفن الرفيع، والأدب العالى.. نعم، إنه مدح ورثى، كما كان الناس يمدحون ويرثون، وكان شعره فى هذا الضرب لا يصور نفسه، ولا يعطى إلا لمحة خاطفة من الشاعر، ولكنه بعد أن تجاوز طور الشباب، نظم الشعر خالصا لوجه الشعر؛ لأن إلهة الشعر وحدها هى التى دفعته إلى الشعر، فغنى به ليطرب حينا، وليبكى على نغماته الحزينة أحيانا. فهو كالطائر الغرد فوق الغصون، قد يكون ما يصدع به مرة غناء، وقد يكون عويلا ونواحا.

أبكت تلكم الحمامة أم غنت ... على فرع غصنها المياد..؟

وإذا استطعنا أن نشبه الشعر بالفنون المادية، رأينا أن شعر صبرى من الفن الدقيق النقى، الذى تأنق فيه صانعه، وقضى الساعات الطوال فى اختيار أجزائه، وإجادة صقله، وإماطة أى عيب أو شبهة من عيب عنه. أليس هو الذى يقول:

شعر الفتى عرضه الثانى فأحرِ به ... ألا يشوه بالأقذار والوضر

فانقد كلامك قبل الناقدين، تحط ... ثانى النفيسين من لغو ومن هذر

ولعلى لم أخطئ، حينما قلت فى وصف شعره فى حفل رثاء:

أين ذاك الشعر الذى كنت ترجيه ... فيسرى فى الأرض عرضا وطولا
قد سمعناه فى المزاهر لحنا ... وسمعناه فى الحمام هديلا
وشممناه فى الكمائم زهرا ... وشربناه فى الكئوس شمولا

وكان صبرى مقلا جدا، أكثر شعره مقطوعات قصيرة، وكان شديد التحفظ فى إذاعة شعره، لا يتناقله إلا طائفة قليلة من خلصائه، فهو شاعر أرستقراطى لا يتحدث إلى العامة ولا ينظم فى الشئون العامة إلا قليلا. ولعله كان يرى أن الشعر نوع من الترف الأدبى، وأنه مرآة لا تنقل إلا صورة من ينظر فيها، وقد كان كثير النظر فيها لنفسه وأحاسيسها، وحينما خرج عن هذا المنهج فى بعض شعره السياسى القليل، لم يجُد، ولم يحلق، وأبطأ عن غايته وخانه شيطانه. وربما كان فى قصيدته التى قالها عند خلع السلطان عبد الحميد بعض الحسن:

قل للبراكين كفى نحن فى شغل ... ذا اليوم عنك ببركان البراكين
هل الجبال الرواسى، عندها خبر ... بما تصدع من شم العرانين
وهل رأى النسر شيئا فى السماء حكى ... ما هز يلدز من بأس الشواهين
قالوا لقد خر من صرح العلا وهوى ... ذو السلطتين، ورب الكاف والنون
أهول بها صيحة فى الكون قاصفة ... تزلزل الأرض من حين إلى حين

وله قصيدة على لسان فرعون، يتناقلها الناس، لأنها تغذى فيهم غريزة الكبرياء القومية، على أنها إذا قورنت بشعر صبرى الشخصى، لم ترجح لها كفة:

لا القوم قومى، ولا الأعوان أعوانى ... إذا ونى يوم تحصيل العلا وانى
ولست إن لم تؤيدنى فراعنة ... منكم، بفرعون عالى العرش والشان
ولست جبار ذا الوادى، إذا سلمت ... جباله تلك من غارات أعوانى
لاتقربوا النيل، إن لم تعملوا عملا ... فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
ردوا المجرة كدا دون مورده ... أو فاطلبوا غيره ريا لظمآن
وابنوا، كما بنت الأجيال قبلكم ... لاتتركوا بعدكم فخرا لإنسان

أما جيد شعره وأرقه وأملحه، فهو كما قلنا الذى يعبر فيه عن نزعات نفسية، وهو شعر غنائى كله، رقيق النسج جيد الرصف، وكان يتحكم فى شاعرنا عاطفتان عنيفتان. . عاطفة الحب وعاطفة التبرم بالحياة والحنين إلى الموت. استمع له حين يغنى على وتر الحب، تجد شعره شعلة متأججة من الغرام وزفرة طويلة الأنين من الوجد:

يـا آسر الحى، هل فتشت فى كبـدى، وهـل تبينـت داء فى زوايـــــاهــــا
أواه من حــــرق، أودت بأكثـــرهـــا ولم تــــزل تتمشـى فى بقــــايــاهـــا
يـاشـوق رفقـا، بأضـلاع، عصفت بها فــالقلـب يخفق ذعــرا فى حنــايــاهـــا

حتى إذا أدركه يأس العاشق المعمود صاح فى حسرة وألم وهو يقول :

أقصر فـؤادى ، فما الـذكرى بنـافعة ولا بشـــافعـــة فى رد مـــاكـــانـــا
مــلا الفـؤاد الــذى شـاطـرتـه زمنـا حمل الصبـابـة فـاخفق وحـدك الآنـا
لهفى عليـك ، قضيت العمـــر مقتحما فى الـــوصـل نـــارا وفى الهجـران نيرانـــا

وقـد غذّت ثقـافته الأوروبيـة شعره بكثير من المعـانى الجديدة، فـاندمجت فيـه دون أن تجنى على الخيال العربى، ودون أن تمس جمال الأسلـوب العربى، وهذا هو التجـديد الذى نحبه ونـدعو إليه، فإننا نعتقد أنه من المستطاع تطعيم الأدب العربى بالخيال والفكر الغربيين، دون أن يقضيا على مميزاته وخصائصه . استمع لصبرى فى قصيدته الغزلية الرائعة التى أدخل فيها كثيرا من المعانى الجديدة، دون أن يذهب بروعة العربية أو يحيد عن مذاهبها :

يــــا لـــواء الحسن أحـزاب الهوى أيقظـــوا الفتنــــة فى ظـل اللـــواء
فـــرّقـت أهـــواءهـم ثــــاراتهم فــاجمعـى الأمــر وصـونى الأبـريــاء
إن هـــذا الحســن كـــالماء الــذى فيـــه لـــلأنفـس رى، وشفـــاء
لا تــــذودى بعضنـــا عـن ورده دون بعـض واعـــــدلى بين الظماء
أنـت يـم الحسـن فيـــــه ازدحمت سفن الآمـــال يـــزجيهـــا الـــرجـاء
يقـــذف الشـــوق بها فى مــــائج بين لجّين، عنــــــاء، وشقـــــاء
شــــدة تمضـى وتـأتـى شـــدة تقتفيهــــا شـــدة هل من رخـــاء
ســـاعفى آمــال أنضــاء الهوى بقبـــول من سجــايــاك رخـــاء
وتجلى، واجعلى قــــــوم الهوى تحت عــرش الشمس فى الحكـم سـواء
أقبلى ، نستقبل الــدنيــا، ومــا ضمنتــــه مـن معـــدات الهنــــاء
واسفـــرى، تلك حلى مـــا خلقت لتــــوارى بلثــــام أو خبـــــاء
واخطـــرى، بين النـدامى يحلفـوا أن روضـــا راح فى النــادى وجـــاء
وانطقـى ينثـــر إذا حـــدثتنـــا نـــاثـــر الـــدر علينـــا مـــا نشـــاء
وابسمى، من كـــان هـــذا ثغـــره يمـــلأ الـــدنيـــا ابتســامـــا وازدهـــاء

لا تخاف شططـــــــا مـن أنفس ... تعثــر الصبــوة فيهــا بــالحيــاء
راضت النخــوة مـن أخـــلاقنــا ... وارتضى آدابنـــا صـــدق الـــولاء
فلـــو امتـــدت أمـــانينـــا إلى ... ملك ، مـــا كـــدرت ذاك الصفـــاء
أنــت روحــــانيـــة لا تـــدعى ... أن هــــذا الحسـن مـن طين ومـــاء
وانـــزعى، عن جسمك الثــوب يبن ... للمــــلا تكــــوين سكــــان السماء
وأرى الـــدنيـــا جنـــاحى ملك ... خلف تمثـــال مصـــوغ عن ضيـــاء

هذا غـزل عربى جديـد النزعة ، لـو حاولت تـرجمته إلى لغة أوروبيـة ، وجدت الأمر سهـلا هينا ، لتقارب معانيه وأخيلته من اتجاه الفكر الأوروبى .

وقد يتجه صبرى فى شعـره إلى نقد ما وصلت إليه أخـلاق الناس من رياء وملق ، وهـذا أثر نفسه الحساسة التى تكره الشر وتبغض الأشرار، فهو يقول :

غـــاض مـــاء الحيـــاء من كل وجـــه ... فغـــــدا كــــالح الجوانب قفــــرا
وتفشى العقـــــوق فى النـــاس حتى ... كـــاد رد الســـلام يحسب بـــرا
أوجـــه ، مثلما نشـــرت على الأجـــداث ... وردا ، إن هـن أبـــــــــــدين بشرا

وليس بعجيب أن ينعى صبرى على الناس هذا وغيره ، فقد كانت له نفس صافية كريمة وفية :

إذا خـــانني خل قـــديم وعقنى ... وفـــوقت يـــومـــا فى مقـــاتلـــه سهمى
تعـــرض طيـف الـــود بينى وبينـــه ... فكسّر سهمى ، فـــــانثنيت ولم أرم

أما عاطفة الحنين إلى الموت ، فكثيرا ما ثارت فى نفسه فنطق بها شعرا يهز النفوس ويبكى العيون . .

يـــا مـــوت هـــا أنـــذا فخـــذ ... مـــــا أبقـت الأيـــــــام منى
بينـــى وبينـــك خطـــــــــــوة ... إن تخطهـــــا فـــــرّجت عنى

* * *

إن سئمت الحيـــاة فـــارجع إلـــــــى الأرض تنم آمنـــا من الأوصـــاب
تـــــلك أم أحنى عليك ، مـــــن الأم التى خلفتك لـــــلأتعـــاب
لا تخف فـــــالمات ليس بماح ... منك إلا، مـــا تشتكى من عـــذاب
وحيـــاة المرء اغتراب فإن مـــات ... فقـــد عـــاد ســـالما للتراب

ويقول فى موت الحياة :

مقـابــر من مــاتــوا مــواطن راحــة | فــلا تك إثــر الهالكين جــزوعــا
وإن تبك ميتــا، ضمــه القبر فــادخــر | لميت على قيــد الحيــاة دمــوعــا

ومن أروع شعره الصوفى تلك المناجاة البديعة التى كلها أمل فى رحمة الله وطمع فى عفوه :

يــارب ، أيـن تــرى تقــام جهنم | للظــالمين غــدا ولــلأشرار
لم يبق عفــوك فى السمــوات العــلا | والأرض شبرا خــاليــا للنــار
يـــارب، أهّلنـى لفضـلـك واكفنـى | شطط العقــول، وفتنــة الأفكــار
ومــر الــوجــود يشـف عنك لكى أرى | غضـب اللطيـف ورحمة الجبــار
يــا عــالم الأسرار حسبـى محنــة | علمـى بــأنـك عــالم الأسرار

الشيخ محمد عبد المطلب

شاعر عربى صميم العروبة ، لم يخالط نسبه دخيل . فهو من قبيلة جهينة التى نزلت بالصعيد الأوسط أيام الفتح الإسلامى، ثم انتقلت فى عهد الفاطميين إلى سوهاج . وقد كان عبد المطلب يفاخر بهذه النسبة ويعتز بها ويقول :

أنا ابن الذين إذا ما انتموا	فجاه رفيع ومجد تليد
بنوا المجد والجود فى كل جيل	إذا أعوز الناس مجد وجود

وكأنه بعد أن شب وأحس بدبيب الشاعرية فى نفسه ، اعتقد أنها أثر ذلك الإرث العربى الكريم فزاد تمسكا بالعربية وتعصبا لها، وصمم على أن يكون شعره صورة للحياة البدوية ، وإن عاش فى ظلال المدنية وبين مبتدعيها . ولهذا عكف على الشعر الجاهلى يقرأه ويتفهمه ويستعير أساليبه ومناحيه، وهو فى هذه الناحية الشاعر الفذ الذى يشبه البارودى فى بدايته ، وإن لم يشبهه فى نهايته لأن عبقرية البارودى كانت فوق عبقرية عبد المطلب، ولأن البارودى طرق أغراضا لم يتيسر بعضها لعبد المطلب . وقد أغرق شاعرنا فى محاكاة الأقدمين حتى أنك إذا سمعت بعض شعره تخيلته أعرابيا فى شملته ينتجع منابت العشب خلف ناقته وأنه لم يمر به من طيوف الحضارة خيال . استمع له وهو يتحسر لفراق حبيب :

جد المسير بها فشط مزارها	ونأت فأين من المحب ديارها
كيف السبيل لمن تربع أهلها	بيداء تعيى الناجيات قفارها
فقف المطىّ على معاهدها التى	كانت لغيرك لا يطيب قرارها
يا دارها إن أنجدت أصحابها	فالأرض تحسد نجدها أغوارها
فلأرمين لها الفجاج بجسرة	يطوى الفيافى والربا تسيارها

لهذا اشتهر بين الناس بشاعر البادية وكان يزهى بهذا اللقب، وكان حماة الشعر فى مصر يرون من الخير أن يظهر بين الشعراء من يتعصب للمذهب القديم وينحو منحى العرب كعبد المطلب، بعد أن كادت تطغى المدنيات على خصائص الشعر العربى وأخيلته ، وبعد أن قام فريق هدّام من المجددين يعيث ويسخط على كل قديم . فكان لشعر عبد المطلب أثر يشبه أثر جبهة المعارضة فى البرلمان.

ولد شاعرنا سنة إحدى وسبعين وثمانمائة وألف بقرية بصونة، إحدى قرى مديرية جرجا من أسرة رقيقة الحال وكان أبوه تقيا متصوفا فورث منه نزعته الدينية القوية، وزادها نموا وصلابة أنه تربى بالقاهرة بدار شيخ الطريقة الخلوتية ودرس بالأزهر نحو سبع سنين . وتظهر هذه الغيرة الدينية فى كثير من شعره :

فيأيها الباكي وقد ظن أنه ... أسال عيونا أو أذاب قلوبا
بكيت بوادٍ ما به اليوم راحم ... تراه إلى ما ترتجيه مجيبا
كأنك دين الله فى مصر باكيا ... وقد صار بين المسلمين غريبا
تضعضع أهلوه وصوح نبته ... وأمحل ما قد كان منه خصيبا

ولقد راعته دعوة المرأة إلى السفور. ونبذ الحجاب ، وهاله ما صحب هذه الدعوة أول أمرها من تبرج النساء وتقصير ثيابهن واتخاذهن النقاب الشفاف فقال :

ما لابنة الخدر المصون ... وربة المجد الأثيل
أودى شفيف نقابها ... بكرامة الأم البتول
وعلا رنين حجولها ... أسفا على الذيل الطويل
فإذا مشت هتك النقاب ... محاسن الوجه الجميل
وجلا المقور تحته ... رخصا من الصدر الصقيل
تهتز عجبا بالقوام ... اللدن والخصر النحيل
ولقد ينم عبيرها ... فتشمه من نحو ميل
يسرى فتعترك الصبا ... سبقا إليه مع الشمول
أهى التى فرض الحجا ... ب لصونها شرع الرسول
جعل الحجاب معاذها ... من ذلك الداء الوبيل
يا منزل القرآ ... ن نور للبصائر والعقول
عميت بصائر أهل وادى ... النيل عن وضح السبيل

هكذا كان عبد المطلب المتحرج المتزمت يسخط ويصخب على قصر ثياب الفتيات ورقة نقابهن،

ولكن القدر الساخر أملى لشاعرنا فى العمر حتى رأى هذا النقاب الشفاف وقد نبذ مرة واحدة، ورأى الفتاة وهى تشارك الفتى فى كثير من شئون الحياة. وكان تعصبه للدين لا يقل عن تعصبه للعربية، فهو يريدها صفية نقية من كل لون من ألوان المدنية يحاول أن يطغى على بعض ألفاظها أو أن يغير على البديع من أساليبها، أو يحيد بشعرها عن سبيله العربى القويم. فكان يحمل على المجددين فى اللغة الذين يسخطون على القديم ويحاولون إنشاء أدب جديد ويقول:

نزعوا إلى دنس الإباحة فانجلى ... للناس ذاك المنزع المرذول
مازوا الجديد من القديم وما دروا ... أن الجديد من القديم سليل

وتخرج عبد المطلب من دار العلوم وعين مدرسا بالمدارس الأميرية بمرتب ضئيل، لهذا استطاع أن يصف ما يلاقيه المدرس من الكد والعنت، ومن الفقر وشدة الحاجة:

بنى مصر ما بال المعلم كاسفا ... يرى الناس فيها يكبرون ويصغر
سبيل النبيين الكرام سبيله ... يعم به الدنيا الصلاح فتعمر
سلوا عنه جنح الليل كم بات متعبا ... تنام حواليه النجوم ويسهر
سلوا عنه جسما بات بالسقم ناحلا ... فلا البرء مأمول ولا هو يعذر
سلوا عنه أسفارا قضى الليل بينها ... غريبا عن الدنيا وأهلوه حضر
سلوا عنه قلبا بات يخفق رحمة ... على فتية من حوله تتضور
سلوا عنه إخوانا قضى العمر بينهم ... غدوا فى ثراء وهو بالفقر أخبر

وكان لنشأته الأولى وقد قضاها فى بؤس وحاجة، ولحياته الأخرى، وكانت عيشته فيها تقرب من عيشة الكفاف، أثر فى عطفه على كل بائس مسكين، يخفى فقره بالتعفف ويصون وجهه من ذل السؤال:

وارحمتا للكريم يشكو ... نوائب العيش أم يدارى
إذا دعا الصبر لم يجبه ... وحوله جائع وعارى
هذاك يشكو الطوى لأخرى ... ألصقها البرد بالجدار
وصاحب البيت بين هذى ... وذاك فى لوعة ونار
يقول يارب عيل صبرى ... فهل درى ما لقيت جارى
هيهات هيهات وهؤلاء ... بنعمة العيش واليسار

وطائفة كبيرة من شعره فى المدائح والمراثى والتهانى، ولكنه على الرغم من ذلك لم يكن غافلا عن وصف ماحوله من الحوادث أو ما كان يجيش بصدره من آلام وآمال، فقال كثيرا من الشعر السياسى.

ونظم قصيدة فى سيرة على بن أبى طالب تربو على مائتى بيت، وقصيدة فى وصف الحرب الماضية طويلة الذيول، وكان شديد الزهو بمصر وبمدنيتها القديمة، يتخذ من ذلك ذريعة للاعتزاز بأمته والمباهاة بها بين الأمم وإقامة الحجة على من يفرق بين عناصرها، فهو يقول :

رويدك إنا فى العلا يوم ننتمى ... كلانا أبو النيل أو أمه مصر
لنا ذروة المجد الذى تحت ظله ... تناسلت الأحقاب واعتصم الدهر
لنا آية الأهرام يتلو قديمها ... حديث الليالى فهى فى فمها ذكر
ملأنا بلوح للوجود مناقبا ... إذا ما خلا عصر تلاها به عصر

ثم يتسع له الأفق فيفخر بالشرق العربى كله حيث يقول :

هو الشرق مجلى النيرات ولم يزل ... ضياء على الدنيا من الشرق يبلج
ومبعث رسل الله للناس رحمة ... تسن الهدى للمهتدين وتنهج
ومهبط أملاك السماء عليهم ... تنزل بالذكر الحكيم وتعرج
ومازال منا كل أروع سابق ... بسيرته الأيام تشدو وتلهج

وقليلاما كان الشيخ يجيد وصف مبتدعات الحضارة لضيق مدى خياله فى هذه الناحية ثم لضيق ذات يده من الثقافة العلمية، فهو إذا وصفها لم يبعد عن خياله العربى، استمع له فى وصف طيارة :

يا أخت سابحة النجو ... م وبنت سانحة الضمير
من عهد آدم لم تزل ... عذراء مسبلة الستور
بكرا تقلبها أكف الغيب ... ب فى كف الدهور
حتى جلتها للعيو ... ن منصة العهد الأخير
أفأنت وافدة البخا ... ر على الأجادل والنسور؟
ما هذه الورق التى ... فى الجو تعلو فى الهدير
غيرى من الأطيار فى ... أحشائها لهب السعير
ترد السحاب الغر إن ... ورد الحمام إلى الغدير
خشعت لها هوج العوا ... صف فى الرواح وفى البكور

وأين هذا من قصائد شوقى فى الطيران التى لم تترك معنى لقائل أو مستزاد لمستزيد . . . ؟

ولم يطرق الحب قلب الشيخ فيما نعلم، لذلك كان غزله صناعيا تقليديا، ولكنه قد يجيء في بعض الأحيان رقيقا حلوا على الرغم من بدوية عبد المطلب وخشونته :

صب بـــه ذهبت شجـــونـــــه ... يبكـى فتسعـــــده جفـــونـــــه

مستهـــــدف لفنـــــونـــــه ... جهـــلا فحـــاق بـــه فتـــونـــه

يمســـــى ويصبـــــح فى الحنين ... وليـس ينفعـــــــه حنينـــــــه

لـــــو شـــــاء كتمان الصبـــا ... بـــة أعـــربت عنهـــا عيـــونـــه

يـــا قلب صن عهـــد الهوى ... لا كـــان قلـب لا يصـــونـــه

وشعر عبد المطلب كما تلى عليكم، عـربى الديباجة يتعصب للأسلـوب العربى أشد التعصب، ويميل إلى اللفظ الجزل والرنين البدوى، وأخيلته ومعـانيه كلها منقولة لم يولـد منها عبد المطلب خيالا جديدا أو معنى جديدا، فهو صورة شمسيـة للشعر القديم، وضعت فى إطار من الأغراض الحديثة لم يذهب بشىء من قدمها، ولم يغير من جمالها الصحراوى إلا قليلا .

ولى الدين يكن بك

نفس قوية الإحساس رقيقة العاطفة، دهيت فى أول نشأتها ببعض الكوارث فانصرفت عما فى الحياة من جمال وروعة، وعما فى الكون من مظاهر تبعث السرور وتفيض بألوان البهجة والمرح، إلى النظر فى جوانب الحياة القاتمة التى لا يكاد ينفذ إليها شعاع من أمل حتى تعصف به رياحها العاتية. فهى نفس متشائمة متطيرة لا ترى فى الغمامة السوداء حافتها الفضية، ولا فى الشر العابس ما قد يتضمنه من خير. ناءت بأعباء الحياة وناءت بها أعباء الحياة، ونظرت إلى الشاطئ البعيد فهو يقول :

سقى الله دارًا بالقرافة ديمة ... ترف على قوم هنالك هجد
أحن إلى تلك المراقد فى الثرى ... ولو أستطيع اليوم لاخترت مرقدى
فأنزلت جسمى منزلا لا يملّه ... يكون بعيدا عن أعاد وحسد
وما يتمنى الحر من ظل عيشة ... تمرّ لأحرار وتحلو لأعبد

ويقول :

يريد الناس فى الدنيا هناء ... ويأبى أن يجود به الزمان
حياة حاربتهم منذ كانت ... وجد حاربوه منذ كانوا
وآمال تغرهم عجاف ... وأحداث تكذبها سمان
تكاثرت الخطوب فلا يراع ... يوفيها الشكاة ولا لسان
أمانًا أيها الخصم المعادى ... إذا دان العدا وجب الأمان
أإن رغبوا إليك رغبت عنهم ... لقد هانت رغائبهم وهانوا
يمنى الناس بعضهم بخير ... ألا كذبوا على بعض ومانوا
فما للخير فى الدنيا أوان ... ولا للخير فى الأخرى أوان

وهكذا يثور به مزاجه العصبى، وما منى به من آلام فيسخط على الحياة، وينفى وجود الخير فى الدنيا والآخرة. وهو فى هذه الناحية يشبه أبا العلاء المعرى فى بعض ثوراته على الناس والزمان، وهذه الحال فطرية زادها ما أصاب شاعرنا من أحداث وصروف قوة وتمكنا. فقد ولد بإستامبول سنة ثلاثة وسبعين وثمانمائة وألف، وقدم به أبوه مصر، ولم تمض على الشاعر الصغير ست سنوات حتى فقد أباه فكفله عمه. واليتيم إذا كان قوى الإحساس مرهف العواطف وجد فى فقد الوالد ألما لا يجده سواه، ورأى الدنيا وهى خالية من ذلك الحنو الطبيعى الحلو صحراء مقفرة كلها شمس محرقة وأرض جرداء إلا من الشوك والقتاد. يضاف إلى هذا ما حل بشاعرنا من الاضطهاد أيام حكم السلطان العثمانى عبد الحميد، فقد نفى إلى سيواس وأقام بالنفى سبع سنوات. ثم ما أصابه من الداء العضال الذى كدر عليه الحياة وجعلها جحيما أرضيا لا تنتهى له آلام، والذى كان سيفا مصلتا فوق رأسه، كما أخبرنى بعض أصدقائه ـ يوشك أن يطيح ـ استمع لما يقوله من منفاه:

يا ليل هذا ساهر قلق ... يرعى النجوم وقومه هجعوا
هل فيك ذو شجن يشاركنى ... أشكو له ما بى فيستمع
سرت الهموم فبت أدفعها ... وإذا همومى ليس تندفع
من بات تدمع عينه أسفا ... فأنا فؤادى بات يدمع
أشفقت من دهرى على أملى ... واليوم أنظر كيف ينقطع
ويلى عليه وهو يخدعنى ... أدرى حقيقته وأنخدع

ويقول:

فؤاد دأبه الذكر ... وعين ملؤها عبر
ونفس فى شبيبتها ... وجسم مسه الكبر
وآمال مضيعة ... ووقت كله هدر
أما يا ليل من صبح ... لمن سهروا فينتظر؟
جفون الناس هاجعة ... وجفنى ضاقه السهر
إذا صور تولت منك ... عنى أقبلت صور
وحيدا فيك ذا حذر ... يكاد يخوننى الحذر
فلا كتب أسامرها ... إذا ما ساقنى السمر
ولا نظم ولا نثر ... وقد نظموا وقد نثروا
أرى «سيواس» تغمدنى ... كأنى صارم ذكر
صدئت بها وأحسبنى ... سأصدأ ما جرى العمر

ويقول فى وصف مرضه الذى مات فيه :

وضنى لبست ثيـابـه زمنـا فلبثـت لا أقضـى ولا أشفـى
حـول تكـامل فى مـراراتـه قـد خلتـه من طـولـه ألفـا
فـأشـلّ نصـف الجسـم حين مضـى ورمـى إلى عـوداه النصفـا

* * *

يـا مسغب الأجنـاد قـد أشبعـت سـاغبـة النسـور
إن الثـلاثين التـى مـرت بنـا مـرالعصـور
وهبتـك تجربـة الأمـو ر فعشـت فى جهـل الأمـور
من كـان يـدعـوك الخبيـ ر فلسـت عنـدى بـالخبير

أما الشطـر الذى قضاه بمصر فصرفه فى شبـه عزلة عن الناس ، وشغلـه بنظم الشعر فى الحنين إلى إستامبول والتغنى بمصر ، وفى الغزل الرقيق والرثاء ، وفى شكوى الداء .

وأسلوب ولى الـدين أسلوب جديـد ، يعتـى فيه بالمعـانى أكثر من عنايتـه باللفظ ، وكان لثقـافته العالية وإتقانه اللغتين التركية والفرنسية وإلمامه بـالإنجليزية أثر واضح فى غزارة معانيه وحدة أخيلته .

ومن معانيه الرائعة فى الغزل :

إن تكن قـد خلقت للتيـه أهـلا فأنـا قـد خلقت للصبر أهـلا
لك عنـدى عقـدان دمعى وشعـرى فتخير والـدمـع لا ريـب أعلى
كـدت أنمـو الحـال ظلـك فى الأر ض ولكـن لا يطبع النـور ظـلا

ورقة عاطفته جعلته فى الرثاء مجيدا سباقا ، قال يرثى إدوارد السابع ملك الانجليز :

بكى (التـايمـز) صـاحبـه المفـدى فجـاوبـه هنـا هـرم ونيـل
وبـات البحـر جف لـه عبـاب وبـات البر سلـن بـه سهـول
هنـاك السـابحـات لها زفير وثـم السـابقـات لها صهيـل
قضـى إدوارد عـن مجد أثيـل ويبقـى بعـده المجـد الأثيـل
فـإن ثكلتـه أمتـه لحين فإن بمثلـه الـدنيـا ثكـول
وإن طـال الحمام إلى عـلاه فشم الهضـب تغمـرهـا السيـول

ومات ولى الدين من جـراء دائه القاتل سنة إحدى وعشرين وتسعمائة وألف ، وقـد وجدت ورقة قرب سريره كتب فيها :

يـا جسـدًا قـد ذاب حتى امّحى إلا قليـلا عـالقـا بـالشقـاء
أعـانك اللـه بصبر على مـا ستعـانى مـن قليل البقـاء

التراث الشعرى والنثرى واللغوى
للأستاذ على الجارم

الشعر

١ ـ ديوان على الجارم : طبعة حديثة فى جزئين فى مجلد واحد .

نشر دار الشروق . الطبعة الثانية ١٩٩٠ .

٢ ـ مختارات من شعر على الجارم : إعداد دكتور أحمد على الجارم .

الطبعة الأولى ١٩٩٥ .

* * *

القصص النثرى الأدبى والبحوث والمقالات الأدبية

١ ـ سلاسل الذهب : القصص الأدبى التاريخى الكامل .

نشر دار الشروق ١٩٨٩ . ويشتمل على روايات :

١ ـ فارس بنى حمدان

٢ ـ الشاعر الطموح

٣ ـ خاتمة المطاف

٤ ـ قصة العرب فى إسبانيا . (مترجم عن الكاتب الإنجليزى ستانلى لين بول) .

٥ ـ شاعر ملك

٦ ـ هاتف من الأندلس

٧ ـ الفارس الملثم

٨ ـ مرح الوليد

٩ ـ سيدة القصر

١٠ ـ غادة رشيد

٢ ـ جارميات : يحتوى على بحوثه ومقالاته الأدبية . دار الشروق الطبعة الثانية ٢٠٠٠م .

* * *

كتب علمية بالاشتراك مع الأستاذ مصطفى أمين

١ ـ علم النفس وآثاره فى التربية والتعليم : دار المعارف للطباعة والنشر.

٢ ـ النحو الواضح (ابتدائى) أجزاء ١ ـ ٣ : دار المعارف للطباعة والنشر .

٣ ـ النحو الواضح (ثانوى) أجزاء ١ ـ ٣ : دار المعارف للطباعة والنشر.

٤ ـ البلاغة الواضحة : دار المعارف للطباعة والنشر .

٥ ـ دليل البلاغة الواضحة : دار المعارف للطباعة والنشر .

* * *

شرح كتب التراث

١ ـ شرح كتب البخلاء للجاحظ : بالاشتراك مع الأستاذ أحمد العوامرى . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨ .

٢ ـ شرح كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لمؤلفه محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى : بالاشتراك مع الأستاذ محمد عوض إبراهيم . نشر دار المعارف للطباعة والنشر .

٣ ـ شرح كتاب المكافأة لمؤلفه أبى جعفر أحمد بن يوسف الكاتب : بالاشتراك مع الأستاذ أحمد أمين . المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٤١ .

٤ ـ شرح ديوان البارودى جزء ١ ، جزء ٢ : بالاشتراك مع الأستاذ محمد شفيق معروف . نشر دار المعارف للطباعة والنشر ١٩٧١ .

* * *

مراجعة ترجمة قصص عالمية

١ - قصة ترويض النمرة : تأليف وليم شكسبير ترجمة الأستاذ إبراهيم رمزى . راجعها بالاشتراك مع محمد فهيم بك والأستاذ محمد مظهر سعيد. نشرتها دار المعارف العمومية ١٩٣٣ .

طباعة دار الطباعة الأهلية شارع الفجالة . الرقم فى دار الكتب : ز١٢٧٦٩ .

٢ - قصة البخيل لموليير : ترجمة الأستاذ محمد مسعود. وقام بمراجعتها بالاشتراك مع الأستاذ على عبدالواحد. نشرتها وزارة المعارف العمومية ١٩٣٣ . طبع دار الطباعة الأهلية . الرقم فى دار الكتب: ز ١٢٧٨٠ .

* * *

كتب دراسية اشترك فى تأليفها

١ - كتاب تاريخ الأدب العربى : بالاشتراك مع الأساتذة : أحمد الإسكندرانى ، أحمد أمين، عبد العزيز البشرى، أحمد ضيف .

فى أربعة أجزاء للمدارس الثانوية . نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر. مطبعة دار المعارف ١٩٤٢ . الرقم فى دار الكتب : ز١٤٥٧ .

٢ - كتاب المجمل فى تاريخ الأدب العربى : مقرر للسنة الثالثة بالمدارس الثانوية . بالاشتراك مع الأساتذة : طه حسين ، أحمد الإسكندرى، أحمد أمين، عبد العزيز البشرى، أحمد ضيف .

نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر . طباعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢ . الرقم فى دار الكتب: أدب ٨٣٣١ .

٣ - كتاب المفصل فى تاريخ الأدب العربى : بالاشتراك مع الأساتذة : أحمد الإسكندرى، أحمد أمين، عبد العزيز البشرى، أحمد ضيف. نشر وزارة المعارف العمومية. طبع مطبعة مصر ١٩٣٤ .

٤ - كتاب المنتخب من أدب العرب: بالاشتراك مع الأساتذة : أحمد الإسكندرى، أحمد أمين ، عبدالعزيز البشرى، دكتور أحمد ضيف، نشر دار المعارف بمصر .

٥ - كتاب المطالعة التوجيهية : بالاشتراك مع الأساتذة : أحمد أمين ، محمد أحمد جاد المولى، السباعى السباعى بيومى، أحمد زكى صفوت. نشر دار المعارف بمصر .

٦ - كتاب التوجيه فى الأدب العربى : للسنة الخامسة التوجيهية بأقسامها الثلاثة. بالاشتراك مع الأساتذة: محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو بكر إبراهيم ، محمد السيد عمر، عبده زيادة عبده، حسنين حسن مخلوف. الطبعة الأولى ١٩٣٨ . نشر مطبعة المعارف ومكتبتها. الرقم فى دار

الكتب : زمن ١٢٨٦٢ إلى ١٢٨٦٦ و١٢٩٨٠ .

٧ ـ كتاب تاريخ الأدب العربي : لتلاميذ السنتين الأولى والثانية للمدارس الثانوية . بالاشتراك مع الأساتذة : أحمد أمين ، أحمد ضيف ، أحمد الإسكندرى ، عبد العزيز البشرى . وزارة المعارف العمومية . طبع المطبعة الأميرية . الرقم فى دار الكتب : ز ١٩٩٠٠ .

* * *

كتب دراسية اشترك فى تأليفهاوراجعها

١ ـ كتاب أدب الإسلام للمدارس الثانوية : تأليف محمد أبو بكر إبراهيم ، مصطفى خفاجى ، على محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنسى . اشترك فى تأليفه وراجعه : على الجارم ومحمد أحمد جاد المولى . مطبعة المعارف ومكتبتها فى مصر ١٩٣٨ . الرقم فى دار الكتب : ب ٢٠٤١٨ .

٢ ـ كتاب أدب الإسلام للمدارس الثانوية بنات : تأليف محمد أبو بكر إبراهيم ، مصطفى خفاجى ، على محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنى . اشترك فى تأليفه وراجعه . على الجارم ومحمد أحمد جاد المولى . نشر مطبعة دار الكتب المصرية لوزارة المعارف العمومية ١٩٣٨ . الرقم فى دار الكتب: ب ٢٦٧٢٥ .

٤ ـ كتاب أدب الإسلام للمدارس الزراعية المتوسطة ـ الجزء الأول والثانى : تأليف محمد أبو بكر إبراهيم ، مصطفى خفاجى ، على محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنى . اشترك فى تأليفه وراجعه : على الجارم ومحمد أحمد جاد المولى . طبع وزارة المعارف العمومية . الرقم فى دار الكتب : ب ٣٥٣٩٩ .

٥ ـ كتاب تهذيب الأخلاق لمدارس الصناعات الأولية : تأليف : محمد أبو بكر إبراهيم ، مصطفى خفاجى ، على محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنسى . اشترك فى تأليفه وراجعه . على الجارم ومحمد أحمد جاد المولى . مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ١٩٣٨ . الرقم فى دار الكتب : ب ٢١١٥٥ .

٦ ـ كتاب تهذيب الأخلاق لمدارس الصناعات الابتدائية : تأليف : محمد أبو بكر إبراهيم ، مصطفى خفاجى ، على محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنسى . اشترك فى تأليفه وراجعه : على الجارم ومحمد أحمد جاد المولى . المطبعة الأميرية ١٩٥٣ . الرقم فى دار الكتب : ب ٢٥٦٩٠ .

الفهـــرس

تقديم : بقلم الأستاذ الدكتور أحمد على الجارم ٥
مقدمة : بقلم الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام ٩
تقديم الطبعة الثانية : بقلم الدكتور أحمد على الجارم ١٤
مرسوم بتعيين الأعضاء العاملين بمجمع اللغة العربية
منذ إنشائه عام ١٩٣٢م ١٦
براءة وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى الذى منحه السيد رئيس الجمهورية
إلى اسم المرحوم على الجارم فى نوفمبر ١٩٩١م ١٨

أبحاث ومقالات الأستاذ على الجارم

التشطير العصرى ١٩٠٥ .... ١٩
العادة ١٩١٥م ٢٠
مرثية الأستاذ الشيخ حمزة فتح الله ١٩١٧م ٣١
مقدمة كتاب البلاغة الواضحة ١٩٣٢م ٣٥
رأى الأستاذ على الجارم فى الشعر والشعراء
بمناسبة وفاة الشاعرين شوقى وحافظ ١٩٣٣م ٤٥
دراسات فى الشعر المصرى ـ البوصيرى ـ ١٩٣٣م ٥٢
بحث الترادف ١٩٣٤م ٥٨
تاريخ الأدب العربى . العصر التركى إلى بدء النهضة الحديثة ـ
عصر المماليك ١٩٣٤م ٧٨
العصر العثمانى ١٣٨
على باشا مبارك ١٩٣٥م ١٤٤
الشاعر أبو الطيب ١٩٣٥م ١٤٩
مصطلحات الشئون العامة ١٩٣٦م ١٥٥
طريق تكميل المواد اللغوية ١٩٣٦م ١٦٤

طموح المتنبى ١٩٣٦م ١٩٠
الفاروق الأديب الناقد ١٩٣٧م ١٩٨
اقتراح فى مراتب وضع الألفاظ ١٩٣٥م ٢٠٣
مقدمة ديوان الجارم ١٩٣٧م ٢٠٧
المصادر التى لا أفعال لها ١٩٣٧م ٢١٢
صوم رمضان فى اللغة ١٩٣٨م ٢٢٤
إصلاح الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية (١) ١٩٣٨م ٢٢٧
إصلاح الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية (٢) ١٩٣٨م ٢٣٠
إصلاح الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية (٣) ١٩٣٨م ٢٣٤
إصلاح الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية (٤) ١٩٣٨م ٢٣٧
إصلاح الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية (٥) ١٩٣٨م ٢٤١
إصلاح الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية (٦) ١٩٣٨م ٢٤٤
إصلاح الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية (٧) ١٩٣٨م ٢٤٧
إصلاح الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية (٨) ١٩٣٨م ٢٥٠
إصلاح الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية (٩) ١٩٣٨م ٢٥٤
إصلاح الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية (١٠) ١٩٣٨م ٢٥٧
نهضة الشعر فى العصر الحديث ١٩٤٢م ٢٦٠
فى ذكرى المغفور له حفنى بك ناصف ١٩٤٢م ٢٦٢
نشأة الشعر الأندلسى وتطوره ١٩٤٤م ٢٦٧
عناية ملوك الطوائف بالشعر والشعراء ١٩٤٤م ٢٧٤
آراء المستشرقين فى الشعر الأندلسى ١٩٤٢م ٢٧٨
إعادة النظر فى قرار قياسية فعَّل للتكثير والمبالغة ١٩٤٥م ٢٨٢
اقتراح وضع قواعد جديدة يستعان بها فى اشتقاق الأفعال من الجامد
للضرورة ١٩٤٥م ٢٨٤
المعارضات فى الشعر العربى (١) فى العصر الجاهلى ١٩٤٥م ٢٨٦
المعارضات فى الشعر العربى (٢) فى صدر الإسلام ١٩٤٥م ٢٩١
المعارضات فى الشعر العربى (٣) فى العصر الأموى ١٩٤٥م ٢٩٥
المعارضات فى الشعر العربى (٤) فى العصر العباسى ١٩٤٥م ٣٠٢
المعارضات فى الشعر العربى (٥) عصر التراجع العباسى ١٩٤٦م ٣١١

الذين قتلتهم أشعارهم (١) تدليل الشعر والشعراء ١٩٤٦م ٣١٨
الذين قتلتهم أشعارهم (٢) ابن العشرين ١٩٤٦ م ٣٢٥
الذين قتلتهم أشعارهم (٣) وضاح اليمن ١٩٤٦م ٣٣٠
الذين قتلتهم أشعارهم (٤) الشاعر المغامر ١٩٤٦م ٣٣٦
الذين قتلتهم أشعارهم (٥) قتيل السفينة ١٩٤٦م ٣٤٢
الحكمة والأخلاق فى شعر شوقى ١٩٤٧م ٣٤٨
شرح نهج البردة ١٩٤٧م ٣٥٤
الهجرة بطولة وعزم وإيمان ١٩٤٧م ٣٥٨
الشعر الأندلسى ١٩٤٧م ٣٦٢
أعلام الإسلام : يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ١٩٤٨م ٣٦٨
عنترة شاعر الحرب والحب ١٩٤٨م ٣٧٢
أعلام الإسلام : صقر قريش : عبد الرحمن الداخل حاكم جبار
وشاعر رقيق ١٩٤٨م ٣٧٦
صديقى أحمد شوقى ١٩٤٨م ٣٨٠
أعلام الإسلام : طارق بن زياد ١٩٤٨م ٣٨٥
طيف حبيب : مصطفى لطفى المنفلوطى ١٩٤٨م ٣٨٨
الجملة الفعلية أساس التعبير فى اللغة العربية ١٩٤٩م ٣٩٢
أعلام الإسلام : العربى الذى هز إيوان كسرى
أسد قريش : سعد بن أبى وقاص ١٩٤٩م ٣٩٦
الموشح من تراثنا الأدبى والموسيقى ١٩٨٧م (عن نشر سابق) ٤٠٠
شعراء النهضة من دواوينهم ١٩٩١م (عن نشر سابق) ٤٠٢
التراث الشعرى والنثرى واللغوى للأستاذ على الجارم ٤٢٨
فهرس المحتويات ٤٣٢

رقم الإيداع ٢٦٨٥ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 0694 - 8

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

هذا الكتاب

... وكما أن أثر الأدب والشاعرية قد جَمَّل العبارات العلمية فى أسلوب الجارم ، لاحظت أن تخصصه الأول ، وهو علم النفس لم ينعزل عن طبيعته الأدبية حين يكتب فى موضع علمى أدبى : كما نرى فى أحد بحوثه المنشورة فى هذه المجموعة تحت عنوان : « المعارضات الشعرية » ؛ فإنه يمهد لهذا البحث بدراسة سيكولوجية عن المنافسة التى هى منشأ الشعور بالرغبة فى المعارضات . يقول صاحب الفصل الذى كتب فى كتاب علم النفس عن « الغرائز » : « غريزة المنافسة من أقوى الغرائز الحيوانية ، وهى فى الإنسان أبين منها فى الحيوان وأظهر أثرًا ، لأن الإدراك يزيدها قوة ، ويستحثها إلى البروز والظهور . وإذا كانت فى الحيوان غريزة عمياء ، تصدر عن دافع آلىّ ، ولا تتجه إلى غاية ، ولا تعمل إلا عملاً تسوقها إليه الفطرة من غير قصد ، فإنها فى الإنسان غريزة مبصرة متعمدة ، تعرف ما تأتى وما تذر ، وترمى إلى هدف منصوب ، وتركض لتناول القصب فى ميدان سباق الحياة » . وتظهر المنافسة فى أنواع الحيوان المنحط الإدراك فى التسابق إلى طلب الغذاء والاستئثار به ... هذا شىء مشاهد فى الحيوان لا مرية فيه ولاشك ... أما غريزة المنافسة فى الإنسان فإنها تلازمه ملازمة الظِّلّ ...

ويستمر عالم النفس الأديب إلى أن يصل إلى ربط غريزة المنافسة بغريزة المحاكاة ، وبغريزة الإحساس بالنقص ... حتى ينتقل إلى موضوعه الأدبى العلمى . وليس هذا إلا مثالاً واحدًا مما نجده فى بحوثه التى يحتضنها علم النفس .

دكتور محمد مهدى علام